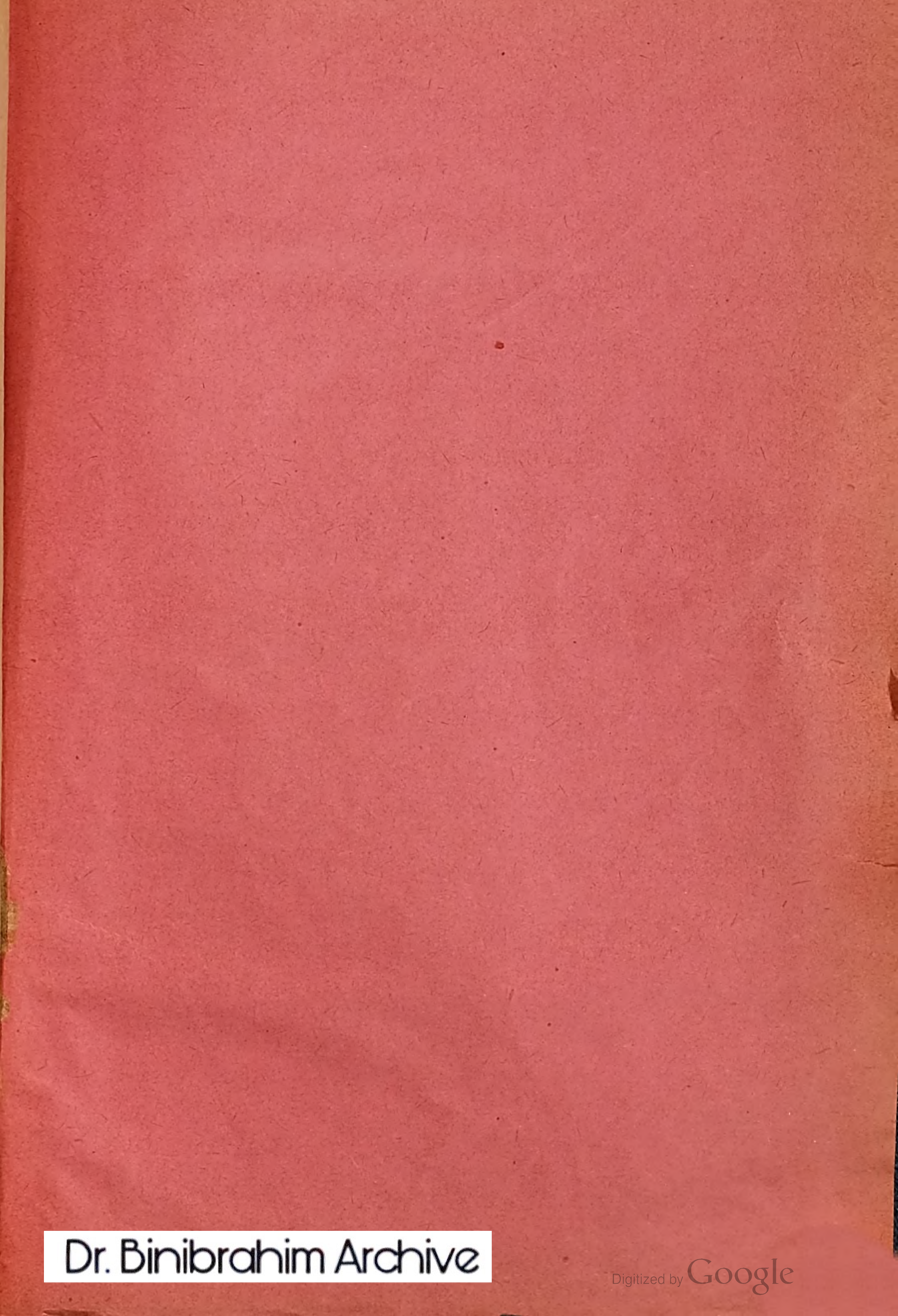
الجزء الثالث من كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار
والاقطار تأليف الفاضل المحقق والاستاذ
المدقق قدوة العلماء وصفوة الازكياء
وحيد عصره وفريد دهره
الشيخ محمد بيرم الخامس
التونسي نفعنا الله
به وبعلومه
آمين

﴿طبعة أولى﴾

﴿بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٢ هجرية﴾



الجزء الثالث من كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار تأليف الفاضل المحقق والاستاذ المدقق قدوة العلماء وصفوة الازكياء

وحيد عصره وفريد دهره

الشيخ محمد بيرم الخامس

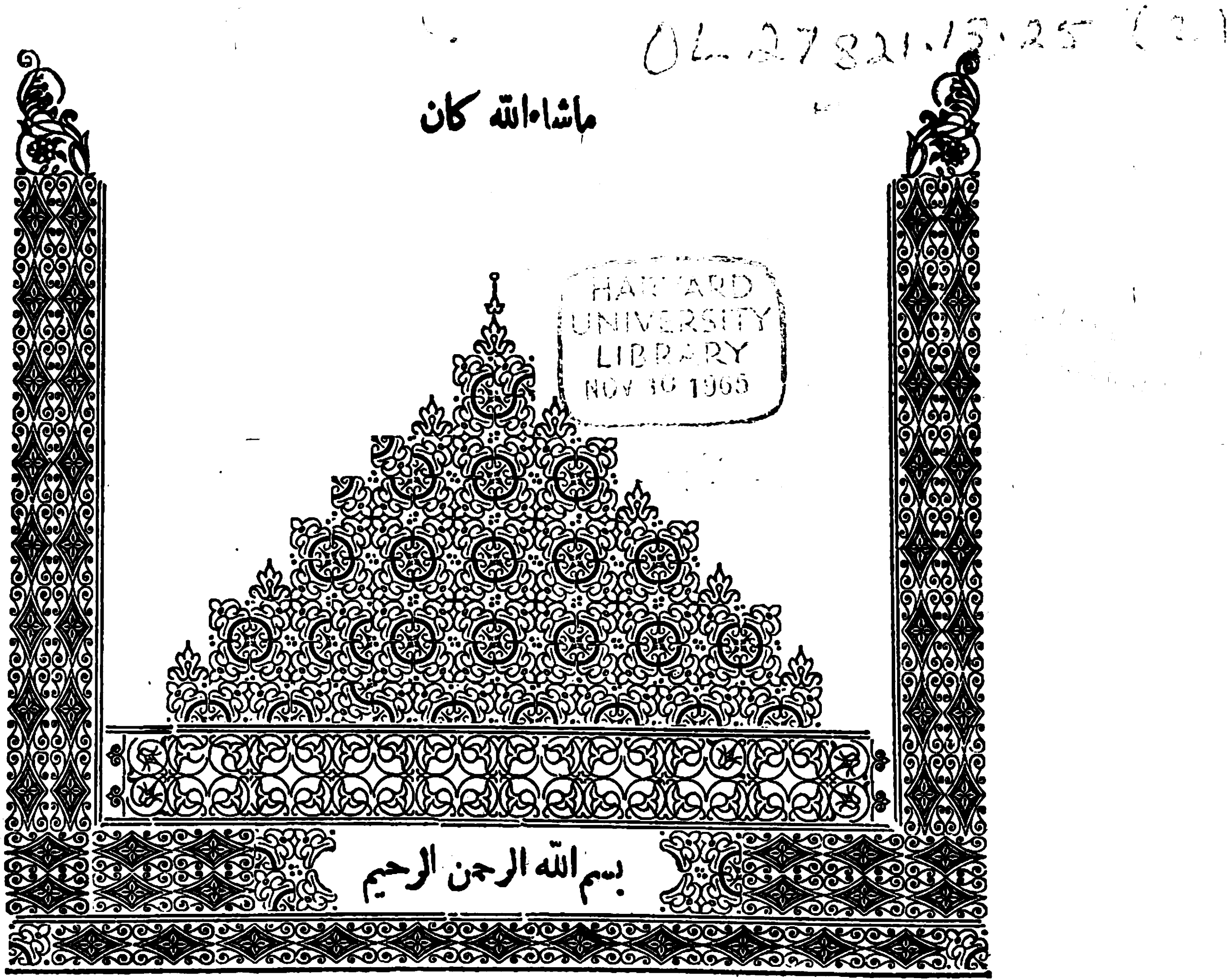
التونسي نفعنا الله

به وبعلومه

آمين

﴿طبعة أولى﴾

﴿بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٢ هجرية﴾



وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الثالث فى ايطاليا

فصل فى سفرى اليها ومارأيته بها لما تكاثر بى المرض العصبى فى صائفة سنة ١٢٩٢ ودامت معالجته على نحو مامر ذكره فى الباب الاول من المقصد وأشارت على الاطباء بالسفر الى أوربا عزمت على ذلك فى شوال سنة ١٢٩٢ الموافق الى أواخر نونبر الاعجمى واستأذنت الحكومة فكتبت لى على عادة المسافرين بطاقة الجواز بالاذن فى السفر من مرسى حلق الوادى وهى بطاقة عليها اشارة الحكومة وتكتب تارة بالفرانساوى وتارة بالعربى وذلك على حسب المكان المسافر اليه فان كان بلدة أفرنجية كتبت بالفرانساوى وان كانت اسلامية كتبت بالعربى وهذه العادة بتذاكر الجواز معمول بها فى أكثر الممالك وبعض الممالك يتركونها فلا يحتاج الداخل ولا الخارج لاذن وركبت من المرسى المذكورة فى التاسع عشر من شوال سنة ١٢٩٢ وكان معى خادمان أحدهما يتكلم باللسان الطليانى والفرانساوى والالمانى والعربى وصاحبنى فى هاته الجهة العالم النحرير المتبحر فى علمى المعقول والمنقول الشيخ سالم أبو حاجب أحد أفاضل مدرسى

جامع

جامع الزيتونة حيث كان له مأمورية في ايطاليا مع وزير الاستشارة أمير الامراء حسين في خصومة تتعلق باحد اتباع الحكومة التونسية المسمى بنسيم شمامة الذي كان مكلفا بقبض أموال الحكومة وشراء المهمات لها وخرج من القطر بدون تحرير الحساب معه كما مر في ترجمة الوزير مصطفى خزندار وذلك في حدود سنة ١٢٨٩ وبقي يتردد بين فرانسا وايطاليا الى ان مات في بلدة لفرنو من ايطاليا وطلبت الحكومة من ورثته تحرير الحساب وكاد أن يقع صلح بينهما ثم خرج الورثة كما مر كذلك في ترجمة الوزير المذكور ولذلك لزم الحكومة أن عينت أحد وزرائها وهو أمير الامراء حسين ومعه العالم الشيخ سالم لطلب الحساب وتوقيف التركة فذهبا الى هنالك وباشرا النازلة وطالت المدة فرجع الشيخ المشار اليه الى تونس لبعض مصالح ثم عاد الى مأموريته وكان من المنة الالهية التصاحب معه فركبنا باخرة البريد الطاليانى المسماة بفوربا ونزلنا في الطبقة الاولى وكان كراء الواحد فيها من تونس الى نابلي مائة وعشرين فرنكا وأما في الطبقة الثانية فثمانون فرنكا وأما في الثالثة فعشرون فرنكا لان الاولى والثانية كلاهما يعطى الاكل والفرش بخلاف الثالثة فانها للحمل فقط مع الاختلاف في المكان والفرش والاكل فكل بحسبه فأقلعنا من المرسى يوم الاربعاء بعد الزوال بخمس ساعات وكان في البحر شيء من الاضطراب فحصل لي شيء من الدوار واشتد الامر لما جاوزنا رأس غار الملح فاضطجعت في فراشي وأوفق الحالات للانسان هي الاضطجاع وهذا الدوار البحري من أشد الامراض لمن يصاب به وبعض من الناس لا يعتريه شيء منه وان لم يكن متعودا وقد كنت قبل الركوب استعملت باشارة الطبيب ثلاثة حقنات في الجلد من العلاج المسكن لكي لا يزيد على ألم البحر الالم العصبي ومن فضل الله لم يعترضني ذلك الالم مدة الطريق وبقيت الحال كذلك الى ان وصلنا الى جزيرة سردانيا اقرب مرسى كالاري فدخلت الباخرة في جون محاط بالجبال عن بعد فسكن البحر ونشطت وهو من غرائب مرض البحر اذ شدته تقتضي ان الانسان يبقى معه التعب وهو بخلاف ذلك لانه اذا انقطع الاضطراب يحصل النشاط الا قليلا ولما نشطت صعدت الى سطح الباخرة فرأيت الجبال محيطة بنا وهي جبال أكثرها صلد لا غابات بها ومنظرها اليبس بحسن وأغلبها خال عن العمران لان التمدن لم ينبسط في تلك الجزيرة ولم نزل سائرين في ذلك الجون نحو ثلاث ساعات وكانت الباخرة تسير عشرة أميال في الساعة الى ان أرسينا في مرسى كالاري التي هي تابعة لايطاليا وكان ذلك صبيحة يوم الخميس قبيل الزوال فاذا

بالمرسى مبنية بالرصيف لارسى السفن بحيث تستطيع أعظم سفينة ان تلصق بالبر مع
الامن من اضطراب البحر واللاصقة بالبر ينزل سلمها الى ذات البر وفى المرسى كثير من
السفن والبوابور لان موقعها متوسط فيأتيها البريد من جهات و يفرق على بوابور كل
تذهب الى جهة من الممالك المشرقية والمغربية ثم يحمل من الجزيرة فى السفن الملح
والغلال والاثمار الى كثير من الجهات ثم نزلنا من الباخرة فى زورق كراؤه فرنك واحد
والزوارق كثيرة محيط بالبوابور واصحابها سيئو الاخلاق مع المسافرين يغرونهم بالركوب
قبل المساومة فى الاجرة فاذا نزل طلبوا منه أضعاف القيمة و ربما سرقوا ما وجدوه معه ان
امكنهم وذلك ديدنهم فى كل المراسى لكنا ساومنا قبل الركوب ودخلنا البلد فاذا هى
بلد غير متمصرة واغلب طرقها ضيق وابنيتها على النحو الاوروباوى الآتى بيانه ولا
تزيد طبقات دورها على اربعة وهى بلدة متصاعدة فى الجبل وطرقها جميعا مبلطة
فالذى تمر فيه العجلات يكون محصبا وغيره محجر بحجارة غيره سواء ولذلك كان منظرها
والمشى بها متعبا وترى الحبال ممتدة بين شبابيك الديار من احدى الجهات الى ما
يقابلها لنشر الثياب المغسولة عليها وفرش الديار مثل الفرش الاوروباوية وباعلى
البلد بستان عمومى منتزه للعامة وتأتيه الموسيقى العسكرية لبسط العامة عشية
الاحد والاعياد وفيه ماء نابع حلو وبه اشجار صغيرة وبها آلات للسمع فى أوقاتها وفى البلد
منازل للمسافرين منها الحسن ومنها ما هو دونه وبها حوانيت وبطحاآت غير متسعة جدا
وبها قهاوى و يباع بحوانيتها جميع ما يوجد غالبا من الضروريات والحاجيات
والتحسينيات وفيها مستشفى ومدارس للتعليم فى مبادى الفنون وبها مطابع أيضا وفيها
صحف يومية نحو الاربعة وهواء البلد ردىء تكثر فيها الحميات فى الصيف لمجاورتها
السبخة وهاته السبخة يستخدم فيها أصحاب الجرائم الثقيلة المحكوم عليهم من محاكم
ايطاليا وفيها معمل كبير من البناء لذلك مجلوب له الماء فى قناة من البناء مجتازة
قرب شاطئ البحر ظاهرة للناظر وبسبب تلك السبخة فسد هواء كالارى حتى يقال ان
عدد أهلها كل عام فى نقصان وقد شرع فى مد طريق حديدية من هاته البلدة التى
موقعها فى الجنوب الغربى من الجزيرة التى هى مستطيلة من الجنوب الى الشمال
و ينتهى الطريق فى الشمالى الشرقى من الجزيرة غير انه لم يتم الى الآن ولا زال العمل
فيه ثم أهل البلد على قسمين (الاول) الاعيان والوافدون وكلاهم لباسهم مثل لباس
الاوروباويين (والثانى) بقية الاهالى ومثلهم بقية سكان البوادى والقرى فى الجزيرة

يلبسون

يلبسون جلود الغنم بصوفها فالصوف مما يلي البدن والجلد من أعلى وهيئة اللابس هي
صدرية ومنتان وسراويل نحو السراويل التونسية لكن يجعلون على الساق ألبسة
مربوطة والنعال خشنة ذات مسامير كبيرة وعلى رؤسهم عرارق من الصوف أو قلانس من
الصوف المنسوج طوال مدلاة على أكتافهم والنسوة يلبسن قريبا من نسوة أوربا
لكن على شكل غير متضر وفي أرجل أغلبهن قباقب من خشب ولغتهم طليانية والغالب
هو عدم التمدن والاكل رخيص هناك فالقهوة الثلاثة منا طلب صاحبها منا ستة صولدى
والفرنك به عشرون صولدى كل صولدى خمسة سانتيم ثم ركبنا باخرة أخرى وهي
التي توصلنا الى نابلي بعد ان أحسنا الى خدمة الطبقة التي كنا فيها وذلك من اللوازم
في البواخر وكذلك الاحسان لخادمي المطاعم والقهاوي ومقدار الاحسان نحو خمسة
في المائة مما يدفعه الدافع فان كان أقل نوزع في ذلك وان زاد شكر ونقلنا رحالنا الى
الثانية فاقلعت قرب الغروب وتوجهنا الى نابلي فلم تزل الباخرة سائرة والبحر ساكن
الى أن خرجنا من الجون والتفتت الباخرة متوجهة الى الشرق وأرخى الظلام سدوله
فتمنا في مضاجعنا الى الصباح فاستفقنا بكرة وحيث كان البحر في سكون كان يستطيع
الانسان أداء جميع ضرورياته والوضوء والصلاة على أكمل حال وبعد شروق الشمس
أول ما اكتشفنا قرب نابلي جزيرة اسكيا وبها جبل مرتفع وهي تحتوي على قرى كثيرة
ولها منظر جميل من بعد لارتفاع مبانيها وتزويقها من خارج ثم ظهر بركان نابلي
وهو جبل مرتفع متصاعد من قنته دخان ثم وصلنا الى مرسى نابلي والبلد في سفح الجبل
وهي أكبر مدن ايطاليا وكانت تخت الملك النابلطان وسكانها نحو أربعمائة ألف نسمة
وهي محيطة بجون في البحر على شكل هلال والمرسى في الوسط وهي مرسى صناعية
أكبر من مرسى كالاري غير أن السفن في وقت وصولنا اليها أقل من الاولى فتعرض لنا
عند ارساء الباخرة أحد المعارف في زورق لانه بلغه خبر قدومنا بسلك الاشارة من كالاري
فاصطحبنا جميعا ومررنا بوسط الكمرك ونظر المكلفون به رحالنا فلم يجدوا به شيأ يؤدى
الكمرك سوى شيء من النشوق وماء الزهر فاخذوا ماعليهما من الضريبة ثم ركبنا
بكروستين من الكراريس الموجودة في بطحاء الكمرك مهيآت لمن يريد الركوب
وهي كراريس نظيفة أغلبها يركب راكبين فقط من النوع الذي ينتح سقفه الى خلف
ومثلها موجود في أغلب الجهات الكثيرة العمران من البلاد وتجرها الخيل وأما عجلات
حمل الاثقال فتجرها الخيل والبغال والبقر وهكذا في غيرها من البلدان غير ان البقر

لاتستعمل فى الجر فى أعالى ايطاليا وفرانسا ثم نزلنا باحد منازل المسافرين بعد أن ردنا فيه بيوتا على نحو ما يليق بنا وهو منزل كبير ذو خمس طبقات له شبابيك تفتح على نهج واسع يسمى طريق البوسطة وله شبابيك على بطحاء واسعة بها فوارتان للماء العذب المجلوب من الجبل الموزع على البلد وعلى ديارها وسائر مساكنها وكان الكراء لاربعتنا فى اليوم للسكنى والأكل خمسة وعشرين فرنكا سواء أكلنا أم لا وما زاد على ذلك مما يطلبه الانسان يؤتى به اليه لكنه يحسب عليه بثمنه كالورق للكتابة والشمع وغير ذلك بحيث انه كلما يطلبه يجده وانما ينبغى للانسان أن يساوم مدير المنزل قبل الاتيان بالشئ المطلوب والا فانه يحمل عليه باسعار باهظة وأما الاشياء الضرورية فهى داخلة فى اجرة السكنى والاكل وهى ان يجد الانسان بيتا ذا فراش للنوم بغطائه ولوازمه وكراسى مكسوة بالحرير وخزنة وعليها مرآة وساعة وسائر الضروريات ومصباح وشمعة ومائدة لوضع الكتب وآلات الكتابة ومناديل للتنشيف من الماء عند الغسل وهكذا سائر الضروريات الا الابريق للاستراح فينبغى حمله الى جميع جهات أوربا اذ لا يوجد عندهم وليسوا يتعودون عليه وهو من العادات اللازمة للسيرة الاسلامية والنظافة كما انهم فى أوربا لا يغسلون أيديهم بعد الاكل أما قبله فمن آدابهم أن يغسل الانسان يديه ووجهه فى بيته ويأتى بيت الطعام بثياب نظيفة غير ان من أراد غسل فمه وأصابعه بعد الاكل فله أن يطلب من الخادم فى بيت الطعام أن يأتيه بما يغسل به فيأتيه بصحن فيه قدح من الزجاج أو الخزف وفيه كاس به ماء حار قليلا مخلوط بشئ من روائح الطيب فيتمضمض به ويمج الماء فى القدح ويدخل أصابعه فى الكاس ويمسح بها شفتيه ثم يتمسح فى منديل ثم ان بيت السكنى مفروش بالزرابى وعلى أبوابه أردية رفيعة وهو فى غاية النظافة وله خادم لتنظيف البيت وتهيئة الفرش وعند الاستيقاظ يدعو الساكن الخادم فيأتيه بالقهوة وما يتفق عليه من الاكل صباحا ثم ينظف الخادم البيت ويغير المناديل وأردية الفراش ان كان بها أدنى وسخ وعند الظهر أو قبله بساعة يضرب جرس للتهيئ للاكل ثم بعد خمسة عشرة دقيقة يضرب الجرس مرة اخرى لحضور الساكنين من بيوتهم الى بيت الطعام وهو بيت متسع فيه مائدة كبيرة أو أزيد يجلس عليها الحاضرون فوق كراسى ويفرق عليهم الاكل سواء والاغلب أن يكون أربعة أنواع أو خمسة من اللحوم والطيور والسمك ثم نوع من الجبن ثم فاكهة ثم ينصرفون ومن أراد الاكل فى بيته فله ذلك غير أنه يحسب عليه بزيادة فى الثمن أو يعطى أقل من ألوان المائدة

المائدة العامة وكذلك وقت العشاء وهو فى الاغلب بعد الفطور بسبع ساعات ولما كان المسافر يريد التفرج فالاولى أن لا يكترى المنزل الا للسكنى وأما الاكل فيجعل له رسوم خاص لكل أكلة ان حضر أكل والا فلا يحسب عليه شئ لكى لا يلزمه الحضور والاكل فى محل واحد أو انه يخسر ثمنين للاكل باعطاء ثمن الاكل فى منزل السكنى ثم فى المكان الذى يأكل به واذا خرج المسافر يقفل بيته و يعطى مفتاحه لصاحب الباب لكى يكون رحله فى أمن اذ يعترى السرقة فى البيوت أحيانا سيما فى نابلى ولا يطالب صاحب المنزل بما يسرق الا اذا كانت الاشياء المسروقة ضرورياً وضعها فى البيت كالصندوق وأما المال والمصوغ وشبهه فلا ولذلك ينبغى لمن له شئ من ذلك ان يحمله معه أو يضعه فى أحد البنوك لان وضعه عند صاحب المنزل مخطر وان أخذ منه حجة فى ذلك اذ يحتمل افلاسه فتذهب الامانة سدى ولذلك يكون الاوفق للمسافر أن يحمل معه من المال العين شيأ قليلا و بقية ماله يصرفه بتذاكر بانكات معتبرة كبنك فرانسا أو انكلترة و يحملها معه اينما ذهب لخفتها و يستريح ومهما أراد عين المال يصرف تذكرة من تلك التذاكر عند أى صراف أراد بل ربما ربح فيها اذ خصوص تذاكر البنك الفرانساوى والانكليزى يرغب فيها أزيد من المال العين ولذلك يؤخذ عليها نصف فى المائة زيادة عن قيمتها بخلاف تذاكر بنوك ايطاليا أو غيرها فانها الا تصرف فى غير مملكها وفى ذات مملكتها تعطى الصرف أقل من قيمتها فمثلا التذكرة المسمى بها مائة فرنك من بنك ايطاليا اذا أردت أن تدفع المال وتأخذها فانك تعطى مائة فرنك عينا وتأخذ مائة وثلاثة عشر ورقا وهاته الاوراق هى التى بها الرواج فى ايطاليا بحيث انها هى المعنية عند الاطلاق وفى ايطاليا عدة بنوك لها تذاكر من ذلك النوع فاما تذاكر بنك الدولة فانها تروج فى جميع ايطاليا سواء وأما تذاكر بنوك صيارفة أخر فلا تروج الا فى خصوص البلدان التى فيها البنك فمثلا تذاكر بنك نابلى لا تصرف فى رومة أو غيرها من مدن ايطاليا فضلا عن غيرها فينبغى لمن سافر أن ينتبه لهذا وقد أقمنا بنابلى ثمانية أيام وتفرجنا على أغلب جهاتها وغرائبها وأشهر طرقها الحسنة البهجة هو طريق توليدو وهو متسع عامر بيمناه وشماله بالقصور الشاهقة وبأسفلها الحوانيت للبضائع والتحف الانيقة ويقرب منه فى المنظر طريق البوسطه وطريق الدومو وثم طريق جديد يسمى فوريدو وهو أوسع من غيره وأنزه وعلى حافتيه الاشجار لكن القصور التى حوله لم يكمل انتظامها اذ ذاك وهو فى الجهة العليا من البلاد وبها عدة بطحاآت أشهرها وأكبرها التى أمام قصر

الملك ويحيط بها قهاوى ومحلات للاكل ومن المبانى الشهيرة التى رأيتها فيها قصر الملك الذى فى البلاد وهو قرب شاطئ البحر وأمامه من جهة البحر حصون وأسفله من تلك الجهة مسكن للعسكر وعلى سطحه بستان متسع ذو أشجار ونوابع مياه تطل عليه شبابيك القصر والقصر ذو أربعة طبقات والمعد منها لسكن الملك هى الطبقة الثانية وهو قصر ضخم متقن البناء والتحسين والتزويق يشتمل على كنيسة وعلى ملاهى خصوصى للعائلة الملكية ويشتمل أيضا على جميع الاثاث والادوات المحتاج اليها فى السكنى من فرش وأوانى طعام على أنواع حتى من الفضة بحيث انه منتظم كان الملك ساكن فيه والحال أنه لا يأتيه الا أحيانا فى بعض أوقات التنزه أو تفقد المملكة لان مقر الحكومة مدينة رومة لكن لما كانت نابلى سابقا قاعدة مملكة النابلطان وكانت ملوكها مستبدين أشادوا ما شادوا فى قصورهم وبقى التحفظ عليها على ما كانت عليه ولها خدمة ومكلفون حتى ان الملك اذا قدم الى هناك لا يستحق لجلب شئ معه سوى ملبوسه ويمكن له عقد الولائم الحافلة هناك كأحسن ما تصنعه الملوك وهكذا فى كل بلد كانت قاعدة الملك فى ايطاليا وباصق هذا القصر الملهى الكبير المسمى بصان كارلو وله منفذ من القصر الملوكى وهو من أكبر ملاهى أوروبا وأتقنها ضخامة وتزويقا ويحمل من المتفرجين نحو ألف وخمسمائة متفرج وهو ذو ست طبقات فمنها أربع طبقات كل واحدة تشتمل على احدى وثلاثين بيتا ومنها طبقتان كل واحدة تشتمل على ثمانية وعشرين بيتا وكل بيت تجلس به أربعة أنفس عدا بيت الملك التى فى صدر الطبقة الثانية مواجهة للملعب هذا عدا المحل العمومى فى الوسط الذى به مقاعد عددها ستمائة وثلاثون مقعدا وهذا الملهى لم يفتح اذ ذاك منذ سنتين اقتصادا من الحكومة لانه يلزمها فى كل ليلة القصة ان تعين على مصاريفه بألف وخمسمائة فرنك لان دخل المتفرجين لا يكفى مصاريفه ومما شاهدته أيضا قصر الملك الذى خارج البلد فى رأس الجبل ويسمى كابودى منتانى وهو قصر أصغر من السابق يحيط به بستان أنيق ولم يكن بالقصر فرش سوى بعض بيوته بها فرش عتيقة جدا للملوكهم الاقدمين موضوعة هناك للتفرج عليها وبقية البيوت بها آثار قديمة من السلاح وأدواته حتى كان منها بيت مملوء بصور أجساد آدميين متدرعين بأنواع شتى من الدروع على حسب اختلاف الزمان ومنها صور فرسان بخيلهم مدرعين ومنها صور بعض ملوكهم والدروع كانت حقيقية مستعملة حقيقة فى الحروب وبعضها به آثار الضرب والطعن

حتى

حتى بالرصاص من المكاحل وبقية بيوت القصر خاوية والجميع بناؤه أنيق ثمين وشاهدت أيضا أكبر كنائسها وهى كنيسة صان جينارو وهى ضخمة ذات أعمدة من المرمر ومن غريب ما فيها صورة صنم من رخام أبيض عليه ثوب كأنه صفيق بحيث يبدو ما تحته والحال انه نحت من ذلك الرخام وشاهدت أيضا أكبر مارستان لهم وهو ذو بيوت كبيرة كل واحدة بها نحو المائة فراش كل منها بعيد عن الآخر قدر فراشين وكل فراش لمريض واحد عرضه نحو المتر وطوله نحو المترين وربع وهو على سرير من خشب يحتوى على فراش وعليه ازار ووسادة وغطاء من القطن والمريض لابس لقميص وعلى رأسه قلنسوة من نوع القميص والكل من منسوج الكتان الابيض وكل بيت يحتوى على نوع واحد من نوع المرض أو متقارب النوع والكل بيت خدمة بالاجرة يوفون للمرضى بجميع لوازمهم واعطاء الدواء فى أوقاته حسب اشارة الطبيب وزيادة على ذلك كثيرا ما تأتى نسوة من الاعيان وغيرهم لخدمة المرضى والرأفة بهم حنانا منهم ورغبة فى عمل الخير وللمارستان عدة أطباء منهم من هو ذو وظيفة وله أجر معلوم ومنهم من يداوى مجانا ما رغبة فى الخير أو لاتمام تعلمه لفن الطب حتى يأخذ الشهادة ممن له الاجازة على قوانين لهم فى ذلك وللمارستان أيضا بيت أدوية ومواعين الجراحة والدواء وفيه قسم للرجال وآخر للنساء المرضى وهكذا كل مارستان غير ان بعضها يداوى مجانا وبعضها له أماكن لمن يريد التطبب من ذوى اليسار فيعطى مقدارا معينا يوميا والمستشفى يقوم بجميع ما يلزمه ويختارون التداوى فى المستشفيات لانها أتقن من مساكنهم سيما فى التحفظ على ما يتعلق بالدواء واداء الخدمة حقها مع مباشرة مشاهير الاطباء الذين يلزم لاتيانهم لمساكن المرضى مصاريف وافرة ومحلات هؤلاء المستأجرين فى المستشفيات أنق وأنظف وأبهى من المحلات العامة ويمكن لكل مريض أن يبقى فى بيت خاص به صغير ووافق فى الهواء بحيث ان جميع حركات المستشفيات وأوضاعها على مقتضى الحكمة الطبية ثم ان مصاريف المستشفيات على أنواع فمنها ما تقوم به الدولة ومنها ما يقوم به المجلس البلدى ومنها ما يقوم به لجنات من الاهالى وهذا فى كل جهات أوروبا سواء ويقبلون الصدقة ممن يريدها ولو من السواح وشاهدت فيها أيضا الدار التى بها الآثار العتيقة ومنها الاشياء التى استخرجت من بلدة بونباى التى يأتى خبرها وهاته الآثار لو أراد الكاتب استيفاء ما يلزم لها مجلدا ضخما اذ هى مشتملة على أنواع وأشكال شتى من أقطار مختلفة فمما جلب من مصر المومى وهى ذات انسان ميت مصبرة على

ما كانت عليه منذ عدة آلاف من السنين لم يتغير منها شئ سوى ان اللون اسود وجوفه
مثقوبة لاخراج جميع احشائه وبقية حاله على ما كان عليه وفى هاته الدار نحو أربعة
أجسام من ذلك النوع منها النساء ومنها الرجال وذواتهم لا تختلف عن ذوات البشر
الموجود الآن لكن ليس فيهم ذو جسامة ولعل ذلك بسبب ان الميت المصبر انما يكون
من برقومه ومثل هؤلاء لا يموتون غالبا الا بالامراض والامراض تنحف الاجسام فلذلك
كانت أجسام الموميات نحافا والاقان التصبير يحفظ الجسم على ما هو عليه ثم ان ذلك
النوع من التصبير قد جهل ومع كثرة البحث عنه من حكماء الاعصار المتأخرة لم يطلع عليه
فهو من العلوم التى فاز بها المتقدمون ودثرت ومن غرائب ما فى هاته الدار أيضا قطع من
ثياب منسوج من مادة حجرية وهذا المعدن يسمى امينانت وهو الآن معروف وموجود
لكن كيفية تمديده حتى يصير مغزولا وينسج منه مجهولة الآن وقد كان فى الاعصر
السالفة معلوما ومن فوائد تلك الثياب انها لا تحرق واذا توسخت فغسلها بالنار وهى
ثياب لينة تنطوى غير انها ثخينة ومن غرائبها أيضا ما وجد من آثار بونباى وهى أشياء
كثيرة من المأكولات وغيرها فرأيت فيها التمر والقمح والزيتون وغير ذلك مما مضى عليه
ألفا سنة أو أزيد لم يتغير منه شئ سوى اسوداد فى اللون وقالوا ان طعمه أيضا لم يتغير
وسمعت انهم زرعوا حبوبا مما وجدوه كالقمح ونبت وأثمر مثل الجديد مما يدل على أن
النوع واحد لم يتغير حاله مع طول الزمن وكل هاته الحبوب موضوعة على ترتيب حسن
الى غير ذلك من الآثار القديمة الموضوعة المنضمة فى أماكن محفوظة نظيفة وعليها
قيمون وتفتح يوميا لمن يريد التفرج بأجر زهيد وتسمى هاته الدار موزاى ناسيونال ومما
شاهدته فى نابلى دار الفنون المسماة أنيفرسيتا دى نابلى وهى يعلم بها فنون الطب
والاحكام والسياسة والتجارة والكيمياء والصيدلة والبناء والفلك والجبر والمقابلة
والهندسة والابعاد وجر الاثقال ولكل فن قسم ومدرسون وبها محل لاجسام
الحيوانات فيه أغلب ما يعرف منها من الانسان الى الذباب من الحشرات حتى الحيوانات
البحرية لكنها كلها ميتة مجعولة بوا أى منزوعة اللحم وغيره مع التحفظ على هيئة الجلد
ويحشا جلدها بموادّ نباتية ويرسم على هيئة أصل الحيوان حيا وتجعل عيناه من زجاج
فيراه الناظر كانه حى وفيها من تلك الانواع ما لا يكاد يحصى ويوجد كتاب مطبوع
فى البلد مشتمل على تلك الحيوانات مع تراجمها وأغرب ما رأيته من حيواناتها ولم أره
فى غيرها عصفور فى حجم النحلة ملون الريش وذيله ذو ريشتين فقط طويلتين كل منهما

فى

فى طول ما يقرب من الشبر لها الوان جميلة وكذلك رأيت فيها تنين البحر أعظم جسما من
الفيل لكنه أقصر منه لان جملة هيئته تقرب من هيئة السلحفاة ورأسه أضخم من
رأس الفيل وعيناه واسعتان جدا وفمه مفتوح وجلده منكمش وبجملته له منظر بشع
منفر ويوجد فى هذا المحل جسم الانسان على جميع اطواره منذ يتكون مضغة الى ان
يصير شيخا فانيا ثم يوجد تشريح اعضائه منفردة سواء كانت ظاهرية أو باطنية ذكورية
أو أنوثية وجملة جسمه من الجاميع الاصلية كل منها منفرد عن الآخر فتجد جسما ليس
فيه الا العظم فقط على نحو خلقته ثم آخر به العظم والعروق فقط وهكذا غير ان بعض
هاته الاجسام هو حقيقى وبعضها صورى من الشمع لكنه متقن التصوير واللون حتى
كانه هو الاصل لان اللحم بدون جلد لم يمكن لهم تصبيره فى الهواء وكذلك توجد أجسام
المولودين على خلاف المعتاد ككون وجهه فى بطنه وآخر ذو ثلاثة رؤس الى غير ذلك
وكلها مصبرة فى زجاجات كبيرة مملوءة بمياه روحية لكى تقى الجسم من التعفن وفى هذا
المحل يتعلم فن التشريح الذى هو جزء من الطب وفى هذا المحل أيضا خزنة كتب عظيمة
بها مائة وثلاثون ألف مجلد كلها طبع الا النادر بخط اليد وبها كتب عربية
كثيرة فمما رأيته فيها مصحف كريم مطبوع بالطبع الحجرى ثم كتاب يسمى الكمال
المسيحى للراهب الفونس رودريكوس موضوعه تعاليم ديانتهم وهو فى مجلدين
ضخمين ثم مجلد آخر يشتمل على توراتهم وانجيلهم مكتوب بلغات ستة
وبخطوطها واللغات هى العربية والعبرانية واليونانية واللاتينية وجمارتيانو والسريانية
بنوعيها ويوجد بهاته الخزنة الكتبية كورتان محيط دائرة كل منهما نحو ثلاثة ميترو
احديهما صورة الفلك وأخرى صورة الارض مرسوم بهما خرطات متقنة مكتوب
عليهما بالخط العربى الثلثى الجميل قيل انهما من صنائع علماء الاندلس وبقرب نابلى
على مسير نحو عشرين دقيقة فى الرتل بلدة بنباى وهاته البلدة كانت منذ الفين سنة مصرا
متمصرة وكان أهلها مولعون بالانكباب على الشهوات وقساوة القلب حتى ان من
ألعابهم فى الملاهى والمراسح أن يخرجوا الحيوانات المفترسة ويلقون اليها بالناس الذين
يريدون عقابهم فتخطفهم الحيوانات وتمزق أجسامهم شر تمزيق والمتفرجون محدقون
فى البيوت المرتفعة المحصنة من وصول تلك الحيوانات اليهم وهم يضحكون فرحين ولم
يكن ذلك مقصورا على رجالهم بل حتى النساء اللاتى هن أرق طباعا كن يتهورن
وينبسطن من مثل تلك المناظر وتمادى تمرد أهل تلك البلد على جورهم وقهرهم فأرسل

الله عليهم هيجان جبل الفز وفيو الذى هو بركانى وهو بقربهم على نحو ثلاثة أميال فزلزلت بهم الارض وهم على حين غفلة زلزالا شديدا وهرعوا للفرار الى الفضاء خارج البلد فأدركهم سيل العرم من النار التى قذفها الجبل فاحمر الافق بعدان أظلم واحلولك وطاف عليهم طائف من بحر النار فأهلكها وكل من فيها فى بضع دقائق وتراكمت عليها المادة السيالة النارية حتى صار مكان البلد وما حولها جبلا وامتد الى البحر وسبحان الملك القهار وتمادى عليها ذلك الحال وتنوسى أمرها الان الواقعة وقعت عليها قبل التاريخ المسيحى بقليل وصار سطح أرضها بطول الزمان صالحا للزرع والنبات ففى عشرة الثمانين والمائتين وألف هجرية كان أحد الزراعين هنالك يحرث فنشب محراثه فى عروة احدى الاوانى التى كانت فى البلاد فبحث عليها فتراءى له ماظنه كنزا وتبين انه كنز رفيع وهو البلاد الغابرة فعنيت دولة ايطاليا مقدارا من المال سنويا وكلفت مهندسين بالكشف عن تلك البلاد مع التحفظ على هيئة بنائها وجميع ماوجد بها ولا زال العمل مستمرا الى الآن وانما كان السير بطيئا فى العمل لان المادة النارية تحجرت وصارت صلبة مع الاحتراس من افساد الموجود وتعسر الفرق أولا بين ما كان من البناء وبين ما التصق به من تلك المادة فأخرجوا من البلاد كلما وجد بها اذما كشف عليه وجد كأنه على حالة أصله فأرباب الصناعات والمحلات على الهيئة التى أدركهم عليها الغرق والحرق والردم معا وكل الاجسام التى وجدت بقيت على حالها عند مس الهواء لها سوى الاجسام الحيوانية فانها عند مس الهواء لها تضمحل فجعل العاملون حيلة لابقاء صور الاجسام بان جعلوا كلما تقطموا بمس آلة الحفر لجسم حيوانى أتوا بالجص وحلوه فى الماء ورفعوا اذذاك آلة الحفر عن المحل الذى لمسته وأبقوا الهواء ماسا للجرم الحيوانى من ثقب آلة الحفر فينفش الجسم فى الهواء ويبقى محله فى المادة النارية خاويا فيصب فيه الجص وعند جفافه وانعقاده تكسر المادة النارية عنه وتخرج صورة الجسم على ما كان عليه ورأيت فى بعضها بقية من فقرات الظهر وعظام الاصابع لم تبل ومما يدل على جراءة أولئك الاقوام فى ذلك العصر وتجبرهم ان وجدت بعض جثثهم على حالة الوقاع حتى كان منها جثمان رجل وامرأة متداخلى الارجل لكن الرجل لما أدركه الموت انزعج على قفاه وهو ناعظ وبقيت المرأة على حالتها منكبة على وجهها ومقعية على ركبتيها فانظر الى ذلك التجبر مع سابقية الزلزال ولم يؤثر فى شهوتهم حتى أدركهم الهلاك على شهوتهم وأما أبنية تلك البلدة فالظاهر ان أغلبها انهدم بالزلزال وما بقى منها قائما منه المتصدع والمنشق

ومنها

ومنها القائم على أصله وهيئة بنائهم يجعلون الحائط ضيقا نحو ذراع فما دون والسقوف من بناء على هيئة قباب نحو نصف كورة أو أقل تكورا وينظمون تقابل الابواب فاذا دخلت بابا الى دار من الطريق تجد سقيفة مربعة ثم بابا الى وسط الدار وفيه أربعة أبواب الى كل بيت واحدى البيوت وراءها جنينة وبركة ماء واسرة النوم من بناء كالدكاكين وجهة الوسادة بناء مرتفع يسيرا على سطح السرير ولا تختلف دور الاغنياء عن غيرهم الا بالكبر والصغر ولكل بيت طواقي الى وسط الدار وكل الطواقي والابواب متقابلة والحمام الذى رأيته فى البلاد هو على نحو الحمامات المعروفة الآن فى البلاد الاسلامية وفيه تصاوير على الجدران بالالوان مثل الحمامات بتونس والمغرب ورأيت محل الحكومة وتحته السجن وعند مجلس الحاكم عند رجليه طاقة يطل منها على المسجونين أسفله والسجن مظلم لا يتخلله الهواء ولا الضوء الا من تلك الطاقة ورأيت الملهى فاذا هو على نحو الملاهى الاروباوية غير ان مرسح اللعب هو وسط الدائرة وهو أسفل مكان المتفرجين والطرق كلها مبلطة بالحجارة الصلبة المنحوتة ومنقسمة على ثلاثة انحاء فوسط الطريق منخفض عن جانبيه لمرور العجلات ومفروض لها على جانبيه سكة لمرور ذات العجلة فيها وعن اليمين والشمال محل مرور الماشين وجميع عرض الطريق نحو ثلاثة ميتر وفى محل مرور العجلات يقسم وسط الطريق بحجارة منحوتة مرتفعة على سطح الطريق بحيث تراها نابتة على طول الطريق وجميع الطرق مستقيمة لا اعوجاج فيها وتتلاقى على زوايا حادة غير ان كل طريق لما كانت لا تمر فيها الا عجلة واحدة حسبما هو مفروض للعجلات فيلزم بالضرورة ان تكون كل طريق لا تمر فيها العجلة الا لجهة واحدة كى لا تتلاقى وفى محل الادارة لكشف تلك البلاد محل لوضع الاشياء المستخرجة ثم تنقل من هناك الى نابلى وتوضع فى محل الآثار القديمة كامر والمادة النارية المتصلبة يصنع منها تحف كثيرة فى نابلى وفيها سوق نافقة وجميع الاماكن المعدة للتفرج اما أن يدخلها الانسان بأجر قليل أو تكون له تذكرة الدخول من الدولة والحصول عليها سهل بواسطة أحد الاعيان أو نواب الدول وقد أعطانا تذاكر الدخول قنسل الترك وقد اجتمعت فى نابلى بأكبر حكمائها وهما توماسى وكنتانى وكان الثانى يعظم الاول جدا لكبر سنه حيث أنه بلغ نحو الثمانين ولمشيخته عليه وكانت أجرة كل منهما فى كل زيارة ستون فرنكا وبقيت فى نابلى ثمانية أيام وكان المسافر فيها يقدر أن يقيم كل يوم متوسط المعيشة بأربعة فرنك يوميا للاكل ويقدر أن يأكل فى المحلات السافلة بنصف فرنك مأكلا كله

في المحلات العالية بعشرة فرنك في الاكلة الواحدة وقد دعاني هناك أحد أعيان البلدة
العامرة في داره حيث كان حبيبا الى مصاحبنا من أهل البلد فرأيت كيفية مسامرتهم
ورقصهم وفي آخر يوم من اقامتي بها اعلمت بان الابرة المسماة بالبوصلة اضطربت
علامة على الزلزال ثم ركبنا الرتل بقصد بلد رومة وكان ذلك صباحا ولما وصلنا الى قرية
كزرتا التي هي قريبة بلي مسير نحو ساعتين في الرتل نزلنا هناك وتغدينا في احدى منازل
المسافرين ولما صناديق حوائجنا فانها ذهبت مع ذلك الرتل الى رومة وتنتظرنا في
الكمرك في محطة الرتل الى ان نقدم الى هناك ثم ذهبنا الى قصر الملك في بستانه المسمى
بقصر كازرتا فاذا هو اعظم واتقن قصر رأيته من جهة التأنق في مواد بنائه المتخذة
من الاشياء الخالقية كالمرمر والرخام والحجارة الضخمة المنحوتة وان كان غيره اشد تأنقا
من جهة صناعات النقش والتذهيب والتزويق وهو مربع الشكل كل جهة منه في
طول مائتين ميترو وامام الباب بطحاء عظيمة على جانبيها مساكن للعساكر فاذا دخلت
من الباب تجد القصر منقسما الى اربعة اقسام وكل قسم في زاوية يشتمل على بطحاء
وله مطالع الى القصر والمطلع الكبير المعد للوقت الرسمي يشتمل على مائة واحدى عشرة
درجة من المرمر المورد اللون كل واحدة في قطعة واحدة الا قليلا منها في قطعتين طول
كل درجة ثلاثون قدما وعرضها قدمان وارتفاعها ستة اصابع ومبدأ الدرج منفرد
فاذا انتهت الى نصفها رجعت الى قسمين يمينا وشمالا فينتهيان الى ايوان عظيم مرفوع
سقفه على ستة عشرة اسطوانة من المرمر المزرزر كل في قطعة واحدة ارتفاع الواحدة نحو
عشرة أذرع ومحيطها لا يستطيع الانسان الكامل الاحاطة به بذراعيه ومنه يدخل الى
البيوت الضخام المختلفة انواع السقوف وكسوة الحيطان والارض بانواع من المرمر أو
الطلي أو الموزايكو أي القطع الصغيرة من المرمر كل قطعة نحو الانملة من لون مرصفة على
أشكال بديعة أو من المنسوجات الصوفية أو الحريرية من المصانع الشهيرة في العالم
ويحتوي القصر على كنيسة وهو ذو ثلاث طبقات وقد تم منه بالبناء والادوات داخلا
وخارجا ثلثه والثلثان لم يتم منهما الا بناء الحيطان والسقوف وبقيا ناقصي الادوات
وليس في القصر شيء من الفرش ويحيط به بستان طوله ثلاثة اميال وعرضه قريب منها وفي
منتهاه جبل منحدرة منه عين ماء عظيمة مجعولة على نحو شلالة لانحدارها تهادى واذا
قابله الداخل من باب البستان جهة القصر ظهر له من بعد كأنه منارة متصاعدة في الجو من
الزجاج الابيض ثم ينشأ من ذلك الماء نهر وبحيرات بها كثير من الطيور المائية وأنواع
السمك

السمك ويحتوى البستان على مماشى وغياض منقنة ذات أنوار وأزهار كما يحتوى على آجام وغابات وحيوانات للصيد ثم ركبنا قرب الغروب من هناك الرتل وسرنا نحو احدى عشرة ساعة وليس هناك من العمران مثل ما يأتى خبره بل أكثر الاراضى معطلة والجبال لا منظر جميل بها وانما توجد القرى وما حولها معمورا نسبيا وكانت القرى تبعد عن بعضها فى أكثر الاحوال سير نصف ساعة فى الرتل فوصلنا بلدرومة التى هى تخت المملكة بعد نصف الليل وفتشوا فى الكمرك رحلنا أيضا مع انا قادمون من احدى بلدانهم وذلك لان لكل بلد اداء على ما يدخل اليها لمصالحها الخاصة زيادة على ما تأخذه الدولة من الكمرك العمومى ونزلنا فى احدى منازل المسافرين وأخذنا اليه صناديقنا التى وجدناها فى الكمرك غير انا وجدناها سرق منها برنس ووقع الخلاف بين مستخدمى المحطات فيمن سرقه فجماعة رومة يتهمون جماعة نابلى وهم يتهمون الآخرين والحاصل ان البرنس ضاع وسببه هو خروج طرف منه عن غطاء الصندوق فامكن للسارق جذبه ثم أقمنا برومة ستة أيام واجتمعت بأشهر أطبائها وهو الحكيم باشلى الذى هو أحد اعضاء مجالس النواب واجمال صفة هاته البلدة انها بلدة وسيعة سكانها نحو ثلاثمائة الف نسمة ولهم حضارة على أهالى نابلى وطرقها كلها مبلطة نظيفة أما الطرق الخارجة عن البلد فهى وان كانت صناعية غير انها بها الطين بكثرة وان لم يعطل العجلات وأحسن ما يقصد بالتفرج عليه فى رومة هو كنيستها الكبرى المسماة بصان باولو التى هى أشهر ما فى العالم فى ارتفاع قبتها وضخامة بنائها وهى مستطيلة الشكل ذات قباب كثيرة ووسطاها هى أعلاها وحيطانها مكسوة بقطع من المرمر منه الخالقى ومنه الصناعى كل قطعة فى طول نحو عشرة أذرع وعرض نحو خمسة أذرع وبعض الحيطان مكسو بقطع من الموزايكو متقنة التصوير والقباب كلها مكسوة بذلك أيضا والقباب مرفوعة على اسطوانات من المرمر الخالقى وبعضها صناعى وليست مستوية السمك وبعضها فى قطعتين أو ثلاثة ومحيط كل واحدة من الخالقية أربعة عشر شبرا وقواعد القباب مبنية بناء ضخما جدا بحيث ان هاته الكنيسة قد أفردت بتأليف خاص من احد حذاقهم لما اشتملت عليه من اتقان البناء وضخامته وبلصقها قصر البابا ويسمى الفاتيكان وهو أكبر القصور الملكية يحتوى على اثنى عشر الف بيت وبه خزانة كتب رفيعة هى احسن خزائن ايطاليا وبها كتب كثيرة بالخط منها العتيق ومنها نسخة من الانجيل باللغة العبرية مكتوبة قبل البعثة بنحو مائتين سنة وفيها

نص الآية القرآنية حكاية لقول عيسى عليه السلام وهي قوله تعالى ومبشرا برسول
يأتي من بعدي اسمه أحمد وقد اطلع على تلك النسخة أحد الانكليزيين في هذا القصر
ورويت ذلك عن ثقة روى عنه وذلك القصر فيه من غرائب المصنوعات والذخائر الثمينة
شيء كثير حيث كانت تجبى الى البابا جميع النصارى الكاتوليك وملوكهم من ممالكهم
تقربا اليه لملكه الروحاني زيادة عن الملك الجسماني الذي كان له في مملكة رومة وقد
زال ذلك باتحاد ايطاليا وآخر بابا كان جامعا بين الملكين هو بيو التاسع وهو الموجود
حين مررنا على رومة لكنه منذ افتك منه الملك الحسي بقي منعكفا في قصره وله التصرف
في الديانة فقط على سائر الكاتوليك في جميع الممالك سواء وأبقت له دولة ايطاليا جميع
ما في قصره وما في الكنيسة من الذخائر واستولت على كل ما عدا ذلك وبعد أن تفرجنا في
الكنيسة الكبرى سألناه هل يمكن التفرج في قصر البابا فأجابنا بان ذلك اليوم لا يتيسر
بل نعود بعد أيام وكان ذلك بعد استئذان البابا ومن غد اجتمعنا بالمطران دره وفي الذي
هو من نصارى الشام وله دير في أعالي رومة ومعه كثير من نصارى الشام المتقسسين
وهو ذو أخلاق لطيفة فصيح بالعربية وكذلك من حوله وسبب الاجتماع به انه ساكن
بحذو كنيسة متقنة الشكل والبناء مما يقصد بالتفرج عليه فحصلت المعرفة معه من
هنالك وكان مما ذكر لنا ان البابا يريد الاجتماع بنا عند الدخول الى قصره وانه كلفه
بالحضور ليكون ترجمانا عنه فاعتذرنا اليه بأننا على سفر ولا يتيسر التأخير لذلك فلم
ندخل القصر ولا اجتمعنا بصاحبه اذ لا ملجئ الى تعظيمه مع ان الداخل عليه يلزمه
تعظيمه كتعظيم الملوك بل ملوكهم يؤدون اليه مزيد التعظيم كأنه هو ملكهم ولا
داعي لذلك الأمر ديني وديانتنا الاسلامية تمنع التعظيم الذي يكون مسببا عن ذلك
واعلم انه منذ استولت دولة الصاردو على جميع ممالك ايطاليا واجرت الحرية حتى في
الديانات فالداخل للكنائس لا يلزمه تعظيم شعائرها كما كان من قبل بل لا يفعل
شيأ يخالف ديانته فكانه يتفرج في قصر من القصور كما انه ليس له أن يفعل شيأ من
الاهانات وحيث ان المسلم يدخل اليهم بامان فليس له التعرض لاذايتهم كما انه ليس له
خيانتهم ثم ان أمام كل من قصر البابا والكنيسة الكبرى بطحاء عظيمة وسيعة جدا وبها
عدة فوارات واشجار وفوانيس وهكذا كل بلاد تشعل بالفوانيس ليلا ويشق بلد رومة
نهر يحمل القوارب واذا طمى ربما أضر بالمجاورين وهو آت من جهة الشمال
ذاهب جهة الجنوب وخارج البلدة الآن الكنيسة القديمة وهي الآن خراب وانما

يوجد

يوجد منها أساسها والطلال من جدرانها وقد علت الارض عليها كثيرا فكشف عنها وبقيت عبرة للناظرين وهي أوسع من الكنيسة الموجودة الآن الكبرى كما وجد بقربها ما هي قديم مثلها في الخراب على نحو ما بقي في صفة ماهي بونباي وقيل أنه دار الندوة اذذاك وهو كبير جدا وفي رومة أيضا منزه عمومي في الجبل ذو مماشي وحدائق وفورات في أعلى الجبل وهو نزه أما غير ما ذكر فليس في رومة معامل أو أماكن تقصد للتفرج سوى ما هو خارجها من آثار بنا آت الرومان في القديم وفيها ملاهي كثيرة متقنة اللعب لشهرة الطليانيين بذلك على غيرهم ودور الاهالي غالبا ليست بتقنة النظافة وأسعارها في السكنى والمأكل وغيرهما غالية بالنسبة لبقية ايطاليا وهواء رومة وخم بسبب أن المرج التي قربها يركد فيها الماء لانخفاضها عما يحول بينها وبين البحر كما ان الكنائس بها كثيرة ولكل جرس فاذا دق جرس الكنيسة الكبرى دقت الاجراس من جميع الجهات وصار لها دوي يقلق الساكن ويقرب من ذلك نابلي أيضا ثم انا قدمنا الى مجلس النواب الذي كان اذذاك مفتوحا وهو يشتمل على خمسمائة عضو فاذاهم أناس يتدبرون في أمرهم ويتشاورون فيه بغاية الاطلاق وصادفنا في حضورنا البحث في نازلة مالية وهي أن وزير المال عرض على المجلس أن دخل الدولة غير واف بمصاريفها والتعديل ذلك تلزم الزيادة في الدخل وقد رأت الدولة ان الانسب في الزيادة هو زيادة الضريبة على السلاح فوقع نزاع في أصل الزيادة وكان أشد المضادين نواب جزيرة سيسيليا الى أن قال أحدهم انك أيها الوزير لا تفكر الا في الزيادة في الدخل بوضع الضرائب على السكان الذين أفقرتهم لكي تأخذ أنت المرتبات الوافرة من دمائنا وكذا اذا لم نقل بصرفك الاموال في شهواتك ومخفياتك فنهره رئيس المجلس وألزمه الادب في الكلام فعاد الى كلامه وقال نعم يأخذون خفية ويحملوننا ما لا نطيق في اغراضهم وشهواتهم فاسكته الرئيس وأطال عليه اللوم والنكير بعبارات شديدة حتى وسمه بالوحشية وأنه يضطر الى اسكاته أو اخراجه من المجلس ان لم يلتزم آداب البحث فضج حزب المتعرض وقالوا اليس لكم منعنا من الدفاع عن حقوقنا وما أتينا الى هنا الا لحفظ حقوق الامة من التلاعب بها فاجابهم الرئيس بان الحقوق يتوصل اليها مع سلوك الادب فانقادوا اليه وطال النزاع في النازلة وأبقيت للمفاوضة يوما آخر وكان مكاتبو الصحف جالسين يحصون جميع ما يقال وما يقع حتى كتبوا نفس حضورنا الا انا كنا بلباسنا التونسي وذلك أوجب التفات الانظار الينا في أي مكان قصدناه حتى ان بعض البلدان

التي ليس لاهالها تهذيب تام كان يزدحم علينا في الطريق العوام الى أن يوقفونا بازدحامهم وأكثر ذلك في أهالي نابلي الى أن التزمت فيها أن لا اخرج في الطريق الا راكبا في عجلة وذلك لعدم تعودهم على رؤية مثل لباسنا وصفة هيئة مجلس النواب

هو بيت كبير جدا عيل الى الطول أكثر من التربيع وسقفه قبة مرتفعة شاهقة مزوق في جدرانه وسقفه وأرضه وفي وسط صدره عرضا سدة ارتفاعها نحو متر وعلى الارض وفوقها كرسي وامامه مائدة ويصعد الى ذلك المحل بدرج يمينا وشمالا وهذا محل جلوس الرئيس وحوله كتبة وكراسيهم وموائدهم على الارض وبقربهم في وسط البيت كراسي الوزراء وفي وسط البيت كراسي أربعة كتاب مخصوصين بمعرفة كتابة سريعة يتناوبون اثنين بعد اثنين في كتابة كل ما يلفظ به متكلم في المجلس وبقرب الرئيس منبر مرتفع قليلا يصعده خطباؤهم على التناوب بعد الاذن لهم من الرئيس يتكلمون في مصالحهم ثم كراسي منصوبة صفوفا صفا وراء صف على نحو دائرة مستطيلة ينتهي طرفاها حول الرئيس فالصف الاول كراسيه على الارض والصف الذي وراءه كراسيه على سدة من خشب أعلى من الذي امامه بدرجة من خشب ثم الذي وراءه أعلى منه وهكذا الى نهاية الصفوف والدرج التي يصعد منها الى الكراسي مقسمة لتلك الدائرة وكل قسم من الكراسي امامه مائدة مستطيلة وفيها لكل كرسي محبرة ودواة وأقلام لما يحتاجه صاحب الكرسي وكل كرسي عليه عدد مخصوص مرسوم عليه بلون مخالف للون الكرسي وفي أعلى البيت محيطا به من جهاته الا الجهة التي بها الرئيس رواقات يجلس بها المتفرجون ولصاحب الملك بيت بازاء محل المتفرجين يأتيه اذا أراد كما له كرسي في المجلس واما وظيفة المجلس فسيأتي الكلام عليها ثم رحلنا من رومة وقصدنا ليفورنو راكبين الرتل فاذا بقرب رومة آجام راكدة فيها المياه وفيها من البقر شيء كثير مسرح هنالك للاهالي بدون حراس مخصوصين لكل أحد بل على المكان قيمون يؤتى اليهم بالبقر ويستودع هنالك الى وقت احتياج أصحابه ومنه ما لا مالك له فيتناسل هنالك وتبيع منه الدولة لمن أراد الشراء ومررنا في سيرنا على مرسى بيشي تافيكيا التي هي أقرب مرسى طليانية الى رومة قاعدة المملكة وفي آمال مهندسيهم ان يفتحوا خليجا من تلك الجهات من البحر ليصل الى حدود بلد رومة لان الارض هنالك منخفضة وبه ينصلح الهواء من تعفن المروج التي يركد فيها الماء واستمر الرتل سائرا بقرب الشاطئ الى ان وصلنا الى ليفورنو في الساعة الثالثة قبل نصف الليل بعد مسير احدى عشرة ساعة وقد توقف الرتل في

المسير

المسير عندما وصلنا الى جسر على أحد الانهر حيث ان فيضان النهر هدم الجسر فنزلنا من الرتل وعبرنا النهر مشاة على أخشاب ضيقة والحال أن النهر عريض والوقت ليل والمطر نازل ثم ركبنا رتلا آخر مهيأ في الناحية الاخرى من النهر الى أن وصلنا الى ليفورنو فاذا هي بلدة واسعة الطرق نظيفتها متقنة التحصيب والتبليط بحجارة منحوتة مستوية وبها قليل من البطحاآت الوسيعة أشهرها ما تسمى بياص دى كافورو كافور هذا وزير ايطاليا الذي جدد في وحدتها الاخيرة فرسم تمثاله بتلك البطحاء وسميت به وكذلك البطحاء الكبيرة ويخترقها خندق به ماء البحر وعليه جسور وهذا الخندق كاد ان يكون مخترقا لجميع جهات البلد وذلك لفائدتين الاولى هي ان البلد أرضها سبخة ندية فذلك الخندق تنجذب اليه المياه مما حوله ويحصل جفاف الارض وما أخرج من ترابه الكثير علت به أرض البلاد والثاني أن البلد كانت من أهم مراسي التجارة لاعفائها من الاداء ترغيبا في عمرانها فتكثر فيها السلع وتحمل في القوارب وتسير في تلك الخنادق من السفن الى المخازن اذ ماء البحر بالخندق عميق وبخارجها على الشاطئ منتزه عمومي ممتد نحو ميلين به حدائق الاشجار والانوار ومغاطس من البناء أو الخشب على البحر وقهاوى وملاهي تنتدبها الناس زمن الصيف من أهالي البلد وغيرهم والطريق للمارة وسيع جدا وعلى حده قصور شاهقة ذات منظر جميل امامها الطريق ودونها الحدائق ومن ورائها القهاوي والملاعب والمغاطس ومن ورائها البحر وهي في الصيف ليلا ونهارا منتزه مريح ويسمى ذلك المكان البساجاتا وبرت مارى وفي البلد خزنة للماء مسقوفة ببناء ضخم شديدة النظافة حتى يرى الرائي في قعر الماء مع عمقه كتابة على الحجر بينة والماء في غاية الصفاء مع اتساع الخزنة ومحل استقرار الماء منقسم على عدة أقسام فيدخل الماء المجلوب من عين غزيرة الى أحد الاقسام الى أن يمتلئ ثم يخرج منه من أسفل الى قسم آخر ثم منه من أعلى الى قسم آخر وهكذا بحيث ان كل قسم يكون مملوأ ولا يخرج منه الا بقدر ما دخل فيه لتصفية الماء وترويقه حتى لا يخرج الى عموم البلد الا بعد انتهاء ترويقه وهاته البلدة موقعها على البحر وهو غربيها وهي من المراسي الشهيرة للتجارة والحرب وقد بني بها ميناء مأمن السفن ذات حوض بين قيل أنفق عليها مائة وعشرون مليونا فرنكا وبها مرفى للسفن ولانشائها ولما وصلنا الى البلد وجدنا الوزير حسين الذي قصدنا البلد لاجله غائبا في فرينسا فمتنا بدار سكناه حيث كان تابعه هنالك ثم ودعت صديقي الشيخ سالم أبو حاجب حيث كانت مأموريته هنالك وركبت بكري ليلة وصولنا

قاصدا الوزير المذكور في بلد فيرينسا وأبقيت غالب رحلي وأحد تابعي هناك لاحتمال
العود فسرنا في الرتل ثلاث ساعات وكان حول ليفورنو بعض غياض ليست حسنة جدا
ومررنا على بلد بيزة مناخ علم الطب سابقا فاذا هي من مدن ايطاليا الشهيرة ويخترقها
نهر وحوله منارة وقد انفردت هاته البلدة بشيئين أولهما أغرب شيء من مباني العالم
وهو الصومعة الوحيدة المائلة فان هاته الصومعة يراها الناظر مائلة ميلا كليا الى جهة
الجنوب حتى يخالها انها ساقطة لا محالة وهي ليست بمرتفعة جدا وبناؤها من حجارة
منقوشة ومرمر ودرجها كل في قطعة واحدة من المرمر وهي في وسط بطحاء قرب كنيسة
وأسفل قاعدتها مائل أيضا غائر في الارض من جهة الميلان ومرتفع من مقابله وقد
اختلف النقل في سبب ميلانها فقيل انها بنيت كذلك وهو من مهارة صناعها
ومعرفتهم بفن الاثقال وقيل انها بعدما بنيت انخفضت بها الارض من احدى جهاتها
فمالت وعلى كل فسبب عدم سقوطها هو عدم خروج قطر محيطها بالميلان عن مركز
قطبها والحاصل انها من عجائب المناظر وقيل ان ميلان أعلاها عن مساواة أسفلها
أربع ميترات ومثلها في الميلان صومعة أخرى خارج البلد جهة الشرق لكنها
ليست في اتقان الاولى ولا في ارتفاعها وقد بني حولها بناء ملاصق لها لتوقع سقوطها
وبقي أثر الميلان ظاهرا وثاني الشيئين الغريبين الكنيسة وهي ليست بكبيرة ولكنها
كثيرة التانق والرونق سيما من ظاهرها وزيادة غرابتها في الصدى الذي يحصل فيها من
الاصوات اذ يدوم فيها الصدى ويعتلي على وجه خارق للمعتاد والسبب فيه شكل البناء
وطلي الحيطان وبعد أن جاوزنا بيزة بدلت الارض غير الارض التي عهدناها منظرها في
بلادنا وما مررنا عليه من كيفية العمران واتصاله واتقانه ولا يوفي الوصف والقلم
بتصويره وتقريبه وبالجملة فليس ان كل قطعة من العمران لم نعهدها بل عهدنا مثلها
ولنا قطع تضاهي أفراد تلك القطع سواء كانت في البساتين أو في القصور التي بها أو
في اثارة الارض وتعميرها لكن الذي لم يعهد لنا هو اتصال ذلك العمران وامتداده
وتماثله الى ما لا يحيط به البصر مع تحسين جهات الاتصال العامة فانها تحدث من
ذلك هيئة اجتماعية لها اعتبار زائد فوق اعتبار قطيعات منفردة وان بلغت من
الاتقان ما بلغت ثم وصلنا الى فيرينسا فاذا موقف الرتل بها جميل انيق واذا البلد
وسيعة لكن طرقها القديمة ضيقة وأما الجديدة فواسعة شديدة النظافة وتهذيب
أخلاق السكان والحضارة ويخترقها نهر على جانبيه رصيف منحوت وفي مجرى الماء

عرضا

عرضا وارض مبنية لحصر الماء كى يكون عمقه حدا محدودا ونشأ من ذلك خرير عظيم له دوى وعلى جانب النهر منزه عمومى ممتد أزيد من ميل وبه فوارات وحدائق وأنوار وفى نهاية المنزه عند ملتقى النهر المذكور بجدول صغير بطحاء بها قبة من رخام صغيرة بلا حيطان مرفوعة على اسطوانات جيدة رخامية عالية على الارض وبوسطها صورة مجسمة من الرخام لاحد أمراء الهند الشبان وملونة بلونه ولون ثيابه الرسمى وكان ذلك الامير سائحا فى أروبا بعد زيارته المالكة الانكليزة تداوى بافلماحل بفير ينسامات وكان مجوسيا فأرسلت عائلته مكلفا انكليزيا بالرسم صورته فى ذلك المحل الذى أحرقت جثته فيه على عادة المجوس ودفن رماده تحتها وكان من عاداتهم ان مكان الاحراق يكون فى ملتقى نهرين فلذلك فعل به ذلك هنالك وجعل على ذلك المحل قيم ووقف وكان ذلك فى عشرة التسعين والمائتين وألف وفى حدود البلدة من الجنوب منتزه آخر فى جبل مرتفع نزه جدا ذو بساتين وقصور وطرق وسيعة سهلة الصعود بالكراريس وفى منتهى ارتفاعه بطحاء وسيعة ذات مصاطب ومنازه وبقربها كنيسة قديمة مرصفة الحيطان من خارج بالرخام الابيض والاسود تقصد بالتفرج وجملة ذلك الجبل منتزه ولما صعدت الى هنالك أحسست ببرد شديد لارتفاعه ولبرد الزمن ومن أحسن ما بالبلدة قصر القارية الذى به بيت أغلب حيطانه من البلور وهو قصر ضخم وبه من التصاوير المرسومة فى الخرق المنسوجة مع النسج وفى الورق شئ كثير وكذلك المجسدة من الحجر والنحاس وقال بعضهم أن مجموعها مليون من التصاوير كلها فى غاية الاتقان تعتنى لها المصورون من الآفاق لتقليدها ومما بها من التصاوير صور الملوك من جميع الآفاق فى اعصار مختلفة ومنها صورة محمد باشا الاول والى تونس ويتصل هذا القصر بقصر سكنى الملك عند استقراره الحكومة هنالك وهو قصر كبير ليس بغريب أصله لاحد السكان فاشترى منه لاستقرار الملك وهو لازال مشتملا على جميع المرافق مثل ما تقدم فى قصر نابلى ومن غرائب البلد ارتفاع قبة كنيسة بها مبنية من ظاهرها بالرخام الابيض والاسود على أتقن صناعة وبها من الاسطوانات الجيدة الملاصقة بذلك الرخام ومن النقش الغريب فيه ما جعلها من أتقن البناآت وارتفاع القبة مائة وسبعة عشر ميترو وبأزائها صومعة جيدة ارتفاعها سبعة وسبعون ميترو وهى فى البناء على نحو الكنيسة وبالجهة الغربية منها صومعة أخرى أعلى منها ومن القبة أيضا وبالبلدة عدة ملاهى حسنة وقد اشتد البرد فى هاته البلدة بالنسبة لما اعتدناه وقد أقمت بها ضيفا

* عند صديقي الوزير حسين التونسي وترجمة هذا الوزير باختصار هو رجل من الجراكسة أتى الى تونس وسنه دون العشرة فربي في سراية الوالي حسين باشا وأدخل الى مكتب المهندسين العسكرية فحصل مشاركة جيدة في النحو والادب والفقه ومهارة في الفنون العسكرية وإجادة للغة الفرانساوية ثم وظف في عساكر الخيالة بمعية أميرلوائها اذذاك خير الدين باشا وسافر معه الى فرانسا في خصام محمود بن عياد في ولاية أحمد باشا ثم ولي رياسة المجلس البلدي بحاضرة تونس وأحدث في الحاضرة اصلاحات عديدة في ولاية محمد باشا ثم عند ولاية الصادق باشا ولي رئاسة مجلس الجنايات ومستشارية الوزارة الكبرى وعضوية المجلس الخاص والمجلس الاكبر ثم استعفى من الجميع عند ايقاف القوانين ورحل الى أوروبا وساح سياحات وسيعة اذ كان قد لا عرف أكثر ممالك أوروبا كالمانيا والدنمرك والسويد وهلاندا والبلجيك وايطاليا وفرانسا وانكلترة والجزائر والاستانة في سفارته منفردا أو مع خير الدين باشا سفيرا عن الوالي المذكور وعند استعفائه المذكور رحل الى المغرب واسبانيا والنمسا والروسيا وأمريكا ومصر والحجاز ثم استدعته الحكومة عند ولاية خير الدين وزيرا مباشرا هو وغيره ممن ابتعد واعنها فولي مستشارا في القسم الثاني من الوزارة ثم سافر الى ايطاليا لخصام ورثة نسيم في حساب مورثهم مع الحكومة التونسية كما تقدم وأقام بليفورنو حيث مات المورث ولا زال في الخصام الى الآن ثم لقب بوزير الاستشارة ومستشار المعارف وهو ذو أخلاق كريمة وصفات عظيمة ومعارف وسيعة وفصاحة مريعة له عدة رسائل في كثير من المسائل وكانت اقامتي عنده في فيرينسا في احدى منازل المسافرين الضخمة قريبا من النهر واجتمعت بأشهر حكماء البلد المسمى شيف وبعد ان استقرأ تقرير المرض واستخبر الجسم أشار الي في مضمون كلامه ان المرض ليس بمخوف كما انه من الامراض المزمنة وانه يدافع بترتيب المعيشة في الاكل والمسكن وارتياح الفكر والبدن والابتعاد من هواء البحر وحسن سكنى الجبال وان كثرة الادوية مضر قليل الجدوى ولقد صدق ثم ظلبت تلغرافيا بقية رحلي وتابعي وسافرت قاصدا باريس مارا على تورين للاستراحة بها فركبنا الرتل صباحا وسرنا في الوهاد نحو الساعة على ذلك المنظر البديع ثم تصاعدنا في الجبال وكان للرتل حينئذ مزجيان ومهما ازددنا تقدما في الارتفاع الا وازداد المنظر بهجة ورونقا الى أن انتهينا في الصعود فكان منظر ا ترتاح له النفوس ويجلي عن القلوب كل بوس يا له من جمال ويا لله من بدائع

بدائع صنعه وتكوينه وبخلقه باعمال الرجال فالقرى البهيجة منثورة على مد الابصار والاشجار قد أغصانها تتناول الدرارى من الافلاك تحملها بقايا قد انتثرت منها من الثمار اذ قد استعوضت عن خضرتها الزبرجدية بالثلوج الياقوتية والارض والجبال قد بسط عليها بساط الفضة الزلال مع الاتقان فى تنضيد الاشجار واثارة الارض بالحرث وتدفق المياه من ينابيع العيون وسيول أمياه الثلوج المذابة المنحدرة فى جداول ثم نهيرات ثم أنهر متبحرة ولا يسير الرتل نصف ساعة الا ويقف على قرية نضرة وتارة بمرحذور واشن القصور وأخرى حول سطوح الديار وطورا ترى البلدان تحتك فى أسفل سافلين وهكذا مناظر بديعة مختلفة تتوالى كل لحظة ثلاث ساعات فى الجبال وعلى الاجمال أن السفر فى جبال أوروبا المتمدنة ذات العمران ليس له من لذة عندى توازيه سيما مع الركوب فى الرتل فى الطبقة الاولى فى مخدع منفرد للشخص وأصحابه وعلى الخصوص اذا كان معه صديق يساجله فى سائر المقاصد فان ذلك من نعم الدنيا الكبرى ومن هنالك حجبت عنا الشمس بكثرة الابخرة المتصاعدة من الجبال والثلوج ثم نزلنا الى الوهاد بعد ان جزنا فى الجبال صعودا ونزولا خمسة وأربعين نفقا منها ما يسير فيه الرتل عشرة دقائق ومنها ما يسير فيه دقيقتين وكل نفق مظلم ويشتد ظلامه ويخف حسب طوله وبعد ان سرنا فى الوهاد نحو ساعة وتكاثر نزول الثلج وصلنا الى بلد بولونيا وهى بلدة ضخمة لكن أبنيتها وطرقها ليست بجميلة سيما القديم منها وأغلبها على ذلك النحو ونعم بها متنزهات نزهة وأغلب الطرق يحفها يمينا وشمالا الارواقات لشدة حرها صيفا وشدة بردها وكثرة ثلجها شتاء فتتقى المارة بتلك الرواقات وفيها موقف للرتل عظيم جدا لانها مناخ للتجارة لتوسطها بين بقية ممالك ايطاليا وسويسرة وفرانسا والنمسا والمانيا فترد اليها الارتال من الجميع ونزلنا فى الموقف وتغدينا فى محل الاكل هنالك وكان وقوف الرتل نصف ساعة ثم سرنا الى تورين فى ذلك المنظر البهيج المنبسط على الوهاد لكثرة اتقان الزراعة واثارة الارض وتعميرها وكثرة الابنية فى الاراضى الزراعية كل ذى أرض له فيها بناء مع تحسين شكله وتزيين ظاهره ومع ذلك منظر الجمال فى الجبال ابهج وعندما أراد الليل أن يسدل حجابه تبدى وجه الغزالة محمرا من برقع السحاب على وجه الافق فياله من منظر بديع يشهد للبارى تعالى بحسن الصنيع وما ودعنا نور الشمس الا بعدما استخلف ضياء البدر المنير اذ كان ذلك أواسط شهر ذى القعدة فتفضض الافق والنواحى ببريق البدر وكان جمال الليل مزهرا فى تلك المناظر الجميلة مستمرا الى أن

وصلنا الى موقف الرتل بتورين بعد نصف الليل فاذا بذلك الموقف أبهى وأبهج وأضخم من جميع ما رأيناه سابقا واستمر سير الرتل من مبادى متعلقات الموقف الى ان استقر فيه أزيد من عشرة دقائق فكنت ترى فيها المزجيات والمركبات منبثة فى جميع الجهات ماشية لاركانها والرتل وارد وصادر من كل أوب ومحل نزول الركاب هو ساحة عظيمة مرفوع سقفها على أعمدة من الحديد المستطيلة من قضبان من الحديد مرصف فيها الزجاج والفوانيس موقودة بالغاز تضئ كالنهار فاسترحنا فى بيت الجلوس الى ان نزل رحالنا فى الكمرك وفعلوا فى تفتيشه ما فعل فى البلدان السابقة ثم ركبنا أحد الكراريس الكبيرة المعدة لنقل الركاب الى منازل المسافرين لان كل منزل كبير له كراريس كبيرة تسع الواحدة ثمانية من الركاب فما فوق تحملهم من المواقف الى المنزل والعكس وذهبنا الى المنزل فلم نجده لائقا فانتقلنا الى منزل آخر حسن وأقمت بهاته البلدة يومين وهى مصر عظيمة ذات اتقان فى الابنية والمساكن والطرق ومن خصائصها أن طرقها تكاد أن تكون كلها متقابلة تتقاطع على التربيع بزوايا مستوية كما أن من محاسنها ان طرقها تكاد أن تكون كلها محفوفة برواقات يمينا وشمالا قائمة سقوفها على أعمدة من البناء أو الحجارة المنحوتة ولا يمشى الراجل الاتحتها وفوقها أبنية القصور والمساكن واليها تفتح أبواب الحوانيت والديار وغيرها وأواسط الطرق للركاب أو العابر من جهة الى أخرى وأعظم بطاحها البطحاء التى امام قصر الملك وهى متسعة جدا فى صدرها القصر الملكى وعلى جانبيها مساكن للعساكر والجهة الرابعة قبالة القصر فى وسطها طريق كبير وعن يمينه وشماله ديار ومنزل المسافرين الذى نزلنا فيه وفى وسط البطحاء فوارات وأول ما رأيت الترموى فى هاته البلدة وهو مركبة ذات عجلات صغيرة من حديد تجرى فى صفحات من الحديد غائرة فى الارض ممتدة مع الطريق الى نهاية ما يريدون ايصال السير اليه ويجرها اثنان من الخيل ولهم فى كيفية ادارتها عند الوصول الى نهاية الطريق كى ترجع الى المكان الذى ابتدأت منه كيفيات فاحدها ان فى محل الادارة يكون وقوفها على دائرة من الحديد ذات قطب تدور عليه بسهولة فبادارة الدائرة تدور المركبة وثانيتها ان المركبة يكون مقدمها ومؤخرها سواء فعند بلوغ النهاية من الطريق تحل الخيل الجارة من تلك الجهة ثم تربط من الجهة التى كانت مؤخرا وتسير المركبة راجعة الى المكان الذى ابتدأت منه وثالثها أن تكون الصفائح التى تجرى فيها العجلات فى نهاية الطريق مرسومة على نحو

دائرة

دائرة متسعة فتدور بها الخيل الى أن تعود الى الطريق الذى جاءت منه وكل كيفية من هاته فى طريق خاصة وبالدخاص وسبب اعمال هذا الطرقه ولتسهيل جر المركبة على كبرها الذى يركب بها نحو العشرين نسمة فى داخلها وعلى سطحها نحو نصفهم ولا يجرها سوى فرسين وهى وسيلة كبرى لترخيص أجرة الركوب وسهولة الانتقال فيقف فى مراكز معلومة كما تقف لكل من يطلب الوقوف للركوب أو النزول ويؤدى الاجرة زهيدة نحو ثلاثين سانتيم أى ثلاثين من تجزئة الفرنك الى مائة هذا اذا كان المكان بعيدا وأما اذا كان قريبا فبنصف ذلك المقدار والقرب والبعد على حسب اتساع البلاد وامتداد ذلك الطريق لكن القريب على كل حال لا يقصر عن الميل وهاته البلدة بها نهر عظيم ومنظره خارج البلد بهيج وبقربه فى احدى تلك الجهات منزه عمومى كبير نزه وجبل به أماكن للأكل والقهاوى وقصر الملك حسن جدا وكبير متسع مونق فى تزويقه بالذهب والالوان وبه جميع فرشه وحوائجه وقد كانت هاته البلدة هى قاعدة مملكة الساردو الذى استولى على جميع ايطاليا واتحدت أخيرا تحت ملكها وبها خزنة للكتب عظيمة جدا وعند ما دخلتها علمت كبير الفرق بين أهالى هاته البلاد وأهالى نابلى فان الثانية لما دخلت خزنة كتبها لم أجد الا أفرادا لا يتجاوزون جمع القلة وهاته لما دخلت الى خزنة كتبها وجدتها مفعمة بمئات من الرجال وقليل من النساء كل منهم منكب على المطالعة فى كتاب ولا تجد حسا لواحد الا همسا لكى لا يشوشوا على بعضهم فمن مطالع ومن مقابل ومن ناسخ ومن مفكر والكتاب بين يديه فعلمت ان أهالى هاته البلدة معارفهم أوسع وسوقها لديهم أروج وذات الخزنة كتبها أكثر مما رأيته سابقا وبها مصاحف كريمة ذات خطوط أعجمية أنيقة مذهبة ومونقة للغاية القصوى ولها صناديق وجهها وسقفها من الزجاج مقفولة لحفظها ولا يحلها الا القيم عند التأكد ففتحها لى وتشرفت بها ثم رحلنا من هاته البلدة قاصدين باريس فى مرحلة واحدة ولما كانت المرحلة بعيدة آثرت كراء مخدع فى الرتل ذى فرش ومستراح ولزم لذلك اعلام مدير الرتل من قبل وقت الركوب لكى يحضره على الصفة التى نريدها ولكى يعلم موقف الرتل فى حدود فرانسا باحضار مثله فى رتلهم حيث ان الراكب ينتقلون هنالك من الرتل الطليانى الى الرتل الفرانساوى فركبنا فى الساعة الثامنة بعد الظهر ليلا فى مركبة ذات مخدع له ثلاث مساطب فرشها حريرية وكل مسطبة تنفتح فتستطيل الى أن تصير فراشا له وسادة وقد اخترتها بحيث يكون الراكب فيها مواجها الى جهة السير لان عكسه يورث لى

دوارا وفى وسط المخدع باب يدخل منه الى محل ذى مستراح فى أحد جهتيه ومقابله محل ذوأنبوب للماء ينفتح و ينغلق يجرى منه الماء وذواناء ينزل منه الماء المغسول به وبه مرآة بحيث يستطيع الانسان التوضى هنالك واصلاح لبس ثيابه وفى المخدع أيضا مرآة ومائدة تنفتح من جهة الحائط الموالى لمحل المرافق حتى ان الانسان يقضى هنالك جميع حاجاته بغاية الراحة واغارفقنا معنا مناديل الوضوء وبيت ابرة لمعرفة القبلة فى صندوق صغير من الجلد فيه بعض الثياب ومناديل الانف واذا حان وقت الصلاة نصلى بلا تعب سوى ان الاتباع ينزوون الى جهة غير القبلة ولمثل هذا الاطلاق يتحرى الانسان فى الركوب مع الرفقاء لكى لا يكون عليه حرج فيما يريد كما انه اذا حان وقت الاكل و وقف الرتل فى احدى المواقف على البلدان ننزل الى محل الاكل فنجد فيه الوان الطعام والفواكه فنشترى مانريد ونحمله الى مخدعنا لكى نأكل بالاستراحة اذالاكل فى المواقف يلزم أن يكون عاجلا خوف سفر الرتل والرتل ولان كان يقف بعد كل نحو نصف ساعة أوساعة على البلدان غيران وقوفه لا يطول الا بقدر ما ينزل الركاب القاصدين تلك البلدة و يركب منها غيرهم أو أخذ المزجية الماء أو الفحم أو ابدالها بغيرها اذاتمت ساعات نوبتها بحيث ان الحصة أطولها عشر دقائق (أما) فى وقتى العشاء والفطور فيقف الرتل نصف ساعة أو أزيد بقليل و يعلم الركاب جميع ذلك من المنادى الذى ينادى عند وقوف الرتل رافعا صوته بقوله بلد كذا و يسمى البلد الذى وقف عليه وكذا دقائق أى يقف كذا دقائق و يفتح الابواب للركاب فينزل من يريد النزول ولو لقضاء ضرورة و يرجعون على عجل واستمر بنا السير الى أن وصلنا الجبال المنسى الشاهقة وطفق الرتل يجرى بين صعود ونفوذ فى انفاق واحدا بعد آخر الى أن جاز فى نفق استمر فى الجرى فيه خمسة وعشرين دقيقة غير أنه دون السير المعتاد وهو أطول نفق فى أروبا وصناعته من عجائب صناعة الهندسة اذ هذا الجبل واقع فى الحد بين فرانسا وايطاليا فناحيته الشرقية الجنوبية الى ايطاليا والشمالية الغربية الى فرانسا ولما أرادوا وصل الطرق الحديديه اتفقوا على خرق الجبل فجعلت عملة كل من الجنسين تشتغل من جهتهم وبعد الاشتغال بضع سنين اتصل العاملون بعضهم ببعض على خط مستقيم والحال ان طوله تسعة أميال تقريبا وتنور فيه فوانيس ليلا ونهارا و يقيم به حراس لتفقد الطريق ولهم مساكن منحوتة وأماكن وسيعة لوضع الضروريات التى يحتاج اليها لاصلاح الطريق ومراكز لتلك الكهربا والرتل لا يدخل الا اذا رأى علامة الحارس بالاذن بالدخول وبينما

كنا

كناسائرين فيه واذا برتل آخر مقبلا من فرانسا ذاهب الى ايطاليا فمرا متعاكسين متحاذيين مع اشتداد دوى العجلات والصدى والظلمة وسرعة السير فكان منظرا هائلا واشتد البرد هناك اشتدادا خارقا للعادة حتى أن بخار النفس كان يجمد على شاربى وزجاج طواقى المخدع كان يجمد عليه بخارنا الى أن يمنع الضوء وينكسر بالتكسير قطعا كالجليد وأيقظتنى شدة البرد من النوم مع التردى بالثياب الثخينة الصوفية وأحدها مستبطن بجلد الفراء العالى وفى المخدع قنوات من النحاس ملآنة بالماء الحار جدا ملفوفة فى خرق من الصوف وعند ماوصلنا الى بلد مودان أول موقف الرتل من جهة فرانسا نزلنا للانتقال لرتل الفرنساوى وابتدأ الامر فيما شاهدته بفرانسا فلنعد الآن لبقية الكلام على ايطاليا فانى عدت اليها ١٢٩٨ هـ سنة ١٨٨١ م وزدت معرفة بالبلدان التى ستذكر وهى ابرندزى التى هى أكبر المراسى جهة شرقى ايطاليا ولها مامن حسن وحصون وبقية البلد ليست الاقرية محتوية على لوازم أهلها وأقمت بها ليلة ثم توجهت الى بارى وهى مرسى أيضا دون الاولى ولكنها أكبر منها بلادا وأحسن حضارة سيما الابنية الجديدة التى لها اتقان فى انتظام الطرق وسعتها وأقمت بها ليلة ثم توجهت الى بولونيا وقد مرذكرها وجميع مامررنا عليه كان فى غاية العمران والانتظام فى الزراعة وكثرة الشجر من الزيتون المعمر لجميع تلك الارض مع بعض غلال أخرى شتى وجميعها يسقى بالنواعير من الآبار بادارة الدواب حميرا وخيلا وبغالا وكذلك القرى كانت كثيرة منتشرة وحيث كان مرورنا وقت الحصاد صيفا كنا نرى جميع الجهات مشتغلا أهلها فبعضهم يحصد الزرع حتى الذى تحت أشجار الزيتون وآخرون يتبعونهم بسقى الارض وفى أثرهم آخرون يثيرون بالحرث ماجف من الارض وهكذا بحيث لاتبقى الارض مدة بوارا ويزرعون فى بعض الجهات اذذاك بقولا بحيث يصح أن يقال ان الجهة الشرقية من ايطاليا أعمر من الغربية وبعد اقامتى ليلة فى بولونيا توجهت الى قرية منتكاتينى التى بها مياه معدنية عليها حمامات تهرع اليها الاهالى صيفا لنفع المياه وفيها شئ من التحسين غير أنها شديدة الحر لاكتنافها بالجبال المعمورة بالقرى والاشجار ذات الغلال الصيفية والحاصل ان الجهات البعيدة عن البحر صيفا فى أوربا هى مساوية أواشد حرا من شمال أفريقية ويشتد تعب الراكب فى الرتل من الحر لانه ان فتح الطواقى اسود لونه وربما أوذيت عيناه من الدخان والغبار بسرعة الرتل وان أغلقها حميت عليه نارلظى

وحالة البلدان فى الحر كما مر ولذلك لم نطل الاقامة هنالك وتوجهت الى ليفورنو التى هى على البحر كما سبق وبقيت بها حتى توجهت منها الى السفينة ثم عدت اليها مارا على مدينة ميلانو التى أعد فيها اذ ذاك معرض عام لمصنوعات ايطاليا ومخلوقاتها فاذا هى أى ميلانو أجل بلاد ايطاليا وأكثر حضرية وانفردت بالسوق المسمى الفلارية الذى هو فى غاية الجمال والبهجة ومن غرائبه انه توقد قبته الوسطى بزجيجة تمر على طريق حديدية لسرعة الايقاد للبخار الغازى وهى مزجيجة صغيرة نحو ذراع طولا وأما المعرض فهو انموذج من معرض باريس الآتى ذكره واغلبه ذا أصغر بكثير وخاص بمتعلقات ايطاليا وشاهدت فيه تجربة جوار تل بالقوة الكهربائية السارية فى قضبان طريق الحديد لكن التجربة افادت انهم لم يبلغوا المراد لحصول الوقوف احيانا عن غير اختيار لكن بلغنى فيما بعد انه تم أمره فى المانيا وصار مشتغلا به

فصل

(فى تعريف ايطاليا)

(اعلم) ان ايطاليا قسم من أوربا الجنوبية وهى شبه جزيرة فى البحر الابيض تتصل من جهتها الشمالية بالقارة فيحدها شمالا اسفيسره وفى الشمال الشرقى النمسا وفى الشمال الغربى فرانسا وفى الغرب والجنوب البحر الابيض وفى الشرق بحر البنادقة وهى على شكل مستطيل من الشمال الى الجنوب يميل الى الشرق على هيئة تشبه جزمة ذات عقب ومهماز وقبالة منتهى أصابع القدم جزيرة صقلية المسماة الآن بسيسيليا يفصل بينهما خليج ضيق يعرف بخليج مسينا وتبتدئ من الشمال من عرض ستة وأربعين درجة وأربعين دقيقة وتمتد الى الجنوب الى عرض سبعة وثلاثين درجة وخمسين دقيقة من العرض الشمالى وتبتدى جهة الطول من باريس من الدرجة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة الى ستة عشرة درجة وخمس دقائق فنهاية طولها نحو الف ميل وذلك من جبل مون بلانه الى رأس سبارتيفينتو وأما عرضها فيختلف جدا فمن جهة الشمال نحو ثلثمائة وستين ميلا ومن جهة الجنوب نحو مائة وخمسين ميلا وفى بعض الجهات الوسطى نحو أربعين ميلا فقط ولها عدة جزائر أشهرها وأكبرها جزيرة صقلية وجزيرة سردانيا ولها أقرب تونس جزيرة بنتلريا فهى ذات شطوط وسيعة جدا وبها كانت دولتها دولة بحرية وأما جبالها ففيها عدة سلاسل فمنها جبال الالب وجبال البنين

وجبل

وجبل كورنوو هو أعلاها وارتفاعه على سطح البحر ٩٥٢٠ قدما وجبل فيلنيوو وفيها عدة جبال بالكانية منها ما انعدم وصار عوضا عن فوهة النار بحيرات مثل بحيرة رسيمين وبرسيانو وبلسنا كلها فى الجبال وأما الباقى منها بالكانا فهو جبل الفوزوفيو وقرب نابلى الذى ارتفاعه ١٢٠٠ ميترو وجبل اتنا فى سيسيليا وارتفاعه ٣٣١٣ ميترو والثلج دائم عليه وجبل الترنبل فى جزائر ليبرى ويظن ان بين هاته الثلاثة منافذ تحت الارض وبقرب نابلى عدة جبال تقذف بخارا كبريتيا وتسمى سلفتارو وبقرب ليفورنو جبل يقذف بخارا مائيا ويسمى سوفيونى وأما انهرها فهى كثيرة لكنها لا تعظم جدا لقربها من البحر واعظمها نهر بو الفاصل بينها وبين النمسا ونهر تيبر الذى يجرى الى رومة ونهر ارنو المار على فيرينسا وبيزة واديج جهة ولاية الترولو التابعة الى النمسا وغيرها وكلها لا تحمل السفن الا القوارب الصغيرة سوى الاول فانه يحمل القوارب الكبيرة وان كان السير فيه صعبا لوجود جزائر رملية به نعم ان نهر اديج يحمل السفن من بلاد تيرنتو الى البحر وبها أيضا ترع صغيرة اشهرها الترعة التى بين بيزة وليفورنو تحمل القوارب الصغار وكذلك الترعة الموصلة بين نهرى التيفر وارنو وبها أى ايطاليا عدة بحيرات منها المسماة لاغوماجورى أى الكبرى وكومو وغاردا وليكو ولوغانو وايزيو وأما هواؤها فهو جيد فى كل الجهات الا فى الجهات الوسطى حيث توجد مستنقعات المياه المسماة بونتين فانها يحدث منها امراض عامة فى الصيف لاهالى البلاد ومنها ارومية كما تقدم وتوجد تلك المستنقعات أيضا قرب فينسيا وقرب نهر بو وفى ولاية كلابريا الجنوبية ولا زالوا مجتهدين فى ازالة تلك العوارض فان بلاد ليفورنو كانت من أشد الاماكن وخامة لذلك السبب وكان أهلها قليلين جدا فاجتهدوا فى تنشيف المياه ورغبوا فى عمرانها حتى أعفوا الساكن بها عن كثير من الضرائب وصارت الآن لا بأس بها وانها كثيرة العمران يتنزه بها الناس صيفا من كثير الجهات العليا من شمال ايطاليا فانها متنزه جيد وكذلك جهات نابلى وجزيرة صقلية والهواء فيها على الاجمال مائل الى الحر المعتدل والصيف فى جنوبها طويل واذا هبت ريح السموم فعلت بها من المضرة بالجفاف ما تفعله بتونس وأما شمالها فهو الى البرد اميل وأما نباتها فينبت بها الحبوب من القمح والشعير والذرة فى جهاتها كلها والبطاطس ونبات التكروري الذى يصنع منه الحبال والكتان والقطن والفوة والعنب وتنفرد الجهة الجنوبية بالبردقان والموز والنخيل والهندى أى التين الشوكى والتبغ وقصب السكر وان كان النخل لا يثمر التمر وتنفرد

الجهة الشمالية بالارز والزعفران والقسطل والحبة الحلواء والجوز كما يعم بها الزيتون والتفاح والكمثرى والاجاص والتوت والتين واللوز والفزدق وعروق رب السوس وبها عدة آجام وغابات غير انها في الجهة الجنوبية مهملة وغير منتظمة واشجارها متفرقة وانواع هاته الاشجار هي الصفصاف والدردار وغيره مما تقدم ذكره في غابات تونس (واما حيواناتها) ففيها الخيل لكنها قليلة واحسنها في فينسيا وما حولها ومنها نوع قصير جدا وحشي يوجد في جزائر سردانيا ومنها البغال واكثرها في الجهات الجنوبيه وكذلك الحمير ومنها البقر والمعز والضأن بقلة والجاموس والخنزير ودود الحرير والنحل والسمك بأنواع شتى في الانهر والابحر ومن الحيوانات الوحشية الضبع والثعلب والذئب والخنزير البري وبقر الوحش والدب (وأما الطيور) ففيها أغلب ما في القطر التونسي وتزيد بالغيزان بانواعه واكثره باق اللون بين السود والبياض وهو اكثر ما رأيناه في البراري وهو ثقيل الطيران وحجمه أكبر من الحجل واصغر من الدجاج وفيه انواع حضرية كبيرة ولها الوان جميلة مفضضة ومذهبة كما توجد به الحشرات التي توجد في الاقاليم الحارة سيما في الجهة الجنوبية غير انها ليست بشديدة الخبث بالنسبة لحشرات افريقيا ومن غريب حيواناتهم نوع من الكلاب يربى عند قسيسين في جبل صان برنانتو في الجهة الشمالية الدائم فيه الثلج ومن خصائص هاته الكلاب انه اذا اشتد البرد وحدثت زوابع فالقسيسون يسرحون كلابهم وفي عنق كل واحد اناء صغير معلق مملوء بشيء من الارواح المسكرة الحادة وله انبوب ينفتح فتذهب تلك الكلاب وترود الجهات لعلها تجد انسانا على شفا الهلاك من البرد فتقرب منه وتمكنه مما برقبتها لكي يسخن به فان استطاع بعد ذلك الذهاب معها دلته على محل أصحابها وان رأته لم يتبعها ذهبت لاصحابها واعلمتهم بهيئة خاصة حتى يتبعونها ويخلصون الانسان من شدة البرد فتتفرق الكلاب على ذلك النحو وتكون سببا النجاة من تظفر به وهؤلاء القسيسون لا يبيعون من اناث هذا النوع ليكون خاصا بهم (وأما معادنها) فليس فيها معادن كثيرة ولا غنية سوى شيء من الفحم الحجري في التوسكانه وقرب مدينة من سيسيليا ونوع من الطين يشعل بعد التجفيف مثل الفحم الحجري وفيها زيت البترول أي النفط وفيها الحديد بكثرة في عدة جهات منها المباردية وسردانيا وسيسيليا وكلابريا وجزيرة البا وفيها النحاس في جبل لمبارديه وفي فينيسيا والبا وتوسكانا وفيها الرصاص أيضا في عدة جهات والزاوق والزنبكو ومعدن انتمونيو ومعدن منغنيز والكبريت

واعظمه

وأعظمه فى سيسيليا اقرب بلد قاته انى سيناو هو الذى تشتغل منه جميع أوربا وفيها من معادن الحجارة كثير وغنى فنه الرخام الابيض الشفاف الذى تصنع منه التحف والمرمر الاحمر والرخام الاسود والبرسلانه والطين الملون والمرمر الرفيع والرخام الابيض المعتاد وفيها سباخ عديدة للملح ومعادن ملحية ومعدن التنكار الذى يشغله الصاغة وفيها مياه معدنيه كثيرة أهمها فى ولاية البيمنت وولاية فينيسيا وولاية التوسكانا وفى نابلى وأشهر الجميع منتيكاتينى فى التوسكانه (وأما مدن) هاته المملكة فقاعدتها رومية التى أخطت سنة ٧٥٣ قبل التاريخ المسيحى وموقعها كانها متوسطة بين الجنوب والشمال فى المملكة وتقرب الى الشاطئ الغربى وقد تقدمت صفتها وقد انقسمت هاته المملكة الآن باعتبار الادارة الى اثنتى عشرة ولاية كبرى لكل منها قاعدة أوطان فينقسم جميعها الى تسعة وستين وطنا كل وطن له مركز من المدن ويعرف باسمه فاما الولايات الكبرى فنذكرها باسمائها ونذكر عدد أقسامها فقط بدون ذكر لاسماء بلدان الاوطان الثانوية لطول الكلام وقلة الجدوى فالاولى من الولايات البيمنت وقاعدتها تورينو وسكانها ٢١٥٠٠٠ وبها أربعة أوطان وثانيها لمبارديه وقاعدتها ميلانو وسكانها ٢٦٣٠٠٠ ولها ستة أوطان وثالثها فينيسيا وقاعدتها مدينة فينيسيا التى أغلب طرقها خلجان بحريه يمرون فيها بالقوارب وسكانها ١٣٠٠٠٠ ولها تسعة أوطان ورابعها ليفوريا وقاعدتها جنوة وسكانها ١٣٠٠٠٠ ولها وطنان وخامسها أميليا وقاعدتها بولونيا وسكانها ١١٦٠٠٠ ولها تسعة أوطان وسادسها توسكانا وقاعدتها فيرينسا وسكانها ١٧٦٠٠٠ ولها سبعة أوطان وما تقدم كله جهة الشمال ثم فى الوسط وسابعها ماركى وقاعدتها انكونة وسكانها ٤٦٠٠٠ ولها أربعة أوطان وثامنها الومبريا وتختها بروزه وسكانها ٥٠٠٠٠ ولها وطن واحد وتاسعها لاتسيو وقاعدتها رومة قاعدة الجميع وسكانها ٢٤٥٠٠٠ ولها وطن واحد ثم فى الجنوب عاشرها نابلى وقاعدتها نابلى وسكانها ٤٠٠٠٠٠ ولها خمسة عشر وطنا وحادى عشرها سيسيليا وقاعدتها بالبرمو وسكانها ٢٢٠٠٠٠ ولها سبعة أوطان وثانى عشرها سردانيا وتختها كالارى وسكانها ٣٣٠٠٠ ولها وطنان (وأما مراسى) هاته المملكة فهى كثيرة فمنها جنوة فى الشاطئ الغربى الشمالى ثم ما يأتى يليها جنوبا على الترتيب الآتى وهى اسبيسيا ثم ليفورنو ثم شيفى تافيكيا ثم نابلى ثم كستلاماري التى هى أعظم الكل لاشتمالها على معمل كبير للسفن ولو

المدرعة ثم مسينا وهى فى الجنوب وهى حربية تجارية ثم تارنتو فى شاطئها الشرقى على بحر اليونان ثم مرسى ابرنديزى ثم انكونة ثم فينيسيا وهما على بحر البنادقة فهاته هى المراسى الكبيرة وهناك غيرها كثير (وأما الاهالى) فعددهم على ما تحرر ١٢٩٨ هـ سنة ١٨٨١ م تسعة وعشرون مليونا وهم فى الاصل من أبناء الاصليين وهم من الامم الذين ارتحلوا الى هناك من المشرق والشمال فى أوقات مختلفة ولكن صاروا بالاخوة جنسا واحدا بيضا مع سمرة قليلة حسان تامى الخلقة أهل جد فى الشغل وأهل الشمال منهم تقدمت فيهم الحضارة أكثر من أهل الجنوب اذ أهل الجنوب والوسط لازال فيهم أناس على سذاجة تقرب من التوحش وكلهم على الديانة النصرانية على المذهب الكاتوليكى الا خمسة وثلاثين ألفا فهم على مذهب البروتستانت وثلاثة وعشرون ألفا من اليهود ومن الاهالى ستون ألفا من جنس الارناؤوط

فصل

(فى اجمال تاريخ ايطاليا)

مطلب

(فى تاريخها القديم)

(اعلم) ان أول ما تسمت ايطاليا بهذا الاسم حسبما وجد بتواريخ الرومان الاقدمين فى أواسط الالف الثانية قبل التاريخ المسيحى نسبة الى ملكها أحد العائلة التى أتت من الموره واسمه ايطاليوس وقد كانت من قبل ذلك تسمى ساتورينا وكانت مسكونة بامم أصليين اسمهم أبوريجان ثم وفدت عليهم أمم فى أزمان مختلفة من اليونان وأهل الشمال وغيرهم وابتدأ فيهم ملك الرومان العظيم من المائة الثامنة قبل الميلاد وكان منشؤه فى مملكة رومة التى هى قطعة من ايطاليا وامتدشيأ فشيأ وتكاملت أوصاف الفخر فى الرومان تدريجا فى المائة الثانية والثالثة قبل الميلاد ثم اتحد تاريخ ايطاليا بتاريخ الرومان الى أن تسلط الرومان على غالب المعمور المعروف اذ ذاك تحت تسلط الدولة الجمهورية الرومانية ثم أبطلت الجمهورية وأحدثت الامبراطورية التى يلقب صاحبها بالقيصر قبل الميلاد بثلاثين سنة ودامت سلطنة عظيمة مع التقلبات والحروب الى أن انقسمت فى سنة ٣٩٥ مسيحية الى سلطنة غربية وهى الاصلية وسلطنة شرقية مقرها

فى

فى سوريه وآسيا الصغرى وماوالاها وأصحاب هاته هم المذكورون فى سورة الروم وهم المعنيون بذلك اللقب أى الروم والسلطنة الغربية التى مقرها ايطاليا تخربت وتسلط عليها أمم متعاقبون ثم دخلت تحت سلطنة المشرق ثم افتكها منهم أمة لومباردلكن بقى للشرقيين الجهات الجنوبية وكانت تسمى السلطنة اليونانية أوالاغريقية أو الرومانية ثم انخرمت أيضا وتأسس تسلط البابا فى رمية من ١٠٤ ه سنة ٧٢٢م لكنها ماسلمت حتى ودعت فاستولى الفرانسيس على قسم من ايطاليا وقوم النباردى استولوا على قسم والسلطنة اليونانية على قسم وبقى البابا تحت ولاية الامبراطور شالمان ملك فرانسا وغيرها ثم استقلت ايطاليا وكان لها تاج خاص ووقعت انقلابات وانقسامات الى أن جدد ملك البابا ٤٦٦ ه سنة ١٠٧٣ م وتم ذلك فى ٥٢٦ ه سنة ١١٣١ م حيث تأسست مملكة الصقليتين واضمحلت بقية السلطنة اليونانية وغيرها وصار ملكها جير والاول تابعا للبابا ثم ثارت الثورات فى عدة جهات وانقسمت ايطاليا أقساما بعضها جمهورى وبعضها ملكى وتعاقبوا على رومية مقر سلطنة البابا ونفوه منها وحدث فى الجنوب مملكة صقلية التى كان المسلمون استولوا على جانب كبير منها بعبورهم البحر من تونس واستولى فتح قسم منها القاضى الامام أسد بن الفرات فقد كان جامعا بين علوم السياسة والحرب والشرع وتوفى هنالك رحمه الله ثم بعد مدة تغلب النصارى عليها كما أن الجهة الجنوبية أيضا انتشأ بها مملكة نابلى ثم رجع البابوات الى ايطاليا من نفيهم الى فرانسا سبعين سنة ولم ينجح الاهالى فى ابعاد الاجانب من الاستيلاء عليهم مع الجهد فيه وتعاظمت حروب فرانسا واسبانيا على الاستيلاء على ايطاليا الى ان تم الامر الى اسبانيا ٩١١ ه سنة ١٥٠٥ م ولم يخرج عنها الا البندقية ثم تقهقرت اسبانيا هنالك تدريجا ثم تغير الحال فى حروب نابليون الاول امبراطور الفرانسيس أوائل القرن الحالى هجرى وأولى الامبراطور على ايطاليا أخاه ثم صهره ولم يبق خارجا منها الاصقلية تحت حكم أحد عائلة البربون وكذلك سردانيا تحت حكم أحد عائلة ساقوويا ثم عند سقوط الامبراطور المذكور ١٢٣٠ ه سنة ١٨١٤ م انقسمت ايطاليا الى سبع ممالك كل منها مستقل وهى مملكة رومية تحت حكم البابا الروحى والملكى ومملكة سردانيا تحت حكم عائلة ساقوويا ويتبع الجزيرة قسم من القارة الشمالية الغربية ومملكة اللمباردية تحت ولاية امبراطور النمسا ومملكة بارمة تحت ولاية نسل امرأة نابليون الاول ومملكة مودينا تحت ولاية دوك من عائلة امبراطور

النمسا ومملكة توسكانا تحت ولاية دولة من تلك العائلة أيضا ومملكة نابلى ويتبعها صقلية تحت ولاية أحد عائلة البربون

مطلب

﴿فى تاريخها الجديد﴾

اعلم ان دولة السارد واحدى الممالك المذكورة قد أسست القوانين والحرية الشخصية ومشاركة الامة فى السياسة الكلية من عهد شارل البرت المتولى ١٢٤٧ هـ سنة ١٨٣١ م وكان من همه استقلال ايطاليا واتحادها تحت علم الحرية لكنه لم يصادف رجالا ذوى همم تعين على المقصود الى أن تنازل عن الملك لولده فكتور امانويل ١٢٦٦ هـ سنة ١٨٤٩ م وكانت دولته لها التقدم من جهة القوة المعنوية لانها ذات قوانين وحرية عادلة وان كانت مملكة نابلى أعظم قوة صورية وأما بقية الاقسام فما كان منها تحت النمسا أو معنى فالاهالى نافرون منه وان كان بعضهم له الحرية والقوانين كما أن ما كان تحت البابا كان يجرى فيه الظلم بحسب الشهوات فدام الحال على ذلك الى ١٢٦٩ هـ سنة ١٨٥٢ م حيث وقعت الحرب بين الدولة العثمانية والروسيا وتعاضدت فرانسا وانكلترة على اعانة الدولة العثمانية وكان ملك دولة السارد المذكور ملكا عاقلا واستوزر رو زيرا ذا دهاء وفطنة وهو كافور وكان يأتمنه ويثق اذا الى نصائحه كما ان الاهالى لهم اعتماد على صدقه ووفائه بحقوق الوطن وكان فيه من الاهلية ما أعانه على اتحاد ايطاليا بتدبيره وسعيه كما سيتلى عليك فقد عمل الجهد واتفق مع فرانسا على اعانة الدولة العثمانية فى الحرب المذكورة وأرسل عساكره البالغة اثنى عشرة الفا وسفنه مع قوات الدولة الكبيرة وكان ذلك أول خطوة لايطاليا فى الدخول فى زمرة الدول العظام فى الاعصر الاخيرة ثم بعد وقوع الصلح وقع الاتفاق بين دولة السارد ودولة فرانسا على اخراج ما بيد النمسا من ايطاليا وضمه الى دولة السارد وعلى أن تعطى هاته الى فرانسا وطنى ساقوى ونيس اللذان هما فى حدود فرانسا جهة ايطاليا حول الشامات بدعوى أن أصلهما من جنس الفرانسيس وأسس نابليون الثالث ملك فرانسا من ذلك الوقت قاعدة اتحاد الجنسية أى ان كل جنس من البشر له حق الوحدة فى انشائه دولة مستقلة اذا كانت فيه أهلية لذلك وساعده على هذا المقصد كون مملكة فرانسا كلها جنسها متحد فرانساوى فلا يخشى على مملكته

مملكته من تلك القاعدة كان مستعمراتها يدعى ان ليس لاهلها أهلية لدعوى الوحدة وعند حصولها لهم لا ينتفعهم من ذلك وعند اشهاره لهاته القاعدة وارادته الاعانة على انفاذها فى العالم كان عقلاء الفرانسيس معارضين له فيها ومن أشهر المضادين له تيرس ذو الشهرة بالتدبير والسياسة وكان يصرح فى مجالس الندوة ان هاتيك القاعدة تؤول بالوبال على فرانسا الامن حيث الخوف من تفرق أهلها لانهم من جنس واحد ولكن من جهة تقوى جيرانها كايطاليا والمانيا فان الجار اذا كان ضعيفا لجاره القوى يكون آمنا منه بل يكون له النفوذ فيه بخلاف الجار القوى فانه يأبى الضيم ويقع معه التشاحن المؤدى الى الحرب التى تجهل عاقبتها فضلا عما تستلزمه من الخسائر المحققة فى الدماء والاموال غيرأن صراخه لم يثمر شيأ لان دولة فرانسا فى مدة امبراطورية نابليون الثالث ولان كانت قانونية شورية ظاهرا فانها فى الباطن استبدادية فى السياسة العامة وكل ما يريده الامبراطور يتم غرضه فيه ولذلك أعانت دولة فرانسا وطلب النمسا أن تسلم فى الولايات الطليانية لدولة الساردو وأعلنت الحرب لذلك وتعاضدت فرانسا والساردو على حرب النمسا وحدها وقد كانت أنشئت جمعية أهلية طليانية تسمى جمعية وحدة ايطاليا تحت رياسة رجل منهم شهير بالشجاعة وحب الوطن وهو كاريبالدى وتعسكر تحته كثير من المتطوعين الطليانيين من جميع جهات ايطاليا وأعانوا الساردو والفرانسيس واستعرت الحرب وكان ملوك الدول الثلاث فى معسكراتهم وان كان قسم وحدة ايطاليا كله تحت رياسة امبراطور الفرانسيس وانخذلت النمسا ووقع الصلح المسمى بصلح زوريك نسبة للبلد التى امضيت فيها الشروط وبمقتضاها سلم امبراطور النمسا فى مملكة لمباردية الى امبراطور الفرانسيس وهو احالها الى ملك سردانيا كما سلم له هذا فى ولايتى نيس وساقوا وذلك ١٢٧٦ ﻫ سنة ١٨٥٩ م وبينما كانت الحرب مستعرة فى ميادين لمباردية واذا ببقية ايطاليا ثارت من جميع الجهات منادية بالوحدة تحت راية كاريبالدى الى ملك الساردو فاما الممالك الشمالية فعقدوا مجامع فى عدة مدن للتدبير فى أمرهم واستقر أمرهم على الاتحاد ورضيت به الامة فانخلع ملوكهم طوعا وسلمت ممالكهم الى ملك الساردو (وأما) الجهة الوسطى وهى مملكة رومية فخرج منها ولايتان اتحدتا مع بقية ايطاليا وبقيت مدينة رومة وما تبعها للبابا لان الفرانسيس أبى على الساردو اذاية البابا حيث ان الرهبان لهم نفوذ على العائلات العالية فى فرانسا والامبراطور يتقى جانبهم فالزم الساردو والحيادة عن البابا وأرسل الفرانسيس الى رومة لحماية البابا من

ثورة رعاياه قسما من العساكر الفرانساوية تواسطولاعلى مرسى شيفى تافيكيا (وأما الجهة) الجنوبية فثار أهاليها أيضا ونادوا بالوحدة تحت راية كاريبالدى ثم وردت لهم عساكر الساردو واشتدت الحرب مع مالك نابلى الى أن قهر وفر هارباوتمت وحدة ايطاليا بذلك ١٢٧٧ هـ سنة ١٨٦٠ م وقبل فيكتورامانويل الثانى الملقب بملك ايطاليا غيرانه بقى خارجا عنها بقية مملكة رومية وولاية فينيسيا التى تحت النمسا الان امبراطور الفرانسيس فى الحرب المار ذكرها استشعر بان الروسيا تريد الاعلان بالحرب ضده اذا طالت المدة فعجل بايقاع شروط الصلح مغتنما بهجة النصر بما أمكن وبذلك وحماية البابا لم تتم منة الفرانسيس على ايطاليا ثم ابتنت على قاعدة الوحدة الجنسية المار ذكرها دعوى المانيا التى كانت اذ ذاك تحت رياسة النمسا الحق فى الاستيلاء على ولايتى الهولستين والشولسويغ الاثنين هما من جنس الالمان وولايتهما كانت بالوراثة راجعة الى مالك الدانيمرك وأجرى فيهما قوانين مملكة الدانيمرك فادعت المانيا بلزوم اخراجهما ولحوقهما بالمانيا وأعلنت بسبب ذلك الحرب بين دولة النمسا صاحبة الرياسة ومعها دولة البروسيا التى هى أكبر دول المانيا وبين دولة الدانيمرك الصغيرة واستغاثت هاته بكبار دول أوروبا وكانت دولة انكلترة مع مصاهرة عائلتى الملك بينهما وبين الدنيمرك مسلمة بالحق للدانيمرك ومتيقنة بان حرب المانيا معها مضر بالاخوة بالموازنة الاوروباوية حتى قال اللورد بالمرستون كبير وزراء انكلترة اذ ذاك ان هاته شرارة ألقيت فى أوروبا لا تلبث أن تشتعل منها نارا غيرانه أحجم عن العمل لان فرانسا كانت مخالفة له ومضية لقاعدة الوحدة فاشتبكت الحرب بين المانيا والدنيمرك وغلبت هاته فى أقرب وقت وأخذت الولايتين منها غيرانه اشتد النزاع فيما بعد بين النمسا وبروسيا وذلك أن المانيا كما تقدم فى المقدمة منقسمة الى عدة ممالك وقد كانت الرياسة عليها متداولة بين دولتين النمسا والبروسيا حسب السطوة والاقتدار واستقرت مدة الرياسة بيد النمسا غير أن الدولة البروسيانية حانقة من ذلك ولم تساعفها الاحوال للغرض وقد كان ولى عليها مالك عاقل ذو خبرة وتبصر بالعواقب وهو افريدارك الكبير فاعطى الحرية للاهالى من نفسه ومن ذلك الوقت أخذت بروسيا فى التقدم واتساع المعارف وكان من قوانينها ان الاهالى كلهم تجب عليهم الخدمة العسكرية حتى انهم فى وقت الحرب يكونون كلهم عساكر وبذلك صارت دولة حربية قوية أيضا غيرانها مع ذلك لم تساعفها الظروف الحالية لانفاذ مقصدها فى الاستيلاء على الرياسة الالمانية الى أن تولى الملك غليوم الملك الحالى

فاستوزر

فاسـتوزر رجلا ذا نبهر فى السياسة وجد فى العمل وهو الامير بيزمرك وكان الملك طاهـلا بافكاره حتى حصلت له ضـديه من بطانة الملك وأهل بيته بل ومن مجلس نواب الامة أيضا عند ما رسم بوجوب الزيادة فى القوة العسكرية اذ علم انها الوسيلة لاتمام الامل مع حسن اجراء السياسة فى الداخل والخارج لكن الملك لم يقبـل فيـه قول قائل لسيره لافكاره ومقاصـده حتى انه لما خالفه مجلس النواب أمر بحله وانتـداب الامـة الى انتخاب غـيره تحفظا على سياسة وزيره وبقى الوزير فى خطته وعمل بما رسمه ثم وقعت الواقعة المشار اليها مع الدانيمرك وكانت دولة البروسـيا أوعزت الى فرانسا استحسان قاعـدة الامبراطور نابليون الثالث فى وحدة الجنسـية واطمعتها بفوائد لو ساعـدها ولو معـنى فقط عـلى ابعاد النمسا من بقيـة المانيا كما أن بيزمرك أوعز الى بقية ممالك المانيا بالتنفير من رياسة النمسا عليهـم لانها ليست من جنسهـم خاصـة بـل هى مركبـة من أعضاء متعـددة وليس الالمان فيها الا جزأ من الاجزاء ودام اغـراء صـدورهم الى أن أثر فيهـم أشـد التأثير ثم حصلت المنازعة بين النمسا والبروسيا عـلى الاستيلاء على الولايتين المأخوذتين من الدانيمرك وفى اثناء النزاع أغرت البروسيا دولة ايطاليا بالمعاضدة معها لاخراج بقية ايطاليا من تحت النمسا فاعلنت الحرب بين البروسيا ومعها ايطاليا وبين النمسا فكانت النمسا غالبـة لايطاليا لكنها مغـلوبة غلبا فظيعـا لبروسـيا وذلك لان البروسيا كانت اخترعت نوعا من المكاحل مـدسا يحشى من أسفله و يثور بارودة باندفاع ابرة من أسفل المكحلة و يسمى هذا النوع المكحلة ذات الابرة وكان أبعد مرمى وأسرع انطلاقا من النوع القديم بكثير فكانت عساكر النمسا يصيبهم رمى عدوهم المتوالى كالمطر الدافق من غير أن يصيب رميهم عدوهـم ولو بواحدة وكان صف العساكر يخر ميتا دفعة من قبل أن يتمكن من رمى عدوه الى أن ضجت عساكر النمسا ولم يكن لهـم من وجه للتخليص الاعقد الصلح بمطالبته البروسـيا ومن العجب أن ذلك السلاح كانت عساكر بروسيا مقلدة ومجاربة به للدانيمرك عند تعاضدهـم مع النمسا ولم يلتفت اليـه أحد اذ ذاك ولا تهيأت النمسا لمقابلته فوقع الصلح ١٢٨٣ هـ سـنة ١٨٦٦ م على أن البروسيا تتولى تلك الولايتين وتدخل فيها أيضا مملكة الهانوفر والهاس ودوكاتوناسو وبلاد فرنكفورت الحرة وان تخرج النمسا عن رياسة العصبة الجرمانية بالمرة وتبقى ممالك جرمانيا الشمالى منها داخل تحت رياسة البروسيا مستقل بادارته والجنوبى منها له معاضدة مع البروسيا لكن ليس داخلا تحت رياستها تماما الى

أن وقعت الحرب مع فرانسا كما سيأتى فى محله كما تضمنت شروط الصلح أيضا تنازل النمسا عن ولاية فينيسيا الى امبراطور الفرانسيس وهو سلمها للطاليان وذلك لانه هو الذى تداخل بالصلح عندما رأى فظاعة تقهقر النمسا ثم لما انهزمت فرانسا فى حربها مع المانيا ١٢٨٧ ه سنة ١٨٧٠ م واضطرت الى اخراج جيشها من رومة تم اتحاد ايطاليا بجعل مدينة رومة تخت المملكة فدخلتها جيوش الملك فيكتور امانويل والثائرون بعد محاربة ضعيفة من عساكر البابا وبقى البابا حاكما روحيا على الكاتوليك واتحد الحكم السياسى لمملكة ايطاليا ولم يبق خارجا عنها سوى صان مرينو التى أهاليها نحو سبعة آلاف نسمة فانها مستقلة بنفسها وكذلك صان بيترو وهى كنيسة رومية الكبرى والفاتيكان وهو محل استقرار البابا وبقيت قطعة أخرى على شاطئ البنادقة العليا الحاوية لمرسى ترست تحت يد النمسا وفى نفوس الطليانيين الدعوى باستحقاقهم ثم ان المزية فى ذلك الاتحاد والتى كانت الى الملك فيكتور امانويل لاجرائه للقوانين فى مملكته حتى أحبه سائر ايطاليا وفاز بالشهرة بذلك وزيره كافور لمهارته وحزمه فى ادارة السياسة العامة وجلب المساعدة من الخارج وتقديم الاهم فالاهم لكن للامة الطليانية أيضا الحظ الاوفر من ذلك الفخر حيث هيأت نفسها واستعدت لانفاذ ذلك المراد بفتح بصائرها وتمييزها السقيم من المستقيم ومعرفتها بما يؤول لخيرها حتى كانت تعقد لذلك الجمعيات السرية فى أقطار المملكة وتتواصل المخابرات بينهم فى الاستعداد وغرس حب الوطن والنفرة من الضيم ومن تلك الجمعيات الجمعية المسماة بالفرمسيون التى نهاية قسمها انشر الحرية من غير اذاية لاحد على شروط عندهم وتحملت تلك الجمعيات مصاعب كبيرة فى عدة جهات ومع ذلك لم يفتر عزمهم وآثروا النفع العام على حظوظهم الشخصية الى أن وجدوا يد المساعدة من دولة السارد والمستعدة لمسايرتهم ومونة فنادوا بها من جميع أطراف المملكة وكان كارى بالدى مظهر وجود تلك الجمعيات التى كانت تنفق على متطوعيه كانفاق دولة على عساكرها وذلك الزعيم لما تم مقصد ايطاليا رامت الدولة مكافأته بترقيته فى الرتب العالية فاحتسب عمله لفخر بلاده وأبى قبول شئ مامع احتياجه ومن أهم مساعدات البحث وجود قاعدة نابليون الثالث السابق ذكرها ويقال انها مؤسسة منه قصدا لانه يدعى بانه كان من أعضاء الفرمسيون وانه لما كان منفيا بايطاليا وعد جماعته بالمساعدة اذا تولى ملك فرانسا واعانته لها اعتبار عظيم لانها كسرت سورة النمسا ذات الشأن فلولم تقع مساعدة فرانسا لكانت النمسا أول مخضد لشوكة الاتحاد ولو أنها ترى الحرب لاجل ذلك مع غيرها

(كنا بلى

(كنا بلى مثلا) لانها تعلم ان المآل بالمضرة لها حسبما قيل أقسم بحكم فتنة فرانسا الاتنكر فى ذلك لان احياء الامة بعد الاندثار وتغلب الدول العظيمة عليها لا يمكن بدون مساعدة دولة ذات شأن واقتدار كما بينه الاستقراء ومن غرائب ما سمعته من جهة علوم الحدثان هو أن نابليون الثالث زار ايطاليا اثر تمام اعانته لها وفى مسامرة الوليمة التى أعدت له من ملك ايطاليا كانت امرأة عجوز من الاعيان حاضرة فاختلت بالامبراطور مع بعض الاعيان المقربين اليه وقالت له هل وجدت ما قلته لك صدقا فقال نعم فقالت لكن ما أدرى كيف الحال فى الباقى فسقطها وفض المجلس فسألها أحد الحاضرين عن معنى كلامها فقالت انها تعلم نوعا من الحدثان وانها كانت أخبرت نابليون مدة هروبه بايطاليا قبل ولايته على فرانسا بجميع ما يقع له ومنه أنه يخلع بعد حرب وقدحان وقتها ولذا قطع الكلام وقد رويت هاته الحكاية عن ثقة قبل حرب فرانسا وبروسيا ١٢٨٧ هـ سنة ١٨٧٠ م فلم يطل الزمن حتى كان الامر كما ذكرت والله أعلم بكيفية علمها بما ذكر فان بعض أنواع ذلك الفن لا يتوقف على صلاح ولا على دين بل كالعلم وصناعة وفى مقدمة ابن خلدون كفاية لبيان ذلك (وأما أسماء ملوك ايطاليا) فان لها الآن ملكان فقط (الاول) فيكتور امانويل الثانى ابنه اميرتو (وذلك) لقرب العهد بالاتحاد نعم ان الملك الاول كان ملكا على الساردو وهو من عائلة ساقويا التى لها رسوخ فى الملك والامارة من قديم

مطلب

(فى الادارة الداخلية)

(أعلم) ان الادارة عندهم منقسمة الى كليتين (الاولى) هى ما يتعلق بالادارة العامة (والثانية) ما يتعلق باجراء الاحكام الشخصية (فكل) منهما ادارة مستقلة عن الاخرى ولا دخل لها فيها وكل من الادارتين راجعة الى رئيس الدولة وهو الملك فدولة ايطاليا دولة ملكية والملك ادارة السياسة العامة داخلية وخارجية ورياسة القوات الحربية برية كانت أو بحرية وعقد المعاهدات والحرب والصلح ورياسة الاحكام الشخصية وتنفيذها لكنه لا يتصرف فى كل ذلك الا على مقتضى قانون مرتب معلوم وملخص كيفيته ان الملك يتصرف فى جميع ما تقدم بواسطة الوزراء وهو ينتخب الوزير الاول أى صاحب رياسة الوزراء ويكلفه بأن ينتخب هو بقية الوزراء ممن توفرت فيهم شروط

الاهالية وبعد اختيارهم يعرضهم على الملك وهو يوظفهم في وزاراتهم وهي وزارة الداخلية والخارجية والمال والاحكام والتجارة والمعارف والنافعة والديانة والحرب والبحر وقد يتقلد رئيس الوزراء احدى ثلاث الوزارات مع الرياسة وقد يجمع بين صغارها كالتجارة والنافعة والمعارف وكل وزير له حدود في ادارته يكون هو المسؤل عنها (وهناك) مسائل تجتمع فيها المسؤلية على الجميع وما يستقر عليه رأى الوزراء منفردين أو مجتمعين يمضيه الملك وان لم يره يعرضه على المجالس الآتي بيانها فان وافقوا الوزراء امضى الملك وان خالفوهم واصر الوزراء على رأيهم لزمهم الاستعفاء وينتخب الملك غيرهم كما انه اذا وافق الملك الوزراء وخالفهم المجلس فللملك الخيار ان شاء انتخب وزراء آخرين وان شاء حل المجلس واذن العامة بانتخاب غيره ومن حقوق الوزراء الحضور في مجلس النواب والاعيان للمناضلة عن اعمالهم ثم وراء اعمال الوزراء مجلسان (احدهما) يسمى مجلس الاعيان ووظيفة اعضائه عمرية وينتخبهم الملك من عموم اهل المملكة الاعيان واعيان المتوظفين وجميع اعضاء العائلة الملكية اذا بلغ الرجل منهم احدى وعشرين سنة ولكن ليس له رأى وصوت يقبل الا اذا بلغ خمسا وعشرين سنة ولذلك لم يكن عدد اعضاء المجلس محصورا وكان مقتضى قواعدهم أن يكون من اعضائه كبراء الديانة لكنه لما كان البابا مضادا للملك ايطاليا حيث نزع منه السلطة الملكية كان جميع رؤساء الديانة مضادين للحكومة الطليانية ويرونها عاصية فلا يتداخلون في امرها بل لهم سعى في ابطالها واعادة سلطة البابا لكن العقلاء منهم الذين يؤثرون نفع الامة عموما على حظوظ نفوسهم يعملون ما ذكر ظاهرا فقط قياما بوظائفهم الدينية واما باطنا فهم مع الدولة (ووظيفة) هذا المجلس هو الرأى في الاحتساب على أعمال سائر المتوظفين وفصل النوازل التي يقع فيها الخصام بين المتوظفين مما يرجع الى الوظيف واستحسان أو استقباح ما يرد من مجلس النواب بحيث لا يمضى شئ من تراتيبه الا بعد مصادقة مجلس الاعيان عليه وهو الحاكم في الجنايات السياسية (والمجلس الثاني) هو مجلس النواب واعضاؤه تنتخبهم الاهالي من عموم المملكة فكل قسم من المملكة ينتخب عددا على قدر عدد سكانه بأن يكون على كل خمسة وثلاثين ألف نسمة عضو واحد بشروط في الذين ينتخبون وأن يكون كل منهم ذكرا طليانيا بلغ من العمر خمسا وعشرين سنة وأن يكون غير محجور عليه وأن يعرف القراءة والكتابة وأن يكون مؤديا للدولة أربعين فرنكا في السنة من أي طريق كان من أنواع الاداء ويستثنى من هذا أقسام لهم

امتياز

امتياز بالعلم والتجارة فلهم الانتخاب مطلقا كما يشترط فيمن ينتخب لان يكون عضوا أن يكون طاليانيا وأن يعرف بالرشد وأن يبلغ ثلاثين سنة وأن لا يكون متوظفاله مرتب من الدولة نعم يغتفر فى الشرط الاخير اذا لم يبلغ عدد أهله فى المجلس قدر الخمس ووظيفة هذا المجلس هى المحافظة على القوانين الموجودة وتغيير ما يرى تغييره وتحرير ميزان الدخل والخرج وترتيب كيفية توزيع دخل الدولة على الاهالى والاحتساب على جميع أعمال الدولة ويوجد مجلس آخر يسمى مجلس الشورى ينتخب أعضاءه الملك من أعيان المتوظفين ووظيفة هذا المجلس هى اعطاء الرأى فيما يعرضه عليه الوزراء من المسائل وتهذيب القوانين لتعرض على من له قبولها من المجالس ثم ان تنفيذ جميع الاعمال منوط بالوزراء وهم المسؤلون عما يقع من الخلل بمباشرتهم أو بواسطة من يعينونه للمباشرة فى الوظائف ومسؤليتهم لمجلس النواب ولمجلس الاعيان فهذا هو ترتيب تصرفات الدولة (وأما) الادارة فى الولايات فقد تقدم ان المملكة منقسمة الى اثنتى عشرة ولاية كبرى وكل منها لها أقسام حتى صار مجموعها تسعة وستين ولاية ثم الولايات فى ذاتها لها (أقسام) صغرى وهاته تحتها أقسام أصغر منها فلكل ولاية وال معين من الدولة وله مجلس يسميه الملك ومدة وظيفتهم ليست محددة وأمور يتهم هى تنفيذ أوامر الدولة وتنفيذ ما يستقر عليه رأى مجلس الولاية الآتى ذكره ولهم التدبر فيما يصلح بولايتهم وامضائه بعد موافقة المجلس المذكور عليه وفى كل ولاية أيضا مجلس أعضاؤه تنتخبهم الاهالى لمدة خمس سنين ويبدل خمسهم كل عام وعددهم على حسب عدد سكان الولاية لكنهم لا يتجاوزون الستين نفسا فيما اذا كان عدد السكان أزيد من ستمائة ألف وينقصون ان كان عدد السكان أقل ومدة اجتماعه مرة فى السنة تدوم على قدر الحاجة وأموريتهم هى تعيين المقادير اللازمة لمصاريف مصالح الايالة كتمهيد الطرقات وبناء الجسور والمكاتب والمستشفيات وتحسين البلدان وغير ذلك وأول ما يعتبر فى مقدار الدخل المقدار الذى يحصل من الاوقاف المعينة لاصلاح الولاية ثم ما يزيد عليه من المصاريف يوزع على الاهالى على نسبة ما يدفعونه لمداخيل الدولة ومن وظائفه أيضا تعيين حدود الولايات وتغييرها فيما بينها على حسب ما تقتضيه المصلحة (ويوجد) فى كل ولاية (أيضا) مجلس مركب من الاعضاء المنتخبين من تلك الولاية لمجلس النواب العام وأموريتهم مستمرة ما داموا أعضاء لمجلس النواب وادارتهم هى قبض وصرف المبالغ المعينة من المجلس السابق بواسطة الوالى ومجلسه ولهم الاطلاع على سائر أعمال المجالس

والمصالح المدارة فى ولاياتهم ثم ان كل وطن تحت الولاية فيه نائب عن الوالى مأمورية الاحتساب على أعمال المجالس البلدية الآتى ذكرها وايقاف مايراه من أعمالهم مخالفا للقوانين وانهاؤه الى الوالى ثم فى كل جهة و بلد مأمور من الدولة وله أعوان مكلف بحفظ راحة السكان وحراستهم من الجنايات والمشاجرات وهم المعروفون بالضابطيه كما (يوجد) فى الاوطان أقسام من العساكر ومكلف بكيفية أخذ العساكر من الاهالى على مقتضى القانون (وكذلك) يوجد فى كل بلد قرية أو مدينة مجلس بلد لاتتجاوز أعضاؤه الستين نفسا فى البلدان الكبيرة و ينقصون فى غيرها على حسب كبرها ينتخبهم أهالى البلد لمدة خمس سنين كما تقدم فى غيرهم وشروط انتخابهم كشروط مجلس النواب بنقصان فى شرط مقدار الآداء للحكومة ومأموريتهم مايتعلق بمصالح بلادهم والاحتساب على الضابطيه ومدة اجتماعهم مرتان فى السنة أو عند الاقتضاء ثم ينتخبون منهم لجنة لاتزيد أعضاؤها على ستة ولا ينقصون عن أربعة بحسب عدد سكان البلد تحت رياسة شيخ البلد لاجراء المصالح المتفق عليها فى بقية السنة ومن حقوق صاحب الملك أن يغلق جميع المجالس المتقدم ذكرها اذا رأى مايوجب ذلك بشرط أن ينتخب غيرهم وفيما يرجع الى انتخابه و يدعو الامة الى انتخاب من يرجع الى انتخابها فى مدة لاتتجاوز الثلاثة أشهر وفى مدة التعطيل يكلف الملك من يجرى المصالح التى ترجع الى المجلس المعطل وتكون عليه مسؤلية مايجريه ولا يعزل صاحب وظيفة الاعن ذنب أو نقل لغيرها فهذا كله فى القسم الاول من الادارة وهو الادارة السياسية (وأما) القسم الثانى وهو الادارة الحكمية فان فى كل بلد مجلسا يحكم فى الحقوق الشخصية ثم فى كل قاعدة من قواعد الاوطان مجلس لتحقيق الاحكام الصادرة من مجالس أحكام البلدان الراجعة لتلك القاعدة عندما يطلب الخصم تحقيق الحكم (ويستثنى) من ذلك النوازل الصغيرة ثم وراء ذلك مجلس آخر لتحرير أحكام مجالس التحقيق اذا طلب الخصم ذلك أيضا فى نوازل معينة ثم فى كل بلد مجلس للجنايات الخفيفة ومجلس للصلح يدعو الخصوم اليه وأحكام هاته المجالس يستندون فيها الى قوانين مرتبة عندهم عقلية مستخرجة من عدة قوانين قديمة للرومان واليونان وغيرهم موصلة الحقوق الى مستحقيها على مايرونه و زاجرة عن الجنايات ومراع فيها حالة البلاد وأخلاق الاهالى وعوائدهم واصطلاحهم ومجلس النواب يغير من قوانين الحكم ماتدعو المصلحة لتغييره بحسب تغير الزمان والعرف وقوانين الحكم معلن بها يتوصل اليها كل أحد ليعرف ماله وماعليه واذا تغير

عندهم

عندهم حكم مسئلة لايجرى العمل به الا بعد مدة لكى يكون الناس عالمين به واحكام مجالس الحكم وسماعهم للدعوى والجواب يكون عاما ولكل من أراد الحضور فى تلك المجالس أن يدخل اليها ويجلس فى مكان معد لذلك ليسمع ويرى لكنه ليس له التداخل فى الشئ من اعمال المجالس نعم اذا رأى شيأ مخالفا للقوانين فانه يرفعه ان له النظر فى حفظ القوانين أو يكتبه فى الصحف الخبرية و يعلن به وليس فى قوانينهم العقاب بالجلد وانما يعاقبون بالقصاص فى النفس وفى غيرها بالغرم المالى والسجن على حسب الجناية فى درجة عذاب السجن ومدته واحكام المجالس تنشر فى الصحيفة الخبرية المعدة لذلك لكى يعلم الحكم من اراده من العموم ووظيفة أعضاء مجالس الاحكام عمرية لا يعزل صاحبها عزل عقاب ولا تأخير ليكون فى اجراء الاحكام آمنا الا اذا ثبت عليه ذنب بمقتضى القانون فانه يعزل و يعاقب نعم يترقى العضو من مجلس الى غيره ومن بلد الى غيرها وذلك بيد وزير الاحكام على قانون لهم فى ذلك ولعموم الاهالى والواردين أيضا الحضور فى مجالس النواب ومجالس الاعيان لسماع مفاوضاتهم ولاصحاب الصحف الخبرية مكاتبون يحضرون فى تلك المجالس لينشروا جميع المفاوضات وكذلك فيها بيت معد للملك اذا اراد الحضور الغير الرسمى وفيها بيت معد لمن اراد الحضور من أعيان الاهالى والسفراء والوافدين تعطى لهم أوراق الاذن بالدخول اليها من الوزارة كما أن العامة انما يدخلون بورقة الاذن من الرئيس والحصول عليها سهل وانما يلزم الاذن لكى لا يزدحم الحاضرون فى مكان الاجتماع بان يكون عددهم أكثر مما يسعه المحل ولان فى المجالس جلسات سرية يضر افشاء خبرها فلا يسمع عندها بحضور غير الاعضاء بل ربما اعترى ذلك فى وسط الجلسة الجهرية فيؤذن للحاضرين بالانصراف

مطلب

قد تلخص مما تقدم ان دولة ايطاليا هى دولة ملكية قانونية شوروية وللاهالى الحرية الشخصية والسياسية فاما كونها ملكية فلان الرياسة والتصرف العام هو بيد ملك وراثى أعنى أن الملك ينتقل من الاب الى ابنه الاكبر فى عائلة مخصوصة ومن هذا الى ابنه الاكبر وهكذا وبقية العائلة الملكية تستخدم فى الوظائف كسائر أعيان الاهالى على حسب التأهل (وأما) كونها قانونية فلان التصرفات العامة والاحكام الخاصة كلها منضبطة بقواعد عقلية مدونة معروفة (وأما) كونها شوروية فلان تطبيق تلك

القوانين على الحوادث منـاط بآراء متعددة ووراءها أنظار أخر متعددة بحيث لا يمضى شئ الا ما يستقر عليه غالب آراء أهل الحل والعقد (وأما) كون الحرية الشخصية للاهالى فلان كلا منهم له الاطلاق فى التصرف فى نفسه وكسبه داخلا فى دائرة حدود القوانين لا يخشى من مجاوزتها عليه وهى كافلة له بالامن فى دينه ونفسه وماله وعرضه (وأما) كون الاهالى لهم الحرية السياسية فلان كلا منهم اذا توفرت فيه الشروط المؤهلة من صفاته الذاتية فله التداخل فى تدابير المصالح الكلية العائدة لوطنه ولكل منهم نشر أفكاره على العموم بواسطة المجامع أو الكتب والصحف الخبرية على شرط عدم الخروج عن حدود القوانين المراقب لها فى جمهوريتى جنسه

مطلب

﴿فى السياسة الخارجية لايطاليا﴾

(اعلم) أن دولة ايطاليا الآن هى سادسة الدول الاوروبية الكبار وهى المانيا وفرانسا وانكلترة والنمسا والروسيا وايطاليا فهاته الدول بما لهم من القوة واتساع نطاق التمدن صار لهم المداخلات فى كل ما يمس حقوقهم من سياسات العالم وشدة مراقبة بعضهم لبعض لا تترك احدهم ان يتداخل فى شئ يمكن منه لمس حقوق الآخرين ولو فى الوجاهة والنفوذ ولكنهم عموما يتجنبون المداخلات فى أحوال الدول ذات الانتظام لا لمجرد مراعاة الانتظام بل لان الانتظام يشيد حصونا على أبواب المداخلات باستناد أصحابها الى أصولهم وآراء العموم مع جريان سيرتهم على استقامة من القيام بواجباتهم فى أنفسهم والوفاء بحقوق المعاهدات الاجنبية ومع ذلك فالقوة فى الدول الكبيرة تغرى بالتداخل فى أحوال الضعيف كيفما كان الحال لكن الغيرة والتحاسد بين الكبار يوجب ردع بعضهم بعضا فاذا كان المصوب اليه سهام التداخل مستقيما فى نفسه وجد بقية الدول الكبار مستند الردع الجانى منهم على الضعيف اذ اختلاف منافعهم ومباينة مقاصدهم موجبة للاختلاف وعدم الاتحاد على الاضرار بالضعيف حيث ان الاضرار به لا يمكن أن يوفى بأغراض جميعهم فلا يسمح احدهم برجحان كفة غيره على كفة نفسه ولذلك يجد الضعيف راحة من اختلافهم الذى كانت أعماله باستقامته سببا فيه (أما) اذا كان فى نفسه غير مستقيم تورث سيرته الكوارث التى تقلق جميع الدول الكبيرة فيتحمون تحمل ضياع بعض أغراضهم ليسدوا باب التشاحن من قبيل ارتكاب أخف الضررين

الضررين وذلك لا ينشأ الا في الجهات التي تشترك فيها منافع الجميع (أما الجهات) التي تخص بعضا منهم فان المشاحنة انما تقع بين من له تشارك فيها فقط ولذلك كان لدولة ايطاليا مراقبة لاحوال شطوط البحر الابيض وكل الدول المجاورة لها ولم يكن يعنيها ما يقع في غربي أوروبا ولا ما يحصل في الصين والهند وأمثال ذلك نعم ليست درجة غربي أوروبا عندها كدرجة الصين والحاصل ان تداخلها هي أو غيرها على حسب منافعها السياسية والتجارية ولذلك كانت لها معاهدات مع الدول التي لها معها علاقة في السياسة أو التجارة وهاته الدول هي جميع دول أوروبا والدول التي على شطوط البحور من آسيا وغالب جهات أفريقيا ولها سفراء نواب عنها في تخوت تلك الممالك وهم على طبقات في المقام فلها سفراء من الدرجة العليا في الدول العظيمة التي لها معها مخالطة سياسية معتبرة ولها سفراء من الدرجة الثانية في غيرها من الدول المستقلة التي لها معها معاهدات ولها قناسل وهي رتبة أقل من السفير في الحكومات الغير المستقلة أو التي هي صغيرة وتارة تكلف بمصالحها نواب لمجرد الشرف بالرتبة من غير مرتب أو تكلف نواب بعض الدول الاخرى كل ذلك في الممالك التي تقل خلطتها معها ولكل سفير أو مكلف نواب وأعوان ومحل ادارة يسمى بالسفارة كانه وزارة تنفق عليها الاموال في المرتبات وغيرها وكل دولة فيها سفير من ايطاليا يلزم أن يكون لها هي أيضا سفير فيها على قدر مصالح تلك الدولة وهي قاعدة مطردة في سائر الدول بالنسبة لسيرتهم في الخارجية ومنذ سنة ١٢٧١ هـ ١٨٥٤ م دخلت ايطاليا في عقد المعاهدات العامة بين الدول الكبيرة وان كانت اذ ذاك دخلت بصفة دولة سردانيا حيث انعقد الصلح بين الدولة العلية والروسيا وعقدت له شروط معاهدة باريس التي اجتمع لها نواب الدول الكبار الست الاوروباوية ونواب الدولة العلية ووقع الجميع على المعاهدة وكان منهم نواب سردانيا لدخول دولتهم في الحرب كما سبقت الاشارة اليه

فصل

(في بعض عوائد أهالي ايطاليا وبعض صفاتهم)

اعلم ان سكان ايطاليا من أبناء أجناس من الامم الذين وفدوا عليها قديما واتحد الجميع بصفة الطليانيين منذ قديم وديانتهم عموما مسيحيه على المذهب الكاتوليكي وهو مذهب الدولة وكثير ممن تفننوا في العلوم الرياضية قادتهم الطبيعيات فصاروا لا يعتقدون شيأ من

الديانات ظنا منهم انها جميعا مردودة بالعقل مثل ما يرون من عقائد ديانة النصارى واليهود لكن عقلاؤهم يقرون بالخالق جل وعلا ولو اطلعوا حقيقة على حقائق الديانة الاسلامية لما وسعهم من الانصاف الا اتباعها لمطابقتها للعقل وسطوع برهانها والمسؤل عن عدم ابلاغ الشريعة اليهم على حقيقتها هم من أناط الله بهم ذلك على ما سيأتى ايضاحه فى الخاتمة ان شاء الله تعالى وسكان ايطاليا هم بيض أقوياء مدنهم أكثر أهاليها مهذبون

(وأما القرى) والبوادى فهم على الخشونة والاعتقاد التقليدى البحت للقسوس وهم أصحاب جد فى العمل والاشغال وأصحاب الاعمال البدنية يبكرون الى أشغالهم (وأما) ذوو الترف والاحكام فانهم يطلبون السهر ويفيقون من نومهم مؤخرا ولا يبتدئون الاشغال الا قبل الزوال بساعة أو ساعتين أو عند الزوال وكثيرا ما يدعو الاحباء بعضهم بعضا للسمر والرقص فى منازلهم وتارة يستدعونهم للعشاء مع ذلك وتارة يقتصرون على تقدم فواكه وحلويات وخمور وليس من عاداتهم الحياء مثل ما هو عندنا فترى البنت تخاطب زوجها وتفاكهه أمام والديها بل وتفعل مثل ذلك مع خطيبها وترقص مع الرجال أمامهم هذا فى البنات فكيف بالبنين وعندهم ان الغناء ليس بعيب من النساء فترى أكبر الاعيان يحتفل فى داره بدعوة عامة وتصير بنته أو زوجته أو احدى النسوة الاعيان المدعوات تغنى فى ذلك الملأ وترقص مع الرجال على اشكال شتى من معانقة ومخاصرة وغيرها ولا تأثيم من ذلك بل يرونه اكراما بحيث أن المسلم الغيور يكاد يتفطر مما يرى

(وأما الرجال) الأعيان فالرقص عندهم مع النساء ولو فى المواكب غير معيب لكن الغناء منهم معيب والنسوة يخرجن مكشوفات الوجوه ويتعاطين من الاشغال مثل الرجال الا الاشغال الشاقة والتعاليم للعلوم العالية ويصاحبن الاجانب عن قرابتهن مثل الرجال ويقول رجالهم ان الذى حمل المسلمين على حجب النساء ما فى طباعهم من الخيانة وشدة الحجب توجب شدة الشوق وحيث انا على خلاف ذلك فالامن على نسائنا محقق والتى لا يحميها عرضها لا يحميها حائط دارها هذا مدار كلامهم وهو خطأ فاحش اذ موجب الحجب أمر طبيعى فى سائر البشر بل فى سائر الحيوانات ومن المعلوم ان لكل شئ سببا فرؤية الذات والوجه مكشوفا ثم المكالمة ثم المداعبة ثم الرقص فى حالة شرب الخمر والطرب ثم المخاصرة كلها أسباب تدعو الى الاتفاق طمعا الى ما وراءها بلا شك واثبات ذلك بالوجود أقوى دليل حتى صار من عوائدهم ان البكارة هى التى لم تتزوج صاحبتها من غير نظر الى حقيقتها الاصلية والزيادة على هذا فى الاستدلال خارج عن موضوعنا

ومنصفهم يقر بذلك لا محالة وقد غلط من ادعى ان ديانة تبيح النظر لوجه المرأة وهو جهل بعدم التفرقة بين كون وجه المرأة ليس بعورة وكذا كفاها وقدماها حتى يجوز لغير محرمها النظر الى تلك الاعضاء وكذلك النسوة امثالها وبين كون الوجه يجب ستره عن الرجال الاجانب مطلقا لخوف الفتنة بنص الكتاب فى قوله تعالى وليضربن بخمرهن على جيوبهن الآية وذلك هو الحق المستقيم والمشاهدة أقوى دليل فكل بلاد حافظت على ذلك قلت فيها الفاحشة حتى كادت أن لا تقع وكل بلاد تساهلت فى خروج النساء مكشوفات الوجوه بالبراقع الصفيقة وغض النظر عن مكالمة النسوة للرجال والمزاحمة فى الاسواق والجامع فشت فيها الفاحشة واتخذ رجالها حبراء مسارتهم التكلم بوقائعهم مع النساء سواء كانت بلادة اسلامية أو افرنجية وقاب الحقائق واخفاء الجهر وعكس الطبائع ليس فى الوسع ولا يحاوله ذو انسانية وأهالى ايطاليا يستعملون الموسيقى ذات آلات النفخ وذات الاوتار وهم برعاء فيها والحانهم هى ألحان الاروباويين وهى ألحان مخالفة للالحان المعروفة عند المشرقيين والعرب وأهالى أفريقية الشمالية حتى ان هاته الالحان لا يحصل منها ما يحصل من السماع لهؤلاء وبالتعود تصير مؤثرة فى النفس ولها تعاليم مخصوصة معتنى بها ولا يدقونها الا على تطبيق لما هو مرسوم فى أوراق خاصة على اشكال يتبعها صوت النغمات بحيث ان كل صاحب آلة تكون أمامه تلك الاوراق ينظر فيها ويدق على نحوها ولا يدقون من محفوظاتهم الا قليلا وأهل البادية وبعض القرى لهم آلات من مزامير بالجلود ينفخونها بلا أوراق وفى كل بلدة مراسح للعب والتلاهى على حسب كبر البلدة تفتح ليلا للسهر وتشكل فيها ألعاب على صور تاريخية مرثية أو للغناء والسماع ولهم تقدم وشهرة فى ذلك على سائر أهالى أوروبا والاهالى عموما ذوو رجولية فى التمسك بالآلات الحربية حتى لا تكاد تجد من لا يحمل السلاح الصغير الخفيف مخفيا ويركبون الخيل رجالا ونساء غير أن المرأة تركب السرج بلا فتح لرجليها بل انها تثنى رجلها اليمنى على مقدمة السرج ورجلها اليسرى تضعها فى الركاب وعادة الاهالى فى السلام عند الملاقاة هى المصافحة مع هز اليد ويقول احدهما للآخر يوم حسن أو ليل حسن واذا قدم مسافر على حبيبه أو قريبه قبله فى فمه ولو الولد مع والده أو امرأة مع قريبها لكن النسوة يزدن ان الحبيبات متى اجتمعن قبلن بعضهن فى الافواه والرجال لا بد فى سلامهم من كشف رؤس بعضهم لبعض والرفيع بالنسبة للوضيع يضع يده على قلنسوته كأنه يريد رفعها فقط واذا دخل وارد على آخر فى بيته لا يجلس

الاو هاما مكشوفا الرأس وهى عادة جارية فى جلوسهم فى بيوتهم مكشوفى الرؤس الا من كان به أذى من رأسه ومن عاداتهم أن لا يبعدوا المشى لتلقى القادم لكنهم يبعدون التشييع ومن الآداب أن يحدث أحدهم كلا ما لصاحبه عند الفراق فيتمه فى حالة الوداع ويتصافحون أيضا عند ذلك

مطلب

(فى التجارة)

الطليانيون لهم مهارة فى التجارة كغيرهم من أهالى أوربا فرادى ومجتمعين والذى وسع تجارتهم هو عقد الشركات فأموال الواحد لا تكفى لمزيد الاتساع فى التجارة ولذلك يعقدون شركات ذات أسهام عديدة ويقيضون للمباشرة بعضا منهم ممن يأتمنونه وتكون لشركاتهم فروع فى الاقطار التى يواصلون معهم التجارة ويعلنون كيفية التجارة والبضاعة وأسعارها وكيفية ايصالها بواسطة الصحف الخبرية وبأوراق وكتب يودعونها مجانا او يرسلون الرسل لاكتشاف تجارات البلدان والاقطار وان بعدت ويشهرون بها تجارتهم ودولتهم تحميهم فى أنفسهم وأموالهم أينما حلوا ولا تقتصر تجارتهم على نتائج بلادهم ثم اذا لم توف أموال الافراد والشركات بالمقصود من التجارة تراهم يقترضون من ديار الصيارفة وهؤلاء الصيارفة هم ذو والاموال اما ان تكون لواحد أو لعائلة أو للعموم بان يكون كل من له شئ من المال ولا يريد التعب فى ترويجه والربح منه لعجز أو غيره فانه يدفع ماله لاحدى ديار الصرافين المسماة عندهم بالبنوك ويأخذ منها حجة فى مقدار ما دفع وتاريخه ويأخذه لى ذلك ربا فى كل سنة وهو لا يجاوز ستة على المائة فى السنة ومهما أراد رأس ماله فانه يحاسب على مقدار ما بقى عند الصراف ويأخذ ربحه ورأس ماله حالا وكذلك اذا أراد أخذ البعض من رأس المال فله ذلك وكذلك اذا أراد ارجاع ما أخذ أو أكثر أو أقل فله أن يدفع متى أراد ويأخذ متى أراد ويحاسب متى أراد فسهل بذلك ادارة أموال العاجزين مع أرباحهم ثم ان البنك الذى يأخذ الارباح على النحو المذكور يدفعه لمن يريد الاستقراض بزيادة فى مقدار الربا على ما يعطى هو وهاته الزيادة محدودة لا تجاوز العشرة على المائه فى السنة وكل من مقدار المدفوع والمأخوذ مختلف بحسب البنوك والبلدان لكنه على كل حال لا يتجاوز الحدود المذكورة المعينة بالقوانين حتى ان من تجاوزها يعد سارقا ثم اعطاء البنوك المال للمستقرضين انما يكون برهن أو لمن له اعتبار

يأتمنه

يأتمنه به صاحب البنك ثم ان بعض أصحاب البنوك تجيزهم الدولة على قانون معلوم بان يخرجوا أوراقا تتداولها الناس عوضا عن النقدين بشرط أن لا تتجاوز الضعف مثلا من مقدار رأس المال وبعض تلك البنوك مخصوص بالفلاحة وبعضها اطلاق وبما تقدم تجد التجارة رائجة بين أيدي السكان بأكثر من أضعاف كسبهم وأهم الوسائط لتزييدها الحوالات المالية وهي ان التاجر يشتري شيأ أو يأخذ مالا من أحد ويعطيه حوالة بقبض ما يطلب منه على أحد التجار أو البنوك على أن يقبضه على تسعين يوما وهو الاكثر دورانا وتارة يكون أقل أجلا وتارة يكون أكثر وعند بلوغ تلك الحوالة للمحال عليه يوقع عليها بالقبول ليدفع في الاجل وقبل حلول الاجل يرسل المحيل المال اما مما باعه أو بما قبضه من حوالة أخرى بحيث ان المحال عليه يدفع المال في أجله من غير أن يخرج من ماله شيأ مع ربحه لجزء من المال لانه يلزم الاتفاق من قبل بين المحيل والمحال عليه في قبول الاحالة وفي مقدار ما يربحه ولا يتجاوز النصف في المائة وتارة يكون بلا ربح بالمرة لمصادقة أو معاوضة بمثلها بينهما كان المحال عليه يربح بقبضه ماله نسيئة أيضا جزأ يسيرا والمحيل يربح لانه يتجر بمال ليس له فيه رأس مال ولكن مع ذلك كثيرا ما يعتري الافلاس تجارهم وبنوكهم لان من أحكامهم انه اذا حان الاجل ولم يدفع المؤجل ما عليه في الحال يفلس ولذلك كانت أكثر البنوك بايطاليا التي لها أوراق مالية لا تصرف الا ببخس بالصرف بالعين لاحتمال الافلاس ولا تتداول خارج المملكة بل ولا خارج بالداخل الا بنك الدولة فانه رائج في جميع مملكته فقط وفي كل مدينة محل ضخم للمناداة على المتاجر العالية يسمى بورسه يفتح بضع ساعات عند الزوال اذا دخله الانسان يجده محتبكا بالخلق وله ضجيج بأصوات السماسرة ينادون على أوراق ديون الدول وأوراق الشركات التجارية الكبيرة ذات الحصص كطرق الحديد وخليج السويس واشباههما وكثير من التجار يفلسون في تلك المتاجرة لان بعضهم لا يشتري ولا يبيع الا يدا بيد وهؤلاء لا يعتريهم الافلاس الا نادرا لانه اذا انحطت أسعار ما اشترى لا يطالبه أحد بشيء وانما يصبر على خسران نفسه الى أن ترتفع الاسعار وبعضهم يكون ليس له رأس مال لما يشتريه وما يشتريه أيضا ليس بحاضر بل هو مؤجل لرأس الشهر ويعتمد على أن ما يشتريه اليوم يرتفع سعره غدا أو بعد أسبوع فيبيعه ويأخذ الربح ويحيل المشتري على البائع فيما اشترى ويخرج من البين بالربح فكثيرا ما يربحون بذلك أموالا جسيمة وكثيرا ما يفلسون في أموال جسيمة بأن ينحط السعر عما اشترى به ويحل الاجل فيلزمه دفع الثمن

وأخذ المبيع أو دفع مقدار الخسران فقط فيستغرق كسبه في كرة واحدة أو عن كرات وهذا النوع لا يحكم به الحاكم عندهم لانه يراه من المقامرة لكنه لا يمنع منه فالمفلس يفلس نفسه بغير حكم لكي لا يسقط اعتباره رجاء ان يربح مرة أخرى بمعاملة التجار اليه فما تقدم كله من أسباب الثروة واتساعها وسيأتي في الخاتمة ان شاء الله تعالى ما يجوز لنا شرعا عمله وما هو ممنوع ومن أعظم أسباب الثروة واتساع التجارة تسهيل الطرق لنقل البضائع بأجرة يسيرة وزمن قليل وكانت الطرق الحديدية أنفع وسيلة لذلك حسبما تقدم في الكلام على تونس ولكن الطرق الحديدية وحدها غير كافية لانها انما تمر على الاماكن الاكثر عمرانا فيلزم لها طرق فرعية صناعية لجلب البضاعة بسهولة لمراكز الطرق الحديدية ولذلك كانت سائر الجهات في ايطاليا لها طرق صناعية ومن أنفع وسائل التجارة والعمران انتظام البريد وهو أن الدولة تجعل أماكن في سائر البلدان لوضع المكاتيب في محل منها ويؤدي صاحب المكتوب أجرة على حمله أجرة زهيدة بالمرة بان يشترى بطاقة من الورق عليها علامة مخصوصة وظاهرها عليه صمغ قبيل الصمغ ويلصق البطاقة على المكتوب بحسب ثقل المكتوب في زيادة الاجرة ويكتب عنوان المكتوب باسم المرسل اليه وبلده وحارته وعدد منزله فتحمل المكاتيب من كل بلد في الرتل ولها مركبة خاصة بها مرافع ذات أقسام ومستخدمون فعندما تأتي المكاتيب الى المركبة في وعاء يسير الرتل ويشتغل المستخدمون في توزيع المكاتيب على أسماء البلدان ويميزون كلا على حدة ومهما وصل الرتل الى بلد أقبلت أتباع البريد عن محل الى تلك المركبة ودفعوا لها ما عندهم وأخذوا منها ما يخص تلك البلدة ثم يسير الرتل وهكذا وكل بلدة أخذت المكاتيب من الرتل يؤتى بها لمحل البريد وتعطى لموزعين يوزعونها على أصحابها حسبما هو معنون عليها واذا وجدوا مكتوبا غير خالص الاجرة يوصلونه للمرسل اليه فان دفع أجرة حمله وهي اذ ذاك مضاعفة سلم اليه المكتوب والا أرجع الى محل البريد وحفظ فيه مدة ثلاثة أشهر فان جاء صاحبه باحثا عنه أدى أجرته وأخذه والا فتح فانه وجد به اسم مرسله ومحله أرجع اليه وأخذ منه الاجر مضاعفا والا أحرق وهكذا فيما اذا لم يوجد المرسل اليه بالمرة وكان خالص الاجرة فانه يرجع من غير أجرة واذا كان المكتوب ذا أهمية فلصاحبه تضمينه أي يجعل صاحب البريد ضامنا لايصاله بان يجعل عليه خواتم بالشمع خمسة أو علامة أخرى ويأخذ من صاحب البريد حجة في ايصاله الى صاحبه ويؤدي عليه اجرا مضاعفا على المعتاد واذ ذاك لا يسلمه البريد الى صاحبه الا بأخذ حجة منه في الوصول اليه فاذا فرض

ضياعه

ضياعه من صاحب البريد فانه يؤدى للمرسل ستين أوخمسين فرنكا وهكذا سائر الاوراق
المكتوبة على الضوء المتقدم غيران الصحف الخبرية أجرة ايصالها زهيدة بالمرة وكذلك
الكتب وقد جربوا انهم مهما رخصوا فى الاجرة الا ازداد الدخل للبريد وما تقدم فى
كيفية الحمل للبريد فى الاماكن المتصلة فى البر أما اذا كانت الاماكن يتوصل لها بحرا
فان الدولة تتفق مع احدى الشركات التى لها بوابور سيارة للتجارة على ان تحمل البريد
باجرة سنوية على مقدار ما يتفقون عليه من السنين على ان تقلع البوابور فى أوقات معينة
وتصل الى أماكنها فى أوقات معينة من غير تقديم ولا تأخير واذا تأخرت الباخرة عن
ميعادها فلابد أن تبين بحجة السبب الاضطرارى الذى حملها على التأخير والا فتخصم
شركتها أموالا بليغة ضمانا عن التأخير وكذلك الرتل اذا كان لغير الدولة أعنى فى
الاتفاق معه على حمل البريد أما فى تعيين الاوقات وانضباطها فالكل سواء برا أو بحرا
ولذلك تجد السفر مع البريد فى غاية الانضباط لانه لا يتخلف عن مواعيده فالمسافر معه
يكون مرتاح البال عالما بيوم سفره وساعته وكذلك بساعة وصوله الا أن يعرض عارض
سماوى ثم ان السفر فى بوابر البريد هو أحسن من غيرها من البوابير التجارية لان تلك
أتقن نظافة وأقل ازدحاما وأرفق خدمة بالركاب حتى اذا كان البحر راكدا كان
السفر نزهة ولكن قلما يصفو الحال بسبب اضطراب البحر أما السفر فى الرتل فهو على
نحو ما تقدم من الانضباط سواء كان حاملا للبريد أم لا ولكل رتل رقاع مكتوب بها
الاعلام بوقت سفره من كل بلد ووقت وصوله وكم يقف بها من الدقائق ويحفظون
على تلك الاوقات للغاية وعندما يصل بلدة ترى خدمته يصيحون باسمها وعدد الدقائق
التى يقف بها اعلاما للمسافرين ووقوفه لا يتجاوز نصف ساعة فى وقتى الاكل وأما غيرهما
فأكثر وقوفه عشر دقائق الى الدقيقتين وبلدان الوقوف للاكل يجد بها فى المواقف
بيوتا ضخمة بها موائد الاكل والماكولات المطبوخة والفواكه كلها مهيئة فمنهم من
يأكل هناك ومنهم من يشترى ويحمل أكله معه والاثمان فى تلك الاماكن أغلى من
غيرها كما أن البلدان الاخرى يوجد فى محطاتها الاكل لكنه دون ذلك وفى كل محطة
يجد المستراحات فالركوب فى الرتل متنزه على كل حال سيما مع ما أحدث فيه من المخادع
المنفردة حتى يستطيع الانسان أن ينام ويقضى جميع ضروراته بغاية الراحة وفى أيام
البرد تسخن المخادع بأوانى نحاسية مملوءة ماء حارا ويزيد أجر هذه المخادع على الاعتيادية
نحو عشرة فى المائة وقد أحدث نوع من المركبات ذو مقاصير للانفراد وبيت للاجتماع

فيكون الانسان كانه في داره مع جيران وهو مسافر ولا يزيد الاجر في هاته المركبات على المركبات من الطبقة العليا الانحو الثلث ومن وسائط رواج التجارة ورود الاخبار بالاسلاك الكهربائية فأصحاب الشركات يخبرون أصحابهم كل حين بما يروج عندهم في الاقطار المختلفة وما يكسد من البضائع فيكونون على بصيرة منه وأعظم ما يكون ذلك في متاجر محلات البورصى فترى الاخبار تتساقط عليها كالمطر وبذلك ترفع أسعار أوراق الديون وغيرها أو تحط وأعظم ما يؤثر في ذلك الاخبار السياسية سيما الواردة من قواعد الممالك السبع الكبيرة وهي الاستانة وباريس ولوندره وبرلين وفيينيا ورومة وصان بطرس بورغ اذ هاته الدول هي التي عليها مدار السياسة العامة وقد اتخذ التجار الاخبار السياسية ملعبة للارباح حتى صاروا يختلقون أحيانا أراجيف سياسية تارة بالتصريح وتارة بالتلويح وتتلقفها عنهم صحف الاخبار فينشأ عنها أرباح أو خسائر مبنية على أوهام ولذلك يرى بعضهم ان سهولة قرب الاخبار ونقل البضائع مضر بارباح التجارة وان الارباح انحطت عما كانت عليه في القديم وهو صواب بالنظر لهيئة التجارة القديمة لكن في نفس الامر قد ازدادت كمية التجارة وذلك ان التاجر ذا البضاعة من الصوف مثلا كانت لا تأتيه سفينة شراعية بها ألف قنطار من الصوف والمكاتيب المعلمة بالاسعار الا بعد عدة أشهر فيبني عليها عمل تجارته ويشتهر خبرها ولا يبيع تلك الالف قنطار الا بعد عدة أشهر فيربح فيها في السنة عشرين في المائة ان ساعده البخت والآن صار يأتيه في كل أسبوع نحو ذلك القدر مثلا وتأتيه الاخبار كما تأتي غيره فيبيع صوفه بربح عشرة في المائة فقط في شهر ثم الشهر الذي بعده كذلك وهكذا فعوضا عن كونه كان يدير رأس ماله مرة في السنة ويربح فيه عشرين في المائة صار يديره اثنتي عشرة مرة يربح فيها أزيد من الضعف فبالنظر الى كمية الربح كل مرة تجد الارباح القديمة أوفر لكن في الحقيقة الناتج في السنة من الارباح الحالية أكثر ولا يظن ان ما قلناه مبالغة بدعوى ان كمية المحتاج اليه من الصوف مثلا في القطر المجلوبة اليه لم تزدد فيما يأتي زائدا لا يباع وبيان فساد ذلك ان الادارات والحركات كلها مرتبط بعضها ببعض فبكمال سهولة المواصلة سهلت آلات النسيج بالمعامل البخارية والبلاد التي كانت تنسج ألف قنطار صوفا في الشهر بآلات اليد صارت تنسج اضعافا اضعافها بآلات البخار وتلك المنسوجات تنفق مهما ازدادت بانحطاط أسعارها فيكثر راغبها فمن لم يكن قديما قادرا على لبس الملف وهو الجوخ لغلوه صار الآن

الآن يتوصل اليه لرخصه برخص ثمن الصوف بما نقص من أجرة حملها وفلة ربح تجارها وبرخص آلات النسج وبقناعة البائع بالربح اليسير وهكذا وكذلك كثرت سكان الممالك المتمدنة وكثر المتمدنون وكثر اتساع التجارة وايصال البضائع الى الاقطار الشاسعة التي لم تكن تصل اليها من قبل فارتبطت الاشياء بعضها ببعض واتسعت التجارة وازدادت الارباح على نحو ما ذكرناه وأضف الى ذلك ان المنسوجات بالمعامل ليست متينة مثل عمل الايدى فصار أغلبها يبلى ويتمزق بسرعة بالنسبة للمنسوجات المصنوعة باليد ثم ان تجارة ايطاليا أغلبها بيد أهاليها وفيهم كثير من الاجانب وقد كانت سابقا تجارتها أغنى مما رجعت اليه ثم انحطت بتقدم الممالك المجاورة لها وتأخرها عند انقسامها وظلم ولاتها لكنها الآن تراجعت للغنى وأغلب ما يخرج منها الحرير الغير المصنوع والدقيق وأنواع العجين المصنوع والحبوب والحيوانات المأكولة والجلود وزيت الزيتون والكبريت وهى كالسبق لها انفراد به وقد خرج منه فى عام واحد مائتان اثنان ألفا وخمسون ألفا قونولاته أى قنطار ٥٠٠٠٠ وكذلك يخرج منها المرمر والرخام الابيض والكتان والحشيشة المعروفة بالتكروري والمنسوجات الحريرية والاعطار والتبن المصنوع منه كراسى وغيرها والحجر مثل الحجر المعروف بحجر سيسليا الذى هو لبن خفيف وبعض المعادن المشار اليها فى التعريف بايطاليا وقيمة تجارتها فى سنة واحدة وهى سنة ١٨٧٦ مليار دان وستمائة ألف فرنك والمليار ألف مليون وهاته التجارة مع جميع الممالك المعروفة لكن أكثرها مع النمسا وفرانسا ثم بقية الممالك ويخص من ذلك الزيت وحده ثلاثمائة وخمسون مليونا

مطلب

﴿فى الصنائع الفلاحية فى ايطاليا﴾

(اعلم) ان هاته الصناعة لها ترقى كبير لحسن الموقع واعتدال الهواء ومع ذلك لم تبلغ الى درجة النهاية نعم هى فى الجهة الشمالية مناكبة لما جاورها من فرانسا وغيرها فلاهلها اعتناء واتقان للزراعة وتربية الاشجار وتنميتها حتى ترى الارض كانها حديقة متقنة ولا تجد أرضا خالية من الاشجار ولو الاراضى الزراعية بحيث تجدها مقسمة بصفوف من الاشجار وبينها براحات للمزروعات فصاحب الارض ينتفع بغلال الاشجار والحطب والزرع معا وترى الارض مقسمة بتقاسيم لها منظر بهج ونفع عظيم هذا زيادة عما

يحصل من الاشجار من السبب فى المطر وذلك لان الله بحكمته البالغة جعل عروق الاشجار
تمتص الماء من عوامق الارض ثم تنفثه بخارا من أغصانها وأوراقها و ينشأ من البخار
السحاب واذا كانت الاشجار مرتفعة جذبت ذلك السحاب لبطئ السير حتى يمطر عليها
ويحصل بسبب ذلك كثرة المياه فى الارض فيكثر خصبها وقد بانت سببية ذلك بالتجربة
والله الخالق الحكيم ثم ان صناعة الفلاحة لا يأخذونها بمجرد التقليد فى العمليات بل
انها هناك علم مخصوص يدرس و يصور بالمشاهدة وله مدارس مخصوصة و يعتمد كثيرا
من الكيماويات وحول المدارس أراضى للبيان بالعيان والتجربة والعمل وأراضى
للرعى مخصوصة ومن حسن التربية وحراسة الحكم لا يتجاسر أحد بالرعى ولا غيره فى
أرض ليست له اما بالملك أو بالكراء حتى انه ليس لبساتينهم طوابى تمنع الداخل ولا
تقع عندهم سرقة الغلال الا نادرا وأما بقية الصنائع فلهم كفاية فى كل الصنائع
الضرورية والتحسينية لكنهم ليس لهم معامل كثيرة التى هى من أعظم أسباب الثروة
والترقى وان كانوا لا يزالوا مجتهدين فى ترقياتها الى بلوغها المثل درجة الامم البالغة
للنهاية فى المعارف والتمدن والحاصلون عليه الآن هو ان لهم معامل للسلاح بانواعه
ومعامل لانشاء السفن والبواخر المدرعة ومعامل للتحليلات الكيماوية وللاعطار
وللشمع المتخذ من الشحم للدباغة للجلود ولصناعة الورق وغزل القطن ونسج الجوخ
والشاشية وأنواع المنسوجات الحريرية ومنه النوع الفاخر المسمى بالامبر أو القطيفة
ومعامل للطرز كما انه يصنع بالايدى أيضا ولهم معامل للزجاج والفخار والعقيق
والزهور الصناعية وآلات المرايا المكبرة وآلات الموسيقى وخصوص أرتار بلد نابلى
لها صيت كبير فى جميع الجهات وفى نابلى وميلانو معامل متقنة للكراريس أى عجلات
الركوب كما ان فى ايطاليا اتقان لصناعة الاحذية وسائر الانعلة وخياطة الملبوسات وهم
فائقون فى صناعة نحت المرمر ونقشه وكذلك صناعة المرجان والصياغة والكهربان
والمادة المتجمدة النارية المنقذفة من أفواه البراكين والموزايكو أى القطع المرمر التى
الواحدة منها قدر الظفر ترصف على أشكال بديعة و يلصق بعضها ببعض بنوع من
الطين والجير وقد شاهدت فى معرض ميلانو ١٢٩٨ هـ سنة ١٨٨١ م من تقدم
ايطاليا فى سائر الصنائع ما صيرها قادرة على الاستغناء بنفسها فى سائر الحاجات
والتحسينات فضلا عن الضروريات حتى ان ملكها لما دخل المعرض مع رجال الامة
تعجب مما احتوت عليه المملكة مما لم يكن يخطر بباله ومن جملة ما احتوى عليه هذا
المعرض

المعرض تشخيص سائر أصناف الطليانيين بصور على ألوانهم وهيئة لبسهم فرأيت أكثر من ثلاثين صنفا كل منهم له سحنة وشارة خاصة وأعظم ترقيهم فى مصنوعات الجلد والطين والعجلات ولهم مشاركة فى سائر المصنوعات

مطلب

﴿فى المعارف﴾

المعارف الدينية المسيحية لها سوق رائجة من القسوس ولهم صوامع ومدارس لكنهم قد منعوا نوع القسوس الجزويت من التجمع فى المدارس لانهم يخلطون التعاليم الدينية بالتعاليم السياسية ويتخذون المدارس كالقشل للتعسكر فمنعوا من ذلك لخوف الدولة من تشويش سياستها المخالفة مشرب الجزويت لمشرب الدولة فى أصول السياسة (وأما العلوم) الرياضية فقد أخذوا فى التقدم فيها وعلى الاجمال فاهالى الشمال متقدمون على غيرهم فى سائر الفنون والتجارة والفلاحة وعلومهم الاصول ثلاثة (أحدها) علم جر الاثقال (وثانيها) علم الكيمياء أى تحليل الاجزاء وتركيبها (وثالثها) علم الطبيعيات والكل منها فروع كثيرة ومن فروع الثانى والثالث علم الطب الذى كانت اشتهرت به بلاد بيزة قديما والآن لم يبق لها ذلك الاعتبار وعلى العموم ففى ايطاليا الآن مدارس ومكاتب على ثلاث طبقات والمكاتب العليا فيها الى الآن لم تناسب مكاتب فرانسا والمانيا وفى ايطاليا من أسباب تيسير المعارف كل اللوازم سيما المطابع والصحف الخبرية وخزائن الكتب ففيها ٤٩٣ خزنة كتب تحتوى على ٢٨١ ر ٣٤٩ ر ٤ مجلدا من الكتب المطبوعة و ٥٧٠ ر ٣٣٠ من كتب الخط وفى خصوص مكتبة قصر الفاتيكان ٠٠٠ ر ٣٠ كتاب وهى أحسن المكاتب من جهة حسن كتب الخط

مطلب

﴿فى هيئة المساكن والطرقات﴾

(اعلم) ان ايطاليا تكاد ان لا تجد بين بلدتين فيها طريقا غير صناعية بل كلها متصلة ببعضها بالطرق المحصبة المتقنة الصناعية غير ان الطرق فى البرية لا تنظف واغلالها قيمون لاصلاح ما يفسد منها كان يكون على كل ثلاثة أميال قيم له مركز يأوى اليه وفيه من آلات الاصلاح الخفيف ما فيه كفاية ويكون هو طول يومه متفقد الما فى

عهدته ومتى ماوجده كان متغيرا بادر لاصلاحه وهكذا فاذا طال الامر على الطريق واحتاج للتجديد باشره بذلك المكلف من المجالس البلدية وعلى أولئك القيمين متفقدون في كل الاوقات كما ان سائر أطراف المملكة متصل بعضها ببعض بالطرق الحديدية وكذلك تتصل بسائر الممالك المجاورة لها بالطرق الحديدية وتلك الممالك متصلة بغيرها بذلك أيضا فكانت أروبا كلها كانها بلد واحد في سهولة الانتقال والسرعة من مملكة الى أخرى ومن بلد الى آخر ومع ذلك فلم تزل ايطاليا مجتهدة في زيادة الفروع للطرق الحديدية (أما الطرق) في دواخل البلدان فزيادة على كونها صناعية لها خدمة ينظفونها مرات في اليوم ولا تجد في البلد مزبلة لان خدمة التنظيف يرفعون الازبال الملقاة من الدور في آخر الليل ومن طرح الاوساخ من داره في غير الاوقات المعينة عوقب على ذلك بالعقوبة المالية بحيث تجد سائر الطرق نظيفة وفي الليل منورة بالبخار الغازي والفوانيس نظيفة وغاية ما هنالك هو الفرق بين البلدان في شدة النظافة والتنوير واتساع الطرقات فقط (أما الاصل) فهو موجود في الكل ولو في القرى والطرقات أغلبها يعرفها بحافتان ومنها ما هو أوسع وفي البلدان القديمة لم تزل طرق ضيقة لا يمر فيها الا الماشي وأما هيئة المساكن فان المدن لا تكاد تجد فيها الديار ذات طبقتين فقط بل تزيد الى السبعة والثمانية ويكون ظاهرها على الطرقات متشابها بعضه ببعض قريب المشاكلة في الصورة مع التحسين الظاهري والتنظيف وطول الطرق واتساعها وجعل البطحاآت فيها والاشجار على أوسعها فكانت مدنهم بذلك ذات منظر بهيج حتى ان الحكم يوجب على المالك ان يحسن ظاهر بيته على حسب ما يشير به المهندسون من المجالس البلدي وأما داخل الديار على الاجمال فاذا دخل الانسان من الباب يجد سقيفة ثم درجا متصلا بعضها ببعض متصاعدة اما على شكل دائرة أو مربعة الى أن تنتهي لاعلى طبقة ومهما وصلت الدرج الى طبقة تجد فيها فسحة ذات أبواب بقدر ما في الطبقة من المساكن فاذا دخلت مسكنا تجد ايوانا مستقفا وبه أبواب للبيوت وباب الى ممر به بيوت ومطبخ ومستراح وتارة يكون في احدى البيوت الاخرى مستراح آخر وجميع الحيوط مطلية والسقوف اما خشب أو بناء مطلية مدهونة وكل البيوت لها طواقي كبار ويعتنون بمقابلة الابواب والطواقي والابواب وعواضدها من خشب متقن الصنعة وسائر الاماكن مبلطة اما بالجليز أي نوع من الآجر المطلي المتقن أو المرمر وكذلك الدرج ومن اقتصادهم ان كل بلد تقتصر على ما عندها من مواد البنيان ولا تاخذ من بلاد أخرى

أخرى شيأ الا مالا يمكن الاستغناء عنه بما فيها ولو كان الشئ من بلد في نفس المملكة ثم البيوت التي بكل دار أكثرها مائل الى شكل التربيع واحدها بيت للجلوس وآخر للاكل وهما أكبر البيوت ثم آخر للنوم وكل منها به من الفرش ما يناسب موضوعه وفرشها مختصرة متقنة مرونقة من كراسي كبار وصغار وساعات ومرايا وزرابي وأسرة يعتنون بنظافتها ويعتنون باتساع الدرج وراحتها وكل مسكن لعائلة فنجد الدار الواحدة يسكنها عدة عائلات كل عائلة منفردة في احدى المساكن على قدر كبرها وطبقاتها وأما دور الاعيان والاغنياء المنفردين بديارهم فهي على ذلك النحو أيضا لكنها كلها تكون ذات مسكن واحد وطبقاتها الاتزيد على الثلاث أو الاربع وكثير من أغنيائهم يسكنون في الديار المشتركة من النوع الاول لكنهم يختارونها وسيعة وكل مسكن يكون بابه مغلقا وعند الباب الخارجي للدار بيت يسكنه بواب بالاجرة من جميع أصحاب المساكن للحراسة وكل البلدان لها خنادق تحت الطرق لجريان القذورات فيها أولها دها البزوالجميع مغطى ولا يفتح للاصلاح أو التنظيف الا ليلا وسطوح الديار في جميع الجهات الشمالية مسنمة لئلا يتثاقل عليها الثلج وأما الجهات الجنوبية ففيها بعض من السطوح مبسوطة

مطلب

في اللبس

الرجال يلبسون قميصا وسراويل وصدرية تسمى جيلي وسترة أي جبة مفتوحة الطوق الى أسفل قصيرة الى نحو نصف الفخذ ذات يدين ضيقتين وسراويل أخر طوال الى أسفل القدم ضيقة الرجلين والمقعدة جدا كأنها لاصقة بالعضو وفي بعض المواكب يلبسون سترة مقطوعة الذيول من امام وفي الشتاء يلبسون على جميع ذلك جبة أوسع من الاولى وأطول وتارة تكون مبطنة بانواع من الفراء وبعضهم يزيد لبس قمصان ضيقة من الصوف وفي أرجلهم الجوارب من قطن أو صوف وأحذية كالخف الضيق ولهم فيها أنواع كلها ذات أقدام مرتفعة وعلى رؤسهم قلانس من قطعة واحدة على أشكال منها ما هو من الجوخ ومنها ما هو سعف أو تبن ولما كانت ألبستهم ضيقة فلا يجلسون الا على الكراسي ومشاكلها ولذلك كانت فرش بيوتهم كلها ملائمة لذلك نعم لهم جبائب وسيعة ذات ألوان يلبسونها في الاوقات التي لا يخرجون فيها ولا يأتيهم فيها أحد وكل

ألبستهم غير القمصان والجوارب لونها أسود أو ما قارب به وأغلبها من الصوف ولا يلبسون
الحرير الا نادرا في بعض الثياب ويلبسون في كفوفهم قفازا اما اسود أو ما قاربه وكذلك
في رقابهم يلبسون روابط ولقمصانهم رقبات بعض يطلونها بالنشا وكذلك أطراف
أكمامها الضيقة وصدورها ويحفظون على نظافتها ويرسلون شعر رؤسهم لكنه
لا يجاوز شحمة الاذنين ويفرقونه وأما لحاهم وشواربهم فهي لعبة بايديهم تارة
يحلقون الكل وتارة البعض دون البعض وتارة يبقون الكل فتجد الوجوه على اشكال
شتى ولكن من يحلق تراه يحلق يوميا لان ابقاء أثر الشعر عندهم من الوسخ وأما لبس
النسوة فقميص وسراويل وسيعة من كتان وصدرية مضبوطة على الصدر لها عيدان
من شعر سمك البالين لتصغر البطن والخصر وترفع النهود وتعلي الردف وفوقها جبة طويلة
الى الارض ضيقة النصف الاعلى ولها أكمام ضيقة الي الرسغ ووسيعة الاسفل من الخصر
الى الارض ذات تكاميش ويتنوعن في هيئتها وقد يطلن ذيلها من ورائها حتى يصير يجر
على الارض نحو ذراعين أو أزيد من ورائها ويلبسن جوارب في أرجلهن وأحذية ذات
أعقاب عالية وصرن يجعلن العقب قرب نصف القدم ليتراءى للناظر ان قدمها صغير مع
انه لا يرى لطول ذيولهن واضراره بهن كما يذكره الاطباء من انه يؤذي الرحم لنزول ثقل
البدن على وسط القدم أي الاخمص وتارة يزدن فوق اللباس أردية أو معاطف عند الخروج
في الطريق ويسدلن على وجوههن خمارا شفافا صفيقا لمجرد التزين ويطوين
شعورهن الحقيقية أو التقليدية بهيئات حسنة على أنفوخهن ويلبسن قلانس ظرافا
ذات أزهار صناعية وغيرها ويلبسن القفازين أيضا ويلبسن من الحلي اقراطا وسوارا
وخواتيم وقلائد ومساك من أنواع الجواهر على حسب الرفاهية وأكثر ألوان
لباسهن مائل الى السواد ثم الابيض ثم غيره (وأما) اللباس الرسمي لاصحاب الوظائف من
الرجال فهو على الشكل الذي تقدم غير ان السترة تكون مطرزة بقصب الذهب أو
الفضة على صدرها وعنقها وايديها وظهرها على حسب الرتب وكذلك يكون للسراويل
شرطان من القصب وعلى القلانس علامات أيضا من القصب ويلبسون مع ذلك
النياشين أي علامات الفخر ولبس العساكر نظيف جدا متقن من ذلك الشكل غير ان
سترتهم مقفولة الصدر وتبلغ في الطول الى الخصر فقط الاضباطهم فهي طويلة كغيرهم
مقفولة الصدر

مطلب

مطلب

﴿في الاكل﴾

هيئة الاكل عندهم هي موائد مرتفعة يجلس حولها على كراسي وتغطى برداء أبيض
وكل آكل يجعل أمامه صحن فارغ ويأتي الخادم بإناء الطعام فيأخذ منه الآكل في صحنه
مقدار ما يريد ومن اصطلاحاتهم ان تجد حذاء الصحن بطاقة بشكل لطيف مكتوب بها
ألوان الطعام الحاضر لتلك الاكلة حتى تأخذ ما تشتهيه وهاته العادة هي من
المستحبات عندنا كما نص عليها في آداب الضيافة وقررها الغزالي في الاحياء لكن
لا بخصوص الكتابة وانما هي بأي اعلام للضيف بأنواع الطعام ثم كل صحن حوله ملعقة
وشوكة وسكين وبعد الفراغ من كل لون يبدل الصحن والسكين والملعقة بغيرها
نظيفة وكذلك يوجد حذو الصحن كيسان على قدر أنواع المشروبات التي تكون لتلك
المائدة من أنواع الخمر وفي وسط المائدة أواني بالزهور بحيث انها في غاية المنظر الحسن
والنظافة ويحافظ الآكلون على النظافة والعادة أن لا يزيدون غالبا على خمسة ألوان
الا في الضيافات والمواكب ثم بعدها يؤتى بنوع من الحلويات ثم بجبن ثم بفاكهة من
احدى غلال الوقت وطعامهم له أنواع شتى أحسنها أنواع المشوي وأغلب أنواع الطعام
مائل الى التجرد عن كثرة الاخلاط والابزرة حتى يضعون على الموائد أواني لطيفة بالملح
والفلفل الاسود والخل والزيت لما لعله يطلب منه الآكل اذا وجد الطعام غير لائق به
في الملح كما انه يجعل على المائدة أواني ظريفة بالخردل المسحوق المخلوط بالخل وقنينات
بالماء وآخر بالخمر المعتاد عندهم للاكل ثم في أثناء الطعام يؤتى بأنواع أخر من الخمر
أرفع من المعتاد وفي آخر الطعام يؤتى بنوع منه يسمى شنبانيا اذا صب في الكاس غلى
وارتفع واذ ذاك يخطب خطباؤهم في مقاصد تلائم حالة الاجتماع اما قائما أو جالسا ثم
في آخر كلامه يقف ويشير بعضهم الى بعض بالكؤوس كناية عن التوادد ويشربونها
ولكن هذا لا يقع في منازل المسافرين في الموائد العامة الاجتماع عن غير قصد وانما
يقع في الضيافات والمحافل وتارة يصرخ الحاضرون بيعيش كذا ما فلان أو مقصد
سياسي ومن لا يريد الشرب من الخمر لا يعيبون عليه ذلك بل يعرض له صاحب المحل
تعريضا خفيفا بمدح نوع الخمر فان امتنع فلا تثريب عليه ويوجد فيهم افراد لا يشربون
كما ان غالب متبصريهم يعلم ان الخمر حرام عند المسلمين والنسوة في الديار هن المتكلفات

بأحوال الاكل والطباخون يكونون من الرجال ومن النساء ولهم كتب مؤلفة فى تركيب الاكل والطبخ

مطلب

﴿فى المواكب﴾

أما المواكب الرسمية فان الملك له بيت كبير فى القصر الرسمى وبصدره عرش على نحو ما تقدم فى عرش والى تونس وبزيدبان يكون على يسار محل جلوس الملك كرسى لزوجه وقبل حضور الملك يحضر المأذونون بالحضور بملابسهم الرسمية ويقفون يمنا وشمالا على حسب رتبهم ولما يحفل الموكب يخرج عليهم الملك لابسا لباسه الرسمى الذى هو على نحو ما تقدمت صفته غيران بعض الملوك يزيد على ذلك بلبس رداء طويل الاذيال واسع جدا ليس له أكمام وانما يوضع على ظهره وكتفيه ويغلق حول العنق بأزرار ثمينة ويرفع أطراف ذيوله من ورائه بعض أبناء الكبراء من العائلة الملكية أو من أقاربهم الى أن يجلس الملك على عرشه وكذلك يكون له تاج مجوهر يضعه على رأسه مع اللباس الرسمى المقصب ويخرج فى المواكب من حجرته ومعه زوجه وأهل بيته ويصعد على كرسيه ويكشف رأسه مسلما بالايماء الى ميمنتهم ثم الى ميسرتهم ثم يخاطبهم بخطبة مناسبة لمقتضى الحال مومياً الاحوال السياسة الراهنة وتلك الخطبة تكون قد هيئت من قبل بتدبير الوزراء وتارة يلقيها الملك بنفسه وتارة يلقيها رئيس كتبته ويكون الحاضرون كلهم مكشوفى الرؤس فيحيونه بالدعاء له بطول العمر وينفض الموكب وهاته المواكب هى فى رأس السنة وهو شهر ينايرالاعجمى وفى عيد ولادة الملك وكذلك يوم فتح مجلس النواب والاعيان من كل سنة ويكون ذلك فى محل المجلس وكذلك تنعقد مواكب أخرى على حسب الحوادث (وأما) المواكب الاهلية فهى رأس العام ولا يحتفلون لغيره من الاعياد وانما يكثرون استدعاء بعضهم الى بعض للمسامرة ليلا فيما بين المعارف زيادة على الاجتماعات فى أماكن العموم كالملاهى والمنتزهات وبسبب ذلك يقع التعارف بين الرجال والنساء المريدين التزوج فتكثر المخالطة بينهم فى حالات مختلفة فاذا احسن عند كل طبع الآخر وسيرته خطب أب الزوج أبا الزوجة فى بنته لابنه فاذا احسن لديه أيضا أجابه واذ ذاك فى الغالب يجمعون خواص أحباب كل من الفريقين فى بيت الزوجة لوليمة من طعام من الحلويات والخمور وان لم تكن الدار لائقة للاجتماع تجعل الوليمة

الوليمة فى احدى منازل المسافرين فيوصى صاحب الوليمة صاحب المنزل على ما يريد ويعين له الوقت وعدد الاشخاص ويتوافقون على الثمن وعند قدوم المدعوين يجدون المحل على أحسن انتظام وكذلك يصنعون فى الولائم فى الديار اذا كان صاحب الدار ليس له عدة الضيافة مع ان داره قابلة فان صاحب منزل المسافرين يأتيه بكل ما يكفى من أوان وأطعمة وخدمة وغيرها وليس على صاحب الدار الا دفع الثمن مع الراحة وحسن الانتظام فى سائر أنواع الولائم ثم اذا حان زمن العرس يحضر أبو الزوجة ويدفع للزوج مهر ابنته من مال عين أو أملاك ويكتب ذلك على الزوج ويكون أمانة فى يده ثم بعد ذلك يتوجهون الى الكنيسة فيجدون المدعوين هناك ويحضر القسيس ويبارك على كل من الزوجين ويأخذ خاتما من ذهب من أصبع الزوج ويدخله فى أصبع الزوجة ويرش عليهما ماء وتكون العروس اذ ذاك لابسة لاحسن لباسها فى لون البياض ومتحلية بما لها من الحلى ثم يحاق الزوج يده اليمنى على صدره وتدخل الزوجة يدها اليسرى فى ذراعه وينصرفون ويقف آباؤهم معهم فى محل عند باب الكنيسة لقبول الهناء من المدعوين ثم يسافر العروسان حالا الى أى بلد أرادوا مدة ما على حسب الرفاهية والجدة وذلك لامرين أولهما عدم الحياء من معارفهم بالاستراحة من الاشتغال بحركاتهم وسكناتهم وثانيهما انقضى مدة فى الانكباب على لذاتهما من غير تعب وأدنى كلفة مع الاقتصاد فى المصاريف للوليمة لاجل المعارف وينفقون ما ينفقون فى لذاتهما هذا فى الاغنياء (أما الفقراء) فيستعوضون عن السفر بالخروج لاحدى المنتزهات ثم ان الزوجة لا تكسو فى العرس الا نفسها والزوج هو الذى يكسو بيته وبعد ذلك يكون مصروف الزوجة فى أكلها ولبسها وسكناها على زوجها وذلك المال الذى أعطته مهرا للزوج باق على ذمتها وانما يصرفون دخله على كل منهما ومن ولائمهم أيضا وليمة بلوغ البنت فيلبسونها لباسا كله أبيض وبرقعا أبيض صفيقا وتذهب الى الكنيسة ثم تعود لدار أبيها ويصنع لذلك وليمة (واعلم) ان ما ذكرناه من الذهاب الى الكنائس ليس أمرا حتميا بل هو عادى لمجرد التعود عليه عندما كانوا يجرون الاحكام الديانية فى الاحوال المدنية وموكب المأتم عندهم لا يجهرون فيه بالبكاء وبعد قدوم القسيس لحضور موت الميت يبقى مدة من الايام لتحقق الموت حيث انهم وجدوا بعض الذوات يظهر عليها الموت وهى فى الحقيقة لم تمت مع تعسر الاطلاع ولو من حذاق الحكماء ويكون هذا بالخصوص فى موت الفجأة وبهذا الداء كان هذا الامانع فى ديانتنا من اذا استحباب

التعجيل بالدفن انما هو عند تحقق الموت يقين (اما قبله) فيحرم لانه يصير قتلا وقد شوهد ذلك في كثير ممن نبشت قبورهم بعد زمان فيجدونهم في حالة غير التي يوضع عليها الميت ويجدون الاكفان ممزقة وحيوط القبر بها آثار الخدش فيجب التنبه لمثل ذلك وقد قالوا ان ذلك النوع يحصل بكثرة في الامراض المستوبية وقد سمعت بذلك في بلادي مرات متعددة منها في سنة ١٢٨٤ حيث استولى مرض الحمى الخبيثة فكانت عدة جنائز ذاهبين بها فاطلع المارة على حركات في الميت واوقفوا الجنازة ووجدوه حيا وتارة ينادي هو من نفسه متفجعا من الحالة التي هو فيها ثم ان أهل ايطاليا بعد تحقق الموت يكفنون الميت في لباسه النظيف ويجعلونه في صندوق من خشب ملفوف في رداء اسود عليه شرطان من قصب الفضة وتحمل الجنازة في كروسة معدة لذلك ويركب مشيعوا الجنازة في كرارسي معدة للعزن كلها سود وأغنياؤهم يربطون في كروستهم خيلا سودا أيضا وعدتها سوداء ويذهبون بالميت الى المقبرة فيدفن في قبر عميق ويحكم سد التراب والبناء عليه ويجعلون على القبور هيا كل من الرخام ويتأنقون فيها (واما) الفقراء فتجعل جنائزهم في سراديب مع بعضها وقد اتخذ بعضهم ما تنوسي في هاته الجهات ولم يبق الاعند بعض الهنود وهو احراق الميت فانهم يجعلونه في فرن من حديد محكم السد لكيلا تخرج الرائحة ويصب عليه زيت النفط ويحرق ثم يأخذ رماده ويخزن في اناء في مكان عزيز في دار أهله و بعض الاغنياء العزيز على أهله تصبر جثته بعد اخراج امعائه ويلبس ثيابه الفاخرة ويجعل واقفا في جهة من البيت في خزنة وجهها زجاج

مطلب

(في اللغة)

لغة عموم الاهالي تسمى طليانية وهي فرع من اللاتينية وما يكتب فيها ينطق به على حسب الحركات المرسومة وهي لغة واسعة مساعدة في النثر والنظم على بحور عندهم معلومة ولذلك تجد أشعارهم بها جيدة المعاني على حسب اصطلاحاتهم فمنها ما يستحسن عند أهل العربية ومنها ما يخالف الاسلوب البلاغي وتلك اللغة وان كانت هي اللغة العامة والرسمية في الكتابة والعلوم وغيرها لكن توجد في أطراف ايطاليا لغات شتى حتى لا يكاد بعضهم يفهم بعضا بالتخاطب اما اذا رجعوا للكتابة فيرجع الكل الى لغة واصطلاح واحد

مطلب

(في القوة المالية والحربية)

فرنك

٩٦٥و٥٨٣و٥٢٤٩١٠	دخل الدولة سنة ١٨٨١
٩٦٥و٥٨٣و٥٢٤٩١٠	خرجها
٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر١٠	دينها
٠٠٠ر٠٠٠ر٦٠٠ر٢٠	قوة التجارة في المملكة بين الداخل والخارج من السلع

عساكر

٣٩٥ر٩٠١	تحت السلاح
٤٣٣ر٨٧٦	رديف
٨٢٩ر٨٢٧	
٥٠٠ر١٠	بحرية
٨٠	سفن حربية مدرعة وخشبية منها مدرعة تسمى الدويلو هي أكبر مدرعة في البحر
٦٥٥	مدافع
٥٫٠٩٨	امتداد سكك الحديد أميالا سنة ١٨٨١

الباب الرابع

(في مملكة فرانسا وما رأيته فيها)

الفصل الاول

(في سفري اليها)

قد تقدم أنا وصلنا الى بلد مودان التي ينتقل فيها المسافر الى الرتل الفرانساوي وكان وصولنا اليها الساعة واحدة ونصف بعد نصف الليل فوجدنا المحطة منورة والخدمة متدرعين باللباس الثخين للتدثر من الثلج والبرد وبأرجلهم أحذية من الخشب فلما أردنا

الى كوب فى الرتل الفرانساوى وجدنا المخدع الذى أوصيناعليه بسلك الاشارة حاضرا فى الرتل وسألنا المكلفون عن ورقة الجواز فلما أخبرناهم أنا من تونس وأردنا احضار الورقة ورأوا البابسنا رحبوا وقالوا لا يلزم اخراج الورقة ولا فتح الصناديق لنظرما بها فركبنا حالا فى غاية الراحة وقفل الرتل سابحا على الارض بسرعة أزيد من الرتل الطليانى غير أن المخدع كان أقل انتظاما من المخدع السابق فأردنا النوم بقية الليل لكن شدة البرد منعت من استراحة النوم ولم يزل الرتل سابحا ولما بدا الفجر ظهر منظر الارض والحاصل انه على نوع متشابه مع أعالى ايطاليا غير أن الفرق الذى يرى هو كثرة البلدان والقرى بأرض فرانسا على ايطاليا وكثرة الديار المنفردة فى الحقول والاراضى بايطاليا على فرانسا ثم وصلنا الى باريس فى الساعة السادسة قبل نصف الليل فكانت مدة السير من تورين الى باريس احدى وعشرين ساعة وكانت باريس تظهر من بعد فى الليل كانها سماء زينت بالكواكب واستمر الرتل سائرا من مبدأ علائق المحطة الى أن وقف نحو خمس عشرة دقيقة فاذا هى محطة أضخم وأوسع من جميع ما رأيناه فنزلنا ودخلنا الى الكمرك ولما نظرنا المكلفون قالوا الازوم لتفتيش رحالكم وأنتم مصدقون هل عندكم من سلعة تؤدى الكمرك فقلنا ليس الا نشوق وماء زهر وورد فقالوا هو بمقدار حاجتكم أم للتجارة قلنا بقدر حاجتنا فاذنوا بسراح الرحل بدون تفتيش ولا أداء فركبنا كروسة كبيرة لمنزل المسافرين المسمى أوتيل دى كابوسين الذى هو من المنازل الحسنة الواقعة بأعظم طرق باريس وأكثر التونسيين نزولا به فاستمر السير خببا من الخيل نحوا من ساعة من المحطة الى المنزل وكانت الطرق كلها منيرة بالفوانيس نورا زائدا على غيرها وهى طويلة وسيعة أزيد من غيرها بحيث ينتهى النظر فى طول الطريق فأقمنا بذلك المنزل تلك الليلة وتعشينا وفى الصباح أفطرنا فطورا خفيفا وطلبت الحساب حيث لم أساوم قبل النزول فاذا أجرة البيوت لليلة وثمن العشاء والفطور الصباحى لثلاثة أنفس نيف وسبعون فرنكا فخرجنا من هناك وتلاقينا مع المعارف واكتروالى منزلا خاصا اذا أربع بيوت بجميع لوازم فرشها وخدامها بثلاثمائة فرنك فى الشهر غير أن الاكل خارج عن ذلك بل يأتون به من احدى أماكن الاكل القريبة هناك وهى كثيرة اذ كان المنزل على النهج العظيم فى باريس المسمى بلغاردى كابوسين وهو من الاماكن الشهيرة بالعمران فى باريس ثم ان كثرة قرقعة العجلات التى تفوق عن الرعد فى ذلك الطريق ليلا ونهارا كدرت لى الاستقرار هناك حيث انها لا يخف دويها الا بعد

نصف

نصف الليل بساعة وما مضى من النهار الا وتعودنا لما كانت عليه فانتقلت الى منزل آخر أوسع من الاول ويحتوى على مطبخ وبيت جلوس وبيت أكل وثلاثة بيوت للنوم بجميع لوازم ذلك كله مع تغيير الفرش والمناديل بالنظيفة والكراء قدره ثلاثمائة فرنك فى الشهر وأحضرت طباخا بأربعين فرنكا فى الشهر وخادما بعشرين فرنكا وكان المصروف اليومى على لوازم الاكل نحو العشرين فرنكا فى اليوم مع الاقتدار على قبول بعض من الضيوف والارتياح من الاحتراس فى الاكل وكان هذا المحل أيضا باحدى الاماكن الشهيرة المنزهة المسمى بشانزيليزى لكنه لما كان طريقه شديد الاتساع ومحل مرور العجلات فيه يبعد عن حيطان الديار نحو العشرين مترو وكان تحصيب الطريق بالحصا المسواة بالرمل بخلاف الاول لانه مبلط بالحجارة الصلبة التى فى قطع الشبر فكانت أذية الدوى مفقودة فى الثانى مع حصول المنظر الجميل واجتمعت فى باريس بأشهر أطبائها فى المرض العصبى اذ لكل نوع من الامراض عندهم مشاهير مخصوصون به والحكيم الشهير فى هذا المرض عندهم هو الحكيم شاركو واحضرته الى فى بعض الايام اثنين من مشاهير أطبائهم وكانت أجرة زيارة الواحد فى المرة الواحدة ستين فرنكا واذا زار الحكيم فى داره يعطى أربعين فرنكا ومما يدل على شهرة هذا الحكيم وغناه بعلمه انه دعى يوما لمريض فى بلد برلين قاعدة مملكة المانيا فذهب عشية الجمعة ورجع عشية الاحد فى الرتل وأعطى خمسة عشر ألفا فرنكا لاجل تلك الزيارة وعلى ذلك فقس وهو انما يقبل المرضى فى يومين فقط من الاسبوع وبقية الايام يقرئ فيها درسا عالية فى الطب العصبى وله مستشفى خاص بالامراض العصبية تحت نظارته يحتوى على نحو ثمانية آلاف مريض ذكر لى يوما الطبيب فيفر والذى هو بمعية الحكيم المشار اليه ومباشر للعلاج بالكهربا ان ذلك اليوم كان فى المستشفى مرضى أخذوا الاكل سبعة آلاف وثمانمائة ونيف عدا من لم يستطع الاكل ومن كان ممنوعا منه وذكر ان المستشفى حوسب على الاطباق الزجاجية الموضوعة فى أبواب الطواقى فاذا هى ثمانون ألف طبق وذلك الحكيم مع سعة معارفه هو بشوش مؤانس حتى صار ودودا لى وله ولزوجه ولوع كبير بالثياب والمفروشات والاوانى وغيرها الصينية والشرقية والعتيقة من صنائع أوروبا حتى كانت بيوت داره مكسوة بأشياء بديعة ذات قيمة عالية جدا تنجبا وزمئات آلاف فرنك ومن مصائب الجهل بالالسن ما حصل لى يوما وهو أن الطبيب أخبرنى بان المسكن الذى تعودت عليه بالاحتقان تحت الجلد مما يتأنس به البدن فلا يبقى مؤثرا ولذلك يريد أن يعمل

وجهاً فى ذلك وان الاولى بى ان أنقص من مقدار الاستعمال منه بان أصنع ربع المحقنة فقط هكذا أفهمنى المترجم ثم أتى بالعلاج المسكن من الصيدلانى فتحيرعلى ٣ الالم بين العشائين كما هو عادة طروه فى الاغلب فعلت المقدار مثل ماقال الطبيب فلم يسكن وظننت ان الدواء هو المعتاد فزدت نصف محقنة فلم ألبث قدر ثلاث دقائق الا وأيقنت بالموت ووجدت ألما لم أعهده ولا أقدر على التعبير عنه وانما أقول أظلم الجوّ فى نظرى وأحسست بنفسى ساقطا فى جب لا قعر له وغاية ما أدركت ان طلبت المصحف الكريم وضممته على صدرى واستشعرت انى أتلو آية لقد جاءكم سبعا ولسانى لا يكاد يصحح الحروف ولم أدر ما وراء ذلك فلم يبتدئ شعورى بالوجود الا بعد نصف الليل بثلاث ساعات فرأيت أتباعى ومعارفى حولى يبكون وجميع ما أراه أحمر ثم رجع الاغماء ثم الاستيقاظ ولا زال الامر يتدرج فى الخفة الى الصباح وأنا فى غاية الضعف وسألت الطبيب عن السبب فأخبرنى أن العلاج قد غيره بمسكن آخر يسمى الاتر وبينا مضاد لمسكن المرفين وأقوى منها بأضعاف كثيرة وانه كان شدد الوصاية فى التحذير منه للترجمان اذ ذاك المقدار الذى عملته يكفى لقتل عدة أشخاص وان من لطف الله أن كان فى مزاجى من المرفين مقدار وافر من استعمالها سابقا حتى كانت مضادة لذلك السم القتال ولله الحمد على لطفه وعفوه وماذاك الامن جهل اللسان واضرار المترجمين وقد أقمت بباريس فى هاته السفرة نحو شهر ثم عدت اليها سنة ١٢٩٥ وأقمت بها شهرين ثم عدت سنة ١٢٩٦ وأقمت بها شهرا وها أنا أفرد لصفتها فصلا خاصا

الفصل الثانى

﴿فى باريس وصفاتها﴾

باريس وما أدراك ما باريس هى نزهة الدنيا وبستان العالم الارضى وأعجوبة الزمان ولعمرى انها أحق باسم مملكة من اسم مصر وهى انموذج لغرائب مصنوعات البشر وحق للفرنسا وبين التفاخر بها ومباهاة الامم بمحاسنها وجمالها وغناها ومعارفها ومصانعها فهما فكرت فى احدى هاته الاوقات ان القوم قد انحصرت أعمالهم فيها ثم اذا التفت للاخرى تقول مثل ذلك وهكذا وكانها فاقت على غيرها باجتماع الكل فيها فصدق عليها المثل كل الصيد فى جوف الفرا ولو أراد الكاتب الاستقصاء فى كل طرف مما احتوت عليه لضاقت عنه المجلدات واضطر الى الاكتفاء بالاشارات وبالجملة

فالواقف

فالواقف عليها يزداد يقينا فى العلم بقدرة الخالق وان أحوال الآخرة فوق عقولنا كما أخبر به الصادق الامين عليه الصلاة والسلام من وصف الجنان وان فيها مالا يخطر على قلب بشر فاذا كانت هاته مصر لم يكن يخطر بالفكر تشخص صورتها الا بعد رؤيتها مع انها من مواد معهوداتنا فكيف بعالم لا نعهد مادته ولا نتصور طبيعته وربك يخلق ما يشاء ويختار وهو على كل شئ قدير فاجمال وصف هاته المصر المتمصرة انها بلد فى سهل بهارى قليلة الارتفاع يخترقها نهر السين الذى يحمل القوارب والبواخر الصغيرة وعليه فى البلد عشرون جسرا مختلفة الاشكال منها ماهو من قوس واحد من حديد ومنها ماهو من بناء وتمر تحته البواخر ومنها واحدة فى طرف البلد جهة قرينة تبنى عليه جسر آخر مرتفع جدا على حنايا يمر عليها الرتل فى طريق الحديد فترى البواخر جارية فى النهر وعلى الجسر المشاة والفرسان والعجلات ومن فوقهم الرتل كانه سابح فى الهواء وكل جسر مقسوم على ثلاثة طرق فاليمينى والشمالى للمشاة والوسط للركاب والعجلات وفى وسط النهر جزيرة كثيرة بها مبانى وديار ويخرج من هذا النهر ترعة تذهب جهة الشمال الغربى من المملكة الى أن تتصل بنهر المارن وهى فى أغلب البلد مغطاة بالبناء المنعقد وعليها الابنية ويحيط بالبلد سور منخفض شديد العرض عليه حصون فى جميع انحائه وخارجه خندق عريض جدا عميق يملأ بالماء من النهر عند الحاجة وللسور أبواب أنيقة من الحديد ومحيط دائرة السور أربعة وثلاثون ألف متر وتم تقسم المصر الى عشرين قسما كل قسم منفرد بادارته كانه بلد مستقل ثم يتحد الجميع فى الادارة العامة فى المجلس البلدى الذى هو أحق باسم دولة اذ دخله مليون ٢٦١ منها من ايراد الغاز ١٨٠ مليون ومصاريفه نحو ذلك منها ٩٩ مليون لفائدة الدين و ٢٢ مليون الى المكاتب والنافعه و ١٦ للمحتاجين وما بقى لمصالح المدينة كله يصرف فى مصالح البلد وتحسينها وعلى المجلس من الديون أزيد من ألف مليون صرفت فى التحسين اذ انه لم يزل يشترى حارات ويهدمها ويفتح فيها طرقا وبطحا آت وما فضل يبيعه أو يبنى فيه مساكن وحوانيت على حسب ما يقتضيه المكان وقد شاهدت فى سفرتى الثانية لهاته المصر أن المجلس البلدى فتح طريقا مستقيما متسعا من بطحاء الاوبرة الكبيرة الى بطحاء بالى اروايال وباع ما فضل من الارض فبلغ ثمن الميتر الواحد من الارض على التربيع أربعة آلاف وخمسمائة فرنك وبلغ سعر الميتر وحول النهج الموصل الى الوادى بولونيا الى ثلاثة آلاف فرنك وهكذا ثم ان طرق البلاد عددها أزيد من ثلاثة آلاف طريق وهى

تنقسم الى ثلاثة أقسام (الاول) يسمى آفنو وهو ما كان وسيعا جدا وحوله أشجار يمينا
وشمالا ووراءها قصور (والثانى) يسمى بلغار وهو ما كان أضيق من الاول ويزيد عليه
بان يكون تحت القصور حوانيت بهيجة (والثالث) يسمى رو وهو بقية الطرقات ومن
محاسن طرقها أنه يوجد فيها غالبا بأسماء الطرق العامة محلات للبول مستورة بشكل
ظريف على هيئة قباب فى وسط الطريق والماء بها جار كما توجد محلات الخلاء فى غاية
النظافة وهى أيضا كثيرة وذلك من واجبات البلدان الكبيرة لبعد الماشى عن محله
وذلك أمر ضرورى وأجمل الطرق منظرا هو البلغار الذى يشق البلاد تقريبا من الجنوب
الى الشمال وينتهى فى جهة الشمال الى البطحاء المسماة بلاس لاكنكورد
فتتصل بها حديقة الشانزيلزى وتنتهى الى البطحاء التى بوسطها قوس النصر المسمى
ارك دى ترنيونف ويتفرع منها اثنا عشر نهجا وقد كنت فى سفرتى الثانية سنة ١٢٩٥
نزلت بأحد هاته النهوج المسمى قديما افنو الامبراتريس والآن افنو ابوادى بولونيا
وكان الوقت صيفا فركبت احدى الليالى مع أحد أصدقائى من منزلى فى كروسة يجرها
فرسان وتوجهنا الى جهة البلغار وكان ركوبنا فى الساعة الثامنة بعد الزوال فسرنا نحو ما
ساعة ونصفا ولم نصل لمنتهى البلغار من جهة الجنوب ثم رجعنا وقد قضينا السهر فى
الطريق ذهابا وايابا مع المنظر الجميل والبهجة بنور المصابيح وكثرة ازدحام الماشين
والعواجل وبالجملة فهذا البلغار هو مما انفردت به باريس على غيرها من المدن الشهيرة
وهو فى الليل أبهى منه فى النهار لكثرة ما ينور به الطريق والحوانيت مع حسن وضعها
وتزويق ظاهرها وتعميق ما يوضع بها من البضائع وجمال ذاتها وتنضيد ترصيفها وهذا
البلغار له عدة أسماء باعتبار جهات منه وقد كان انشاء أصل هذا البلغار سنة ١٥٣٦
وكلما قرب الى المنتهى جهة الجنوب قلت نضارته بالنسبة لنفسه فى الجهات الاخرى والبلاد
وان كانت تشتمل بلغارات أخر كبلغار هوسمان وغيره لكن ولا كالبلغار السابق والذى
زاد باريس بهجة ضخامة أبنيتها وارتفاعها وتناسقها وتشابهها فى الظاهر ثم فى باريس
أماكن أخر انيقة فمنها بالى اروايال جوار قصر ملكى سمى به وهو عبارة عن مربعين
يتصل أحدهما بالآخر محيط بهما حوانيت تحت سرادقات وفوقها قصور ومطاعم
وحمامات ومنازل وفى وسط أحد المربعين حديقة نضرة بوسطها حوض وفوارات
وحولها قهاوى ومقاعد والحوانيت تشتمل جميع ما يحتاج اليه فترى حانوتا منضدة
بترصيف اليواقيت والجواهر وبازائها حانوت أخرى منضدة باللحوم والخضراوات

وتلاصقها

وتلاصقها قهوة ذات متكئات وهكذا ولا يمل نظرك من تلك المناظر البهيجة ومع تباين أنواع المبيعات تجدها في غاية التناسب لما لها من الرونق والنظافة وتجد المبيعات هنا في غاية الغلاء ومع ذلك فلا تبور سلعهم لان مترفي الاهالي يشترون الشئ لبائعه ومحل بيعه فباقة الزهر مثلا تشترى من هنا أو من البلغار بخمسمائة فرنك يهديها المترف لعزيزته باسم صانع ربطها مع انها تشمل زهرة من أمريكا وأخرى من الجابون وورقة من أواسط أفريقيا وهلم جرا وقد رأيت حانوتا تبيع الزهور في البلغار كرا ؤها خمسة عشر ألف فرنك في السنة وباع صاحبها باقة في رأس السنة بخمسمائة فرنك وهكذا حوانيت بالى ارواپال وكان أكثر بياعى اليواقيت مركزهم هو هذا المحل فلذلك كان له زيادة في حسن المنظر اذ كل اللئالى واليواقيت ترى مرصفة وراء أطباق الزجاج مكشوفة لكل ناظر وقد كان انشاء هذا المحل سنة ١٦٢٩ ومنها حديقة شانزلزى وهي غيضة في طول ميل تقريبا وفي منتهاها قرب البطحاء تصير كأنها بستان أنيق ذو مماشي وقهاوي ومقاعد وملاهي منها ما يسمى كافي شانتان فان الانسان يقدر أن يتعشى فيها منفردا بأطيب ما يشتهى والموسيقى تعزف واللاعبون في الملاهي يشعوذون ويغنون بالمضحكات وكذلك بها كافي لماشاد على نحو ذلك وفي أعلى الشانزلزى بطحاء وسيعة يتصل بها اثنا عشر طريقا وبوسطها قوس النصر المسمى ارك دى تريونف الذي بناه نابليون الاول ورسم على حيطانه صورة جميع حروبه التي انتصر فيها وهو بناء ضخم جدا شاهق للغاية ذو أربعة أقواس متقابلة متصلة ببعضها يصعد الى أعلاه بدرج داخل احدى زواياه وعدد درجه مائتان واحدى وسبعون درجة ومنها جردان مابيل الذي يفتح ليلا وتخال أوراق أشجاره وزهوره بما يبدعون من الانوار حتى يكون في أرضه وغصونه ما يبلغ عدة آلاف من المصابيح الملونة الزيت كالوان الزهور غير أن من له عرض يتحاشا الدخول اليه لكثرة من يدخله من المومسات ويصرن يرقصن هناك ويعبثن مع الرجال فقد سمعت من أخبار صحيفة الديبا الانكار على الحكم في اطلاق تلك العاهرات حتى عبثوا بالصينيين الذين قدموا لمعرض باريس سنة ١٢٩٥ عندما دخلوا اليه لا لذلك البستان للتفرج وسبب كثرتهن هنالك اعفاؤهن من الاداء على الدخول بخلاف الرجال فكل من دخل دفع خمس فرنكات مع حضور آلات الطرب وكثرة المشروبات والحلويات في مقاعد ذلك البستان المنشأ سنة ١٦٧٠ ومنها بالاس لا كنكوردا المتصلة بغيضة الشانزلزى السابقة الذكر وبوسطها حوضان كبيران بفوارات محيطها فوانيس وبين الحوضين العمود المسمى بالمسلة

الذى جلب من مصر وعليه كتابة بلسان المصريين القديم وحروفهم التى هى أشكال حيوانات ونصب هنالك سنة ١٨٣٠ وطوله اثنان وسبعون قدما فى قطعة واحدة من حجر دون القاعدة المنفصلة التى ركز عليها وعرضه من أسفل سبعة أقدام وكلف جلبه مصاريف عديدة ملايين حتى أنشأت له سفينة خاصة وقد نورت هذه البطحاء بالنور الكهربائى الذى هو كنور القمر لونا وطول هاته البطحاء ميترو ٢٤٨ وعرضها ميترو ١٦٩ وتتصل بالنهر وبالبلغار ومنها حديقة التولرى المتصلة بالبطحاء المذكورة أيضا ذات المقاعد والمساطب وهى امام قصر الملك ومنها بلاس فندوم التى بها عمود نابليون الاول صنع هذا العمود من ألف ومائتى مدفع من النحاس غنمها الامبراطور المذكور فى حروبه ورسم عليه صور المعامع التى انتصر فيها المذكور ووسط العمود به مائة وستة وسبعون درجة يصعد بها الى أعلاه وفى قمته تمثال نابليون وقد أسقطه الكمون أى جماعة الاشتراكيين الذين يريدون أن تكون الناس كلهم شركاء فى جميع الموجودات وذلك فى ثورة سنة ١٨٧٠ فأعادته الجمهورية الى مكانه فى يوم مشهود وكنت حاضرا سنة ١٢٩٢ ومنها افنودى لوبرة الواصل بين بطحاء الملهى العجيب المسمى بلوبره وبين بالى ار وايال وقد نورت بطحاآته وحافاته بالكهربا ومنها الباساج أى الاسواق المسقفة بالزجاج التى لا يمر فيها الا الماشى وهى ذات حوانيت يمينا وشمالا من أبدع الاشكال والتنميق ومنها غيضة أبوادى بولونيا أى غابة بولونيا من أبدع الآجام والغابات المشتبكة بالتصنع وفيها بحيرة صناعية وجبال وأنهار وجسور كلها صناعية وبها ممشى للعواجل وأخرى للفرسان وأخرى للمشاة ومقاعد وشلالات تنحدر منها المياه وآجام ورياض وقهاوى ومطاعم بأحسن تنظيم وفى البحيرة طيور مائية وجزر وقوارب يركبها الناس الى الجزر والناس ينتابون هاته الغيضة التى هى خارج باريس فى الجهة الغربية الشمالية ليلا ونهارا وهى ممشى أهل الترف سيما أيام الاحاد والاعياد وقد شهدت يوم عرض الجيش ويوم السباق الاكبر سنة ١٢٩٥ ان طرق المصر الموصلة لهاته الغيضة قد غصت بالعجلات على كثرة وسعها فان طريق الشانزيلزى يمر فيه أزيد من عشر كراريس متحاذيات ومع ذلك لم تستطع العواجل ان تتحرك فيه وكذلك طرق هاته الغيضة حيث ان الميدان وراءها وهو سهل رحيب نحو ميلين فى مثلهما وفى جهته الغربية ثلاثة أواوين منفصلة عن بعضها ومتلاصقة مستقبلة برواشنها ومقاعدها جهة الميدان وأوسطها به بيت لصاحب الملك وجميعها هيئة جهة استقباله

هى

هي ان بعضه أعلى من بعض متدرجا ويدخل اليه من ظهره وامام كل منها فسحة بها
كراسي ويفصل بينها وبين الميدان درابزين ولا يدخل الى ثلاث الاواوين الا من كان
بيده تذكرة الاستدعا من الدولة وقد حضر موكب السباق سنة ١٢٩٥ من
خصوص المدعوين ما يزيد عن الخمسة والثلاثين ألفا (أما) مجموع المحيطين بالميدان
بين راكب وراجل فهو ينوف عن نصف مليون من الخلائق وحول الغيضة أيضا
ميادين أخر لغير السباق الكبير وبها محل للرماية وهاته الغيضة دمرتها عساكر المانيا
وعساكر فرانسا سنة ١٢٨٣ حيث كانت مرسحا للحرب ولكني لما رأيتها سنة
١٢٩٣ كانت كان لم يكن بها شيء وكانت أشجارها نابتة فيها منذ قرن حيث انهم
لما أصلحوها نقلوا اليها الاشجار العظيمة من الغابات وهم في كيفية نقلها براعة أعان
عليها علم جر الاثقال وآلات البخار حتى انهم يحملون الشجرة بأرضها النابتة بها من
غير ان تمس عروقها ويبقى محلها كانه بئر ومنها غيضة ابوادي فنسن وهي خارج البلد
من الجهة المقابلة للغيضة السابقة وهي على نحوها وأشجارها أكبر غير انها الارونق
عليها وكان ذلك لعدم انتداب الاغنياء اليها وانما يتفسح فيها الاواسط والفقراء
لبعدها عن حارات الاغنياء ولكن لفقها وبها ساحات لالعاب رياضية بدنية بآلات
كثيرة تستعملها الاهالي وهاته الغيضة يوصل اليها بالعجلات والحوافل المسماة
بالامنيبوس وباالتراموي الذي تجره مرجية بخارية وكلا هذين النوعين لا يستعمل
في الغيضة السابقة لكثرة واردها مع الغنى والترف ومنها غيضة بارك مونسو قرب
الشانزي لزي لها أبواب من حديد مذهب أبهج من أبواب سرايات الملوك المسرفين
وهي ليست بكبيرة جدا وفي باريس عدة غيضات على نحوها في كل قسم منها غير انها
ادون منها تأنيقا ومنها جردان دي كليماتسيون الذي أنشأته جمعية أهلية للنباتات
والحيوانات وقد جمع فيه من كلا الامرين كلما يقدر عليه البشر من جميع أقطار العالم
ولكل نوع من الحيوانات أو النباتات هيئة وهواء صناعي على نحو ما هو معتاد به في قطره
وقد تيسر بذلك التحفظ على حياة جميعها غير ان الاشجار المعالج هواؤها اذا أثمرت لم
تكن ثمرتها كاصلها ومن ذلك النخل فان ثمره لم يكن تاما ثم الحيوانات التي يصعب جلبها
اذا مات منها شيء فانه يصبر جسمه لينظر على نحو ما كان عليه مدة حياته اما ما رأيته فيها
من الحيوانات البرية والبحرية فيلزمه كتاب حياة الحيوان ليستوفي الكلام عليها واقول
باختصار ان أنواع الكلاب وحدها تزيد على المئات فضلا عن غيرها وكذلك أنواع

❁ الببغا من الطيور بألوانها وتذهيبها البديع ومن الحيوانات الغريبة نوع من الضأن الكبش منه كالحيوان المسبع غير انه لا يأكل اللحم وانما هو جرئ وحشى قوى جدا ومن حيوانات البحر أسد البحر وله صوت عال ويخرج الى البر أحيانا ليأكل ❁ مايلقى اليه وهو سريع الحركة قويها جدا ومن حسن تربية الاشجار ان شجرة ترى قاعدتها على أصل واحد ثم تتفرع وتصير كالكورة ثم تجتمع وتصير أصلا واحدا ثم تختلف على أشكال عديدة وفى هذا البستان محلات تجرها خيل صغار جدا لمن يريد ❁ الجولان راكبا وفيه محلة يجرها أربعة من المعز يركبها الصبيان وأخرى تجرها نعامة يركبها الصبيان أيضا وهناك أفيال برخوتها يركبها كل من يريد ذلك وفيه أيضا محلات للقهوة وأخرى للجلوس وتنشابه الموسيقى فى أيام من الاسبوع وعلى كل داخل للبستان أن يؤدى فرنكا واحدا أما اذا أراد شيأ آخر غير التمشى والجلوس فيؤدى أجره ❁ وله أن يشترى من كل مافى البستان من الحيوان والنبات غير انهم اذا كان لهم من النوع فرد واحد فلا يبيعونه وقد وجدت فيه سنة ١٢٩٦ ملهى مركبا من سودان أفريقية سموهم بالزلوس لوقوع الحرب بينهم وبين الانكليز فى ذلك التاريخ لكنهم فى الواقع من سودان مصر كما صرحوا الى أنفسهم بذلك ويتكلمون بالعربية ويصورون حروبا ❁ وغيرها ومنها جردان دى بلانت وهو مثل السابق غير ان بينهما عموما وجهيا فالاول أبهى منظرا واكثر حيوانات والثانى يشتمل على الحيوانات المسبعة التى يمنع وجودها فى الاول لان الثانى للدولة وفيه كل السباع الا الكركدان فقد كان لهم منه ❁ واحد لكنهم اكلوه عند محاصرة باريس ١٢٨٧ هـ سنة ١٨٧٠ م ومن أعجب مارأيته من الثعابين ثعبان اسود فى غلظ فخذين وعيناه حمراوان جدا ويظهر عليه خبث شديد والزجاج المحيط به مردود ووراءه اسلاك غليظة من الحديد مشبكة تشبيكا ضيقا ويقال ان سبب ترميد الزجاج كون شعاع بصر الثعبان مسموما ورأيت فيه الحيات على أنواع ويلقون اليها أولاد الفار الصغار قبل نبات الشعر بجلدها فتنهشه الحية وتعرض عنه فيلقى مغشيا عليه يضطرب ثم تعود اليه الى أن يموت فتأكل منه ولعل ذلك لانها متعودة على أكل مثل ذلك وانظر من هذا المقدار اعتناءهم بتربية كل حيوان على طبيعته كما ينفرد هذا البستان بكونه فيه دار للتشريح والتاريخ الطبيعى مجسما فكانت جميع الاجسام من أنواع الحيوان فيه مصبرة ومشرحة والانسان على جميع أطواره من النطفة الى الشيخ الفانى كما يوجد فيه خزنة للكتب فى الفن المذكور

المذكور ومنها قصر معرض سنة ١٨٥٧ الذى جعل فيه الآن أنواع الصور والاصنام ❀ ومنها قصر اللوفر الضخم المتقن البناء والتأنيق الملوكى وكان مسكنا للملوك والآن معرضا للظرف والآثار الدهرية وفيه بيت يشتمل على بعض بدائع ملوكهم ومجوهراتهم ومما فيه مائدة من المرمر الابيض مرسوم على سطحها خريطة أرضية بالوان المرمر الاخضر والاحمر وغيرهما بحيث أن كل جهة من الارض بلون خاص وفيه بيت لآثار الصينيين وآخر لدواخل أفريقية وآخر لاعمال فردينان دى لسبس مسمى باسمه وفيه صورة خليج السويس مجسمة مع جميع آلات الحفر والاشغال وعدة بيوت لصور تشتمل على عشرات الآلاف من الصور وأخرى لابدان مجسمة وبحار وسفن ومراسى وجميع غرائب الاقطار يقضى فيه الانسان عدة أيام ولا يستوفى حصر ما فيه وقد أخذ من هذا القصر قسم لادارة قسم من مالية الدولة ومنها قصر التولرى الذى وصله نابليون الثالث ❀ بالقصر السابق وخربه الاشتراكيون بالحرق فى ثورة ١٣٨٧ هـ سنة ١٨٧٠ م وعينت الدولة قسطاسنو بالترميمه على أصوله والعمل جار فيه غير ان ما كان داخله من الفرش والظرف لا يمكن استعواضها حيث كان مقر الامبراطور ويحتوى على أنفس بدائع الملوك وأمام هذا القصر حديقة بديعة نضرة بها ملاهى ينتابها الناس نهارا وليلا ورأيتهم ليلة معجبين من أحد العازفين بآلة كلرباب كبيرة جدا فى طول الانسان حيث انه أتقن دقها بدون ان تكون امامه ورقة التعليمات ومنها ملاهى كران أوبره ❀ الذى هو أبهى وأنظر من سائر القصور والملاهى واحتوى على الضخامة والتزويق والتأنيق والاسراف فدرجه المرمرية وشكلها ودرابزينها توقف الابصار وهو ذو تسع طبقات للمتفرجين وايوانين للستريحين ويحمل خمسة آلاف من النفوس وينور بالكهربا وأخبرت انه صرف على انشائه وتمويقه مائة مليون وأربعة عشر مليونا فرنكا ومنها ❀ قصر لكسنبورغ وهو وان لم يلحق نفاسة ما سبق ذكره من القصور لكنه عجيب وبجانبه دار الرصد العجيبة التى هى فى أرفع ربوة بباريس وفيها من المرايا المكبرة أنواع ❀ شتى منها ما هو فى حجم مدفع كبير وفيه بيت سقفه يدور على عجلات لكى تدور المرآة الى أى جهة من السماء من غير مانع وترى منه الكواكب ليلا ونهارا فقد شاهدت نهارا بالمرآة نجم الريفولوس الذى لا يرى ليلا الا بالمرآة وقال المديران بعده عن الارض أربعة وعشرون مليونا ميلا والحاصل ان فى هذا المرصد جميع آلات علم الفلك وبه علماء مثابرون على الرصد والتفتيش على ما يمكن لهم الوصول اليه ومنها قصر معرض سنة ❀

١٢٩٥ هـ ١٨٧٨ م وهذا المعرض البديع الذى جعلت به باريس دار مأدبة لسكان الارض واحتفلت بهم احتفال الكرام هو أبدع من جميع المعارض التى سبقته فى جميع البلاد ولا يفهم من قولى احتفال الكرام ان القادمين تقوم بشؤنهم فرانسا بل كل منهم يصرف على نفسه وانما المراد هو التهيؤ لاحضار ما تشتهيه أنفسهم وتلذ به أعينهم من كل ما يدخل تحت قدرة البشر ثم انفاق النفقات الباهظة للمحافل العامة والمآدب التى يضعها كبراء الدولة أحيانا و يدعون اليها أعيان المسافرين والاهالى فان دولة فرانسا قد دعت ملوك أروبا وغيرهم من الامراء والوزراء وكل من له اقتدار من غيرهم فانه يأتى لمشاهدة ما لم يمكن الوصول اليه بسهولة حيث انه يرى أنموذج جميع ما فى الارض كله بمحل واحد وقد كان ممن أجاب الدعوة من الملوك شاه ايران ومن غريب التواريخ ما قلته فى رحلته تلك وهو قولى مؤرخا (قد زار أروبا الشاه ناصر الدين) ١٢٩٥ لكنه قدم على غير الصورة الرسمية ولذلك سكن بأحد منازل المسافرين وذكرت الصحف انه أفطر يوما ببلد فونتين بلو التى حولها غابة ومنتزهات فكانت نفقته فى ذلك الفطور أحد عشر ألف فرنك ولا يخفى ان سائر الاشياء كانت فى تلك السنة فى نهاية الغلاء بباريس لاسيما المأكولات والمشروبات بداخل المعرض لكثرة الواردين من الاقطار حتى قيل ان معدل القادمين من الانكليز كل يوم أربعمائة ألف ومثلهم الرائحون فضلا عن غيرهم من سائر الاقطار وقد اجتمعت مدة هذا المعرض بأعيان من العرب وغيرهم فمن أعزة أبناء وطنى الحازم النصوح محمد الطاهر الزاوش الذى هو من خيار الاهالى وترقى بنصحه لدى الامير ولى العهد بتونس الى ان ولى مستشاره وأبدى من النصح والنجابة فى اسفاره مع مخدومه لسياسة القبائل والعربان ما أقر له به المنصفون وله دراية جيدة بأخلاق الاهالى وله نصح ووفاء عظيم مع الامير وسائر النصحاء وكذلك قدم من ابناء الوطن الوزير حسين والعلامة سالم أبو حاجب وقد تقدمت ترجمتهما واجتمعت بوحيد دهره الناصح للامة الباذل فى الاخلاص اليها نفسه حتى مات شهيدا ألا وهو مدحت باشا الذى ولى صدارة الدولة العثمانية وأنفذ بمساعيه القانون الاساسى الذى لو جرى به العمل حقيقة لنجت الدولة مما ألم بها لكن لما كان الحق صعب الاجراء الاعلى من وفقه الله قد عزل ذلك الوزير الوحيد من الصدارة قبل استقرار العمل بالقانون ثم نفى الى خارج الممالك العثمانية ثم أذن له بالاقامة فى جزيرة كريد ثم ولى والياً على الشام ثم نقل والياً على أزمير ثم قبض عليه وحكم عليه بالقتل بدعوى اشتراكه فى خلع السلطان

السلطان عبد العزيز وقتله لكن أكثر دول أوروبا أنكرت الحكم سرا لعدم جريانه بالحق الصراح فعرض عن القتل بالسجن المؤبد في الطائف من الحجاز ثم شيعت وفاته شهيدا للحق رحمه الله ونعمه وكذلك اجتمعت بذي الاصالة داود باشا المصري حفيد محمد على باشا الابن وصهر الخديوي الحالي وكذلك بسفير الفرس بباريس نازار أغا وغيرهم من أعيان الاقطار في الاجتماعات الخصوصية زيادة على الاجتماعات العامة في المآدب التي أشرنا اليها من دولة فرانسا فقد دعيت مدة اقامتي هنالك تلك السنة لمأدبة في وزارة البحر وأخرى في وزارة الخارجية وأخرى في وزارة المال وكل منها كان خارج المحل وداخله على غاية من التنوير والتزيين وجنائنه ملونة الانوار الارضية والفوقية كالوان أزهاره وموائد المأكل والمشروبات والمثلجات مصفوفة والموسيقات عازفة والاعيان من النسوة والرجال يرقصون أو يتفرجون في الملهى المخصص للطربيات وصاحب الوزارة المدعو اليها الضيوف يقف في البيت الثاني من المدخل هو وامرأته ويسلمون على الداخل ويتلقونه ثم يكون الداخل على حسب ارادته ولا يلزمه الوداع عند الرواح ويرى الانسان آلافا من المدعوين بافخر لباسهم وذوي النياشين متقلدين بها ورئيس الجمهورية يؤانس البعض ونساؤهم يتهن بدلالهن ولباسهن وحليهن فان منهن من تلبس الشفوف المطرز باللؤلؤ النفيس من صدرها الى ذيلها عدا حليها المكالة بالياقوت الملون ولا يكلم بعضهم بعضا في هاته المواكب الا من كان له معرفة بالآخر أو عرفه معرف نعم انهم يتهيؤن الى أدنى مناسبة للتعرف بالغريب يؤانسونه وربما اضطرت المرأة زوجها أو قريبها الى عمل مناسبة للتعرف بالغريب سيما اذا كان لباسه على خلاف معتادهم وقد عينت الدولة لمصاريف تلك المواكب عدة ملايين فضلا عن مصاريف الليلة الحافلة التي أعدوها تذكارا للجمهورية فقد روي أن مصروف الاهالي والمجلس البلدي في التنوير والتحسين والالعاب النارية تجاوز ستة عشر مليونا فرنكا وان ثمن الرايات التي نشرت على طيقان الديار والطرقات تجاوز الاربعة ملايين وكان مركز العاب تلك الليلة هو بركة ابوادي بولونيا وقد اكترى بعضهم طاقة في الطبقة التي فوق من الدار التي نسكنها للفرجة تلك الليلة بسبعمائة فرنك حيث كانت على النهج الكبير الموصل الى محل الالعاب وكان المهندسون والعملة متهيئين لها منذ نصف شهر وعلقت الثريات والفوانيس على الطرقات قائمة على عيدان ومشبكة بالاشجار وما قرب غروب تلك الليلة الا وانتشرت العساكر والخيالة في جميع المراكز حفظا للراحة وخشية من

الاحزاب المضادين للجمهورية وما غربت الشمس الا وناب عنها نور المصابيح ومنعت العجلات من السير فى الطرق مطلقا وما بدت النجوم الا وتصاعدت لها شماريخ البارود ترمى لها باقات أزهار ألوانها المختلفة الاشكال وتراكم ازدحام خلق الله بما يذكر يوم الحشر الاكبر ودام الحال على ذلك وأصوات الموسيقى والبارود تتهادى من كل طرف الى نحو الساعة الثالثة من بعد نصف الليل فرجعت العساكر الواقفون على البركة بخيلهم ورجالهم وبايديهم فوانيس على عيدان والموسيقات تصدح بلحن المرسيليار وهى قصيدة فى اثارة الحمية لاهل الوطن كانوا أعلنوا بها فى الثورة الكبرى سنة ١٨٣٠ لطلب الحرية وقد كان ترجم هاته القصيدة العلامة رفاعة باشا رحمه الله ونظمها ودونكها بنصها

فهيا يا بنى الاوطان هيا * فوقت فخاركم لكم تهيا
أقيموا الراية العظمى سويا * وشنوا غارة الهيجا مليا

عليكم بالسلاح أيا أهالى * ونظم صفوفكم مثل اللآلى
وخوضوا فى دماء أولى الوبال * فهم أعداؤكم فى كل حال
وجورهم غدا فيكم جليا * بنا خوضوا دماء أولى الوبال

أما تصغون أصوات العساكر * كوحش قاطع البيداء كاسر
وخبث طوية الفرق الفواجر * ذبيح بنيكم بظبى البواتر
ولا يبقون فيكم قط حيا

﴿عليكم الى آخر الابيات الثلاث﴾

فماذا تبتغى منا الجنود * وهم همج واخلاط عبيد
كذا أهل الخيانة والوعود * كذاك ملوك بغى ان يسودوا
تعصبهم لنا لم يجد شيا

﴿عليكم الى آخره﴾

لمن جعلوا السلاسل والقيودا * وأغلالا وأطوقا حديدا
لاهل فرانسا البروا عبيدا * وليس مرامهم هذا جديدا
أما هذا عجيب يا أخيا

﴿عليكم الى آخره﴾

وكيف

وكيف يسوغ ان نرضى رعاعا * من الاعراب يبغون ارتفاعا
ويجرى شرعهم فينا شراعا * وانذالا لديهم لاتراعى
رعايا بل تكب على المحيا

﴿عليكم الى آخره﴾

فلم ياسلام من المذلة * فما نرضى بان نبقى أذلة
ويأمرنا وفيتنا أجله * فريق بالدراهم قدتوله
فكيف وقدرنا أضحى عليا

﴿عليكم الى آخره﴾

الهى كيف يقهرنا ملوك * بجهل العدل ليس لهم سلوك
وأنذال للاستعباد حيكوا * ومافى الفخر شركنا شريك
ولا أحد به أبدا حريا

﴿عليكم الى آخره﴾

فقل لهم أيا أهل المظالم * وأرباب الجرائم والمآثم
اما تخشون من تلك المحارم * كذا أهل الخيانة للمكارم
وظلمهم لقد بلغ الثريا

﴿عليكم الى آخره﴾

أحلوا الخوف نحوكم أماما * وخلوا العدل عندكم اماما
ونقضكم لموطنكم ذماما * به تجزون ذلا وانتقاما
وتكتسبون عند القوم خزيا

﴿عليكم الى آخره﴾

فها كم قد تعسكرت الاهالى * وسارت كلها نحو القتال
لتقتحم المهالك لاتبالى * اذا مامات ليث فى النزال
تولد أرضنا شبلا صبيا

﴿عليكم الى آخره﴾

صغير القوم منا والكبير * يحب قتالكم فرحا يطير
نحاربكم وليس لكم نصير * وليس لحربنا أصلا نظير
وحاشا خولنا يلقون عيا

﴿عليكم الى آخره﴾

لنا وطن به همنا غراما * به تقوى عزائمنا دواما
نمانعه ونخشى أن يضاما * ونأخذ ثاره ممن تعامى
وجاروا ان يكن ملكا عتيا

﴿عليكم الى آخره﴾

لنا حرية في الكون تسمو * تزيد اذا الحروب بدت وتنمو
نمانع من بغيها امامهم * بها ثمرات نصرتهم تتم
على نغم المثاني والحميا

﴿عليكم الى آخره﴾

نموت عدا نتم اموتا شنيعا * اذا ما أبصروا عزا منيعا
يحوز جماتها مجدا رفيعا * فويل للذى يبغى الرجوعا
لرق يكتسى خطأ وغيا

﴿عليكم الى آخره﴾

سندخل سلك أرباب الجهاد * كاسلاف لهم طول الايادى
ونقفو نحوهم في كل ناد * ونقفو فضلهم في كل واد
ونبلغ في العلى شأوا قصيا

﴿عليكم الى آخره﴾

نؤمل أن نكون لهم فداء * وكل فتى بفخر النصر باه
وان لا بعدهم نبقى مساء * اذا لم ننتقم لهم العداه
ويأخذ ثارهم من كان حيا

﴿عليكم الى آخره﴾

وهذه القصيدة جعلوا لها لحنا خاصا وكانوا يترغون بها في ليلة تذكار الجمهورية ولم ينتظم في تلك الليلة عبثرات مع أن بعض اضداد الجمهورية لم يفتح طاقة تلك الليلة ولم ينور فانوسا وبعضهم رحل عن البلاد بالمرة تلك الليلة ومن الاحتفالات الواقعة لضيوف المعرض الاحتفال الذى صنع بعرض الجيش حول ابوادى بولونيا كما مر ذكر محله فبعد احتباك الموكب بالمتفرجين الذين يجاوزون النصف مليون ومنهم شاه ايران والعساكر ترى من بعد حول تلك التلال والهضاب واذا بالمارشال مكماهون رئيس الجمهورية *

الجمهورية اذذاك قادما راكباً على حصان أشهب عربي يقدمه ثمانية فرسان من العرب سكان الجزائر بلباس العرب وبرانيسهم حمر ووجهم عربية ووراءه وزير الحرب ثم نحو عشرين فارسا من ضباط العساكر والمعينين وكلهم بالملابس الرسمية فلما دخل الميدان وسامت وسط الموكب أومأ بالسلام لجهة المتفرجين الجلوس في الايوان الوسط ثم ركض حصانه وصار يطوف على كراديس العساكر ومهما وصل الى راية الا وكشف رأسه مومياً بالسلام الى ان طاف على الجميع ثم رجع الى أمام الايوان الوسط واستقبله ووقف وكان أمير الجيش كله المكلف بذلك الموكب هو أمير جيش باريس فجاء راكضا وسلم على رئيس الجمهورية ثم انحاز الى جهة الاواوين وأصدر أوامر الحركات العسكرية فاذا بالجيوش من كل حدب ينسلون وجاء الآلاي الاول وموسيقته تعزف أمامه فلما حاذت رئيس الجيش وقفت ومر الآلاي ماشيا من الجنوب الى الشمال بجميع لوازمه وسلاحه الى أن انقضى فجاء غيره ووقفت موسيقته وهكذا الى ان مرت خمسة وأربعون الفا من العساكر المشاة ثم أقبلت الخيالة المدرعون سربا سربا عشرون خببا وكل سرب متقارب لون الخيل الى أن مرت خمسة آلاف خيالة ثم أقبلت الطبجية أي عساكر المدافع بمدافعهم تجرها الخيول ذاهبين خببا الى ان مرت مائة مدفع وثمانية مدافع وكل فرقة من الجيش يقدمها رئيسها راكبا ويقف بين يدي الرئيس الى أن تمر فرقته فيتبعها ومهما مرت راية كبيرة أومأت بالسلام للرئيس وكشف هو لها رأسه ومنذ سلم هو عند دخوله الموكب الى ان انفض الموكب كانت المدافع تطلق من الحصون وعندما مرت العساكر الاهلية أبناء باريس ضج الموكب بالتصفيق والتحيات استحسانا لسمتهم ونشاطهم حتى صارت كاصوات الرعد ووقع لغيرهم قليل من ذلك النوع وكان اليوم حارا والرئيس مستقبل الشمس بلا مظلة وقد سقط عسكري من حر الشمس ففي الحال حمل في نعش مصابي العساكر وعالجه الطبيب وأرسل اليه الرئيس مرارا متفقدا وعند خروج الناس للرجوع احتبكت الطرق واشتبهت الكراريس على أصحابها وكان يوما مشهودا واشتباه الكراريس انما كان مستغربا لانه من عاداتهم في هاته المواكب اذا حضرت كروسة يتلقاها أحد صغار المكلفين ولما ينزل الراكب يعطيه بطاقة فيها عدد خاص ومثلها السائق الكروسة ويوقف كروسته في مكان رحيب على ترتيب الاسبق فالاسبق فاذا خرج الراكب أعلم أحد أولئك المكلفين بنمرته فيرفع صوته بها فتأتي العجلة بمجرد سماع

سائقها بعد عمرته من غير أدنى اختلاط ولا تعب لكن فى ذلك اليوم حيث خرجت الناس دفعة مع كثرتهم ومع ازدحام الناس خارجا وقع الاختلاط وعدم التمييز لكبر الموكب

❀ ومثل ذلك احتفال يوم السباق فانه لما انتظم الموكب على نحو السابق تهيأت خيل السباق وكان الجعل من الدولة للمجلى مائة ألف فرنك وللمصلى عشرة آلاف ثم ألفان ثم علق فى عمود أسماء الخيول المندفعة أولا وكانت ستة عشر فرسا من عتاق الخيل الجياد العربية وكل منها مسرج بسرج صغير جدا وركابها متساوون فى الوزن حتى اذا كان أحدهم أخف حمل شيأ يستوى به مع أصحابه وكل منهم لابس لباسا لاصقا بالبدن وعليه نحو جبة قصيرة ضيقة من الحرير بأحد الالوان لكل لون خاص وكل منها يمسكه رجل ثم يتصافون سواء من مبدأ الميدان فيضرب جرس اذنا بالركض فاندفعوا راكضين وكان الميدان على هيئة دائرة واسعة تتصل بأخرى أوسع منها ثم أخرى أوسع ولكل فرقة من الخيل حد فأعلاها ما يقطع الدوائر الثلاث ومجموع طولها نحو تسعة أميال وأدناها ما يقطع الاولى فقط فالسرب الاول كان من المتوسط وحاز القصبة حصان أحمر وعلق اسمه واسم صاحبه ثم فرقة أخرى وهكذا ولما خرجت الفرقة العليا تهيأت الناس وكثر اللغط فى المخاطرة كل يدعى ان الفرس الفلانى يغلب وكثيرا ما تربح عشرات الملايين فى مثل ذلك السباق بالمخاطرة بين المتفرجين ثم اندفعت الخيل راكضة وكانت ستة فقط وكانوا أولا يحتالون على أيهم يحوز الخط الداخلى من الدائرة ولا يطلقون عنان الخيل وعندما توسطوا الدائرة النهائية أرسلوا الخيل على غايتها فتخلف من تخلف ولم يبق الا ثلاث وعندما بقى الربع من الدائرة تخلف الثالث وتجارى اثنان فكان كل منهما تارة يكون مصليا وتارة مجليا لكن لما قربت قصبة السبق فاز الاحمر الكميت وصار ينطنط المارأه من شدة نشاط راكبه وكنت تخيلت سبقه من أول الامر لما تفرست فيه من حدة نفسه وتقارب وسرعة حركاته مع ان الكل مستوون فى صفات الجودة غير ان هذا أحد وأخف وقد أعطى صاحبه للراكب عشرة آلاف فرنك من الجائزة لان عادتهم ان يكون لمضمار السباق فرسان خاصون أو سائس الفرس أما صاحبها فلا يسابق بنفسه الا نادرا مع أمثاله وليس ذلك لزهدهم فى الفروسية بل أنفة لانهم كثير والركوب للخيل نساء ورجالا ويصرفون على تربيتها وتوليدها أموالا جسيمة حتى يباع الفرس الواحد بأربعين ألفا وأزيد ويكتبون أنسابها مسلسلة وأصلها من العراب وذكر لى ان جد أقدم نسل من خيل انكلاتيره هو حصان تونسى اشترى

اشترى من جمال ثم اعلم ان المعرض الذى نحن بصدد ذكره موقعه فى الجهة الغربية الشمالية من باريس يقسمه نهر السين الى شطرين فما كان عن يمين انحداره السين يسمى التروكادرو وبنى به قصر على شكل بديع وبناء متقن ليبقى هنالك مستمرا وهو المشار اليه أولا وأمامه رواق وقدامه بركة ماء واسعة جدا على جهاتها صورة أسد وثور وفرس وخنزير كل صورة ضخمة جدا كلها مذهبة والماء متدفق بهيئة عجيبة ويحيط بالجميع حديقة أنيقة وحول هذا المكان بناآت لصورة بناآت الممالك التى أجابت الدعوة فمنها دار أرسلها سلطان المغرب كلها من خشب على هيئة ديار فاس وبها النقش ✽ حديدة وغيرها مما هو عادة لهم وكذلك فرشها ومنها قصر ظريف لشاه ايران على نحو قصره ببلاده ومن عجيب ما به سقف بيت كله من البلور المضلع على هيئة عناقيد وهكذا كل مملكة أجابت الدعوى تبنى مكانا على هيئة أبنيتها فى بلادها وحول تلك الابنية مخادع ومقاعد وحوانيت وقنية فى تلك الحدائق والشطر الثانى من المعرض يسمى ✽ شان دى مارس وفيه حدائق أيضا وقهاوى ومطاعم وفيه المحل المهم المقصود من المعرض وهو بناء عظيم واسع طوله نحو ميلين فى ذلك العرض كله بناء من قضبان حديد ومقسم على أقسام على حسب الممالك كل مملكة تأتى بأنموذج ما عندها من الجمادات والنباتات والحيوانات والمصنوعات قل أوجل حقر أوعظم فكان ذلك المحل حاويا بالجميع أنواع ما يعلم فى الدنيا لانه أجابت دعوة فرانسا الى ذلك جميع الممالك ذات الشان الا الدولة العلية لاشتغالها بحرب الروسيا اذ ذاك فالمعرض حينئذ لما فيه عبث اذ يعجز عنه الواصف وانما أذكر أفرادا من المستغربات التى لم تزل عالقة بذهنى فمنها ساعة ذات أربعة أوجه مرفوعة على نحو أسطوانة ارتفاعها أزيد من ستة أذرع ورقاصها صورة كورة أرضية معلقة فى القبة التى فوق الساعة ويحيط بالكورة صورة الشمس والقمر وبقية الكواكب السيارة والغرابة من جهة كون الساعة ليس لها آلة تحركها سوى تلك الكورة وذلك بان اعتبر ثقلها وبعدها عن مركز تعليقها ومنعت من الاستقرار بمركزها باعتراض قائم فى رأس الساعة متصل بآلاتها سهل الدوران فكانت الكورة تطلب المركز وتدفع العارض بثقلها وهو يدور وهى تدور معه وهكذا وهى من مصنوعات الفرانسيس وقيل ان ثمنها ستون ألف فرنك ومنها مقعد من البلور الرفيع ذو ثلاث درج واثنى عشر ضلعا مرفوعة قبته على أسطوانات من البلور يجلس به اثنا عشر انسانا كله قطعة واحدة من البلور المضلع وهو من صناعة النمسا ومنها مطبعة تطبع بلونين فى آلة

واحدة وتخرج عدذا وافرا فى كل دقيقة ومنها ارسال الرسائل المكتوبة فى قنوات من حديد مفرغة من الهواء فتصل بسرعة كالسلك الكهربائى وقد صار الآن فى عدة جهات من باريس ارسال الرسائل بتلك الصورة ومنها الجوهرات والتحف الغريبة التى اهداها ملوك الهند الى ولى عهد انكلاتيرة وهى كثيرة عجيبة جدا ومن أغربها معولان من العاج فى طول الذراع ورأساهما على صورة رأس أسد وعيناه ياقوتتان حمراوان لم أر أجمل وأضوأ وأخلص منهما الى غير ذلك مما يقصر عنه وصف الواصف من بدائع الصنائع والمخلوقات وأما بقية اماكن وبناءات باريس الشهيرة فهى كثيرة جدا ومن أهمها ❀ لبزان فاليد وهو محل العاجزين من العساكر وبه آثار الاسلحة القديمة منذ عرف السلاح فى الدنيا الى الآن وبه قبر نابليون الاول والرايات التى غنمها وعلى قبره هيكل وتابوت فوقه نيشانه وسيفه ادخلونى اليه واورونى جميع جزئيات غرائبه تكرمة منهم وحوله قشلة كبيرة للعاجزين من العساكر بالسن أو الحروب الذين يريدون الاقامة هنالك فزيادة على القيام بجميع ضروريتهم لهم خدمة وكل من لا يقدر على المشى تجعل له عجلة صغيرة يحركها بنفسه ان قدر والا جرها خادم للتروح فى المنزه الذى حول ذلك المكان والمدير لهذا المحل رجل من رتبته أمير آلاى ذو اخلاق حسنة ومعارف جيدة أما ملاهى باريس فهى كثيرة ومختلفة المقاصد اذ لا يقصدون بالملاهى مجرد التلهى بل ظاهرها التلهى وباطنها فائدة من الفوائد كالاعلام بتاريخ غريب لتجتنى محاسنه وتجتنب قبائحه لان الرائى يشاهد النتائج عيانا فتكون أوقع فى النفس وكالافادة بفائدة ❀ علمية مثلما يحصل فى أحد الملاهى من ذكر كورية الارض وان من يقطعها ذاهبا الى جهة الغرب فى نيف وثمانين يوما فاذا وصل الى المكان الذى خرج منه يجد انه نقص له يوم من أيام الاسبوع مثلا يرى انه وصل فى يوم الاحد والحال ان اليوم عند أهالى ذلك المكان هو يوم الاثنين وبعكس ذلك من يقطعها ذاهبا الى الشرق فانه يزداد عنده يوم فيرى انه وصل يوم الثلاثاء والحال ان اليوم عند الاهالى هو يوم الاثنين وذلك لان السائر الى جهة الغرب يكون ذاهبا مع الشمس فاليوم بليلته عنده أزيد من أربع وعشرين ساعة فيجتمع فى تلك الايام يوم كامل يضيع على المسافر ويزيد عنده مقابله مثله لان اليوم بليلته عنده أقل من اربع وعشرين ساعة لذهابه ضد سير الشمس وقد نص القرافى على هاته المسئلة وماهو الحكم الشرعى فيها اما اذا صادف اليوم المختلف فيه يوم الجمعة فان المقيم يعده يوم الجمعة والمسافر الى الغرب يعده الخميس والمسافر الى الشرق يعده السبت

السبت وغير ذلك من احكام العبادات والمعاملات الموقتة وان الحكم هو الاعتبار بما عند أهل المكان فأولئك اللاعبون يصورون هاته المسألة العلية بتشخيصها وصورة السفر برا وبحرا وما يعترض من العوائق وثمرة الحسال للتوصل به الى الاغراض الى غير ذلك وهناك ملاهى لافادة البراعة والبلاغة فى الكلام وأخر لافادة علم الموسيقى الى غير ذلك من الفوائد ولو السياسية فقد كانوا مدة رياسة المارشال مكماهون على الجمهورية طلب مجلس الامة ان تعزل ولاة البلدان ورؤساء العساكر الذين هم من حزب الملكية فامتنعت الوزراء من قبول ذلك وحل الرئيس المجلس واذن بانتخاب اعضاء آخرين ولما انتظم المجلس الجديد أصر على مطلب سلفه فاراد الرئيس حله أيضا فامتنعوا من ذلك اذ لا حق له الا فى حله مرة واحدة فى نازلة متحدة وحصل نزاع كاد يفضى الى شغب فكان أحد الملاهى لاعبا واذا باحد اللاعبين يقول ما ترجمته نظما

المارشال مكماهون يخضع * وان أبى من الخضوع يخلع
كذا الولاة من صياصى تدفع * لان ذلك للبلاد أنجع

فدخل الحرس وفتشوا على القائل فلم يقر لهم أحد ولا وجدوا الكلام فى كتاب الحكاية وآل أمر النزاع الى استعفاء المارشال واعلم ان تلك الملاهى يوجد منها ما هو مضيعة ومشغلة لكنه قليل والحاصل ان ملاهيهم لا تخلو عن فائدة معتبرة ومع ذلك فهم غافلون عما فيها من مفسدة مهمة وهى تعليم الشبان والشابات أوجه العشق ومبانيه ووسائله اذ قل ان يخلو تشخيص عن مثله ويعتذرون عن ذلك بانه يعلم أيضا شناعة ثمرات العشق وشناعة الفضيحة وايثار الموت على حفظ العرض مما يكون خاتمة تلك التشخيصات وكان ذلك لا يفيد اذ البواعث النفسانية غالبة على عقول الكثير من الناس فتأخذ ما يلائمها وتغفل عما سواه ويؤيد هذا ان الكثير ممن يحضر تلك الملاهى انما يجعلها وسيلة لتمكن من امعان بصره فى اللاعبات والمتفرجات التائهات بدلالهن وجمالهن ولباسهن وترى كلا من الحاضرين بيده مرآة مقربة وهو لا شغل له الا الاشخاص من واحدة الى أخرى ثم يلتمسون الوسائل الى المخالطة بمن يعلقون بها بل وكذلك تفعل الابكار والشابات مع الرجال الا العفيفات وأعظم هاته الملاهى هو كران لوبره الذى تقدم ذكره وكان دخله من اكتوبر سنة ١٨٧٩ الى نهاية يناير سنة ١٨٨١ الذى هو عام وأربعة أشهر ٠٠٠ر٧١٥ر٤ فرنك ومصروفه فى تلك ٥٠٠ر٧٤٩ر٤ المدة فكانت الخسارة أربعة وثلاثين ألفا وخمسمائة فرنك زيادة على ما تعطيه الدولة

اعانة له لانها تعين من دخلها فى كل سنة اعانة للملاهى مبالغ وافرة فكان معين للملاهى
المذكور وملاهى أوبيره كوميك وملاهى تياترفرانيسز وملاهى لوديون فى سنة ١٨٨١
١٠٠٠ر٣٢٤ر١ فرنك عدا بقية الملاهى للفوائد التى مر ذكرها وكراء البيت الواحد
فى هذا الملاهى سنة ١٢٩٥ مائة وعشرون فرنكا فى الليلة الواحدة وبه بيت لرئيس
الدولة يحتوى على مرافق وقد أذن لى بالدخول اليه تكرمة من رئيس الجمهورية
اذ ذاك المارشال مكماهون ومن أهم الملاهى البدروم الذى يلعب فيه بالخيول العابا
عجيبة وكذلك ملاهى السرك فترى الخيل تدرك مثل الانسان الحاذق وكذلك غيرها
من الحيوانات ولو السبعية فان الاسود والفيلة وغيرها لها ملاهى خاصة وتطيع أمرها
كالآدمى حتى رأيت الشاة تسطو على الاسد وتركب على ظهره وتدخل رأسها كله فى
فمه وهو منقاد خاضع وحوله فى الحجرة التى هو بها أربعة اسود أخر وأربعة نمورة ومثلها
ضباع ثم ذئاب ثم أربعة من الدب كلها وقوف حول حيطان الحجرة كاصحاب موكب
محتبك وذلك الاسد الكبير فى وسط الحجرة والنعجة تلاعبه وتركب عليه وصاحبها واقف
معها لكى لا يسطو واحد على آخر وتلك النعجة لا تخشى بأس جميع تلك السباع بل كأنهم
هم الخائفون منها غير انى شاهدت هاته السباع فى تلك الحالة والضبع واقف يرتعد من
الاسود وبوله جار على رجليه ومع ذلك لا يخل بامر صاحبه ومثله الدب فان صاحبه اذا أمره
بالقرب من الاسد الكبير تراه يرتعد ويصيح ولكنه يفعل ما أمر به وكذلك ذلك الاسد
يكفهر ويكره قرب الدب منه ولكنه لا يضره بشئ فالنفرة بين النوعين شديدة بخلاف
الاسد مع النمر فالتآلف بينهما قريب ومن غريب ما شاهدته هنالك ثعبان فى غلظ شبرين
وطوله نحو خمسة عشر ميترو يحمله عدة رجال ويمسه كل أحد ولا يضر شيئا وهو من النوع
الذى ذكرناه بجبال الودارنة بقطر تونس وقلنا انه بين الاهالى مثل القط الاهلى كما لهم ملاهى
للشعوذة يعملون بها الاعمال الاغربية وأما معامل باريس للصنائع فهى كثيرة جدا ومما اختصت
به عن غيرها معمل كبلان الذى ينسج به المنسوجات الثخينة كالزرابى التى يضرب بها المثل
وكذلك معمل السيفر الذى يصنع به الاوانى الخزف التى يفضلونها على الخزف الصينى
وقد رأيت به مائدة على ساق واحدة أرفع ما رأيته من ذلك الشكل بالوان وصفاء بديع
ذكروا ان قيمتها ستون ألف فرنك وكذلك معمل التمويه بالفضة والذهب بالجاذب
الكهربائى فترى القناطير المقنطرة من النحاس مصنوعة ساعات وشوكات وملاعق
وغيرها يدخلونها فى برك من مياه الفضة والذهب فتخرج كانها من ذلك المعدن وأما
منازل المسافرين فتكاد ان لا تحصى وأهمها المنزل الاكبر فى بلفار الطليان فانه من
عجائب المبانى والتنظيم وترى فيه ايوان الاكل العام متسع جدا بقبة واحدة يحيط بها

رواشن

رواشن و يوقد به نحو سبعمائة مصباح وقبته وحيطانه كلها مموهة بالذهب على اشكال جميلة و به سبع موائد كل مائدة يجلس عليها خمسون نفسا فترى ثلاثمائة وخمسين نفسا في بيت واحد يأكلون جميعا على غاية الراحة والنزهة والابهة ولا تسمع فيها الاغبة والاكل يأكلون سواء والفطور له خمسة الوان والعشاء له سبعة الوان عدا الحلويات والفواكه وزينة المائدة البديعة وثمن الاكل فيها للواحد ستة فرنك عشاء واربعة فطورا ويحتوى المنزل على سبعمائة حجرة للسكنى وستين بيتا متسعة للجلوس ويصعد الى طبقاته العليا بالجلوس على كراسي تصعدها آلة بخارية وأما حماماتها فهي على نحو ما سيأتي في الصفات العامة غير انها اختصت بحمام عربي قرب البلغار وهو في نهاية التأنيق والتزويق والزخرفة شبيه بالحمامات العربية في كونه له بيت كبير حار للاغتسال والعرق و بيت كبير لنزع الثياب والراحة للمغتسل متناهي بعد الاغتسال وبين البيتين حوض كبير مملوء بالماء البارد ينزل اليه كثير من المغتسلين بعد الغسل ليخرج منه الى بيت الارتياح وعند وصوله الى الحائط الفاصل بين البيتين يضطر الى ادخال رأسه أيضا في الماء لان الماء واصل الى اسفل الحائط وفي الحمام خدمة يكبسون المغتسل وينظفونه على النحو المعتاد في البلاد العربية و بعضهم من الجزائر و بعضهم من السودان أما احوال المعارف وترقي العلوم فالباب فيها واسع جدا ونقول اختصارا ان في باريس مكاتب للعلوم العالية واولها مجمع كبار العلماء ثم مكتب فرانساوهو لنهاية المعلمين ومكتب اركان الحرب ومكتب المعلمين ومكتب الصيدلانيين ومكتب اتقان علوم الطرق والجسور ومكتب علوم المعادن ومكتب تعلم التجارة ومكتب الصنائع الظريفة ومكتب علم الموسيقى وعلوم تشغيل الملاهي وانشائها ومكتب اللغات الشرقية والآثار القديمة ومكتب الصنائع وخمسة مكاتب ابتدائية للدولة وأما الابتدائية للاهالي فغير محصورة وهي كثيرة جدا ومكتب للقسيسين عال ومكتب لهم دونه ومكتب للعمى وآخر للصم البكم يعلمونهم باللمس والاحرف المجسدة والخوارط المجسدة فيصلون الى سائر المدركات كما ان في باريس ثمانية خزائن كتب عظيمة للعامة تحوي من المجلدات نحو ثلاثة ملايين مجلدا وأكبرها خزنة الكتب العمومية التي فيها أول ما عرف من آلة طبع الكتب وفيها بعض تحف عتيقة مثل قطع من الشطرنج الذي كان اهداه هارون الرشيد الى شارلمان وجملة ما فيها من الكتب أزيد من مليون مجلد منها أزيد من ثمانين ألف مجلد بخط اليد ومن تلك الكتب الكتب التي أخذها نابليون الاول من مصر ثم الكتب المأخوذة من الجزائر

وقد رأيت فيها كتبا نفيسة عربية ومصاحف كريمة أنيقة ذات أسفار بقطع من الذهب وخطوط جميلة وكان فيها من المطالعين والناسخين نحو خمسمائة نفس نساء ورجالا لكن الرجال أكثر على غاية من الادب والصمت وهاته الخزنة مثل قصر عظيم ذى طبقات ومحل المطالعة واحد ايوان واسع ثم وراءها تبيت المكاتب والكتب واعتناء الدولة بواعث أخر للاجتهاد والتقدم فى العلوم وذلك بانعقاد جمعيات للتحريض والاعانة بالمال وسائر الوسائل للوصول الى المقصود فى خصوص باريس فمنها جمعية اللغة الفرانساوية وجمعية سائر العلوم وجمعية علوم الادب وجمعية المعارف الظريفة وجمعية العلوم العقلية وجمعية علوم الطب وجمعية التحريض على الاختراعات وجمعية علم النباتات وجمعية علم طبقات الارض وجمعية معارف آسيا وجمعية الاحصاآت الدنيوية وجمعية الجغرافيا وجمعية علم التاريخ وجمعية المرحمة الانسانية وجمعية الصيدلة وجمعية الفلاحة وجمعية مقدمات الفلاحة وجمعية تربية النبات والحيوان وجمعية الصنائع الفرانساوية وجمعية لتنمية سائر العلوم ومما يلحق بهذا الباب كثرة المطابع فن أعظمها مطبعة الدولة ورأيت فيها من أنواع أحرف اللغات التى يطبع بها سبعة أنواع منها الاحرف العربية وعدد المستخدمين بها يقرب من ألف نسمة وفيها كتب عتيقة وحديثة فى كثير من اللغات ومنها كتب غريبة عتيقة بالخط الكوفى وغيره ومن المطابع المهمة المطبعة المختصة بطرق الحديد لطبع اعلاناتها ودفاترها وجميع ماتحتاج اليه فيها من المستخدمين أزيد من سبعمائة نسمة وتطبع بالحروف وعلى الحجر بخط اليد وهناك مطابع أخر كثيرة للصحف وغيرها فان الصحف لها تأثير كبير فى المعارف حتى انه يوجد ثلاثمائة صحيفة بين يومية وشهرية وأسبوعية فى السياسة أو التجارة أو العلوم ومنها مايطبع منه يوميا أزيد من خمسمائة ألف نسخة وفى بعض الاحيان لاتجد منه نسخة للبيع اذ قل ان تجد سائق الكروسة ليس له صحيفة يطالعها فضلا عن غيره وأما أماكن المرحمة كالمستشفيات وديار اللقيطين فهى كثيرة ويكفى لعظمتها ماذكرناه فى المستشفى الذى نظارته الى الحكيم شاركو واللقيط ينفق على تربيته وتعليمه مجانا الى ان يبلغ أشده وهم كثيرون بسبب كثرة الزنى والزانيات المتجاوز عددهم عشرات الآلاف منهن من هن فى ديار مخصوصة لذلك جهرة ولهن أطباء من قبل الحكومة لكى يمنعون المريضة بالامراض المعدية ويدخلونها المستشفى ومنهن من هن فى ديارهن أو فى الملاهى أو خادمات الى غير ذلك ومن أماكن المرحمة الدار الرحيبة المتخذة للفقراء الذين لايجدون ماوى وهم قادرون على التكسب

التكسب فان هاته الدار تأويهم ليلا وتطعمهم مايسد الرمق وتعطيهم فراشا بشرط ان
يغسلوا ارجلهم قبل دخوله ولا تقبلهم الا في الساعة الثانية بعد الظهر وفي السهر يسرد
عليهم قارئ كتابا في تهذيب الاخلاق والحث على العمل ولا يقبل الواحد أزيد من ثلاثة
أيام ومع كثرة المراحم فكثيرا مايموت الناس في الطرق جوعا أو بردا سيما في سوق الخضر
لان من لا يجد مأوى يتقي به من الزمهرير فيجمد بردا (وأما طرق المواصلة) والانتقال
من محل الى آخر في وسط البلد فلهم وسائل كثيرة كالبواخر في نهر السين تقف على الشطوط
يمينا وشمالا من طرف البلد الى طرفها الآخر والركوب في هاته البواخر اذا لم تكن
مزدحمة بالخلائق فيه نزهة جميلة سيما خارج البلد أيام الربيع والصيف ومنها ما يمر على
القرى المجاورة للبلد ومن الوسائل الترمواي وتجره الخيل في أغلب الاماكن وفي الطرق
القليلة المرور تجره مزجية بالبخار ومنها الامنيبوس وهو مثل سابقه غير ان طريقه
ليس حديديا ومنها الرتل يحيط بالبلد مارا حذو السور لكنه تارة يجري في نفق تحت
البلد ومنها الكراريس ولها ترتيب منضبط في باريس أزيد عن غيرها لان التسعير
المرسوم لا يزاد عليه ولا ينقص بخلاف غيرها من البلدان ومع ذلك فان سائقي
العجلات أظن انهم في كل بلدهم أسوأ أهلها أخلاقا الا ما ندر وفي عام المعرض أكدت
عليهم الحكومة التأكيد الزائد وشددت في الحكم على من يتعدى منهم الحدود ومع
ذلك كانوا كثيرا ما يسيئون السيرة ومن الوسائل أيضا الركوب على الخيل لكنه خاص
باصحابها وأما المكترون فهم أقل استعمالا لها من الكراريس وسائر العجلات
وبالجملة فان في باريس مائة ألف عجلة ومائة وثمانين ألفا من الخيل وهذا كاف في
بيان مقدار الحركة وأما رواج التجارة والسلع فلنكتف بذكر شئ منها وهو قصر البورس
الذي تروج فيه كل يوم تجارة تجاوز آلاف ملايين وفي أحوال السلع نقتصر على ذكر
مخزن اللوفر الذي هو قصر قدر حارة كبيرة ذو أربع طبقات فيه ستمائة مستخدم وفيه
من السلع كل ما يحتاجه الانسان من الملبوس وأثاث المنزل والفرش بل وحتى الكراريس
والخيل التي تجرها واذا دخل اليه المشتري تتلقفه الخدمة بالبشاشة واللين ويطلعونه على
كل مايريد فيختار ما شاء ويذكر لهم اسم محله ويذهب وهم يأتون بما اختاره مع صحيفة
مبين بها الاثمان ممضاة بالخلاص فاذا وجد شيئا غير الذي اختاره أو سعرا غير الذي سمع به
رد ما لا يعجبه وأخذ الباقي وأخذ صك الخلاص بعد دفع الثمن من غير مماكسة في السعر
ولا يخشى المشتري من الغرر لان السلع هنالك أرخص ما يمكن ان توجد لان صاحب

المخزن يأخذها من العامل ويزيد عليها نصفا في العشرة ربحا وكل من دخل المخزن الذى هو حقيق باسم قصر فله أن يدخل الى ايوان الجلوس ويقرأ فيه ما يشاء من الصحف ويكتب ما يريد ويشرب شيأ من المشروبات كل هذا مجانا ولصاحب المخزن دفاتر عديدة مقيد بها أسماء السلع باعداد مع أسعارها يعطيها لكل من أراد ومن يريد بعد ذلك شيأ من السلع ولو من الاقطار البعيدة فليس عليه الا أن يكتب للادارة جريدة بها أسماء ما يريد باعداده فيأتيه مطلوبه مع البريد ويدفع اذذاك الثمن ويأخذ المطلوب أما اذا تعرف بتجار وجعل معهم حسابا متصلا فان دفع الثمن يكون حسب الاتفاق ومثل هذا المخزن

❀ مخزن بومرشى وهناك مخازن أخر عديدة ولكنها دون هذين ومن غرائب ما رأيته بباريس القبة الهوائية الكبرى التى تسمى بالبالون وقد سماها علامة اللغة أحمد فارس بالمنطاد فقد صنعوا واحدة كبيرة جدا ونصبوها في بطحاء التولرى وربطوها بحبل من التل تجذبه آلة بخارية وعلقوا بها مركبة تسع أربعة وعشرين نسمة وكل من ركب يدفع أجرة الركوب عشرين فرنكا ثم يطلقونها تصعد الى ارتفاع ثلاثمائة ميترو فيرى الصاعد جميع باريس وما حولها كانه تحته وكان أول اختراع هاته القبة سنة ١٧٨٣ في فرانسا وهى قبة متخذة من منسوج الحرير مدهون بنوع صمغى كالمسمى بالفرنيز تملئ بالبخار الغازى الذى هو أخف من الهواء العادى بأربعة وعشرين ضعفا فتصعد

❀ ضرورة فوق الهواء لانها أخف منه وتحمل ما يتصل بها مالا يعادل ثقله خفة هوائها ومن محاسن باريس الماء المجلوب اليها من عيون غزيرة وجعلت له خزنة هائلة تقصد للتفرج عليها زيادة على الماء الذى يرفع من النهر بآلات بخارية فالاول للشرب والثانى

❀ للاستعمال ومن أماكن التفرج الدهاليز الكبيرة التى تحت الارض ويقال انها

❀ كانت لقطع الحجارة ثم جعلت مقبرة لعظام الموتى مرصفة مرتبة وكذلك الخنادق الوسيعة التى تجرى فيها الفضلات والمياه فانها تسير فيها آلات بخارية تحوالرتل لتنظيفها وتقصد

❀ بالتفرج ومن صفات باريس ان أغلب دورها يصله الماء في قنوات صغيرة كل دار على قدر استحقاقها وكذلك كل دار لها قنوات للبخار الغازى للتنوير ليلا ولبعض الديار ساعات تحرر كهاقوة الكهربا في مكان متحد في البلد بحيث تكون جميع الساعات متساوية الوقت على التحرير الصحيح في المرصد من غير مشقة لاصحاب الديار ولبعض الديار أيضا قنوات لاتيان الحرارة لتسخين الديار على حسب ارادة صاحبها وما يقسمه على بيوتها من غير كلفة لايقاد النار ولا خوف من احراقها لان الحرارة الآتية هى حرارة

هوائية

هوائية وليس لصاحب الدار الادفع ثمن هاتيك المرافق شهر يا أوسنويا غيران عمل التصحيحين والساعات لم يتكاثر كغيره ولا يلبث أن يعم واتحاد ساعات البلاد أمر مهم جدا فى كثير من الامور ولهذا كانت أوقات طرق الحديد فى كل مملكة معتبرة على قاعدة تلك المملكة فتجد جميع ساعات المحطات متحدة على وقت واحد

الفصل الثالث

﴿فى بقية البلدان التى شاهدتها بفرانسا﴾

فاولها بلد فرسال هى غربى باريس تبعد عنها مسير نصف ساعة فى الرتل وهى منتزه الملوك وبها قصور أنيقة وبدائع من تحف الملوك وما آثرهم منها الكراريس الرسمية التى تبلغ قيمتها الملايين لما فيها من الذهب والفضة واتقان الصنعة وحول تلك القصور البساتين والحدائق الجميلة ذات المياه الدافقة والبرك الواسعة قد جعل فيها سنة ١٢٩٥ وهى سنة المعرض عدة ليال للزينة واندفاع المياه فرأيت هاتيك الحدائق ملونة بقناديل الانوار الحاكية كثرة النجوم وشماريخ البارود بألوان وأشكال صاعدة وفائضة ودائرة ومنابع المياه طائرة فى الهواء كل عمود منها فى غلظ نحو نصف ذراع مرتفع عن منبعه نحو أربعين ميترو فكأنها منائر من الزجاج تبرق بسطوع الانوار عليها وكذلك أنواع أخر من المنابع ترمى الى أمامها على استقامة الى أمد بعيد وكل تلك المياه منبعثة من نهر السين بآلات قوية بخارية والمتفرجون عدة مئات الالوف وحول البلاد غابات وعماشى جميلة والبلاد واسعة الطرق نظيفة ظريفة والقصور الملوكية ليس بها من المفروشات الاقليلا من آثار الملوك متحفظين عليها على ما كانت عليه وقد رأيت بها كلا من مجالس الاعيان والنواب اذ كانا نقلا الى هناك بعد حرب المانيا سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م وكان جلوسى فى بيت رئيس الجمهورية اكراما منه لى على عادتهم فى الاكرام بمثل ذلك فاما مجالس الاعيان فلم يكن به شئ من المسائل المهمة ذلك اليوم اذ هو يوم لتصحيح قانون استقر عليه رأيهم فى اعتراضات واصلاحات للولايات حتى رأيت الاعضاء كل مشتغل بالحديث مع صاحبه والكاتب يقرأ فى القانون ولما كثر اللغط نبههم الرئيس مرارا للاستماع فكانه لم يخاطب أحدا واضطر للسكوت وذلك لان ذلك القانون قد تباحثوا فيه مرارا واستقر الرأى فيه وطبع ووزع على الاعضاء وعرفوه تفصيلا فكانت قراءة الكاتب اليه قراءة رسمية ليقع الامضاء عليه فقط وأما مجالس

النواب فتذاكروا فيه على مسئلتين أولاهما طلب وزير المال للرخصة فى صرف خمسة آلاف فرنك على جنازة أمير آلاى بلغ السبعين سنة من العمر ومات تحت السلاح فقيرا بعد ان ذكر تاريخ حياته ومآثره وطلب اجراء ستة آلاف فرنك سنويا للعائلة وان ذلك المطلب استقر عليه رأى الوزراء فما ختم كلامه الا وارتفعت الاصوات من جهات اليمين منكرين لذلك وردت عليهم أصحاب الشمال واشتد الوطيس بين الفريقين الى أن التزم الرئيس باسكاتهم ورام اتباع القرعة فخرجت الاكثرية بموافقة الوزراء فقلت لرفقائى هل رأيتم ماوقع قالوا نعم لكن ماقصدك قلت ان دخل دولة فرانسا نحو ثلاثة آلاف مليون وقد اتفق وزراؤها ورئيس الدولة على صرف خمسة آلاف فرنك على رجل بذل فى خدمة دولته والدفاع عن أمته مجموع عمره ومع ذلك لم تستطع الدولة ان تنفذ أمرها فى مال الامة الا بعد مشورة أهل الحل والعقد وموافقتهم وبمثل ذلك لا يصرف المال الا فى وجهه لا على اختيار فرد ولا على مداراته ثم قام وزير الخارجية وذكر ملخصا فى تجديد معاهدة تجارية مع ايطاليا وان شرح النازلة يوفى به أخوه الذى هو أيضا عضو فى المجلس فقام هذا العضو وخطب بما نحو ساعة ذكر ملخص تاريخ التجارة بين المملكتين وان ايطاليا أربح تجارة من فرانسا وطلب تعديل فصول فى المعاهدة السابقة فوافقوه على ذلك (وثانيها) بلد السيفر وهى قرية على نهر السين قريبة من باريس نحو نصف ساعة فى العجلة وبها معمل السيفر للخزف وبستان أنيق وقصر ملوكى (وثالثها) بلد ضان اكلوا بقرب السابقة وقريبة من هيأتها والحاصل انك اذا خرجت من باريس راكبا كروسة الى فرسال فانك ترى كأن البلاد الثلاثة المتقدمة متصل بعضها ببعض وينتقل من واحدة الى أخرى بالرتل وبالكروسة وبالترامواى وبالامنيبوس وبالبواخر النهرية سوى فرسال فان النهر لايحمل السفن الى قربها (ورابعها) بلدة فونتين ابلو التى هى اصغر من فرسال وعلى نحوها لكن ليس بها الاقصر واحد ملكى وبه أثاث لنابليون الاول ومنها مائدة كانت أمامه وقت اعلامه بانكسار جيوشه عند تعصب أوروبا عليه وكان بيده موسى فضرب به المائدة غيظا ولا زال أثره فيها لكن هاته البلد تفضل غيرها بما حولها من الغابة ذات الاشجار الفائقة ومحيط الغابة نحو أربعين ميلا وفيها من الطرق والمقاعد مايفرح النفوس وفى وسط الغابة قهاوى ومعامل لخرط تحف من اخشاب الغابة وفيها كثير من الصيد كبقر الوحشى وغيره والغابة متصاعدة فى جبال جميلة بما كساها الله من النبات وفيها صخرة يعتنى بالتفرج عليها

سقطت

سقطت على حجارة صغيرة كانت في الوسط فصارت الصخرة تتحرك كلما حركها أحد مع عظم جرمها وفي الجبال عيون كثيرة ويجري حول البلد نهر فهي من منازه فرانسا المقصودة (وخامسها) بلدة اليون وهي بلدة كبيرة ذات بطحاآت وبناآت انيقة ويخترقها نهران أحدهما يسمى هالرون منحدر بسرعة وتسافر فيه البواخر بقلة وثانيهما نهر السون ثم يجتمع النهران خارجها ويذهبان الى البحر وهي متوسطة بين مارسيليا وباريس ومنظر الجبل الذي حولها جميل سيما جهة منتزهها المطل على النهر الاول ويصنع في مطاعم ذلك المنتزه طعام من سمك النهر الاحمر ويتغالون في ثمنه وعلى النهر عدة جسور في البلد أحسنها الجسر الحديد ذو القوس الواحد المعلق وسطه في اطرافه بسلاسل وأحسن أماكن هاته البلدة هو بطحاؤها الكبرى التي بها قصر البورس وقصر الحاكم واهاليها يظهر عليهم الجد في الصناعة لان هاته البلدة هي أشهر البلاد الفرانساوية بمنسوجات الحرير فكانت السكان قليلوا الجولان في الطرقات اذ أغلبهم معتكف في المعامل وتجارة أهلها شهيرة في المعمور ورأيت فيها النفق في الجبل الذي يصعد فيه الرتل صعودا بينا حيث كان قسم من البلد في أعلى الجبل وقسم في أسفله فجعلوا طريقا حديديا ولتقريب الطريق واستقامته ثقب له الجبل حتى يصعد مستقيما وجعلت فيه حافلة وسيعة تحمل نحو خمسين نسمة ويجذبها للاصعاد حبل من سلوك من الحديد بآلة بخارية الى ان تصل الى أعلى الطريق فينزل الركاب منها ويسمى ذلك بالتونيل واقمت بهاته البلد يوما وليلة وهي ليست الاشغلا للتجارة (وسادسها) بلدة مارسيليا التي هي أعظم مرسى تجارية لفرانسا بل وفي البحر الابيض وهي بلدة كبيرة ذات جمال ونزهة وفيها حركة عظيمة للتجارة الى سائر الاقطار وفيها اخلاط من السكان من سائر الاقطار وأحسن طرقها طريق كانوبيار فيه قهاوي ومقاعد ربما فاقت بجمالها على قهاوي باريس وفيها منتزه يسمى اشاتود في أعلى مكان بها ومنه ينحدر الماء المجلوب اليه على حنايا ذات بناء متين ومحل انقسام الماء له منظر بديع من حسن البناء وتأنيقه وحوله حديقة نزهة وبها حيوانات عديدة من أنواع شتى ومن محلات نزهتها دار الآثار القديمة قرب شاطئ البحر وقرب محل السباق وأنزه قصر بها هو القصر المسمى اونيل دودينريف المتخذ مطعما على ربوة من الجبل المحدق بالبلد يحيط بالقصر من جميع جهاته رواقات على اسطوانات بشكل جميل مع تنميق للبناء وحسن الفرش والمأكل يحيط به حديقة ظريفة فهو نزهة للخواطر ولولا ان منظره للبحر عشية تكدره الشمس لانه غربي لكان أجمل

مارأيته من نوعه أما قوة حركة التجارة بهاته البلدة فهي عبرة للمتبصرين وذلك انك تشاهد من حركة العجلات والسفن والقوارب والارتال وكثرة البضائع من أنواع شتى داخلة وخارجة الى الصين وأمريكا وسائر الاقاليم وترى من المخازن التي هي حقيقة باسم قرى لكبرها وكثرة مافيها من السلع مايحير الفكر كما ان قصر البورس بها يكاد يناكب بورس باريس والحاصل انها هي ثاني بلد لباريس فيما رأيته بفرانسا وأما مرساها فهي ذات حوضين عظيمين ملآ من السفن وترى فيها من البواخر وغيرها مايشبه الغابات المحتبكة وقد وردت على هاته البلدة ثلاث مرات في سفراتي وأقمت بها عدة أيام ذهابا وايابا (وسابعها) بلدة طلون التي هي أول مرسى حربي على البحر الابيض وهي بلدة حربية اذلا نضارة لها ولا انشراح بالنسبة لغيرها لكن فيها من الحصون والاحواض لانشاء السفن والمدرعات والمعامل لانشاء المدافع والكال والالغام البحرية وغير ذلك من قوات الحرب شئ كثير ورأيت فيها احدى عشر حوضا بكل واحد سفينة مشتغل بانشائها منها ماهو على تمام ومنها ماهو في البداءة والخلائق منكبون على الاجتهاد كالنمل في المصيف وقد كان سفري الى هاته سنة ١٢٩٥ وكان مصاحبا لي في الرتل سفير الصين القادم بالاستدعاء للمعرض وهو وزير البحر عندهم وهو رجل مسن شعره خفيف على عادة أهل الصين وكل لحيته وشواربه بيض نحيف الجسم ومعه غلمان لا ادري أهم ابناؤه أم اتباعه ومعهم غيرهم من الاتباع مجموعهم نحو ثلاثة عشر رجلا وكان راكبا في حافلة منفردة هو واتباعه والحافلة ذات مخادع ومقاصير ومرافق بحيث لم ينزل منها مدة السير الى ان وصلنا الى طلون فنزل هناك حيث أعدت له دولة فرانسا باخرة حربية ذات طبقتين من المدافع لتوصله الى مرسى بلده في الصين وكانت الباخرة مباحة ذلك اليوم للمتفرجين والحاصل ان هاته البلدة بلدة حربية تظهر عليها سمات القوة والشارات العسكرية وأقمت بها نحو ستة ساعات (وثامنها) بلدة نيس التي هي على شاطئ البحر وهي مأوى الاغنياء وذوي الترف من الفرانسيس وغيرهم من أهالي الاقطار الباردة في الشتاء وذلك لان موقعها على جون مستقبل الجنوب ويحيط بها من بقية الجهات سلاسل جبال شاهقة تمنع عنها مرور الرياح الباردة فكانت مأوى في الشتاء حسنا وكثرت بها القصور والمباني الجميلة ومنازل المسافرين الرحيبة وجميع ديارها صغيرة لا تزيد على أربع طبقات سوى منازل المسافرين وذلك لان عادة الانكليز في بناءاتهم على ذلك النحو وهم أكثر القادمين الى هاته البلدة ولان غيرهم أيضا انما يقدم منهم ذوو الترف المتعودين

على

على سكنى الانفراد فلذلك كانت مبانيها جميلة ظريفة وسياج حدائقها من الآجر أو الحجر مرصوف على أشكال حسنة والبلدة يشقها نهر تجرى فيه المياه عند نزول الامطار فقط وعليه عدة قناطر ولها عدة ملاهى لكن لما قدمت لها صيفا وجدت البلد كانه خال عن السكان لقلة من به بالنسبة لكثرة البساتين والديار المنفردة وليس بها ملاهى مشتغلة سوى الملهى الصيفى على شاطئ البحر ويقرب من هاته البلدة عدة بلدان هكذا على نحوها ظرافة ونزاهة وأقمت بها ليلة ويوما (وتاسعها) بلدة أياتشو وهى قاعدة جزيرة ✽ قرسكا وهى مرسى امنية صناعية ومن عاداتهم فى المراسى ان البواخر مهما وصلت تتم اشغالها الليل والنهار سواء فتحمل السلع وتنزل غيرها وكذلك الركاب بحيث ان ساعاتها المعينة لا تتأخر عنها ويجد المسافر فى المرسى وحولها ضروريات ما يحتاج اليه وهى منورة وهاته البلدة ظريفة جميلة ذات اشجار كثيرة من النارنج والليمون فكانت رائحة الزهر عند دخولى اليها فى الربيع عابقة وفيها بطحاء وسيعة بوسطها صورة نابليون الاول والدار التى ولد بها لا زالت على هيئتها وفرشها للتحفظ عليها كالمصالح العامة لانه من رجال السياسة المعدودين فى الدنيا ورقى اسم فرانسا الى درجة عظيمة وهو فى الاصل من عموم أهالى هاته البلدة وأقمت فيها بضع ساعات ولما أوقدت المصابيح ليلا عند الغروب ثم طلع البدر نقصوا النصف منها اقتصادا فهاته هى البلدان التى دخلتها وأقمت فيها بفرانسا فى السفرات الثلاث وعند رجوعى الى الوطن فى السفرة الاولى راكبا من مرسيليا وكان ذلك فى يناير الموافق لمحرم سنة ١٢٩٣ ليلا صادفت هيجانا عظيما فى البحر حتى كادت ان تهلك الباخرة بمن فيها وانكسر منها عمودان من حديد معلق فيهما قارباوومات ثلاثة من الخيل وانكسرت رجل أحد الركاب ولم يستطع أحد ولو من النوتية ان يتحرك من محله وجاء فى السفن صباحا بعد هدو البحر مهنيا بالسلامة وأخبرنى انه لم ير مثل تلك الليلة وانه ربط نفسه بحبل مع عمود الباخرة ليستطيع الثبات فى مكانه وما وصلت الباخرة الى جزيرة كرسكا الا بعد ميعادها باثنى عشر ساعة ومن غرائب المرائى انى رأيت فى الليلة الثانية فى البحران سنة من اسنانى سقطت وكان احبائى سألونى عنها وكنت أسلى نفسى بانها كانت غير ثابتة بل مضطربة ولذلك لم أجد ألما فى نزعها فلما أفقت انقبضت من تلك الرؤيا ولم أعلم ما تشير اليه فلما وصلت الى الوطن ظهر لى فى أوجه الاحباب الملاقين غبار وفى اثناء الطريق سرد على الفاضل محمد السنوسى هاته الابيات قال

فاشكر الهك واذكر النعم التي * ردتك بعد تلاحم الاهوال
فاتيت ارضك سالما واعزما * تلقاه فيها فوزكم بالآمال
فترى بنيك من السلامة في حلى * موصوفة منكم بكل كمال
وجميع أهلك والاحبة كلهم * يلقونكم بتساحب الاذيال
هذى هى النعم التي لم نوفها * حق الثناء على الولى المفضال
وهو الذى أبقى اليك الاخت كي * تسمو بعزك في حلى الاجلال
اذ لم تصب في غير ليلة أمسنا * والآن ترقب منك خير هلال
فاشكر الهك صابرا متيقنا * بجزيل فضل الواحد المتعالى

فاعلمني بوفاة أختي الوحيدة رحمها الله ونعمها وكنت تركتها مريضة بالسل فتوفيت ليلة قدومى بعد تلك الرؤيا بليلتين وحضرت جنازتها ولم أعلم بان رؤيا مثل ذلك تدل على موت الاقارب الابعد ان حللت في الاستانة سنة ١٢٩٧ فذكر مثل في الوصول الى المقصود بالملاطفة وهو ان أحد الملوك كان رأى ان جميع اسنانه سقطت فأتى بمعبر فقال له سيموت جميع أهلك فبطش به ثم أتى بمعبر آخر فقال له ان الملك أطول عمرا من جميع عائلته فأجازه فتعجبت بتذكر تلك الرؤيا الى ان قال لي المتحدث ان أمر هذا مشهور في علم الرؤيا فقلت نعم ها أنا قد شاهدته في نفسي لكني لا اريد معرفة هذا العلم لانه يشوش الفكر ولا يكاد يتوصل اليه الا قليل لان له شروطا في الاحاطة باحوال الرائي ووقت الرؤيا والاحاطة بالمرئي الى غير ذلك وربما غفل عن شئ منها فيتغير المعنى وأما أصل العلم فلا شك في ثبوته وما أوتيتم من العلم الا قليلا ويكفي في ثبوت هذا العلم الاحاديث المروية في صحيح البخارى ومنها ان الرؤيا الصالحة جزء من ثلاثة وستين جزأ من النبوة وأما سفرتي الثانية الى فرانسا سنة ١٢٩٥ فكانت من تونس الى مرسيليا تواببور الباخرة البريدية على بلد بونة من اعمال الجزائر وكان البحر في غاية الهدو حتى رأيت على سطح الماء قطعة من نبات بحرى مثل قطع القطن المنفوش متكاثرة وهي قليلة الظهور وانما ترى عندما يكون الماء في غاية السكون كما رأيت أعمدة من البحر منبعثة بقوة مثل أعظم الفوالق فاخبرني انها من نوع سمك يفعل ذلك وان منها العظيم الذى اذا صادف عمله ذلك احدى السفن الصغيرة ربما اغرقها وهو من عجائب المرئيات وكذلك عند رجوعي من هاته السفرة كان البحر مثل ذلك الى ان وصلنا الى بلاد الجزائر وكان الوصول اليها صباحا بعيدا الشروق لكننا لم نر البر وكان السفن أخبرنا بالوصول لكنه لما لم ير البر مع تيقنه بالحساب للوصول

التزم

التزم الوقوف وذلك لكثرة الضباب المتكاثف ذلك الصباح فلما انقشع الضباب بحر الشمس الاووجدنا البركانة في مقدم الباخرة والمرسى عن يمينها فكان من لطف الله التدارك بالوقوف والتزمت الباخرة ان ترجع القهقرى الى ان تيسر لها الدوران ودخلت المرسى وسيأتي الكلام على مملكة الجزائر في باب مخصوص (وأما) السفرة الثالثة فكانت على طريق ايطاليا ومنها الى فرانسا ومنها الى انكلاتيرة وهكذا الرجوع ولم يكن البحر اذذاك الا على ما هو معتاد ومما حدث في الوطن في سفرتي الاولى وبلغني خبره وأنا في باريس ظهور دعوى وقعت لها طنطنة من الشيخ المسن التقي أحمد بن المهدي في العمل بالسنة حسب ادراك كل من فهمها وترك الاخذ باقوال الائمة المجتهدين واختلفت الروايات في الواقعة ومدارها تصميمه على رأيه وتعصب العلماء عليه الى ان حكموا بنفيه فارتحل الى مكة المكرمة ومات بها رحمه الله وتحرير الكلام على المسئلة باختصار حسبما اوعدنا به في الكلام على ائمة جزيرة العرب هو ان يقال ان الشيخ المذكور هو من تلامذة الشيخ السنوسي ذي الصيت الشهير علما وعملا غيران هذا التلميذ هو دون شيخه بمراحل في العلم فألف رسالة أراد ان يذكر فيها طريقة شيخه فلم يوف بها وتغير المعنى المقصود لشيخه اذ مدارها ته الرسالة ان لا يقلد أحد الا المعصوم ولذلك يجب على الامة ان لا يعملوا الا بالكتاب والسنة ويتركوا ما وراءهما ولا يخفى ان ظاهر ذلك يوقع في افساد الشرع حيث انه لا خلاف في ان لا اتباع الى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما في الكتاب والسنة لكن أين أهل الفهم منهما وأين ادوات ذلك التي كانت في صدر الاسلام سليقة وصارت على التدريج صناعة وعلوما تتعلم وتدلى الامر حتى لم يبق من يوفيها حقها فاذا سوغنا لكل أحد ان يعمل بما يفهم مع ما هو عليه من الجهل كان ذلك هو عين الفساد ولذلك لزم اتباع الاجماع والاجتهاد من أهله المسلم اليه وقد كانت المجتهدون كثيرين في الصدر الاول فمنهم من كثرت أتباعه وتسلسل النقل لاقواله الى الآن وهم الائمة الاربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل رضوان الله عليهم ومنهم من انقطع النقل عنه فلا يجوز الآن تقليده لعدم صحة السند في مذهبه بالنسبة لاهل العصر والافكاهم سواء بالنسبة للمقلد وكل من ليس له ملكة الاطلاع على الادلة ومناطاتها وترجيحها فهو عامي وله ان يقلد من شاء من الائمة المجتهدين لقوله تعالى فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وبذلك تحفظ الشريعة لان سند الاجماع هو نص من الشارع وسند القياس هو الاستنباط من نص الشارع أيضا فرجع الامر الى

ان لا عمل الا بالكتاب والسنة والشيخ السنوسي رحمه الله مقرر لذلك في رسالة له الفها في المعنى المتقدم واختصرها تلميذه اختصارا مخلا وذلك ان الشيخ السنوسي قرر في رسالته وجوب الاتباع للشارع والتباعد عن العمل بالرأي والبدع وحث على وجوب اخراج المكلف نفسه من حضيض التقليد الى درجة الاجتهاد والكمال حتى يقدر ان يفهم كلام الشارع ثم ذكر شروط ذلك وانه اذا ابتلى الانسان بالتقصير فحينئذ يلتجئ الى تقليد ائمة الهدى وعلى الناقل عنهم ان يتثبت في السند لكي لا ينسب لاحد ما لم يقل به كما يقع كثيرا في تفريعات بعض المتأخرين فيخطؤن في التخريج ومع ذلك ينسبون القول لاحد الائمة فيما لم يقل به بل نقل عنه انه قال على ما هو عليه من العلم واتساع الباع اني اذا استفتاني مستفت من ملتزمي مذهب مالك فاني لا أفتيه الا بما نقل عن ذلك الامام ولو كنت مرجحا لغير قوله حسبما اطلعت عليه من الادلة وذلك لان المستفتي انما سألني عن قول مالك لا على قولي والحاصل انه في نفسه يرى صحة الاجتهاد له ويرى على كل مكلف ابلاغ نفسه الى تلك الدرجة فان لم تحصل فليقلد المجتهد ورأيت في تأليف كثير من أهل العصر في الهند النحو الى هذا المنحى وان من له اطلاع على الادلة ومناطاتها يجب عليه اتباع الدليل وكان هؤلاء العلماء يبدون من هو من طبقة أهل الترجيح المنصوص عليها في كتب الفقه

الفصل الرابع

﴿في التعريف بفرانسا﴾

(اعلم) ان فرانسا من ممالك أوروبا الغربية وتبتدئ من عرض درجة ٤٢ ودقيقة ٢٠ شمالي الى درجة ٥١ ودقيقة ٥ من العرض المذكور ومن طول درجة ٦ ودقيقة ٥٠ شرقي الى درجة ٧ ودقيقة ٩ من الطول الغربي لان مبدأ الطول عند كثير من المتأخرين هو باريس التي هي قاعدة هاته المملكة ويحدها جنوبا البحر الابيض واسبانيا وشرقا ايطاليا وسفيسره والمانيا والبلجيك وشمالا بحر المنش وخليج كالي الفاصل بينها وبين انكلاتيرة وغربا البحر المحيط الغربي فلذلك كانت ذات موقع جسيم ونفوذ برا وبحرا في ثلاثة أبحر محيطة بها وبتبعها عدة جزر منها كرسيكا وجزر يارس في البحر الابيض وجزر ري واوليرون وويسان في المحيط وفيها جبال كثيرة واعظمها جهة الشرق كالجورا والآب وتتصل بسلسلة مارة جهة الشمال الى جهة الجنوب الغربي فتتصل

بجبال

بجبال بيرنى الفاصلة بين فرانسا واسبانيا وأعلى جميع جبال فرانسا هو جبل أوروفان ارتفاعه على سطح البحر قدما ٦٢٣٠ وليس بها جبال بالكلية وأما انهارها فهى كثيرة وليس بها ما يحمل السفن الكبيرة وانما البعض منها يحمل الصغيرة وأشهر انهرها نهر السين الذى يخترق باريس وطوله ميلا ٤٥٠ ويصب فى المنش ثم نهر السوار وطوله ميلا ٦٠٠ ويصب فى المحيط الغربى ونهر رون وطوله ميلا ٥٤٠ وهو عميق سريع السير ويصب فى البحر المتوسط ونهر جيرون ويصب فى البحر الغربى الى غير ذلك من الانهر وبها من الترع نحو من تسعين ترعة ولا زالوا مجتهدين فى تكثيرها ووصلة الانهر والبلدان بعضها ببعض لنقل الركاب والبضائع زيادة على سقى الاراضى ويبلغ طول هاته الترع جميعا نحو خمسة آلاف ميل وأما بحيراتها فلم اعلم فيها الا ثلاثة (أولاها) بحيرة دييورجى حذو جبل الموسنى حلوة محدق بها منظر جميل ويمر على شاطئها طريق الحديد (وثانيتها) بحيرة دنسى قرب جبل آلاب وكلاهما اجار يصب فى نهر الرون (وثالثتها) بحيرة آن قان قرب باريس وأما هواؤها فالجهة الشمالية منها باردة والجهة الجنوبية معتدلة وينزل الثلج فيها جميعا شتاء ومع ذلك فهواؤها سليم لائق بالصحة ولا يقع فيها الضباب الا بقلة وهو متعب جدا فقد صادفته فى سنة ١٢٩٣ وذلك انى ذهبت زائرا أحد معارفى قرب الغروب نحو الساعة الرابعة بعد الزوال فخرجت فى الساعة السادسة بعد مضى الغروب بنحو الساعتين فوجدت الطرقات فى غاية الظلمة ولم ادر الى أى جهة الطريق فتعجبت من ذلك وسألت صاحب الباب ما بالهم لم ينوروا الطرقات تلك الليلة فقال كلا ولكن الضباب منع نور الفوانيس من الظهور ومع ما عليه باريس من كثرة التنوير فارسلت ليؤتى لى بكروسة فلم يدر المرسل الطريق واضطررت الى تتبع الناس للحائط مع التحذر من المصادمة وكنا نعلم قرب موقف الكراريس فذهبنا الى جهتها ولم نر نور فوانيسها الا عند الوصول اليها فلما أردنا ركوب احديها امتنع صاحبها وكثر اللغط بينه وبين التابع فجاء أحد الضابطية وألزمه بان يركبنا ويوصلنا الى منزلنا فاجابه بانه غير ممتنع لكن الخيل لا تمشى لانها لا ترى فقال اركبوا الى ان نعمل وجها فلم يكن غير بعيد حتى ظهرت المشاعل على وجه الارض بيد الضابطية وغيرهم مشاعل من حبال غليظة تحرق وتدار باليد فى الهواء على وجه الارض على نحو ما تفعله البوادى فاخذ سائق الكروسة رجلا منهم ومكنه من أحد تلك المشاعل وجعل هو يسوق الخيل وراءه الى ان أوصلنا واعطينا الرجل احسانه وكنا نسمع صهيل الخيل بكثرة فى تلك الليلة مع قلة صهيلها هنالك

على كثرتها وكذلك كثر نباح الكلاب وزاد حسها وضوحا هدوخس العجلات والموصلنا الى البلغار على كثرة تنوير حوانيته وقهاويه لم يظهر منها شئ الا اذا الصق الانسان بالفانوس فانه يرى نوره مقصورا عليه وقد ذكرت تلك الليلة صحف الاخبار وشيدت بشأنها وان مثلها كثير بانكلترا ليلا ونهارا أما البرد فهم مستعدون له لباسا ومسكنا ولهم عملة لازالة الثلج من الطرقات وشدة ذلك البرد مع طول مدته أهون من شدة الحر فى الصيف الذى لا تطول مدته لانه يكاد أن يكون الهواء منقطعا من شدة سكونه وحره وأما نباتات فرانسا فينبت بها جميع نباتات أراضى الاعتدال والاراضى الباردة بالنظر لجنوبها وشمالها وعلى الاجبال فالجهة الشمالية منها أجمل منظر الان فى الجنوب جبالا صخرية واحراشا غير صالحة للزراعة وأهم نباتاتها العنب سيما جهة بلد برد وشمبانيا لكن فى هاته السنين الاخيرة أصيب بمرض أوجب خسائر بليغة وفيها من الكمثرى أنواع فاخرة لذيذة سيما فى الشتاء والبطيخ والخوخ هما حسن لكنهم لا يأكلون البطيخ الاخضر المعروف بالدلاع أو الحب وعندهم أكله معرة وبقية فواكهها وأشجارها حسنة وفيها آجام وغابات لاخشاب السفن وغيرها كثيرة جدا وأما حيواناتها ففيها جميع الحيوانات الانسية والنعم وخيلها على ثلاثة أنواع (فاولها) العراب العتيقة وهى مخصوصة للركوب (وثانيها) البراذين وهى لجر الاثقال والحوافل الكبيرة للركاب (وثالثها) المختلط من نسل المذكورات ويستعمل لكلا القسمين لكن أكثره لجر الكراريس ومنه الجيل للغاية القصوى والبغال بالنسبة الى الخيل قليلة الاستعمال وأقل منها الحمير ورأيت فى باريس ان الحمير الاناث الوالدات يطاف بها بكرى الصباح على الازقة لحلب من يشترى لبنها وهى نظيفة حسنة والبقر ضخم جدا يعتنى بتسمينه للاكل ولهم على من يفوز با كثرية التسمين جوائز حتى بلغ مرة وزن ثور منها نيفا وأربعين قنطارا وتستعمل للحرث أيضا ولجر الاثقال بقلة والغنم من النوع الذى له ذيل وذوات الالية قليلة وأما أنواع الحيوانات المسبعة فالظن انه لا يوجد منها الا الدب والذئب والثعلب والخنزير وأما غيرها فقد انقطع من هنالك للاعتناء بقطعه مع كثرة العمران نعم يوجد منها مربى فى الامصار كالاسود والنمر ويتوالد الاسد ويرضع بنيه كلاب كبار لتقابل جرأته ولعدم ضعف والدته وأما الثعابين والحيات فهى قليلة ولا يزالون مجتهدين فى قطعها فان غابات فنتينبلو مع مولى لكل من أتى بحية منها مقدار من المال أما فى باريس فلم أسمع بوجود عقرب ولا غيرها من الحشرات ولا خنفسة وكان ذلك لشدة الاعتناء بنظافة الديار والطرقات حتى لا تكاد تجد فى حائط ما

مغرز

مغرزة معسكر وكلها متقنة الطلى ظاهرا وباطنا بالجص أو الرمل والجير سواء الظاهر والباطن
مع عدم وجود الخراب فى أى جهة نعم فى الجنوب من المملكة يوجد البق والذباب وغيرهما
من الحشرات وهى أيضا قليلة فى المدن بالنسبة لما نعرفه فى البلاد التى تشبه تلك البلاد فى
الحر وطيورها كثيرة رحالة ومقيمة ولا يصطادونها الا فى أوقات معلومة كما انه ليس لاحد
أن يصطاد الا برخصة من الحكومة يؤدى عليها معلوما وليس له ان يصطاد فى غير أرضه
المعدة لذلك أو اراضى العامة المعدة لذلك برخصة فيها من الحكومة أو يدخله غيره أرضه
برضاه ومن خالف ذلك عوقب وأنواع الصيد كثيرة ومنها من نوع الفيران كثير (وأما مدن
فرانسا فقاعدتها باريس وقد تقدم ذكرها وهى مائلة الى الشمال من المملكة وبقية
المملكة تنقسم الى ستة وثمانين ولاية كل ولاية لها مدينة هى مركزها ويتبعها عدة أوطان
لكل وطن مركز ويتبعه عدة أوطان صغار وهاته أيضا الى أصغر منها فمجموع النوع
الاول من الاوطان عدده ٣٧٠ والثانى عدده ٢٩٣٨ والثالث عدده ٣٧٥١٠
ولكل منها مدينة أو قرية هى مركزه فهى حينئذ كثيرة جدا ومن أشهرها ما تقدم
ذكره منا (وأما معادنها) فليست بكثيرة لكن منها الغنى للغاية فالذهب لا يكاد يستخرج
من محله وان وجد لانه لا يوفى بمصاريفه والفضة موجودة بقلة ومثلها النحاس والفحم
الحجرى كثير غنى وكذلك قطران الارض وأنواع من الحجر والرخام الابيض ومنه الشفاف
وأنواع عديدة من الحجارة كحجر الطبع وأنواع الجص والكبريت ومقاطع الحديد
والرصاص كثيرة ومنها حجر الزجاج والمياه المعدنية نافعة شهيرة كحمام فيشى وحمام
برنى (وأما مراسيها) فكثيرة حربية وتجارية وقد تقدم ذكر بعضها ويقاس عليه ضخامة
وحصانة باقيها (وأما سكانها) فاصلهم القديم من قبائل مختلفة وردت الى هناك من المشرق
فى أوقات مختلفة وأشهر القبائل قوم من الكلتيين وقسم منهم عبر المحيط الى انكلتيرة
وانضاف معهم فى فرانسا قبائل أتت من جنوب افريقيا يسمون الباسليك ولا زال الى
الآن سكان جبال برنى يتكلمون بلغتهم ثم وفد عليهم الرومانيون ثم هجمت عليهم قبيلة
الافرنج الآتية من الشرق واستوطنت قبل ذلك فى البلجيك ثم تغلبت على قبائل
فرانسا واختلط نسل الجميع واتحد باسم الافرنج ثم حول الى الفرانسيس وصاروا الآن
جنسا واحدا وهو الفرانساوى الا أهل نيس وساقويا وقرسكا فهم طليانيون وعدد
الجميع ستة وثلاثون مليونا ونصف عدا ما فى مستعمراتها والديانة الغالبة هى النصرانية
على المذهب الكاتوليكى وقد كان هو مذهب الدولة الرسمى لكن الآن لم يبق من الدولة

اعتبار الديانة أو مذهب خاص حتى انها أزالت سنة ١٨٨٠ علامات التمذهب الملية عن الاماكن الرسمية والمكاتب كما وجد فيهم المذهب البرتستانتي وديانة اليهود وتوجد الدهرية بكثرة وقليل موحدون بالعقل أو باتباع لعيسى عليه السلام ويتبع فرانسا مستعمرات ففي افريقية قهرت الجزائر وادعت بالحماية على تونس واستولت على سانيغال وجزائر غوري وسانت ماري وبوربون وعدد سكان هاته المستعمرات نحو الخمسة ملايين منهم مسلمون نحو اربعة ملايين والباقي على مذاهب وديانات شتى ويتبعها في قسم آسيا أرض بوندشيري وكاريكال وماهي وينساون وشاندرنغور كلها في شطوط الهند كما لها سايغون في كوشين الصين وعدد سكان الجميع نحو الثلاثمائة ألف ولها في أمريكا جزائر صان بيير وميكلون ومارتينيك وغوادلوب والغيان الفرانساوية وسكان جميعها نحو الثلاثمائة ألف أيضا ولها في الاقيانوس جزر مركيز وتاييتي وسكانها نحو المائة والخمسة وسبعين ألفا فجميع السكان والملحقات نحو اثنين وأربعين مليونا

الفصل الخامس

﴿في اجمال تاريخ فرانسا﴾

مطلب

في تاريخها القديم

كانت هاته المملكة تسمى قديما غاليا أو غالة ويجهل الحال في تاريخها القديم أعني ما قبل تاريخ الميلاد بألف وستمائة سنة ومن هذا الوقت عرفت أحوالها فكان أهلها شجعانا حاربوا من جاورهم ولم يخضعوا لدولة الرومان الا بعد مشاق ثم استقلت فرانسا عنهم باستيلاء أمة الافرنك في القرن الخامس وذلك انها خضعت لعدة رؤساء متحدين ثم خضع الجميع للملك سنة ٤٢٠ مسيحية وأول عائلة معروفة من ملوكها تسمى الميروفنجيين وفي مبادي القرن السادس تغلب اسم قبيلة الافرنك على جميع الاهالي لانتصارها على جميعهم ثم قلبت الكاف سينا وصارت فرانسا وذلك لقب أطلق عليهم مأخوذ من فرانكس أي شجعان ثم انقسمت الى عدة ممالك واتحدت عدة مرار وكانت شوكة الملوك ضعيفة فيهم والنفوذ الى جمعيات الاعيان التي تجتمع كل سنة وتختار الملك وتعين

السيرة

السيرة في الادارة حتى كان للاهالي حرية تامة بل قد تخرج عن الاعتدال الى التهور فقد ذكروا انهم كانوا يقتسمون الغنائم ثم يعطون الملك حصة كآحاد الجيش فلما انتصروا في احدى الوقائع وقد انتهبوا فيها كنيسة كان من جملة ما فيها اناء من ذهب طلبه الملك من الجيش برضاهم فبينما هم بصدد اجابته واذا باحدهم تقدم وضرب الاناء بيلطته وقال له باعلى صوته ليس لك ادنى شيء سوى ما يخصك بالقرعة ولا نقر لك بامتياز واول تدين ملوكهم بالديانة النصرانية كان في اواخر المائة الخامسة مسيحية وفي اواخر هاته الدولة اعني سنة ٧٣٢ وقعت الحرب مع العرب الاندلسيين الذين تغلبوا على قسم كبير من جنوب فرانسا حتى وصلوا الى اليون وخرجت تلك المستملكات واتحدت مع فرانسا وبقيت فرانسا على نحو ما ذكر الى ان استولى عليها كارلوس الكبير ويعرف ايضا بشارلمان المعاصر للرشيد العباسي وقد ضم الى فرانسا عدة ممالك من اروباحتى تسمى بامبراطور المغرب وانتقل تاجه الى فروع من العائلة الى ان بقي الآن في المانيا التي كانت احدى ممالكه واستقل بها احد احفاده عندما قسم ابنه ممالكه على اولاده فملك بكره على جرمانيا والثاني على فرانسا والثالث على ايطاليا وضعف ملوكهم باسنادهم الامور الى غير اهلها فكانوا يقدمون خدمتهم الى اعلى المناصب والالقاب بدون جدارة فاستقلوا على ساداتهم وملكوا الامم وتناصروا الى ان خربت العائلة واستولت على فرانسا العائلة الكابيتيانية ومن مشاهير ملوكها فليب الثاني الملقب اوغسطوس الذي اتحد مع ملك الانكليز الملقب بقلب الاسد على حرب المسلمين المعروفة بحرب الصليب الثالثة لكنهما لما وصلا الى صقلية تنافرا وافترقا ثم بعد رجوعه من الشام بوقائع صلاح الدين اثار الحرب على الانكليز واستخلص منهم بعض ما كانوا ملكوه من فرانسا ومن هاته العائلة صان لويز الذي اسر بمصر ومات بتونس وله تذكار معروف قرب قرطاجنة وذلك في حدود سنة ١٢٧٠ ومنهم فليب الثالث الذي حدد للاعيان سلطتهم على العامة بمجلس الشورى لكن اضمحل ذلك بعد فليب الخامس الى الاعيان واشرفت فرانسا على السقوط وتداخلت فيها الدول المجاورة ونشأت مع الانكليز الحرب المعروفة بحرب المائة سنة وكان مبدؤها سنة ١٣٣٧ وانتصر الانكليز في كثير من الوقائع وتملكوا كثيرا من الجهات حتى ذات باريس مع التناصر الداخلي في فرانسا ثم ظهرت بنت لاحد الفلاحين تسمى جان دارك فادعت علم الغيب والتأييد الالهي لانقاذ فرانسا وساعدها الملك بتأميرها على الجيش واظهرت شجاعة غريبة

وافتكت من الانكليز عدة جهات وفي حصارها المدينة كميان أخذت أسيرة وحكم عليها بالحرق لانها ساحرة ثم عقد الصلح مع الانكليز سنة ١٤٤٤ ولم يبق بأيديهم الا الجهات البحرية ثم أعيدت الحرب ولم تخلص فرانسا الا سنة ١٤٥٣ فرتب الملك اذ ذاك كارلوس السابع الجيش المستمر تحت السلاح وقد كانت العادة من قبل ان الاعيان المالكين للمملكة بأهاليهم الذين يقدمون العساكر للملك فكسر كارلوس شوكتهم واعتنى بترقية المملكة في المعارف حيث كان مطلعا عليها وقد نقلت صناعة الطبع الى باريس في أيامه وأنشأ مدرسة خاصة للطب وباستقامة سيرته نال من الفتوحات والترقي ما لم ينله غيره من ملوكهم بالحروب ثم في أيام هنري الثاني سنة ١٥١٠ تعصب به الكاثوليك وأغروا أمه به وقتلوا كل من ظفروا به في فرانسا من أهل مذهب البرتستنت في يوم واحد ويقال ان عددهم اذ ذاك نحو سبعين ألفا وقتل الملك بيده عددا كثيرا وهو واقف متملا في أحد رواشين قصر اللوفر ثم تعاقب على فرانسا الصعود والهبوط على حسب سطوة الملك واقتداره الى ان عظمت جدا في أيام لويس الرابع عشر الملقب بالكبير المتولى سنة ١٦٤٣ وفي أيامه وأيام والده حدثت الحروب المعروفة بحروب الثلاثين سنة وانتقل لفرانسا النفوذ الذي كان للنمسا في أوروبا وظهر فيها عدة مشاهير بالمعارف وهو الذي أنشأ قصر فرساي وبساتينه وقصر ليزان فاليد لكنه في آخر أمره فقدت فرانسا مانالته في الداخل والخارج بأسباب التعدي على الرعايا وضعفهم وبعده فقدت فرانسا المستعمرات الهندية وغيرها وان حازت كرسكا واللورين وكان ذلك باتباع لويس الخامس عشر اشهواته وتحكم النساء فيه والغائه لاشورى مع مجلس نواب الامة وآخر الملوك من تلك العائلة هو لويس السادس عشر الذي انتقم من انكلاتيره باعانة أمريكا على استقلالها وحدثت في أيامه الثورة العامة التي قلبت حال التاريخ حيث كان يرجى منه اصلاح ما أفسده أبوه وجده لكنه كان ضعيفا عن الوفاء بذلك فهو خاتمة التاريخ القديم

مطلب

﴿في تاريخ فرانسا الجديد﴾

اعلم ان الفرنسا وبينما انتشرت فيهم المعارف وعلوا ما لهم وما عليهم ونالوا من بعض ملوكهم أحيانا انصافهم واشتهرت بينهم الصحف الخبرية المعلنة بالمحامد والمذام وحدث

فيهم

فيهم أخيرا ما أشير اليه من الظلم انعقدت فيهم جمعيات سرية للتدبير والعمل فيما يمكن لهم به حفظ حقوقهم ومملكتهم وتفطن لذلك لويس السادس عشر فكان مرة يميل الى معاضدة الامة فيما تريده ومرة يجنح الى عادات الاعيان والسيرة القديمة حتى خشى على نفسه وفر مع عائلته لكن الاهالى أرجعوه غصبا وخضدت شوكته فخاف بعض ملوك أوروبا من أن يلحقهم ما لحقه بسبب فتح أبصار رعاياهم وقد كانوا اذ ذاك مستبدين فتعاضدوا على ارتباك الفرنساويين لاسيما امبراطور النمسا صهر لويس المذكور فانه تولى كبر تلك الحرب غير ان الفرنساويين دافعوا عن حقوقهم بجد وانظم اليهم ملكهم المذكور وأجرى الجمعية الاهلية المسماة بالجمعية الوطنية وذلك سنة ١٢٠٧ ﻫ ١٧٩٢ م ثم بدا لهم منه الخيانة فقتلوه مع زوجته وطردوا ابنه الى جده امبراطور النمسا وذلك بحكم الحكومة الاجرائية التى حكمت بالغاء الملكية واثبات الجمهورية وأعانت لسائر الامم انها تساعدهم على نحو عملها وتسمت الحكومة جمعية اتفاق الامة وكان من أكبر زعمائها بولتير الذى لادين له وهو احد الذين ثاروا غيظ الامة بما ينشره من الاقاويل والكتابات ولما استتب أمر الجمعية تجاوزت حدود الاعتدال بمضادة الاديان وقتل رؤساء الكنائس وابدال أغلب العادات حتى الايام والشهور فجعلوا الاسبوع عشرة أيام ومبدأ التاريخ هو عام انتصاب الجمهورية وكذلك أشهروا الحرب على جميع الدول وانتصر الفرانساويون سيما تحت راية نابليون الاول بونابارتى الذى كان أحد أبناء العامة فتعلم الفنون العسكرية وساعده القدر بالانتصار الذى نال به أعظم الشهرة فكان من أعظم رؤساء العساكر ثم عوضوا تلك الحكومة بحكومة الدركتوار أى الحكومات المديرية مؤلفة من خمسة أشخاص وحدثت فى أيامها الحروب العظيمة مع سائر الدول ووافق نابليون البخت فانتصر على الجميع وملك ايطاليا ورتب فيها حكومات عديدة جمهورية ثم استولى على مصر وأراد الشام بقصد التوصل الى الاستيلاء على الهند انتقاما من الانكليز ثم عاضدت انكلاتيره الدولة العثمانية واسترجعوا مصر وما أخذ من الشام وهيجت انكلاتيره دول أوروبا على الاتحاد على فرانسا فاستعدوا لحربها وحاربوها وكانت الحرب سجالا لكن نابليون الاول لما وصل الى باريس بعد أن كاد أن يكون أسيرا فى رجوعه من مصر وجد حكومة الدركتوار على شفا وأوروبا منتصرة فى أغلب الجهات فاستعان بحزبه ورتب حكومة جديدة تسمى بحكومة القنسلات مؤلفة من ثلاثة أشخاص يسمون قناسل وتبوأ هو رياستها وذلك سنة ١٢١٤ ﻫ ١٧٩٩ م

ثم تسمى قنسلا لمدة حياته وتسلم رياسة الجيش ورجع الانتصار المفقود والتفت عند ذلك الى لم شعث الداخلية واصلاح الامور فسماه مجلس الاعيان امبراطور سنة ١٢١٩ هـ ١٨٠٤ م ونال صيتا عظيما في الدنيا بانتصاراته على أغلب أوروبا فدخل فيينا وبرلين وعقدا الصلح مع دولتيهما كيف شاء وأمست ايطاليا وكثير من جرمانيا تابعة لفرانسا وانتصر على الروسيا أيضا وعقد معها صلحا ومعاهدة سرية من شروطها اقتسام جميع أوروبا بين فرانسا والروسيا عدا الممالك العثمانية وان بلغهما انهما أيضا في القسمة حتى اغتاظ السلطان لذلك كما سيأتي في محله ومن المستثنى من القسمة أيضا الممالك الانكليزية وكان ذلك سنة ١٢٢١ هـ ١٨٠٦ م وأتم تأليف قانون الاحكام الشهير المعروف بكود نابليون سنة ١٢٢٣ هـ ١٨٠٨ م وهو عمدة أحكامهم ونسجت أوروبا فيما بعد على منواله وهو كتاب مقسم على أبواب المعاملات والجنايات وكل مسئلة من الباب بعقد لها فصل يبين حكمها بعبارات بينة من غير بيان لدليل الحكم ولا لمحل استخراجه لسهولة التناول وكان عين لتأليفه جمعية علمية عولت في تنظيمه على ما يليق بالعادات من أحكام الشرع الاسلامي وأحكام الرومان وسنة ١٢٢٨ هـ ١٨١٢ م عاد لحرب الروسيا لنكثها شروط الصلح المار ذكرها وانتصر عليها الى أن وصل قاعدتها مدينة موسكو وقد أعدوا له كيدا باحراق المدينة فلما وصلها وجدها قاعا صفصفا وكان الوقت شديد البرد فهلك عسكره بردا وجوعا وعاد هو متنكرا الى فرانسا وجهز نفسه لحرب الروسيا والمانيا وبروسيا والنمسا الذين اتحدوا عليه بسبب انكساره فغلب أخيرا ودخلت العساكر المتحدة الى باريس وملكوا على فرانسا لويس الثامن عشر وأسكنوا نابليون جزيرة الاب على انه ملك عليها وذلك سنة ١٢٣٠ هـ ١٨١٤ م وبعد عشرة أشهر عاد الى فرانسا وتلقته الاهالي بالرحب لما نالوه من العظمة في أيامه فهرب لويس الثامن عشر الى مقره أولا بانكلترة ثم اتحدت الدول ثانيا ومعهم انكلترة وقهروا نابليون فتنازل عن الملك لابنه بلقب نابليون الثاني سنة ١٢٣١ هـ ١٨١٥ م فلم تعترفه الدول وأعادت لويس الثامن عشر وأما نابليون فطلب الاقامة بانكلترة مستأمنا تحت أحكامها فقبلته وعند ارادة نزوله من السفينة الحربية الانكليزية الى البر اعلمته بانه أسير للدول فسجل على ذلك ولم ينفعه ونفي الى جزيرة هيلانة في الاقيانوس الاتلانتيكي الى أن مات ونقلت جثته فيما بعد الى ليزان فاليد بباريس وانحصرت اذ ذاك فرانسا

في حدودها القديمة ثم تبوأ ملكها كالوس العاشر اخو ملكها الذي اجلته الدول
وفي مدته استولى على الجزائر واراد ان يحجر من حرية المطابع والقوانين فثاروا
عليه وولي لويس فليب سنة ١٢٤٦ هـ ١٨٣٠ م فاطلق الحرية واحبوه لكنهم
اسقطوه اخيرا لامتناعه من اصطلاح قوانين الانتخاب وكانوا يميلون الى الجمهورية
والى عائلة بونابارتي فاعادوا الجمهورية ثانية سنة ١٢٦٥ هـ ١٨٤٨ م ورأسوا عليها
لويس نابليون ابن اخي نابليون الاول ووريث ملكه حيث مات ابنه عن غير عقب وكان ابن
اخيه مرسوما في ولاية العهد وذلك بعد ان نفي مرة الى امريكا واخرى الى انكلترة وايطاليا
وسجن مرة في حصن وفر منه بتزييه بزي احد عملة البناء بعد حلق شاربه واشهر عدة
تآليف تنوه بالحرية والفخر فسلموا له زمام الادارة وابدى من المصالح الداخلية واستمالة
رؤساء الجيش اليه ما اقتدر به على الاعلان بامبراطوريته سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م
وتلقب بنابليون الثالث وعاضد الدولة العلية وانكلترة على حرب الروسيا سنة ١٢٧١ هـ
١٨٥٤ م لتنهاونها باعترافه امبراطورا في مبدء امره ولدواعي السياسية من الخوف من
استيلاء الروسيا على الممالك العثمانية وعقد الصلح على معاهدة باريس سنة ١٢٧٣ هـ
١٨٥٦ م وانتصر الى ايطاليا على النمسا بدعوى القاعدة التي اسسها وهي اتحاد الجنسية
كما تقدم في تاريخ ايطاليا الجديد حتى اتحدت ايطاليا سنة ١٢٧٦ هـ ١٨٥٩ م وحارب
الصين مع انكلترة سنة ١٢٧٧ هـ ١٨٦٠ م وانتصرا عليه وافتتح المكسيك من امريكا
سنة ١٢٧٩ هـ ١٨٦٢ م وملك عليها مكسيميليان اخا امبراطور النمسا وكانت اذ
ذاك دول امريكا المتحدة في حرب شديدة داخلية ولما فصلت حربهم حنقوا على فرانسا
من تداخلها في قارتهم فنسال نابليون بعساكره وترك المكسيك حتى قتلوا من ملكه
عليهم وذهب سعي نابليون سدى ومن ذلك الوقت ابتدأ ميل القلوب عنه لاستبداده
باطنا وتصرفه طبق شهواته في السياسة بعد ان كان اوصل فرانسا الى ذرى المجد حتى
لحظتها سائر الدول بعين الوقار وهرعت ملوك الدنيا الى باريس في دعوته للعرض وكانوا
يفتخرون باستمالته نحوهم حتى فضله كثير من عقلائهم على عمه لكنه لما غره زيادة
البخت استبد برأيه باطنا واسرع الى التداخل في امر غيره فقلقت الاهالي من عمله ولما
احس بذلك اعلن بعمل الانتخاب العام له من سائر السكان بحيث لا يختص باصوات
الاعالي بل حتى العامة لانهم لهم الحق في ذلك من حيث ان التملك انما هو على
الفرانساويين مطلقا ولما كانت العامة محبين له لعدم اطلاعهم على خفياته او عدم

تبصرهم مع أنه محسن اليهم بحيث يؤثر نفعهم ويوجد لهم أسباب الانتفاع عند المحل ثم ان خزبه يغريهم بالمال عند الانتخاب اذ كان ينفق فى مثل ذلك من أموال الدولة مقادير ذريعة سرا ويترجم فى ميزانية الدولة باسماء أنواع من المصاريف اللازمة فبذلك الوجه حصل أغلبية عظيمة فى ارتضاء الفرانسيس به ما كما لهم وانشئ اذذاك قانون الامبراطورية المؤرخ فى سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م ونص تعريبه (الحكم الاول) لمجلس الاعيان مزية وضع الاحكام والقوانين بالاشتراك مع الامبراطور ومجلس النواب وله أيضا البداءة فى وضع المعروضات واللوائح الأ ان الامور المتعلقة بالمالية ينبغى أن تقرر أولا فى مجلس النواب (الحكم الثانى) عدد أعضاء مجلس الاعيان يمكن زيادته حتى يبلغ ثلثى عدد مجلس النواب ماعدا الذين يحضرون فيه بالاستحقاق وليس للامبراطور أن يعين فيه فى كل سنة أكثر من عشرين (الحكم الثالث) قد تعين الغاء المزية التى خص بها المجلس من جهة التشريع المذكور فى الحكم الحادى والثلاثين من القانون الذى تقرر فى ١٤ كانون الثانى أى ينار سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م (الحكم الرابع) التراتيب التى ألحقت بهذا القانون وهى المشمولة فى الاصول العمومية التى استقرت فى ١٤ وفى ٢١ من كانون الاول سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م وفى ٢١ وفى ٢٢ من الشهر المذكور فى السنة التى بعدها هى أصول المملكة وقوانينها الاساسية (الحكم الخامس) وهذه الاصول والقوانين انما يغيرها سكان المملكة بطلب الامبراطور (الحكم السادس) تعين الغاء الفقرة الثانية من حكم ٢٥ و١٧ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٣ و٣٥ و٤٠ و٥٢ و٥٧ من تلك القوانين وكذا الاحكام المخالفة لهذا القانون (الحكم السابع) يبقى ما تقرر فى قوانين ١٤ من كانون الثانى دجنبر سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م وفيما بعد ذلك معمولا به اهـ ثم ألحق بهذا القانون علاوة أخرى هذا نص تعريبها

الفصل الاول

الاول قوانين المملكة تعترف وتثبت وتتكفل بالاصول المعظمة التى شهرت فى سنة ١٢٠٤ هـ ١٧٨٩ م وهى أساس شرع الفرانسيس العمومى

الفصل الثانى

﴿فى مزايا الامبراطور وملكه الثانى﴾

المرتبة

المرتبة الامبراطورية التى خصت بلويس نابليون بونابارت وهو نابليون الثالث فوضت اليه بحسب قرار رأى جمهور المملكة وفى ٢١ تشرين الثانى (نفمبر) سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م وهى مزية متوارثة فى سلالة ذريته الذكور الاول فالاول ويلغى منها الاناث وذريتهن العادة دائما (الثالث) اذا لم يكن للامبراطور المشار اليه وارث فله أن يتخذوارثا من سلالة اخوة نابليون الاول الذكور وهذا الاتخاذ لا يباح لخلفائه ولا لورثتهم (الرابع) اذا لم يوجد له وارث حقيقى أو متخذ يخلفه فى الملك البرنس نابوليون وورثته الحقيقيون من سلالة الذكور الاول فالاول ويستثنى من ذلك الاناث وذريتهن استثناء دائما (الخامس) اذا لم يوجد وارث شرعى أو متخذ لنابوليون الثالث ولخلفائه فلسكان المملكة أن ينتخبوا امبراطورا ويعينوا من أهله الوارث من الذكور دون الاناث وفى مدة انتخاب الامبراطور تدار الامور بواسطة الوزراء القائمين بالوظائف بحسب اكثرية الآراء (السادس) افراد عائلة نابوليون الثالث الذين تثبت لهم الوراثة وكذلك سلالتهم ذكورا واناثا هم من العائلة الامبراطورية ولا يمكن لهم ان يتزوجوا الا باذنه واذا تزوجوا من دون اذنه كان ذلك سببا فى حرمانهم من حقوقهم فى الخلافة وفى حرمان ذريتهم أيضا ولكن اذا كان زواجهم عقيما فالبرنس الذى تزوج حق فى الخلافة وللامبراطور أن يعين القاب الباقى من العائلة ويعين حقوقهم وما يجب عليهم وله عليهم السلطة التامة (السابع) النيابة فى الملك مقررة فى القوانين التى نظمت فى ١٧ تموز (يوليه) من سنة ١٢٧٣ هـ ١٨٥٦ م وفى الاحوال المشروحة فى الفقرة الثالثة من الحكم الخامس ينعقد كل من مجلس الاعيان ومجلس النواب ويقرر رأيهم على اقامة من ينوب فى الملك (الثامن) كل من افراد العائلة الامبراطورية الذين تحق لهم الخلافة يسمى برنسا وأكبر أبناء الامبراطور يقال له برنس امبريال (التاسع) كل من يطلق عليه برنس يؤهل لان يكون من أعضاء مجلس الاعيان ومجلس الدولة بحيث يبلغ ثمانى عشرة سنة تامة ولكن جلوسه فى المجلسين متوقف على رضى الامبراطور

الفصل الثالث

﴿فى نوع حكومة الامبراطور﴾

(العاشر) الحكومة للامبراطور بمساعدة الوزراء ومجلس الاعيان ومجلس النواب ومجلس شورى الدولة (الحادى عشر) وضع الاحكام والقوانين يجرى بالاتفاق مع

الامبراطور ومجلس الاعيان ومجلس النواب (الثانى عشر) البداءة فى القوانين منسوبة للامبراطور وللمجلسين المذكورين ولكن كل تقرير يرسم فيه بوضع الضرائب ينبغى الاقتراع عليه فى مجلس النواب

الفصل الرابع

﴿فى أحوال الامبراطور﴾

(الثالث عشر) الامبراطور مسؤل لامة الفرانسيس وله الحق فى كل وقت لان يبلغها استدعاءه (الرابع عشر) الامبراطور هو رئيس الدولة وهو يحكم على العساكر البرية والبحرية وله أن يأذن بالحرب و يجرى معاهدات السلم والتجارة والاتفاق والمحالفة و يعين جميع الوظائف ويثبت التراتيب والاحكام اللازمة لتنفيذ الشرع (الخامس عشر) اجراء الاحكام القضائية يكون باسمه (السادس عشر) له الحق فى منح العفو والاعفاء (السابع عشر) وفى ان يقر الاحكام ويشهرها (الثامن عشر) مايراد بعد الآن من تعديل الاحكام وتعريفات الكمرك و جعل البوسطة على حسب الموافقة مع أمم أخرى لا يكون العمل به واجبا الا بعد أن يقرر رأى المجالس عليه (التاسع عشر) الوزراء مرتبطون بالامبراطور وحده وهم يتذاكرون فى مجلس يكون الامبراطور رئيسه وهم مسؤلون (العشرون) يصح للوزراء ان يكونوا من اعضاء مجلس الاعيان أو مجلس النواب وان يحضروا فى أحدهما ان شاؤا وان ينصت اليهم حين يتكلمون (الحادى والعشرون) يجب على الوزراء وأهل مجلس الاعيان ومجلس النواب وضباط العساكر البرية والبحرية والقضاة وذى المراتب ان يحلفوا هذه اليمين وهى انى أحلف بان أكون خاضعا للقوانين المملكة وامينا للامبراطور (الثانى والعشرون) الحكم الذى صدر فى ١٢ كانون الاول (دجنبر) سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م وفى ٢٣ من نيسان (ابريل) سنة ١٢٧٣ هـ ١٨٥٦ م مما يتعلق بالمرتب لمصروف الامبراطور يبقى معمولا به أما فى المستقبل فيكون مرتب صاحب التاج مدة ملكه مقررا برسم من لهم مزية وضع الاحكام عند اجتماعهم وذلك بعد نصبه

الفصل الخامس

﴿فى مجلس الاعيان﴾

(الثالث

(الثالث والعشرون) مجلس الاعيان يؤلف ممن هم فى مرتبة الكردينال والمارشال والاميرال ومن الاهلين الذين يرقيهم الامبراطور الى رتبة سيناتور (الرابع والعشرون) لا يتغيرون ووظيفتهم باقية ماداموا احياء (الخامس والعشرون) يصح ان يبلغ عددهم مقدار ثلثى أهل مجلس النواب ولا يصح للامبراطور ان يعين فيه أكثر من عشرين فى العام (السادس والعشرون) رئيسه ونائب رئيسه يكون تعيينهما من قبل الامبراطور وهو الذى يعقد المجلس ويطيل مدة انعقاده ويكون الجلوس فيه علانية ولكن عند طلب خمسة اعضاء منه يصح ان تجعل الجلسة خفية (السابع والعشرون) مجلس الاعيان يحافظ على الشرط الاصلى الجوهرى وعلى حرية العامة وله ان يتذاكر على التقارير المعروضة ويقترع على الضرائب

الفصل السادس

﴿فى مجلس النواب﴾

(الثامن والعشرون) اساس الانتخاب سكان المملكة (التاسع والعشرون) اعضاء المجلس يكون انتخابهم عاما (الثلاثون) مدة انتخابهم لا تنقص على ثلاث سنين (الحادى والثلاثون) ولهم ان يتذاكروا على القوانين ويقترعوا على الضرائب (الثانى والثلاثون) وان ينتخبوا رئيسهم ونواب رئيسهم وكتاب اسرارهم (الثالث والثلاثون) للامبراطور ان يعقد المجلس ويؤخره أو يطيل مدة انعقاده وان يحله لكنه عند حله يتعين عليه ان يعقد آخر فى مدة ستة أشهر (الرابع والثلاثون) الاجتماع يكون ظاهرا ولكن عند طلب خمسة أعضاء يصح ان يكون خفيا

الفصل السابع

﴿فى مجلس الدولة﴾

(الخامس والثلاثون) مجلس الدولة مكلف على حسب ارشاد الامبراطور بان يرسم التقارير واللوائح والتنظيمات المتعلقة بالادارة الدولية وبان يحل المشاكل الناشئة من معاطاة الامور (السادس والثلاثون) وان يرسم باسم الدولة المذاكرة فى المعروضات واللوائح فى كلا المجلسين (السابع والثلاثون) للوزراء حق فى حضور المجلس والاقتراع فيه اذا كان الامبراطور يرى ان هاته القوانين ترضى منه جميع الاهالى سيما بعد

❁ رجحان انتخابه من الجمهور وقد كانت اذذاك المشاحنة بين فرانسا و بروسية فى ازدياد كما تقدمت الاشارة اليه فى اخبار ايطاليا غيرة من فرانسا على ما نالته بروسية من الشهرة والانتصار على النمسا مع وعد بروسيا مسيو الفرانسا بانها اذا تم قصدها فانها تساعدها على تعديل حدودها جهة نهر الرين وتعدو عن حقوقها من وضع العسكر فى لكزنبورغ وادخالها عضوا فى العصبة الجرمانية مع انها تحت تملك ملك هلاندة ولما حصلت بروسية قصدها ماطلت تلك الوعود السرية التى لو بحثية فهاجت لذلك فرانسا وكان من تخمينها انها اذا شهرت الحرب على بروسية تعاضدها النمسا عليها انتقاما مما حصل لها فى سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٦٩ م وبينما الامر على ذلك واذا باهالى اسبانيا خلعوا ملكتهم وطلبوا ان يولى عليهم الامير دوهوهنزولرن أحد قرابة ملك بروسيا فارعدت فرانسا لذلك وأبرقت وتداخلت انكلاتيرة فى طلب ابقاء السلم لكن الامبراطور نابليون أبى الا الحرب والا فان الامير المطلوب الى الولاية على اسبانيا رفض طلبهم ولم يقتنع بذلك الامبراطور بل ذهب سفيره فى برلين الى ملك بروسيا فى غير وقت وغير محل معتاد واغلظ عليه الكلام بان يتعهد هو بان لا يقبل الامير المذكور فى المستقبل الولاية فألان له الملك الكلام لكنه امتنع من ذلك التعهد وهاجت المانيا جميعا على ما لحق الملك من الاهانة كما ان فرانسا غلت بطلب اعلان الحرب ولم يخالف الا قليل من عقلائهم مثل تيرس فانتهزها نابليون فرصة لاشتغل فرانسا بالحرب عن الهيجان عليه اذ انه وان حصل على أكثرية الانتخاب لكنه كان على يقين من ان حزب النفوذ كاره له ومنتقد عليه وكان وزير الحرب بفرانسا اعلن للمجلس بان العساكر مستعدة كلها وانها تجاوز الميون وان الحرب ولو دامت سنين فلا يحتاجون الى زرة لباس وابتدأت فرانسا باعلان الحرب وتقلد نابليون رياسة العسكر بنفسه واناب زوجه فى الملك فاتحدت المانيا على الدفاع و بقيت الروسيا معاضدة لالمانيا بمعنى لاتفاقهما معها سرا فكانت بالمرصاد من النمسا لكى لا تعين بروسيا مع ما فى نفسها أى النمسا على فرانسا من اعانتها الايطاليا ومساعدتها من قبل لجرمانيا فلم تتداخل بشئ وما مضت تسعة عشر يوما من ساعة الاعلان بالحرب حتى وقع نابليون اسيرا بيد عدوه اذ فى نفس الامر لم تكن فرانسا مستعدة وكانت الاموال المعينة لمصاريف الحرب تصرف فيما يراه الامبراطور حيث كانت الوزراء مسؤلون له لا لمجلس الامة فيتصرف بهم كيفما أراد وكان يظن انه بسرعة الهجوم يحصل على بهرجة الانتصار ويعجل الى عقد الصلح لكن لالمانيا كانت لها

جواسيس

جواسيس من اعيانها فى جميع دواوين فرانسا وفى قصور رجالها على صورة خدمة وغيرهم مع كمال استعدادها وتمرن أهاليها على الحرب اذهى دولة عسكرية من قديم وأهالى فرانسا غلب عليهم الميل الى التنعم فالتقى مركز الجيشين فى سيدان من عمل فرانسا وحى الوطنيس الى ان تيقن نابليون بالغلب وقوة قرنه عددا وعدة فكتب الى ملك بروسيا ماتعريبه يا أخى حيث انى لم يتيسر لى ان أموت فى مقدمة جيشى فها أنا أضع سيفى لدى قدميك اه ورفع من هناك أسيرا وسبحان الدائم عزه وملكه وهربت زوجة نابليون واستقرت مع زوجها بلندرة الى ان مات بها وأما العساكر التى معه فطلبت الاستسلام على وجه لايحط بشرفها وحيث كانت المخاطبات الواقعة فى هذا الشأن واقعة بين الرؤساء بالسلك البرقى ولها أهمية رأينا اثباتها هنا نقلا عن كتاب ألف وطبع فى باريس وهى (من الجنرال) دو ومبين الفرانساوى الى الجنرال ملتك رئيس عساكر جرمانيا اريد ان أعرف (ماهى) شروط التسليم التى يريده ملك بروسة ان يوجهها علينا (جواب) الجنرال ملتك شروطنا سهلة فان جميع جيشكم أسرى مع كل ماعندهم من الاسلحة والذخائر ولكن نترك للضباط سيوفهم علامة على اعتبارنا لهم وعلى بسالتهم ولكن يكونون أسرى أيضا كبقية الجيش (الجنرال) دوومبين هذه الشروط شديدة ياجنرال اذ الظاهر ان بسالة عساكر فرانسا تستوجب مراعاة أكثر من هذه أليس من الممكن لجيشى ان يتحصل على شروط على هذه الصورة الآتية وهى ان أسلمكم سيدان بما فيها من المدافع (وأما) العسكر فتتركوه يخرج بما عنده من الاسلحة والاحمال والرايات بشرط ان لا يعود لمحاربة بروسية فى هذه الحرب والامبراطور يتعهد بنفسه بهذه الشروط بالمكاتبة وكذا أعيان ضباطه العسكرية ثم ينقل هذا الجيش الى احدى جهات فرانسا التى تعينها بروسية أو ان شئت ينقل الى الجزائر الى ان يبرم بيننا الصلح (جواب) الجنرال دوملتك طلبكم هذا لايقارن القبول (الجنرال) دوومبين انى وصلت الى هنا من صحراء افريقية منذ يومين فقط وكان لى الى الآن شهرة عسكرية مرضية والآن فوض الى رئاسة جيش فى ميدان القتال فاصبحت مضطرا الى ان أقيد اسمى فى الاذعان لمصيبة مثل هذه حتى اضطررت أيضا الى تحمل جميع المسؤلية بدون ان أكون قد أحدثت هذه الوقائع الحربية التى هى سبب فى هذا التسليم وحيث انك جنرال مثلى يلزمك ان تشعر بحالى المحزنة ولكن يمكنك تخفيفها باشتراطك على شروطا أهون وأيسر والا فلا يمكننى قبول شروطكم وحينئذ ادعو جيشى الى شرفهم واخترق بهم

صفوفكم والا فابقى فى ميدان متوقعا (جواب) الجنرال ماتلك اه بارى لكم عظيم وشرح حالكم فى محله ولكن أتأسف على انه لا يمكننى فعل شئ مما التمسوه واما خرق الصفوف وخروجكم من ميدان فمن المحال وكذلك تحفظكم فيها نعم ان عندكم عساكر عظيمة ولا سيما المشاة فانهم على غاية من المهارة والاقدام وكذا فرسانكم وطوبجيتكم وقد أوقعوا بنا ضررا كبيرا غير ان جل عساكركم قد فسدت اطوارهم وعندنا اليوم من اسراهم ازيد من ٣٠٠٠٠ نفر غير الجرحى فلم يبق عندكم الآن أزيد من ٨٠٠٠٠ نفر فلا يمكنكم اذا خرق صفوف جيشى فيلزم ان تعلم ان من جيشى حولكم ٢٤٠٠٠٠ نفر و ٥٠٠ مدفع منها ٣٠٠ على هيئة الاستعداد لاطلاق النار على ميدان والباقى اعنى ٢٠٠ تكون على هيئة الاستعداد فى فجر الغد فان شئت تحقيق ذلك فارسل أحدا من ضباطكم الى والأرسله الى المواقع المذكورة حتى يشاهد بنفسه ما قلته لكم اما تحفظكم داخل ميدان فمن المستحيل لان المؤنة التى عندكم لا تكفيكم الا ٤٨ ساعة ولم يبق عندكم شئ من الذخائر (جواب) الجنرال الفرانساوى الظاهر ان من مصلحتكم حتى من المصلحة السياسية أيضا ان شروط التسليم لا تكون مخلة بشرفنا الان جيشى يستوجب ذلك ومرادكم عقد الصلح وما أظن الا انكم تريدون عقده بسرعة وأمة فرانسا كريمة أكثر من غيرها ومستعدة للفداء وعلى هذا فهى تقدر مكارمكم التى تخصونها بها وتراعى الجميل فان امكنكم ان تشرطوا علينا شروطا من شأنها مداراة خاطر الجيش فان الامة تحسبه أيضا تملقا لها فيخفف عنها مرارة الانهزام و بث شروط الصلح على هذه الصورة يكون على الدوام (أما) اذا عاملتمونا بالقساوة فلا شك انكم تثيرون الكراهة لكم والبغض فى قلب كل عسكرى وعزة نفس جميع الامة تعود وقد استاءت و بذلك توقظون الاحساس الذميم الذى اماته التمدن وتخاطرون بايقاد حرب لانهاية لها بين فرانسا وبروسية فاجابه البرنس بسمارك قائلا برهانك يظهر بادى بدء انه على الجد وهو فى الحقيقة كلام ظاهر ولكن كما انه لا ينبغى ان يعتقد اعتقادا راسخا بممنونية الانفراد فكذلك لا ينبغى ان نتوقع ممنونية أمة كاملة أو نركن الى ممنونية ملك ومراعاة الجميل معه وان شئت فقل مع أهله أيضا نعم انه فى بعض الاحيان يمكن الركون الى عهد ملك ولكن اكرر لكم انه لا يمكن انتظار مراعاة الجميل من أمة ولو كانت أمة فرانسا مثل بقية الامم ولو كان عندها تنظيمات ومبادى راسخة ولو كانت مثل أمتى تحترم احكامها وتنظيماتها ولو كان عندها ملك جالس على سرير الملك على أصول راسخة

ثابتة

ثابتة لكنا نعتقد بميمونية الامبراطور وابنه أما فرانسا فقد مضى ثمانون سنة وحكومتها
قد تغيرت نوعا وجنسا بصورة غير ثابتة فصار من الممكن ان يعتمد عليها فبناء آمالنا على
مودة ملك فرانساوى يكون من قبيل بناء فى الهواء فاذا صدقنا ان فرانسا تسامحنا عن
ظفرنا بها مع كونكم امة سريعة الهياج ومجبولة على الحسد والكبر الى النهاية فذلك
جنون فانها ما اعلنت بحرب بروسية منذ مائتى سنة ثلاثين مرة وهذه المرة اعلنتم الحرب معنا
حسدا كعادتكم اذ لم يمكنكم ان تسامحونا عن ظفرنا فى واقعة سدوه فهل يمكنكم ان
تسامحونا اليوم فى ظفرنا فى سيدان كلا ثم كلا فان عقدنا معكم الصلح الآن فبعد بضع سنين
تعودون الى حربنا حين يتيسر لكم ذلك وهى المكافات على الجميل التى ترقبناها (أما)
نحن فاخلاقنا مخالفة لاخلاقكم فانا أمة صادقة ساكنة لا تحرص على الفتوحات وانما
نحرص على ان نعيش بالسلم وقد كفى اليوم فيلزم ان تتأدب فرانسا على تجبرها ويلزمنا
ان نطمئن على سلامة اولادنا ولذا يلزم ان يكون بيننا وبين فرانسا حدود منيعة فلابد
لنا من ارض وحصون وحدود لنكون دائما آمنين من هجومها (جواب) الجنرال
الفرنساوى قد غلطت يا أيها الذات الموقر فى حكمك على أمة فرانسا فانك انما تتصور
فرانسا فى سنة ١٨١٠ وتتصور حالها من ابيات بعض الشعراء ومن كلام بعض
الجرنالات وهى اليوم على غير حال فان بهمة الامبراطور صارت افكار اهلها مشغولة
بالتجارة والصنائع والعلوم وكل واحد منهم يسعى فى تكثير مكاسبه وينظر الى منافعه
وكلهم يحبون الاخاء انظر الى انكلترة مثلا فاين اليوم تلك الكراهة التى طالما أبعدتنا
عنها أليس ان الانكليز اليوم اعز أحبابنا وكذلك يكون أهل المانيا اذا أظهرتم
المكارم معنا (البرنس) بسمارك قف هنا يا جنرال ان فرانسا لم تتغير فانها هى التى
اكرهتنا على الحرب ولاجل خداع الامة حرصا على نفع آل الامبراطور نابليون
الثالث أعلن بحربنا نعم انا ندرى ان كثيرا من أهل فرانسا وهم العقلاء لم
يريدوا الحرب ولكن تلقوا فكر الامبراطور بالقبول والباقى هم الذين تحمسوا للحرب
حتى أصحاب الجرنالات أيضا فهؤلاء القوم يلزم تأديبهم ولذلك يلزمنا ان نسير الى
باريس ومن ذا الذى يدرى ماذا يقع بعده اذ من المحتمل انه ينشأ عندكم دولة من الذين
لا يعفون عن شئ بل يحدثون أحكاما على حسب هواهم ولا يعترفون شروط تسليم
جيشكم فربما الزموا الضباط نقض عهودهم نعم انا نروم الصلح ولكن الصلح الذى
يكون على أساس الثبات والدوام وشروطه صارت معلومة لكم فيلزمنا ان نجعل فرانسا

بصورة بحيث لا يعود ممكنا لها ان تقاوم فيما بعد وقد قدر الله ان تكون زهرة عساكركم أسرى عندنا فن الهوس ان نعيدهم اليكم ليعودوا الى محاربتنا وشأن ذلك دوام القتال ومصلحة بلادى تأباه أيها الجنرال مهما يكن من المصالح المختصة بذاتك ومهما يكن من أفكارك عن جيشكم فلا يمكننى الاجابة الى مطلوبك أو تغيير شئ من الشروط التى أبلغتك اياها (الجنرال) الفرانساوى فلا يمكننى اذا ان أوقع شروط التسليم على هذا المنوال بل يلزمنا ادامة القتال (جواب) الجنرال كستلان من أعيان الامراء الفرانساوية الى البرنس المشار اليه عندى ان الوقت قد حان لابلاغ ماذكرتم الى الامبراطور (جواب) البرنس بسمارك انا سامعون لكم (الجنرال) كستلان قد كلفنى جناب الامبراطور ان أبلغ مسامع جناب ملك بروسية انه كان بعث اليه بسيفه بدون شرط وسلم نفسه له بلا شرط وانما فعل هكذا أملا فى ان الملك يشعر بما يوجبه هذا التسليم فيقع لديه موقع الاعتبار فيتساهل مع جيش فرانسا بتسليم أشرف لهم كما تستحقه بسالتهم (البرنس) بسمارك أهذا كلامكم كله (الجنرال) كستلان نعم (البرنس) بسمارك ماهو السيف الذى سلمه الامبراطور هل هو سيف فرانسا أو سيفه الخاص به فاذا كان سيف فرانسا أمكن تعديل الشروط ولكن يكون جوابكم الاخير ذا بال (الجنرال) كستلان السيف الذى سلمه لكم الامبراطور هو سيفه فقط (الجنرال) مالتك فعلى هذا لا يمكن تبديل شئ من الشروط وانما يكون للامبراطور ما يختص به (الجنرال) دوومبين اذا نستأنف الحرب (الجنرال) مالتك المهلة تنقضى فى فجر الغد وفى الساعة الرابعة أشرع فى اطلاق النار اليكم (البرنس) بسمارك نعم أيها الجنرال ان عندكم عساكر شجعانا فلا أشك انهم يظهرون غدا بسالة غريبة ويرزؤن منا ويوقعون بنا الضرر ولكن ما الفائدة من ذلك لانك فى مساء الغد لا تجد نفسك متقدما أكثر مما تقدمت اليوم ويبقى فى أعناقكم دم عساكركم بل عساكرنا أيضا الذين يسفكون دماءهم لغير فائدة فقد أخبركم الجنرال مالتك ان مقاومتكم لنا هوس (الجنرال) مالتك انى أؤكد لك مرة أخرى ان خرق صفوف عساكرنا لا يمكن ولو كان عسكركم على أحسن أهبة لانه فضلا عن كون عسكرنا أكثر عددا من عسكركم فانى مستولى على مواقع تمكننى من احراق سيدان فى بعض ساعات وهذه المواقع متسلطة على جميع الجهات التى يمكنكم المرور منها وهى منيعة فلا يمكنكم حوزها (الجنرال) الفرانساوى ليست مواقعكم قوية كما تذكرون (الجنرال) مالتك أنت لا تدرى المواقع حول سيدان وانى أفيدك فائدة تبلغ من أمتكم المتكبرة وهى انكم عند

افتتاح

افتتاح الحرب بيننا وزعمتم على ضباطكم خرائط كان رسمها وطبعها في المانيا فلم يمكن لكم حينئذ ان تطلعوا على مواقع بلادكم اذ لم يكن عندكم خرائط لها فاقول لكم الآن ان هذه المواقع فضلا عن كونها منيعة فالاستيلاء عليها ضرب من المحال (الجنرال) الفرانساوي اني اغتنم الفرصة لارسال احد من ضباطي كما عرضتم علي في مبادي الامر حتى يرى مواقعكم المنيعة وعند رجوعه أجاوبكم (الجنرال) مالتك لا ترسل أحدا فان ذلك عبث اذ ليس لكم وقت طويل حتى تتداركوا ما يلزم فعله فالوقت الآن نصف الليل وبعد أربع ساعات تنقضي المهلة ولا يمكنني أن أمهلكم بعدها ولو دقيقة واحدة (الجنرال) الفرانساوي ولكن يلزم ان تعلموا انه لا يمكنني بت الرأي على شيء وحدي فيلزم ان أشاور سائر رفقائي الضباط ولست أدري أين أجدهم في سيدان في هذه الساعة فلا يمكنني أن أعطيكم جوابا في الساعة الرابعة فمن الضرورة والحالة هذه اطالة المهلة فعند ذلك أسر البرنس بسمارك الى الجنرال مالتك في اذنه وأشار اليه بتطويل المهلة الى الساعة التاسعة أعني قبل الظهر بثلاث ساعات فلما حانت سلم الجنرال الفرانساوي جميع عساكر فرانسا الذين في سيدان على موجب شروط الجنرال مالتك وبذلك يتبين حالة قوة فرانسا اذ ذاك واستعدادها فلذلك انقلب رأي الامة الفرانساويه وحملوا الذنب على نابليون وخلعوه وأعادوا الدولة الجمهورية ثانيا شاوعاندوا المانيا الى ان حاصرت باريس وأخذت ثمنمائة آلاف من عساكر فرانسا أسرى منهم مائة وخمسون ألفا أو يزيدون سلموا من غير دفاع في قلعة متس تحت رياسة الماريشال بازين ثم عقدوا الصلح على نحو ما طلبت المانيا بأخذها ولاية الالجاس وقسم من ولاية اللورين وغرامة خمسة آلاف مليون فرنك مقسطة على خمس سنين وتتوج ملك بروسيا امبراطورا على المانيا في قصر فرساي وحضر له ملوك المانيا ودخلت عساكرهم الى باريس على وجه الانتصار بلا حرب ومن ذلك الوقت تغيرت السياسة الاروباوية وصارت المانيا هي معدلة الميزان لكن فرانسا استولى رياسة جمهوريتها الرجل الشهير تيرس ولم ينشبها بعد حصول حرب أهلية هائلة من جمعية تعرف بالكومون أي الاشتراكيين الذين يريدون ان تكون الناس كلهم شركاء في جميع ما يمكن ان ينسب الى انسان وأضروا بباريس أكثر من اضرار المانيا بها وقد أظهرت فرانسا من الغنى ما لم يكن في الحسبان ودفعت الغرامة تماما قبل ابانها بأزيد من سنتين ولم يؤثر ذلك في ماليتها أدنى خلل فان المقدر من خسائرها وغراماتها في ذلك الحرب نحو عشرة آلاف مليون ومع ذلك فانها عند ارادتها

استقراض ثلاثة آلاف مليون لدفع بقية الغرامة هرعت لها أرباب المال من كل فج حتى من المانيا واحضروا لها ما ينيف عن الخمسين ألف مليون واقبلت على اصلاح داخليتها وعساكرها عبا أرجعها الاعتبار ها وأوحش غالبها منها خيفة وقد أحدث الفرانساويون فى حديقة الشانزى لزى محلا حيطانه مرايا مكبرة بحيث يحسبه الداخل بلا حيطان ويرى منه صورة حالة باريس من الحرق والهدم وقت الحرب تذكارا منهم لاحياء أخذ الثار وقد رأيت ذلك المكان وله منظر هائل واستقرت الحكومة الى الآن جمهورية

مطلب

﴿فى السياسة الداخلية فى فرانسا﴾

قد تقررت الحكومة الجمهورية على القانون الآتى ترجمته (البند الاول) ان مجلس الاعيان ومجلس النواب يجتمعان كل عام يوم الاربعاء (الثانى) من كانون الاول ينايرالا أن يكون جمعهما قبل لرئيس الجمهورية فالمجلسان ينبغى أن يعقد جلساتهما أقله فى مدة خمسة أشهر كل سنة وجلستا كليهما تجتمعان وتنتهيان معا وتقام الادعية الجمهورية لله سبحانه فى الكنائس والمعابد لالتماس المعونة منه تعالى فى اعمال المجالس (البند الثانى) ان رئيس الجمهورية يختتم الجلسة وله حق أن يستدعى المجالس للاجتماع فوق العادة وينبغى أن يستدعيها اذا ما صار الطلب فى اثناء الجلسة من أكثرية الاعضاء المؤلفة لكل مجلس على ان رئيس الجمهورية له أن يؤجل اجتماع المجالس انما لا يمكن أن يطول هذا التأجيل أكثر من شهر ولا يحدث أكثر من دفعتين فى جلسة واحدة بعينها (البند الثالث) وقبل ما ينتهى الاجل القانونى لسلطان رئيس الجمهورية أقله بشهر واحد يجب ان تجتمع الاعضاء فى مجلس الامة ليباشروا انتخاب الرئيس الجديد واذا لم يصر استدعاء المجالس للاجتماع فعلى المجالس ان تجتمع من تلقاء ذاتها قبل نهاية سلطة الرئيس بخمسة عشر يوما واذا ما توفى رئيس الجمهورية أو تنازل عن وظيفته يجتمع المجلسان حالا بسلطانهما الخاص واذا ما وقف مجلس النواب حين ما يفرغ مسند الرئاسة الجمهورية تبعا للبند الخامس من قانون ٢٥ شباط فبراير سنة ١٢٩٣ هـ ١٨٧٥ م تستدعى المجامع الانتخابية حالا ويجتمع مجلس الاعيان الخاص بمطلق سلطانها (البند الرابع) ان كلا من

مجلس

مجلس النواب والاعيان اذا اجتمع فى غير الوقت المعين للجلسة العمومية يكون باطلا ولغوا مطلقا ماعدا الحادث المنبه عليه فى البند السابق وماعدا ما اذا اجتمعت الاعيان للقضاء فى الدعاوى والعدلية وفى هذا الحادث لا يحق لها الا مباشرة اوظائف القضائية (البند الخامس) ان جلسات الاعيان ومجالس النواب تكون مشتهرة على ان كل مجلس له أن يقيم جمعية سرية فى طلب عدد معلوم من أعضائه معين بالقوانين ثم تقضى بموجب رأى الاكثرية المطلقة اذا ما اقتضى اعادة الجلسة جهارا على نفس المشروع (البند السادس) ان رئيس الجمهورية يخابر مع المجالس بواسطة رسائل يقرؤها أحد الوزراء ويحق للوزراء الدخول فى المجلسين والتكلم فيما اذا طلبوا الاصغاء لاقوالهم ولهم ان يستعينوا بمعتمدين معلومين للبحث فى انشاء قانون معين بحكم رئيس الجمهورية (البند السابع) ان رئيس الجمهورية يبث السنة فى الشهر الذى يلى تسليم السنة المقررة نهائيا للحكومة وعليه أن يبث فى ثلاثة أيام السنن التى حكم كلا المجلسين بوجوب السرعة فى بثها على ان رئيس الجمهورية له فى المهلة المعينة لاذاعة السنن أن يطلب بواسطة رسالية محققة ولا يرفض طلبه اعادة المخابرة فى تقرير القانون والسنة (البند الثامن) لرئيس الجمهورية أن يخابر فى المعاهدات ويقررها ويبلغها للمجالس حالما تسمح له بذلك صوالح الدولة وأمنيتها اما المعاهدات المتعلقة بالصلح والتجارة والمعاهدات المرتبطة بمالية الدولة والمنوطة بحالة الاشخاص وبحق الملكية لتبعة الدولة الفرنساوية فى الخارج فلا يجزم جزما نهائيا الا بتقرير المجلسين ولا يعطى ولا يبدل شئ من الاراضى الفرانساوية ولا يضاف اليها شئ الا بتقرير قانونى من المجالس (البند التاسع) ولا يحق لرئيس الجمهورية أن يشهر الحرب بدون رضى المجلسين (البند العاشر) ان كلا من المجلسين قاض فى انتخابية أعضائه وفى أحكام قانونية انتخابه وله وحده أن يقبل اعتفاء من يعتفى من وظيفته (البند الحادى عشر) ان رؤساء كل من المجلسين ينتخبون كل عام لمدة الجلسة بتمامها ولكل جلسة فوق العادة تصير قبل الجلسة المألوفة فى السنة التالية ومتى اجتمع كلا المجلسين بجلسة مجلس الامة تتألف رؤساؤه من الرئيس ونائب لرئيس وكتبة أسرار الاعيان (البند الثانى عشر) لا تقبل شكوى على رئيس الجمهورية الا من مجلس النواب ولا يحكم عليه الا الاعيان وتقبل الشكوى على الوزراء من مجلس النواب بجناية ارتكبوها فى مباشرة وظيفتهم فحينئذ تقام محاكمتهم فى الاعيان ولرئيس الجمهورية ان يقيم على الاعيان مجلس محاكمة بحكم يصدره فى مجلس الوزراء لمحاكمة كل من تقدم عليه شكوى بذنب

يخل بأمنية الدولة واذا ماشرع بالاستعلام في محكمة العدليه المألوفة فيمكن أن يصدر الحكم باستدعاء الاعيان للاجتماع الى حين استئناف الدعوى اليها ويقام قانونا يعين كيفية سماع الدعوى والاستنطاق والحكم (البند الثالث عشر) لاتقام دعوى على أحد الاعضاء من كلا المجلسين ولا يطالب بشكوى في شأن رأيه واقتراعه حال كونه في مباشرة وظيفته (البند الرابع عشر) ولا تقام دعوى على عضو من كلا المجلسين بمادة جنائية أو تأديبية ولا يلقى القبض عليه في مدة الجلسة الا باذن المجلس الذى هو عضو منه مالم يؤخذ في حال فعله و يتوقف ضبط أحد الاعضاء من كلا المجلسين ومحاكمته في الجلسة وفي كامل مدتها بطلب المجلس اه فهذا القانون يبين لك أصول الادارة ورئيس الجمهورية الآن قد عينت له مدة الرياسة خمس سنين وهو الآن البرت اقريفي وأما بقية تفصيل الادارة فهى على نحو ما تقدم في الكلام على سياسة ايطاليا من انفراد الادارة العامة عن الاحكام الشخصية وتصرف رئيس الدولة بواسطة الوزراء وكون الوزراء مسؤلين لمجلس النواب ومجلس الاعيان بحيث ان الحكومة شورية حقيقة لا يصدر عنها الا ما يوافق عليه غالب الامة بواسطة وكلائهم يجرى ذلك في حقير الاشياء وعظيمها والوزراء ينتخبون ممن تثق بهم اغلبية المجالس لكى يأمن المجلس بتصرفاتهم لان للمباشرة في الاجراء دخل عظيم في نجاح الافكار ولان بعض الامور تفوت بفوات وقتها فهب ان الوزير يسؤل و يجرى عليه العقاب باخلاله لكن منفعة الامة عموما تفوت بفوات الفرصة ولذلك كان انتخاب الوزراء ممن تعتمد المجالس عليهم زيادة على شروط الاهلية الذاتية وهكذا بقية الادارات على نحو ما مر في ايطاليا غيران فرانسا لما كانت لها مستعمرات كثيرة فهى تعدهم مثل ولايات فرانسا واوطانها في كيفية الادارة وكون مصدرها هم الوزراء المعهودون من غير تخصيص بوزير للمستعمرات كما تفعل الدول التى لها مثل ذلك فهى من هاته الجهة تعد مستعمراتها اجزاء منها لكنها تحرمهم مما تحوزه اهل فرانسا من الحقوق والمنح كالحرية وحق ادخال اعضاء في مجلس النواب واعضاء في مجلس الاعيان الى غير ذلك من الامتيازات المحصل عليها اهل فرانسا فلذلك كانت مستعمراتها أسوء حالا من غيرها لفقدانهم حريتهم الاصلية وعوائدهم واستقلالهم مع حرمانهم مما للمتسلطين عليهم من الخصائص (وأما) ادارة الاحكام فهى أيضا على نوع ما تقدم في ايطاليا ومن أهم ما يذكر فيها وجود حكام الجورى وهم أعداد من مطلق الناس تنتخبهم العامة لمدة من الزمان لاجل مشاركة

مجلس

مجلس الجنايات الشخصية فى النظر بمعنى أنهم يحضرون المجلس المركب من رئيس وعضوين ويعمل المجلس جميع المقدمات بحضرهم ثم يسألهم رئيس المجلس عما يرون فى النازلة هل صاحبها مجرم أم لا ومن أى نوع جريمته فيتفاوضون وما يستقر عليه رأيهم يعملون به المجلس ثم المجلس يطلق المدعى عليه حالا ان رأى الجورى براءته أو يعين العقوبة من القانون ان رأى ذنبه والسبب فى ايجاد الجورى هو زيادة الاحتراس فى الحكام عن ميلهم الى محاباة الامراء والوزراء لان وظيفة الحكام وان كانت عمرية وهم منتخبون بشروط العفة والاهلية وو راءهم احتساب مجلس الاعيان ومجلس الامة ومن ثبت ارتشاؤه يعاقب أشد العقاب ولا تهمل العقوبة بعفو أو شفاعة لكن ربما أغرتهم مع ذلك الدواعى بالترقى الى الرتب العالية التى هى بيد الامراء والوزراء ويتعذر الاحتساب بما يرتب من الحيل فدفع هذا بمشاركة الجورى الذين هم ليسوا بموظفين ولا خوف ولا طمع لهم لكن فى ذلك مفسدة أيضا اذ هؤلاء الجورى كثيرا ما يكونون غير فقهاء ولا دراية لهم بالاحكام ولا بمواقعها ولا بالتحرى فيها فيخبطون خبط عشواء ويضيع الحق بسببهم اذ لا تعقب لما يرونه وبه يعلم مدرك الشرع الاسلامى فى أناطة الحكم بالعلماء أهل العدالة وما أدراك ما العدالة ومشاورة الحكام للعلماء وكون حكمه جهريا ثم وراءه احتساب اهل الحل والعقد الداخل فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ومن المفاسد الموجودة أيضا عندهم فى انتخاب أعضاء مجلس النواب أو غيرهم ممن تنتخبه الاهالى ان افرادا ممن يعدون أنفسهم للانتخاب يعقدون مواكب ويدعون اليها الاهالى فى أماكن فسيحة ويلقون عليهم خطبا يبينون فيها أفكارهم ومقاصدهم فى سياسة المملكة وجدارتهم للقيام بالمناضلة عنها ويمنيهم السامعين لان يكونوا من حزبهم حتى يقع انتخابهم على الخطيب ومع ذلك يعطون الرشا لمن له صوت فى الانتخاب لكى يحصلوا بذلك أكثرية المنتخبين فكثيرا ما ينجح سعيهم ويحصلون على الوظيفة بذلك الطريق بعد أن تقع غوغاء وتشاتم وسباب بين أحزاب المنتخبين فيدخل بسبب ذلك فى الوظيفة من لا ترتضيه الاهالى حقيقة أو من ليس جديرا بها لكثرة أغراضه وغير ذلك وهذه المفسدة ولان كانوا جعلوا لها علاجا وهو انه بعد التئام المجلس المنتخب ينظر فى المنتخبين هل هم مستكملوا الشروط أم لا ومن كان غير مستكمل يفصل عن المجلس ويعاد انتخاب غيره لكن ذلك لا يفيد فى أغلب الاحوال لان الذى انتخب بحيلته ورشائه قد يكون مستكمل الشروط الرسمية فلا يجد المجلس

سبيلا للقدح فيه لكنه غير مستكمل الشرط الاساسي وهو ارتضاء الامة حقيقة بسلكه السياسي فلذلك كان ينبغي أن يعتبر ان طالب الولاية والامانة يحرم منها فشرعنا الشريف ولله الحمد مزيح عنا مثل تلك المفسدة وطالب الولاية وان كان عدلا متوفرة فيه شروط وظيفته فانه يحرم منها بحرصه عليها هذا وقد تضمن كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك تفصيل ادارة هاته المملكة بما يعز وجوده في غيره وينبئ عن باع صاحب التأليف وبصارته في السياسة فمن أراد تحقق الامور وتفصيلها فليرجع اليه

مطلب

﴿في السياسة الخارجية في فرانسا﴾

(اعلم) ان فرانسا لما كانت من أعظم الدول الاوروباوية وفي طبيعة أهلها حب الفخر والوجاهة أكثر من غيرهم كانت تحب التداخل في أمر غيرها أشد ممن سواها ممن يقارنها وكفي بما ذكرناه في أحوال نابليون الاول والثالث وأسباب حرب سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م شاهدا على ما ذكر ولذلك كانت فرانسا لها مال لايطاليا مما ذكرناه في سياستها الخارجية وتزيد بتطلب النفوذ في جميع الجهات اذ جعلت فيها مستعمرات كثيرة فكل مملكة جاورتها ولو في مستعمراتها تتطلب النفوذ لديها ولو بالاعتبار فيما اذا كان الجار ذا شوكة وشأن (أما) اذا كان ضعيفا في القوة والادارة فانها تلتقمه مهما سنحت لها الفرصة شأن طبيعة الدول القوية ودونك ماوقع في تونس هاته السنة وهي سنة ١٢٩٨ هـ مما يوضح هذا المقصد وهو الذيل الذي نبهنا عليه في الباب الثاني عند الكلام على سياسة تونس الداخلية والخارجية

ذيل

﴿في تسلط فرانسا على تونس﴾

قد مر في المطلب الثامن من أحوال الادارة الداخلية في تونس حالة وزارة وزيرها مصطفى ابن اسماعيل وتصرفاته وما وقع في نازلة صانسي الفرانساوي التي كانت سببا في خوف هذا الوزير من القنصل ورام أن تبدله دولته وتقدم أيضا ماهي مقاصد فرانسا في تونس وانها تروم نيل الدرجة العليا فيها ولما رأت سيرة الوزير المذكور ولم تأمن وقوع ارتباكات مغايرة لما كانت راضية بالبقاء عليه وخشيت ضياع الفرصة من

سهولة

سهولة التوصل على يد ذلك الوزير الى مالم يمكن التوصل به على يد غيره من ذوى العرض والعقل فلذلك بينما كانت مساعى الوزير جارية فى ابدال القنسل واذا بالسعاية اليه قد غيرت مشربه حتى طمع فى ولاية العهد بان يتولى هو الامارة بعد سيده الوالى الحالى الصادق باشا اذا أتم ادخال تونس طوعا تحت فرانسا فراكن حينئذ قنسلها واحكم معه المودة وصارت بطانة الوزير تأتى اليه معلمة بجميع اسرار الحكومة وسائر تصرفاتها واضمر ابن اسمعيل الشرلان كان أوعز اليه بان يتشكى من القنسل الى دولته ثم تفطن بذلك التواطؤ السرى ونصحه بانه لاينتج له شيأ وعلى فرض الوفاء له بالوعد فانه لايلبث ان يناله ما نال الوزير العلقمى فى انقراض دولة بنى العباس من بغداد واتفق ذلك الوزير مع القنسل على شروط ادخال تونس تحت فرانسا غيران الوالى لم يساعف على لائحة تلك الشروط التى قدمت اليه سرا بواسطة الوزير وخشى من الدول ومن الاهالى فى البغى منه على الدولة العثمانية وفى تغيير حالة السياسة وجعل الوالى يسوف العقد من وقت الى آخر وجعل الوزير يسعى فى احداث وجه لتداخل فرانسا وانفاذ أمرها فاكثر من الرسل السرية الى الاستانة متطلبا ان يدعى هو الى هناك رسميا أو يرسل بعض الاسطول العثمانى الى مرسى تونس مع اظهار زيادة التشيع الى الدولة العثمانية حتى لا يتفطن الى مساعيه الباطنية فلم يساعف من السلطان الى مطلبه اذ لم يكن له من داع كما انه لم تفد فى الدولة العثمانية الايقاظات الى دسائسه وعزمه حتى تسعى فى سعة لدفع الغوائل المتوقعة اذ من المعلوم ان الدغل السياسى هو كالمرض المزمن الذى لاينجع فيه العلاج الا تدريجا عند أول حدوثه سيما اذا كانت الدولة المعالجة محتاجة الى استمالة غيرها من الدول القوية الى معاضدتها على قرنها القوى ومع ذلك أيضا قد عكر الوزير ابن اسمعيل حالة الخلطة مع ايطاليا لعلها تعلن على تونس الحرب وتمنح للفرانساويين منحا لم يطلبوها مما يزيد فى نفوذهم والشحناء معهم كما تقدم ذكره فى المطلب الثامن من أحوال تونس ولما لم تنجح جميع تلك المساعى التى كان يمكن لفرانسا الاستناد عليها فى وضع حمايتها على تونس أحدثوا اقاويل فى اهمال حقوق الفرانساويين بتونس وأظهر الوزير المذكور الاستخفاف بقنسل فرانسا ومال عنه كل الميل ظاهرا ورام ان يظهر التعطيل فى اجراء المنح التى أنالها الى الفرانساويس باوجه من الاعتذارات حتى اغريت رعايا فرانسا بتونس على ان تكتب تقريرا بالتشكى من ضياع حقوقهم وطلب دولتهم للانتصاف لهم فلم يرع الامم الا ان فرانسا جلبت بخيلها ورجلها على حدود تونس معلنة

بان قصدها اتماه وحفظ حقوقها من جهة الحدود وغيرها واستندت فى عملها لما تضمنته لائحة وزير خارجيتها الى سفرائه وهذا نص تعريبها باريس ٩ مايس سنة ١٨٨١ أيها السيد اتشرف بأن نرسل لكم جملة رسائل فى شأن تونس ونريد ان نحقق لكم المقصود اجمالا ونخبركم عن سبب ارسال العساكر الآن وعن النتيجة التى نرجو اتمامها فكم من مرة قد عرفت الدولة الجمهورية بدواعيها ومقاصدها وأنتم تتذكرون ذلك خصوصا ماصرح به السيد رئيس الوزراء فى المجلس العام وهو لا يمكن ان يكون فيه ادنى شك من جده وصدقه ومع هذا فانى اريد زيادة ايضاح لكم لينفعكم لدى الدولة التى انتم عندها فنقول ان سياسة فرانسا فى تونس ليس لها الا مقصد واحد وهذا المقصد الذى يكفى لوضوح موضوع سيرتنا منذ خمسين سنة نحو المملكة هو الواجب علينا لحفظ راحة مستعمراتنا العظمى الجزائرية فمن سنة ١٨٣٠ لم تأت دولة من الدول المتتابعة وتركت هذه الهمة العظيمة وانما نعمل الواجب علينا لحفظ مستعمراتنا الافريقية التى لا يوجد أحد من أوروبا انكر علينا ذلك فيها لحفظها من جار عدو كثير الاراجيف وقد كانت القبائل التونسية مخوفين ومحاربين حتى فيما بينهم وقد فاق على الجميع قبائل وشتاتة والفراشيش وخمير ولا تعرف كمية المحاربين ولا كمية قوتهم فلذلك التزمنا الآن ان نرسل من العساكر عشرين ألفا وهذا مما يدل على قوتهم أى الاعداء المتحصنين فى بلاد منيعة تقريبا وكان الداعى الاول لارسال العساكر هو قهر قبائل حدودنا الشرقية ولكن لا فائدة فى تقرير الامن والراحة واعداؤنا لا زالوا يهددوننا ونحن لا نخاف من الهجوم الكبير المنسوب لباى تونس اذا كان منه وحده لكن النظر القليل فى العواقب الزمنا التحرى من اتحاد الباى مع غيره وهذه التشويشات يمكن ان يأتى لها وقت وتقلقنا كثيرا فى الجزائر وتصل حتى الى فرانسا فيلزمنا بناء على ماذكر ان يكون لنا عند الباى محبة كبيرة واتفاق قلبى ويلزمنا جار يعوضنا المحبة التى لنا عليه ولا يسمع التشويشات الخارجية لضررنا واستحقار قوتنا الراسخة وقد وضحنا من نحو أربعين سنة بانه يلزمنا لمحافظة فرانسا الجزائرية ان نحصل فى المملكة على قاعدة راسخة ونحن نحترم بالتدقيق منافع الاجانب وهم يقدرون ان يتوسعوا بثبات مع فوائدنا والدول يتحققون ان مقاصدنا من جهتهم لا تتغير والى هاته المدة الاخيرة اتحادنا مع دولة الباى المفخم مستمر الا ما يحدث احيانا من الاختلاف فى دفع تعويضات لقبائلنا المضرورين ثم فى الحين يرجع الاتحاد ويزداد ثبوتا بعد هاته الاختلافات

الصغيرة

الصغيرة الاهانة المدة الاخيرة فانه باسباب يصعب الاطلاع عليها قد تغير ميل الدولة التونسية اليناد فعة واحدة وكانت اذ ذاك الحرب ساكنة ثم لا زالت تزداد الى ان وضحت وتقوت ومبناها ضد كل الامتيازات التى حصلت للفرانساويين فى تونس مع شدة الارادة الرديئة الى ان وصلت لهذا الحال وهذا هو السبب الثانى لارسال العساكر الذى كنا نود التجنب منه ولكن بسبب السيرة الرديئة التى طالما صبرنا عليها التزمنا بما هو واقع ولو اننا بها ضعنا الباى فى المطالب الحقانية لاننا نعرف بتونس كمملكة مستقلة واما الحالة فى الخلطة الآن مع الباب العالى فهى مخالطة محبة وميل طبيعى ونودنا ان لو كنا رأينا ازالة تونس فى منظر آخر غير التى هى عليه الآن ولكن قد بان ما يجب علينا مما ذكرناه سابقا واننا نقدر ان نستفهم من الباب اذا كان باى تونس هو وال من قبلهم فلماذا لم يمنعوا سيرته التى فعلها نحو فرانسا معتدين ولماذا لم يفتشوا ليمنع التحير الموجود الآن الذى نحن منذ زمن طويل كنا نسعى فى عدم ايقاعه ويلزم لهذا التحير الذى نحن مجتهدون فى حصره ان ينتهى بشروط تؤمن حدودنا من الهرج المستمر والتشويش المغرى لمن ارادوا اما من غيره او من نفسه فهذان هما المقصدان لارسال العساكر ولا نخف عند ما نقول ان لنا فى اوروبا الرضاء العام فى جميع الجهات عدا الجهات التى بها النظر الفارغ المطمس للعقول وهذه هى اهم السيد التى خيمت حول الباب وحول تونس ومن كلا الطرفين فنحن مشمولون بالمحبة وجميع ما نرجو من الباى هو ان لا يكون عدوا لنا ولو ان المملكة تنظر لفوائدها فتقدر ان تحصل من اتحادها معنا فوائد لا تحصى اكثر مما تحصله نحن منها ونقدر ان نأتى لها بكل خير من العمران الحاصل عندنا ففى سنة ١٨٤٧ فعلنا فيها البريد وفى ١٨٥٩ وسنة ١٨٦١ فعلنا التلغراف وفى سنة ١٨٧٧ وسنة ١٨٧٨ فعلنا الشمندفير الذى طوله ٥٠ فرسخا من حدود الجزائر الى تونس وفى هذا الزمان نفعل لها شمندفيرين جديدين احدهما يربط تونس بابن زرت من جهة الشمال وطوله ٢٠ فرسخا والآخر يربط تونس بسوسة من جهة الجنوب وسنبتدئ عن قريب فى ابتداء عمل مرسى فى تونس نفسها لتدخل المراكب من الشط ومن حلق الوادى حتى الى ذات القاعدة ودين تونس وان كان رأس ماله مشتركا بين فرانساوى وانكليزى وطليانى لكنه اذا اعتبرت القسمة فيوجد ثلاثة اخماسه لفرانساوان الحنايا الجميلة لادريان التى تأتى بالمياه العذبة لتونس قد اصلحها احد المهندسين الفرانساويين ولما ترجع الخلطة الطيبة فانا الانزال

نفعل اشياء حسنة ومنارات على الشطوط وطرقا داخلية توصل بين البلدان العامرة الناجحة ونسقى الارض بالترع الكبيرة فى البلاد التى بها أنهر كثيرة ولكن هاته البلاد أهلها ليسوا معتنين بتلك الانهر وكذلك الغابات وكذلك نعمل استخراج المقاطع الموجود بها كل نوع من المعادن وكذلك ترتيب الفلاحة فى الاراضى الحسنة التى للاجانب فى المملكة والتى للاهالى أيضا وكذلك استعمال المياه المعدنية التى اكتشفها الرومانيون واستعملوها وبالجملة ان مملكة تونس خصبة وغناقرطاجنة القديمة يدل على ذلك وتحت الحماية الفرانساوية يمكن ان تزال جميع الحجب عن المنافع الطبيعية فى هاته البلاد وتنتشر بقوة وبشدة الترتيب الجديد نقدر ان نزيد أشياء أخر وهى انه اذا كان الباى يعتمد علينا فى الترتيب الداخلى فى المملكة فاننا نفعل تعديلا لازما قارا وهذا الخير الذى يسهل علينا عمله منه ترتيب كيفية قبض المدخول وترتيب المخروج وترتيب دفاتر الحساب على مقتضى ما نستعمله نحن فى ماليتنا ومنه أيضا خير عظيم وهو ترتيب العدلية على الاصول التى فعلتها الدول فى ترتيب العدلية فى مصر وفائدة هاته التراتيب لا ترجع لفرانسا وحدها بل ان المملكة يرجع لها النفع وكذلك لجميع الدول المتمدنة التى نحن منها ومن غير فتح ولا حرب فلا شئ نعمناه من عملنا فى تونس مثل الذى فعلناه فى جزائرنا والذى فعلته انكلاتيرة فى الهند اذ نحن جعلنا باى تونس متكفلا بعطالبنا الحقانية فهو دليل على ما نحسبه دائما من ان تونس مملكة مستقلة من غير ان نراعى بعض آثار للتبعية بالاسم فقط لبعض اسياد قد تركوها منذ مدة قرون وقد تظهر تلك التبعية نادرا ولو تحسب المدة التى هى فيها مستقلة لكانت أكثر من مدة التبعية ففى سنة ١٥٣٤ أخذها المشهور ببار بوروس خيرالدين أربع أو خمس مرات بانتصاره على الاسبانيول وفى العام الذى بعده أخذها شارل كين وكذلك فى سنة ١٥٥٣ ثم أخذها داى الجزائر سنة ١٥٧٠ ثم أخذها دون جوان النمساوى سنة ١٥٧٣ ثم فى طول القرن السابع عشر كانت تحت ظلم الانكشارية من غير حكم ورأساؤهم الموسومون بالدايات كانوا اذذاك أربعين فقسموها تقريبا كالمماليك الذين قسموا مصر ثم فى سنة ١٧٠٥ كان أحدهم المسمى بحسين بن على الذى اصله كريكى أو كرسكى صار مسلما وكان هو أحذقهم فعرف كيف يشدهم وقتل جميعهم واشتهر بالباى وبعصبيات العساكر أقام العائلة الحسينية ومن ذلك الوقت لم تزل الامارة فيهم على هيئة السيادة الاسلامية والآن ٢٠٠ سنة تقريبا وهم مستقلون والرابطة الحقيقية بينهم

وبين

وبين الباب العالي هي رابطة دينية وهم يعترفون بالخليفة الا انهم ليسوا تحت السلطان ومما يوضح هذا انهم لا يدفعون له اداء الا انه عند ولاية كل باي يرسل هدية غنية تعظيما لرئيس الديانة القاطن بالقسطنطينية وفي باقي مدة الولاية فلا مسئلة سياسية يمكن ان تذكر غير هاته التحية الودادية فليس لامير المؤمنين حق آخر على باي تونس والمملكة تعقد شروطا كدولة مستقلة مع الدول الاجانب وتعقد معهم اتفاقات ويكون لها قوة وذلك برضاء الباي فقط وعلى هذا النمط وقعت معاهدة مع فرانسا في سنة ١٧٤٢ وكذلك في العام الثالث والعام العاشر وفي سنة ١٨٢٤ وهكذا صارت المعاهدة المهمة في ٨ اغستوس سنة ١٨٣٠ التي تمنع ملك العبيد والتلاصص في البحر ولا يلزم التكلم على المعاهدات الباقية كالتي في حق صيد المرجان وان الباب لا يحكم على الولاية الاحكما وقتيا وهو راض باستقلالها ومما يؤيد هذا انه في القرن الثامن عشر لم يقبل تشكي دول اروبا من التلاصص البحري والسعي البربري وليس له حكم عليهم وهو ليس مولاهم وهو لم يضمن السرقات التي فعلوها مخلة بتجارة البحر المتوسط وان دول اروبا عملوا الحرب عشرين مرة مع المملكة من غير عقد الحرب مع تركيا وفي سنة ١٨١٩ كانت معاهدة اكس لاشبيل قد حكمت على تونس بمنع التلاصص البحري من غير ان تطلب من الباب التداخل على انه متسيد على تونس وفي سنة ١٨٣٣ فملكتا سردينيا ونابلي عملا الحرب مع تونس من غير عمله مع الباب لانهم يرون مثل ما نرى ان تونس مستقلة ثم ان علاقة تونس مع فرانسا من وقت أخذها لها الجزائر على النحو السابق من غير واسطة تركيا ولما قدم الينا أحمد باي في سنة ١٨٤٣ اقتبل بكل ما يلزم من التعظيم للملوك والباب العالي لم يتوجع اذ ذاك من عملنا التعظيم الملوكي المذكور وكذلك جميع اروبا لم تلم على ذلك لان رأيها موافق لرأي اللورد آبردين الذي يقول في تسجيله ضد أخذنا الجزائر المكتتب بتاريخ ٢٣ مارث سنة ١٨٣١ ان الدول الاروباوية من مدة طويلة يفعلون المعاهدات مع الدول البربرية مثل الدول المستقلين وخصوصا تونس فانها لا تحسب نفسها الا حرة والدليل الواضح الحقي الذي لا ينكره أحد هو عمل القوانين في تونس المسماة بويورلدي وحلف عليها الباي الموجود بتونس محمد الصادق لما جلس على الكرسي في ٢٣ أيلول سنة ١٨٥٩ مثل ما حلف اسلافه فان قانونا واحدا منها وهو المسمى بالقانون النظامي لمملكة تونس قد احتوى على مائة وأربعة عشر مادة وانتشر بالعربي والفرانساوي في تونس وفي بونة ولم يصرح فيه ولا بكلمة واحدة

تقول السلطان وممالا يقدران يشك أحد معه فى استقلال الباى ما نشر فى الصحيفة الرابعة من المقدمة فى ذلك القانون ونصه ان المتوظفين الكبار التونسيين اختاروه بكلمة واحدة ليكون رئيس الدولة على مقتضى قانون الوراثة المعروف فى المملكة وفى ذلك القانون فصول تامة شرحت الحقوق والواجبات للملك وحالة الامراء من العائلة الحسينية وحقوق وواجبات الرعايا وكيفية خدمة الوزراء وترتيب خدمتهم والمجلس الكبير بالمملكة والمداخيل والحساب ولاشك ان من يطلع عليها يقدران يجد ذلك البيان غريبا اذا أراد ان يقيس على رأينا الاوروباوى ومع هذا فهو دليل واضح على استقلال مملكة تونس وانها ليست تحت دولة اجنبية وجميع المعاهدات التى بين الدول الاوروباوية ومملكة تونس منذ مدة الثلاثة قرون الاخيرة لم تقل ابدا الامملكة تونس وملك تونس ومنها خمسة عشر أو عشرون معاهدة امضيت بفرانسا فيها ذلك القول وفى سنة ١٨٦٨ المعاهدة التى وقعت مع ايطاليا مذكور فيها مملكة تونس وتونس أيضا لم تسم نفسها فى قانونها النظامى الاالاسم الذى أطلقته عليها جميع الدنيا وهى ارادت ان توضح المزية التى لها بالاستقلال والقدرة الموافقة له فبناء على ما سبق من الادلة القطعية والمتعددة فالباب العالى لايقدران يتعجب من انكار فرانسا سيادته على تونس مهما طلب هو ذلك حتى الى الآن ونحن نقر بان الباب شدد فى طلبه منذ خمسين سنة وفى سنة ١٨٣٥ ادخل تحت سيادته طرابلس بعدما ضبط التحيير الهائل هناك وأراد ان يعمم سيادته على تونس الاان قوة فرانسا المضادة له منعته من مقصده وبعد عشر سنين أى فى سنة ١٨٤٥ اتا مبعوث السلطان الى تونس ومعه فرمان ليقلد الباى منصب الولاية الاانه لم يقبل منه ثم مضت عشرون سنة من غير تجربة جديدة ولكن فى أواخر سنة ١٨٦٤ رجعت التخمينات القديمة وانما هاته المرة كانت المملكة بنفسها هى التى طلبت التقليد ولكن هذا كان من الغريب اذ وقع من الامير الذى هو حتى لذلك الوقت بعينه وهو يظهر المدافعة عن استقلاله وهذا انما كان من الاشارات القوية التى خوفت الباى من حالته امام الباب فارسل لذلك أمير الامراء خير الدين الى القسطنطينية ليعرض ويأتى بالفرمان وهاته المرة أيضا فرانسا عارضت فى ذلك وعوضا عن الفرمان السلطانى فالباى ومستشاريه التزموا بالرضاء بمكتوب وزيرى متضمن لما فى الفرمان ثم اغتنموا الفرصة وقت مصيبتنا فى سنة ١٨٧١ وتمموا ما كانوا ممنوعين منه سواء كان فى مدة الوى فليب

الذى

الذى كان غالبا اسطوله يمنع الاسطول التركى من القدوم الى تونس أوفى مدة الامبراطور الذى لم يقلز من العزم المشار اليه وفرمان ١٥ تشرين أول سنة ١٨٧١ الذى اتخذوه تحت ظل مصيبتنا اشتهرفى ١٧ تشرين ثانى فى باردو واعان به خير الدين باسم السلطان وقبله الباى الذى كان طالبه له مع شئ من الغضب وفرانسا على كل حال سجلت بقوة وحسبت الفرمان باطلا أو كانه لم يقع ومن مدة عشر سنين لم تبطل شيأ من عملها عندما يقتضى الحال ومع نجاح الباب هو بنفسه له شك فى اجراء حق فرمانه بتاريخ سنة ١٨٧١ الذى ضرب استقلال مملكة تونس المتقادم وهذا الفرمان انتشر قليلا الا انه عند الغالب لا يعرف ماعدا بعض الدول الذين لهم فوائد نواوفى ترتيب الفرمان المذكوران تونس تكون جزءتحت الباب مع ان حكم باى تونس باق كما كان يعرف من منذ مائتى سنة غيران باى تونس صاروالياأى والياعاما على ايالة تونس وعلى موجب ذلك فالوراثة فى الحقيقة لم تكن مستمرة فى العائلة الحسينية خلافا لما ذكره الفرمان بل الوالى يعزل بارادة السلطان ومن الممكن أن يعرف الباى ضرره وضرر مملكته وحريته وحياته التى هى غلطة كبيرة حسبما أشاروا عليه بها ومحمد الصادق ليس له خوف من جهة فرانسا ولو مع ماعمل من الشر معها ومع هذا فهى ليست بضده لا لذريته ولا لذاته ولا لدولته وأمامن جهة الباب فهو بالعكس وله الخوف الكبير منه لانه يمكن أن يبدله بحسب الحال انتهت لائحة وزير فرانسا واذا تأملها المتبصر وتدبر معانيها يجدها مخالفة للواقع فى كثير من الامور سيما بعض الاحوال النار يخية كما يتبين من مقابلة كلامه بماذكرناه فى تاريخ تونس وسياستها وصلتها مع الدولة مع المكاتيب الرسمية التى نقلناها حرفيا حتى من متوظفى فرانسا ويؤكد ذلك ماتراه فى لوائح الباب العالى الآتى بيانها فان الحالة لما بلغت الى درجة هجوم العساكر على الحدود تظاهر والى تونس بان أرسل اذذاك الى الباب العالى مكاتيب فى التشكى من فعل فرانسا وأرسل الى نواب الدول تسجيلا على ذلك أيضا ولما تحقق الباب العالى الاحوال الرسمية أرسل عدة لوائح الى سفرائه مستنجدا بالدول لمحافظتهم على معاهدة باريس التى أشرنا اليها سابقا وعلى معاهدة برلين ومما يفصح عن مقاصد الباب وحقوق اللائحة التى أرسلها وزير الخارجية بالدولة العثمانية الى سفراء الدولة ونص تعريبها القسطنطينية ١٠ مايس سنة ١٨٨١ ان اعلاماتى المختلفة عرفت فطانتكم الوقائع التى صارت فى المسئلة التونسية وقد نسبت بهجوم بعض القبائل البدو بين جهة الجزائر ولهذا الهجوم

فالحكام التونسيون أعلنوا بانهم حاضرون ليضبطوه من غير تراخ فالدولة الفرنساوية حكمت بانه يلزمها ارسال عدد وافر من العساكر الذين قد استولوا على جزء كبير من الولاية ولم يبعدوا عن المركز الا بعض فراسخ فمن غير التفات الى ما كنا أكدنا به على حضرة الباشا الى أخذ التدابير اللازمة لتمهيد الراحة فى المواضع الثائرة فدولة الجمهورية لا تريد أن تنظر للمخالطة الاقترانية بتونس مع السلطنة العثمانية التى هى محسوبة جزأ منها للسلطنة المذكورة وأظهرت بانها لا تقبل قولنا للاتفاق الودادى معها لقطع الاختلاف الذى وقع وترتيب حقوق الباب العالى مع منافع فرانسا فى ذلك المحل وترتيب الاشياء الموجودة من زمن قديم ولا نقدر أن نزيد فى ايضاحها كما يلزم وهى سيادة السلطان التى ليس فيها اختلاف على هاته الولاية وهى سيادة لا تنكرها ولا دولة عموما وهذا الحق بقى الى الآن صحيحا ولم ينقطع من زمن فتحها وهو اذ ذاك سنة ١٥٣٤ بخير الدين باشا وفى سنة ١٥٧٤ بقليج على باشا وسنان باشا وكانت الدولة العلية أرسلت الى تلك المواضع قوة عظيمة برا وبحرا ومن زمن ذلك الفتح فالتأسيسات التى فعلها الباب العالى هى ان جميع ولاة تونس يتوارثون الولاية من ذرية الوالى الاول المسمى من السلطان ويتقلدون الى الآن المنصب منه وفرمانات الولاية تبقى فى خزنة الديوان وكذلك جميع المكاتيب التى تأتى منهم للباب العالى فانها تارة تكون فى شأن مخالطتهم مع الدول الاروباوية وتارة تكون فى شأن أحوالهم الداخلية والى هاته المدة الاخيرة فان الباب العالى من استحفاظه على حقوقه زيادة على كونه يسمى الوالى العام فانه يرسل من القسطنطينية الى تونس قاضيا و باش كاتب الولاية ولم يكن الامن ترحم الدولة العلية ان منحت الوالى ان يسمى هو بنفسه هذين الموظفين وأيضا فتماما للذهب وخصوصية سيادة السلطان فان الخطب يذكر فيها اسم جلالته ويضرب على السكة أيضا وفى وقت الحرب ترسل تونس الاعانة الى التخت وعلى حسب العادة القديمة يأتى الى القسطنطينية دائما أناس رسميون ليقدموا تعظيمات الوالى وخضوعه لاعتاب السلطنة وليقبلوا أيضا الاذن اللازم من الباب العالى لامور عظيمة فى الولاية ثم ان الباشا الموجود الآن والاهالى التونسيون طلبوا زيادة فى التفضل وأعطى ذلك لحضرته السامية بالفرمان المؤرخ فى سنة ١٨٧١ وتعرف به جميع الدول والآن قد استغاث الوالى بجهد سيده الحق ليعينه على الحالة الرديئة التى وقعت فيها تونس الآن وهاته الاشياء التحقيقية لا ينكرها أحد فهل تريدون أن تعرفوا الآن تقريرها بالتاريخ

وبالمكاتبات

و بالمكاتبات الرسمية هو سهل لكن نقتصر على المهم منها لئلا يطول الكلام فى هذا التلغراف ففى المعاهدات القديمة التى بين تركيا وفرانسا تعدد ألقاب الحضرة السلطانيه ويكون منها لقب سلطان تونس (فانظر مثلا) معاهدة ١٠ صفر سنة ١٠٨٤ ه‍ ١٦٦٨ م وفى هاته المعاهدات أيضا يوجد بان كل المعاهدات التى بين الدولتين تجرى أيضا فى تونس وفى نصف القرن السابع عشر أى فى ١٥ صفر سنة ١١٦٦ أرسل السلطان فرمانا للباى والحاكم الكبير بالولاية فى رضاء الباب العالى بان قنسل فرانسا يجمع خدمات قناسل الدول الذين لم يكن لهم اذ ذاك نواب بالقسطنطينيه كالبرتقال وكتالونى واسبانيا وفينيسيا وفرينساوغيرهم والقنسل وكالته هى حماية السفن تحت الراية الفرنساوية فى المراسى المشهورة بالولاية والفرمان يمنع تداخل قناسل الانكليز والهولانديز وغيرهم من التداخل فى خدمة نائب فرانسا وذلك سندمنع التعدى بين الباب العالى والنمسا المؤرخ فى ٩ رمضان سنة ١١٩٧ ه‍ المتقرر بمعاهدة ستوفا فى ١٢ ربيع الآخر سنة ١٢٠٥ فانه يأذن حكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بان يحموا على اسم السلطان السفن المتجرية لسلطنة الرومان الفخيمة وأيضا فان الاتفاق الذى تقدم هذا السند وتم فى ١٥ شوال سنة ١١٦١ ه‍ بالاذن من السلطان وكان هذا الاتفاق وقع بين الحكام المذكورين والسلطنة المذكورة فان الوالى العام بتونس وهو اذ ذاك فى رتبة بكار بيك ونال اسم على باشا يذكر فى مقدمة كل مكتوب يمضى عليه منه هاته الكلمات بعينها وهى (مولانا السلطان الغازى محمود) وعلى ذكر واقعات ذلك الزمان استطرد لكم الاذن الصادر من الباب العالى فى ١٥ ربيع الاول سنة ٢٤٥ ه‍ ١٨٢٧ م لحكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب فانه يأمرهم أن لا يتداخلوا فى الخلاف الواقع بين سلطنة النمسا ومملكة المغرب وكذلك الاذن الصادر من القسطنطينية لوالى تونس فى ١٤ صفر سنة ١٢٤٧ ه‍ ١٨٣٠ م فانه يأمر بترتيب العسكر النظامى بالولاية على نمط الترتيب العسكرى النظامى العثمانى وأيضا قد أتى مكتوب معين بالطاعة من الباشا التونسى لجلالة السلطان فى سنة ١٨٦٠ وذلك الباشا هو الذى سماه السلطان والياعاما وقد انتشر هذا المكتوب فى جميع صحف أروبا من غير أن يعارض ولا من جهة واحدة ونزيدكم شيأ آخر وهو انه فى سنة ١٨٦٣ فى واقعة القرض التونسى الذى وقع فى باريس من غير رضاء الباب العالى كان وسيو دواروان دولويس وزير خارجية

الامبراطور نابليون الثالث قد أعلن رأيه بناء على شكايات الدولة العثمانية وقال انه يلزم اما الباشا بتونس أو الصراف الذى يريد عقد القرض معه أن يطلب رضاء الباب العالى ليصح هذا القرض وللمدافعة عن حقوق الباب العالى فان الوزير الفرانساوى أرسل يقول هذا الكلام للصراف المشار اليه وها نحن نضع بثبات الكلام السابق لدى ميزان العدل والحق الذى للدول الممضين على معاهدة برلين وانا المتحققون بان فكر الدول محيط بدلائل كثيرة فى الواجبات العمومية التى يقتضيها المؤتمر المحترم وانهم يريدون أن يفصلوا بالعدل قولنا الذى قدمناه وانهم يحفظون على حقوق الباب العالى الاخوى المحفوظة بالمعاهدة المذكورة ويصلحون الحال بين الدولتين فرانسا وتركيا فى علائقهما التى لهما فى هاته الولاية المرؤف بها التونسية المتممة للسلطنة العثمانية والمرغوب من جنابكم ان تتكلموا مع وزير الخارجية فى مضمون هذا التلغراف وتشرح له ماتراه نافعا ولكم الاذن بان تعطوا نسخة من هذا الجناب الوزير اذا طلبه منكم اهـ (الامضا مصطفى عاصم) ومن تأمل هذه اللائحة مع ماقررناه فى سياسة تونس الخارجية ومقاصد فرانسا فيها لايشك فى أن فرانسا لم تكن تنازع قط فى أن تونس من ممالك الدولة العثمانية وانما غاية دعواها هو ان تلك الايالة لها امتيازات جارية تحافظ هى عليها لاجل منافعها ويصدق ذلك تصريح وزير فرانسا دواروان دولويس فى مجمع فيينا آخر حرب القريم لما سأل وزير الروسيا عن تعيين الممالك العثمانية للجهل ببعضها ومثل بتونس وانه يتراءى فيها نزاع فأجابه الوزير الفرانساوى بان لاشك ولانزاع فى كون تونس من الممالك العثمانية وان كانت لها امتيازات تخصها وكذلك المعاهدات المعقودة بين فرانسا وتونس حتى التى وقعت بعد الاستيلاء على الجزائر بمدة طويلة يصرح فيها بان سائر المعاهدات المعقودة مع الدولة العثمانية تكون مرعية الاجرا فى تونس ولا يعزب عن عاقل ان ذلك التصريح لاتحاد تونس بالممالك العثمانية ومع هذا كله لم يفد استصراخ الدول لان فرانسا لم تعلن بعملها الا بعد ان لمست أفكار أغلب الدول الكبيرة فوجدتهم غير معارضين اليها الان دولة انكلترة متولى زمامها حزب الاطلاق الذى لايرى نفع دولته فى المحافظة على الدولة العثمانية بعد ان طال تحريرهم لها فى الحث على الجريان على مقتضى نصائحهم ولكنهم لم يروا العمل ودونك مانشر فى الكتاب الازرق من المخاطبات التى وقعت من الحضرة السلطانية ورئيس وزرائها ومع سفير انكلتره بالاستانة حسبما

اخبر

أخبرها وزيره بعدة تلغرافات تنبئ بما تقدم فمنها تلغراف من موسيوغوشن (سفير انكلترة الى وزير خارجيتها) بتاريخ ١٩ نيسان سنة ٨٨١ هاته ترجمته انى وجدت جلالته (أى السلطان) مشغول الفكر بهذه الافعال وبناء على ما عندى من الاذن أعلمت له بان الدولة الانكليزية تريد بقاء الحالة الموجودة فى تونس والنائب الانكليزى بتونس له الاذن ليرشد الباى اذا استشاره بان يعين فرانسا فى تقرير راحة الحدود وانى أرجو ان جلالته يشير على الباى أيضا بذلك فالسلطان سكت بعض دقائق ثم ظهر على وجهه الغضب وقال انه فهم من كلامى ان الدولة البريطانية تريد بقاء الحالة على ماهى عليه فى تونس ولها نفع فى ذلك وفهم أيضا انا أشرنا على محمد الصادق بان يعين العساكر الفرنساوية فنبهت عظمته بانى ماقلت ان الدولة الانكليزية تنتفع بابقاء الحالة الموجودة ولكنها تظهر تمنى ذلك فقط على هذه الكيفية ونحن نتأسف كثيرا من فتح مسئلة جديدة فى الشرق وانا لا انفتكر أنه توجد فوائد خصوصية لانكلترة مربوطة باى كيفية كانت فى أحوال تونس فعند هذا أجاب السلطان بانه لم ير كيف يجمع بين رجائنا فى ابقاء حالة تونس على ماهى عليه ومع ذلك نشير على الباى بان يعين العساكر الفرنساويه فهذان الشيئان لا يتوافقان لانه على رأيه يكون دخول العساكر الفرنساويه الى تونس ناقضا للحالة الموجودة وفى تلغراف آخر من موسيوغوشن أيضا يقول فيه ان الجلسة التى وقعت بينى وبين باش وكيل كان يطلب فيها صحبة انكلترة وقال ان الدولة الانكليزيه تقدر أن تعمل مع الدولة العثمانيه المعروف وان الباب العثمانى يكون ممنونا اذا كانت انكلترة تريد أن تفعل معه ذلك فقلت له ان ما كنت قلته لكم قد وقع والذى كنت تقوله دائما هو انه بأى زمن تكون فيه تركيا متذكرة بان صحبة انكلترة لها لازمة وقد تكلم على الحاجة الاكيدة الآن وتكلم أيضا على رد مودة انكلترة فتبعته وقلت ماهو دليل المودة الذى أظهرته تركيا لانكلترة منذ بعض سنين وفى أى وقت اتبعتم اشاراتنا وفى أى وقت قبلت استشاراتنا النافعة للسلطنة التركية نعم ان الترك قد عملوا غاية جهدهم ليتركوا المودة التى فى رأى العموم فى انكلترة ورجوعها الآن ليس بسهل فحضرته العلية أجابت بان جميع الاشياء الآن تتغير من غير ان يظهر على وجهه الغضب من الكلام الذى قلته له قصدا واستمر فى طلبه الاعانة وانا شرحت له بان نازلة تونس مثل النوازل الاخر الشرقية ولا تقدر انكلترة على اتمامها وحدها ومع هذا فليس لنا فائدة خصوصية وسياستنا متمسكة بالموافقة الاروباوية ولا دولة تريد قيام

عصر جديد قبل ان تتم الاعسار القديمة وكل دولة تكون حازمة اذا كانت تفتش كل واسطة لحصر النازلة التونسية في حدود ضيقة أقل ما يمكن لئلا تقوم نازلة تدخل فيها الدول برأى مختلف فجنابه العالى يقدر بفهم من جملة كلامى بان ليس لى اذن لتقرر الرجاء بان تكون الدول العظام الاروباويه يظهرون أنفسهم مختلفين على نازلة مخالطة بين الباب العثمانى وتونس والطلب الخصوصى من انكلتره ليس بموافق لحالة الباب العثمانى منذ بعض سنين مع الدولة المشار اليها فهذا الخطاب كاف في بيان الحال مع انكلتره وهى وان أظهر بعض أهل شوراها التنديد على سياستها وطلب المحافظة على تونس وابقائها للدولة العثمانية وبين ما ينشأ لانكلتره من المضرة عند استيلاء فرانسا على مرسى ابن زرت وعلى قربها من خليج السويس وربحان كفتها فى البحر الابيض لكنه لم ينفذ كلامه حيث كان من حزب المحافظين الذى هو مغلوب حينئذ واحتجت عليه الوزارة بان حزبه هو الذى فتح الباب لفرانسا فان اللورد صالسبرى الذى كان وزير الخارجيه عند عقد مؤتمر برلين لما شاحته وزير فرانسا على استيلاء انكلتره على قبرص أجابه بانه لا يعارض فرانسا اذا أاردت الاستيلاء على تونس فاذا يكون استيلاء فرانسا بوعد انكلتره وقد غفل المستند لذلك عن كون الوعد من صالسبرى كان فى سياق ان ترضى بذلك الدولة العثمانية صاحبة الملك مع الرضى العام لا اغتيالا ومع ذلك فلانكلتره مقاصد على تونس مخفية فى مصر فرأت ان مساعدة فرانسا على تونس تلائمها فى مقصدها فى مصر عند الحاجة اذا ساعدتها فرانسا ولهذا لم تعترف بالمعاهدة الجديدة مع تونس رسميا حتى ان وزير فرانسا الاول اعلن فى مجلس النواب بان انكلتره وافقت على معاهدة ما به استنادا منه لما دار بينهم من الكلام فيها فاعلن وزير خارجية انكلتره حالا بتكذيب ذلك الادعاء وما ذاك الا تحفظا على ما يريد لدولته حتى اذا لم تساعفه فرانسا فى مصر وآل بينهم الامر الى المشاحنة الحقيقية كان لانكلتره وجه فى نقض ما حل بتونس وأما دولة الروسيا فلا اشكال انها يسرها كلما يضعف الدولة العثمانية ولا فائدة لها فى مشاحنة فرانسا ولذلك كان جوابها بمثل محصول جواب سابقتها وأما دولة المانيا فاجابت خصوصيا بان الاولى للدولة العثمانية الاضراب عن هاته النازلة وانها هى لا تتعرض لفرانسا بشئ والباعث لها على ذلك وجوه (أولها) اظهار عدم التجافى عن فرانسا التى لها عليها حقد أخذ الثار (وثانيها) جذب أعداء ومضادين الى فرانسا كالدولة العثمانية

العثمانية وايطاليا حتى اذا أعلنت الحرب يوما ما بين المانيا وفرانسا تجد المانيا الظهير على قرنها انما لذلك الظاهر من الباعث الذاتى (وثالثها) اشغال فرانسا بفتوحات جديدة فى أراضى فسيحة وخلق كثير فى افريقيا بحيث طال اشتغالها بهم حتى يبرد لهيب أخذ الثار (ورابعها) اضعاف قوة فرانسا وقت الحرب اذ الامم الذين تريد التسلط عليهم وان لم يكونوا كفؤا لمحاربة فرانسا لخلوهم عن آلات الحرب والاستعداد لها لكنهم لما كانوا مسلمين وأهل نجدة وشجاعة ومثاقفة للحرب لا يلبثون دائما أن يحدثوا عليها ثورات سيما اذا علموا بوقوع حرب بينها وبين أجنبى فتضطر فرانسا فى وقت الحرب الى أن تبقى قسما عظيما من جيشها محافظا على ذلك المستعمر وذلك يفيد المانيا بنقصان قوة جيش خصمها فى حربها (وخامسها) تمهيد السبيل اليها فيما تريد التعاوض به بينها وبين النمسا لان المانيا ليس لها مرسى على البحر الابيض وقد بقى من جنس الالمان تحت النمسا عدة ملايين حول الجهات التى بقرب مرسى ترست فلو أخذت المانيا ذلك الباقى من الالمان مع تلك المرسى يكون ذلك غاية أمانيها ولكن ذلك لا يحصل الا بحرب مع النمسا وقهرها أو بمعاوضة ذلك لها بشئ يرضيها من ممالك الدولة العثمانيه مثل أخذها ولايات مقدونية ومرسى سلانيك الموازى لذلك لما يؤخذ منها حسبما أشيع ذلك مرارا ولذلك كانت المانيا أول من بادر لامر نائبها فى تونس باتباع سياسة فرانسا فيها وتبعتها على ذلك أيضا النمسا لانها ليس لها سياسة تخصها فى تونس وهى لها مع المانيا عقد محالفة اتحاد على الذب والاقدام ثم انها لها مطامح فى جهة بحر الجزر لتتمكن فيه بمواقع مهمة لكى تسلم فى مرسى ترست الى المانيا حليفتها حيث لم يكن لها مرسى فى البحر الابيض كما تقدم ذكره فلا تعارضها فرانسا عند العمل وأما ايطاليا فانها تجردت من ذلك الغصص وطوت على الضغائن التى لا تزال ولكنها لما كانت غير كفؤ بانفرادها لمعارضة فرانسا واتحادها مع الدولة العثمانية أيضا لا يجدى لاحتياج كل الى المال مع ما فيه الدولة العثمانيه من الحالة الداخلية والخارجية التى أعقبها الحرب الاخيرة فلم يسعها الا السكوت وتحمل عرق القربة مع عظم الضغينة فى عموم الاهالى والدولة اذ هى حريصة على ابقاء ما كان على ما كان فى تونس وكانت عند ملاحظتها مبادى الشر عرضت بالسعى السياسى مع الدولة العلية فلم يكن من المقدر قبول الانتباه لما أرادت حتى أنكر الوزير العثمانى على المأمور الطلياني التكلم معه

فى تونس وقال له انها تابعة لنا ولا دخل فيها لاحد وعند هجوم فرانسا صار يتملق الى ذلك المأمور لكى تمد ايطاليا اليد اليه فقال له مصداق المثل الصيف ضيعت اللبن وبما تمهد عبرت عساكر فرانسا حدود تونس معلنة بانها تريد تأديب قبيلة خمير من أعراب الجبال الشمالية عند حدود الجزائر ولم يتعرض لها أحد بالمصادمة لان حكومة تونس قد تقدمت حالتها الباطنية من التوافق مع فرانسا ومع ذلك فليس عندها تحت السلاح ألف عسكرى ولا اقتدار لها على معارضة فرانسا بالقوة واستندت ظاهرا الى أمر الدولة العلية بارتكابها سبيل الملاينة وأظهر الوزير التونسى اذذاك التزام العمل برأى مجلس الشورى حيث فات الابان مع ان جميع ما يتفاوض فيه يقرره الى تابعه على ابن الزى ايلا وهو يقرره الى نائب فرانسا فكلما عزل المجلس عزلا نقضه لهم من هو بالمرصاد منهم حتى تعجبوا من اطلاعه على جميع أحوالهم وتمكنت عساكر فرانسا من بلاد الكاف وباجة وابن زرت وفى اثناء تلك المدة كانت الحكومة التونسية لاتزال تسجل وتشكى وانها مستعدة لتربية قبائلها الذين هم فى نفس الامر انما اتخذوا وسيلة فقط ومع ذلك فقد أوعز الوزير بواسطة تابعه المشار اليه الى نائب فرانسا بان لا واسطة مفيدة فى الدخول تحت فرانسا الا قدوم شرذمة من العساكر الى قصر الوالى والاحاطة به اذا القسوة لما ترى ذلك تصعق بالخوف فيضطر الوالى الى الامضاء على الشروط و يجد العذر عند الاهالى ومع ذلك أرسل خبرا بالسلك الكهربائى الى الباب العالى يقول انه قد علم ان فرانسا تطلب عقد شروط ولا يعلم ماهى فماذا يعمل فأجيب من الباب بان يحيل كلما يطلب منه على الباب العالى ولا يمضى شيأ وقبل ذلك أشاع أصحاب الاخبار ان فى عزم الدولة ارسال خير الدين باشا الى تونس معتمدا فى حسم النازلة لمعرفته بأحوالها وسياسة الاهالى والاجانب ولكى يكون عونا على ابقاء الحالة المعروفة فأرسل الوالى تلغرافا الى الباب يطلب أن يكون المرسل غير المشار اليه وتعجب كل غافل عن المقاصد الخفية من ذلك الطلب اذ تلك الحالة لا تدع مجالا للشخصيات سيما وقد سبقت من خير الدين الى الوالى المشار اليه المجاملة وعدم الاكتراث بما فعل معه عند حلوله بالاستانة وترقيه فيها لكن المطلع على الباطن زاده ذلك تيقنا فى التواطئ على تلك الاعمال لان وجود مثل خير الدين فى تونس لا يروج عليه مايروج على غيره ممن لم يثاقف طبائع الشقين ومع مجاراة الباب العالى وتقليله لمواقع النزاع قدر الامكان لتأمين الوالى حيث أظهر الميل الى الدولة

فانه

فانه أى الوالى أسرع الى امضاء الشروط مع فرانسا والحال ان مـداد الحـبر من الباب العـالى بنهيه عن الامضاء لم يجف ولم يخبر البـاب بعـد ذلك بشئ حتى ساله عما شاع من امضائه فاجابه بانه مكره عليه وكما ورد بعد ذلك من البـاب سلمه الى نائب فرانسا مدعيا ان الشروط قاضية بذلك (وهذا نص تعريب المعاهدة) ان دولة جمهورية فرانسا ودولة باى تونس أرادوا أن يقطعوا بالمرة التحيير المخرب الذى وقع قريبا فى حدود الدولتين وفى شـطوط تونس وأرادوا أن يربطوا مخالطتهم القديـمة التى هى مخالطة مودة وجوار حسن فاعتمدوا على ذلك وعقدوا معاهدة فى نفع الجهتين المهمتين فعـلى موجب ذلك رئيس الجمهورية الفرانساوية سمى وكيله موسيو الجنرال بريار الذى يتفق مع حضرة البـاى الساميـة على الشروط الآتيـة (أولا) المعاهـدات الصلحية والوداديه والتجارية وغـيرها الموجودة الآن بين الجمهورية الفرانساوية وحضرة البـاى يحتم تقريرها واستمرارهـا (ثانيا) ليسهل لدولة الجمهورية اتمـام الطرق للتوصل الى المقصـود الذى يعنى الجهتـين العظيمتين فحضرة البـاى ترضى بان الحكم العسكرى الفرانساوى يضع العساكر فى المواضع التى يراها لازمـة لتتقرر وترجع الراحة والامان فى الحـدود والشطوط وخروج العساكر يكون عنـدما يتوافق الحكم العسكرى الفرانساوى والتونسى على ان الدولة التونسية تقـدر على تقرر الراحة (ثالثا) دولة الجمهورية تتعهـد لحضرة الباى بان يستند عليها دائما وهى تدافع عن جميع ما يخوف منـه لضرر ما اما فى نفسه أو فى عائلتـه أو فيما يخبر دولتـه (رابعا) دولة الجمهورية الفرانساوية تضمن فى اجراء المعاهدات الموجودة الآن بين دولة تونس والدول المختلفة الاروباوية (خامسا) دولة الجمهورية الفرانساوية تحضر نحو حضرة الباى وزيرا مقيما لينظر فى اجراءات المعاهدة وهو يكون واسطة فيما يتعلق بالدولة الفرانساوية وذوى الامر والنهى التونسيين وفى كل الامور المشتركة بين المملكتين (سادسا) ان النواب السـياسيين والقناصل الفرانساويين فى الممالك الخارجيـة يتوكلون ليحمـوا أشغال تونس وأشغال رعيتها وفى مقابلة هذا فحضرة الباى تتعهد بان لا تعقد معـاهدة عمومية من غير أن تعلم بها دولة الجمهورية ومن غير أن يحصل على موافقتها من قبل (سابعا) دولة الجمهورية الفرانساوية ودولة حضرة الباى أبقوا لانفسـهم الحق فى أن يؤسسوا ترتيبا فى المالية التونسية ليمكن لهما دفع ما يلزم الدين التونسى العام وهـذا الترتيب

يضمن فى حقوق أصحاب الدين التونسى (ثامنا) ان غرامة الحرب يغصب عليها
القبائل العصاة بالحدود والشطوط وتفعل دولة الجمهورية مع حضرة الباى فيما بعد
شروطا على كميتها وكيفية دفعها ودولة حضرة الباى تضمن فى ذلك (تاسعا)
للمدافعة على منع ادخال السلاح والآلات الحربية للمملكة الجزائرية الفرانساوية
فدولة باى تونس تتعهد بان تمنع دخول الاشياء المشار اليها من جزيرة جربة ومرسى
قابس وسائر المرسى الجنوبية فى المملكة (عاشرا) ان هاته المعاهدة توضع لدى
رضاء دولة الجمهورية الفرانساوية وترجع فى أقرب مدة ممكنة لحضرة الباى السامية
حرر فى ١٢ مايس سنة ١٨٨١ بالقصر السعيد الامضا محمد الصادق باى والجنرال
بريار والذى يؤكد صدق التواطئ من قبل ان الوالى طلب ظاهرا من نواب فرانسا وهما
أمير العساكر والقنصل أن يمهلاه مدة للتأمل من حالة الشروط فاجابه القنصل بانه لا داعى
الى ذلك حيث ان الشروط عند وزيرك منذ مدة وتأملتها أنت وهو ولم يبق الا الامضاء
ويؤيده أيضا ان رئيس المجلس البلدى السيد محمد العربى زروق أحد أعضاء مجلس
الشورى أصر على عدم الموافقة على امضاء الشروط وألح على الوالى بذلك عند جمعه للمجلس
وأمير عسكر فرانسا منتظر لانبرامها ونصحه بان ما يخشى منه بعدم الامضا سيقع لا محالة
بعد الامضاء فالتمسك بالبراءة الاصلية أسلم وأشرف وعورض بانه قد علم ان الوالى
اذا لم يمض يولى الفرانسيس عوضه أخاه الثالث (محمد الطيب باى) لانهم أكدوا ان له
اتفاقا مع الفرانسيس فاجاب بان جميع الاهالى لا تطيع الوجه المذكور وعلى فرض قهرهم
يكون الوالى على شرفه وربما اضطرت الدول الى التداخل بوجه يحسن الحال فلم يلتفت
لكلامه وعزل أثر ذلك من جميع وظائفه وجعلت عليه مراقبة فى داره وحجر عليه مخالطة
الناس وتحقق مزيد الاضرار به الى ان احتمى بقنسلاتو انكلاتره وسافر عن وطنه
وأقام بالاستانة ويشهد صراحة للتواطئ ما صرح به البارون بيانك الفرانساوى
فى تشرين أول سنة ١٨٨١ بما وقع فى هاته المسئلة وانه كانت أرسلته دولته حيث كان
أحد مأمورى الوزارة الخارجية لاستقراء أمر تونس وذلك فى كانون ثانى سنة ١٨٨١
وان الوالى أجاب اذذاك فرانسا بانه يقبل الشروط اذا كان الواسطة فيها هو فردينان دلسبس
لانه كان يؤمل بواسطة المذكور الحصول على شروط أوفق له وان الشروط اذذاك
كانت غير التى قررت الآن ومع ذلك كله لم تعلم الدولة العلية بشئ وبه يعلم

صدق

صدق الكلام في اضمار الوزير التونسي الشر لا سيما للدولي بالخصوص حيث دافعت عن الحق ونصحته بما يقتضيه الدين والامانة ثم كانت فاتحة أعمال نائب فرانسا عند امضاء المعاهدة أن طلب من الوالي نفي علي ابن الزي حالا لكي لا يبيح بما وقع من الاسرار التي اطلع عليها فنفي الى حصن قابس ثم توجه الوزير ابن اسماعيل الى باريس في سفينة فرانساوية حربية شاكرا الانعام فرانسا بتلك المعاهدة ومعلنا لها بانه يصدق في خدمتها أزيد مما كان يبذله سابقا كذا في عبارته الرسمية عند ملاقاته رئيس الجمهورية المنشورة في الصحيفة الرسمية فقلدته فرانسا بأكبر نيشان لها مع الشريط الكبير ورجع الى تونس ولم يلبث بضع أشهر حتى ورد الامر على الوالي من وزير فرانسا بعزل وزيره ابن اسماعيل لان نائب فرانسا بتونس توجه الى باريس وتفاوض مع دولته فيما يسلكونه في تونس حيث ان الاعراب والجهات الجنوبية أعلنوا بان الوالي لما بغي على الدولة العثمانية بدخوله تحت حماية فرانسا فهم لا يطيعونه لانهم بايعوا أمير المؤمنين سلطان الدولة العثمانية قديما وحديثا فلا يحل لهم الخروج عليه وهرب على الوالي جميع عساكره فاضطرت فرانسا التعبئة الجيوش لتطويع الاعراب وكان من جملة التدبير عزل ذلك الوزير الذي توقعوا منه أن يفعل معهم مثل مافعل مع البلاد التي وصل فيها الى تلك الدرجة وتحقق الوزير ماضرب من المثل بوزارة العلقمي وان كان هذا أي ابن اسماعيل قد احتاز بجميع خزائن أمراء تونس حتى كان آخر ما بقي للوالي من مفاخر الجواهر عقد لؤلؤ منظم سبحة بها مائة حبة مع حلية زمرد محاط بها الياقوت الابيض فاعطاها اليه عند سفره لباريس بعد العزل المذكور ورام بسفره ارضاء فرانسا عليه وارجاعه الى الوزارة وبقيت البلاد الى الآن في حيرة واضطراب ودخلت العساكر الفرانساوية الى قصبة الحاضرة والى منازل العساكر في المدينة وأمام قنسلاتو فرانسا وسكن رئيس العساكر الفرنساوية بدار المملكة في بطحاء القصبة وصارت الحكومة لا تتصرف في شئ الا بأمر الوزير الفرانساوي سواء كان في الداخلية أو في الخارجية وتفاقم الضرر بولايات غير الاهل في الوظائف بوسائل غير مرضية وعظم الكرب على القبائل والبلدان بما حصل فيهم من العساكر الذين أقاموا بالقيروان وسوسة وهدموا صفاقس ونحو جوامن قابس بعد دخولها وعادوا اليها ونسأل الله ان يتداركنا بالطافه ويحسن العاقبة ومما ينبغي التنبيه اليه هنا ان الاحوال السياسية التي أشرنا اليها مع الدول سيما مقاصد المانيا لا يمكن ان تخفى على أمة عاقلة مثل

الفرانساويين فكيف مع ذلك قدموا على تبوء تونس مع كون الفائدة التي تحصل لهم منها
لا توازي ماذكر سيما اذا كانت المعاهدة مع تونس التي ذكرناها تجري حقيقة على
ظاهرها فالجواب ان كثيرا من عقلاء الفرانسيس قد نددوا على دولتهم ولا زالوا في
الاعتراض عليها لكنها بعد الوقوع في الامر المتسبب عن تهور من بيدهم مقاليد
السياسة حتى اتهمهم مضادوهم من نفس الفرانسيس بان لهم في ذلك أرباح ذاتية من
التجارة في الرقاع الدولية وموهوا على العامة بالانتصار لحفظ ناموس فرانسا فبعد ذلك
صعب على الدولة اهمال سعيها مع ما خسرته من الاموال المتجاوزة مائة مليون ومن
الرجال الذين ماتوا بالحرب مع الاعراب وبالامراض المتجاوزين خمسة وثلاثين الفا فرأت
فرانسا التحفظ على ما وقع مع السعي في حسن السلوك الذي يخفف أو يدفع عنها الغوائل
المنتظرة ثم وراء ذلك أمر مهم جدا للفرانساوهو طمعها في احداث مملكة عظيمة في
أفريقية مثل ما للانكليز في الهند فتريد ان تمتد من الجزائر الى ما جاورها شيأ فشيأ الى ان
تصل الى دواخل أفريقية والسودان وتصل بين شاطئ افريقية الغربي في سانيغال
والشرقي في الجزائر وتونس حتى رسمت جمعية فرانساوية رسم الخط الحديد في ذلك
ولو يتم هذا يكون لفرانسا شأن عظيم غير ان القياس على الهند الانكليزي هو قياس مع
الفارق لا من جهة سياسة الفرانساويين في مستعمراتهم من حيث قلبها الى عوائد
الفرانسيس واناطتها الادارة في الكليات والجزئيات بباريس ولا من حيث أخلاق
الامم المستوطنين بافريقية والمستوطنين بالهند وان شئت الوقوف على برهان ذلك فانظر
ما حررناه في أحوال الجزائر وفي أحوال الهند وسياسة كل من الدولتين يتبين لك حقيقة
الحال وبما ذكرناه هنا يندفع الاعتراض على ما ذكرناه في سياسة تونس الخارجية من
كون فرانسا لا تريد الاستيلاء عليها مع كون أعمالها ناقضت ذلك وشرح الدفع
يؤول الى أن الحامل لدولة فرانسا على مخالفة ما سبق من مقاصدها في تونس شيآن
أحدهما سياسي ظاهري والآخر خصوصي باطني فالباطني هو المشار اليه بما وقع من
التهمة في نفع الافراد الذي يأتي له مزيد شرح في مبحث الاحكام والظاهري هو أن
الدول قد تغيرت أفكارهم بالنسبة لمحافظة الدولة العثمانية منذ عقد معاهدة برلين
فدلت أعمالهم على ان من ناسبه شيء منها وكانت له قدرة على حوزه بادر اليه وغض عنه
النظر بقيتهم اذا كان الحوز اكثر مناسبة بالحائز وقد علمت مقاصد فرانسا في تونس ورأت
ان ايطاليا لها من المقاصد والمناسبات ما يزاحمها ثم رأت سيرة ابن اسماعيل وانه غير

أمين

أمين فلا يبعد ان يفعل مع ايطاليا أو غيرها من الدول ما فعل معها الخوف او طمع مع تيسر اجراء الامور بواسطته فانتهزت الفرصة خوفا على درجة نفوذها فبادرت قبل ان تبادر ومن المعلوم ان السياسة تدور مع الاحوال الحاضرة ولله عاقبة الامور

الفصل الخامس

﴿فى عوائد أهالى فرانسا وصفاتهم﴾

(اعلم) ان الاهالى أصلهم القديم مجهول غير انهم لما هجمت القبائل الشمالية الشرقية من آسيا على أروبا تسلطت منهم قبيلة الافرنج على فرانسا بعد ان اناخت فى البلجيك ولازالت تتقوى الى أن ملكت جميع فرانسا واتحدت القبائل الاخر معها بالفصل والاسم كما تقدمت الاشارة اليه فى مبحث التاريخ وكان لهم اذذاك شهرة بالشجاعة والتقدم بالحرية حتى كانوا أول من كثرت خلطتهم من الاروباويين بالعرب وأهل المشرق ولذلك ترى ان اسم الافرنج يطلق على جميع أهل أروبا عند جميع المشرقيين والعرب وذلك بابدال السين جيما لان أصل الاسم افرنك فقلبت الكاف سينا عند نفس الامة ثم حرف فى الترجمة فى لسان المشرق وصار افرنج وذلك الاشتهار كاف فيما كان لتلك الامة من التقدم وحب الاسفار والتجارة ولازالوا على ذلك الى الآن لكنهم يؤثرون الاقامة فى وطنهم عن الاقامة الدائمة بغيره ولهذا تراهم أقل أهالى أروبا استيطانا فى سائر الممالك اذ أمريكا التى هى ذات ثروة وأمن وقليلة السكان بالنسبة لاتساع الارض يهاجر اليها سنويا من الانكليز والالمان والطليان وغيرهم خلق كثير يتجاوز مئات الالوف وأقل القليل من المهاجرين هم الفرانساويون بل ان ذلك حاصل ولو فى مستعمراتهم فى الاقاليم اذ الجزائر الآن تحت سلطتهم نيفا وخمسين سنة ومع ذلك لا يوجد منهم فيها الا نحو مائتى ألف أو ينقصون وانما بلغوا ذلك العدد بعد استيلاء المانيا على الالجاس واللورين فرغبت دولة فرانسا أهالى ذينك الاقليمين للاتحاد بها بان تعطيهم جميع حاجتهم مع الاراضى الخصبة الوسيعة فى الجزائر وحيث كان فى ذينك الاقليمين كثير ممن لا يريد الانفصال عن فرانسا الى المانيا هاجروا الى الجزائر ومكنتهم الدولة بارزاق العرب الذين استأصلت أموالهم بدعوى الخروج عنها والعصيان عليها ومع هذا الترغيب فانما كان عددهم ما أشير اليه لولوع القوم بوطنهم فى السكنى وان كانوا منتشرين فى سائر الاقطار للتجارة والسياحة كما انهم لهم ولوع زائد بالتفاخر بمدينة

باريس التي يحق لها الفخر ويسر كل فرانساوي مدحها وان لم يكن من أهلها وهذا الطبع وهو حب التفاخر وان كان طبيعيا في البشر لكن بعض الامم فيه أزيد من بعض كما هو في الافراد فالفرانساويون ذوو فخر ونشاط الى الاعمال وسرعة الى تبدل الاراء والافعال حتى أورث ذلك فيهم كثرة الانقسامات في الاحزاب السياسية وقد ذكرت صحيفة الديبامرة عدد أحزابهم في السياسة فاذا هي أربعة عشر حزبا أحد طرافها حزب الاشتراكيين أي الذين يريدون ان يكون الناس كسائر الحيوانات السائمة مشتركين في جميع ما بايديهم ولو النساء ولا يستأثر أحد عن أحد بشئ والطرف الثاني الاستعداد التام لشخص ملك يتصرف فيهم تصرفه في الاثاث والمتاع وما بين ذلك درجات أقواها الآن حزب الجمهورية المضبوطة على نحو ما تقدم في السياسة الداخلية ويليه حزب الملكية القانونية وان كان في ذاته له عدة اقسام من اتباع عائلة بونابارتي واتباع عائلة أورليان أو البربون الى غير ذلك ولا تفتر أيها المطالع بكثرة أولئك الاحزاب في ضعفهم مع من ناواهم من الخارج فانهم اذا رأوهم أجنبي يكونون عليه يدا واحدة فاذا انفصلوا منه عادوا الى الشقاق بينهم ولولا هذا الشقاق لزادوا قوة ونفوذا اذ طباعهم مهذبة ومعارفهم متزايدة وتجارتهم وفلاحتهم متقدمة للغاية حتى أقر لهم بذلك اضدادهم وهم لينوا الجانب بشوشون في الملاقاة غيرانهم يتجبر قسم منهم على من تسلط ه الفرانساويون عليه وفيهم كثير من المؤتمنين الناصحين العقلاء مثل من رأيناهم قدموا الى بلادنا متوظفين وأحسنوا السيرة والانصاف والنصح الى وطننا ومن الانصاف الوفاء لهم بالذكر الجميل فمن هؤلاء صاحب رتبة الوزارة فيليت الذي قدم الى تونس بصفة محتسب عام مالي عندما أنشئ الكومسيون المالي فابدى من نصح الوطن والوقوف على حقوقه ودفع الغوائل عنه مالم يصله كثير من أعيان ابناء الوطن مع العفة والصدق وسعة المعرفة وعلى قدمه من أتى بعده بتلك الوظيفة وهو لبلان ومثله كابي الذين شهد لهم كل ابناء الوطن بالاستقامة والانصاف بحيث يصح ان يقال ان دولة فرانسا انما تختار لوظيفة الاحتساب المالي من هو جدير بها ولا مطعن فيه اذ كل من الثلاثة هو من متوظفي دولة فرانسا في الاحتساب العام المالي وعلى نحو من هؤلاء صاحب رتبة الوزارة فالات الذي قدم الى تونس بوظيفة نائب سياسي سنة ١٢٩٠ فابدى من أوجه الانصاف ومساعدة الحكومة والاهالي على حقوقهم ما لهجت به الالسن الثناء عليه من جميع أبناء الوطن وقلما يرد مثل هؤلاء الى وطننا لتحاميهم عن المقاصد السيئة

واتباعهم

واتباعهم للانصاف فدولتهم تقتصر بهم على وظائف داخليتها ومن مشاهير رجال سياستهم فى عصرنا من اجتمعت به وله صيت بين الامة الفرانساوية كنديتار رئيس مجلس النواب وممن أدركناه أيضا زيادة على نابليون الثالث الرجل الشهير بالسياسة والمعارف تيرس وقلما تحدث أفراد مثله وان كانت المعارف والتقدم حاصلة الى العموم ومع ذلك فلا يزال فى فرانسا خلق كثير على السذاجة والجهل ودونك حكاية ظريفة تقيس عليها ما يقرب منها فى سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م كان أحد أصحاب العمل باليد مشتغلا جهة باريس وكان له ابن مشتغل جهة بردو فلم يوفر الابن من كسبه ما يشترى به حذاء أفأرسل الى أبيه يشتكى له القل ويطلب منه شراء حذاء له فاشتراه له وحمله فى الطريق وهو مفكر فى كيفية ايصاله اليه فبينما هو ماش اذ مر محاذ بالسلك الكهربائى فقال هذا أسرع طريق انى أجعله الحذاء وهو يوصله لابنى فجاء الى عود السلك وعلق فيه الحذاء وأسر الى العود بقوله أوصل هذا لابنى فلان فى المكان الفلانى وذهب مسرورا باطلاعه على مسلك سهل بلا مصروف ثم مر من غده متفقدا ما فعل السلك بالحذاء فوجد فى ذلك المكان حذاء عتيقا افناه اللبس ففرح وقال ان ابنى لعاقل حيث أرسل لى الحذاء القديم لاستعين به على ثمن الجديد فانظر لهاته البلاهة التى لو صدرت من أحد المشرقيين لشنعوا بجميع الجنس بانه وحشى بعيد عن المعارف وتهذيب الاخلاق واعلم ان مثل ذلك الرجل كثير سيما فى القرى الصغيرة والجبال بل وفى أهل المدن كثير من يعتقد بالخرافات الباطلة ويعتقد التأثير لاحجار وجمادات ويتشاءم بالاوقات فقد رأيت فى كثير من بلدانهم وبلدان الطليان وكذلك الانكليز طاقات فى حيطان فيها منارات توقد بالزيت أو بالشمع العسلى تقربا الى بعض أوليائهم أو الجن معتقدين حلول المتقرب اليه بتلك الطاقة ولا ينورونها بغير ما ذكر من الانواع لان القسوس يقولون لهم ان شمع الشحم أو الغاز من البدع التى لا يتقرب بها وكذلك يطلبون الجنت وقضاء الحاجات من جمادات أو أماكن اعتقاد حلول أرواح فيها وقد ذكر من هذا النوع فى كشف المخبا عن فنون أوروبا ما يتعجب منه السامع مع سائرى الاوروباويين ومن تشكل بشكلهم وتباهى بتقليدهم يحملون عبثه على البلاد الاسلامية وحدها ويجعلونها مضربة وينزهون أوروبا عن مثلها مع انها حاوية لشبهها ولاشد منها بل ربما أسند ذلك الجاهل أو المتجاهل الى ديانتنا الشريفة وحاش الله ان تؤدى أو ترشد لمثل ذلك بل انها هى المهذبة والمنقذة من غياهب الجهل الى نور المعارف الحاثة على العلم وفتح البصائر وقد

أفردنا لهذا تأليفا خاصا واعلم انا لانقصد من ذكر ما مر نسبة الجهل بالمعارف الدنياوية الى عموم الفرانسا وبين أو ترجيح كفتنا على كفتهم كلا بل الحق ان الناس على ثلاثة طبقات فاهل الرفعة وأشراف القوم من ذوى البيوت العالية بالتوارث فى الوظائف أو كثرة المال والترف تجد أغلبهم مقتصرين على معرفة مبادى العلوم ومحبين الى انفاذ الاغراض وزيادة علو الصيت والرعاع من أهالى الجبال والقرى والبوادى أغلبهم أيضا جهلاء ولافكر لهم الافيما ينفع كل فرد فى خويصة نفسه والطبقة الوسطى هى مجال التمدن والمعارف والصنائع والتقدم وهم أيضا أصحاب الترجيح السياسى فى فرانسا وهاته الطبقة هى المتقدمة بالنسبة لمشابهتها فينا فهى فيهم أرجح ميزانا وأهلها كثيرون بالنسبة لاهلها عندنا وبالنسبة الى نفس أهاليهم أيضا فترى عدد أهل المعارف يزداد ويترقى يوميا وأهل هاته الطبقة عندنا مشاكلون فى الصفات لاهل الطبقتين الآخرتين كما ان أهل الطبقة العليا عندهم أوسع تبصرا ومعرفة منها عندنا (وأما بقية) عوائد الاهالى فهى على نحو من عوائد الطليانيين فى السلام والحياء والسماع والرماية والفروسية وغير ذلك وقد كانت فيهم تربية حسنة من التواضع بينهم ولين القول لكن منذ سخت الحكومة الجمهورية تظاهر فيهم التهور شيأ فشيأ حتى انى أدركت ذلك ما بين سنة ١٢٩٢ وسنة ١٢٩٥ فقد رأيت من اخلاق الطبقة السفلى من الناس كالكرارسية والحمالين والسائلين مالم نعرفه منهم فى السنة السابقة وفات السائلين مع انهم يمنعون السؤال للفقراء لوجود أماكن المرحمة للعاجزين ومن يباح له السؤال تجعل له علامة تؤذن باباحته ولا يكون الا ناقص عضو أو حاسة وغيرهم يتحيلون على السؤال بعزف آلة طرب أو اهداء باقة زهر أو نحو ذلك من غير الحاف فى السؤل حتى اذا رأت الضابطية واحدا الجأ منعته أو سجنته وفى السنة الثانية رأيت تغاضى الضابطية عن ذلك وعن سوء معاملة الكرارسية للركاب حتى يكون بعضهم سكرانا وبتكلم الكلام الفاحش ولا يتعرض له أحد كما رأيت فى هاته السنة عدة مواطن للتشاكم والتلاكم وبعضها وقع فيه الضرب بالحديد ومات فيه المضروب وفى بعض الاوقات يركض الكراريسى ركضا زائدا يمكن ان ينشأ منه الضرر بالمارة وكل هاته الاشياء ممنوع ولم نر منه شيأ فى المرة الاولى لكن الدعوى بمزيد الحرية التى تتبع الجمهورية أورثت ذلك الاهمال المفضى الى التهور والخروج عن الاعتدال كيف لا واحد احزاب الجمهورية يطالب المصير لما عليه الحيوانات العجم من الاشتراك وقد ذكر لى انه كان وقع مثل ذلك

الحزب

الحزب فى احدى مدن أروبا العظيمة وثار على الحكومة واقتحم منازل الناس وكان فى تلك البلاد أحد الاغنياء المشهور بالثروة حاذقا فاطنا فأخذ عدة اكياس بالسكة الفضة وجلس عند باب داره وكلما مر عليه انسان أعطاه فرنكا فجاءه جمع من الثائرين فقال لهم انى منكم وقد حسبت مالى فاذا هو كذا كذا مليونا وأهل المملكة يساوون الى هذا العدد فيصح لكل واحد فرنكا فكل من أتى أعطيته حصته ولا يسوغ ان أعطى لاحد نصيب غيره فلم يسعهم الا الرضا وتخلص من نهب أمواله وتشتيتها ومن قتله ببعض آلاف فرنك دفعها لاولئك الثائرين الى ان قهرتهم الحكومة واضمحل أمرهم ومن تفاخر الاهالى اتقان الاغنياء للكراريس وبعضهم يجر كروسته أربعة أو ثمانية من الخيل بسائق واحد وبعضهم يكون هو السائق بنفسه وتجد بعض هاته الكراريس تركب اثنى عشر راكبا فاربعة داخلها مثل المعتاد وأربعة على سطحها على كراسى لازقة كل اثنين على كرسى مثل الاسفل غير ان ظهورهم لبعضهم واثنان على كرسى السائق واثنان على كرسى الخدمة من وراء وفى قعر الكروسة محل لوضع ما خف من المأكول واللوازم فيركب صاحب الكروسة مع خواص عائلته وأحبابه وما يلزمهم لتنزه يوم ويذهبون لاحد المنتزهات خارج البلاد ومن عاداتهم أيضا انهم يتأنقون فى ظرافة الملبس والاثاث والبناء وتنظيمه وترتيبه وينشؤون المنتزهات واماكن الارتياح ليشترك فى فائدتها الحقير والعظيم وان كان لكل جهة كالقهاوى فما كان منها للعظماء زاد فى سعر ما يعطيه واتقن آلاته حتى لا يزاحم الفقير الغنى لكثرة المصرف من غير تحجير حكمى بحيث يصح ان يقال ان الملاذ والنزهة عند الفرانساويين ينال منها الحقير حظه وهى مشهورة يعرفها الوافد بادنى سهولة مع كثرتها وتهيئتها الى قبول كل أحد

مطلب

﴿فى التجارة﴾

(اعلم) ان تجارة فرانسا لها الرتبة الاولى فى سائر أقسام المسكونة ولهم براعة تامة فى ادارة الاشغال ولكن الاصول فى ذلك هى ما قررناه فى ابطاليا غير انها هى فى فرانسا أقوى وأروج وتسبب عنها كثرة الثروة والغنى المفرط حتى صارت شركات تجارتهم لا يخلو منها اقليم من العالم وبواخر بريدهم تخترق سائر البحور ودونك أنموذجا على ما للفرانسا من الغنى فان دولتها عدلت المسكوكات الرائجة فيها سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م

فكانت كما ترى فرنكات	
٢١٠ر٩٤٧ر١٩٠	صرف قطع فضة بخمسة فرنكات
١ر٩٦٥ر٠٥١ر٢٩٠	صرف قطع ذهب الواحدة بعشرة فرنكات
٦ر٩٦٤ر٠٨٠ر٣٦٠	صرف قطع ذهب الواحدة بعشرين فرنكا
٠ر٢٠٤ر٤٢٢ر٣٦٠	صرف قطع ذهب الواحدة باربعين فرنكا
٠ر٠٤٦ر٥٦٨ر٧٠٠	صرف قطع ذهب بخمسين فرنكا
٠ر٠٤٤ر٣٤٦ر٤٠٠	صرف قطع ذهب بمائة فرنك
٥ر٣٦٧ر٤٧٧ر١٩٠	صرف قطع فضة من نصف فرنك وفرنك الى الاربعة فرنكات وقطع نحاس لاتمام الكسور
١٣ر٨٠٣ر٨٩٣ر٤٩٠	

فذلك من عين السكة خاصة عدا آلاف الملايين من قطع الاوراق المعدودة عوضا عن السكة من بنك الدولة وهاته الاوراق لها اعتبار أحسن من السكة لخفة مؤنتها فتزيد في الصرف نصفا في الألف وتروج في سائر الاقطار ويرغب فيها لدى الصرافين وفي خصوص فرانسا وايطاليا وسفيسرا والبلجيك يرغب فيها حتى غير الصرافين أما غير هاته من الممالك فانها تعتبر عند الصرافين فقط ويؤيد اعتبار غناها ما ذكرناه في غرامة حربها مع المانيا وكذلك سنة ١٢٩٨ ه ١٨٨١ م طلبت دولة فرانسا استقراض ألف مليون فرنكا فاحضر لها الصرافون وأرباب الاموال ما اكتفت به عما تطلبه باخذها خمسة عشر فقط من كل مائة أحضرت لها وأساس ذلك الغنى هو الامن الذي سوغ للاهالي عقد الشركات باظهار أموالهم وترويجها والشركات هي الاساس الثاني مع حسن الادارة فاورث ذلك ما أشرنا اليه من أنموذج الغنى وتبعه ثروة الدولة التي هي بيت مال الاهالي بعد ان كانت منذ مدة ليست بطويلة في غاية العسر والفقر من سوء ادارة حكومتها والحروب الاهلية والخارجية فذكر لي ان منذ نحو سبعين سنة كان لرجل منهم من أوراق دين دولتهم ما قدره عشرون مليونا فرنكا واحتاج ان يفطر ولو بيضا وخبزا فلم يجد من يعامله ولو بالعشرين مليونا التي معه مع ان دين الدولة الآن الذي يدفع فائدة خمسة في المائة تساوي المائة منه مائة وعشرين نقدا فانظر عجيب الفرق بين الحالتين في المدة القريبة وأحوال البريد هي في أول درجة من الانتظام في هاته المملكة

برا

براو بحراومواصلة الطرق الحديدية والصناعة مع مجلات حمل الاثقال المختلفة الاشكال مع المتانة والحسن زادت التجارة رواجا بحيث ان السلع وغيرها لاتحمل الاعلى العجلات وفى المدن العظيمة لاتجرها الا الخيل السليمة أو البغال بقلة وسفن البريد تصل الى أقصى ممالك المشرق والمغرب ومما يحسن ايراده عنوانا مما عندهم من الغنى ان الحكومة المصرية مدة ولاية خديويها اسمعيل باشا باعت سهامها من خليج السويس لدولة انكلاتيره بمائة مليون فرنك فكثر فى ذلك القيل والقال من جهة السياسة خوفا من استيلاء انكلاتيره على الخليج المذكور واهتزت لذلك فرانسا أزيد مما سواها فذكرت احدى صحفهم يوما ان روشيلد أحد الصرافين الكبار المشهور بالغنى قد أعطى لصهره اذذاك مائة مليون فرنكا وخمسة وعشرين مليونا مهرا بنته ثم ذكرت على وجه التحمس والدعابة بان البائع لو خطب هاته البنت لولده وزوجها به لاخذ مائة مليون لحاجته وزاد بها خمسة وعشرين مليونا مع بقاء السهام على ملكه واراحة العالم من التشويش والاضطراب

مطلب

﴿فى الاحكام﴾

(الاحكام) فى فرانسا أصولها هى المذكورة فى ايطاليا لان القانون الاصلى فى ذلك هو قانون نابليون الاول امبراطور الفرانسيس وانما بينهم بعض خلافات مبنية على اختلاف العوائد وادارة الاحكام منفردة عن الادارة السياسية ولا ساطة لهاته عليها بالمرة ودونك مثلا لذلك وهو ان رستان الذى كان قنسلا لفرانسا وسعى فى الانقلابات التى حدثت فى تونس قد تكلم ضده وضد تصرف دولة فرانسا كثير من رجالهم فى المجامع العامة وكذلك تكلمت ضدهم جملة صحف خبرية فرانساوية وغيرها وأشد الصحف مضادة الى رستان وأعماله صحيفة لانترانسيجان التى يطبع منها يوميا ١٥٠٥٣١ نسخة وصاحبها هو الرجل الشهير رشفور الفرانساوى وقد قدح فى عرض رستان فى المال والسياسة وصار الكلام مه رنة عظيمة حيث جعل استيلاء فرانسا على تونس كان لفوائد خصوصية مالية لمن سعى فى ذلك ولمن أعان وكان رستان أشد تهمة فاراد رستان تبرئة نفسه باقامة الدعوى على صاحب الصحيفة لدى مجلس الحكم وترافعوا وأدلى كل منهما بما توصل اليه من الحجج وكانت عدة رجال من الدولة الفرانساوية فى الانتصار الى رستان حتى الوزراء السابقون

فى الخارجية شهدوا له بانه منفذ لاوامرهم ولم يتحقق عندهم مايدعى به عليه ومثلهم المنتصبون فى الوزارة وحاولوا استطاعهم فى نصرته لكن الحق بدا وغلب ولجعل مجالس الحكم لاهواء أحد وحكم على رستان وألزمه بأداء مصاريف التحاكم وبذلك صحت مقالات الصحيفة المشار اليها وخرج صاحبها اصادقا منصورا وقد ترجمت جميع جلسات مجالس الحكم المشار اليه وأفردت بالطبع حتى باللسان العربى وبالاطلاع على ذلك الكتاب يتأيد جميع ماذكرناه فى الاحوال التونسية وأسباب انقلابها ويتأيد ماذكرناه فى السياسة الخارجية لفرانسا وفى السياسة الخارجية لتونس وماذكرناه هنا من انفراد ادارة الاحكام عن ادارة السياسة سيما بعد ارجاع رستان المذكور لوظيفته فى تونس بعد تلك المحاكمة مما يشهد لما قلناه فى مباحث السياسة من أن سياستهم الخارجية ليست هى كانصافهم فيما بينهم فى داخليتهم وهو مما يحقق أن الرجال المنتخبين للاحكام انما يكونون من أعف الموجودين وأنصفهم لاتميل بهم الاهواء عن الاستقامة غيران هذا هو الاغلب لاسيما فى المدن العظيمة وفى المجالس الانتهائية (وأما) غيرهم فالارتشاء بينهم فاحش يكاد أن يكون مثل مايصفون هم به حكام المشرق وطريقة الوصول اليه عندهم أيسر بما لهم من اباحة خلطة النساء فالمعطى للرشا يجعل الوسائل للتوصل الى احدى النسوة ذات النفوذ لدى الحاكم ويرشيها فتبلغه قصده بنفوذها بسبب قرابة أو وداد أوغير ذلك لدى الحاكم وربما أوصلت اليه حصة من الرشا وعلى تقدير الا كتفاء بما أخذته هى فهو أيضا رشا للحاكم حيث مال بالحكم للجهة التى انتفعت منها من يريد نفعها وبهاته الوسيلة تكون خصلة الرشاء عندهم مستورة نوعا مالان ظهورها يوجب العقاب الشديد بالقوانين مع عدم وجود الشفاعة عندهم ومع ذلك يوجد فى هؤلاء أيضا كثير متعففين وقد حضرت يوما فى مجالس الحكم لرؤية هيئة الاحكام والحكام فى باريس فاذا هو بيت كبير مستطيل له باب يدخل منه المتفرجون وباب للموظفين وباب للخصوم وفى صدره مسطبة عالية عليها ثلاث كراسى وأمامها مائدة مستطيلة عليها لكل كرسى دواة وأقلام وورق وعن يمين تلك الكراسى كرسى طويل يجلس عليه أزيد من عشرين شخصا وعن شمالها باب وأمامها فى نحو نصف البيت درابزين حائلة بين المتفرجين والخصوم وللمتفرجين كراسى يجلسون عليها وبقرب الكراسى التى فى الصدر كراسى سفلية أحدها لرئيس الكتاب والثانى لوكيل الحق العمومى الذى رتبته رتبة محتسب عام على الحقوق وله اعتبار كاعتبار رئيس المجالس وبعد هنيهة من دخول المتفرجين خرج من الباب

الباب الذى على الشمال رئيس المجلس ومعه عضوان كل منهم لابس جبة طويلة بأكمام واسعة حمراء وعلى أكتافه منديل مقصب بالذهب وعلى رأسه شعر أبيض عارية له ذنب معقود على قذلهم فوقف لهم الحاضرون وأومأ الرئيس بالسلام لهم ثم جلس الرئيس على الكرسى الوسط والعضوان عن يمينه وشماله وجلس كل من وكيل الحقوق والكاتب على مرتبته ولكل منهم أيضا زى خاص يشبه زى الرئيس والاعضاء ثم دخل وكلاء الخصام الذين لهم ذلك الوقت دعوى ولكل منهم مثل ذلك الزى ثم دخل من باب خاص جمع من الناس باللباس المعتاد وجلسوا على ذلك الكرسى الطويل وهم الجورى فتكلم الرئيس بالسؤال عن حضور شاهد فأحضروا وقفا خلف أمامهم ثم أدى شهادته وبعد سكوته تسار الرئيس والاعضاء ثم خاطبه الرئيس لائما عن عدم حضوره فى اليوم المعين له ومعلما له بما يجب عليه من العقاب عن ذلك فاعتذر بالوحدة فأعلمه بلزوم الحكم فيه فوقف وكيله وقال ان الشاهد مسكنه فى المحل الفلانى وهو غريب وفقير عاجز عن اكراء من يستعين به فوجه الرئيس القول للشاهد مشددا بلزوم الحكم عن مخالفة القانون ثم سار العضو والذى عن يمينه ثم الذى عن شماله ثم أمر الشاهد بالانصراف وانه ان عاد لمثلها أجرى عليه الحكم وانصرف ثم قام الرئيس والاعضاء ودخلوا من ذلك الباب الخاص ولحق بهم وكيل الحق العام وبعد نحو ربع ساعة خرجوا وأحضروا المحكوم عليه مع أحد أعوان الحاكم وقرأ الرئيس ورقة صغيرة بالحكم على الجانى ثم التفت الى الجماعة الجالسين عن يمينه وهم الجورى وسألهم عما ظهر لهم فوافقوه وانصرفوا جميعا وخرج المتفرجون اذ لم يكن ذلك اليوم الا تلك النازلة وقد أفهمنى وكيل الحق العام أن الحكم كان مهيأ من قبل لتمام النصاب بدون ذلك الشاهد غير أنه لما حضر تمم شهادته والمحكوم عليه جانى بتزوير السكة وكان جميع من حضر سكوتا بغاية التوقير للجاس وذلك الشعر الذى يضعونه عارية على رؤسهم الاصل فيه ان الملك لويس الرابع عشر كان ردىء الشعر فاتخذله عارية وكان اذذاك شيخا فاقتدت به أماثل البلاد وسرت منهم الى غيرهم من الامم وان قل استعمالها الآن الا فى المواكب الحافلة والقضاة ومن أهم ما يذكر فى أحوال الادارة الحكمية تنبيه الضابطية وهم الحارسون للبلدان وشدة تنقيرهم وبحثهم ومراقبتهم حتى يتمكنوا بسهولة على الجناة ومع هاتيك المراقبة والاحتراس الشديد يقع الاحتيال البليغ من الجناة لكى يتوصلوا الى غاياتهم وكثيرا ما يبلغون الها لكنهم أيضا كثيرا ما تنكشف أمرهم الضابطية وتتمكن منهم فقد ذكر ان

أحد الصيارفة الكبار في باريس كان جالسا يوما في محله واذا برئيس ضابطية باريس قد جاءه فاكرم مقدمه ورحب به فاخبره الرئيس انه محتاج لمبلغ وافر من المال لبعض المصالح غير انه لا يريد افشاء ذلك ولهذا أتاه بنفسه ليقرضه لمدة قصيرة ايهاما لضرورة المصلحة عاجلا مع رجوعها المتعلقات وظيفته فاقرضه ذلك المبلغ على نحو القواعد الجارية عندهم وكتب له خط يده فيه وانصرف فمضى الاجل ولم يأت المال لصاحبه فبعد ثالث يوم ذهب الصيرفي بنفسه الى رئيس الضابطية ودخل عليه وبعد السلام انتظره الرئيس فيما يقول لانه من العادات المتأكدة عندهم ان الزائر لا يؤخر الكلام في مقصد زيارته ولا يخوض في الفضول سيما لاصحاب الوظائف لان الزمان مقسم كما انه لا يدخل عليهم اثنان معا الدين بينهما علاقة في نازلة واحدة لكن الصيرفي اعتمد على علم الرئيس فيما هو مطلوب فيه ولم يذكر له شيأ فلما مضت بعض دقائق سأله الرئيس ما هي حاجتك فتعجب الصيرفي وقال انها ذلك المال الذي أتيت اليه بنفسك ولذا لم أرسل لك غيري فاستغرب الرئيس في سره وتلطف في السؤال بقوله ذكرني النازلة لانه علم أن الصيرفي من كبار الاغنياء المعتمدين ولا يقول كلاما مثل ذلك افتراء ويعلم من نفسه انه لم يذهب اليه فعلم أنه لا بد للامر من واقعة فبين له الصيرفي ما وقع منه الى أن قال له وكتبت خط يدك ففكر مليا وطلب منه التمهل بعض ايام أخر من غير كشف للسر الى أن يقع الخلاص فخرج الصيرفي أيضا مفكرا فيما رأى من الرئيس وفي نفس الجواب لان ذلك مخالف لعادة الاقراضات ثم ان الرئيس أعمل فكره بان النازلة لابد انها وقع فيها احتيال على الرجل من انسان مشابه للرئيس ثم دعا ضابط مركز الضابطية الذي بقرب دار الصيرفي وسأله هل رأيتني منذ كذا يوما قدمت الى ناحيتكم فقال نعم فقال في أي وقت فبين له الوقت وهيئة الركوب بانها على الوجه الرسمي من الابهة والملابس والعجلة فازداد تحققا لارتكاب الحيلة ثم سأله والى اين ذهبت فاجابه بانه ذهب لدار الصيرفي الفلاني وبقي عنده حصة كذا ثم خرج من عنده متوجها الى الجهة الفلانية فدعا الرئيس ضابط الجهة التي عينها الضابط الاول وأخبره بمثل ذلك وانه ذهب الى جهة كذا فدعا ضابطها أيضا وهكذا تتبع الحال الى ان أخبره الاخير بانك دخلت الدار الفلانية ثم رجعت العجلة خاوية وبقيت أنت هنالك ولم تخرج باللباس الرسمي فدعا بدفتر من سكن تلك الدار لان كل محل سكن فيه انسان لابد وان يقيد اسمه عند صاحب الباب أو عند صاحب منزل المسافرين وأحضر الناس الذين سكنوا في الوقت المعين في تلك الدار فوجد بينهم رجلا

يشبه

يشبه الرئيس فى الذات والوجه فدعاه منفردا وقال له أين المال الذى أخذته باسمى وان لم تظهره بطيب نفس أظهرته منك عن غير ارادتك كما أظهرتك أنت فلم يسعه الا الاقرار به ورجع الرئيس المال الى صاحبه معلما له بانه لم يستقرض منه وانه احتيل عليه فى ذلك ولهم من أمثال هاته الاحتيالات فى السرقات أمور كثيرة وساعدهم على ذلك تيسر احضار الوسائل مثل ما مر فى كون السارق تيسر له لبس مثل لبس رئيس الضابطية ووجد أيضا محلة ذات أبهة وخدمة مثل محلة الرئيس الى غير ذلك لان تلك الامور موجودة بسهولة كراء وشراء ولا منع من استعمالها الا ما كان منها من مشارات الحكومة الحامية أو غيرها فانه اذا كشف على المزور يعاقب ومع شدة الاحتراس والضبط على نحو ما ذكرناه فانك لا تكاد تجد رجالا بل وكثيرا من النساء يخرج بدون حمل سلاح صغير خفى كالحديد فى وسط عصا الاتكاء وكالطبانجة ذات الطاقات المتعددة موضوعة فى الجيب الى غير ذلك وهذا جار حتى فى نفس باريس وقد كنت مارا ليلة فى محلة مع أحد الوجوه ومع زوجه ذاهبين لدعوة عند فرديناند لسبس فاتح خليج السويس فسألتنى المرأة عن نوع السلاح الذى معى فاجبتها متعجبا بانى ليس معى سلاح وما الحاجة اليه وانا فى وسط باريس فقالت هى وزوجها الا بد من حمل شئ فان الوقائع فى باريس تحير الافكار ولذلك لا يخلو أسبوع بل وأقل منه بدون وجود مقتولين سيما فى نهر السين فانهم يجدون فى الشباك الموضوع فى أسفل النهر خارج باريس كثيرا من جثث المقتولين اما بقتل غيرهم أو بقتل أنفسهم وذلك لان كثيرا من الاهالى من يقتل نفسه لتسخط من أمر دنيوى غير ان هذا التخوف فى باريس لا يقع فى الطرق الشهيرة كالشانزيلزى والبلفار لكثرة المارة بها ومن عوائد حكمهم اغضاء النظر عن الزنى بحيث ان المومسات يتبرجن جهرة بلا معارض ولهن ديار تجمع اعدادا وافرة وديار لابناء الزنى الذين تلقيهم امهاتهم وأكثر التجاهر به فى باريس ودونك شاهدا على تفاحشه فقد حرر عدد النفوس سنة ١٢٩٧ ﻫ ١٨٨٠ م فكان المتزايد فى سائر فرانسا ٩٢٠١١٧ مولودا منهم ابناء زنا ٦٨٢٢٠ مولودا

مطلب

﴿فى المعارف﴾

(اعلم) أن المعارف الدنيوية فى فرانسا قد تناهت لاعلى درجة من الاتقان والاجتهاد

وما تقدم فى أحوال باريس وما فيها من المكاتب والكتب وجمعيات الفنون والحث عليها كاف فى بيان ارتقاء تلك الفنون فى فرانسا حتى أقر لها بذلك سائر الامم فى أوروبا وصار واعيالا عليها فى كثير من الفنون ومن ذلك فن الطب ومقدماته فان المعالجة بالمعادن بمجرد اللمس التى ذكرنا طرفا منها فى الباب الاول عند ذكر معالجة مرضى كان اطلع عليها أحد الاطباء الكيمياويين من النمساء ولكنه لم تقبل منه حتى قدم الى باريس واطلع عليها الحكيم شاركو وبعد تجربته لها واعطائه الشهادة والاجازة فيها اشتهر أمرها وتعاطتها الاطباء فى سائر الاقطار ومن أسباب الترقى فى المعارف عموما صناعة الطبع وقد تقدم فيها الفرانساويون الى الذروة القصوى وعندهم من الصحف الخبرية السياسية فقط مما يطبع فى مدينة باريس وحدها يوميا ستة وخمسون صحيفة يخرج من مجموعها يوميا ١١٠ ر٩٤٣ ر١ نسخة وهى منقسمة الى أحزاب السياسة فمن صحيفة واحدة تسمى لبتى جرنال يطبع يوميا ٥٨٣ر٨٢٠ نسخة وما عداها أقل كل على قدر رواجه ولا تكاد تجد سائق كروسة أو عجلة حمل بدون ان تكون عنده صحيفة يومية يقرأها وقد أطنب الاطناب الحسن فى بيان تقسيم العلوم وترتيب اقرائها وافادتها العلامة رفاعة بك رحمه الله ونعمه فمن أراد الوقوف على التفصيل فعليه بمراجعة رحلته المذكورة الى أوروبا

* والحاصل ان الفرانساويين محصلون على الدرجة العليا فى المعارف الدنياوية ولهم اعتناء بسائر الفنون فيترجمون الى لغتهم كل كتاب فى فن غير معروف أو غريب ويدرسون اللغات الاجنبية واللغات القديمة التى لم يبق من يعرفها وتوصلوا الى معرفة خطوطها بوسائل جيدة لكن مما ينبغى علمه أن مدرسيهم فى الفنون التى يقصرون فيها يستعوضون قصورهم بما لهم براعة فيه فترى مدرس العربية مثلا يخرج بادنى مناسبة لفظية الى علم الجغرافية ثم الى علم الاقتصاد السياسى ثم التاريخ ثم الهندسة ثم الكيميا ثم وثم الى أن ينقضى الزمان من غير ان يفيد حقيقة المقصود من بلاغة بيت شعر أو مثل مما هو موضوع البحث وتخرج تلامذته معجبين من براعة شيخهم وانه علامة العربية مع انه لا يعرف مزية تقديم المسند أو المسند اليه بل معادات الضمائر لا يحسنها فضلا عن الاعراب وذلك يوجب الجهل باصل الفن والغلط من العموم بظن تحصيلهم حقيقة للغة العربية وقل جدا من يحسنها مع أن فيهم المتفاخرين بعلم الترجمة بل والمدعين بالتأليف فيها ثم ان التعاليم لها مكاتب على طبقات ابتدائية ووسطى وانتهائية وعليا فالطبقة (الاولى) لا تكاد تجد قرية خالية منها والثانية والثالثة انما توجد فى المدن

الكبيرة

الكبيرة كمرشيليا (وأما الرابعة) فلا توجد الا في باريس والبها تأوى التلامذة بعد استكمال معارفهم على ان المثرين يؤثرون التعليم من البداية في باريس بل ولا يختص هذا باهل فرانسا فان الكثير من ممالك المشرق وبعض غيرها يرسلون ابناءهم للتعلم بها وفضلا عن الفخر بالعلم يفتخر بالتعلم بها وهى جديرة بذلك لولا طيش في اخلاق غالب المتعلمين بها من الغرباء سيما المسلمين فانهم يحدث لهم فساد في اخلاقهم لخروجهم عن الطور والادب الداعى له العرض والدين وكان سبب ذلك رؤيتهم بها كثرة الخلاعة والاطلاق والنفوس مائلة الى الخبائث نسأل الله التوفيق ومن أسباب ترقى المعارف كثرة الكتب وسهولة التوصل اليها ففي فرانسا ٥٠٠ مكتبة تحتوى على ٤٫٥٩٨٫٠٠٠ كتابا من الكتب المطبوعة و ١٣٥٫٠٠٠ من كتب الخط ومكتبة الامة في باريس هى أكبر الجميع ففيها ٣٫٠٧٨٫٠٠٠ مجلدا

مطلب

﴿في الصنائع﴾

(الصنائع) في فرانسا مضاهية لما فيها من المعارف والفلاحة فهى متقدمة للغاية علما وعملا بحيث ان لها مدارس عديدة تأوى اليها التلامذة من الآفاق لاخذ علومها بالتدريس والمشاهدة وكل مدرسة تحوى من آلات العمل وآلات العلوم الآلية للفلاحة كالطبيعيات جميع ما يحتاج اليه وهكذا سائر الصنائع بحيث أن مصنوعاتها متقنة ظريفة للغاية يرغب فيها في سائر الاقطار لظرفها وتحسينها ورونقها وان كانت بعض الاقطار أمتن صناعة وفرانسا جامعة لكل الصنائع المعروفة في العالم حتى الخزف الصينى والمنسوجات الكشميرية يقلدعلها في فرانسا ويؤتى بالمصنوع مشابها للاصل وقد برعوا في الآلات بانواعها سيما الكهربائية وقد خصوا لها معرضا سنة ١٢٩٨ ﻫ ١٨٨١ م لامتحان ما أثمرت من الفوائد وقد رأيت سنة ١٢٩٥ ﻫ ١٨٧٨ م آلات غريبة كهربائية منها آلة يمكن بها رؤية ما في داخل المعدة بان تؤخذ قناة جيدة من الاصطيك وطرفها زجاج وتدخل في الحلق الى ان تصل للمعدة ويجعل في أعلى الحلق مقابل المعدة مرآة صغيرة ومقابلها على اللسان مثلها ثم يدخل في القناة سلك معدنى لين الى ان يصل الى الزجاج الذى في المعدة ثم يوصل بالسلك من خارج أسلاك الكهرباء المضيئة فيضئ السلك في المعدة من غير احراق ويرتسم خيال المعدة بما فيها في المرآة

العليا ويرتسم مثله منها في المرآة التي على اللسان وينظر الطبيب بالمرآة المكبرة ماتزيد وبمثل ذلك ينظر في الرحم وداخل الاذن والحلق ورأيتهم بصدد تجربة جر الاثقال بالكهرباء وأروني آلة صغيرة تغلب قوة الانسان الجيد اذا كان قابضا بيديه تقدمها والعكس باسرع وقت فلا يبعد ان تطال تلك الآلة على طريق مناسب وينقل بها الاشياء من مكان الى آخر وان بعدا مع تدبير لحفظ الجسم من خرق الهواء في السرعة المحرقة وقد رأيت سنة ١٢٩٨ ه‍ ١٨٨١ م سيرا رتل صغير للتجربة بالكهرباء على وجه آخر كما ذكرنا في أحوال ايطاليا ورأيت في باريس أيضا مسامك مصورة باشكال حيوانات تحرك أعضاؤها وعيونها بالكهرباء مع صغر جرمها حتى يوضع المسامك من الذهب في رأس المرأة والآلة الكهربائية تخفى في الشعر ويرى الحيوان متحركا ومنه صورة فراش بالوانه البديعة من أحجار الزمرد والياقوت الاحمر والابيض وغير ذلك من الاحجار الكريمة المطابقة لالوان أجنحة الفراش وهو يخفق باجنحته الاربع فوق الرأس بالكهرباء وهو غريب بديع جدا

مطلب

﴿في هيئة المساكن والطرقات﴾

قد تقدم في ايطاليا الهيئة العامة في المساكن وهاتيك الهيئة بنفسها هي التي عليها العمل في فرانسا غير أن باريس وحدها تزيد رونقا بما احتوت عليه من كثرة الطرقات المتسعة جدا وبكثرة التنظيف والتنوير في الليل كما انها تختص بان بعض طرقها مستعوض عن تبليطه أو تحصيبه بطليه بنوع صمغي يسمى اسفالت بحيث يكون بعد الجفاف رخوا فاذا مرت عليه العجلات لا تسمع لها الاهمسا وتسمع قرع حوافر الخيل على الارض كالتصفيق المغطوط مع مزيد الهدو للركاب حتى كان العجلة لا تحرك فتلك الطرق مروحة جدا غير انها لم تعمم لانها في الصيف تفشو منها رائحة كريهة ولانها في الطرق الكثيرة المرور تعطب فيها العجلات المارة بسبب عدم سماع حركتها وامكان الغفلة من الجانبين هذا (وأما) عموم البلاد والقرى فان لكل منها مجلسا بلديا بادابه التحسين والتنوير في الليل بالبخار الغازي أو زيت النفط وهو قليل الاستعمال أو بالكهرباء وهي أيضا لم يزل التنوير بها قليلا ولكنك لا تجد قرية غير منورة الطرق أو غير مصنوعتها على حسب اقتدار الاهالي فضلا عن المدن والامصار وكل طريق مسمى

باسم

باسم مكتوب على مبدئه وعلى كل باب عدد خاص ثم ان طرق الحديد يوجد منها كثير حتى صارت فرانسا مرتبطة جميع الاطراف والاواسط ببعضها وعلى حافتى الطريق اخشاب شاخصة مربوط بها اسلاك حديدية علامة على حرم الطريق لكى لا يجتازه الناس ولا حيوانا تهم ولا زالوا مجتهدين فى تكثير هاته الطرق الحديدية ثم ان مساكن الجهات الشمالية أحكم استعدادا للبرد من الجهات الجنوبية وان كان لهاته أيضا نصيب وافر منها بحيث لا تجد بيتا فى الجميع بدون موقد اما للحطب أو للفحم المعدنى أو البخار الغازى بل وبعضهم يطبخون بهذا البخار وقدمران فى باريس اخترعوا التدفئة للديار من مركز عام فى البلد ثم ان سائر الديار لا يبلط منها بالرخام أو غيره من الاحجار الا الدرج والمجازات الخارجة (وأما) بقية البيوت والمقاصير فانها مبلطة بالخشب المتين وتحسينه وزخرفته تبع لحالة الدار وكل الطواقى التى هى مثل الابواب فى الارتفاع والانتهاء الى الارض لها أبواب من خشب منجور ولها أبواب نحو ثلثها الاسفل خشب وثلثيها العلوى بين ذوى أطباق من الزجاج وأكثر الطواقى لها مع ذلك أيضا أبواب من أضلاع الخشب المنجور مقصبة يحرك تقصيبها وكل تلك الابواب ذو دفتين ينفتحان يمينا وشمالا (وأما الحمامات) فهى عبارة عن ديار ذات مجازات طويلة بها عدة مقاصير صغيرة كل منها يحتوى على حوض من معدن أو حجر له منفذ من أسفل يخرج منه الماء الوسخ وله أنبوبان للماء الحار والبارد وتحتوى على كرسى ومسطبة ومرآة ومشط وأرضها مفروشة بزرابى والاغتسال انما هو فى الحوض وكل الاهالى يعتنى بتنظيم مفروشات بيته على قدر سعته والاغنياء لهم ترف زائد فى الاثاث والتحف وفى المدن الكبيرة يقيمون أسواقا فى يوم خاص من كل اسبوع فى الحارات المتطرفة وحوانيتها من خشب أو كتان تنصب فى الطرق الوسيعة وترفع فى يومها يباع بها أنواع الاكل من لحم وبقول وفواكه وبعض تحف وثياب يشترى منها أهل تلك الحارات كفايتهم للاسبوع

مطلب

﴿فى اللبس﴾

اللبس فى فرانسا وفى ايطاليا سواء عند الرجال والنساء وكذلك اللبس الرسمى والعسكرى الا بعض شارات والوان فى الملبوسات تختلف بينهم (أما أصل) الهيئة فواحدة وحيث كانت الرفاهية فى الفرانساويين أزيد فتجد نساءهم أكثر تبدلا فى لون اللباس وشكله

ورفعته على الجملة كما انهن أزيد أيضا فى وضع دقيق أبيض وأدهان أخر على وجوههن قصد التزين وان كان ذلك يورث فسادا فى البشرة وأكثر ذلك العمل فى نساء باريس وتراهن يتفاخرن بالنحول واصفرار اللون لانه كثيرا ما يحدث من كثرة السهر أو العشق وكلاهما ممدوح عندهم لان السهر ينشأ من اجتماع الاحبة والاجتماع يستدعى المصاريف فهو علامة على الغنى بالوسائط كما ان من علامة الكبرياء ان تكون خدمة البيتوتات فى المحافل يذرون على رؤسهم غبارا أبيض والاصل فيه ان بعض المغنين كانوا يغنون فى موسم صان جرمان بخارج باريس وبهم قرع فبيضوا رؤسهم لئلا يضحكوا الناس فتدرجت العادة شيأ فشيأ الى ان فشت سنة ١٦١٤ ثم فى سنة ١٧٩٠ جعلت عليه ضريبة للدولة واستمرت الى الآن

مطلب

﴿فى الاكل﴾

هيئة الاكل فى فرانسا هى الموجودة فى ايطاليا على السواء وكذلك المأكولات سواء غير ان طعام الفرانسيس أكثر أشكالا وألذ طعما لجعلهم الابزرة فى الطبخ أحسن من الطليان ولذلك تجد لطعامهم رائحة لذيذة مثل رائحة طعام العرب (وفى المدن) توجد انواع الخبز على مراتب شتى ولهم نوع يؤكل صباحا مع اللبن والزبدة جيد جدا صنعة وصفاء وطبخا وفى خصوص باريس جميع أنواع الاطعمة المتداولة بين الامم الشهيرة وان كانت بأثمان غالية فقد أخبرت فيها بوجود مطبخ خاص باطعمة الترك والعرب وأوتيت منه بصحن كبير ملوا كسكسوا بلحم الدجاج وصحن آخر بالبسامية المعروفة فى تونس بالقناوية وثمنهما مع أجرة الحمل اثنان وأربعون فرنكا وهما يكفيان لشبع ستة أنفس طبخهم الذيذ على نحو الاصل كما انك تجد فيها جميع الغلال من جميع الاقطار لاى وقت كان بل قد أتوا بعشوش نوع من الخطاف فى الهند والصين يصنع عشه بنبات بحرى ويطبخونه ويأكلونه أعنى ذات العش بما احتوى عليه من زرق افراخ الخطاف ويستلذونه ويمدحونه وأغرب من ذلك انهم يأكلون الضفادع ويستلذونها أيضا بحيث يصح ان يقال انهم يأكلون كل ما يؤكل ولا يكون قتالا أو مضرا عاجلا غير ان الاكل العام هو الدقيق من القمح ولحم البقر وللفقراء لحم الخيل أيضا والضان أقل استعمالا من البقر وفى القرى وشبهها يأكلون الشعير والذرة والبطاطس والفقراء أكثر استعمالا للخنزير

من

من الاغنياء والاكل فى القرى والبلاد الصغيرة أسلم من المدن والامصار من الغش بالخلط للاشياء المضرة كالقهوة مثلا لا تكاد تجد قهوة فى باريس مطبوخة غير مخلوطة بالمريس وهو نوع من البقول ثم ان أهل المدن لا يصنعون الخبز فى بيوتهم ولا يدخرون الاقوات وكل شئ يشترى من السوق يوميا الا قليلا من السكر ونحوه ويشترى اسبوعيا أوشهريا والالحوم المشوية أو المقلية يجعلون فى نوع منها قطعا صغيرة من شحم الخنزير بحيث يشاهد عيانا كالمسامير فى اللحم وبعض الطيور يشوونها ويجعلون عليها نحو ورداء من الشحم المذكور كما يجعلونه أحيانا فى بعض أنواع المرق فى ألوان الطعام الذى يكون مع اللحم شئ من المرق وكيفية الذكاة فى أوروبا عموما حسبما علمت ان البقر بعد ان يربط من قرونه يمينا وشمالا ومن ارجله أيضا حتى لا يستطيع الحراك وهو واقف يضرب على جبهته بطرقة عظيمة من الحديد ضربة أو اثنتين حتى يغمى عليه فيذبح ويجمع دمه ليعمل منه نوع من الاكل فى المصارين وبعضهم يكتفى بالقتل بالضرب على الرأس لكنه نادر وقد أبطل فى ايطاليا منذ سنة ١٢٩٨ والزم الحكم بالذبح بحيث لا يباع غير المذبوح (وأما الغنم) وشبهها فتذبح ابتداء (وأما الطيور) فالاوز ودجاج الهند وأشباهها ماهو طويل العنق فيذبح ذبحا (وأما الدجاج) فيجذب عنقه الى ان ينقطع النخاع فيموت وينحصر الدم نحو الدماغ فيجمد ويؤكل على حدة (وأما الحمام) فالاكثر ذبحه وتارة يخنق وتارة يكسر ظهره مع قطع النخاع فيموت واذا تقرر هذا فلنذكر حكم طعامهم شرعا فطعامهم اما ان يكون من الخنزير ومثله الحيوانات المحرمة عندنا كالسباع واما ان يكون من الحيوانات المذكاة أى التى هى حلال عندنا وانما يتوقف أكلها على التذكية واما ان يكون من غير ذلك من المأكولات كالنباتات والمعادن والسمك وكل منها اما ان يتخذ لعادة كسائر المأكل المعتادة أو يتخذ لعبادة كالمتخذ لخصوص أعياد أو متخذ لخصوص هدية لمسلم فهذه تسع صور حاصلة من ضرب ثلاث فى ثلاث وكل منها اما ان يكون محققا العين أو مشكوكا فيه فتصير ثمانى عشرة صورة وها أنا أذكرها اجمالا مع أحكامها ثم نورد أدلة الحكم

١	٢	٣	٤
١ الخنزير وشبهه محققا العادة حرام ١ مـ	٢ هو العبادة محققا حرام ٢ مـ	٣ هو الهدية محققا حرام ٣ مـ	٤ مشكوك فيه لعبادة مكروه ١ هـ
٥ مشكوك فيه لهدية مكروه ٢ هـ	٦ مشكوك فيه لعادة مباح ١ حـ	٧ المأكولات غير المذكاة محققة للعادة مباحة ٢ حـ	٨ هي محققة لهدية مباحة ٣ حـ
٩ هي محققة لعبادة مكروهة ٣ هـ	١٠ هي مشكوك فيها العادة مباحة ٤ حـ	١١ هي مشكوك فيها الهدية مباحة ٥ حـ	١٢ هي مشكوك فيها العبادة مكروهة ٤ هـ
١٣ اللحوم المذكاة محققة للعادة مباحة ٦ حـ	١٤ هي محققة لعبادة مكروهة ٥ هـ	١٥ هي محققة لهدية مكروهة ٦ هـ	١٦ هي مشكوكة للعادة مباحة ٧ حـ
١ ـــ م	١٧ هي مشكوكة لعبادة مكروهة ٧ هـ	١٨ هي مشكوكة لهدية مكروهة ٨ هـ	١ ـــ م

فأما

فأما الدليل على تحريم المسائل الثلاثة الاول فهو واضح لحرمة تلك الاعيان بالنص ولا حاجة الى بسطه لمعلوميته للجميع ولما كانت أحكام الشرع كلها منوطة بحكمة فما ادركناه قلنا انه معقول وما لا قلنا انه تعبدى مع العلم بانه فيه مصلحة لنا لتنزه البارى تعالى عن الاحتياج وانما قصور عقولنا أوجب عدم الادراك ومهما بحثنا ودققنا النظر الازددنا خبرة وبصارة بحكم الشرع فمن ذلك القبيل ما اكتشف بالنظارات المكبرة والتحليلات الكيماوية من ان فى لحم الخنزير حيوانات مضرة تورث أمراضا معضلة جدا وتلك الحيوانات مندرجة فى لحمه لا تموت بالطبخ ولا بغيره فاذا أكل لحم الخنزير سرت تلك الحيوانات فى دم آكله وأضرته وأهالى أوروبا اكتشفوا ذلك واحتمى كثير منهم عن أكله (فنحمد الله) على شرعنا القويم ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير (واما دليل) مسائل الكراهة الثمانية وهى ٤ و ٥ و ٩ و ١٢ و ١٤ و ١٥ و ١٧ و ١٨ فاصل الحلية اما بأصل الاباحة فى غير المذكى أو باباحة طعامهم فى المذكى على ماسيأتى وانما أتت الكراهة من حيث الاشعار بالتعظيم لشعائر الكفر فى المتخذ للاعياد وكلما أشعر بذلك مكروه (أما) اذا قصد التعظيم فينتقل الحكم الى الكفر والعياذ بالله والمشكوك داخل فى ذلك كما سنوضحه والكراهة فى المذكى المتخذ للهدية جاءت من الخلاف فى حليتها حيث قال بعض العلماء ان النص دال على حلية طعامهم وما يتخذ للهدية لمسلم ليس بطعام لاهل الكتاب فلا يشمله النص وهذا القول وان لم يكن هو المعتمد عند غالب العلماء لكن مراعاته توجب كراهة التنزيه على ان لقائل ان يقول ان أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشاة المسمومة التى أهدتها له يهودية دليل على الاباحة وشمول النص للهدية فتنتفى الكراهة وهو مقتضى اطلاق النصوص الفقهية عندنا كما يأتى (وأما دليل) الاباحة للمسائل السبعة وهى ٦ و ٧ و ٨ و ١٠ و ١١ و ١٣ و ١٦ فما كان منها من غير مذكى فهو مباح بأصل الاباحة التامة لان كل ما لا تذكية له لا يتوقف على شئ مبيح سواه عدم المضرة والطهارة فهو من المسلم وغيره على السواء والاصل الطهارة حتى يتحقق النجاسة والشك فى كونهم لا يتحرون من النجاسة غير عامل كما كما صرح به شيخ الاسلام بيرم الرابع فى جواب سؤال عن جواز التيمم فى بلاد الحرب للشك فى مياههم وأوانيهم من حيث عدم اتقاء النجاسة فقال بعد ذكر حكم التيمم وهذا كله مبنى على نجاسة مياه أولئك القوم وأنى لنا بذلك ومجرد احتمال عدم التوقى غير مفض

الى الجزم بالنجاسة بل لابد من تحققها أو غلبة الظن بها ومن ثم جاز تناول طعام أهل الكتاب واستعمال أوانيهم ولبس الثياب المجلوبة من بلاد الكفر بل المشتراة منهم بعد لبسهم لها كل ذلك حملا على الاصل الذى هو الطهارة حتى يثبت ضدها الخ وفى حواشى الدر للسيد ابن عابدين (رضى الله عنه) من كتاب الذبائح مانصه أقول وفى بلاد الدروز كثير من النصارى فاذا جىء بالقريشة أو الجبن من بلادهم لا يحكم بعدم الحل مالم يعلم أنها معمولة بانفحة ذبيحة درزى والا فقد تعمل بغير أنفحة وقد يذبح الذبيحة نصرانى تأمل الخ والاصل فى هذا ماصرح به فى قواعد الاشباه من قاعدة اليقين لا يزول بالشك والمتيقن فى أصل الاشياء الطهارة فلا تزول بالشك فى المطعومات التى ليست بمحل للتذكية ويوافقنا على ذلك مذهب مالك رضى الله عنه فقد نقل عنه أنه سئل عن الجبن الذى يؤتى به من بلاد الروم وقد قيل انه يعمل بانفحة الخنازير فقال أما أنا فلا احرم حلالا (وأما) ان كرهه الانسان فى نفسه فلا أرى بذلك بأسا فأنت ترى تصريحه بالحلية وتبريه من التحريم وانما جعل اجتنابه من الورع وهذا فى المذكى فما بالك بغيره ولا يرد على هذا قاعدة اذا اختلط الحرام والحلال غلب الحرام الحلال المذكورة فى الاشباه لان ذلك فيما اذا تيقن وجود الحرام كاختلاط أشياء نجسة بأخرى طاهرة وكل منهما محقق الوجود غير أنه ليس معلوما بعينه واستويا أو كان النجس أكثر فانه تغلب الحرمة للجميع أما اذا كان الطاهر أكثر فيتحرى ويستعمل ماغلب على الظن طهره (وأما) مسئلتنا فان موضوعها كون الذات المعينة التى أصلها الطهارة وقع الشك فيها هل طرأت عليها النجاسة أم لا (وأما ما كان) من مسائل الاباحة مما لا يحل أكله الا بالتذكية (فالدليل) على الحلية فيه ماذكر فى الدر فى كتاب الذبائح حيث قال وشرط كون الذابح مسلما حلالا خارج الحرم ان كان صيدا أو كتابيا ذميا أو حربيا الا اذا سمع منه عند الذبح ذكر المسيح الخ قال محشيه السيد ابن عابدين قوله الا اذا سمع الخ فلو سمع منه ذكر الله تعالى لكنه عنى به المسيح قالوا يؤكل الا اذا نص فقال بسم الله الذى هو ثالث ثلاثة حاشا اه هندية وأفاد أنه يؤكل اذا جاء به مذبوحا عناية كما اذا ذبح بالحضور وذكر اسم الله وحده والذى علمناه من حالهم الآن انهم لا يسمون شيأ بل واللحم يوجد فى بلاد أغلب أهلها متدينون بالنصرانية سيما فقراؤهم كالقصابين وفى مثل ذلك يحمل على حالة الجواز لما قال فى الدر فى آخر الحظر والاباحة من قوله فعلم ان العلم بكون الذابح أهلا للذكاة ليس بشرط الخ ويؤيده تصريح محشيه فيما نقلناه سابقا فى مسئلة القريشة والجبن بل وسيأتى

النقل

النقل بجواز ما لم يسم عليه أو سمى غير الله تعالى اذا كان الذابح كتابيا وفى تنقيح الحامدية أول الذبائح ما نصه سئل فى ذبيحة الذمى الكتابى هل تحل مطلقا أولا (الجواب) تحل ذبيحة الكتابى لان من شرطها كون الذابح صاحب ملة التوحيد حقيقة كالمسلم أو دعوى كالكتابى ولانه مؤمن بكتاب من كتب الله تعالى وتحل مناكحته فصار كالمسلم فى ذلك ولا فرق فى الكتابى بين أن يكون ذميا يهوديا او نصرانيا او حربيا أو عربيا أو تغلبيا لاطلاق قوله تعالى وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم والمراد بطعامهم مذكاهم (قال البخارى رحمه الله) فى صحيحه (قال ابن عباس) رضى الله عنهما طعامهم ذبائحهم ولان مطلق الطعام غير المذكى يحل من أى كافر كان بالاجماع فوجب تخصيصه بالمذكى وهذا اذا لم يسمع من الكتابى أنه سمى غير الله تعالى كالمسيح والعزيز وأما لو سمع فلا تحل ذبيحته لقوله تعالى وما أهل به لغير الله وهو كالمسلم فى ذلك وهل يشترط فى اليهودى أن يكون اسرائيليا وفى النصرانى أن لا يعتقد ان المسيح اله مقتضى اطلاق الهداية وغيرها عدم الاشتراط وبه أفتى الجد فى الاسرائيلى وشرط فى المستصفى لحل مناكحتهم عدم اعتقاد النصرانى ذلك وكذا فى المبسوط فانه قال ويجب أن لا يأكلوا ذبائح أهل الكتاب ان اعتقدوا أن المسيح اله أو أن عزيرا اله ولا يتزوجوا نساءهم لكن فى مبسوط شمس الائمة وتحل ذبيحة النصرانى مطلقا سواء قال ثالث ثلاثة أولا ومقتضى الدلائل واطلاق الاية الجواز كما ذكره التمرتاشى فى فتاواه والاولى أن لا يأكل ذبيحتهم ولا يتزوج منهم الا للضرورة كما حققه الكمال قال العلامة قاسم فى رسائله قال الامام من دان دين اليهود والنصارى من الصابئة والسامرة أكل ذبيحته وحل نساؤه (وقد حكى) عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه كتب اليه فيهم أى فى أحدهم فكتب مثل ما قلنا فاذا كانوا يعترفون باليهودية والنصرانية فقد علمنا أن النصارى فرق فلا يجوز اذا جمعت النصرانية بينهم أن نزعم أن بعضهم تحل ذبيحته ونساؤه وبعضهم يحرم الا بخبر يلزم ولا نعلم فى هذا خبرا فمن جمعته اليهودية والنصرانية فحكمه حكم واحد اهـ وعلى هذا النص وماذكر فى الهندية وغيرها والسند للفقهاء فى هذا الحكم وهو قوله تعالى وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم والذى رأيته فى الكشاف والبيضاوى وروح البيان وتفسير أبى السعود والرازى يفيد ماذكر فى تفسير فتح البيان لسلطان بهوبال مع زيادات مفيدة فى هذا فاقتصر على ماذكر فيه قال والحاصل ان حل الذبيحة تابع لحل المناكحة والطعام اسم لما يؤكل ومنه الذبائح وذهب أكثر أهل العلم الى تخصيصه هنا بالذبائح ورجحه الخازن وفى هذه الآية دليل

على ان جميع طعام أهل الكتاب من غير فرق بين اللحم وغيره حلال للمسلمين وان كانوا لا يذكرون اسم الله على ذبائحهم وتكون هاته الآية مخصصة لعموم قوله تعالى ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وظاهر هذا ان ذبائح أهل الكتاب حلال وان ذكر اليهودى على ذبيحته اسم العزير واليه ذهب أبو الدرداء وعبادة ابن الصامت وابن عباس والزهرى وربيعة والشعبى ومكحول وقال على وعائشة وابن عمر اذا سمعت الكتابى يسمى غير الله فلا تأكل وهو قول طاوس والحسن وتمسكوا بقوله تعالى ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ويدل عليه أيضا وما أهل به لغير الله وقال مالك انه يكره ولا يحرم وسئل الشعبى وعطاء عنه فقالا يحل فان الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون فهذا الخلاف اذا علمنا ان أهل الكتاب ذكروا على ذبائحهم غير اسم الله وأما مع عدم العلم فقد حكى الطبرى وابن كثير الاجماع على حلها لهذه الآية ولما ورد فى السنة من أكله صلى الله عليه وسلم من الشاة المصلية التى أهدتها اليه اليهودية وهو فى الصحيح وكذلك جراب الشحم الذى أخذه بعض الصحابة من خيبر وعلم بذلك النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى الصحيح أيضا وغير ذلك الى ان قال وقال القرطبى وجمهور الائمة ان ذبيحة كل نصرانى حلال سواء كان من بنى تغلب أو غيرهم وكذلك اليهود قال ولا خلاف بين العلماء ان ما لا يحتاج الى الذكاة كالطعام يجوز أكله الخ فتحصل مما مر حلية المسائل السبعة المذكورة من الطعام وان الشك غير مؤثر فيها فان قلت قد ذكرت ان بعض الطيور يخنقونها ويأكلونها بلا ذبح وان بعض الاطعمة يجعل فيها شحم الخنزير فكيف الحكم فى ذلك (فالجواب) أما الطعام الذى يتحقق فيه شحم الخنزير أو لحمه فهو حرام بالنص على نجاسة ذاته كما مر وطريق الوصول الى التحقق اما برؤية ذاته من الآكل فيما نتبين فيه أو بغلبة الظن فى الالوان التى جرت العادة بوضعه فيها أو باخبار الطابخ أو المناول بان يسئله الآكل هل فى هذا شئ من لحم الخنزير أو شحمه فان أخبره بالوجود امتنع والا حل لان خبره مقبول فى المعاملات وان كان كافرا كما نص على ذلك فى كتاب الحظر والاباحة من دواوين الفقه وصوروها بقول الكافر اشتريت اللحم من كتابى فيحل أو من مجوسى فيحرم وصرحوا بانه وان آل خبره الى ديانة يعمل به بخلاف ما اذا أخبر أولا عن حكم دينى كقوله هذا طاهر أو نجس أو حلال أو حرام لجهله بذلك بخلاف المعاملات وهذا السؤال انما هو على وجه الورع والا فالاصل فيما لم يتحقق فيه شئ من النجاسة هو الطهارة كما مر وينبغى ان يعلم انهم لا يقصدون الآن غش المسلم بأكله المحرم عليه كما يتوهم بعض العامة اذ عندهم الاخبار بذلك

بذلك كله ولهم هو لحم دجاج أو لحم أوز ولا يعنيهم أمر الحرمة والحل عند المسلم بل جمهورهم لا يدري شيأ من ذلك (وأما) مسئلة الخنق فان كان لمجرد شك فلا تأثير له كما تقدم وان كان لتحقق فلم أر حكم المسئلة مصرحا به عندنا وقياسها على تحقق تسمية غير الله انها محرمة عند الحنفية وأما عند من يرى الحل في مسئلة التسمية كما هو مذهب جمع عظيم من الصحابة والتابعين والائمة المجتهدين فالقياس عليها يفيد الحلية حيث خصصوا بآية وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم آية ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وآية وما أهل به لغير الله وكذلك تكون مخصصة لآية المنخنقة ويكون حكم الآيتين خاصا بفعل المسلمين والاباحة عامة في طعام أهل الكتاب اذ لا فرق بين ما أهل به لغير الله وما خنق فاذا أبيح الاول فيما يفعله أهل الكتاب كذلك الثاني وقد كنت رأيت رسالة لاحد أفاضل المالكية نص فيها على الحل وجاب النصوص من مذهبه بما ينثلج به الصدر سيما اذا كان عمل الخنق عندهم من قبيل الذكاة كما اخبر به كثير من علمائهم وان المقصود التوصل الى قتل الحيوان بأسهل قتلة للتوصل الى أكله بدون فرق بين طاهر ونجس مستندين في ذلك لقول الانجيل على زعمهم فلا مرية في الحلية على هاته المذاهب فان قلت كيف يسوغ تقليد الحنفي لغير مذهبه قلت أما ان كان المقلد من أهل النظر في الادلة وقلد الحنفي عن ترجيح برهان فهذا مما يقال انه لا يسوغ له ذلك وأما اذا كان من أهل التقليد البحت كما هو في أهل زماننا فقد نصوا على جميع الائمة بالنسبة اليه سواء والعامي لا مذهب له وانما مذهبه مذهب مفتيه وقوله انا حنفي أو مالكي كقول الجاهل انا نحوي لا يحصل له منه سوى مجرد الاسم فبأي العلماء اقتدى فهو ناج على ان الكلام وراء ذلك فقد نصوا على الجواز والوقوع بالفعل في تقليد المجتهد لغيره والكلام مبسوط في ذلك في كثير من كتب الفقه وقد حرر المبحث أبو السعود في شرح الاربعين حديثا النووية وألف في ذلك رسالة عبد الرحيم المكي فليراجعهما من اراد الوقوف على التفصيل فان قيل قد ذكرت ان الخنزير محرم وان كان من طعامهم فلماذا لا يجعل مخصصا بالحلية أيضا بهاته الآية أي آية طعامهم واذا جعلت آية تحريمه محكمة غير منسوخة فكذلك تكون المنخنقة ولماذا تقيسها على مسئلة التسمية ولا تقيسها على مسئلة الخنزير وأي مرجح لذلك (فالجواب) ان المأكولات منها ما حرم لعينه ومنها ما حرم لغيره فالخنزير وما شاكله من الحيوانات محرمة لعينها ولهذا تبقى على تحريمها في جميع أطوارها وحالاتها (وأما) متروك التسمية أو ما أهل به لغير الله والمنخنقة فان التحريم أتى فيه لعارض وهو ذلك الفعل

ثم أتى نص آخر عام في كل طعام أهل الكتاب وانه حلال فاخرج منه محرم العين ضرورة وبالاجماع أيضا وبقى المحرم لغيره وهو مسئلتان احدهما مسئلة التسمية والثانية مسئلة المخنقة فبقيتا في محل الشك لتجاذب كل من نصي التحريم والاباحة لهما فوجدنا احداهما وهى مسئلة التسمية وقع الخلاف فيها بين المجتهدين من الصحابة وغيرهم وذهب جمع عظيم منهم الى الاباحة وبقيت مسئلة المخنقة التى يتخذها أهل الكتاب طعاما لهم مسكوتا عنها فكان قياسها على مسئلة التسمية هو المتعين لاتحاد العلة (وأما قياسها) على مسئلة الخنزير فهو قياس مع الفارق فلا يصح اذ شرط القياس المساواة وانما اطلنا الكلام فى هذا المجال لانه مهم فى هذا الزمان وكلام الناس فيه كثير والله يؤيد الحق وهو يهدى السبيل

مطلب

﴿فى المواكب﴾

(اعلم) ان المواكب الرسمية فى أوروبا عموما متشابهة وقد تقدم ذكر حالتها فى ايطاليا فلا داعى لاعادتها هنا غير انه ربما يشكل على القارئ شئ وهو ان فرانسا ليس لها الآن ملك فمن هو مناط المواكب الرسمية فاعلم ان دعواهم فى الجمهورية انها خالية عن الملك هو أمر وهمى لان وظيفة الملك كانها أمر ضرورى لا مندوحة عنه حتى وقع الخلاف بين علماء الكلام هل أن الملك واجب بالعقل أو السمع فقط واحتج القائلون بانه واجب سمعا بانا نجد أمما عائشون على وجه من الاستقامة بدون ملك وكل ذلك أمر وهمى ولا مجال للخلاف فى المسئلة اذ اقامة الملك أمر طبيعى لا يمكن الاستقامة بدونه وما ذكره المحتج من وجود أمم الخ هو كاف فى الرد عليه لانه معترف بان تلك الامم أو القبائل تنقاد الى رؤسائها فالخلاف حينئذ انما هو فى اللقب وفى تحديد السلطة أو اطلاقها وكذلك حالة الجمهورية فى بعض الممالك الآن لان من يقيمونه رئيسا لها ما هو فى الحقيقة الا ملك عليهم لمدة معينة وتصرفه مقيد بحدود معينة فلا مندوحة لهم حينئذ عن الاقرار بوجوب الملك والانقياد اليه وغاية أمرهم هو اختلاف اللقب وزيادة الابهة والعظمة أما أصل التوقير والسمع والطاعة والانقياد له فكله موجود عندهم فرئيس الجمهورية يفعل جميع ما يحتاج فيه الى الملك من مراسم المواكب وغيرها غير انه أقل أبهة وضخامة من الملوك فى اللبس والاعوان وأما بقية المواكب الاعتيادية فهى

كما مر ذكره فى ايطاليا وقد دعونى فى سنة ١٢٩٢ للفرجة على موكب دفن اثنين من الجنرالات ماتا سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٧٠ م فى حرب الكومون أى الاشتراكيين فى باريس وكانت جثتهما مصبرة فى صناديق بكنيسة ايزان فاليد المدفون بها بونابارتى الاول وأعدوا لهما موكبا حافلا باحضار جم غفير من العساكر المشاة والخيالة والطبجية بمدافعهم وقرقوا فى البطحاء الكبيرة أمام الكنيسة وغصت سائر الطرقات والميادين بالخلائق المتفرجين وامتلأ داخل الكنيسة بالاعيان المدعوين وكانت فوانيسها موقودة والشموع الكثيرة مسرجة وكبار القسوس حول المعبد يرطنون بالحان ونغمات تمديديه تميل الى الحزن يتفننون واحدا فواحدا ولهم سكتات فى الوسط يضج فيها قوم من صغار القسوس جالسين فى رواشن عالية محيطة بداخل الكنيسة ويلحنون ترطينهم بانغام أيضا شبيهة السافلين وهكذا الى ختام أدعيتهم ثم حملوا الجنازتين المكسوتين تابوتيهما بلباس أصحابهما الرسمى ووضعتا فى عجلات معدة لذلك مزينة بالازهار وتقصيب الذهب والفضة وسارت العساكر بمدافعهم فى المقدمة ومن ورائهم الجنازتان ومن ورائهما بقية المشيعين ركوبا فى كراريس سود وسرج الخيول أسود والخيل سود ولباس الركاب أسود وذهبوا الى المقبرة وكانت المدافع تطلق بعد كل خمس دقائق كل ذلك اظهار اللعناية بمن نفع وطنه منهم ترغيبا لمن يسلك ذلك المسلك وعلى نحو من ذلك رأيت سنة ١٢٩٥ هـ ١٨٧٨ م جنازة ملك الهانوفر الذى أدخلت مملكته دولة البروسيا فى مملكتها وفرهو وسكن فى باريس وهو شيخ من ولسامات حضرت جنازته امراء ووزراء المانيا وجعلت له دولة فرانسا أبهة على نحو ما تقدم غير انه أخرج من داره لا من الكنيسة ولقد تذكرت فى تلك الكنيسة عند ما شاهدت حركاتهم وهيئتهم قول نبينا صلى الله عليه وسلم الصادق الامين لتتبعن سنن من قبلكم شبرا شبرا وذراعا ذراعا حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قلنا اليهود والنصارى يارسول الله قال ومن اهـ كما ورد ذلك فى الصحيح اذ علمت من ذلك منشأ وجود الكلات فى الجوامع وتغنى المؤذنين والمقيمين فيها واجابتهم للائمة بالحان متناسبة وتلحين الخطباء والائمة فى القراءة والدعوات الى غير ذلك من البدع التى ما أنزل الله بها من سلطان وما هى الاضلالة وافساد وزيادة ونقصان فى العبادة ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وحيث كان أعظم المواكب الاعتيادية عندهم هو رأس السنة نذكر ما وقع فى باريس فى رأس السنة الاعجمية الموافق لذى القعدة سنة ١٢٩٠ من حالة التزاور عندهم

فيها الا انهم يكتفون عن اتعاب الزيارة بارسال أوراق الاسماء فيما بين المعارف وترسل بواسطة البريد أو حمالين معدين لقضاء الحاجات يقفون فى الطرق وعلى صدر كل واحد قطعة من نحاس عليها عدد وسام من الحكومة بانه أمين مجاز له فى تلك الصناعة فوزع بواسطة البريد فقط مليون وخمسمائة وستون ألف ورقة عدا ما وزع بواسطة الحمالين وأرسلت الى أهالى باريس مكاتيب تم من الخارج مليون وخمسمائة ألف وكان المرسل منهم فى يوم رأس العام من المكاتيب المضمنة فى البريد تسعة آلاف مكتوب ونسبتها الغير المضمن نسبة واحد من مائة

مطلب

﴿فى اللغة﴾

(اللغة) الفرانساوية فرع من اللغة اللاتينية ولهذا لم يزالوا يراعون فى الكتابة أصول تلك اللغة حتى يكتبون أحرفا لا ينطقون بها بل وبعضها لمجرد مراعاة الاصل بدون فائدة أخرى ولازالت فى التهذيب والاعتناء بها ولها جمعيات علمية لتحسينها وضبطها وقد اشتهرت اشتهارا كليا فى العالم من وقت ارتقاء نابليون بونابارتى الاول الى امبراطورية فرانسا حتى وقع الاتفاق بين الدول الاروباوية على ان تكون هى اللغة المستعملة فى المحاورات والمخاطبات بين الدول وصار من لوازم أهل السياسة معرفتها التكلم بها ولذلك وقع الاصطلاح فيها على ألفاظ تؤدى معانى سياسية منضبطة محررة مختصرة تحتاج فى غيرها الى تطويل وابهام وذلك الاتفاق على اجرائها فى الخطابات السياسية لم يزل جاريا الى الآن حتى ان المانيا لما غلبت فرانسا سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٧٠ م حاولت نقل هاتيك المزية الى لسانها فلم توافقها انكلاتيره وقالت (اما) ان نبقى على الاصطلاح المتعارف على اللغة الفرانساوية (واما) ان كل دولة تخاطب بلسانها فابقى الوجه الاول لان الثانى فيه من الصعوبة ما لا يخفى اذ يلزم رجال السياسة تعلم لسان جميع الدول ذات السياسة ووجود مترجمين فى وزاراتهم لتلك اللغات بخلاف الاستقرار على اللغة الفرانساوية التى مر ما وقع فيها من التحرير ومن اعتنائهم بلغتهم اعتناؤهم بالفصاحة فيها وارتجال الخطب المستطيلة أعنى الخطب على النحو العربى الاصلى بارتجال الكلام مع فصاحته وانسجامه لا كما يصنع الخطباء الآن من حفظهم لما ينشئونه ان كانت لهم قدرة على الانشاء أو حفظ انشاءات غيرهم أو سردها من ورقة اذ هذا خلاف الاسلوب

العربى

العربى الاصلى واغناه وأى الاضلى استحضار معان مرتبة فى فكرة الخطيب والقاؤها عند الحاجة بالفاظ منسجمة فصيحة بليغة وذلك هو شأن كل أمة ترقت فى سجايا الفخار فالفرانساويون توجهوا لهذا المقصد أيضا وبلغوا فيه على حسب اصطلاح لغتهم الى المبالغ الحسنة فترى خطباءهم يقف أحدهم خطيبا يتكلم ساعتين وثلاثا بدون تلعثم أو مراجعة سوى البطاقة أحيانا مكتوب بها رأوس النوازل التى يريد الخوض فيها وينتقل من واحدة الى أخرى بربط المناسبات الى انتهاء مقصوده وقد يعترض له بعض اضداده أفرادا او مجتمعين بالاستهزاء منه والسخرية من كلامه والرد عليه ولو بالضجيج وهو متثبت فى مسالكه و يجيب الراد عليه بالمناسبة لان أغلب ما تكون خطبهم فى السياسة مع تنازع الاحزاب فيها سيما فى مجالس النواب والاعيان وكثيرا ما يوضع للخطيب فوق المائدة أمام منبره كاس بالماء والسكر والزهر لئلا يجف لسانه من كثرة الكلام أو الغيظ هذا أصله لكنى رأيت من يتخذ الشرب منه آلة للتفكر ومهلة للتدبير فيما يقول حتى أكثر من ذلك وصار يشرب كل ثلاث دقائق أو خمس وهو دليل عيه والحاصل ان خطبهم الآن شبه خطب أسلافنا العرب فى الصورة وتشبه الدروس المتقنة فى ادائها من علمائنا الفحول الآن مثلما أدركت من دروس شيخنا العلامة محمد النيفر الاكبر قدس الله روحه اذ يستطيع الكاتب ان ينقلها من تقريره لفظيا وتصيرة تأليفا جيدا وخطباء القوم الآن يحضر مواطنهم كتاب عارفون باصطلاح مختصر فى الكتابة حتى يحيطوا بجميع ما يقول الخطيب وأكثر الاسباب فى طول خطبهم هو ادماج مسائل من فنون شتى فيها سيما علم التاريخ فبأدنى مناسبة يذكر تاريخ أدنى شئ يحدث عنه وما وقع فيه من قديم الزمان وحديثه فلذلك كان فن التاريخ ضروريا لاهل السياسة وهو المعقول لان الوقائع الدهرية متشابهة متقاربة فمن أحاط علما بالتاريخ عرف الاسباب والدواعى والنتايج والتخلصات والغلطات فيتبع فى الحال الحسن و يجتنب المضر ويحترس بالتشاور واجتماع الآراء وذلك هو مقدور البشر والله يفعل ما يريد وانما اجرى سبحانه عادته بالاصلاح اذا اجرى العمل على حسب التدبير والامر الالهى باتخاذ الاسباب على مقتضى حكمته لا رب سواه ومن قواعدهم فى اللغة ان يخاطبوا الانسان بدون تلقيبه بالسيادة الا الزوجة مع زوجها أو العكس و المخدوم مع خادمه ومع ابنه الصغير واذا كان المخاطب ذا وظيفة الوزارة يزاد له لفظ بمعنى المرفع أو كان ذا خطة الامارة يزاد له لفظ بمعنى المعظم أو كان ملكا يزاد له لفظ بمعنى صاحب الجلالة بحيث يتحرون فى ذا غاية ويكثرون من

اعادته فى الخطاب مرارا وليس هناك استعمالات أخرفى مزيد التملق والخضوع والذلة فى الخطاب والفاظ المكاتبات والتخاطب سواء وغاية الفرق هو الفرق الحاصل بين افراد المتكلمين فى البلاغة كما ان من عاداتهم تلقيب كل انسان بلقب عائلته ولا يذكر اسمه الا فى المكاتبات أو اذا كان أكبر العائلة وجودا فالصغار منها يذكر اسمهم للتمييز مع ذكر اللقب ولم تزل عندهم عناية بالقاب الشرف وهى (كونت) و(بارون) و (دوك) و(مركيز) و (ترنس) وغيرها لكنها قل استعمالها منذ استقرار الدولة الجمهورية وصاروا يكتفون بلفظ موسيوای سيد لتسوية الناس فى نظر الجمهور

مطلب

فى القوة الحربية المالية والتجارية فى فرانسا سنة ١٨٨٠

فرنك	
	بلغ طول سكك الحديد فيها ميلا ١٣٨٧١
٠ر٦٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠	دخلها أى تلك السكك
٠٤ر٥٩٤ر٨٣٧ر٠٠٠	قيمة الداخل الى فرانسا من السلع سنة ١٨٧٩
٠٣ر١٦٣ر٠٩٠ر٠٠٠	قيمة الخارج منها فى تلك السنة
٠٢ر٧٥٢ر٧٩٤ر٨٣٠	دخل الدولة سنة ١٨٨١
٠٢ر٧٥٤ر٤٣٢ر٦٠٠	خرجها فيها
١٩ر٨٦٢ر٠٣٥ر٩٨٣	ما على الدولة من الدين
٠٠٠ر٠٥٤	عدد السفن المدرعة العاملة والاحتياطية
٢٢٥ر٠٠٠	حمولتها طونولاتو
١ر٥٠٠ر٠٠٠	عدد عساكرها وقت الحرب
٠ر١٨٠ر٠٠٠	عدد الفرسان

قد انتهى طبع هذا الجزء من صفوة الاعتبار وهو الثالث بتاريخ أوائل صفر الخير سنة ثلاث وثلثمائة وألف فى المطبعة الاعلامية لمؤلفه الامثل الاكرم الشيخ محمد أفندى بيرم وتحررت صححه على يد الفقير الى الله تعالى مصطفى قشيشة الازهرى

و يليه الجزء الرابع أوله الباب الخامس فى قطر الجزائر

طبع بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٣

﴿فهرست الجزء الثالث من صفوة الاعتبار﴾

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

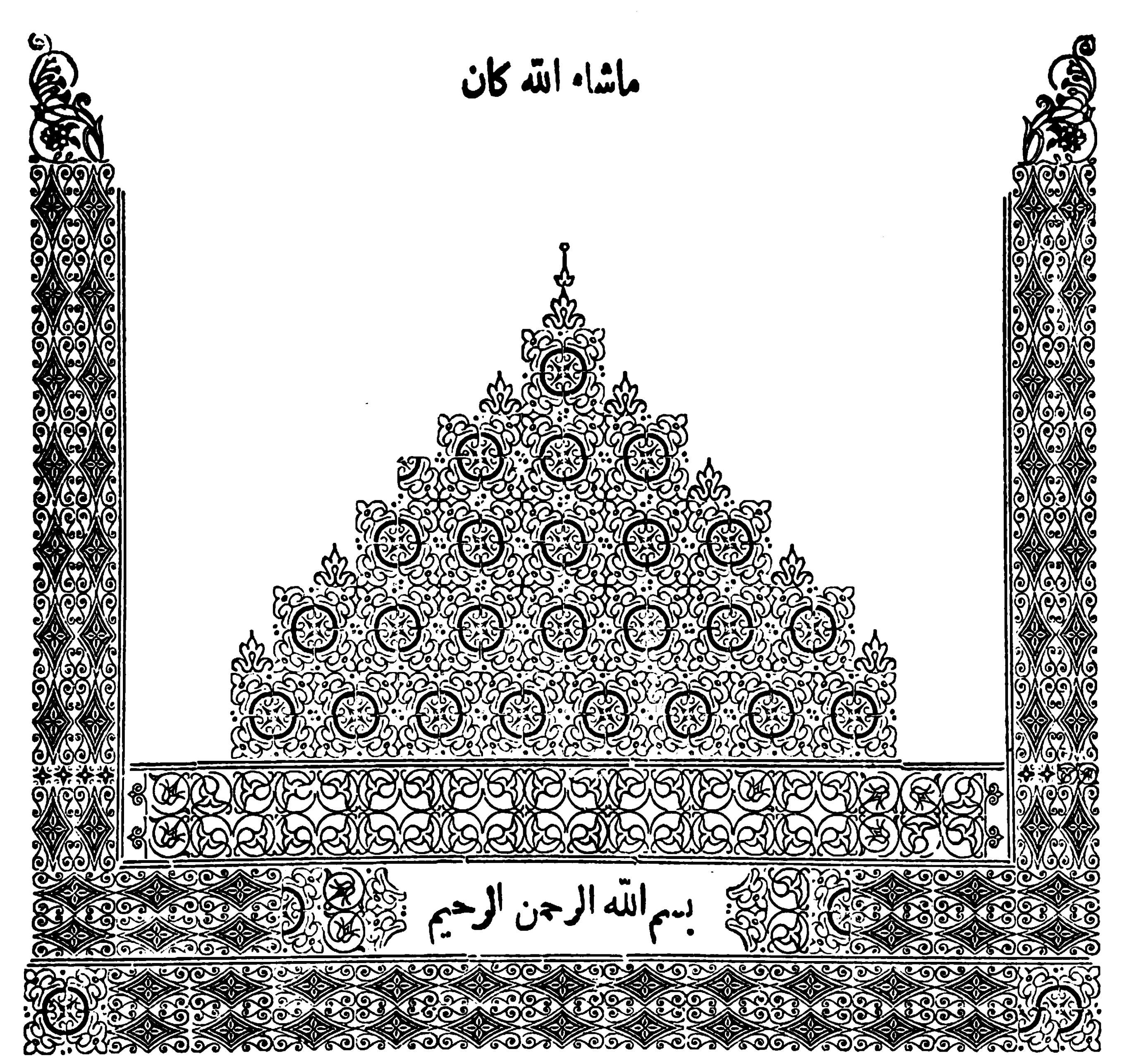
تمت

طبع بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٣

الجزء الرابع من كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار تأليف الفاضل المحقق والاستاذ المدقق قدوة العلماء وصفوة الازكياء وحيد عصره وفريد دهره الشيخ محمد بيرم الخامس التونسي نفعنا الله به وبعلومه آمين

﴿ طبعة أولى ﴾

﴿ بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٣ هجرية ﴾



وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الخامس في قطر الجزائر

الفصل الاول في سفري اليه

قد تقدم انى لما رجعت المرة الاولى من فرانسا كان رجوعى بحرا مارا على بلد بونه المعروفة بعنابه وهى أحد فرض الجزائر فأرست بها الباخرة صباحا فى مينا صناعية واسعة متينة تصل البواخر فيها الى الرصيف فى البر ويصل الرتل بطريق الحديد الى حذو فوهة هاته المرسى الصناعية لكنه رتل للسلع خاصة وبهاته المرسى كثير من السفن والبواخر منها نحو ثلاثة بواخر لشركة معدن الحديد الموجود بقرب عنابه فهذا المعدن هنالك غنى ويستخرج بكثرة ويحمل فى حوافل طريق الحديد وهى توصله الى ذات البواخر التى تحمله الى مرسيليا وفى كل يوم تخرج من المرسى باخرة مشحونة به وتدخل أخرى

خاوية

خاوية وفى مرسيليا يصفى ويشغل لانهم وجدوا ذلك أرخص مصروفا من جلب معمل لتصفيته فى محله ولما رسينا رأينا البلاد من جهة الغرب متصاعدة فى جبل وحول المرسى أبنية حسنة من النوع الاوروباوى ثم نزلنا الى البر فوجدنا عجلات الركوب للكراء لكنها رديئة وسخة فذهبت لداخل البلد فاذا فيها قرب المرسى بطحاء وطريق متسع وحواليه أبنية جيدة وقهاوى ومنازل للمسافرين وحوانيت لبيع الحلويات والتحف الظريفة وفى وسط البطحاء حديقة صغيرة متنزه للمارة وفى وسط البلد بطحاء أخرى صغيرة يحيط بها اسرادقات تحتها حوانيت وفى هاته البطحاء الجامع الكبير فذهبت الى الحمام الذى هو قرب الجامع حيث كان فرضى التيمم فى السفينة اذ لا حمام بها ولما دخلت الى البلد وجب الحمام فاذا هو على نحو حمامات تونس وسائر بلاد المشرق غير انه غير متقن النظافة وليس فيه بيوت منفردة للتطهير للانسان وحده وانما يتطهر الانسان بعد التنظيف فى محله فيقع الحرج من التحفظ على كشف العورة أمام المغتسلين ولذلك كان أكثرهم مكشوف العورة وهى مصيبة عامة فى أغلب البلاد الاسلامية التى رأيتها على خلاف تونس فان حماماتها لها بيوت صغيرة ذات أحواض صغيرة لغرف الماء منها ولها أنابيب للماء الحار والبارد وللبيت باب يغلق وينفرد الانسان للتطهير وحده بلا مشقة ولذلك كنت أختار الحمامات الافرنجية فى أكثر اسفارى ولو فى البلاد الاسلامية لانها أبعد عن الحرم من كشف العورة وان حصل فيها تعب من جهة الاغتسال المعتاد وذلك ان هيئتها بيت صغير فيه حوض كبير يحمل الانسان وله أنابيب للماء الحار والبارد وفى البيت متكأ ومصطبة ومعلاق للثياب وأرض البيت مفروشة بزربية فلا يمكن اخراج الماء عن الحوض وانما يغطس الانسان فى الحوض ويغتسل فيه بالصابون اما بنفسه أو بخادم من الحمام ثم يجذب سلسلة من قعر الحوض لجذب سدادة فيخرج ما فيه من الماء ثم يجدد له ماء ثانيا او يأتى بمناديل من الكتان مسخنة نظيفة جدا يتنشف بها الانسان وهو منفرد وبابه مغلق لا يدخل عليه أحد الا باذنه فاذا أراد الانسان التطهير يزيل ما على بدنه من النجاسة فى بيته ان أمكنه والا عند اتيانه الى الحمام يأمر الخادم بأن لا يملأ الحوض بالماء ولما ينفرد يقف فى الحوض ويأخذ الكاس الموضوع فى البيت لاجل الشرب فيملأه بالماء الحار والبارد من الانابيب ويزيل ما عليه من النجاسة ويغسل رجليه ويخرج من الحوض ثم يفتح له منفذ خروج الماء منه ويفتح أنابيب اندفاع الماء ويطهر أرض الحوض بالغسل ثم يسد منفذ الخروج ويملأ الحوض

ماء على قدر ما يكفيه و يغتسل و يتطهر فيه وهو سائغ على مذهبنا لان الماء لا يصير مستعملا الا بعد انفصاله عن جميع البدن والبدن كله فى الاغتسال عضو واحد (وأما) على مذهب المالكية فهو أيسر وقد اضطررت فى ذلك الحمام الى استئجار أحد خدمته ليستر زاوية من الحمام بمسك ازار فى يديه حتى تيسر لى تطهير ما تحت ازارى وهنالك صعوبة أخرى وهى بعد الماء بحيث ان كل مغتسل يأتى اليه بنحو عشرة مما يسمى برميل مملوءة له ليتطهر بها بعد التنظيف ثم خرجت من الحمام وأتيت الجامع واذا هو نظيف محروس قائم الادوات مفروش بالحصير من الصمار على نحو ما هو بتونس ولما كنت لابسا النعل كالخف مما يصح المسح عليه وهو نظيف دخلت به المسجد وصليت به وكان هنالك بعض الناس فرأيتهم ينظرون الى شزرا منكرين الدخول بالنعل الى المسجد لكن لم يقل لى أحد منهم شيئا فلما فرغت من الصلاة خاطبنى من بجنبى فقال لى أنت مسلم ولم تدخل المسجد بنعلك فقلت له هل تعرف الفقه قال نعم قلت ما هو مذهبك قال مالكى فانظر فى مختصر الشيخ خليل فى كتاب الطهارة فانك تجد فيه مسئلة المسح على الخفين وان المسافر يمسح عليهما ولا ينزعهما ويصلى فيهما وأنا مسافر وحتى المقيم أيضا له لبسهما والمسح عليهما والصلاة فيهما وقد فعل ذلك النبى صلى الله عليه وسلم وهو مذكور فى كتب الحديث وكان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يدخلون المسجد بنعالهم بعد تفقدها وتطهيرها ان كان بها نجاسة فهذا جائز شرعا وليس فى نعلى نجاسة ولا وسخ فرضى بذلك وأخبر الحاضرين جهرة بأن الرجل مسافر وعارف بالحكم ثم خرجت من هنالك وتطوفت فى البلد وقد فطرت فيها فى حانوت طباخ مسلم أكلا عربيا واستلذذته للغاية كيفما كان لاشتياقى للمعتاد سيما وقد كانت تلك السفرة هى أول سفراتى والاشياء الغير المعتادة تصعب على النفس أولا وأحسن ما فى البلد سوق الخضر فانه على النحو المتقن فى أوروبا من كونه واسعا ذا قبة من الزجاج محمولة على قطع حديد مرفوعة على أعمدة حديد والحيطان أيضا مثل ذلك مع النظافة وحسن التقسيم ولكن ليس فيه حوانيت وانما كل بياع يجلس فى جهة ويضع مبيعه أمامه وبخارج البلد آثار قديمة للرومان من البناء والدهاليز تقصد للتفرج وبخارجها أيضا بستان عمومى ويباع منه الاشجار الصغيرة وليس هو بمتقن والحارات القديمة فى البلد وديارها على نحو ديار تونس وحاراتها الضيقة الطرق غير ان أبواب دور عنابة بدفة واحدة وبناء الباب مقوس قليل الارتفاع وبخارج البلد أيضا جهة شاطئ البحر بعض من البساتين وحمامات من الخشب

الخشب على ماء البحر تتنزه بها الناس فى الصيف وحولها سانية واوى تحوى فى الصيف الغث والسمين وسافرنا من هاته البلدة بعد الغروب قاصدين تونس وعدت اليها فى سنة ١٢٩٥ فى سفرتى الى فرانسا ذهابا وايابا واقمت فيها فى الاياب أسبوعا وكان الزمن صيفا وهى لصغرها وعدم وجود الحركة الكثيرة بها لا ينشرح المسافر فيها وفى هاته السنة أيضا مررت فى الاياب على مدينة الجزائر قاعدة هذا القطر وهى لها مرسى على نحو ما تقدم فى عنابه والبلد أكبر من السابقة ومنظرها من جهة المرسى أبهج وأضخم وقد انشئ بها طريق للترموای يخترق البلد من جهة المرسى ويذهب الى قرية تسمى مصطفى جهة الشرق من الجزائر وأبنية البلاد على نحو ما ذكر فى عنابه وهى أيضا متصاعدة فى جبل وليس بها عيون غزيرة بل الماء له خزنة فى الجبل تجتمع فيها مياه الامطار من جهات الجبل ولذلك كانت الطرق الواسعة فى الصيف محتاجة الى الرش لقلة ما ترش به وبها أربعة جوامع للخطب اثنان مالكيان واثنان حنفيان والجوامع نظيفة مستقيمة وبقية ما كان بها من الجوامع هدمت وبدلت وبها حصون متينة وهاته البلد هى مقر الحاكم العام لقطر الجزائر ومنظر البلد من جهة البحر جميل لكثرة الديار والبساتين فى الجبل منحوت به درج يصعد فيها من أسفل البلد الى أعلى الجبل كما أن به طرق صناعية قليلة الانحدار يصعد بها فى العجلات الى قمته وأمام دار الحاكم بطحاء صغيرة منظمة والدار من نوع أبنية الاهالى قديما وأمامها محل لطائفة من الجند حرسا وفى خارج البلد وداخلها مقامات للاولياء والعلماء محترمة منها مقام سيدى عبد الرحمن الثعالبى رضى الله عنه خارج البلد فى الجبل فى مكان منشرح نزه واضريح الشيخ مهابة ووقار قاى وحوانيت البلاد على نحو ما ذكرنا فى تونس وبساتينها تسقى بالآبار يسنى عليها بالدواليب وأغلب القصد منها الانتفاع بالغلال وأكثر ذوى اليسار يسكنون فى بساتينهم فى الصيف وتنور البلد ليلا بفوانيس الغاز وبخارجها بستان انتزاه عمومى قليل الجدوى وبقربه سبيل قديم لازال قائما وحذوه قهوة على النحو العربى لكنها قذرة يغشاها بعض الناس ومنازل المسافرين بالبلد جيدة على النحو الاوروباوى وقد أقمت بهاته البلدة ليلتين ثم سافرت بحرا قاصدا عنابه ومنها الى تونس فمررت ببلد دلس وهى قرية صغيرة على البحر لم نستطع الدخول اليها لشدة هيجان البحر وعدم مرسى أمينة بها ثم مررنا على بجاية ثم جلجلى ثم اسكيكده وكلها قرى صغيرة الجديد من بنائها على النحو الاوروباوى والقديم على عادة أهل القطر والاهالى أغلبهم فرنساويون ارتحلوا الى هناك وأما اسكيكده فالبلاد

القديمة قد خسفت بها الارض والعياذ بالله وقد بنى على شاطئ البحر قرية جديدة منتظمة الطرق واسعتها على نحو النوع الاوروباوى ولم أشاهد تفاصيل هذه القرى لان الباخرة لا ترسى فيها الا قليلا واجمال حالهم يندمج فيما سيأتى ان شاء الله تعالى ومن القرى التى رأيتها قرية قالمة البعيدة عن عنابة نحو أربع ساعات فى طريق الحديد فى الجهة الجنوبية الشرقية منها وهى قرية مستحدثة يغلب على طبع أهلها البداوة وهى منتظمة البناء والطرق قليلة الماء وبها جامع وقاض وحاكم فرانساوى وعساكر وحصن وكنيسة وحديقة صغيرة للعامة

الفصل الثانى

﴿ فى التعريف بالجزائر ﴾

هذا القطر واقع على شط أفريقية الشمالى ويحده جنوبا الصحراء الكبيرة وشرقا تونس وشمالا البحر الابيض وغربا مراكش وهو قطر متسع ذو جبال شاهقة وأنهر عديدة وعيون دافقة وبه معادن غنية من الحديد والفضة والآن مشتغلون باخراجها سيما المعدن الذى أصله تابع الى تونس قرب حدودها فى القالة وبها معادن أخر عديدة منها المستعمل كالقصدير ومنها الذى لم يزل فى زوايا الخمول وأما هواؤه وحيواناته ونباتاته فهو مثل تونس فى عموم ما ذكرناه فيها والجهات الشمالية هى ذات الخصب والاشجار العظيمة والغابات ومدن هذا القطر وبلدانه أشهرها قاعدته الجزائر ثم وهران ثم تلمسان ثم قسنطينة ثم بونه وغيرها كثير لا يبلغ مبلغ ما ذكر ومراسيها المهمة هى المدن المذكورة غير قسنطينة لان هاته متوغلة فى البر على قمة جبل وينقسم القطر بالنظر الى طبيعة الارض والسكان والادارة الى ثلاثة أوطان كبار (أولها) وطن الجزائر وهو فى الوسط ويمتد من الشط شمالا الى الصحراء جنوبا (وثانيها) وطن وهران غربى السابق ممتد معه كذلك (وثالثها) وطن قسنطينة شرقى الاول ممتد معه كذلك ولكل وطن قاعدة هى المدينة المنسوب اليها وله فروع على حسب الاحتياج وعدد سكانه نحو مليونين وسبعمائة ألف وستون ألفا والمسلمون منهم مليونان وخمسمائة ألف والنصارى مائتا ألف ونيف واليهود نحو الثلاثين ألفا وقاعدة الجميع هى الجزائر عدد سكانها نحو خمسة وسبعين ألفا منهم ثمانية عشر ألفا مسلمون وتسعة آلاف يهود وثمانية وأربعون من النصارى من أجناس مختلفة وأكثرهم الاسبنيول والسكان المسلمون أصلهم من البربر

وهم أكثر سكان الجهات الجنوبية والجبال وباقي الجهات سكانها من نسل العرب والمختلط منهم ومن البربر وبعض من نسل الترك الذين استوطنوا هناك وكذلك الاندلسيون الذين هاجروا بعد استيلاء الاسبنيول على بلادهم (واما النصارى) على العموم فاكثرهم فرانساويون انتقلوا الى هناك بعد استيلاء الفرانسيس سيما بعد حرب المانيا معهم سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م واخذها الاقليمي الالجاس واللورين فارتحل من أهالي ذينك الاقليمين نحو المائة والسبعين الفا سكنوا الجزائر واعانتهم دولتهم باعطائهم الاراضي الخصبة التي أخذتها من الاهالي الاصليين عقابا لهم على الثورات وغيرها واغلب هؤلاء الفرانسيس سكنوا جهات الشطوط وانشؤا فيها قرى (وأما المسلمون) فاغلبهم على مذهب أهل السنة في العقيدة وعلى مذهب الامام مالك في الفروع ونسل الترك على مذهب الامام أبي حنيفة وبعض السكان على مذهب الاعتزال كبني مزاب ثم ان أهل السنة في المدن والقرى يكثر فيهم معرفة احوال الديانة وان حصل الآن من كثير منهم تهاون كثير بالشعائر (وأما البوادي) فيغلب عليهم الجهل بالاحكام لكنهم لازالوا متصلبين في العقيدة الاسلامية سيما أهالي الجهات الجنوبية والوسطى

الفصل الثالث

﴿في اجمال تاريخ الجزائر﴾

﴿مطلب في التاريخ القديم﴾ اعلم ان احوال هذا القطر التاريخية في القديم كانت في الاغلب متحدة مع تونس وطرابلس والمغرب فما بيناه في احوال تونس كان شاملا لهذا القطر حتى في زمن الفتح واستقرار الحكومات الاسلامية لانه في أغلب الاعصار تابع لتونس لما كانت هي مقر الحاكم العام الاسلامي لافريقية ثم لما انفرد المغرب عن تونس كانت الجهة الغربية من الجزائر تابعة له ثم اتحد الجميع تحت دولة بني حفص وعن تقهقرها وانفراد المغرب انتشأت بعض حكومات منفردة في الجزائر كمملكة بني زيان من زناتة التي مقرها في تلمسان ثم لما اشرفت الدولة الحفصية على الاضمحلال واستولى الاسبنيول على عدة جهات من شطوط افريقية وكانت الفرق المنقسمة اليها الجزائر غير قادرة على مدافعة دولة كبيرة مثل الاسبنيول اذ ذاك وكانت الدولة العثمانية رافعة علم الحماية لاهل الاسلام واسطولها يجوب البحار تحت عدة امراء وارست فرقة من هذا الاسطول تحت امرة خير الدين بربروس باشا واخيه عروج على

شطوط الجزائر للبحث عن حالة الاندلس مع الاسبنيول ضج الى هذا الاسطول اهالى الجزائر وطلبوا من الامراء حماية هذا القطر الاسلامى مادام فيه رمق قبل هجوم الاسبنيول عليه وذلك أحق من تتبع الاسبنيول فى الاندلس اذ لم يبق فيها مسلم فاجابوا طلبتهم بعد تصحيحهم للاتفاق ومن ذلك التاريخ استقرت الحكومة للدولة العثمانية وذلك فى حدود سنة ٩٤٥ وجرت اعمال الدولة فى الجزائر على نحو ما قررناه فى تونس لان المراد هو حماية البلاد الاسلامية واتحادها وجرى من الولاة الترك أولا الاستقامة والعدل ثم لما تهورت العساكر الينكشارية فى جميع الجهات حصل منهم أيضا فى الجزائر ماضجرت منه الاهالى وطغوا فى النصب والعزل للولاة من هؤلاء العساكر حسب الشهوات وقوة العصبية ولم يحسن من هؤلاء الولاة الامتثال لاوامر الدولة العثمانية الى ان ولى حسين باشا الذى كان سببا فى دخول الفرانساويين الى البلاد والحكم لله رب العباد

﴿مطلب فى تاريخ الجزائر الجديد﴾ اعلم ان الدولة الفرانساوية لما ترقت فى المعارف والقوات سيما فى الاعصر الاخيرة لازمها حب الظهور وعدم تحمل الهوان وكانت الدولة العثمانية فى شغلها الشاغل من اعمال الينكشارية وحروب الروسية وثورات اليونان وضم الى ذلك طغيان ولاة الاقاليم وعدم امتثالهم للاوامر وكان حسين باشا والى الجزائر مستبدا طلوما مرتشيا قليل التدبر وحصل منه اهانة لقنسل فرانسا وذلك على ما فى تاريخ ابن الضياف أحد التجار اليهود الاغنياء الجزائريين الملقب ببقرى أبو جناح له خلطة مالية مع تجار من الفرانسيس وتداعوا فى خسائر من الجهتين وانتصر حسين باشا لرعيته بالالحاح على قنسل فرانسا فى انصافه وآل الامر الى صلح يدفع على مقتضاه التجار الفرانساويون الى التاجر الجزايرى مالا وافرا واضمر حسين باشا أخذ المال لنفسه لما رآه ذريعا وراجعا لرعيته وتلك عادة الفوها ولما قرب دفع المال واذا بتجار أخر فرانساويون قاموا على بقرى المذكور بدين أوقفوا عليه المال الذى يريد قبضه فاستاء حسين باشا من ذلك وطلب من القنسل رفع الايقاف وقال ان ارباب الدين الفرانسيس الطالبين لرعيته يتبعون ذمة المدين بعد قبضه للمال بحيث لا يكون للطالبين حق فى المال الذى يدفعه الفرانساويون فامتنع من ذلك القنسل مستندا الى ان المال المعرقل مال المدين والغرماء لهم حق فيه الا اذا ضمنه من يرضون بذمته وكان المدين نفسه مغريا بهذا التدبير خوفا على ماله من الضياع باستيلاء الباشا عليه

فاعرض

فاعرض الباشا عن القنسل وكاتب دولة فرانسا فى غرضه فارسلت المكتوب الى القنسل وامرته بالجواب عنه ولما قدم القنسل الى الباشا لبعض مآرب خاطبه الباشا فى استبطاء جواب مكتوبه المشار اليه الى دولة فرانسا فقال له القنسل ان المكتوب ارسلته الدولة الى وأمرتنى بالجواب عنه فسأل عن سبب عدم اجابة الدولة له فاجابه بما فهم منه احتقاره وكانت بيد الباشا منشة يطرد بها الذباب فضرب بها وجه القنسل وطرده وبقى أسفا على مافاته من مال بقرى وتهددت فرانسا الوالى المذكور على اهانة نائبها وألحت عليه بان يطلب منها الرضى ويعترف بالخطا فابى واصر مع امر الدولة العثمانية له بذلك ومن النصائح المتتابعة له من الدول الاجانب وخواص الاهالى وقد كانت فرانسا فى شغل من داخليتها فى ذلك الوقت حسبما يأتى فى تاريخها الان ذلك كان اثر حروب نابليون الاول وكانت أيضا متوقية المشاحنة مع العرب ومع الدولة العثمانية حتى رضيت فرانسا بان يكاف الباشا أى انسان كان فى باريس يطلب الترضية لكى تندفع عنها المعرة ولا تلحقه هو مذلة بارسال أحد من متوظفيه الى القنسلاتو ولا الى باريس وكان قصدها بذلك كله اجتناب الحرب بما امكن لاشتغالها بحروبها واحوالها الداخلية فاصر الوالى على رأيه وارسلت فرانسا اسطولها وحاربت بلاد الجزائر واستولت عليها وحل ذلك الوالى الى باريس ثم مات فى اسكندرية وقد نسب المؤرخ المذكور منشأ اعمال الباشا المشار اليه الى كونه لاغيرة له على الوطن من حيث كونه لم يكن من ابناء ترابه ولذلك خاطر به الى ذلك الحد مع علمه بالضعف وانحلال عرى عصبيته ونفرة الاهالى من جوره الخ والحق ان مثل ذلك التعليل تأباه الشريعة على ما سيأتى ايضاحه فى الخاتمة ان شاء الله تعالى فالجنسية الاسلامية واحدة ثم المشاهدة تناقض مقاله أيضا فكم شاهدنا وسمعنا من التاريخ ما يثبت غيرة الوافدين على الاقطار ووفاءهم لها بشكر نعمائها واداء واجبات الديانة فيها من التحسين والتحصين وكم شاهدنا وسمعنا ايضا ضد ذلك من ابناء الاقاليم ومن دعيين فيها فتحقيق السبب هو ان الله اذا اذن فى امة بانحلالها فسدت أخلاق اكابرها ففسقوا فيها ومن فسوقهم اسناد الامر الى غير أهله فحق عليها القول وسلط عليها ما يدمرها وذلك هو الدال عليه القرآن الكريم والحديث الشريف وهو المشاهد بالعيان والمعلوم من التواريخ فى اضمحلال الدول وتقهقرها وحذاق الناظرين فى احوال الدول ينسبون ذلك تلها لاصول منشأ الفساد وان طال الزمان ويكون الذى انحل بيده الامر مظهر الكامن الداء الزمن وهو مع ذلك مسؤل لله ولعباده

اذا كان يمكن له توقيف المرض فيعوض ذلك بزيادة مهيجات بحراناته فيكون أشد على الامة من وقع الصواعق اذا الجسم العليل يتأثر بما لا يتأثر منه السليم وكفاه خزيا فى الدنيا والآخرة ان كان مظهر الشر ورفداه الجزائر قد ابتدأ منذ انخرم أمر الينكشارية فى القسطنطينية التى هى مقر الدولة العامة ونشأ عنه ما نشأ من فساد الادارة والولاة الى ان اصيبت عدة جهات وباء حسين باشا فى الجزائر باسم الظلم والخراب والتهور الذى كان أعظم النكبات وانتقلت حالة الجزائر بل وحالة السياسة فى شطوط افريقية الشمالية الى طور آخر وكان مبدأ استيلاء فرانسا على الجزائر سنة ١٢٤٦ فى مدة كارلوس العاشر ملك فرانسا وتمكن الفرانسيس أولا من القاعدة وما حولها لكن بقية الجهات اصروا على الامتناع من الطاعة لفرانسا لانها انما ارادت الانتقام من الوالى حسين باشا وقد حصل فالجهات الشرقية من القطر انفرد بالحكم فيها الحاج احمد باى قسنطينة والجهات الجنوبية والغربية تشتتت تحت رؤساء القبائل ورام الفرانساويون محاولة تطويعهم بالرفق بان يتولى الامر فى وهران والى تونس بارسال أحد عائلته أو احد متوظفيه فارسل والى تونس واحدا من جهته ومعه شرذمة من الحرس فلم ينفذ أمره فى مدينة وهران فضلا عن خارجها ورجع من حيث أتى ثم اجمعت الجهات الغربية والجنوبية على مبايعة الرجل الوحيد سلالة النسل الطاهر الامير سيدى عبد القادر بن محي الدين الحسنى وقام لله حق القيام وصحبته النصرة الالهية فى كثير من الوقائع الى ان كان فى بعضها ما هو خارق للعادة من الكرامات كظفر فرسه الازرق به ستين مترو حيث احاطت به العساكر الفرانساوية كالحلقة وراموا مسكه باليد فطفر به فرسه على رؤس العساكر واسلحتهم ذلك المدى ونجا راكضا الى منعته ودام محاربا لهم نحو سبع عشرة سنة واستقامت له حكومة ضرب فيها السكة باسمه وانشأ المدافع والبنادق ونفذ أمره وخشيته فرانسا ودعا الحاج أحمد باى ليتحدا ويكونا يدا واحدة فامتنع تجبرا وطغيانا وخذل الامة الى ان وهن أمره واستولى الفرانساويون على ما كان تحته وبقى الامير سيدى عبد القادر مدافعا ومهاجا الى ان سولت المغالطات النفسانية المخالفة للديانة الاسلامية لسلطان المغرب الاتحاد مع الفرانسيس على محاربة الامير المشار اليه وقطع عنه سلطان المغرب خط النجاة له جهات الصحراء فاضطر الامير الى التسليم للفرانسيس فاقتبلوه بالرحب والاكرام وحملوه الى باريس تحت المراقبة فيها وكان اذ ذاك نابليون الثالث مقبوضا عليه هنالك فحصلت منه مودة للامير ويقال

انه

انه وعده بالمساعدة لو يقضى ملك فرنسا اليه وعندما استقر نابليون الثالث فى منصب الامبراطورية لم تساعده رجال دولته على انجاز قصده من تولية الامير المشار اليه على الجزائر فاهدى اليه رسالة فى محاسن الشام وخيره فى انتخاب محل لاقامته فاختار الامير سيدى عبد القادر ارض الشام وقدم من فرانسا اولا الى الاستانة واكرم مقدمه السلطان عبد المجيد واقام مدة فى بلاد الترك ثم استقر فى دمشق الشام ادام الله بركته للانام وحاطه بالامن والسلامة فى نفسه وفى آله الكرام وبعد خروج الامير المشار اليه من الجزائر خف الخطب على فرانسا لكن بقى جبل الزواوة ثائرا عليها تحت امرة كبرائه فطوعته اخيرا بمثل ما فعلته فى اغلب الجهات من انخداع الرؤساء بالمال وتسلط بعضهم على بعض كما انها حاربتها فى الجزائر ايضا دولة المغرب بجيوش كثيرة خالية عن التدبير والتدريب الحربى فلم تفد شيأ سوى ضياع ما حملوا معهم وكان البوادى المنضمين الى الفرانسيس اشد على المغاربة من نفس الفرانسيس وذلك سبب الخذلان ولازالت تتوالى الثورات فى الجزائر على الفرانسيس منذ دخولها الى الآن تارة مشتدة وتارة خفيفة ولله عاقبة الامور

﴿مطلب فى كيفية اجراء السياسة الداخلية فى الجزائر﴾ اعلم ان ادارة الجزائر فى الحقيقة مناطة بارباب الامر والنهى فى باريس على ما هى قاعدة الفرانسيس من ارجاع كل الامور فى عمالكهم ومستعمراتهم الى باريس من غير التفات الى بعد المستعمرات او قربها اولا الى الجهل باحوالها واخلاق اهلها وعوائدهم فيضطر اصحاب الحكومة الى اعتماد اقوال المباشر فى المستعمر المبحوث فيه فيؤول الامر الى ما تقتضيه حالة ذلك المباشر من الانصاف او ضده مع انه فى نفس الامر غير مسؤل عما يقع الا فى الاجراء فلا يلزمه الاحتراس اللازم للمسؤل ومع ذلك فالاحكام والادارة كلها فى الجزائر كانت استبدادية بحتة تحت الحكم العسكرى فما هى الا اجتهادات من المباشرين بلا تعقب لحكمهم لان الدولة منعت الاهالى من الحرية السياسية ومنحتهم بعض الحرية الشخصية من التصرف فى دياناتهم واشخاصهم واموالهم كيفما ارادوا فيما لا يضر بالدولة ولا باحد فى نظار الحكام والدولة تنتخب حاكما عاما من اهل المناصب العالية من الفرانسيس ويولى حاكما عاما على الجزائر جميعها ويستقر فى مدينة الجزائر وهى ايضا تنتخب ثلاثة حكام آخرين من كبار الفرانسيس تناط باحدهم ولاية الجزائر وبالآخر ولاية وهران وبالآخر ولاية قسنطينة ويرجعون فى النظر لحاكم الجزائر العام وعلى كل قبيلة قائد

والاغاب ان يكون من بنى القبائل ويلقب كبراء هؤلاء القياد بالاغه ويتصرفون حسب اجتهادهم وحسب مايلقنون به من الاوامر من الولاة وفى كل بلدة قسم من العساكر ولكبرائهم نفوذ كبير فى الاهالى وفى كل بلدة أو قرية حاكم فرنساوى والرسوم الظاهرية فى الجباية وان كانت محدودة مقوننة بأخذ الاعشار من المزروعات والزكاة على الحيوانات فكثيرا ما تمتد الايدى الى المكاسب من غير الثقات من المتوظفين على أوجه شبيهة بالسرقة حيث انه ليس عليها احتساب حقيقى ثم للمتوظف مخلص عندما تقع به الشكاية بان ينسب المأخوذ منه الى الثورة أو السعى فيها أو بادنى قول فى ذلك تثبت التهمة واثباتها موقوف على القرائن لدى الحاكم المستبد وكل من ثبت عليه شئ من ذلك يؤخذ جميع كسبه للحكومة زيادة عن عقابه البدنى الشديد ولا معقب لتلك الاحكام وقد ابتدأ ذلك العمل منذ دخلوا الجزائر فان حمدان بن عثمان خوجه الذى هو من الاعيان العلماء الاغنياء العارف بالالسن الاجنبية اتهم بانه كانت الحكومة السابقة أمنت عنده أموالا فأخذ ماله وسافر هو مشتكيا الى دولة فرانسا فأحالته على مجلس شورى الدولة المسمى كونسيل دى تا ووكل أشهر العارفين باحكامهم وعكف منتظر الحكم ثلاث سنين صارفا أوقاته فى مطالعة الكتب وتأليف كتابه باللغة الفرانساوية المسمى مرآة الجزائر الذى أودعه اخلاق القبائل وحالة سيرة حكام الترك وما آلت اليه من مظالم الفرانساويين مالم يكن يظن صدوره عن أمة متمدنة وقد قبل هذا التأليف فى فرانسا بالاعتبار لكن حكام الجزائر استاؤا منه وزادوا نكالا بكل من له علاقة بالمؤلف المذكور وبعد ما مر عليه ما مر صدر الحكم من المجلس المشار اليه ان حمدان المدعى محق فى دعواه لكنها لما رفعت الى المجلس بعد صدور أمر الدولة بان لا تقبل دعاوى تلك السنة التى حصلت عليه فيها المظالم فلا حق له حينئذ فالتجأ الى سفير الدولة العثمانية واستقر بعدها فى الاستانة وكان ابنه على باشا من أعيان رجال الدولة وعلى نحو ذلك العمل تجرى الادارة السياسية فى الجزائر الى الآن فترى فى صحيفتها الرسمية المسماة بالمبشر على الاستمرار صدر الامر بثقاف أملاك فلان وهى كذا وكذا وأملاك فلان الخ لكن منذ سنة ١٢٩٥ أدخلت المدن وبعض قرى تتبعها تحت الحكم المدنى القانونى لكنه خال عن الحرية اللازمة وانما هو أهون من الحكم العسكرى لاستبدادى لبعض أقسام الشام وأما كثير من البادية وجهال العامة فانهم يريدون الحكم السابق العسكرى ويرونه خيرا لهم لما يأتى بيانه ولمجموع ماتقدم ذكره مع التخالف فى الديانات بين الاهالى والدولة المتسلطة

دامت

دامت الثورات وتعاقبت عند كل فرصة وعذرهم على ذلك منصفوا الفرانسيس حتى
سمعت من كثير منهم ساكنى الجزائر يتشكون من الادارة ومازالت صحفهم تطلب
انصافهم واستقامة ادارتهم واعطاءهم الحرية المناسبة بل ويطلبون المساواة مع فرانسا
فى جميع قوانينها وعلى هذا الرأى قسم وافر من أهالى فرانسا أيضا بل ان نابليون
الثالث نقر عن أسباب الثورات وذهب بنفسه الى الجزائر مرتين ثانيتهما التسكين ثورة
وقعت هناك وعلم ان أعظم أسباب ذلك من سوء معاملة الاهالى من الحكام فصغى
الى شكاياتهم وأزال عنهم كثيرا من المظالم وساعفهم الى مطالبهم فسكنت الثورة بدون
سفك للدماء ولا تشفى فى الثائرين كما صرح بذلك الامبراطور نفسه فى خطبته عند
رجوعه الى فرانسا وكان توغل فى دواخل الجزائر وأواسط القبائل الجسيمة ذات السطوة
منفردا عن الحامية الفرانساوية معتمدا على وفاء العرب وصدقهم وقد تعهدوا له بذلك
وقاموا له حق القيام من عامتهم وخاصتهم وفرحوا بقدومه لهم ومالوا اليه والى انصافه
وأظهروا له من الطاعة والتعظيم ما عاد به مسرورا منهم موقنا بانصاف مطالبهم ومحبا
خالصا وعاطفا احنوا عليهم واختص منهم فى باريس قسما من العساكر لحراسة ذاته وأكرم
مقامهم ورفع من شأنهم واتخذ قسما من الفرسان فى مصاحبته فى ركوبه بملابسهم العربية
وكذلك العساكر يلبسون العمامة ويسمون بالزواف وقد حاربوا فى الدفاع عن
الفرانسيس فى حرب سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م بحمية أكثر من حمية الفرانسيس
أنفسهم وشهد لهم بالشجاعة والصبر والمعرفة والجرءة كل من الفرانسيس والالمان ولما
وقع انكسار الفرانسيس اثناء تلك الحرب حركت الدسائس أهالى الجزائر الى الثوران
فامتنعوا وفاء بعهدهم مع الامبراطور نابليون الذى أحكم معهم الصلة ووعدهم بمزيد
المساعدة والنجاح قبيل تلك الحرب الى ان علموا اخلاع الفرانسيس له فثار بعضهم اذ ذاك
لكنه لم يجد نفعا لتفرغ فرانسا من حرب خصمها ولعدم اتفاق الكلمة بين الجزائريين
ولا زال أهل الجزائر يثنون على نابليون وعائلته لما شاهدوا منه من انصافهم واعتبار
حرمتهم حتى قال فى خطابه الرسمى انى امبراطور الفرانسيس كما انى امبراطور العرب
وكان ذلك هو الذى أوجب للكثير ترجيح الحكومة العسكرية ظنا منهم انها لا تسير
الا على نحو ما تركها عليه الامبراطور بخلاف غيرها ممن لا يراعى لهم ذمة حتى ان
العساكر مع ما مر ذكره لم يسمح لاحد ضباطهم ان ينال رتبة رفيعة فى العسكرية فذلك
هو سبب الملل الذى لا يبرح من نفوس الاهالى وان جعل منهم بعض أعضاء فى المجالس

الذى يدعوه الحاكم للتشاور فى المصالح لكنهم أعضاء صورية لان أغلب الاعضاء من
الفرانساويين مدافعون عن حقوق الفرانساويين المستوطنين هنالك وهؤلاء يرون
أنفسهم مظلومين بالنسبة لامثالهم فى فرانسا مع عدم الداعى الى ذلك لانهم قد تحققوا ان
الاهالى اذا نالوا انصافهم وتسويتهم فى الحقوق يكونون اهلا لنيل سائر المنح الحائز لها
الفرانساويون وأهالى الجزائر الآن يعتبرون انهم فى حماية الفرانسيس لا ان لهم الجنسية
الفرانساوية والفرق بين هذين هو ان من له الجنسية ينال سائر المنح الفرانساوية وعليه
ما على أفراد الفرانسيس من القوانين من الدخول فى العسكر واجراء أحكام الزواج
المدنى والتوارث على مقتضى القانون الى غير ذلك وأما صاحب الحماية فتجرى أحكام
ديانته فيما ذكر ولا يدخل للعسكر الا برضاه نعم يتخذ منهم نوع من العسكر الخيالة
يسمون بالسبايس دون رتبة العسكر وللافراد ان يدخلوا فى الجنسية باختيارهم بحيث
لا غصب فيها وقد دخل فيها كثير بعضهم للشهوات وبعضهم تملقا كاليهود وبعضهم طمعا
فى الرتبة العالية العسكرية وهو وان نال شيئا منها لكنه مهان فى اعتبار النفوس لما
يوجب ذلك من امتهانه لديانته فى نظر العموم ولو من الفرانسيس ولما تقدم لم يكن
للاهالى المساواة فى الاعتبار بينهم وبين الفرانسيس ويظهر ذلك حتى بنظر العين
فى المعاملات التكريمية والتوقير وترى اليهود أحرز للحرية فى معاملة الفرانسيس
وخطابهم من المسلمين

(مطلب فى السياسة الخارجية للجزائر) ليس للجزائر سياسة خارجية اذ السياسة انما هى
لفرانسا ولا ترى فى قاعدة الجزائر ولا غيرها من اعتبار أو ذكر لقناسل الدول الاجنبية
وما هم فيها الا كامثالهم فى احدى مدن فرانسا

الفصل * الرابع

(فى بعض صفات الاهالى وعوائدهم)

أغلب عوائد الاهالى وصفتهم فى الجزائر هى مثل ما فى أهالى تونس فى السلام والحياء غير
ان الجيل الجديد فى المدن تخلق أغلبه باخلاق مخضرمة بين العادات الاصلية وبين
عوائد الفرانساويين ومن المعلوم ان النفوس مائلة الى التشبه بالغالب غير انها أول
ما تسرى اليها الاخلاق الشريرة أما المحامد فانها انما يحمل عليها العقل بالكلفة ولهذا
فشت قلة الحياء فى كثير حتى سرى ذلك الى أبناء الفرانسيس الذين نشؤا هنالك وقد

صاحبنى

صاحبنى فى الفابور من الجزائر الى عنابة امرأة حاكم بلاد قالمة مصاحبة لابنائها الصغار
وهم ثلاثة دون البلوغ كانوا يتعلمون الفنون فى مكتب بلاد الجزائر ولما أرست البابورة
على مرسى حجى صعد اليها نائب لجنة تلك البواخر متفقدا وكان حضر اذذاك وقت الفطور
فجلس مع الركاب على المائدة وكان من جملة الحاضرين الابناء المذكورون وبعد الاكل
أتى بالقهوة ومن عادة الافرنج الاتيان بقنينة فيها نوع من المشروبات الروحية المسمى
بالكنياك ومعه كيسان صغار لمن يريد الشرب من ذلك مع القهوة فأخذ منه من أخذ
وامتنع من امتنع فعمد أولئك الصبية الى المشروب وأخذ كل منهم كأسا ووضعه أمامه
فتبسم كبار الحاضرين متعجبين من ذلك وأمهم فار عليها العرق من الحياء ولم تكلمهم
بشئ وبعد ذلك أخذنى نائب اللجنة الى ناحية منفردة وقال لى أرأيت ما وقع قلت ما هو
فقال لا تهزء بى لو كان أولئك أبنائى لألقيتهم فى البحر قلت لماذا وهو عندكم ليس
بممنوع قال كلا فانه وان كان الخمر عندنا مباحا لكن انما هو ما يؤخذ منه مع الاكل
من نوع ماء العنب بمقدار لا يفعل نشوة أما هذا فانه لا يستعمل الا بعد الاكل لمجرد
النشوة والصغار يمنعون من ذلك بمقتضى التربية الحسنة ولكن نحن قد خرجنا عن
طورنا وفسدت أخلاقنا وأفسدنا أخلاق غيرنا وهؤلاء أبناء أحد حكام البلاد على هذا
النحو فما بالك بغيرهم الخ وكان منشأ هذا الفساد هو ان الحرية فى الفرانسيس قد فطروا
عليها بقسميها أعنى الحرية الشخصية والحرية السياسية لكنهم حملتهم فى بلادهم الحرية
السياسية على التخلق بمحامد الاخلاق على قدر مستطاعهم وادراكهم وأما فى الجزائر
فقد حرموا فى أنفسهم من الحرية السياسية وكذلك الاهالى أطلقوا لهم الحرية
الشخصية وحرموهم من الاخرى فانبعثت القوات كلها الى الاولى مع ملائمة الطبائع
النفسانية فأتوا على كل ما يمكنهم التوصل اليه من الفسوق وقبائح الكلام والتزوج بين
كل متراضيين من غير نظر لديانة ولا صحة شرعية بل يقع حتى لبنات مسلمات الفرار من
آبائهن الى رجال من الافرنج أو غيرهم ويصاحبنهم بدون زواج أوبه ولا مانع عندهم من
ذلك وأضف الى ما تقدم من السبب ان الحكام لما كانوا من العساكر مستبدين فتراهم
يشتمون بالكلام الفاحش وكأنه هو أول ما يتعلمونه بالصدفة من لغة الاهالى ثم ان
السيرة العسكرية الاستبدادية معلومة فى ان الغالب على الضباط الصغار فمن دونهم هو
الميل الى الشهوات الطبيعية والانهماك فيها ولا ينفكون عنها الا بالوازع الحكمى
أو العادى كما فى بلدانهم فى فرانسا بالنظر للعادة وهاته العادة منتفية فى الجزائر لعدم

اعتبار عادات الأهالى حتى الاعتبار فنشأ فى ذلك القسم زيادة الاطلاق وقلدتهم صغار الاهالى على قاعدة الناس على مذهب أمرائهم ومع هذا فلا زال فى ذوى البيتوتات وأصحاب لاصول مكارم الاخلاق الاسلامية وفضائل الطباع العربية وان كانوا بالاصالة قليلين فى المدن وأما أهالى القبائل من البادية والمتوغلين فى الجنوب ودواخل القطر فالا كثر منهم على الطبائع والعادات الاصلية والقليل الذين لهم علاقة بالحكام والتداخل معهم تغيرت عاداتهم الى نحو ما وقع فى الكثير من أهل البلدان ومن الاخيار الذين اجتمعت بهم ومحونى فضائل أخلاقهم النحرير العالم الشيخ على بن الحفاف المفتى المالكى بقاعدة الجزائر وهو من تلامذة علامة القطر الافريقى الشيخ ابراهيم الرياحى كما أخبرنى بذلك عن نفسه وله فضائل كاملة وتقوى وسكينة واطلاع والسعة فى الفقه والحديث وذاكرنى فى الهجرة فذكرته بأن مثله قليل الوجود فى ذلك القطر وان بقاءه فيه لتعليم الناس دينهم أنفع للعامة وله عند الله من خروجه برأسه وابقاء تلك الامة المسلمة خالية ممن مثله بل وربما جل خروج غيره ممن هو على شاكلته على الخروج فتبقى العامة بلا تعلم لديانتهم وتضمحل منهم الديانة شيئا فشيئا والعياذ بالله بخلاف ما اذا بقى هو وأمثاله فانه تنتشر تعاليم العقائد والفقه وتبقى الديانة ان شاء الله محفوظة فى الاهالى وذلك هو المنصوص عليه فى كتب فقهنا حتى ان الاسارى اذا لم يمكن فداءهم جملة فيؤخر منهم العلماء ومن الاخيار أيضا الاصيل الفهامة الشيخ أحمد أبو قندوره المفتى الحنفى بالقاعدة المشار اليها وهو ذو تبحر فى المعارف السياسية ومتقن للغة الفرانساوية وصاحب حمية فى المدافعة عن أهالى وطنه وهو عضو أيضا فى مجلس الوالى له مشاركة فى الفقه والحديث وكل من الشيخين المومى اليهما امام وخطيب فى جامع بالقاعدة المشار اليها وقد زرت كليهما فى مقصورة جامعة ودعانى ثانيهما الوليمة اتخذها اكراما لى جازاه الله أحسن الجزاء وتوجهت معه الى بستانه فى الجبل وهو بستان ظريف جامع للشكلين العربى والاوروباوى وبناؤه ظريف نظيف على النحو العربى المتقن ومن أكارم من اجتمعت به صفوة الخيرة سيدى قدور الشريف نقيب السادة الاشراف صاحب شمائل تليق بجلالة نسبه ومنهم العالم المتفنن الشيخ على بن موسى نقيب زاوية سيدى عبد الرحمن الثعالبى رضى الله عنه وهو صاحب ورع وديانة كان ولى فى احدى المناصب الحكمية ولما لم يمكنه الامتناع تصامم واعتذر بالصمم فأعفى ومنح نقابة الزاوية المذكورة فبقى ساكنا هنالك معتكفا على العبادة والمطالعة وله

أشعار

أشعار جيدة ومنهم الوجيه السيد الشريف الصفصافي وغيرهم من الأعيان كما اجتمعت بثقات من كبار متوظفي الفرانسيس كالجنرال شربريز حاكم وهران ونائب الحاكم العام في الجزائر عند مغيبه في وقت قدومي الى هنالك وهذا الجنرال زيادة على معارفه العسكرية التي توصل بها الى رتبة الفريق فانه منصف عاقل عارف بأحوال سياسة الوطن والسياسة الخارجية صدوق في الكلام بدون محاباة ويا ليت سائر كبار متوظفيهم هنالك مثله والذي أعانه على معرفة مصالح الاهالي هو معرفته لغتهم ومنهم أمير البحر الكماندان دي سان اندري وهو شيخ مسن منصف في السياسة وممن لاقيته في غير القاعدة الفقيه النبيه الشيخ السعيد بن شتاح قاضي بالدقالمه وهو مشارك في الفنون الآلية وله اطلاع حسن في الفقه مع عفة واستقامة ثم ان الاهالي على العموم في طباعهم نوع من الحدة والنشاط وذرية البربر في لونهم شقرة وصهوبة ولهم ولوع بالفروسية والملاهي في المدن على نحو ما في أوروبا وفي بقية القرى والبوادي على نحو ما ذكر في تونس

﴿مطلب في التجارة بالجزائر﴾ التجارة مع خارج القطر أغلبها بيد الفرانسيس ثم الاسبنيول والطليان ثم غير كالبعض من الاهالي والانكليز والنادر من غيرهم وفي دواخل القطر مقسمة بين الاهالي والفرانساويين وهي على نحو التجارة بتونس اذ لم تحدث بها معامل ولا كبير حركة تجارية سوى بعض معادن كما تقدم في معدن الحديد بعنابه ومعدن فضة في القالمه على ان تصفيتها وصناعتها تكون في فرانسا وأصول التجارة الجارية على نحو الاصول الفرانساوية وعلى ما فيها من المعاهدات مع الدول وأما البريد براً وبحراً فهو بيد شركات فرانساوية وفي الجزائر دار صرف تسمى بانكة الجزائر لها أوراق مالية مثل البنوك المعتبرة في أوروبا ولتسهيل طرق التجارة وان شئت قلت لتسهيل الحركة العسكرية قد امتدت طريق الحديد بين الجزائر ووهران وتلمسان ثم أخرى بين عنابه وقالمه وسوق هراس وقسنطينه واسكيكده وهم بصدد وصلها بطريق تونس ووصل البقية ببعضها والمذاكرات جارية في مد طريق الحديد الى دواخل افريقية والصحراء حتى تجمع بين شطوط افريقية الشمالية الشرقية من جهة الجزائر وتونس وبين شطوطها الغربية من جهة سانيغال وتمر على ممالك السودان ولا يخفى ما في ذلك الربح الباهظ

﴿مطلب في الاحكام بالجزائر﴾ الاحكام الشخصية منقسمة الى قسمين فما يرجع الى الوقف والنكاح والطلاق والارث عند المسلمين له قضاة مسلمون على مذهب مالك

وفي بعض المدن مفتون حنفية والقضاة مع بني لهم الحكم بكتاب مختصر الشيخ خليل
ويجلس مع القاضي عدلان للشهادة على الخصوم وينوبه أكبرهما عند مغيبه وأما ما يرجع
الى سائر المعاملات والجنايات فله مجلس مركب من ثلاثة أعضاء فرانساويين ويحضر
معهم عضو مسلم وهذا المجلس على نحو مجالس الاحكام في فرانسا غير ان القانون الذي يحكم
به ممتزج بين ما ترجم من مختصر الشيخ خليل وبين القانون الفرانساوي فاذا كان الخصمان
من المسلمين والدعوى من أنواع المعاملات الاختيارية فلهما الاختيار بين فصلها
في هذا المجلس أو لدى القاضي المشار اليه وأما اذا كانت الدعوى من قبيل الجنايات
أو بين مسلم وغيره فلا تفصل الا بالمجلس كما ان للمجلس حق التحقيق على القاضي فيما يحكم
به في نوازل المعاملات وذلك جار في كل بلدة (وأما القبائل) فحكامهم القواد والاغوات
والقضاة ثم لما كان أعضاء المجالس في الاغلب غير عارفين بلغة القوم لزم احضار مترجم
مع مراقبة العضو المسلم ومع هذا فلا يحصل الانصاف المعهود في محاكم فرانسا الا من حيث
الاعضاء الفرانساويين فانهم يتحرى في انتخابهم استكمال الصفات والاستقامة لكن
يحصل أطوارا عدم احسان الترجمة جهلا أو عمدا مع عدم جدارة العضو المسلم فلا يجري
الانصاف وأغلب ما يكون ذلك في الحكم الذي لا يقيم المحكوم عليه وكيلا عارفا باللغة
الفرانساوية ومتضلعا بمعرفة الاحكام وقد حضرت يوما متفرجا في مجلس الحكم بعنابة
الذي هو في الهيئة على نحو ما تقدم في باريس فأتي برجل في دعوى جنائية وبينما هو
يتمم في كلامه واذا بالمترجم تكلم للحكام كان الرجل تمم مقاله فصدر الحكم حالا
بسجنه وما أخرج من بيت الحكم الا ولاقى من اللكم واللطم والسب من أعوان المجلس
ما تعجبت من صدوره من فروع الامة التي كنت أشاهد في اعتدالها في فرانسا وأولئك
الاعوان هم من الاهالي غير الثقاة ومنهم أيضا أعوان للضابطية ويتجسسون على من
يقدم من خارج ربما يهيج الاعراب اذا توجه اليهم وبمجرد التهمة يسافر من البلد وهم
لا يحسنون لا التجسس ولا الخطاب لعدم الاهلية في الانتخاب وعلى هذا النحو في عدم
الجدارة جمع من قضاتهم فلا يتقون الارتشاء ولا يحسنون حفظ ناموس المنصب حتى
شاهدت قاضيا في عنابة يتلاطم ويتخانق مع الخصوم ويجلس في حالات الاراذل مما
يتنزه عنه أعضاء مجالس الحكم وكان ذلك في أصل القصد من عدم التحري في الانتخاب
لتنفر الاهالي من أحكام القضاة ويفضلون أحكام المجالس بل وربما أدى ذلك مع

زيادة

زيادة جهل العامة الى اعتقادهم الاختلال فى الشعائر الدينية لما يرون من سوء حالة القضاة وأحكامهم واعتدال المجالس وانصافهم

﴿مطلب فى المعارف بالجزائر﴾ المعارف فيها على قسمين الاول علوم الديانات والثانى علوم الرياضيات فالاول قسمان أيضا الاول ما هو مختص بالديانة الاسلامية وله مدرسون فى الجوامع يقرؤن النحو والفقه وفى خصوص الجزائر من هؤلاء عشرة مدرسين والفقه هو المالكى وقليل من الدروس فى الحديث أوغيره وأكثر الاجتهاد فى هاته العلوم فى بلد قسنطينة ثم تلمسان وفى الجهات الجنوبية يقرؤن العلوم فى زوايا الطرق ولاهالى هاته الجهات اعتناء بأخذ العلم فيرحلون اليه الى فاس وتونس وقليل منهم يرحل الى مصر فلذلك لم ينقطع فى تلك الجهات من له اطلاع حسن ومشاركة جيدة وقليل من يتضلع حقيقة التضلع لانه ليس فى أوطانهم علماء فحول وانما يقرؤن صغار الكتب وأكثر الانكباب فى الفقه المالكى على حفظ مختصر خليل وتفهمه ومن تمهر فى العلوم فى احدى البلاد الخارجية فلما يرجع الى وطنه وفى كل تلك العلوم مدرسون فى الجوامع لهم مرتبات من قبل الدولة الفرانساوية وهى القائمة بمصاريف اقامة الجوامع ومافيها من قراءة الاحزاب أوكتب الحديث لانها استولت على جميع الاوقاف والمساجد واقتصرت فى كل بلد على عدد مخصوص من المساجد تقوم به وغيره تصرفت فيه بما ناسبها وحرمت المستحقين من مالهم كاوقاف الحرمين والقسم الثانى ما يختص بالديانة النصرانية ولادخل للدولة فيه وانما القسيسون لهم مدارس لتعليم ديانتهم وقد كان نوع من القسوس يعرف بالجوزويت أنشأ مدارس للتعليم حتى للعلوم الرياضية مع الديانة ولهم اتقان فى كيفية التعليم والتربية وقد كانوا فى حدود نيف وثمانين ومائتين وألف احتازوا بكثير من أولاد الاعراب وغيرهم المسلمين بناتا وأطفالا ونصروهم وذلك عند ما وقعت مجاعة شديدة بالقطر ولما بلغ مجالس النواب فى فرانسا ذلك العمل شدد قسم منه النكير على الدولة فى اطلاق القسوس على ذلك العمل لكنها لم تمنعهم وعند ما كبر البعض من أولئك الاولاد وعلموا بان أهاليهم مسلمون فروا الى أهاليهم ثم لما منعت الدولة الجوزويت من التعليم فى فرانسا واستولت على مدارسهم ومكاتبهم فى سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م عممت ذلك فى الجزائر أيضا ونفتهم من كل ممالكها لكنها أوصت بهم نوابها فى الممالك الاسلامية بان يحموهم فى حريتهم أى اذا ارادوا بناء مدارس والتعليم فيها فليس للدولة الاسلامية منعهم وان منعوهم تعارضهم نواب فرانسا مع ان

الدولة الفرانساوية الآن جمهورية وتطلق الحرية فى كل شئ غيرانها سلبت حرية الجزويت فى ممالكها ولم يتيسر لهاحمايتهم فى ممالك أوربا اللاتى أكثرها فعل بهم مثل مافعلت هى فكيف يسوغ مضادة ذلك فى الممالك الاسلامية مع اختلاف الديانة فيها وأمافى فرانسافان ديانتهم متحدة لان الجوزويت نصارى من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الخاضعة للبابا غيرانهم لهم مذهب فى دقائق الديانة والتأويلات والفلسفة فيها جعل لهم نوع انفراد عن بقية القسوس بيدان الدولة الفرانساوية تستند فى منعهم من التعليم بانهم يمزجون فى تعليمهم الاحوال السياسية على الاصول الاستبدادية مما لايوافق سياستها وتخشى من فشوه فى الناس مع المكاتب التى يتخذونها تصير كالمعسكرات تحدث منها الثورة ويأوى اليها الثائرون (وأما القسم الثانى) من أصل المعارف فهو سائر المعارف الرياضية وهاته لها مكاتب من الدولة فى البلدان المتمدنة وهى على نحو المكاتب الفرنساوية غيرأنها قاصرة عن العلوم العالية فبعد اتمام التلميذ فيها معارفه ينتقل الى باريس التى هى مركز سائر العلوم العالية والمكاتب بالجزائر فيها ماهو للاولدان وفيها ماهو للبنات وقد حضرت بالاستدعاء فى امتحان البنات بعنابة ووقع الامتحان فى اللغة الفرنساوية وفى الكتابة وعزف البيانو وأنشدت المديرية خطبة فى تحسين التعليم وأغلب المعلمين نساء فى هذا المكتب كما حضرت امتحان مكتب الولدان من مسلمين وغيرهم وحضر كلا من الامتحانين وجوه البلد وحكامها

﴿مطلب فى الصنائع وغيرها بالجزائر﴾ الصنائع بها أحسنها الفلاحة وقد اتقنت فى الجهات الشمالية على نحو ماهى فى فرانسا (وأما بقية الصنائع) فانها على نحو ما بتونس مع الانحطاط فى الدرجة لافى الكمية ولا فى الكيفية عما فى تونس الابعض أنواع من البرنس فلهم فيه مزيد اتقان كالمسمى بالعباسى (وأما هيئة المساكن والطرقات) فان الجديد على نحو مافى فرانسا والقديم على نحو مافى تونس لكن الطرقات معتنى بتنظيفها وتنويرها على كل حال كما فى فرانسا (وأما اللبس) فالرسمى فرانساوى وقواد الاعراب الكبار يلبسون قفطانا طويلا مطرزا باسلاك الفضة المذهبة وبقية لبس الاهالى على نحو لبس التونسيين سوى عموم لبس الرداء المسمى بالحرام حتى فى المدن ويجعلون العمامة فوقه وكلهم يدخلون رؤسهم فى فوهة البرنس ولباس النسوة أحسن سترة منهن فى تونس لانه متدلى وكذلك الاكل والمراكب على أنواعها فانها نحو مافى تونس الا

الذين

الذين لهم مزيد اعتناء بتقليد الاروباويين فقلدوهم في أشياء كثيرة وقد رأيت من العادات القديمة انهم لايدخلون ديارهم بنعالهم بل كل من وصل الى السقيفة نزع نعله ولبس نعلا خاصا بالدار أو دخل حافيا تحفظا على النظافة والطهارة ولهم أنواع ظريفة متقنة في الاكل سيما المتخذ من ورق العجين حلوا ومالحا (وأما اللغة) فهي أيضا عربية محرفة على نحو ما في تونس غير أنهم أقل فصاحة في النطق ببعض الاحرف مع وجود كلمات غير معروفة في تونس كقولهم أدر ولك بمعنى انظر أو ما قاربها وفي جهات ذرية البربر لم تزل لغات أسلافهم مستعملة كما في زواوة وبني مزاب

الباب السادس في انكلاتيره

الفصل الاول في سفري اليها

قد تقدم اني أقمت في باريس سنة ١٢٩٦ نحو شهر وحيث كنت علمت أغلب ما فيها ولزمني انتظار أشياء يتوقف عليها رجوعي الى تونس أحببت أن أقضي بعض أيام في رؤية انكلاتيره لشهرتها مع قربها من باريس فركبت الرتل السريع صباحا وذلك في رمضان الموافق لتموز الاعجمي واستمر الرتل سابحا بسرعة يقطع بها نحو الخمسة والاربعين أو الخمسين ميلا في الساعة فرأيت من منظر شمال فرانسا ما ربو عن الجهات الشرقية والجنوبية انتظاما وعمرانا الى أن وصلنا الى بلد كلي التي هي مرسى على أضيق خليج بحر المنش بين فرانسا وانكلاتيره ولها عدة أسوار وخنادق متينة حصينة للغاية ودخل الرتل بين سورين الى أن وصل الى محاذات الباخرة اللاصقة بالرصيف وكنا أخذنا ورقة الكراء الى ذات لندره فانتقلنا من الرتل الى الباخرة وصادفنا باخرة عجيبة الشكل اذ هي مؤتلفة من باخرتين متلاصقتين عرضا وسطحهما متحد ولكل آلة بخارية وبها بيت جلوس واسع جدا ذو اتقان بالغ وبها أيضا بيوت صغار لمن يريد الانفراد لكنه يزيد نحو عشرة فرنك في الكراء عن الطبقة الاولى وفي الباخرة جميع ما يحتاج اليه المسافر لكنه له ثمن زائد عن الكراء والداعي لجعل الباخرة كذلك هو صعوبة ذلك الخليج وشدة اضطرابه لانه مضيق بين بحرين ويمر فيه التيار بسرعة فبادنى ريح يشتد اضطرابه مع تطلب الراحة للمسافر فاخترعوا ذلك النوع من البواخر لكي لا يحصل فيه الاضطراب بكثرة عرضه فلم يفد واخترعوا نوعا آخر فيه أيضا وهو أن يكون بيت الجلوس منفصلا عن الباخرة من جميع الجهات ومعلقة فيها

على نحو الفوانيس بحيث اذا مالت الباخرة لايميل البيت حيث كان معلقا فيتبع ثقل
المركز فلم يفد أيضا لانه اذا اشتد الميلان يلاطم بعض أجزاء السفينة حائط البيت
ويتبعه فى الميلان فحاولوا أن يخترقوا طريقا تحت قعر البحر ووضعوا لذلك رأس مال
قدره أربعة ملايين فرنك بين الفرانسيس والانكليز للتجربة أعنى تجربة معرفة الطبقة
السفلى من أرض البحر هل هى صلبة قابلة للاستمساك أم هى رخوة أما أصل امكان
النفاذ فقد جربوه تحت نهر التيمس كما سيأتى ذكره ولازال العمل جاريا فى هاته التجربة
وذكروا أنهم وجدوا الارض صلبة بان حفروا فى شطئ البحر بئرين أعمق من أعمق
محل فى ذلك البحر فوجدوا طبقة الارض صلبة فاجتهاد الجهتين متوال فى أحداث
هذا الطريق وهذا ينبيك عن عزائم الامتين فى العمل والمال ولا يبعد حصول المقصود
فى وقت قليل ثم أقلعت بنا الباخرة ولم تحمل الا الركاب والبريد وماخف من البضائع
ورحل الركاب وأنعم الله علينا بان كان البحر فى نهاية السكون ولله الحمد فكنا فى غاية
الراحة غير انا لاننظر الاما قرب من البحر للباخرة لكثرة الغيم فى الشطين وبعد سير ساعة
وأربعين دقيقة وصلنا الى مرسى دوفر من انكلاتيرة التى هى أقرب مرسى فى مقابلة
مرسى كالى ووصلت الباخرة أيضا للرصيف ونزلنا الى الرتل الذى هو على أهبة السفر
بلصق الباخرة فسألنى خدمة الرتل الى أين توجهى فقلت الى لندره فقالوا أى جهة
منها فتعجبت هل هؤلاء لهم عجلات يوصلوننى بها الى محل نزلى مع انى لم أتخذ منزلا وانما
كنت كتبت لاحد معارفى فيها ليتلقانى فى المحطة فاعدت لهم انى ذاهب الى لندره الى
محطة سكة الحديد فقالوا أى محطة فتذكرت ما كتب لى المتلقى الى فى المحطة من انه
ينتظرنى فى محطة فكتوريا وعلمت اذذاك فائدة تنصيصه على اسم المحطة وحينئذ
ذكرت لهم اسم المحطة فعينوا لى الحافلة التى نركبها وكان ذلك بعد تعب فى التفاهم من
الجهل باللغات حتى كان الذى فرج الحال رجل يعرف الفرانساوى ثم قفل الرتل سرعان
سابحا بسرعة أزيد مما هى فى فرانسا حتى لايتمكن الناظر من رؤية الاشياء
القريبة وكان الرتل يطفر طفرا من تقارب مقاطع قضبان الحديد الجارى عليها
من سرعة السير اذ هو يسير ستين ميلا أو أزيد الى الثمانين فى الساعة الواحدة وكنت
أرى على بساط الارض آجاما عن بعد من شجرة الدينار التى يضم ورقها الى ماء الشعير
المتخذ سكركة المعروفة بالبيرة ونرى أكواما كالقرى المنثورة من الآجر المصنوع حتى
تعجبت من كثرته وكثرت معامله ولكننى عندما شاهدت بلدانهم زال التعجب لان

الآجر

الآجر وحده هو مادة البناء لمسافر بها من لندره واذا بدا خط الارض على نحو مد البصر كأنه شبكة صياد بقضبان طرق الحديد المتفرعة الى جميع الجهات والرتل واردة صادرة كالغيل السحاب فوصلنا الى المحطة وتلقاني المنتظر الى ونفس عني ملاقي بكلامه العربي وهو مستر اميوني أحد ابناء الشام انتقل الى هناك وسكن بلندره محترفا بصناعة التعليم للسان العربي وكان دخله من التعليم كافيا له بعمر لغلو الاسعار وكانت مدة السفر من باريس الى لندره تسع ساعات وثلاث أرباع الساعة بين السير في البر والبحر وسكنت في الحارة المعروفة بهيت بادلك وأقمت بلندره يومين منفصلين وثلاث ليال واليوم الوسط ذهبت فيه الى بلاد ابريتن صباحا ورجعت منها مساء حيث انها على شاطئ البحر ويقصدها أعيانهم صيفا وهي من أعظم منتزهاتهم وأبنيتها مثل أبنية لندره وأحسنها في هاته البلد ثلاثة أماكن (أولها) قصر الملك وبستانه فالبستان جميل اجمالا (وأما) القصر فقد بناه ملكهم ويلم الثالث المتولى سنة ١٦٨٩ الذي كان محبا للصيد والخلاءة محبا للانفراد فبنى قصر بريتن وكان مغرما بأحوال الصينيين فجعل بهاذلك القصر بعيدا عن القاعدة ليهنى عيشه بالانفراد ثم أنشأ القصر على نحو قصور ملوك الصين وجلب اليه من هناك سائر الادوات والمفروشات وغاية الفرق بين هذا البناء والبناآت المعهودة انه لا يشمل الاطبقتين والقباب كلها على شكل مخروط الوسط والحيوط والابواب كلها منقوشة مزخرفة بالاشكال الصينية وألوانها وتصاويرها والدرج ذات شكل غريب مرتاح وظاهر القصر مزخرف وعلى زواياه وأبوابه شرافات وصوامع جيدة مزركشة وقد باعت الملكة فكتوريا المتولية الآن هذا القصر لجمعية أهلية ليبقى منتدى للعموم في خطبهم واجتماعهم وقد انتدبوا اليه عقب شرائه من سائر أقطار انكلاتيره ومازال هكذا مباحا للمتفرجين وقد شنعت صحف أخبارهم على شح ملكتهم وتهمتها في المال ببيعها ذلك القصر للاهالي وكان ينبغي لها أن تهديهم اياه واظن ان الثمن لم يبلغ المليونين فرنكا (والمكان الثاني) في البلد هو محل معرض أنواع السمك في أحواض من الزجاج وراءها الضوء مركوزة في الحيوط ينزل اليه بدرج على الشط وحوله مطاعم أنيقة وحدائق وفوقها قهوة وفي بيوت هذا المعرض بيوت عديدة بجميع حيوطها أحواض زجاج فيها أنواع الحيوانات البحرية مالله به عليم ويستفيدون من ذلك كيفية حياة الحيوانات وتوالدها (والمكان الثالث هو دكة) على البحر طولها نحو نصف ميل مصنوعة من خشب متين مرفوعة على أعمدة متينة من الحديد عالية عن سطح البحر

وحول الدكة وفوقها مقاعد ومنازه وقهاوى وذلك هو منتدى المتنزهين واللاعبين والمتسابقين فى البحر وبقية البلد ليس فيها ما يستغرب وانما هى حسنة قليلة لطافة الطرق ولم تزل الاشغال جارية فى احداث حارات جديدة فيها ثم لما رجعت الى فرانسا بت ليلة فى مرسى دوفر لان الباخرة تسافر بالبريد مبكرة فاثرت الذهاب اليها عشية لكيلا اتعب بالركوب فى الرتل ليلا للوصول اليها وتطوفت فيها فاذا هى مرسى حربية وحشة متينة الحصون كثيرتها ومبانيها ردية وطرقها وسخة ومنزل المسافرين الذى بتنا فيه حسن متقن وطعامه ردىء وليس فى البلد ما يبسط النفس فركبنا منها بكرى الصباح ورجعنا الى فرانسا فى باخرة فرانساوية اعتيادية وكان البحر ساكنا مع الضباب الكثيف وحول شاطئ فرانسا كان الجزر حاصلا حتى خشى السفن من مصادمة الارض وكان قعر البحر يرى فى بعض الجهات

الفصل الثانى

لما كانت هاته المصر المتمصرة هى قاعدة انكلترة وفيها أنموذج سائر المملكة يلزم ان تفرد بالذكر غير انه لا يخفى ما للمعادات من المعادات وقد ذكرنا من أوصاف باريس وتفاصيلها ما يغنى كثيره عن اعادته فى صفة لندره فانقتصر على ما تنفرد به هاته عن تلك وهكذا نسلك فى سائر المباحث بحيث نقتصر على ما يفيد وما يشترك فيه الجميع يعلم حاله مما سبق فى الابواب السابقة فنقول ان لندره أكبر مصر فى أروبا وسكانها على ما تحرر سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م ٣٤٨٩٠٠٠ نسمة منهم ١٦٣٣٠٠٠ ذكورا و ١٨٥٦٠٠٠ اناثا ويخترقها نهر التيمس الذى يحمل السفن الكبيرة وعليه جسور عديدة ضخمة جدا منها البناء ومنها الخشب ومنها الحديد الذى لا أعمدة له يقوم عليها فى النهر وانما طرفاه على العدوتين ووسطه معلق بقضبان وسلاسل ممتدة الى طرفيه حيث يوجد أبنية ضخمة مرتفعة تمر فى أعلاها تلك السلاسل والقضبان ثم تنزل الى الارض بحيث تكون على شكل مثلث زاويته الوسطى قائم فيها ذلك البناء وتلك السلاسل أربع فى كل جهة من طرفيه اثنان وبعض هاته الجسور تمر عليها طريق الحديد وبعضها عليه جسر آخر يمر عليه طريق الحديد وقد خرقوا تحت النهر نفقا يمر فيه الرتل أيضا وطول النفق ألف ومائتا قدم وكان انشاؤه سنة ١٨٢٥ ثم طمى عليه الماء ثم جدد سنة ١٨٤٣ وكانت مصاريفه ١٥٣٥٠٠٠٠ فرنك بحيث ترى الطرق

عند

عند نهر التيمس في بعض جهاته على أربع طبقات فالرتل تحت الماء والسفن على
الماء والعجلات والدواب والناس على الجسر والرتل أيضا على جسر فوقهم والطرق
أكثرها في عرض عشرين ذراعا والقليل أزيد من ذلك أو أقل حتى ان منها الضيق الذي
لا تمر فيه عجلة والطرق قليلة النظافة حتى ان منها ما فيه الوحل من الطين بمقدار
لا تستطيع معه العجلات على سير الخبب وبعض الطرقات مبلط بقطع من الخشب
في شكل الحجارة ذات الشبر التي يبلط بها وذلك لقلة الوسخ من الخشب مع قلة الدوى
وفقدان قرقعة العجلات وذلك انما هو في الطرق الكثيرة مرور العجلات (وأما غيرها) *
فعلى النحو المعتاد والمنشآت غالبها من الآجر الا قليلا من أبنية خاصة ضخمة متخذة
من الحجارة وقليل أيضا من أساسات بعض الابنية فهاته تنحت لها الحجارة على شكل
مستوى جميل المنظر وكثير من الديار عند أبوابها اسطوانات من المرمر محمول عليها
رواشن أو سرادق وعامة البناء ذو ثلاث طبقات والرابعة السفلى وكل دار تسكن عائلة
فقط ولذلك كان منظر باريس أبهج الا بعض حارات بنيت على نحو باريس فلم
يستحسنها الاهالي وبقيت منفورا من سكناها وكل دار تجد على بابها روشن خارج عن
حائط الدار وفي البلاد عدة حدائق رحيبة جدا أعظم مما في باريس منها حديقة هيت
بارك ولكل حارة تقريبا حديقة صغيرة خاصة بأهلها وأعظم مكان في لندره هو الجهة
المعروفة بالسيتي وهو طريق عظيم مشتمل على دار صرف الدولة وعلى دار حاكم البلد
وهو مركز أشغال التجارة الكبرى ومحط ادارات أعيان التجار فترى فيه من الازدحام
ودوى العواجل والحوافل والجحافل والركاب والساعي ما يحير العقل والنظر والالباب مع ان
ابنيته وتحسيناته ليست مما يذكر وعادة أهالي لندرة ان حارات الاشغال والحوانيت
والمخازن لا يسكنها الا الصنف السافل من الناس وحارات السكنى تكون خالية عن
جميع ذلك حتى يتعب الساكنون في جلب ضرورياتهم لولا التيسير الكثير في اسباب
الانتقال من مكان الى مكان على نحو ما مر في باريس وتزيد لندره بان خط طريق الحديد
يطوقها بدائرتين احداهما أوسع من الاخرى وبالجملة فقد انفردت لندره عما رأيت
وسمعت من مدن العالم بكثرة الحركة وهول الجد في الشغل والاخذ والعطاء والسفر
والرجوع ويرى أثر ذلك في محطات طرق الحديد كما أشرنا الى ذلك سابقا من رؤية براح
شبكة القضبان مبسوطة عدة أميال ويحار العقل كيف لا يغلط مسير الزجيات
وحراس مفاتيح الطرق بذهاب الرتل الى غير قصده ففي لندره ثمان محطات على نحو

ماذكرنا فى محطة فكتوريا وقد أحصى فى احداها عدد الداخل والخارج من الرتل فى مدة نصف ساعة فكان اثنى عشر رتلا ولتقس على ذلك وقد نظرت يوما من قصر الزجاج دخان المرجيات الصادرة والواردة جارة للرتل فاذا هى مثل الجراد المنتشر فى كل الجهات (وأما بقية) الاحوال فهى دون باريس فى نظارة الحوانيت وبهجة البناء وعدم وجود محل للبول أو كنف فى الطرقات وفى النظافة والتنظيم والتنوير ولنذكر بعض محلات لم نر مثلها فى باريس فمنها قصر الزجاج وهو قصر عظيم جدا متخذ من قضبان حديد مرصف بينها قطع الزجاج وقد انشئ أولا مركزا لمعرض العام فى لندره وهو أول معرض فى اوروبا وبعد انقضاض المعرض نقل ذلك القصر الى ربوة حذاء لندره واتخذ سوقا لبيع تحف وسلع ظريفة ولوضع عجائب وآثار دهريه وصناعية للفرجة والتنزه وحوله حديقة انيقة ذات فوارات وقهاوى وعلى كل داخل ان يدفع شيأ زهيدا من المال لمجرد الدخول والفرجة وما يشترى فهو بثمنه وطريق الحديد يصل الى هذا القصر من جهتين وهو ذو ثلاث طبقات ومقسم على عدة اقسام (وفيه) ملاهى (وفيه) محل للرمايه (وفيه) حديقة (وفيه) عدة فوارات (وفيه) عدة مطاعم (وفيه قسم لمثال حمراء غرناطة بالاندلس اعنى مثال بعض جهاتها الشهيرة كوسط الحمراء والبيوت الكبيرة متقن التمثيل اعنى تمثيلا محسنا بحيث يدخل الانسان الى قصر هو على شكل الحمراء فيما تقدم وفى كيفية طلى البيوت وتمويهها بالذهب وما فيها من الكتابات الانيقة بالخط الكوفى وذلك القصر هو على نحو الابنية العربية لكنه فائق الاتقان والصنعة والتأنيق والتزويق وفى القصر الزجاجى (قسم) لاحوال الصينيين وصناعاتهم وأشكال اناسهم مجسمة بتصاوير من الشمع وهيئة المكثرين منهم لاستعمال الافيون وتأثيره القبيح فى عقلهم وذاتهم (وقسم) منه لاثار بخ بلاد بامبى من ايطاليا تاريخا بالمشاهدة لصورة أطوارها وقسم منه لحيوانات غريبة منها الغول المسمى بالكورا الذى هو نوع من القرد الكبير وقد مر ذكره فى باريس وأنواع أخر من القردة صغار شبيهة بالانسان الزنجى وفى القصر الزجاجى أيضا (قسم) لبيع التحف والبضائع الرقيقة وقد رأيت فيه نحو سبعة رجال من العرب من أهل الشام ومصر والمغرب متخذين محلات لبيع تحف بلدانهم والعطريات (والحاصل) ان هذا القصر الزجاجى جامع لاشتات الظرف والنزاهة (ومن الاماكن الشهيرة) فى لندره أيضا التربيعة المعروفة ترافلكر وفيها عمود بلسون المبنى من المرمر ارتفاعه ١٧٦ قدما انقليزى وعليه تمثال وحوله شرافات من النحاس اتخذت من

مدافع

مـدافع أخـذت من الفرانسيس وحول العمود فوارتان بالماء أمامهـما صورة الملك شارلس الاول وكان نصب العمود (سنة ١٨٤٣ ومنها أعمدة) أخرى (ومنها) الملاهى المتعددة وقد شرعوا فى بناء أكبر ملاهى فى أوروبا وأكثرها تأنيقا مباهاة لملهـى قران لوبرة فى باريس لكنـه لم يتم الى الآن وأعجب ما رأيت فى مـلاهيها فى محـل التشخيص من اللعب ان بتنا ترتفع فى الهواء الى السقف وتغيب فيه وتارة لما ترتفع الى نحو نصف الفضاء تذهب فى الهواء طائرة الى جهة اليمين من المتفرجين من غير أن يرى لها ماسك أو شئ تعلق به وقـد خاضت صحفهم فى ذلك ولم يقفوا على قول حقيقى فى صورة ذلك غـير انى شعرت بأنهم يقلون الضوء عند ارادة تلك اللعبة (ومنها) دار الامتحانات العلمية (ومنها) قصر الندوى وهو أعظم بنـاء فى هاته البلاد ويمكن ان يقال فى أوروبا أيضـاعـدا قصر الفاتيكان برومه فهذا القصر بلندره يشتمل على ١٢٦ مدرجا أو ازيد للصعود اليه وأكثر من ١١٨٠ حجرة و ١٩ ايوانا (منها) ايوان الاجتماع المسمى الرحيب ويشتمل على اسرة ومقاعـد ومطاعم وقهاوى بحيث ان أعضاء الندوة اذا يحوجهـم الحال الى اقامـة ايام هناك فلا يحتاج أحـد منهم لشئ سوى الملبوس يأتى به من محله ولما كان لبثهم طويلا ويقضون أشغالهم فيه فـكان فى القصر من التنوير ما يتعجب منه الناظر وكذلك أمر تدفئته (ومنهـا) المتحف البريتانى الشامل للآثار العتيقة والذخائر الغريبة وعلى نحوه ودونه عدة متاحف أخر (ومنها) دار الصرف اى البنك الدولى وهو أعجب بنوك أوروبا كبرا وغناء اذ فيـه من الذهب فقط عشرات آلاف الملايين مخزونة قطعا كبـيرة وصغيرة للدولة ولمن يؤمن ماله فضـلا عن المصوغ والفضة وللخزنة محل حصـين محاط بالمياه خشـية الحريق (ومنها) البورس أى محـل اجتماع التجار (ومنها) مجامع التجار العديدة (ومنها) قصر الهند أى محل ادارة الهند المؤنق (ومنها) دار شيخ البلد (ومنها) الحصن العظيم المسمى توراف لنـدره (ومنها) منزل المسافرين المسمى رتيش ماندت وهو خارج البـلاد على ربوة مطـل على فياض ومرج ونهر وينتابه الناس للأكل بكـثرة وللسكنى بقـلة وأكله أحسـن من غـيره (ومنها) بسـتان الملك وقصره خارج لنـدره أيضا المسمى همبتون كورت وليس به من الغرائب الا عريشة عنب واحدة مغروسة فى بيت من الزجاج لوقايتها من البرد حيث ان شدة برد انكلا تيره يمنع من نبات العنب بها فـكانت هاته الشجرة معتنى بها منذ ازيد من قرن وقد عظمت جدا حتى ملأت أغصانها جميع البيت التى طولها نحو الاربعين ذراعا وصارت تثمر آلافا من العناقيد ولا يخرج منها

عقود الانبذكرة من عند ذات الملكة تهادى بها من تحفه من الاقارب والاعيان وعلى تلك الشجرة قيم خاص وخدمة وتقصد للتفرج بانفرادها (والحاصل) ان لندره لا تونس الوارد بنظرها الاجماعى ومحاسنها المخبئة يروق بها الاعالى من الناس ومن أكرموه معهم حتى انها ليست بها قهاوى كما فى سائر اروبا وليس فيها الاحانات لا يدخلها الا السفهاء أو حوانيت تبيع الحلويات لمن يدخلها واقفا ومنها عمود مصر المسمى بالمسلة موضوع على عدوة نهر التميس الحاوية للقصور الملكية وسائر مهمات لندره وقد صرف على جلبه من اسكندرية أموال باهظة تجاوزت عدة ملايين من الفرنك وأنشئ لجلبها سفينة خاصة بخارية وصاحبتها للمراقبة سفينة أخرى وتلقيت عند الوصول الى لندره باحتفال وركزت فى موضعها غيران هذا الموضع وما حوله ليس عمايذكر وبينه وبين مركز المسلة بباريس بون بعيد وكان الانقليز انما قصدوا اسم وضع مسلة بقاعدتهم لا انهم أرادوا جمالها وبهاءها (ومنها تمثال) زوج الملكة الحالة المتوفى سنة ١٨٦١ فاقيم له تمثال فى غيضة هيت بارك من أعظم الهيا كل بناء ورونقا واتقانا من أنواع المرمر الملون المزخرف بقناطير الذهب وصرف عليه عدة ملايين من الفرنك (ومنها) المكتبات العديدة الحاوية لملايين الكتب واحداها شاملة للكتب التى غنمت من ممالك الهند التى استولى عليها الانكليز استيلاء اباتا وهاته المكتبة ليس بها قاعات وأواوين كبيرة كغيرها وانما هى عبارة عن قصر ضخم كقصور السكنى الكبيرة فى باريس وفيه عدة طبقات وكل يشتمل على بيوت بها نوع من الكتب والفنون وعلى كل نوع مدير تحته عدة قيمين والكتب المجلوبة من الهند فى أعلى طبقات القصر فى عدة بيوت ضيقة غير مرتبة ولا نظيفة والغبار على أكثرها ووضعها فى الخزائن على ترتيب وضعها فى دفتر قيد أسمائها وهذا الدفتر انما رتب منذ عهد قريب لان الكتب أتى بها من الهند فى أزيد من أربعين صندوقا كبيرا وبقيت متروكة على حالها زمانا طويلا ثم لما فتحت الصناديق وجدت ملآنة بالكتب وضعت هناك زمانا طويلا من غير ترتيب ثم كلف بتنضيدها وكتب فهرس لها أحد المستعربين من جهات سورية فرتبها على حسب حروف المعجم فى أسمائها من غير نظر لموضوعاتها ومعانيها فتجدها مجموعة ولا جامع الا حروف أسمائها ولم يتمها كلها بل قيد منها ألفا وخمسين مجلدا وبقى غيرها غير معروف ثم ان الكتب المزخرفة والاوراق المذهبة جمعت فى صناديق من الزجاج للناظرين فترى ورقة من مصحف كريم وبازائها ورقة من تصاوير الصينيين

الى

الى غير ذلك وتشتمل هذه المكتبة على كتب غريبة قليلة الوجود أو غير معروفة وقد طبع ما تم من فهرسها وأعطيت منه نسخة وليس هو مجرد اسم الكتاب بل يذكر أوله وطالعته وخاتمته ومؤلفه وكاتبه وسنته بالعربى مع الترجمة للانكليزى ومما رأيت به نسخة من التلويح بخط جميل صحيح أظنها بخط المؤلف حيث قال فى آخرها كتبت هذه النسخة للشاب العزيز منى وأنا العبد المذنب الغريب الموسوم بسعد التفتازانى غفر الله ذنوبه وستر عيوبه وهو المحترم المكرم صاحب المروءة والكرم علاء الملة والدين بلغه الله أقصى ما يتمناه اه وعلى ظاهر هذه النسخة ختم مدغم كانه خاتم تيمورلنك والله أعلم

الفصل الثالث

﴿فى وصف انكلاتيره﴾

مسمى هاته المملكة جزيرتان كبيرتان احداهما أكبر من الاخرى واقعتان فى البحر الشمالى من أوروبا تبتدئ من دقيقة ٥٧ ودرجة ٤٩ شمالا الى دقيقة ٥٠ ودرجة ٦٠ وفى الطول الغربى معتبرا من باريس من دقيقة ٣٤ ودرجة ١ الى دقيقة ٥٠ ودرجة ١٢ ويحدهما من ثلاثة جهات المحيط الشمالى ومن الجهة الرابعة الخليج المسمى بالمنش الفاصل بينهما وبين فرانسا ثم يفصل بينهما فى ذاتهما خليج مارجرس وبحر ارلانده وأكبرها تين الجزيرتين يسمى انكلاتيره وجهاتها الشمالية تسمى اسكوتسيا والجزيرة الصغيرة تسمى ارلانده ولهذا كانت هذه المملكة معتبرة ثلاثة أقسام نظرا للتاريخ القديم ويسمى مجموعها الآن برنيطانيا العظمى وعلى الاجمال فأرضها خصبة جدا ذات مزارع ومراعى واسعة الا الجهات الشمالية المسماة اسكوتيا فانها لشدة بردها كانت غير صالحة للزراعة وهاته المملكة أراضيها منبسطة بها ربوات قليلة الارتفاع وكلها معمورة حسنة المنظر متقنة الصناعة (وأما الجبال) فهى منخفضة بها الا فى اسكوتسيا فانها مرتفعة شاهقة وليس بها جبل بالكانى (وأشهر) مكان فى الجبال جهة الشمال على البحر فى اسكوتسيا المكان المعروف بممشى الجبابرة وهو أعمدة صخرية مركبة على بعضها الى علو ٤٠٠ قدم بغاية الاحكام خلقة فكانت نزهة للناظرين (وأما أنهرها) فكثيرة وأعظمها نهر ساورن الذى يصب فى المحيط عند مدينة بريستل ونهر مرسى الذى يصب فى بحر ارلانده عند مدينة ليفربول ونهر التيمس الذى يحمل

السفن العظيمة الى مدينة لندره وبين هاته الانهر ترع عظيمة سهلة المواصلات وكذلك
نهر شانون فى ارلانده والترعة الملكية بها الموصلة بين البحرين (وأما بحيراتها) فكثيرة
أيضا وهى فى اسكوتسيا أبهج ما يحيط بها من المرج والجبال ولذلك كانت منتدى
الاغنياء فى الصيف وأشهرها بحيرة نس وبحيرة لومند طولها نحو ٣٠ ميلا وكذلك
بحيرة نياغ فى شمال ارلانده وبحيرة أرن فيها أيضا (وأما هواؤها) فهو على العموم بارد
وفى الشمال أشد وسليم موافق للصحة لكن يكثر فيها الضباب صيفا وشتاء وكذلك المطر
الذى يسقى مزروعاتهم صيفا وشتاء ويوم الصحو الذى ينظرون فيه زرقة السماء يعد من
حسنات الايام لان الضباب يتكاثف أحيانا الى أن يحوج الى ابقاء النور نهارا وربما
كان غير مجد الا فى البيوت والمسقفات أما فى الطرق فالنور راغما يقوم بنفسه ولا تخرق
أشعته تكاثف الضباب وكاد المطر أن لا يفارقهم ثلاثة أيام متواليات وقد يشتد الحر
فى الصيف الى أشد من أقاليم خط الاستواء سيما فى دواخل القارة حتى يموت الناس فى
الطرق وذلك لانعدام النسيم وسكون الهواء سكونا زائدا فيشتد الحر الى درجة عالية
للغاية لكنه لا يدوم غالبا اليوم أو بعض يوم وتعقبه السحب والامطار والبرد (وأما
نباتاتها) فهى نباتات الاراضى الباردة والجهات الوسطى والجنوبية تخصب فيها سائر
الحبوب وان كانت لا تكفى السكان وأما العنب وما شاكله من نباتات الاعتدال والحر
فلا يوجد منه الا ما يجعل له بيوت خاصة معالجة بالتسخين النارى ومع ذلك فتجد الارض
بهجة مخضرة بالنباتات لكثرة العلاج واتقان الفلاحة وتجرية المياه وغاباتها كثيرة
بها الاشجار الضخمة الصالح خشبها لانشاء السفن العظيمة فيراها الناظر معمرة لاغلب
البقاع ونباتات المراعى خصبة جدا تسمن عليها الحيوانات (وأما معادنها) فالغنى منها
الحديد والفحم الحجرى بكثرة فى أغلب الجهات وفيها الرصاص وغيره وهى أغنى ممالك
أوروبا فى المعادن (وأما حيواناتها) ففيها كل أنواع الحيوانات الموجودة فى فرانسا
وايطاليا كما سبق ذكره والسباع منها منقطعة للاجتهاد فى ازالتها من قديم فان وجد
شئ من صغار السباع فغالبا هو فى الجبال الشمالية وذلك كالدب والثعلب وما شاكلها
وأول من اعتنى بافناء السباع من المملكة الملك أدغر المتولى سنة ٩٥٩ فقد ألزم
رعيته فى كل سنة بأن تأتيه بثلاثمائة ذئب واستمر ذلك الى ان فنى ذلك النوع وقد
كان مالكا أرضها مع خبثه الشديد لان الذئاب الشمالية كالسباع الكبيرة فى الجرءة
والاذاية كالمشاهد الآن فى الروسية وخيلها جيدة للغاية وفيها من أجود الخيل العرابية

لشدة

لشدة العناية بجلبها وتوليدها وتربيتها حتى فاقت سائر أرض باقي الخيل وكذلك غنمها أحسن أنواع الاغنام وصوفها مرغوب للصناعات النفيسة لانها كادت ان تكون مثل الحرير (وأما مدنها فقاعدتها الندره) وقد مر ذكرها وبقية المدن كثيرة ومن أشهرها ✽ ليفربول وهي ثانية لندره (في التجارة) واقعة على مصب نهر مرسى في بحر ارلانده وفي مرساها من السفن ما يستغرب من كثرته ثم (مدينة) مانشيستر لها من الشهرة ما بيناه في السابقة وهي شرقيها على نحو (٣٢) ميلا ثم (مدينة) بيرمنهام ثم (مدينة) وشفليد (ومدينة) كدرم فستر في أسكوتسيا (مدينة) ايدنبر (ومدينة) ابردين (ومدينة) دندى (ومدينة كلاسكو وهاته أعظم اخواتها تجارة ومركزا ومعارفا وفي ارلانده أربع عظيمة (احداها) جهة الشمال وهي بلفاست (الثانية) جهة الشرق وهي دوبلين (الثالثة) جهة الجنوب وهي كورك (الرابعة) جهة الغرب وهي غلوه وكل من هاته الاربع قاعدة للقسم الذي هي فيه وهنالك مدن أخرى عديدة غير هاته (وأما مراسي) ✽ هاته المملكة فحيث كانت هي جزائر بحرية فكادت مراسيها أن لا تعد وأكثرها محصن تحصينا جسيما حتى ان كثيرا من الحصون في المراسي الحربية صارت الآن مدرعة بصفائح الحديد الثخين الذي لا يعمل فيه الكور ومن المدافع الجديدة وفي بعضها معامل للسفن المدرعة والخشبية ومن هاته المراسي ما هو مأمن للسفن بأصل الخلقة كاكثر مراسي ارلانده لان في شطوطها تعاريج كثيرة حسنة المنظر ومنها ما هو مأمن بالصناعة وتجيء الى هاته المراسي التجارة في السفن والبوابور من سائر الاقطار وأكثر سفن العالم انما هو للانكليز كما يأتي توضيحه ان شاء الله تعالى وقد تحرر ان لها على شطوطها لهداية السفن ليلا أزيد من مائتي منارة (وأما تقاسيم المملكة) بالنظر للادارة فهي في انكلاتيره ✽ الاصلية اثنان وخمسون مقاطعة وفي أسكوتسيا ثلاثة وثلاثون مقاطعة وفي ارلانده أربع مقاطعات فالجميع تسعة وثمانون مقاطعة لكل منها ادارة على نحو ما يأتي بيانه ان شاء الله (واعلم) ان هاته المملكة تتبعها جزر أخرى صغيرة حواليها كثيرة أشهرها جزيرة مان وجزائر نورموندايا وذلك عدا المستعمرات الخارجية لان ماذكر هو قطعة من ذات المملكة (وأما أهل المملكة) فهم اثنان وثلاثون مليونا كلهم انكليزيون ودياناتهم ✽ نصرانية على مذهب البرتيستانت الا البعض وهم أكثر أهل ارلانده فهؤلاء على مذهب الكاتوليك ويوجد فيهم قليل من اليهود والدهريين وأفراد من المسلمين منهم من أهل المناصب العالية والبيتوتات الكبيرة الملقبين باللورد كاللورد استانلي وهو من

الصادقين فى الاعتقاد الاسلامى ولله الحمد دخل اليه عن رؤية وبرهان نسأل الله له مزيد التوفيق والحماية وعلو الكعب والهداية ثم ان هاته المملكة لها مستعمرات واسعة فى جميع اقطار الارض حتى كانت أول دولة فى العالم فى اتساع الممالك وثانى دولة فى كثرة الرعية اذ هى تالية لدولة الصين فى كثرة الرعية لكنها الاولى فى اتساع المملكة وعلو الشأن فى اقطار الارض جميعها فاعظم مستعمراتها هو الهند وما معه وقد مر فى المقدمة تفصيل ما وصلنا اليه من أحواله ولها فى آسيا أيضا جزيرة هنكونغ فى الصين ومدينة عدن وباب المندب وجزيرة بريم فى جزيرة العرب وجزيرة قبرس فى البحر الابيض دخلتها بمعاهدة مع الدولة العثمانية سنة ١٢٩٥ وحماية على مسقط وبعض قبائل شطوط جزيرة العرب الشرقية ولها فى أروبا جزيرة الياغولاند فى بحر الشمال وجزرجرسى وغرنسى فى بحر المنش وجزائر صغيرة حول المجمد الشمالى وجبل طارق الهائل التحصين فى ارض اسبانيا على الخليج الموصل بين المحيط والبحر الابيض المسمى ببوغاز طارق لان طارق هذا هو الذى عبر البحر من افريقية واستملك الجبل المذكور للمسلمين فسمى به ثم افتتح بقية الاندلس وكذلك لها فى أروبا جزيرة مالطه فى البحر الابيض وسيأتى تفصيل حالها ان شاء الله ولها فى افريقية شطوط من سانيقال وجبال الاسد فى كينيا العليا وارض شط الذهب فيها وراس الرجا الصالح وجزائر سنتلين وموريس ولاسانيول وشطوط فى جزيرة مدغسكار ولها نوع حماية او سلطة على ممالك مستقلة فى افريقيا أيضا مثل الزلوس وغيرها فى ارض الكفرونهوذ فى الزنجبار ولها فى امار يكا البرنيتانيا الجديدة فى شمال امار يكا وكاندا وبرنزويك وسكوسيا ولابرادور وكلها توصف بالجديدة وجزيرة الارض الجديدة وأراضى أخرى غربى شمالى امار يكا وجزائر المجمد الشمالى وجزائر الانتيل الصغار وجزائر جامايك وبمنان الانقليزية وما جلان ولها فى استرالي الشط الشرقى ومعظمها من بقية الشطوط وجزائر تزمانيا وزيلاندة الجديدة ونورفولك فاذا نظر المتأمل لاتساع هاته المستعمرات وافتراقها على جميع اقسام المسكونة علم مقدار اقتدار هاته الدولة وسيأتى فى فصل التاريخ ان من حسن ادارتها كانت هاتيك الممالك قوة لدولتها الاجالبة لضعفها وهذا جدول لعدد السكان

سكان انكلاتيره	٠٢٢٧٠٤١٠٨
سكان اسكوتسيا	٠٠٣٣٥٨٦١٣
سكان ايرلانده	٠٠٥٤٠٢٧٥٩
سكان الجزر التابعة لها	٠٠٠١٤٤٤٣٠
عساكر وبحرية خارجها	٠٠٠٢٠٧١٩٨
سكان ممالكها بالهند	١٦٢٠٧٢٧١٥
سكان بقية اماكن باروبا	٠٠٠١٦٠٣٦٩
سكان ممالكها بامريكا	٠٠٥١٣٣٧٢٢
سكان مستعمرات افريقيا	٠٠١٨٦٠٠٠٠
في استراليا	٠٠١٩٥٨٦٥٠
في بقية الجهات	٠٠٠٤٢٦٠٤٧
	٢٠٣٤٣٠٦١١

الفصل * الرابع

* في اجمال تاريخ انكلاتيره *

مطالب في تاريخها القديم لا يخفى ان سائر اوربا كانت في الاعصر السالفة على جانب عظيم من التوحش فلذلك كانت تواريخها القديمة عقيمة مجهولة ومن ذلك تاريخ انكلاتيره أيضا وغاية مايعلم من أحوالها ان قوما من السكنيين أي قدماء الفرانسيس الذين مقرهم في فرانسا بين نهر السين ونهر غارون عبروا الى أراضي انكلاتيره بقصد توسيع التجارة فلم يجدوا لهم ممانعا واستوطنوا هنالك ثم لحق بهم فرقة من اهل البلجيك وبقوا جميعا على التوحش التام وحكمهم بايدى رؤساء القبائل بل العائلات حتى ان غير هؤلاء هم كالعبيد بايديهم وبينهم كهان لهم سلطة على الجميع بما يتعلمونه خفية من علم السيمياء والطبيعيات ليوهموا العامة بخرق العادة لهم حتى اعتبروهم كالالهة وكانوا جميعا يعبدون الاصنام حتى انهم يقربون اليها دماء الانسان بالتضحية لها وفي سنة ٥٥ قبل التاريخ المسيحي عبر الى انكلاتيره يولوس قيصر بجيوش الرومان فلم يتمكن منها لمعارضة الاهالي مع هيجان عظيم في البحر ثم عاد اليها ثانيا واستملك منها بعض الجهات لكنها لم يستقر حالها أيضا وفي سنة ٤٣ بعد التاريخ المسيحي اعاد

الرومان الكرة وافتتحوا الجزيرة وارسلوا ارتيس مصحبتها الى رومة اسيرا ثم ازداد الرومان
تمكنا منها بما وقع من التخاذل بين أولئك الكهان الى ان ابادوهم غير انه كانت احدى
القبائل مترئسة عليهم امرأة يقال لها بوديكيا فانتهضت جميع الاهالى وقهرت
الرومان وقتلت منهم (سبعين) الفا ثم اعادوا الكرة وانتقموا من الاهالى حتى قتلوا منهم
ثمانين ألفا وزادوا عليهم العذاب المعروف من الرومان ثم عدلوا فيهم وكل اخضاعهم
بالعدل أحسن من السيف لكنهم شغبهم أهالى اسكوتسيا الساكنون فى الجبال بغاراتهم
المتتابعة فبنوا بينهم سورا ثم آخر أعظم منه طوله ثمانون ميلا وذلك فى حدود سنة ١٢١
مسيحية وفى سنة ٢٨٧ استبد على الرومان احد قوادهم بميل الاهالى اليه وصار ملكا على
انكلاتيره ثم عادت الى الرومان بلا حرب لتكاثر الانقسامات الداخلية ودامت ولاية
رومانية الى القرن الخامس وفى مدة استيلاء الرومان التى هى أربعة قرون حصلت
الاهالى على معارف جمة مما كان عند الرومان حتى كانت ذات مدن وحضارة
وصنائع وتجارة لما فى الاهالى من النشاط الى الكد ثم فى سنة ٤٢٠ اضطر الرومانيون
الى تسليم انكلاتيره لاهلها ورفع جيوشهم منها لما وقع فى ايطاليا من الحروب الاهلية
والخارجية فكان حفظ قاعدتهم أولى لهم من حفظ المستعمر غير ان أهالى انكلاتيره
وان حصلوا على حظ من التمدن بسبب التسلط عليهم فقد فقدوا ما يوازى ذلك من
الحرية والشجاعة للهوان الذى حلوهم اياه فلم يستطيعوا الاستقلال بانفسهم لمهاجمة أهل
الشمال من جبال أسكوتسيا فلذلك استنجدوا قبيلة من الالمان مقرها على مصب نهر
الالب من أوروبا الشمالية تسمى السكسونية لما كان بينهم من المودة والمخالطة وطلبوا
منهم الاعانة على دفاع الاعداء فأنجدوهم لكنهم استأثروا عنهم بفائدة النصر فجعلوا
الاهالى كالعبيد لهم وتملكوا عليهم وعندما أرادوا دفاعهم شتتوهم واستقلوا هم بالبلاد
ورحلت فرقة من أهالى انكلاتيره فارة بحياتها الى أراضى فرانسا تسمى المكان الذى
استعمروه منها باسم برنيطانيا نسبة اليهم حيث كانوا من أهالى برنيطانيا وكان مبدأ
استملاك السكسونية من سنة ٤٤٢ ميلادية ثم قسموا انكلاتيرة الى سبع ولايات
تسمى باسماء أعيانهم ولكل منها أمير ويرجع الجميع الى ملك هو واحدهم ونشأ عن ذلك
منازعات فى هاتيك السيادة دامت بسببها الحروب الداخلية وعندما فاز بها ملك ولاية
كانت أحد السبع المذكورة دخلت فى الاهالى الديانة النصرانية وذلك سنة ٥٩٦
وامتدت الهوينا فيهم الى أن عمتهم وفى سنة ٨٢٧ زال استقلال سائر الولايات بدخولها

جميعا

جميعا تحت تملك ملك واسيكس وهو اغبرت وهو أول مستقل حقيقة بالجميع وأول ملك
لانكلاتيره جميعا من العائلة السكسونية وتوارثت الولاية أولاده وفي مدتهم هجم عليهم
أهالي الدانيمرك وتملكوا أولا عدة جهات ثم عمت ولايتهم لكنها لم تطل واسترجع
منهم الفريد الملك الاصلي من العائلة السكسونية بعض الجهات ثم عقد معهم صلحا ومعاهدة
على الذب والاقدام واشترط عليهم الدخول في النصرانية ثم التفت الى اصلاح البلاد من
جهة التمدن ومن جهة القوات الحربية وأدمل جراحاتها ورقاها الى أوج حسن ومع ذلك
كان منكبا على التأليف والترجمة فافاد أمته فوائد جسيمة وفتح لهم بابا من الحرية حتى
كان من جملة حكمه التي جرت عندهم مثلا الى الآن قوله يجب ان يكون الانكليز احرارا
مثل أفكارهم ولاجل ذلك لقب هذا الملك بالفريد الكبير وكانت وفاته سنة ٩٠٠ ومن
مشاهير ملوك هاته العائلة حفيد المذكور اتلستان الذي أتم استخلاص المملكة من
بقية الدنمرك ورقى قواته الحربية الى أن رغب في موالاته غالب الملوك من أروبا فعقد
الصلح مع فرانسا وصاهر باخته ملكها وباخته الاخرى ملك المانيا ومن مشاهيرهم
أيضا ادغر تولى سنة ٩٥٩ فانه أبلغ القوات البحرية الى درجة لم تعهد لهم في ذلك
التاريخ حتى صارت سفنه أربعمائة سفينة وكان يتفقد بنفسه المملكة مرة في السنة وهو
الذي قطع الذئاب منها كما مر آنفا ومنهم أيضا الملك اثرلد الذي كان سبب استيلاء
الدنمرك على المملكة بقتله جميع من كان فيها منهم فافتتحوها بحروب ذريعة وتملك منهم
على انكلاتيره ثلاثة ملوك أشهرهم الملك كانوت الذي عمم العدل والراحة حتى استطاع
السفر عنها لزيارة البابا في رومية وكتب الى عماله بما تعريبه اعلموا جميعا اني نذرت
حياتي لله وأن لا أحكم في ممالكي الا بالعدل وأن لا أفعل في كل أمر الا المستقيم فان كان
صدر مني وانا في عنفوان شبيبتي وعدم مبالاتي ما يناقض ذلك فها أنا ذا قد عزمت بحول
الله على تعويض ما فرط مني ولذلك أرجو وآمر كل من قلدته شيئا من الامر ويريد
خلاص نفسه وبقاء طاعته لي ان لا يظلم أحدا سواء كان فقيرا أو غنيا وان يسووا بين الاشراف
وغيرهم في انالة حقوقهم على مقتضى الشرائع التي يجب حفظها ولا يحول لكم عن ذلك
الخوف مني ولا تطلبوا رضاء الاشراف ولا الميل الى ملء خزائني المالية فاني لا أحب مالا
جمع بظلم اه وبعد وفاة هذا الملك ثارت الفتن بين أعقابه وأعقاب العائلة السكسونية
الى ان استولى منها اثنان في ارتباكات متوالية حتى انقرض الجميع سنة ١٠٦٦ وبينما
كانت الاهالي في نزاع فيمن يملكونه عليهم واذا باحد امراء ولاية نورمندية التابعة

لفرانسا فقد هجم عليهم وقهرهم جميعا واستقر ملكا عاما على انكلاتيره وعلى نورمنديه ومع انه حصلت له حروب فى انكلاتيره حملته على الانتقام بالقتل لاهلها وافساد الزرع حتى نشأت عنه مجاعة مات فيها نحو مائة ألف نفس ثم ثار عليه ابنه الذى خلفه فى نورمنديه وحاربه وانتصر عليه وبعد موته خلفه ذلك الابن فى كل من المملكتين مع حروب دائمة فيه وفى خلفه حتى استولى هنرى الاول من احفاده وحاربته فرانسا فى مدة لويس السادس عشر لاستخلاص ولاية النورمنديه وغلبها ونازع البابا فى حق اعطائه وظائف الديانة واستقل هو بها مثل سائر الوظائف ثم تعاقبت الثورات والحروب تارة داخلية وتارة مع الولاية النورماندية فى استخلاص نفسها ونزاع فى التملك الى ان ولى هنرى الثانى أول العائلة البلانتاجينيه وهو اسم حشيشة كانوا يضعونها فى قلانسهم فسدت العائلة اليها وذلك سنة ١١٥٤ فاعمل هذا الملك حزمه فى ازالة تعصبات الجهات وأزال ما فيها من الحصون وخضد شيئا من شوكة الاعيان وأجرى نوعا من التسوية فى الحقوق فهدأت الحروب فى مدته ومن مشاهير فروعه فى الملك ريكاردوس الملقب بقلب الاسد المتولى سنة ١١٨٩ وهو الذى اشترك فى حرب الصليب ثم أسر عند النمسا وفداه أهله وقتل وهو محاصر لاحدى القلاع فى فرانسا وولى أخوه يوحنا الموسوم باختلال العقل حتى خسر مستملكات الانكليز فى فرانسا وقتل ابن أخيه فثارت عليه الاعيان وألزموه بما يأتى خبره وانتقلت حالة المملكة الى طور آخر

﴿مطلب فى تاريخ انكلاتيره الجديد﴾ اعلم ان مبدأ ظهور الحرية فى جميع أروبا على الاصول المعروفة هى انكلاتيره ولذلك كانت هى أسبق ممالك أروبا الى ذلك وحصل فيها هذا الامر على نحو ما سيأتى ولهذا اعتبرنا ذلك فهو تاريخ جديد الى انكلاتيره لانها استمرت على أصوله وزادتها ارتقاء الى الآن وان اعترت فى الاثناء توقفات ومعارضات تارة تخضد شوكة القانون وتارة تزيلها لكن على كل حالة دنشبت أصوله وأدركتها العقلاء ومرت منهم الى غيرهم الهوينا شأن الاصلاح فى كل شئ (وحاصل هذا البناء) ان الملك يوحنا وبلفتهم جان سانتير لما تصرف تصرفات أضرت بالمملكة والدولة تعصب أعيان المملكة وفرضوا قانونا سموه بالشرط الكبير وألزموا الملك بقبوله وامضائه والعمل به وذلك فى سنة ١٢١٥ فلم يسعه الا العمل بذلك وملخص هذا الشرط الكبير هو ان الملك التزم فى حق نفسه وحق من يأتى بعده بمنح الحرية الى جميع الانكليز وان فرض الضرائب على الامة لا يكون الا برضاء مجلس مركب من الاساقفة ورؤسائهم

وأهل

وأهل الخطط الدينية والاعيان من الامة أصحاب القاب البارون والكنت والموظفين في الدولة وان ذلك يجرى أيضا فيما اذا اقتضى الحال جعل اعانة مالية على مدينة لندره مع بقاء حريتها القديمة وان مجلس الحكم العام لا يلزم انتقاله الى حيث ينتقل الملك وان المكترين للاراضى لا يلزمهم العقاب المالى لاجل هفواتهم وانما يكون العقاب على الجناية ولا يؤخذ لاجلها الا ما يزيد على القدر الضرورى للجانى وهكذا الباعة والسوقة لا تمس رؤس أموالهم ولا تعطل حركاتهم التجارية ولو لجناية وكذلك الفلاحون الذين تحت تسلط الملك أو أصحاب الاملاك لا توضع عليهم ضرائب العقاب عند الذنب الا بقدر الطاقة بحيث لا تتعطل أشغالهم وان جناياتهم الملزمة لذلك لا تثبت الا بشهادة اثنى عشر نفسا ممن يرضون للشهادة مع اليمين وان يبطل عمل التسخير بأخذ حيوانات الاهالى وعجلاتهم لحمل اثقال الملك وان يتحد عيار الكيل والوزن والقيس في سائر المملكة على عيار لندره وان لا يمس حق لانسان مطلقا في كل ما يرجع لذاته وماله وعرضه ولو من الملك الا بمقتضى القانون وحكم المجالس به وان لا يمنع أحد من السفر الى أى مكان اراده برا و بحرا ولا يمنع من الرجوع متى اراد مع التزام الطاعة على مقتضى القانون (الخ) فمن تأمل ما لخصناه من ذلك الشرط يعلم ما كانت عليه الحالة سابقا مما يناقض الشروط المشار اليها ثم خلف ذلك الملك ابنه هنرى الثالث ودام في الملك خمسا وخمسين سنة مع كونه غير جدير بالتصرفات وانما عضد ابقاء العمل بذلك الشرط وزاد تأكيدا بالقانون المسمى بتقرير اكسفورد نسبة الى البلد المنعقد بها وملخصه ان مجلس البارلمان أى مجتمع البارونات هو الذى يعين أعيان المتوظفين والحكام الذين يتبدلون في كل سنة ويحرس قصور الملك ويجتمع ثلاث مرار في السنة ويبقى في بقية السنة لجنة منه مركبة من اثنى عشر عضوا يتفاوضون دائما مع مجلس الملك ويوظفون في كل مقاطعة أربعة أعضاء لقبول الشكاية من الاعيان والمتوظفين ويعرضونها على البارلمان عند أول اجتماع (الخ) ثم ولى ادورد الاول الملقب بذى الساقين سنة ١٢٧٢ ودخلت في مدته ايالة والس تحت انكلاتيره وولد ابنه بها ولهذا صار لقب ولى العهد برنس والس وبرنس دى غال نسبة الى المكان المولود به من الاسمين المذكورين ثم ولى ابنه ادوارد الثانى سنة ١٣٠٧ بعد حروب طويلة في مدة الملكين أفضت بالثانى الى الموت في السجن واستولى بعده ابنه ادوارد الثالث سنة ١٣٢٧ وهو ابن اثنتى عشرة سنة وهو المبتدى لحروب المائة سنة مع فرانسا بدعوى استحقاقه تاجها لانه من ذرية البنات الاقرب من فليب غا[illegible] وامالكها

واستولى على كالى و بردو و بايون مع مستتبعاتها من فرانسا به حروب هائلة وفى مدته ظهر مذهب البرتيستانت الذى انتشأ فى انكلاتيره من رجل فاسقى متدين بالنصرانية ولازال يتقوى فيهم ذلك المذهب والحروب مستمرة تارة للديانة وتارة لجور الملوك الى أن استولى الملك هنرى الرابع سنة ١٤٠٠ وهو أول العائلة المسماة لانكستر نسبة الى دوك ولاية تسمى بذلك الاسم ودامت الحرب فى أيامه الى أن خلفه ابنه هنرى الخامس سنة ١٤١٣ الذى جمع تاج انكلاتيره وفرانسا فتتاحه للثانية وعند موته تتوج ابنه فى حضن مرضعته بمدينة باريس بالتاجين معا لانه ابن تسعة أشهر ولقب بهنرى السادس غير انه ضعف أمره بانقياده لامر زوجته عند شمو بيته فانقسمت انكلاتيره الى قسمين أحدهما تابع لهذا الملك والآخر لمن من العائلة السابقة واتخذ الاهالى شعارا دالا على التبعية فأتباع الملك شعارهم وردة حمراء والآخرون شعارهم وردة بيضاء ولهذا تسمى حروبهم تلك التى دامت ثلاثين سنة بحروب الوردو خرجت فى مدتها فرانسا واستقلت وكشفت الحرب عن رجوع الملك الى العائلة السابقة بكاندو فظائع من الملك ادوردالرابع الذى تسبب فى ذلك ولم يطل الملك فى عقبه عند وفاته سنة ١٤٨٣ وغايته انتزاعه من ابنه الصغير الذى تحت وصاية عمه فاغتنم العم الامر الى نفسه بقتل الموصى عليه وأخيه معا واستمد هو سنة ١٤٨٥ متلقيا بهنرى السابع وأشهر مآثره تأسيس ادخال أواسط القوم فى ادارة المملكة بان ينتخب الاهالى منهم نوابا فى مجالس للمفاوضة فى مصالحهم وأن لا تشهر حرب الا بعد تعذر اطفائها ولو بتوسط أجنبى وسلم لفرانسا فيما بقى لانكلاتيره بها من ايالة برتيطانيا بعوض قدره أربعمائة ألف ليره واغتنم من الاموال خزائن عظيمة حتى قيل انه خلف فى خزائنه الخاصة عشرة ملايين ليره وارتقى الى مملكه بعده ابنه هنرى الثامن سنة ١٥٠٩ وكان شديد البطش لكنه نفع المملكة بالاصلاحات التى أجراها وهو أول متمذهب بالمذهب البرتيستانت وتعصب له حتى أمر بقتل كل من لا يقبله وفى مدته دخلت ارلانده تحت انكلاتيره وصارت مملكة واحدة وعلى عكسه ابنته المتولية بعد أخيها وهى مريم حتى لقبت بالدموية لقتلها أهل ذلك المذهب بل حرقتهم أيضا وخضدت شوكة القوانين ومجالس البارلمان بعزلهم من عارضها وتولية من يوافقها وخسرت مدينة كالى من فرانسا لمحاربتها اياها انتصارا لزوجها ملك اسبانيا ثم لما خلفتها أختها سنة ١٥٥٨ رفعت الاضطهاد الدينى و زاد مذهب البرتيستانت انتشارا لما نال الاهالى من الحرية فى سائر أطوارهم وحصلوا على

درجات

درجات من التقدم بالصنائع والمعارف ممن هاجر اليهم من المانيا وفرانسا وغيرهما من
أهالي المذهب البرتيستانت لما وجدوا هناك حريتهم من القتل لهم في أوطانهم وفي
مدتها عرف الشاي عندهم وعرفت الساعات وفي سنة ١٦٠٠ تشكلت جمعية الهند
التي تقدم بيان أعمالها في المقدمة وحيث لم يكن لها وارث عهدت الى أحد قرابتها وهو
ملك اسكوتسيا الملقب جمس استوارد وبه اتحدت المملكتان وهو أول عائلة استوارد
استولى سنة ١٦٠٣ وكانت أباؤه على نوع من التقدم لانفته من الحروب وكاد في
مدته أن يحرق مجلس البارلمان بمن فيه بدسائس البابا فوضع تحته لغم لكنهم تفطنوا
له وولي بعده سنة ١٦٢٥ ابنه كارلوس الاول وتفاقم الخلاف بينه وبين الامة في
حدود سلطنته اذ أراد أن يبقي مجلس الندوة المسمى بالبارلمان صوريا وهو يتصرف
كيف يشاء ويحمل المسؤلية على المجلس لاخضاع الامة وتبرئة نفسه فلما عارضه المجلس
عزل أعضاءه وانتخب آخرين لكنه كان كلما انتخب اناسا كانوا على نمط سلفهم في
معارضته حتى تفاقم الخلاف واشتهرت الحرب بين الامة والملك وكان من حزبه أغلب
الاعيان وكبراء البيوتات لما نالهم من الحظ من اطلاق الملك لانه كلما أطلقت يده
انطلقت أيديهم أيضا فالحظ يقتسمونه بل يكون لهم منه القسط الاوفر حيث ان كلا
منهم مجتهد في خصوص مرضات الملك وحواشيه بشئ من التملق والتعظيم الباطل الذي
يسخر منه العاقل ويضيف الى ذلك جزء من الاموال التي ينتهبها رشاء لاولئك الافراد
ثم يطلق عنان شهواته في ملايين من الناس على حسب ارادته يستعوض منهم كلما
دفعه من المال والاعمال بل وربما أنفذ أغراضه في أقرانه لما وقع بينهم من التحاسد
والتشاحن فها هو الان يرضي تلك الشرذمة وينتقم من ضده بالقتل على أوجه لا تحصى
منها الجهري بدعاوى من الزور وحكم مجالس صورية تلقن ما تقول من الليل ومنها السري
بالتسميم وغيره من أنواع الغدر أو يحصل التنكيل بدون القتل كالتغريب والسجن
مع أخذ المال كل ذلك باحتيالات صورية على ظاهر الاعين ليقال انهم لم ينقضوا
القوانين حتى لا تثور العامة وأما متولي كبر حزب الامة فهو البعض من الاعيان والكبراء
وجمهور الاوساط والرعاع فأما الباعث لهذا الجمهور على ذلك فهو واضح لانهم هم
موضوع الاغتيال الواقع فيه المنافسة وقد كانوا علموا من السابق ما كانت عليه حالتهم
ثم ما آلت اليه بعد تأسيس القوانين والاحتساب عليها وأما الباعث لبعض الاعيان
والكبراء فربما اشكل مع ما قررناه في حق اغلبهم لكنه في الواقع بين وهو ان هذا القسم

عاقل ينظر فى العواقب ولا يستغنى بالعاجل عن الآجل فعلم ان الزخرفات التى تحصل بالتسلط لا تدوم لانها ما آلها الى انقراض الامة وضعفها فتهجم عليها أمة أخرى قوية وتصير أولئك الاعيان كالسوقة (كما قال تعالى) وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وربما عاضد السوقة وهم الجمهور ذلك الهاجم للاستراحة مما هم فيه وأيضا فان تلك الزخرفة التى يحصلونها أى الاعيان بتسلطهم مع قلة متناهى فى نفس الامر غير هنية لعدم الامن معها وعدم الاطمئنان عليها لما أشرنا اليه من كونها موقوفة على رضاء شخص تتلاعب به أهواء حاشيته والمقربين اليه لمجرد أغراض شهوانية وبضعوا معها عرضة للاضحية متى ما اراد الملك فلا يأمن المقرب من طبيعة الملك المفسدة للاخلاق فربما غضب عنه مقربه اليوم لشئ كان يرضى به عنه بالامس وأيضا لا يأمن دبيب سعايات أقرانه وحساده الغافلين عن كونها تجرى عليهم مثلما جرت على صاحبهم كما قيل (من حلقت لحية جاره فليسكب الماء على لحيته) ولهذا انضم القسم حتى عقلاء حاشية الملك والبعض من رجال الدولة اذ تيقنوا انه لا خير لهم فى نعيم لا أمن معه لا على الدم ولا العرض ولا المال ولا الحريم ولا الذرية فاى نعيم يحصل لهم وهم على شفا جرف هار وكان مقدام هذا الحزب رجلا من أعيان البيتونات اسمه اوليفر كرومويل ذا بسطة فى المال والعقل والشجاعة وجرت حروب هائلة كشفت عن خلع الملك وحبسه ثم قتله بحكم مجلس على انه خائن للامة واستولى اوليفر رياسة الدولة بعد ان تلقب بجنرال وكان يوم دخوله بالعسكر منتصرا الى لندره تلقاه الجم الغفير بالهناء والترحيب فقيل له ألم تر هذا الاحتفال من العامة بك أيها الحامى عن انكلاتيره وجعل ذلك لقيه فقال ان هؤلاء الرعاع لا يلتفت لا الى تعظيمهم ولا الى تحقيرهم فهم تبع للغالب اذ لو كان هذا اليوم أخرجت فيه الى القتل لكانوا خرجوا الى التفرج على مثلما خرجوا الى لقائى الآن وبه يعلم ان تلك الحالة جارية فى سائر الامم على السواء اذ هاته أمة الانقليز التى قيل فى المثل فيها يجب ان تكون حرة مثل أفكارها اذ قال فيها زعيمها المذكور ما سمعت وبقيت الدولة الانقليزية جمهورية بضع سنين الى وفاة الجنرال المذكور واستيلاء ابنه من بعده واستعفائه فى مدة قليلة فارجعوا ابن الملك السابق سنة ١٦٦٠ ولقبوه بكارلوس الثانى وسار على نحو ما كان يريد أبوه وخرق سياج القانون باستبداده على البارلمان متسترا باقامة خمسة من أكابر الاعيان لتدبير الامور وانفاذها بدون مراجعة الندوة وحارب هلاندة وأخذ منها مدينة نيورك من أمريكا ثم عقد معها ومع السويد مخالفة على

فرانسا

فرانسا ثم اتحد مع فرانسا على هلانده ثم خضع للندوة وبقي مضطربا الى ان مات وخلفه اخوه جمس سنة ١٦٨٥ فزاد الامر تبا كامن ايثاره لمذهب الكاتوليكي الى ان خلع ونودي باحد امراء هولانده لتزوجه بابنة مليك انكلاتيره الاسبق ولقب بويليم الثالث سنة ١٦٨٩ فاحيا اجراء القوانين واتبع اشارة الندوة وارتاح في نفسه حتى لقب بالصياد لاشتغاله براحته وحبه الانفراد بما هنئت به السياسة رذاته والمملكة وزادت الندوة احكاما في شروط القوانين منها ان لا يتولى الملك الا من كان على مذهب البرتستانت واحتاجت الدولة الى اموال لاصلاح داخليتها في ايامه فاستقرضت من الاهالي وهو اول دين على الدولة وتشكل لاجله بنك انكلاتيره اي محل اجتماع الاموال من اناس كثيرين لاجل الشركة في التجارة بذلك المال او لاجل ان يقرض المال على شروط وذلك البنك هو المعروف الى الآن وذلك سنة ١٦٩٤ وهو دليل على اجراء القوانين بعدم غصب الاموال من الرعية وترقت المملكة في ايامه بالصنائع والمعارف بزيادة من هاجر اليها من فرانسا لاجل ما وقع سابقا من الاضطهاد المذهبي ثم خلفه في المملكة بوحنا سنة ١٧٠٢ وفي مدتها استولت انكلاتيره على جبل طارق من اسبانيا واشتدت الحرب مع فرانسا وكان معاضد الفرانسا بافيرة واسبانيا ولانكلاتيره النمسا وهولانده ثم انقرضت العائلة بموت تلك الملكة اذ لم يكن فيها من تتوفر فيه الشروط فنادى الاهالي باحد قرابة العائلة وهو امير من الهانوفر من المانيا ولقبوه جورج الاول سنة ١٧١٤ وهو اصل العائلة الموجودة الآن واستقر امره بعد حروب مع فرانسا لارادتها تمليك ابن من العائلة السابقة كاتوليكيا وبعد استقرار جورج المذكور لم يسكن في انكلاتيره وانما لازم بلاده والتصرف بيد الوزراء والندوة ثم خلفه ابنه جورج الثاني سنة ١٧٢٧ ونشأت في مدته عدة حروب منها الداخلية لاجل الملك من بقايا العائلة السابقة ولم ينجحوا (ومنها) الخارجية واعظمها مع فرانسا حيث كانت الحرب قائمة بين ابروسيا والروسيا والنمسا لاجل الاستيلاء على بولونيا وكانت فرانسا ضد البروسيا معاضدة لخصمها فحالفت انكلاتيره بروسيا لاجل زيادة اشغال فرانسا فاحتاجت فرانسا الجلب قوتها من مستعمراتها بامار يكا لتقوية نفسها في اروبا وعند ذلك هجمت انكلاتيره على مال فرانسا من امريكا وضمته الى تملكاتها حتى صار لها اذ ذاك جميع ما لها الآن في امار يكا مع جميع الممالك المتحدة الآن وذلك بعد حروب هائلة ثم خلفه ابنه جورج الثالث سنة ١٧٦٠ واستقلت في مدته امريكا اعني الدول المتحدة وذلك لان دولة الانكليز لما امتدت املاكهم هناك

وتكاثرت فيها الخلائق المهاجرون اليها رغبة في الغنى لما فيها من الخصب واتساع الاراضي
الجديدة فقسمت الدولة تلك المملكة الى ولايات وجعلت عليهم ولاة انكليز بينهم
احق باسم مستبدين في التصرف ففحش ظلمهم للاهالي فاشتكوا منهم الى الدولة وبينوا
لها اعمالهم فعزلتهم واولت ولاة من الاهالي بانتخابهم غير ان الانتخاب لم يكن حقيقيا
بالرضى ولذلك اتفق في هؤلاء الولاة اتراب اسلافهم فتمكن الحقد على الدولة ثم انها زادت
عليهم الضرائب لما رأت من غناهم فنفروا منها حتى منعوا ابالجبر مع اظهار الاسترحام ان
تجرى فيهم ضريبة الورق المختوم في صكوك الحجج فساعدتهم الدولة لكنها جاءتهم غيرها
فعقدوا جمعية عمومية واعلنوا الحرب بالاستقلال تحت راية الجمهورية سنة ١٧٧٦
واعانتهم فرانسا واسبانيا وهولاندة لما لهم على انكلاتيره من الضغائن الحربية
ودامت الحرب الى سنة ١٧٨٣ التي عقد فيها الصلح بباريس على ان ترجع انكلاتيره الى
فرانسا اراضي سانيغال بافريقيا وترجع الى اسبانيا اقليم فلوريدا في امريكا وعلى ان
تستقل الممالك المتحدة بامريكا الشمالية وتكاثرت الحروب في مدة جورج الثالث
المذكور مع فرانسا وغيرها سيما مع نابليون الاول واشتهرت اذ ذاك انكلاتيره بالقوة
البحرية والمهارة في حروبها البحرية لما اظهره الاميرال نيلسون من البراعة والشجاعة
في مواقعه المتجاوزة على المائة ونيف واقعة واشهرها هجومه على حصون كونهاك
قاعدة الدانيمرك مع ان القسم الكبير من الاسطول لم يدخل معه الى المضائق وانفرد
هو بمن تحت امرته من الاسطول عند ما رآه الاميرال الكبير قد فقد الربع من سفنه أشار
اليه بالرجوع وكان هو أعور فلما أخبر بالاشارة جعل النظارة على عينه العوراء وقال
انى لم ار شيئا مما تقولون وزاد في الهجوم الى ان غلب عدوه وأجرى شروطا مثلما اراد
ومع هذا الانتصار حكم عليه المجلس الحربي بالعقاب لمخالفته الامر وقد مات ذلك الاميرال
في حرب سنة ١٨٠٥ ضد فرانسا واسبانيا وكانت سفنهما اربعين وسفنه سبعا وعشرين
فاقتربت من سفينته سفينة فرانساوية وراقبوا شخصه الى ان اصابوه برصاصة نحو منها
للنزع وكان ينتظر البشارة بالانتصار ويدعو نائبه قبل الموت فما دخل عليه الا بعد
قريب من ساعة مبشرا بالنصر فقال كم غنمنا من السفن قال أظن اربع عشرة او خمس
عشرة لاني لم اتمالك عن القدوم اليك عند ثبوت النصر قبل عدها فقال لكني كنت أشترط
على نفسي ان تكون عشرين ثم قضى نحبه وقد دام الملك جورج الثالث في الملك ستين
سنة لكن كان في اغلبها لا يتصرف في شيء بل لا يدرك شيأ من مصالح الملك لاختلال في

عقله

عقله ولذلك جعل له ابنه ولى عهده نائباعنه فى حدود سنة ١٨٠٤ ثم توفى ذلك الملك سنة ١٨٢٠ ومع ماحصل فى مدته من خروج الممالك والحروب فان انكلاتيرة تقدمت فيها خطوة وسيعة فى التمدن والاعتبار والقوة حتى وصلت الى الذروة القصوى فانها احدثت فى ظرف أربعين سنة مائة وخمسا وستين ترعة وتكاثرت فيها معامل القطن والصوف الفائقة حتى راجت سلعتها على سائر مافى غيرها لرخصها واتقانها واكتشفت واستملكت اوستراليا وغيرها وتقدمت فيها المعارف والتاليف الى نحو ماهى عليه الآن واستفادت حكماسياسية علمتها كيف تدبر مستعمراتها الواسعة فى سائر أقطار العالم وحصلت على فخر النصرة على نابليون وغيره واستمدت الادارة القانونية بغير نزاع ولا دسائس ولذلك صار يضرب المثل عندهم بان حربة الانكليز اغاهنئوا بها فى مدة ملكهم المجنون وخلفه ابنه جورج الرابع وفى أيامه وقع الغدر فى أسطول الدولة العثمانية من اسطول انكلاتيرة المترئس على أساطيل الدول فى تظاهرهم على طلب تسليم الدولة العثمانية لليونان بالاستقلال فى غير اعلان بالحرب لهم اتخللت الاساطيل مابين أسطولها المركب من سفنها وسفن مصر وطرابلس وتونس والجزائر وهم على اطمئنان السلم والامن وأطلقت عليهم النيران دفعة واحدة بحيث لم يبق منهم باقية غدرا وشناعة لا تمحى ومعرة لا تزال على خصوص الانكليز لانهم هم الذين بيدهم أمرة جميع الاساطيل الدولية وعندماسمعت الندوة الانكليزية بفظاعة الواقعة هاجوا وماجوا وطلبوا محاكمة رئيس الاساطيل وحكم عليه مجلس حربى بالقتل مع دفاع وزير البحر عنه بكل ما أمكن من الاعتذار وتلفيق دعوى بان احدى السفن العثمانية أطلقت النار عليهم ولم يجد كل ذلك شيئا وعندما تحقق الرئيس الحكم عليه بالقتل أسر الى وزير البحر بان التذكرة التى بخطه فى الامر باحراق الاسطول العثمانى قد نسى أن يحرقها معه مثل ما أمر (وحينئذ) تحول المجلس الى جلسة سرية ثم أطلق الرئيس وسيأتى فى الكلام على الدولة العثمانية الباعث على ذلك التحامل على المسلمين ومآله الديانة وان سياسة الدول الكبيرة فى الخارج ليست كسياستهم فى الداخلية ثم ورث الملك وليم الرابع سنة ١٨٣٠ وزاد القانون فى أيامه تحسينا ونفوذا وأول سكة حديدية أنشئت فى أول سنة من ولايته وألزمت الدولة عتق العبيد فى الهند وعوضت أصحابهم بأثمانهم وكانت نحو عشرين مليون ليرة واجتهدت انكلاتيرة على عتق العبيد فى سائر الاقطار ترغيبا وترهيبا لاهلها ولازالت على ذلك الى الآن ثم

ورثته المالكة فيكتوريا سنة ١٨٣٧ وهي المالكة الحالية وأعانت الدولة العثمانية على اخضاع مصر واسترجاع الشام منها وعلى حرب القريم فحاربت الروسيا وآلت الحرب الى معاهدة باريس وحاربت الصين بالاتحاد مع فرانسا وأخضعت الهند من الثورة الهائلة بمعاضدة افغانستان وخرج الهند من وقتئذ من تحت الشركة التجارية الى الحكومة السياسية كما مر في المقدمة وتلقبت بامبراطورة الهند ثم استولت على الافغانستان ثم جعلتها مستقلة تحت نظارتها بعد أخذ أجزاء منها وحاربت الزلوس من بلاد الكفر بافريقيا ثم صارت تلك المملكة تحت نظارتها وتداخلت في حرب الروسيا مع الدولة العثمانية عند عقد الصلح الى أن أفضى الى معاهدة برلين مع زيادة التقدم والغنى في داخلية المملكة الانكليزية

﴿مطلب في السياسة الداخلية بانكلاتيره﴾ (اعلم) أن السياسة المستقرة الآن كان استتبابها سنة ١٨٣٢ وأما أصولها فقديمة حسبما أشرنا اليه في التاريخ وهاته السياسة مبنية على اعتبار سلطة الملك ونفوذ الاعيان واحتساب الاواسط من الناس فكل من السلطات الثلاثة مرتبطة ببعضها ويفتتح منها ادارة المملكة مما يرضي الجميع ولا يتجاوز كل منهم حدوده مما يضر بغيره ولهذا كانت قوانين الانكليز على نوع مغاير لبقية ادارات الاوروباويين من حيث الاشتراك في السلطة وعدم التساوي بين طبقات الرعية في الاعتبار ونيل الرتب مع انالة الرعية غاية الحرية والامن وتفصيل هاته الادارة ومحل ارتباطها وانفرادها قد تكفل به كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك لخير الدين باشا التونسي بما يفيد بجاذب أطوارهم واصطلاحهم فليرجع اليه من أراد البيان وانما نقتصر هنا على الالمام بكليات الادارة (فنقول أما القسم الاول) من ذوي السلطة فهو الملك وله حدود مضبوطة بقوانين من أهمها ان الملك وارثي في ذرية الملك الذي هو من عائلة الهانوفر من البكر الى بكره والانثى تستحق ذلك على شرط أن لا يوجد لها أخ ذكر والا فهو أحق بالتقديم وان كان أصغر منها (ومنها) التزام مذهب البروتستانت (ومنها) اذا اقتضى هذا التورات ان حاز التاج الانكليزي من له ملك أو أرض بمملكة أخرى فان الامة لا يلزمها الدفاع عن ذلك مثل ما يلزمها عما يرجع الى انكلاتيرة ما لم ترض بذلك الندوة (ومنها) ان رياسة الديانة للملك بحيث يوظف مناصبها مثل ما يوظف المناصب السياسية (ومنها رياسة سائر القوات والصلح والحرب الى غير ذلك مما مر في ملك ايطاليا (ومنها) تلقبه بملك بريطانيا العظمى وامبراطور الهند حتى يقول في

طالعة

عالمة مكاتيبه الرسمية ماصورته فلان بنعمة الله ملك المملكة المتحدة من بريطانيا العظمى وارلانده وامبراطور الهند محاميا عن العقيدة الخ والتلقيب بامبراطور الهند حدث سنة ٢٩٢ ا بالتفاق المجالس وقوله محاميا عن العقيدة اشارة الى رياسته الدينية (ومنها) ان اجراء كل حق للملك فى التصرف انما يكون بواسطة رؤساء متوظفيه وهم رؤساء الاساقفة والوزراء (وأما القسم الثانى) وهو سلطة الاعيان فهؤلاء الاعيان هم الملقبون باللوردات وبالقرناء وسيأتى فى مبحث العوائد خصوصياتهم وامتيازاتهم والذى يتعلق بهم هنا انه يتركب منهم مجلس اللوردات المشتمل (على) رؤساء الديانة (وعلى) عائلة الملك (وعلى) سائر لوردات انكلاتيرة (وعلى) سبعة عشر لوردا من لوردات اسكوتسيا (وعلى) أربعة لوردات من لوردات ارلانده ولوردات المملكتين الاخيرتين ينتخبان من أمثالهم فى أقاليمهم لذلك المجلس لمدة حياتهم وبناء على هذا المجلس سائر الاحتساب على التصرفات وانشاء القوانين وتغيير العادات والحكم فى المتوظفين بحيث لا يصدر عن الدولة شئ الا برضائه وليس لاعضاء هذا المجلس مرتب وعددهم غير محصور وربما قد يبلغون زهاء خمسمائة ولاعضائه اعطاء الرأى فيه بالمباشرة أو بارساله مع أحد أمثالهم كتابة والوزراء ينتخبون من هذا المجلس ومن مجلس النواب والملك انما ينتخب رئيسهم فقط وهو ينتخب بقية الوزراء كما فى بقية أوروباوعدد الوزراء تسعة الرئيس وهو وزير المال فى الاغلب ووزير الخارجية ووزير الداخلية ووزير الهند ووزير المستعمرات ووزير رياسة المجلس الخاص ووزير الحرب ولورد قاضى القضاة وهو رئيس مجلس اللوردات وموظف الحكام القانونية ولورد المحاسبات وهؤلاء الوزراء هم المباشرون لسائر أعمال الدولة بعد اذن الملك وليس له مخالفتهم الا اذا وافقته أغلبية الندوة فحينئذ يستبدلهم بغيرهم وهؤلاء الوزراء يضم اليهم الملك أعضاء من بقية اللوردات فيتشكل منهم مجلس الملك الخاص ورؤساء ادارات الوزارات ولا يزيد مرتب الوزير عن مائتين وخمسين ألف افرنك فى السنة (ومنهم) من له خمس ذلك فقط ووظيفة هذا المجلس الخاص التدبير فى اجراآت الاعمال كما ان من حقوق الاعيان ان يكونوا هم حكام الولايات كل ولاية حاكمها من لورداتها وليس للملك عزل أحد منهم من مرتبته اللردوية (ومنهم) أيضا أعضاء المجالس العليا فى الولايات التى لها التصرف الكلى

(وأما القسم الثالث وهو سلطة الاواسط) فهى بانتخاب الاهالى منهم نوابا عنهم

لمجلس النواب للاحتساب على تصرفات الدولة وحماية حقوق السكان وما يتقرر
عليه رأيهم يجرى اذا وافقهم مجلس اللوردات كما أنه يسوغ للملك أن ينتخب من هذا
المجلس رئيس الوزراء ولهذا انتخاب بعض الوزراء من بقية أعضاء هذا المجلس
ومدة انتخابهم لاعضاء المجلس سبع سنين وشرط العضو أن يكون وجيها غير محكوم
عليه بما يشين العرض ذا دخل من أملاك فى المملكة غير منقولة يبلغ مائتين وخمسين
فرنكا أو صاحب معارف له اجازة فيها من المدارس العلمية ولهذا اختص هذا
الاحتساب بأواسط الناس ولم يكن للأسافل فيه حظ وعدد أعضاء هذا المجلس
بحساب واحد على العشرين ألف نسمة من السكان فكان عددهم يتردد فى زهاء
سبعمائة ومجموع هذا المجلس مع مجلس الاعيان هو المسمى بالقمرة أى الندوة
وعليها مدار سائر الاعمال فى الداخلية والخارجية ومن أصولها أن ميزان المال ليس
بمعدود على حالة واحدة دائما بمعنى أنه اذا كان الدخل الموضوع يوفى بمصاريفها
للسنة ويفضل منه يبقى الفاضل فى الخزنة أو يشترى به من ديون الدولة واذا كان لا يوفى
يزاد فى الضرائب الى أن يقع التسديد كما هو جار فى الدول الاخرى بل ان قاعدة الانكليز
هى جعل الميزان فى كل عام بحسبه فينظر الى مقدار اللازم من المصاريف وعلى مقتضاه
يجعل الدخل بحيث لا يكون للدولة فاضل ومن الاصول أيضا اعطاء الحرية لكل فرد
وجماعة فى مملكتهم بان يتكلموا فى السياسة العامة والخاصة وتصرفات المتوظفين
مطلقا واعلان آرائهم بالقدح أو بالمدح فى الصحف وفى مجامع الناس ولهم الاستدعاء
الى الاجتماع ولو اجتمع ملايين من الخلق من غير أن يتعرض لهم أحد بشئ ومن الاصول
أيضا التى استقرت الآن أنه انتشأ فى الامة حزبان (أحدهما) يسمى حزب المحافظين
بمعنى أنه يريد التحفظ على القوانين الموجودة والجرى عليها فى الداخلية والمساعدة على
كل ما ساعدها فى الخارجية وأن لا يتغير شئ الا ما تدعو اليه الضرورة (والحزب
الثانى) يسمى بحزب الحرية بمعنى أنه يريد زيادة اطلاق الحرية فى الداخلية وفى كل
الممالك ويساعد على قطع عوائق الحرية فى أى جهة كانت بما يقتضيه حال الانكليز
ولكل من الحزبين زعماء مشهورون بما يقولون ويكتبون للاشتهار وتشتمل عليهم
الندوة ومهما مالت أكثريتها الافكار أحد الحزبين وجب أن تكون الوزارة مركبة
من أعضاء ذلك الحزب فلا تزال تتداول الدولة بينهم ومن لازمها أنه كلما تغيرت الوزارة
يتغير معها سائر المأمورين الذين عليهم مدار الاعمال ولو من علائق ذات الملك فان كاتب

عمره وحواشيه الذين يخدمونه فيما يتعلق بتصرفات الدولة يلزم تبديلهم أيضا مع الوزارة خشية من افشاء أسرارها لضدها ومن الوشاية أو التراخي من جهة ما يتعلق بالملك مما يضر بالاجراء ونشأ عن هذا عدم ثبات السياسة الخارجية على طريق واحد أعني في الاجراء لتبدل المنهج بتبدل الوزارة وان كانت كل وزارة تولت تراعي أصل ما أسسته سابقتها لكنها تنحو به منحى لا يلائمها فلا يحسن الاعتماد عليه من الخارج ومن الاصول أيضا أن الخدمة العسكرية لا يدخل اليها بالغصب أو بالقرعة وانما هي بالاختيار لمن رغب فيها ولهذا تجد في عساكر الانكليز في الحرب كثيرا من الاجانب الراغبين في المال الذي يبذل اليهم هذا اذا كانت الحرب خارج المملكة أما اذا هاجم العدو المملكة فيجب على كل الاهالي الدخول في سلك العسكرية على قانون لهم في ذلك حتى ان النساء أراد بعضهن الدخول في ذلك وألفن فرقا للتعلم وكذلك العساكر اللازمة لحراسة المملكة يدخل اليها بالاختيار وهي عدا الضابطية التي تلزم أهالي كل جهة ومن أهم أصولها أن لا ينتخب اليها الا العفيف المرضي للشهادة حتى يكون كلامه حجة على الجاني وذلك من الاصول العامة في أوروبا وبها تيسر استقرار الراحة لان حراسة الضابطية ونفوذهم من أهم الوسائط الفعالة فهي أهم ما يعتنى بها ومن أصول الانكليز أن لا يتولى المراتب السامية في الدولة الا من كان على مذهب الكنيسة البروتستانت فتأمل في هذا مع ما يأتي ان شاء الله في أحوال تداخلهم في بلاد الاسلام بدعوى الحرية ومن عاداتهم قبول جاه العلية منهم والاعيان في توظيف معارفهم وأقربائهم اذا كان فيه شئ من الاهلية مع اهمال غيره وان كان أحق من المقدم ومنه ذلك رتب العسكرية لا تنال الا للاعيان والعلية والافراد العسكرية لا يستحقون ذلك مهما فعلوا غيرانه قد حصل منذ سنة ١٢٨٩ هـ ١٧٧١ م ابطال اشتراء الرتب العسكرية من ملازم الى أميرالاي بامر من الملكة حيث أن أصل انشاء ذلك كان بامر من الملك لا بقانون واغتاظ لذلك كثير من ندوتهم لكن المصلحة غلبت فصارت الرتب العسكرية متعلقة الاتصال الا بالاستحقاق في المعرفة وبهذا التغيير العسكري يعلم ما للملك من السلطة وان خالفته الندوة بناء على حق قديم له مع موافقة الوزارة اليه

﴿مبحث ادارة الولايات﴾ قد تقدم في صفة بريطانيا أنها تنقسم الى تسعة وثمانين ولاية فهاته الولايات فيها مدن ذات خصوصية بالامتياز بالشرف حسب عوائد قديمة ومدن كبيرة استحقت بكثرة سكانها ان تسمى عضوا أو اكثر في الندوة ومدن يسكنها مطران

من كبراء بلادهم ومدن وقرى خالية عن الامتيازات المذكورة (فاما) الانواع الثلاثة الاول فان لها ادارة خاصة لا تدخل فى عموم الولايات التى هى بها (وأما) النوع الرابع فهو مشمول بادارة عموم الولاية (والحاصل) فى ادارة عموم الولاية هوانها راجعة الى الوالى العام على الولاية وهو واحد لوردانها الحصل على عضوية الندوة ينتخبه الملك لذلك وليس له مرتب على هاته الوظيفة وهو ينتخب اثنين من اهل ولايته الاعيان أيضا لاعانته ويوظفهم له الوزير الملقب بقاضى القضاة وليس لهما مرتب أيضا ومدار أعمالهم حفظ الراحة ورياسة العساكر المحافظة والنظر فى الاعمال العسكرية ولهم أيضا مرجع الاحكام الشخصية والنظر فى مصالح الولاية الادارية وحفظ الطرق وانشائها الى غير ذلك من المصالح كما تنفرد البلاد الممتازة من الاصناف الثلاثة المشار اليها سابقا (ومنها) مدينة لندرة بان يكون لها شيخ وهو رئيس المجلس البلدى الذى أعضاؤه من الاهالى المنتخبين منهم والمجلس ينتخب رئيسه من أحد اعضائه كل سنة ولا مرتب له ولهاته المجالس البلدية مرجع جميع المصالح المتعلقة بالبلد ومنها ادارة الضابطية ولا دخل للدولة فيها بشئ وعلى رؤساء هاته المجالس ايضا الاحتساب على كيفية انتخاب أعضاء مجالس النواب فيما تحت نظرهم لكى يكون الانتخاب موافقا للاصول وهو الذى يرأس جمعية الانتخاب ويتصرف فى الاحكام الشخصية كتصرف قضاة الصلح الآتى بيانهم ويوم توليته رئيس هذا المجلس المسمى بشيخ البلد يكون فى لندرة موكب حافل من أعظم المواكب وله من الاحترام والتوقير كالاحاد الملوك ثم ان متوظفى الديانة فى كل الجهات هم مرجع عدد من يزداد أو يموت وهم المكلفون بحفظ الكنائس والمقابر والفقراء والطرقات أيضا واعانة الضابطية عند الحاجة هذا (وأما) الاحكام الشخصية فان لها ادارة مخصوصة رئيسها اللورد قاضى القضاة الذى هو رئيس ندوة اللوردات ثم نائبه ثم اللوردات قضاة المجالس العليا فى الجهات الكبرى ثم حكام مجالس الولايات ومجالس الضابطية وكل هؤلاء لهم مرتب وهناك حكام الصلح لكنهم لا مرتب لهم وكذلك حكام الجرى على نحو الممالك التى تقدم ذكرها غير ان الامر الذى انفردت به انكلاتيره هو ان احكامها لا تستند الى قانون خاص فتمييزها أصعب الشرائع لانها تستند الى مجموع أشياء وهى ما يوجد من القوانين فى بعض أمور وما يوجد فى احكام سابقة صدرت من مجالس الاحكام القديمة وما فى احكام الرومان وما يقع عليه اجتهاد أصحاب الاجتهاد وهم

اللوردات

اللوردات أهل المجالس العليا وقاضي القضاة ووزراؤه وعلماء الاحكام وهم المسمون
بالابوكاتية فلذلك كان علماء الاحكام من أشهر الناس وأوجههم ومن غريب عادات
المملكة انه اذا وجدت نازلة ووجد حكمها في احدى تلك الاصول لكن أصحاب
اجتهادهم ظهر لهم ان المصلحة الوقتية تقتضي بخلاف تلك الاحكام لاختلاف الزمان
فانهم يجرون اجتهادهم لكنهم لا يجعلون ناسخا للسابق بل يبقى السابق ويبقى المحدث
حتى تكون الاصول متناقضة ويبقى لاهل الاختيار عندهم الخيار وبذلك يعلم مقدار
النفوذ والسلطة للطبقة العليا من الناس عندهم لانهم هم الذين يكون منهم أهل
الاختيار كما يعلم به فسار اعتراض بعضهم على أحكام المسلمين بانها متشعبة باختلاف
الاقوال في كتب الفقه مع خيار القاضي في القضاء بما يوجب لهم التحرز من
الدخول تحتها لانها غير معلومة للمحكوم عليه لان ذلك الاعتراض على فرض
تسليمه كما هو فهو عندهم أعظم مما يعترضون به علينا ثم ان الاحكام المذكورة
لها مراتب في تحقيقها من مجالس وراء مجالس الحكم باعتبار الخفيف منها والثقيل وما
يرجع الى المعاملات وما يرجع الى الجنايات فالخفيف لا يستحق التحقيق الا اذا حصل
ظلم فيقع فيه الاحتساب العام وأما الثقيل فينتقل الى مجالس تحققه الى ان ينتهى
الى المجلس الاعلى بالتخت وحيث كانت الحرية مطلقة والاحتساب في رفع الظلم سائغ الى
كل احد برفعه الى مجالس الاحتساب ولو كان في حق غيره مع اباحة نشر النوازل
والافكار في الصحف الخبرية وفي اعلانات ومطبوعات تنشر متى ما اراد الناشر وفي مجامع
عمومية علنية كان التعدي على الحقوق من أصعب الامور عندهم

* مبحث ادارة مستعمرات الانكليز * اعلم ان الانكليز انما تيسر لهم اتساع مستعمراتهم
في مشارق الارض ومغاربها بشيئين (أحدهما) نفس انتظامهم في داخليتهم المثمر للغنى
المثير للقوة الحربية (وثانيهما) حسن الادارة التي تكون عليه بالنسبة لغيرهم
من الدول سيما بعد خروج امريكا عنهم واستقلالهم من ذلك للاسباب والبواعث
الموجبة للنفرة منهم فاستقر أمرهم انهم في كل جهة من المستعمرات يجعلون مركز
الوجود قوة مركزية لهم ويجعلون فيها نائبا من ثقات اعيانهم مقيد التصرف بالشورى
مع اعضاء منهم ومن أهالي المستعمر ويرجع الى هذا النائب الذي هو الحاكم في تلك
الجهة الامور الكلية من الادارة السياسية وأما بقية الجزئيات والاحكام والسيرة فانها
تفوض للاهالي يجرون على حسب عقائدهم وعاداتهم وأحكامهم وكذلك الاداء المرتب

للحكومة وكيفية استخلاصه وتوزيعه الى غير ذلك من غير تداخل الانكليز معهم فى شئ
سوى انهم يشترطون عليهم ابطال المظالم والتعدى على بعضهم وابطال بعض العوائد
القبيحة بالعقل الراجعة الى ظلم الغير كاحراق الاحياء تبعا لمن يموت من قرابتهم أو رؤسائهم
وكتغريق الناس لمثل ذلك أو ذبحهم ضحايا لهم فالخلاص منه جمهور الاهالى ويبقى
الحاكم الانكليزى بجانبه مراقبا لتلك الكليات ولمنافع الانكليز والاهالى حتى ان اعظم
مستعمراتهم الآن وهو الهند له حكومة مخصوصة كما تقدم فى المقدمة وأعظم الوظائف
فيه هو الحاكم العام وهو انكليزى لكن ثانى رتبة منه وهو قاضى القضاة هو مسلم من
العلماء الاعيان وجميع أحكام الهند راجعة اليه ومرتبه سنويا أربعة وعشرون الف ليرة
انكليزية وعلى ذلك المنوال بقية الامور ودخل تلك الحكومة خاص بها الا ما أخذ منه
الدولة الانكليزية شيئا ومصاريفها كلها راجعة الى حكومة الهند وربما اذا حدث
حرب جوار الهند مع حكومته اعانتها الدولة الانكليزية على مصروف الحرب لعود النفع
اليها بواسطة بل ربما حمل أكثر المصروف عليها كما وقع منذ قريب فى حرب الافغانستان
كما ان انكلاتيره تستفيد من عساكر الهند بدخولهم فى أمرها عند الحاجة اذا عقدت
حربا مع دولة أخرى وكثيرا ما تبقى الممالك على حالتها بملوكها وامرائها وانما لها عليهم
مجرد المراقبة والحماية وتلزم الملوك باجراء العدل فى ممالكهم واجراء الشورى وبذلك
يحصل ميل العموم اليها (فان قيل) اذا كان الامر كما ذكر فأى فائدة للانكليز فى هاته
المستعمرات سوى تشويش البال وخسائر الاموال فى الحماية او الثورات (فالجواب)
ان فائدتهم عظيمة من وجوه (أولها) وهو الاهم رواج التجارة الانكليزية فان مائتى
مليون من الخلق لا يجولون الا فى السلع والبضائع الانكليزية له من الاهمية ما لا يخفى
و بضائع بقية الممالك اما ان تمنع بما يوظف عليها من عظيم القمرق فى تلك
المستعمرات أو يدخل منها ما لا وجود له عند الانكليز مما هو حاجى فاما البضائع
الانكليزية فتدخل معفاة من الاداء فلن تبور لهم بضاعة ولا تقفل لهم معامل فانه يتجه
ثلاثون مليونا من الانكليز من الصنائع يكونون مطمئنين على رواجه فى مستعمراتهم
كل على قدر احتياجها زيادة عن الممالك الاجنبية وكفى بذلك غنى للامة الانكليزية
وأى فائدة أعظم لها من ذلك ودونك مثالا لهذا فان مستعمر الهند وحده كانت قيمة التجارة
الصادرة والواردة اليه فى سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م ثلاثة آلاف وخمسمائة مليون
فرنك يخص الانكليز وحدهم منها ألفان اثنان مليونا والباقى مع سائر الممالك وأغلبها

الصين

الصين فهذا استعمر الهند وحده راجت تجارتهم فيه بذلك المقدار وليقس عليه غيره
(وثاني الفوائد) أشغال معلميهم في الفنون والصنائع في تلك المستعمرات الواسعة
الكثيرة السكان بما يحدثونه للاهالي على وجه الارشاد والتعليم والتمدين عن طيب
نفس منهم من المكاتب والمعامل وطرق الحديد وغير ذلك (وثالث الفوائد) حوز
الاراضي الخالية عن المالك والتعمير لها باهالي انكلاتيره الذين ضاقت بهم جزائرهم
فصاروا يهاجرون منها الى كل الآفاق التي تتيسر لهم بها المعيشة والعمل فيهاجرون الى
مستعمراتهم أولى لهم حتى تنشئ منهم دولة جديدة كما وقع بالفعل في دول امريكا المتحدة
اذ غالب أهلها أصلهم انكليز وكذلك ماهو حاصل الآن في استراليا (ومن أعظم
فوائدهم) القوة الحربية التي تتصرف فيها انكلاتيره من عساكر ذلك المستعمر مع ان
المصاريف على العساكر من دخل المستعمر فاعظم بذلك من قوة للانكليز حتى ان
عساكر الهند الذين تحت أمرها أضعاف عساكرها المستعدة فهاته الفوائد
أعظم وانجح لامة الانكليز من أخذهم ضريبة على سكان المستعمرات تحوجهم الى
الحقد والثورة عليهم كما وقع في أمريكا وأفيد لهم أيضا من جهة السياسة فان النفوذ
والرهبة والوقار الحاصل للانكليز في جميع جهات المسكونة ليس بحاصل لاي دولة
كانت أوروباوية وذلك أفيد للانكليز من ان يفيدوا ألفا أو عشرة آلاف منهم باطلاق
التصرف في أحد المستعمرات فيكون أهلها تحت قبضتهم ويديرون فيهم قانون
الانكليز بالقدره ويوظفون فيهم من قضاتهم ويغيرون عوائدهم وشرائعهم لما يلزم
لذلك من مصاريف تكثير القوات وكون الحقد في المستعبدين حتى ينتهزوا الفرصة لفك
قيودهم متى ما سنحت الفرصة وبمثل هاته السياسة ومجاراة الاهالي في مقاصدهم
وعاداتهم وأحكامهم وكبرائهم ودياناتهم تيسر لها امتداد المستعمرات واتساعها وطول
بقائها هانية بدون كثرة مصاريف فان الهند الذي هو أعظم المستعمرات وفيه من
السكان ما ينيف عن مائة وستين مليونا انما تضبطه دولة الانكليز بعشرين ألف
عسكري انكليزي فقط وان كانت حكومة الهند لها نحو ثلاثمائة ألف من العساكر
تحت السلاح لكنهم كلهم من الاهالي ماعدا العشرين ألفا المذكورة وذلك ماخلا
ما للملوك والامراء المستقلين بالادارة في الهند من العساكر والقوات وماذاك الا لمجاراة
الاهالي بما لا ينفرهم مع اجراء العدل فيهم والزام أمرائهم وملوكهم بذلك وحريتهم في سائر
أطوارهم حتى انها تعظم لهم شعائرهم الدينية كما يعظمونها في أنفسهم فالمسلمون مثلا

تطلق لهم المدافع في أعيادهم وتعفيهم من الاشغال في المواسم وتعزف الموسيقى
العسكرية في أعيادهم وكذلك تفعل مع المجوس وتصرف على الجميع أموالا باهظة في
المعابد وأهل الديانة من دخل الهند وفي عيد القاجوز الكوكو في نهر الهند يحضر
أهل الامر والحكم من الانكليز ويأخذون ذلك الجوز من أيدي الكهنة ويلقونه في
النهر مجاراة للاهالي (وحينئذ) تنشر الرايات وتطلق المدافع من الابراج والسفن هذا
في البلاد التي تحت ادارتها فضلا عن البلاد المستقلة بالادارة فالاهالي يوازنون بينما
فاتهم من حالة الاستقلال وماهم عليه من المنافع التي لم تكن حاصلة اليهم مع موازنة
المشقات والاهوال الحاصلة من اعلان الثورة لان الانكليز أيضا قساة وقلوبهم فظة
غليظة عند الثورة يجازون بالفظائع التي تقشعر منها جلود السامعين ويقول القائل أين
التمدن ورحمة الانسانية والشفقة التي تملئ صحفهم بالتنويه بها وما هي الا سواد على
بياض يأمرون بها غيرهم ولا يرون منها شيئا سيما بما يستعملونه من الغدر باغراء أقسام
الاهالي للانقسام وبذل الاموال العظيمة في ذلك فاذا حصل الانقسام وقع الانتقام من
الكل على التدريج وربما حصل من بعض الاقسام لبعض أشد مما يحصل من نفس
الانكليز فلذلك آثرت أهالي المستعمرات السكون والرضى بما هو عليه مستغنمي
ثمرة ذلك بقدر الامكان بل ان بعضهم مكنتهم دولة الانكليز من الاستقلال وأعانت لهم
بذلك ورفضوا هم قبوله خوفا من تسلط غيرها عليهم لضعفهم وربما يعاملهم المتسلط بما
لم يعاملهم به الانكليزيون مثل ما وقع في جهة من استراليا منذ نحو من خمس سنين ومع
ما مر فقل ما يخلو وقت عن حدوث ثورة في احدى الجهات من المستعمرات المذكورة
وفي الاغلب بعد حصول الراحة بالقوة أو باللين وهو الاغلب ترجح الدولة البواعث على
الثورة حتى تعود المصافاة مع الاهالي على وجه كأنه راسخ وانما قلنا ان اللين هو الاغلب
لانا رأيناها لا تستعمل القوة لا بعد انفلال حدود اللين حتى انها في نفس حروبها مع
الثائرين لا توجه عليهم قوة كبيرة من أول وهلة بل ترسل مقدارا غير كاف لاخماد النار
اذا كانت مستعمرة بهيجان قوي وكثيرا ما تنكسر قوتها أولا وثانيا وثالثا لكنها لا تنكص
على عقبيها الا بعد بلوغ أربها اما بمداومة الحرب على النحو السابق مع تزييد القوة شيئا
فشيئا الى أن تغلب أو بوقوع الصلح على ما يرضيها وترضى به الثائر على نوع ما كان ذلك
لعدم وجود قوة عسكرية تحت السلاح ولا حاضرة للدعوى متى أرادت الدولة لما مر من
ان الانكليز لا يدخلون العساكر الا بالرضى وليس لهم الا مقدار حفظ الراحة فاذا ثارت

جهة لزم الدولة احضار العساكر برضاهم وذلك لا يتأتى عاجلا مثل ما يأتي للدول المرتبة العساكر وأيضا بعد حضورهم تلزمهم مدة التدريب ثم ان العساكر عندهم تلزمهم المصاريف أكثر من عساكر بقية الدول لان من قانونهم ان العسكري لا يخدم شيئا سوى الحركات الحربية فيلزمهم من الخدمة وحمل الاثقال ما هو أضعاف عددهم ولا يخفى ما في ذلك من المصاريف والكلفة المحوجة الى الوقت حتى ان عساكرها الذين وجهتهم على الحبشة منذ نحو عشرين سنة لزمها أن تجهز لهم طريقا حديدية وقنوات لجلب الماء كلها موقتة وكان خادمو العسكر ضعفي عدد العساكر وهكذا دأبها في حروبها وبناء على اتساع المستعمرات وافتراقها وبعدها عن مركز الدولة وكون الطرق اليها بحرية مع ان نفس مركز المملكة جزيرة لزم أن تكون دولة الانكليز هي اقوى دولة في البحر من حيث السفن الحربية ومن حيث كثرة السفن التجارية ووجود البواخر والعارفين بفن البحر

﴿مطلب في السياسة الخارجية للانكليز﴾ اعلم ان ما تقدم من الاحوال العامة في الخارجية للدول العظيمة مما تقدم ذكره في ايطاليا وفرانسا وهو أيضا جار في انكلاتيره مثل وجود السفراء والمراقبة لجهات المنافع الخ فالذي يخص انكلاتيره هنا هو بيان محلات اهتمامها في الخارج وحيث قد تقدم ان لها مستعمرات في جميع أقسام الكرة المعروفة كانت عنايتها في الخارج أوسع من غيرها من بقية دول أروبا لكن ليست الجهات كلها سواء في الرتبة بل هي متدرجة ففي أروبا ليس لها من النفوذ في داخلية دولها شيء سواء كانت الدول كبيرة أو صغيرة لابتناء اداراتهم على قواعد راسخة مسلمة بين جميعهم مقررة بمعاهدات فلن ترى حاكما انكليزيا ذا سلطة في برلين قاعدة المانيا ولا في موناكو والتي هي دولة مستقلة في بلدة محاطة بايطاليا عدد سكانها نحو أربعة آلاف نسمة والكل في الدخول تحت أحكامهم من رعية الانكليز سواء وانما نواب الدولة يراقبون الاحوال السياسية لا الاحكام الشخصية نعم لدولة الانكليز زيادة اعتبار في خصوص مملكة البلجيك لما اقتضته معاهدة سنة ١٨١٥ من استقلال هاته المملكة عند سقوط نابليون الاول وجعلها تحت حماية كبار الدول غير ان المراقب لتلك الحماية هي دولة الانكليز فهذا هو وجه زيادة اعتبارها هنالك ومثل ذلك حاصل في دولة البرتغال لما تسبب عن حروب سالفة مع اسبانيا وفرانسا (وأما) بقية الدول فلا فضل عندهم لانكلاتيره على موناكو في أحوالهم سوى ما تجر اليه السياسة الآتي ايضاحها (وأما) امريكا فهي أيضا على ذلك المنوال (وأما) آسيا وافريقية فعلى وجه

آخر مع دولها من حيثيتين (الاولى) سوء المعاهدات القديمة معهم التى لم يراع فيها الا الحالة الراهنة اذ ذاك مع عدم تقييد المعاهدات بمدة محدودة فبتغير الزمان وتغيرت الحالات وبقيت أحكام المعاهدات على ماهى عليه فلزم منها ان تكون لدولة الانكليز شبه دولة مستقلة فى كل من هاته الممالك بحيث ان رعاياها غير داخلين تحت الاحكام مثل الاهالى بل يحكم فى المخصومات فيما بينهم وحدهم أو بحضورهم أو حضور أحد من سفارتهم مع حاكم البلد وله الاعتراض على الحاكم فى الحكم وفى بعض الممالك اذا كان الحكم فى جناية فانما ينفذ فى احدى ممالك الانكليز الى غير ذلك مما يتعسر معه للاهالى الوصول الى الحق ويحصل منه شبه حكومة مستقلة فى وسط المملكة وليس ذلك بخاص بالانكليز بل عام فى جميع دول أوروبا مع تلك الممالك وغاية الخلاف هو زيادة التظاهر والتطلع من أحكام البلاد من الدول القوية ذات الغرض فى النفوذ فى تلك المملكة وفقد ذلك ممن ليس له قوة أو ليس له غرض (وثانية) الحيثيتين هو أن مستعمرات الانكليز عديدة وان أهمها هو الهند فكانت نقطة خاشية من كل ما يوهن قوتها فيه اما بواسطة أو قصدا حتى صارت تحافظ على الطرق الموصلة اليه فكانت قبل فتح خليج السويس تتوصل اليه من المحيط الجنوبى وراء افريقية فاستملكت عدة مراكز فى افريقية الغربية والجنوبية والشرقية مع عدن فى آسيا كل ذلك لتكون لها أقوات ومراكز تلتجأ اليها عند الحاجة وبه يعلم ان ثمرة المستعمرات ليست خاصة بالاوجه التى أشرنا اليها بل منها أيضا أهمية المستعمر من جهة كونه مركزا حربيا فقط وذلك مثل جبل الطارق ومثل مالطة وغير ذلك فبناء على ما شرحناه صارت سياستها الخارجية مع كل الدول القريبة من الهند والتى هى فى طريقه والتى لها مصالح أو مطمح نظر اليه على نوع آخر من المشاحنة مع القوى والنفوذ مع الضعيف وتستعمل لذلك كلا من الترغيب والترهيب فالدول التى لها معهم دائما زيادة محاورات سياسية هى دولة الروسيا من حيث انها امتدت فى دواخل آسيا حتى اقتربت من الافغانستان الذى هو فى حدود الهند ومن حيث طموح نظرها الى الاستيلاء على الممالك العثمانية التى يهمها بقاؤها كما يأتى ايضاحه والدولة الثانية التى لها معها زيادة عناية سياسية هى الدولة العثمانية وذلك من وجهين (اولهما) انها لا تريد زيادة نخوتها او قوتها خوفا من امتدادها الى المشرق وارتباط المسلمين هناك بها حتى يلتحم بها مسلموا الهند ويعود الهند لما كان عليه من اللحاق بالخلافة الاسلامية (وثانيهما) الخوف عليها من الضعف المفرط حتى تلتقمها الدول المجاورة لها

فيكون

فيكون ان يحوزه وقعها الجغرافي النفوذ والسطوة التي تخشى منها انكلاتيره على فقد قوتها واعتبارها المادي والمعنوي وبناء على هذا صار لها تداخل كلي في سياسة الدولة العثمانية الخارجية وجاهها على ذلك التداخل مع بقية الدول الكبيرة الستة لمالهم من المساس بتلك السياسة سواء كانت قصدا أو بواسطة واضطر ذلك انكلاتيره الى جانب ملاينة فرانسا لانها دولة بحرية قوية نفسا منها وموالاتها أولى لها بمعاضدها سيما مع ابتناء سياستها على مجانبة الحرب مهما أمكن كما تقدم بذلك تستعمله حتى في الحرب مع الخارج حتى تسعى بكل الوسائل لقطع اسبابه مع التحفظ على حقوقها كما وقع منها أخيرا سنة ١٢٩٤ من التوسل بالسلطان العثماني لامير افغانستان بارساله له رسولا لكي يلاين انكلاتيره و يقطع معها المشاحنة الداعية للحرب من عدم قبوله لسفير مقيم عنده في كابل وغير ذلك مما بعث عليه اغراء الروسيا ولم يقبل التوسط حتى وقع في الحرب كما تقدمت الاشارة اليه في محله فذلك الباعث دعاها الى ملاينة فرانسا كما تقدم في سياستها الخارجية طمعا في التسليم لها في السلطة على مصر أو في الاقل على تعاضدهما معا على ازدياد نفوذهما في مصر حتى تسنح الفرصة لانكلاتيره في الحاقها بها حيث كانت الآن هي أقرب الطرق الى الهند بعد فتح خليج السويس مع ما في ذات مصر من الاهمية الكبرى فتبين (حينئذ) وجه زيادة اشتغال انكلاتيره باحوال الدولة العثمانية وعلى الخصوص أحوال مصر وما يجرها من ذلك الى بقية الدول الكبيرة ومع بقية الدول التي تجاورها مستعمراتها على حسبها في القوة والضعف ثم اعلم ان سياسة الانكليز لما كانت مبنية في التصرف على مذهب الحزبين الذين مر ذكرهما في السياسة الداخلية وهما حزب المحافظة وحزب اطلاق الحرية كانت تختلف في الخارج على حسب مقاصد الحزب الذي يتولى ادارة المملكة فيؤثر ذلك في السياسة الخارجية أيضا تأثيرا بينا فترى تغير السياسة يتعاقب على توالي الحزبين حتى يكاد ان لا تثق دولة بالاعتماد على سياسة الانكليز في موالاتها لانه بينما يكون حزب المحافظة جانحا في الاحتراس على مملكتهم بتقوية وتتمدحى على معاضدتهم واذا بحزب الاطلاق قد جلب أفكار العامة اليه فيصعد الى تخت الادارة و ينقض غزل سابقه و يخذل من اعتمد عليه وسياسة كل من الحزبين وان لم تكن مباينة دفعة واحدة لسياسة الآخر حتى لا يتيسر له ابطال حرب معقودة أو نقض صلح ابرم لكنه يسعى بقدر الطاقة في انهاء كل ما وجده وعدم اثماره حتى يبرهن الخارج على فساد ما سعى فيه

سلفه من غير أن يثبت عليه أنه هو الذي كان سببا في الفساد ولهذا صار كل من الحزبين
يجهد مستطاعه في عدم الدخول في حرب دومة لكن لا يجد ضده بابا للتشنيع به عليه لان
عاقبة الحرب مع الدول الكبيرة مجهولة وانبنى على هذا وسم دولة الانكليز من سائر الامم
المستقلة أنها دولة تجارية انما تبحث على زيادة غنى أهاليها من غير بحث عن الشرف
والجاه لدى الامم الكبيرة القوية وعند دخولي الى انكلاتيره وجدت رئيس الوزارة
هو رئيس حزب المحافظين وهو اللورد بكنسفيلد وانما حاز ذلك اللقب عند معاهدة برلين
سنة ١٢٩٥ حيث نجح سعيه في تغيير معاهدة صان استيفانوس بتلك المعاهدة
واستولت انكلاتيره على قبرس وكان هذا الرجل من نسل اليهود فلما ترقى في السياسة
غير دينه لدين الدولة حتى يمكن له الترقي للمناصب العالية واشتهر بتآليفه وأفكاره
وخطبه حتى سلمت له رياسة حزب المحافظين وولي الوزارة مرارا (وأما رئيس حزب
الاطلاق) حينئذ فهو مستر اكلادستون وليس له لقب شرف لكنه باتساع معارفه
حاز تلك الرتبة واستولى الوزارة مرارا

﴿فصل في بعض عوائد الانكليز وصفاتهم﴾ اعلم أن كتاب كشف المخبا عن فنون أوروبا
للبليغ اللغوي أحمد فارس قد اشتمل على تفاصيل في عوائد القوم يعز وجودها في غيره فمن
رام الاطلاع على جزئياتها فليرجع اليه وانما نلم هنا بشئ كاف في التعريف بذلك
(وحاصله) أن أصل الاهالي كما تقدم من قبيلة من قدماء الفرانسيس اختلطت مع قوم
قدماء في الشمال وتناسل منهم هذا الجيل وهم أقوياء بيض نصع حمر من الدم يغلب
فيهم الطول وشقورة الشعر نساؤهم جميلات آدابهم رزينة فمع الاطلاق الحرية فيهم
لا يطيشون عن حدود الاستقامة والانقياد الى الحكم حتى اذا تجمع منهم الجم الغفير البالغ
لعدة مئات من الالوف وتكلموا في السياسة وهاجوا واضطربوا ووقع بينهم خلاف
في تلك المجامع أحوجت الى الخروج من القول الى الفعل فما هو الا أن يصعد حاكم ذلك
الصقع على مكان مرتفع ويقول سيدنا وحاكمنا الملك يأمر كل فرد منكم أيها المجتمعون
بالتفرق حالا وأن يدخل كل منكم مسكنه أو محل صناعته تحت قيد الحكم الصادر في أول
سنة في دولة الملك جورج في قطع الهرج والغوغاء والله يحرس الملك فحينئذ يتفرق
الجمع الا ما ندر فيحتاج الى اعمال القوة من الضابطية والحرس والعساكر بل وعلى كل مار
اعانة الحرس الا أصحاب رتبة اللورد فانهم غير مكلفين بذلك ومن النادر القليل وجود
حالة مثل تلك بل الافراد الجناة يخضعون للحكم وينقادون الى أمر أعوان الحكم بمجرد
القول

القول وعلى فرض الامتناع فيخرج له العمون عصبة على رأسها صورة تاج الملك فيطاطى
رأسه ويتمادى وان لم يفعل وجب على كل من رآه اعانة العمون على جبره فاعانت هاتيك
المخالفة على اطلاق الحرية واطمئنان الدولة من الهرج وقد تقدم أن عدد السكان نحو
اثنين وثلاثين مليونا وديانتهم الغالبة برتيستانت وقليل من الكاثوليك ثم اليهود ثم
الدهرية ثم الموحدين أى الذين يوحدون الله ويعترفون بالرسالة والعبودية والبشرية
لعيسى ويصدقون بالكتب فهم أقرب الى الاسلام ولا زال يكثر عددهم سيما فى المانيا
وأماريكا كما يوجد النادر من المسلمين ثم ان عوائد الاهالى لا يمكن اطلاقها على الجميع
سواء بل بين طبقاتهم البون البعيد فهم على خمسة أصناف (الاولى) العلية ولهم امتيازات
تقدم بعضها فى السياسة ومن خاصيتهم أن لا يدخلوا فى الاعمال البدنية التى تجب
على العموم ويتنزهون عن مخالطة غيرهم بحيث يكون كل منهم فى داره عنده سائر
ما يحتاج اليه ولا يحتاج فى الخارج الا لمجرد المشى فى الطريق لمكان نزهته أو لصاحبه
الذى هو من نوعه وعلى نحوهم نساؤهم وهؤلاء هم أصحاب لقب اللورد وغيره من ألقاب
الشرف كالمركيز والسير وغيره من الالقاب الوراثية والتى يعطيها الملك بموافقة مجلسه
الخاص ومثل هؤلاء الامراء والوزراء وأصحاب المناصب السامية والاساقفة الكبار
(الثانية) هم الاعيان الذين لهم أملاك تغنيهم عن معاطاة شغل أو حرفة مع تنعم العيش
والرفاهية والاسراف لكنهم ليس لهم ألقاب مثل الاولى (الثالثة) العلماء والمتشرعون
والقسوس والتجار الكبار (الرابعة) التجار وأصحاب العمل النبيه مثل الكتبة
(الخامسة) بقية الناس المتعيشين من كد أبدانهم فالاولى والاخيرة بينهما التباين
والثلاثة الباقية لكل منها جهة تناسب بها من فوقها وجهة تناسب بها من تحتها ويمكن
على حسب التقريب ان يقال أن الثلاثة الوسطى فى عاداتهم واطوارهم على نحو ما تقدم
فى فرانسا وايطاليا وأما الطبقة العليا فليس لها مثيل فى تلك الممالك ومحصل حالهم
انهم على نوع من صفات ملوك الاستبداد فى العظمة والكبرياء والفخر والمباهاة باللعب
واللهو والتكاثر فى الاموال والاولاد والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل
المسومة والانعام والحرث فترى للواحد من ملاك الارض مسيرة يوم للراجل ويملك الفرس
باربعمائة ألف فرنك ويعد دخله بالدقيقة فيكون له فى الدقيقة ألف ليرة أو ليرة
أو نحو ذلك ويفرش بيته بصنائع أهل المشرق والمغرب والمنسوجات التى قيمة ذراعها
بخمسمائة فرنك ونحوها الى غير ذلك من الاطوار التى لا يعم بها الا هو وعائلته أو من

كان من طبقته و بينهم مودة أو من يتفضلون عليه بالمعرفة وهي انما تحصل للغريب
اذا كانت له وصاية من أحد قرابة أولئك العلية قد تعرف به في أحد الاقاليم
وحينئذ يرى من اكرامهم وتنعيمهم له باشتراكه معهم فيما هم عليه مايقربه
عيناً من القنص واللهو واللعب والمراكب والمآكل والمشارب والمنازه حتى يكون
لبعض هؤلاء العلية مراكب خاصة في طريق الحديد محتوية على سائر اللوازم يسيرون
بها الى حيث أرادوا ويولونه أي الضيف من ملاطفة نسائهم واكرامهن له باعطاء قدح
الشاي من يد كبيرتهن مايكون به على يقين من الصداقة لان ذلك من غاية الاكرام
وان لزم الضيف من الغذاء ماهو عنه في غناء من المحافظة على الآداب والقواعد المعروفة
لديهم كعدم التهوع ولاحك جهة من بدنه ولا التدخين ومن عجيب أطوارهم فيه
التناقض التام فبعض نسوتهم يكرهون شم أثره على الثياب وبعضهن يدخن كالرجال
وان ترى من واحد من هؤلاء ذوي الملايين او آلاف الملايين يتكرم بشئ ذي قيمة
ونهاية التوادد بالهدية هي صورته أوماشاكلها ممالا قيمة له اذا تناهت تبلغ ألف فرنك
بل كادان لايوجد من يتصدق منهم على الفقراء الا أن يكون لرياء أو سمعة فلومر أحدهم
على فقير يتضوع جوعا لما رأى له من داع الى مرحمته حيث انه يعلم انه يعطى سنويا
الى ديار الفقراء مقدارا من المال فلا يهمه ان يكون ذلك الفقير الذي يراه في حالة النزع
من البرد أو الحر أو الجوع انه لم يمكن له الوصول الى تلك الدار أو انها لم يكن فيها سعة
لقبوله وأقول ان هاته الخلة كادت ان تكون عامة في أوروبا الا قليلا منهم فانهم يجرون
على حسب مكارم الاخلاق وأما أطوار الطبقة السفلى فهي أشنع مما مر ذكره في جميع
الفرانسيس سواء كان من جهة الاعتقاد أو من جهة السيرة والحركات فيتطيرون
من أشياء كادت ان لاتحصى وينقادون الى السحرة والدجالين بما يخرج عن
حد المعقول وكاد التعلم ان يكون عندهم مجهول الاسم فضلا عن المسمى سوى مايرطن
لهم القسوس في الكنائس ومن هذا القبيل اعتقاد عامة أهل ارلانده ان انقطاع
الحيات من جزيرتهم بسبب قسيس مع انه افقدها الثلج والبرد مع عدم الاتصال بالقارة
حتى يخافها غيرها ولهم في ذلك خرافات والحاصل ان صفة الانكليز على الاجمال هي
السكون والرزانة والتجافي عن الغريب الا بواسطة في التعرف حتى لو بقي بين أظهرهم
سنين لايكاد ان يقول له واحد أسعد الله صباحك كما ان من طبعهم الاقبال على الشغل
والجد فيه وعدم الايمان بالقدر حتى اذا يئس أحدهم من المال قتل نفسه فكثيرا

ما

ما تسمع بذلك و بقتل الآباء لاولادهم وكذلك الامهات والعكس ومما يحصل عندهم من الوقاحة أحيانا مضاجعة الاب ابنته والاخ أخته لكنه لم يسمع بمضاجعة الابن امه ومنها أيضا بيع الزوج زوجته لمن يحبها ويمضى لهم الحكم ذلك فالعجب لقوم يحتسبون على بيع الرقيق فى الآفاق ويحكمون بصحة بيع الزوجة بفلس اوفلسين لان الطلاق عندهم له شروط وهى ثبوت الفاحشة من الزوجة لدى الحكم ومن غريب الوقائع فى هذا الصدد ما وقع منذ عهد قريب ونشر فى سائر صحفهم وغيرها من ان زوجة أحد اللوردات ولدت وعندما بشرت بانها ولدت ذكرا قالت من الفرح هو ابن ولى العهد وكانت قرابة زوجها يسمعن ذلك فثار عجاج النازلة الى أن رفعت لدى مجلس الحكم لكى يستطيع الرجل طلاقها وادعى وكيلها انها اعتراها جنون من النفاس حتى صارت تقول ما لا أصل له وادعى وكيل الزوج ان الخلطة حاصلة من قبل مع ولى العهد وكانوا يتزاورون ويتنزهون معا فقضى الحال باستدعاء الشهود ومنهم ولى العهد وعند حضورهم فى المجلس الذى هو علنى وحاضر فيه كتاب الاخبار وغيرهم قال القاضى علنا ينبغى ان لا يسئل الانسان عما يستهجن أو يشين العرض وينبغى للشاهد ان لا يجيب اذا سئل عما يشين عرضه ثم دعى بولى العهد فسأله عن معرفة المرأة فاجاب بمعرفتها ثم سئل عن اجتماعه بها فاجاب الى ان قال انهما اجتمعا فى منزل من المنتزهات للطعام فشربا وأكلا وبقيا حصة بعد الاكل فى محل خاص ثم رجع كل منهما الى محله بعد قضاء التنزه فقال له القاضى الذى نبه على سماعه أسألك هل واقعت هاته المرأة عند الخلوة فرفع ولى العهد صوته قائلا لا فضج المجلس له بالتصفيق وحكم القاضى ببراءة المرأة و بقاء الزوجية وانما الاعيان يتحاشون عن بيع الزوجات لكنه شائع فى السوقة وصحفهم تنشر منه شيئا كثيرا ومن عاداتهم اللكام وهو انه كلما عرض لاحدهم حنق على صاحبه الا تبادر بضرب جمع الكف وعندما يغلب أحدهما كثيرا ما يصافح صاحبه ويتراضيا ولا حكم فى ذلك ولا يحصل هذا بين الاعيان وانما يتعاوضون عنه بالمقاتلة كما هو جار فى الممالك الاخرى من أروبا وهى انه اذا اشتد الغضب بين اثنين على شرط التكافئ فى العرض يرمى أحدهما لصاحبه بقفازية أو شئ من متاعه ثم يرسل له شاهدين يطلب منه التقاتل فيعين الآخر شاهدين ويتفق الشهود على آلة التقاتل ومكانه و زمانه بعد أعمال و وجوه التراضى واسقاط الطلب فان لم يجد أحضروا طبيبا وحضر المتقاتلان والشهود والطبيب وتقاتلوا على الصفة المتفق بها فاما ان يموت أحدهما أو يسلما أو يحصل عطب فيعالجه الطبيب

وينفصل الامر فان لم يجب أحدهما للقتال صار ذليلا أمام الناس وصديقه وقد رصاحبه
مهما لاقاه ان يهينه بما يبداله وهذا الاقتتال وان لم يكن مباحا بالاحكام لكن الحكومات
غاضة النظر عنه بمعنى انها لا تحتسب عليه وان أضاع واحد شرفه بالشكاية فيه حكم له
لكنه يهان فهو وان كان فيه ما ينبئ عن علو الهمة والشجاعة غيرانه من أعمال الهمج
لان الحكومات انما أقيمت لدفع التعديات والغاء الاغراض الشخصية المضرة بالغير
فعجبا لبقاء هاته العادة فى أوروبا بل والعجب من ازديادها تدريجا ومن عادة الانكليز
التطير بأشياء كثيرة منها اصباح المرأة الحولاء مالم تتكلم ومن الجهل العام لاسيما فى
عامتهم الى أقوال المتكهنين وأصحاب الحدثان وانزعاجهم من أخبارهم حتى يقتلون
أنفسهم وكثيرا ما يقتلون أنفسهم وأولادهم خشية الاملاق وكثيرا ما تلد المرأة أربعة أولاد
فى بطن واحد وتكاثر الخلق عندهم فى ازدياد حتى لا يجدون شغلا فى بلادهم فترى مئات
الالوف يهاجرون سنويا الى الآفاق لتحصيل الكسب ومع ذلك فعددهم فى ممالكتهم
لازال يزداد ودونك برهانا على ذلك فى أقرب وقت وهو ان عدد أهل انكلاتيره أى
المملكة الاصلية من الجزيرة الكبيرة وحدها كان فى سنة ١٨٥١ لا يصل الى سبعة
عشر مليونا ونصف والآن وهو سنة ١٨٨٢ أعنى فى ثلاثين سنة صار عددهم يناهز
ثلاثة وعشرين مليونا فازداد واخمسة ملايين أو تزيد مع كثرة من هاجر منهم الى ممالك
أخرى مما يقرب من ذلك العدد ولجموعهم تغال فى عقائدهم فمن ذلك محافظتهم على يوم
الاحد بحيث لا يفتح فيه محل عمل سوى الاكل والشرب ومن فتح حانوته عوقب ولو لم يكن
من مذهبهم وهو غاية التناقض مع ما يطلقونه من الحرية وللكتهم الحالية زيادة توغل
فى ذلك حتى حكى عنها الشيخ أحمد فارس انها عرض عليها أحد وزرائها أوراقا مهمة
للامضاء فى ليلة الاحد لكنه تلف لها بامكان تأخيرها للاصباح فقالت كيف وهو
يوم الاحد فقال هى مهمة للحكم فقالت اذا بعد الكنيسة فقال نعم ولما رجعت من
الكنيسة وكان الوزير مصاحبا لها أعلمته بأن الخطبة التى أعجبته هى بايعاز منها الى
القسيس فى المحافظة على يوم الاحد وبناء على ذلك فليأتها صبيحة يوم الاثنين ولو فى
الساعة الثالثة قبل الظهر لتمضى له أوراقه وتلك الساعة عندهم من العجيب مباشرة
الاشغال فيها لانها مبكرة جدا حسب عوائدهم ومن عاداتهم التزحلق على الجليد ولهم
مهارة فى ذلك وقلدهم الفرانسيس وكثيرا ما يحصل العطب بانكسار الجليد وتغرق
من عليه فى النهر أو البركة أو البحيرة والحاصل ان اخلاق الانكليز عبوسة ولا يلتحمون

بالاجنبي

بالاجنبي مثل ما يقع من الفرانسيس غير انهم اذا ود أحدهم أحدا سيما من عيالتهم فانه يحافظ عهده ويدوم على ولائه ويحمون ذماره ولهم ولوع بالخيل وتربيتها واقتنائها وغناؤهم بالنسبة للطليان والفرانسيس ردئ لتقطع أصواتهم وحصرها وبقية الصفات هم فيها مثل من تقدم ذكره من الممالك ثم يوجد في انكلاتيره نوع من البشر يسمون عند أهل تونس بالزمازية وفي الاستانة جينكاله وبالفرنساوي بالبوهيمية وهم في الحقيقة موجودون في أغلب الاقطار شراذم وفي كل جهة محافظون على عوائدهم وأهمها الجهل وعدم مخالطة الغير وتعاطي علم الغيب وسكنى الخيام وتعاطي الصنائع البسيطة الرذيلة مع الفقر ولهم لغة تخصهم ومن عادات أواسط الانكليز وعليتهم حسن تربية الام لاولادها بحيث ينشؤن على التهذيب والتفطن الى التعليم من غير تعب حتى انهم كثيرا ما يتعلمون الاحرف ومبدأ القراءة بمجرد التربية فيما تديره الام أو المربية للصغير مع النظافة والابعاد عن الاخلاق الذميمة وكل أوربا على هذا النحو مالهم في النساء من التعليم الحسن

﴿مطلب في التجارة بانكلاتيره﴾ اعلم ان الاصول المتجر بها التي مر ذكرها في الممالك السابقة هي جارية كذلك في انكلاتيره لكن لهؤلاء زيادة بسطة وغنى على سائر الممالك بما بروج من تجارتهم في مستعمراتهم وغيرها حتى أحصى سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م مال الانكليز من المنقولات التي لها دخل مثل اسهام سكك الحديد وديون الدول وغيرها فكان سبعة وثمانين مليارد فرنك والمليارد ألف مليون ودخل ذلك في السنة أربعة مليارات فلو قسم على نسبة عدد أنفسهم أصاب لكل انكليزي (١١٠) فرنك منها ٥٠ من خارج المملكة وذلك كاف في بيان مقدار غنى هؤلاء القوم وحركة تجارتهم فان بريدهم يصل الى جميع جهات المسكونة وبواخرهم مالئة للبحر وأعظم البضائع الخارجة من مملكتهم هو الفحم الحجري فقد أخرج من مقاطعة سنة ١٨٦٦ ما يزيد على ألفي مليون قنطارا والمقاطع الموجودة في انكلاتيره من هذا الفحم ثلاثة آلاف ومائتان واحدى وثلاثون مقطعا وهو سبب عظيم اثروتهم من حيث البيع منه للخارج واستعماله في الداخل ومن حيث توقف الاشغال الصناعية عليه لكثرة المعامل البخارية ولذلك اشتدت عنايتهم به حتى انه كان كثير من علماء الاقتصاد عندهم يبحث عن أحوال فراغ ذلك المعدن وما يتسبب عنه من الرزية للانكليز وفي سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م اشتد البحث في هذا الامر وعينت الدولة لجنة لتحقيق الامر وبعد مدة وأبحاث استقر رأيهم على

أنه يمكن بقاء هذا المعدن عندهم الى مدة ثلاثمائة وخمسين سنة ثم يفرغ نظرا لكمية ما يستخرج منه سنويا ونظرا لصعوبة استخراجه فيما سفل من طبقات الارض وكثرة المصاريف عليه حينئذ ومن تلك السنة ارتفع عنه نظر الاقتصاد في استخراجه ولازال البحث عما يعوضه عنه من القوات أو وجوده بيد في مستعمراتهم ومن موارد تجاراتهم الواسعة أيضا ما يخرج منهم من الحديد وأغلب المجلوب لهم الحبوب لان ما يخرج منها عندهم غير كاف لهم وتجد في أفراد الانكليز الغنى الذى لا يوجد في غيرهم كما يوجد فيهم الفقر المدقع بكثرته وقد انعقدت في خصوص لندره شركات للتجارة والزراعة ٢١٢٥ شركة أفلس منها ٤١٢ شركة رأس مالها ٥٠٠ مليون فرنك وذلك في خصوص سنة واحدة وهي سنة ١٨٨١

﴿مطلب في الاحكام بانكلاتيره﴾ قد مرت أصول الاحكام الشخصية عندهم في مبحث السياسة الداخلية وانما نقول هنا أن قضاة الانكليز يضرب بهم المثل في أوروبا في العفة وعدم الميل الى الاغراض ولو في متعلقات دولتهم وهنالك مدن يقيم فيها القاضي ومدن تذهب اليها القضاة في أوقات معلومة من السنة فتعرض عليهم النوازل المهيآت لهم من حكام الجهات والاحكام الثقيلة انما تصدر من القضاة بمحضر الجوري وقد تقدم الكلام عليه غير أن جوري الانكليز يختص بانه على قسمين فالاحكام الخطيرة جوريها يتألف من فقهائهم وأعيانهم ولكل منهم ليرة على كل نازلة والاحكام الحقيرة جوريها من السوقة وأصحاب الحرف مثل فرانسا ويزيد جوري الانكليز بجور عظيم على نفس الجوري فان للقاضي توقيفهم في محل منفرد بمكان الحكم حتى يقع اجماعهم على رأى واحد من غير أكل ولا شرب واذا وجد مع أحدهم شيئا من مواد المعاش غرم مالا وهذا من عجائب الاحكام اذ كيف يلزم اتفاق آراء عديدة على قول واحد دائما أو يغصبون على ذلك عوضا أن يكون ذلك وسيلة للعدل ربما كان واسطة للجور كما أنهم صاروا يستحسنون تعويض الحكم بالاعمال الشاقة عن القتل مهما أمكن وذلك جالب لزيادة الشر كما صرحت به صحفهم المنصفة وكذلك صاروا لا يحكمون بحبس المدين وانما على الدائن اثبات ماله والحكم يوصله به ومن أحكامهم المبنية على العادات القديمة تغريقهم للوطى في وعاء من العذرة الى أن يموت وهو من أشد الشناعات عندهم ومع ذلك فهو فاش في كثير منهم سرا سيما العساكر البحرية وقد وقع عندهم منذ عهد قريب أن أحد الملاهي وجد فيه لاعبات جميلات جدا فدعاهن مترفوهم واختلوا بهن وبعد

مدة

مدة مديدة اكتشفت الحرس على أنهن فى الواقع غلمان وشدد البحث عن حالهم فوجدوا بحكم الاطباء انهم مفعول بهم كثيرا لكن حكم فيهم أشد حكم ولم تتبع الجزئيات لكى لا يقع الافتضاح لبعض العائلة وقد ابتنى على عدم حصر احكامهم فى مرجع واحد طول مدة الحكم وكثرة المصاريف عليهم أزيد مما يوجد من الطول فى محاكم اوربا التى تطول فيها النوازل جدا ومن أحكامهم اباحة الزنى بالتراضى مثل ما فى غيرهم لكن يمكن أن يقال نساء عليتهم أعف من غيرهن فى الممالك الاخرى ونساء أواسط الفرانسيس على ذلك النحو وما عدا هؤلاء فلا تردد احداهن تعرضا الاماثل بل وربما فاتحت هى الرجل

(مطالب فى المعارف بانكلاتيره) لا خفاء أن امتداد الثروة مبنى على كل من العدل والعلم فعلى قدر ارتقاء ذلك نمو الثروة وما تقدم من اجمال حال ثروتهم دال على حالة المعارف عندهم وأصول المعارف هى الموجودة بغيرها من الممالك السابقة وتنقسم تعاليمها الى التقاسيم الموجودة فى فرانسا وأعظم المدن التى توقد اليها من جهات الارتال لاقامة التلامذة بمدارسها هى مدينة كمبريج واكسفورد وأكثر أبناء الاغنياء يقيمون بهاته المدارس ولهذا كان كل من البلدين غالى الاسعار اذ أغلب التلامذة يقضون أوقاتهم فى التلهى والتفاخر والوسيلة اسم التعلم وقل ما يبرع أبناء الاغنياء فى العلوم لكن على كل حال لا يوجد فيهم الجهل المطبق ومما اختصت به انكلاتيره وجود جمعية ديانية لنشر مذهبهم البروتستانتى وانفاق النفقات الباهظة على ارسال الرسل لتنصير الناس فى أقسام الارض وحماية دولتهم وراءهم فيغرون الناس بالمال وبالمباحثات الدينية وبفتح المدارس لتعليم العلوم ودرس العقائد فيها وقد بذلوا وسعهم فى الهند لتبديل عقائد أهله وحصلت مع المسلمين مباحثات شهيرة وكان الانتصار فيها ولله الحمد للمسلمين حتى انه أسلم بسببها كثير من المجوس بل فى هاته المدة أسلم أربعة قسوس من الذين تصدوا للنزاع والجدل بسبب صدق الديانة الاسلامية ورسوخ العلماء هنالك وتبحرهم فى العلوم ثم ان أسباب تيسير نشر المعارف فى انكلاتيره كثيرة سهلة المناولة فقد حرروا فى سنة ١٢٩٨ ﻫ ١٨٨١ م انه يوجد بلندره وحدها ٨٧١ مطبعة و ١٦ معملا لصنع المكابس التى تشغلها الايدى فضلا عن معامل مكابس البخار (وتسعة) معامل لآلات اعطاء الحبر للحروف و ٢٢ معملا لصنع مكابس المطابع الحجرية و ٢٢ معملا لسبك الاحرف ولوازمها وكل مدينة فيها من المطابع والمكاتب

ما يناسبها وعدد المكتبات التي بانكلاتيره ٢٠٠ مكتبة فيها من الكتب المطبوعة ٢٨٧١٤٨٣ ومن الكتب التي بالخط ٢٦٠٠٠ وأعظم هاته المكاتب مكتبة لندرة الكبرى وهي ثانية لمكتبة الامة في باريس ومن أهم وسائط المعارف والتجارة والحرية عندهم الصحف الخبرية وهي على أنواع في الموضوع فمنها الخاص ببعض فنون علمية كالطب والكيميا وغيرها والبعض عام في الفنون والبعض جامع للسياسة والفنون والتجارة وأهم صحيفة من هذا النوع صحيفة التيمس وكان أول انتشارها غرة كانون ثاني سنة ١٢٠٣ هـ ١٧٨٨ م وكانت لرجل خاص ثم صارت ذات سهم للمشتركين ولم يزل حفيده نشيها له حصص منها وصارت لها آلة تطبع منها ستين ألف نسخة في الساعة الواحدة مع طيها على نحو كتاب ذي ثمان صفحات أو ستة عشرة صفحة والورق الذي تطبع عليه يؤتى به ملفوفا على نحو اسطوانة فتلتقمه الآلة وتخرجه مطبوعا مطويا واول كل قطعة من الكاغد قدر ثلاثة أميال انكليزية ويوضع لها من تلك القطع من الثلاثين الى الاربعين قطعة بحيث لو وصلت ببعضها ممتدة تبلغ مسافة مائة وعشرين ميلا هذا في طبعة الصباح وحدها وتارة تطبع ثانيا وثالثا ورابعا اذا تكاثرت الاخبار ولها خدمة للطبع والانشاء وغيره أربعمائة عامل نصفهم لخدمة النهار والنصف لخدمة الليل ورئيس المنشئين مرتبه مائة ألف فرنك في السنة وزيادة على المنشئين الرسميين بالمرتبات كل من أتى بمقالة في اي موضوع كان وحسنت عند المدير فانه يعطي صاحبها أجرا عليها يبلغ الى الالفي فرنك على المقالة الواحدة وله في سائر الاقطار مكاتبون بمرتبات وافرة ولهم أعوان وكتاب وادارة مثل سفارة لدولة من الدول ولهم اذن في صرف كل ما يلزمهم لاخذ الاخبار وايصالها للادارة زيادة على مصاريفهم الخاصة فيصرفون احيانا على مجرد خبر واحد بسلك الكهربائية ثلاثة آلاف فرنك وازيد بل ويرشون من يرتشي من متوظفي الدول لاعطائهم الاخبار السرية وقد حصلوا في بعض الدول المهملة على لوائح رسمية قبل وصولها الى السفراء برشوة آلاف من الفرنك وهؤلاء المكاتبون تقبلهم الوزراء والامراء مثل متوظفين ويحاورونهم في المواد السياسية وعند وقوع حرب فللادارة الصحيفة مكاتبون حاضرون ترسلهم الى ميادين الحرب في المعسكرين حتى يخبروا بما يكون وتقبلهم رؤساء الحرب بالرحب غير انهم يشترطون عليهم ان لا يخبروا الا بما يوافقهم فيحصل من الاخبار من الشقين ما يستنتج منه صحة الخبر وينال هؤلاء المكاتبين من الاخطار ما هو معلوم في الحرب غير انهم يتباعدون عن مواقع الرمي

الرمى وكثيرا ما يكونون بقرب رئيس العسكر ومن المعلوم ان لا يخاطر احدهم بذلك الا لكثرة المال فادارة التيمس لها من الدخل والخرج السنوى ما يضاهى دولة من الدول الثانوية مع ان كل نسخة منه لا تباع الا بثلاثين صانتيما أى ثلاثين من مائة من الفرنك الواحد ولو اشترى الورق وحده أبيض لكان أغلى من ذلك لان ورقه هو من معمل خاص به فالربح العظيم انما هو من كثرة الخرج مع كثرة الاعلانات وعدد نسخ كل دفعة نحو من السبعين ألف نسخة وعلى نحو منه فى أصول الادارة صحف أروبا الشهيرة كلها

❁ ﴿مطلب فى الصنائع فى انكلاتيره﴾ اما الفلاحة فهى مترقية للغاية وأكثر ما تستنبت هو القمح والشعير والبطاطس وشجرة الدينار التى تستعمل منها السكركة أى البيرة وكل المستنبتات لا تكفى حاجة الاهالى فيجلبون من الخارج كثيرا الا شجرة الدينار وبقية الصنائع فاعظمها اعمل آلات الحديد بانواعها والسفن والمنسوجات القطنية ولهم فيها مهارة على سائر الممالك حتى صارت أرخص عندهم من غيرهم ثم المنسوجات الصوفية لاسيما المستخرجة من صوفهم الرفيعة المشابهة للحرير وبقية الصنائع هى دون ما فى فرانسا فى الحسن والرونق لكن جميع مصنوعاتهم متينة

❁ ﴿مطلب فى هيئة المساكن فى انكلاتيره﴾ المساكن فى انكلاتيره على خلاف الممالك المتقدم ذكرها فان هيئة البناء من خارج على نحو ما فى الاستانة من خروج جهات من الدار ودخول أخرى وكذلك الطوافى تنفتح أبوابها بالرفع الى فوق مع كونها غير كبيرة مثل ما فى بقية أروبا وكذلك الديار كل منها لا يسكن الا عائلة واحدة ولا تزيد طبقاتها على ثلاث والبناء كله من الآجر والسقوف والدرج من خشب متقن الصنعة والالاصاق ببعضه ومن أحسن ما عندهم هيئة الكنف واتساعها ونظافتها وان كانوا يجلسون عليها جلوسا فما تقدم فى الابنية هو الغالب والقليل مثل بقية ابنية الممالك السابقة ثم ان منازل المسافرين هى أيضا مثل الممالك السابقة غير ان أكثر الواردين انما يسكنون فى ديار منفردة يجدها الانسان حاضرة بجميع لوازمها وينفق فى أكله على حسب ارادته والذى يقوم له بلوازمه هو صاحب المحل فيسأله عن مقدار ما يريد يصرف يوميا وعن اجمال وقت أكله وما هو مشتهاه منه فيصرف له على نحو ما يريد وتخدمه خوادم المحل الذين هم فى الاغلب من البنات الجميلات ومن أراد كراء بيت واحد فله ذلك وهذا الطريق أرفق بكثير من السكنى فى منازل المسافرين لانها فى انكلاتيره غالية جدا كانها

معدة لارباب الترف خاصة ثم ان حارات السكنى لا تجد فيها حوانيت للسلع أو غيرها من اللوازم بل ذلك من عيب المسكن عندهم والطرق التي بها الاسواق وحوانيت الباعة لا تسكن الا للاراذل بحيث يصح ان يقال ان عاداتهم في المسكن قريبة كثيرا من عادات المسلمين في انفراد العائلات وحمايه الديار من التطرق وشدة النظافة في داخل الديار تنظيمها كل على قدر سعته أما الفرش والاثاث فهو على نحو ما تقدم في الممالك السابقة من أوربا ومواقد الانكليز في البيوت أتقن من غيرهم وتلزمهم نفقة تضاهي نفقات المعيشة لشدة البرد وطول مدته ولما رأيت ان بلدانهم كادت أن تكون كلها من الآجر زال تعجبي مما رأيته من كثرة معامله في الطريق (أما الطرق) في انكلاتيره فهي دون غيرها من ممالك اوربا المتقدمة في الذكر من جهة النظافة والاعتناء بتنظيمها حتى اني رأيت في ذات لندره طريقا لا يسع الا عجلة واحدة ولا تكاد العجلة تتحرك فيه من كثرة ما فيه من الوحل والطين مع كونه كثير المرور فيه (وهكذا) سائر الطرقات كثيرة الوحل قليلة النظافة سيما وقت نزول المطر الذي لا يكاد ينقطع ولهذا شرعوا في عمل تبليط الطرق بقطع الخشب لانها أنظف (وأما تنوير الطرق) فهو على نحو ما في سائر أوربا لكن القرى الصغيرة في بلاد الانكليز هي اسوأ حالا من غيرها اذ كثير منها لا تجد فيه حانوتا لبيع شئ الا نادرا من بيع ما لا يسد من عوز كما ذكره الشيخ أحمد فارس في صفتهم في هذا الصدد حتى يكادوا يلحقوا بالوحشيين نعم ان طرق الحديد والترع والسفن هي هنا أكثر وأمتن من غيرها ومن الابنية المعتنى بها السجن فهو عندهم بل وعند سائر أوربا منقسم على أنواع على حسب الجنايات وحسب الايقاف والحكم فمحل الايقاف للمتهم حتى يثبت عليه الحكم أشبه بنزهة منه بسجن ثم يتدرج الامر الى الجنايات الشديدة فيحبس الجاني في بيت منفرد يدخل له الضوء من أعلى ويتجدد به الهواء ويعطى شغلا عمليا وفراشا نظيفا يدفع الحر والبرد وأكلا سليما من طعام واحد ويخرج في وقت معلوم للمشي في البستان الذي حول السجن لكنه يمنع من الكلام مع غيره مطلقا فان خالف الاوامر سجن في محل مظلم بطال واذا مرض عولج بالطبيب والدواء فسجونهم سجن لا مقتل

﴿مطلب في اللبس في انكلاتيره﴾ لبس الانكليز مثل لبس الفرانسيس بل والشابات المترفات عيال في التقليد على الفرانساويات وهم يؤثرون مصنوعات الفرنساويين عن مصنوعاتهم في اللبس ولبس العساكر أحسن من لبس عساكر غيرهم

نظافة وشكلا وان كان على نحو واحد ولما كانت الابخرة والدخان والضباب في انكلاتيره متكاثر جدا كانت الثياب البيض كالقمصان تحتاج الى التغيير بكثرة محافظا على النظافة فاحتاجوا الى جعل رقبة القميص ورؤس يديه وصدره مفصولة عن القميص وتمسك به بواسطة زرر حتى لا يلزم تغيير جميع القميص لمجرد وسخ ما يظهر منه عدة مرار في اليوم وهذا وان كان موجودا في سائر اوربا على السواء عند أواسط الناس لكن الذي خصت به انكلاتيره هو جعل تلك القطع من ورق ثخين أبيض حيث وجدوا ثمنه وان كان لا يصلح لازيد من لبسة واحدة أرفق من ثمن الكتان مع دوامه لما يحتاج اليه من كثرة غسل الصابون والنشاء والتمليس بالحديد المحمى

(مطلب في الاكل في انكلاتيره) الانكليز أكثر أكلا من غيرهم حتى ان المقلل منهم لعددها يأكل أربع مرات في اليوم صباحا وقبل الظهر وفي الساعة السادسة بعد الظهر وقبل النوم والاخيرة هي الخالية عن المطبوخ ومنهم من يأكل ثمان مرات في اليوم وأكلهم على العموم بسيط اذ هو شوربة ولحم خالص مقلي أومشوي أومسلوق و بطاطس مسلوقة في الماء ليس الا ولا يضعون في الطعام شيئا من التوابل بل يأتون بها في أواني أمام الآكل يأخذ منها ما شاء بدون طبخ بل حتى الملح كذلك عند بعضهم ومن هاته التوابل الحريفة كثيرا كالفلفل وغيره مما يستعمله الهنود ويأتون الى موائدهم بقطع كبيرة من الجبن وهو لذيذ حين رأيته كما ان اللحم أيضا يأتون به قطعا كبيرة جدا بحيث يأتون بفخذ بقرة صغيرة كله قطعة واحدة كما انهم أكثر أكلا للخنزير من غيرهم ممن رأيت والمترفون منهم والمطاعم الشهيرة العامة يأتون بطباخين فرانساويين وقد رأيت باحدى المطاعم بلندره (قسما) لا كل الانكليز (وقسما) لا كل المشرقيين (وقسما) لا كل الفرنساويين فيختار الآكل الجهة التي يريدها وكان الداعي لبساطة أكلهم ولو عند الاغنياء كثرة الغش في المأكولات بحيث لا تكاد تجد خبزا من دقيق الحنطة حقيقة بل هو فيه أنواع شتى تركب باتقان حتى لا يفرق بينها وبين الاصل الا بعمليات كيمياوية وكذلك الزبدة فما هي الا شحم حيوانات تركب مع اجزاء بأعمال كيمياوية حتى تصير مثل الزبدة (وهكذا) سائر الاشياء الا اللحم وقد ذكر في كشف المخبا ما يتعجب منه من خلط المأكولات وغشها وجهل العموم بانواع الطبخ وهم كثيروا الشرب للمسكرات الروحية وكذلك السكر كة أى البيرة لشدة البرد وقلة الخمر وغلائه حيث لا ينبت بأرضهم العنب ويخلطون البيرة بورق التبغ حتى تصير شديدة التأثير ويكثرون

منها حتى يغمى عليهم بل ان أيام الاحد ترى النساء والرجال سكرى على الطرق ملقون ويتفوهون بالفحش وبعضهم أحيانا يموت من كثرة السكر وأهل اليسار يشربون الشاى بكثرة سيما فى السمر ليلا ويدعوا الاحبة بعضهم اليه ويختلفون لشربه ويجعلون فى أقداح الشرب قطعا من الليمون الحامض أو يخلطونه بشئ من اللبن ويأكلون معه شيئا من الخبز والزبدة وغير ذلك من المأكل الخفيفة لكنهم لا يضعون فيه العنبر أو غيره مما تصنعه المغاربة والمشارقة وأكثر طبخهم فى الاوانى من الحديد لا النحاس لانه اذا لم يبيض دائما ينشأ منه الصدء القتال ولذا صار أغلب أروبا انما يطبخ فى أوانى الحديد أو النحاس التى يجعل داخلها مطليا بنوع من الخزف بحيث لا يمس النحاس الطعام ومن عاداتهم فى الاكل أكل اللحم المنتن سيما فى بعض الطيور حتى يصير الطير يكاد يتحرك من الدود الذى نشأ فيه واذا أدخل الى بيت الاكل زكمت أنوف حتى الكلاب من قبح نتن رائحته وهم يستلذونه على ذلك مثل سودان افريقية ومن القواعد الجارية فى عموم أروبا ان لحم البقر لا يؤكل الا بعد يوم من ذبحه فى الاقل ومثله الطيور ولعمرى ان هذا يحسن من جهة تليين اللحم وقابليته للطبخ واللذة سيما فى البلاد الباردة لكن لا يصل الحد به الى حدوث أدنى رائحة به فان هذا مضر بالصحة فضلا عن استقذاره (أما لحم الغنم) وما شاكله فيؤكل فى يومه وهو لذيذ لكنهم ممنوعون من لذة أكل الخروف الصغير اذ الحكم يمنع ذبح الشاة دون سن العامين لاجل الاقتصاد بكثرة اللحم لان الشاة اذا كبر حجمها كفت أضعاف أضعافها وهى صغيرة نعم من أراد ذلك فله ذبح خروف لخصوصه ويؤدى عليه أداء زائدا للحكومة بحيث لا يوجد الا بالاعتناء

﴿مطلب فى المواكب فى انكلاتيره﴾ المواكب عند الانكليز هى رأس السنة والاعياد الدينية واجمالها مثل ما تقدم فى غيرهم غير انهم عند تهنئتهم للملكة يلبس الكبراء ذلك الشعر الابيض العارية ويقبلون يدها على ظهر الكف ومنهم من يقعد عند ذلك على ركبة ورجل وتقبيل يد الملكات جار عند غيرهم أيضا وزوجة الملك تعامل معاملة الملكة فى ذلك بل وبعض الممالك مثل المانيا النمسا كرفهما يقبلون يد الملك أيضا ومن المواكب الشهيرة فى لندره يوم دخول صاحب الملك المدينة رسميا متوجها الكنيسة مار بولس متشكرا على ظفر أو لافتتاح بناء مهم عام فحينئذ يأتى راكبا الى البلاد ولا يدخل الا من باب تنبل بار وهو فى أول طريق السيتى الشهير فيغلق الباب فى وجهه شيخ المدينة فيقدم الملك الى أن يصل للباب فيفتح أحد كبراء أتباعه

أنباءه فى بوق ويدق آخر الباب وتقع مخاطبة بينه وبين شيخ المدينة ثم يفتح الشيخ الباب ويقدم للملك سيف البلاد فيأخذه منه ثم يرجعه عليه ثم يسير الشيخ فى ركابه الى أن يصل الى مقصده مع الاحتفال التام وكمال الازدحام ومن المواكب المشهورة يوم تولية شيخ المدينة فى كل سنة فى شهر تشرين ثانى فانه يحمل فى الطرق حواجز لمنع مرور العجلات وتغص الطرق بالخلائق فيخرج الشيخ من قصر كادهال فى موكب حافل ويركب بعجلة مؤنقة ذات قيمة بليغة تجرها أفراس ويركب معه قاضى القضاة والكل باللباس الرسمى وتوضع أمامه آلات الحرث على عجلة مزينة بما تنبته الارض وعلى عجلة أخرى سفينة ذات شراع تجرها ستة أفراس أيضا وتنتشر فى الطرق الشرط وتمشى امامه وتقف حول طريقه فرق عديدة منهم بعضها يعزف بآلات الطرب وبعضها ينفخ فى ابواق وبعضها يحمل رايات مختلفة الالوان وبعضهم متدرع بالدروع العتيقة وفى موكبه جميع أصحاب الرتب العالية وشيخ المدينة المعزول ويلاقيه فى الطريق وزراء الدولة وأعضاء المجالس والندوة وسفراء الدول وعند استقراره بالقصر الخاص به يدعو جميع الاعيان لوليمة فاخرة تشتمل على ٢٦٣٧ صحن مع زينة المائدة باوانى الذهب والفضة ويجعل أمامه صحن به سمك صغير من سمك نهر تيمس ويكون ذلك اليوم يوما مشهودا وذلك الشيخ من أعظم رجال الدولة مع أنه يمكن ان يكون سوقيا أو نفراء سكر باعلى حسب ماينتخبه المجلس البلدى وبقاؤه سنة فقط ومرتبه نحو عشرة آلاف ابره لا يستنفع منها لذاته بشئ اذ كلها تصرف فى أهبة المنصب وولائمه

❊ مطلب فى اللغة فى انكلاتيره ❊ اللغة الانكليزية مستحدثة متولدة من اللسان التودسكى القديم وهى لغة ضيقة سهلة التعلم يؤدون المعانى كلها بالتركيب وقد اشتهرت جدا فى أمريكا والهند حتى صار عدد من يتكلم بها ثمانون مليونا عدا من يعرفها وليس يستعمل لها لغة له وكانها لغة حلقية لان أغلب أحرفها حلقى ولا تساعد على انشاد الشعر والغنا الا بكلفة كبيرة

﴿مطلب فى القوة الحربية والبحرية والمالية والتجارية﴾

فرنك	
٠٠٠ ٠٠٠ ٧٥٠ ٢	دخل الدولة الانكليزية عدا حكومة الهند والخرج مثله سنة ١٨٨١ نحو
٠٠ ٠٠٠ ٦٣٠ ١	دخل حكومة الهند والخرج مثله
٠٠٠ ١٦٠ ٠	عساكر برية تحت السلاح
٠٠٠ ٣٥٠ ٠	عساكر الهند تحت السلاح
٠٠٠ ٠٦٥ ٠٦ ٠	عساكر بحرية وليس للهند منها شئ في وقت الحرب في الخارج تحضر بالاجرة كما تريد وعند الهجوم عليها فاهلها كلهم محاربون
٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ١٠	قوة التجارة المالية نحوا
٠٢٠ ٥٣٨	عدد السفن الشراعية الحاملة للراية الانكليزية
٠٠٥ ٠٢٧	عدد البواخر الحاملة للراية الانكليزية
٠٠٧ ٢٩٤	عدد المعامل ذوات الآلات لسائر المصنوعات في برنيطانية
٠٠٠ ٠١٨	امتداد سكك الحديد أما الاحمات من الركاب في سنة واحدة ستة ملايين
٠٠٠ ٠٦١	عدد البواخر المدرعة العاملة والاحتياطية
٠٠٠ ٣٦٠	حمولتها طونولاته وكل طونولاته عشرون قنطارا ومدافعها على حساب المعدل الواحد طونولاته ٣٧

الباب السابع ❋ في جزيرة مالطه

﴿الفصل الاول في سفرى اليها﴾

لما رجعت من فرانسا الى تونس فى أواسط رمضان سنة ١٢٩٦ ووجدت انقلاب الاحوال فيها باستيلاء فرانسا عليها قد نشم ولم تفد نصائحى الى وزير تونس مصطفى بن اسماعيل بل رأيته أضمر لى الشر حتى أوعز الى بعض الصادقين بعزمه على البطش بى ولو أفضى الى القتل معتضدا بربستان قنسل فرانسا اذ ذاك خشية من فشو ما اطلعت عليه من عزمهم وحصول التعطيل لهم حسبما سبقت الاشارة الى طرف منه فى ذيل تسلط فرانسا على تونس وفى اسباب سفرى ولم نجد مخلصا الا التخلص برأسى وطلبت من ذلك

الوزير

الوزير كتابة اعفائي من الوظيفة الا بحالة بدني فاجابني كتابة بالمنع فطلبت الاذن بالتوجه الى الحج فمنعني أولا فاستجرت اليه بمن لم يسعه الا قبول جاهه فاذن لي فانعا بالاستراحة مني وشافهني الوالي عند وداعه بما يشف عن غيظه الذي ملأ به وزيره صدره فانقذني الله من شرهم وأخذت ورقة الجواز وسافرت أواسط شوال من تلك السنة الى الحج على طريق مالطة بحرا فوصلت اليها بعد سير الباخرة البريدية نحوا من يوم فاذا هي جبال قحلة ترى فيها حيطان من الحجر مرصوفا منتشرة على تلك الجبال ومرساها من أعظم مراسي البحر الابيض اتقانا وصناعة وتحصينا واقعة على الجهة الشرقية من شاطئ بلاد فاليتا التي هي قاعدة الجزيرة فصعد الى الباخرة السماسرة لمنازل المسافرين واتفقت مع سمسار المنزل المسمى أوتيل دي باريس على أن يكون سعر اليوم والليلة فيه عشرة فرنكات سكنا وأكلا لي ولتابعي والسكنى في حجرتين والاكل مرتين لانهم يسألون عن كمية الاكلات لما تأثر به من كثرة أكلات الانكليز فدخلنا الى البلاد ولم يطلب الكمرك الا الاداء على المأكولات وذلك لان السفر الى الحرمين يلزم فيه قطع براري ليس فيها مرافق فاحضرت معي من المأكولات التي تدخرها لانجده في البلدان التي نمر عليها ومع ذلك كنت خففت ما استطعت ولم نعمل باشارة بعض الاحباء من حمل كثير من اللوازم ظنا مني اني أجدها في البلدان القريبة هناك وكان الامر على ما قالوا كما سيأتي في محله ان شاء الله ولما كانت مالطة مرسى حرة لما يأتي في سياستها لم يكن فيها اداء على شئ سوى المأكولات التي تؤدى الى المجلس البلدي لمصالح البلاد وحيث كنت لا احتاج الى تلك الاشياء في مالطة أبقيتها مؤمنة في الكمرك وأخذت فيها حجة لكي لا نؤدي عليها شيأ وبعد الاستراحة بالمنزل نظرت فاذا بالطبقة السفلى ملآنة بصناديق مكسوة بالجلد الجميل ومسامير النحاس ومعها بعض خدم وحشم والطبقة العليا فيها عائلة من المسلمين ومعهم رجل ممن اتخذ السخرية صناعة له فقدم الي وحادثني بكلمات بعضها عربي وبعضها تركي ولم أكن اذ ذاك أفهم التركي فاعلمته باني لم أفهم فعدل الى العربي وأعلمني انه من حاشية أحد الكتبة بطرابلس الغرب من موظفي الترك وانه أرسل الى الاتيان بعائلته من الاستانة فصحبها ومع بقية الخدم وذكر في حديثه مقدار مرتب متبوعه فظننت انه هازل فحقق لي المقدار فاذا هو لا يبلغ مائتي فرنك في الشهر فتعجبت من الامر كيف يكون صاحب تلك الابهة مكتفيا بذلك المرتب ويتعب لاجله من الاستانة الى طرابلس الغرب مع شدة التباين في الهواء بالحر والبرد مع خلو الوظيفة عن مقام عال حتى يتحمل لصاحبها برغبته في

الصيت فدل على وجود بح آخر على غير الوجه الرسمى مما يضر بالمملكة والله لطيف حفيظ (وهاته) البلاد أعنى فالينا قاعدة مالطة متصاعدة فى جبل حتى ان أغلب طرقها يصعد فيها بدرج وبها طرق رحيبة للعجلات أحسنها واحدة من الشمال الى الجنوب خارق البلاد الى طرفيها وبعضه مبلط بالخشب لمجرد تقليد بلاد لندره والا فلا باعث عليه لامن جهة الوسخ المتسبب عن عدم انقطاع الامطار ولا من جهة قرقعة العجلات المتكاثرة ولا من جهة رخص الاخشاب اذ مالطة على خلاف ذلك كله وهى على نوع البلاد الاروباوية المتوسطة فى الكبر والحسن غير انها متقنة نظافة الطرقات وان كان أهلها يبولون ليلا فى الطرقات لكنهم يغسلون محلات البول كل يوم وبها قصر الحاكم وفيه آثار عتيقة على قدر حالة البلاد وليس منها ما يذكر الا مدافع من أول نوع اخترع وهى ورقات من نحاس معصبة بحبال ثم ملفوف عليها جلد غليظ مطلى بالقطران طول كل مدفع ثمانية أشبار وقطر داخله سبع عقد وبقية ما فى البلاد ليس منه ما يفرد بالذكر غير انها حاوية لانموذج ما فى المدن الحسنة مما يرجع الى التحسين على نحو ما فى أروبا فلا نطيل باعادته (أما فى التحصين) فهى من أول أقسام المراسى والبلدان الحصينة بما حولها من الحصون المعمرة بالمدافع الضخام جدا مع الكثرة وجعلها طبقة فوق أخرى لما ساعد على ذلك من الجبل فهى حصون منحوتة فيه لا تخربها القنابر ولو من أعظم المدافع بحيث يصح أن يقال انها لا يمكن للهاجم اقتحامها أو أخذها الا بالحصار لاحتياجها الى القوت من خارج ثم يلزم طول مدة الحصار لانها مركز متوسط فى البحر الابيض فتجئ اليها التجارة من البحر الاسود وغيره ويخزن فيها من الحبوب وغيرها ما يكفى أهلها عدة سنين كما انها تشتمل مرساها على معمل مهم للسفن واصلاحها محتوية خزائنه على كل المواد اللازمة لها وبها مرسى أخرى تسمى مرسى موشيط وكأنها محرفة عن مرسى الشط وهى مرسى الكرنتينة أى مكان اقامة الواردين من البلاد المصابة بالامراض المستوبية وهى دون الاولى وحولها مساكن مقسمة على أقسام على وجه يمكن به الاحتراس من مخالطة السكان بعضهم ببعض وهى مساكن لا بأس بها كما يوجد خارج البلاد مقبرة اسلامية محوطة بسور لها باب مغلق مفتاحه عند امام الجامع وهو جامع ظريف والامام يقيم هناك والقائم بالجميع الدولة العثمانية لكثرة ورود المسلمين الى هناك حجاجا وتجارا من المشرق والمغرب فاقيم ذلك الامام للصلاة بالجامع وعلى من يموت لكنه عوضا عن سلوكه مسلك الديانة كان مقيما على الخنا والجامع معطل ولله عاقبة الامور

الامور وعند مروري على حوانيتها وجدت بها أسرة من حديد صغارا خفيفة نفاق حتى يصير الواحد في طول ذراع وغلظ سبع عقد ويلف في المكان المخين الذي يفرش على ظهره للنوم عليه فأخذت منها اثنين للرحلة في الحجاز وفتشت على معمل صغير يمكن حمله بسهولة للثلج فلم أجده هناك ولا وجدت شيأ يحتمل أني لا أجده في غيرها فاكتفيت بذلك وسافرت منها بعد الاقامة بها ثلاثة أيام راكبا باخرة تجارية انكليزية متوجها الى اسكندرية

الفصل * الثاني *

﴿ في التعريف بمالطة ﴾

مسمى هذا الاسم ثلاث جزر واقعة في البحر الابيض على دقيقة ٤٥ درجة ٣٥ من العرض الشمالي ودقيقة ٤٤ درجة ٢٢ من الطول الشرقي الجزيرة الاولى تسمى فاليتا وبها خمسة عشر قرية أكبرها فاليتا التي هي القاعدة والجزيرة الثانية تسمى (أدوج) بها ستة عشر قرية والجزيرة الثالثة تسمى كمونة وبقربها أخرى تسمى فلفلة صغيرتان ليس بهما سكان وانما يقدم اليهما أهل الجزيرتين الاخريين للفلاحة بهما واختلف الجغرافيون في الحاق مالطة فمنهم من جعلها من أفريقية ومنهم من جعلها من أروبا لقربها الكل منهما (وكل هاته) الجزائر جبال صخرية غيران حجرها لين سهل النحت فاذا جف بالشمس تصلب نوعا ما فارضها غير جيدة لكن اشدة العمل والمعالجة صارت صالحة لزراعة كل النباتات التي بالبلاد الحارة (وأما جبالها) فليست بمرتفعة وليس بها بالكاني وليس بها نهر الاما يحدث عند المطر من السيول وليس بها بحيرة (وأما عيونها) فتوجد بها عينان ضعيفتان (احداهما) بالجزيرة الاولى (والثانية) بالثانية ماؤهما عذب مشوب بشيء يسير من الملوحة وأكثر شرب أهلها من ماء المطر المخزون في دهاليز وجرار (وأما هواؤها) فهو أميل للحرارة لقربها من المنطقة الحارة وتحدث فيها الاسحبة فجأة بامطار كأفواه القرب مع رعود وبروق هائلة ربما تكشف بسرعة ويحدث ذلك بها ولو صيفا الا انه بقلة فيه وأما في الخريف والشتاء فهو كثير والهواء مريف مضر بالصدر كثيرا الندى حتى يفسد المأكولات وغيرها المخزونة في أماكن قليلة تغير الهواء (وأما نباتها) فينبت بها سائر البقول وهي جيدة والقمح والشعير وغيرهما من الحبوب ويحصل فيها خصب متوسط كما ينبت بها القطن والعنب والرمان والتين وغير

ذلك من الاشجار التى تتحمل الحر ولا تحتاج الى كثرة الماء ولذلك لم يكن بها غابات وما
ينبت فيها من الشجر لا يرتفع على وجه الارض الا يسيرا فترى الخرنوب الذى يكون فى
تونس الواحدة منه مثل غيضة شاهقة هو فى مالطة لاصق بالارض لا يكاد يبين
(وهكذا) سائر الاشجار ويعظم بها الصبار جدا (واما حيواناتها) ففيها المعز الحسن كثير
الحلب وبقية النعم يجاب لها من خارج ويعلف علفا الا قليلا من الرعى لعدم المرعى وبها
الحمير بكثرة والبغال والخيل بقلة (اما الحيوانات) الوحشية فليس بها الا الارانب ومنها
نوع انسى يعظم ويربى والسباع منقطعة والطيور الانسية كلها مرباة عندهم ويوجد
بكثرة العصفور الاصفر الحسن الصوت المسمى بالكانالو والبرية قليلة الا بعض الرحالة
كالسمان (واما المعادن) فليس بها الا الحجر ويصنعون الملح عند شاطئ البحر بعملة
صناعية (واما مدنها) فهى قاعدتها المسماة بفاليتا والبقية قرى مجموعها احدى
وثلاثون قرية اهم ما فيها الكنائس (واما مراسيها) فقد تقدم ان بها مرسيين عظيمتين
جدا وما عداهما فانما هو مراسى طبيعية حول القرى للقوارب وماشاكلها (واما اهلها)
فعددهم مائة وخمسون الفا كلهم مالطيون وبينهم قليل من الطليان تجارا
ومن الانكليز عسكرا او بعض متوظفين ومن العرب افراد اتجارا او مجتازين واصل
الاهالى على غالب الظن من بربر تونس وديانتهم نصرانية على مذهب الكاثوليك ولهم
غلو شديد وانهماك فى اعتقاد خرافات

الفصل * الثالث

فى تاريخ مالطه

(مطلب فى التاريخ القديم) اول من سكن هاته الجزيرة الفنيقيون وسموها اجاجية
ثم عمرها اليونانيون وسموها ماليتة واشتهرت بذلك من قبل التاريخ المسيحى سنة ٨٢٢
ولم تزل ولايات المستولين على ايطاليا تتوالى عليها ثم سلموها للقرطاجنيين ثم رجعت
للرومان ثم الحقت بالدولة الشرقية ولما ساء ظلمها الاهالى واشتدت وطأتهم استغاثوا
بالمسلمين فافتتحها المسلمون بعبورهم البحر من تونس اليها والى صقلية فى المائة الثالثة
هجرية ولاقوا من اهلها احيانا ثورات شديدة الى ان تم الاستيلاء عليها ونقلوا اسمها
الى مالطة المعروف الآن وكأنه مصحف من الاسم اليونانى السابق وبقيت بايدى
المسلمين نيفا ومائتى سنة ثم لحقت بصقلية تحت ملك عائلة النورمان ثم التحقت بمملكة

النمسا

النمسا الملقبة اذذاك امبراطورية جرمانيا ثم الحقت بفرانسا ثم بنابلي ثم استولى عليها
نابليون الاول والحقها بفرانسا ثم عند حرب الدولة العثمانية لفرانسا في مصر وتحزب
انكلاتيره للدولة العثمانية استولت انكلاتيره على مالطة

﴿مطلب في تاريخ مالطة الجديد﴾ لما أساء الفرنساويون الى أهل الجزيرة بانتهاك
عوائدهم وكنائسهم ثاروا عليهم ثورة شديدة واستنجدوا الانكليز فاعانوهم وسلموا
الحكم اليهم وكان ذلك في سنة ١٨٠٠ ولم تزل حكومة الانكليز مستقرة هناك وأغلب
الاهالي مائلون اليهم عن طيب نفس

﴿مطلب في سياسة مالطة الداخلية﴾ الحكومة انكليزية بمعنى ان الحصون والقشل
بيد عساكر انكليزية والحاكم العام انكليزي مراع للاهالي وعوائدهم حتى انه يتحرى
لهم أحيانا و يرسل لهم حاكما على مذهب الكاثوليك من أهالي ارلانده وقد وقع ذلك مرة
عندما تعرض أحد الحكام البروتستانت لعادة لهم في أحد أعيادهم فاشتكوا منه
وعزلته دولة انكلاتيره حالا وعوضته بكاثوليكي ولاتزال تراعي لهم ذلك وهو عندها
احدى الكبر لما مر بك من قانونهم وعوائدهم حتى في التعصب لمذهب البروتستانت
وذلك الحاكم يبقى في وظيفته خمس سنين ثم يبدل بغيره الا أن تطلب الاهالي ابقاءه ثم ان
تصرفه مقيد بمشورة عشرة من أعيان المالطيين في كل ما يعود على مصالحهم وحالة بلادهم
وكل المتوظفين في السياسة والاحكام هم من أهل مالطة الا الكاتب الاول للحاكم العام
وجميع دخل الحكومة لاتأخذ منه دولة الانكليز ولادانقا واحدا بل كله يصرف في
مصالح الاهالي وعساكر الدولة تصرف عليهم من خزينتها الامن دخل مالطة والاحكام
الجارية هي أصول القانون الانكليزي ممتزجا بما يصلح بالاهالي ومطابقا لعاداتهم حتى
ان احترام يوم الاحد الذي يلزم في انكلاتيره غلق جميع الدكاكين فيه لاترى منه
في مالطة شيئا فتلخص ان الحكومة شورية قانونية والاحكام الشخصية منفردة عن
الادارة العرفية واسم الحكومة الانكليزية وحقيقتها أهلية غير ان أكثر الواردين من
الانكليز سواء كانوا متوظفين أوغيرهم يتكبرون كبرا عظيما على الاهالي لاستحقار
عاداتهم وبلادهم فأورث ذلك كره رعاع الاهالي لهم وان لم يقدر واحد من الانكليز على
ظلم أحقر الاهالي

﴿مطلب في السياسة الخارجية بمالطه﴾ ليس في مالطة من سياسة خارجية تعتبر
اذهي لاحقة بانكلاتيره وانما في قاعدتها قناصل لكل الدول الكبيرة مراعاة لكونها

مأوى متوسط بين المشرق والمغرب فتأوى اليها السفن المارة لكلا الطرفين وليس
لاولئك القناسل من شئ سوى قضاء مايحتاج اليه اتباع دولهم اذا الحكم فى البلاد جار على
الجميع سواء من دون دخل للقنسل فالقناسل أشبه بوكلاء تجارية نعم لهم فائدة فى الاعلام
بالحوادث السياسية ان حصلت هناك ولذلك كانت أغلب القناسل هناك أصحاب
وظائف شرف لا وظائف عمل وكثيرهم لامرتب له وانما يكون من ذوى الثروة يقنع
برسم اشارة الحكومة المنسوب اليها على باب داره لمجرد الفخر اذ الافرنج مطلقا سواء كانوا
من أهل مالطة أم من غيرهم لهم ولوع زائد بحب الفخر فتراهم يتهافتون على نياشين
الافتخار وعلامات الامتياز ولو من دولة صان مارينو التى هى عبارة عن أربعة آلاف
نسمة ليزينوا بها صدورهم فى المواكب أو يثبتوا فى ستراتهم غرات على شكل الوردة
ذات ألوان مشيرة الى ما عندهم من علامات الامتياز فاذا دخل الزائر مقابلا بتلك الوردة
نال من المزور زيادة المراعاة ولو من جبابرة لندره وطغاة باريس ومن سخافة عقول
بعضهم أن يتخذ تلك الاشارات وسيلة للتدجيل على النساء حتى تعشقه للزواج أو غيره
بناء على انه من علية الناس وقد نشأ عن هاته الرغبة فى النياشين ان بعض الدول صار
لا يعطيها الا بثمن لذات النيشان الذى هو أزيد من قيمته وزيادة على ذلك صار بعض
الدول يعين لسفرائه فى الخارج عددا مخصوصا من كل طبقة من النيشان ليبيعه
ويستعوض بثمنه عن أخذ مرتب له من دولته وكذلك مرتب اتباع السفارة مع ما يحصل
له من رعيته اذا كان مقيما فى مملكة يسوغ فيها تداخل السفراء والقناسل فى الاحكام

﴿مطلب فى بقية عادات المالطيين وأحوالهم﴾ لما تقدم لنا الكلام فى الممالك
السابقة على بيان أطوار الاروباويين وعاداتهم فلا داعى الى الاطالة بالاعادة على غير
فائدة لان مالطة قطعة من ملحقات أروبا واجمال أطوار أهلها على العموم مثل أطوار
سفلة الطليان والاعيان منهم مثل أعيان أروبا سوى انهم يزيدون عليها بكثرة لبس
الخواتيم فى الاصابع ونساؤهم جميعا اذا خرجن فى الطرق يجعلن على رؤوسهن
رداء أسود مدلى جهة اليسار ويمسكن طرفه الايمن بايديهن
وكذلك لغتهم مخالفة لغيرها لانها عربية محرفة
جدا مدخول فيها كثير من الالفاظ
والاصطلاحات
الطليانية

الباب الثامن فى الاقطار المصرية

❊ الفصل الاول فى سفرى اليها ❊

بعد أن أقمت بمالطه ثلاثة أيام ننتظر سفر باخرة تو الى الاسكندرية حيث لم يكن بينهما بواخر بريدية تواوغالب البريد يسافر الى ايطاليا أوغيرها من جهات المشرق ثم يذهب الى الاسكندرية فيلزم طول مدة السفر فلذلك أتيت باخرة تجارية من بواخر الانكليز التى تتوجه الى هنالك بكثرة فوجدنا واحدة مشحونة بالفحم الحجرى أنزلت منه ما أنزلت فى مالطه وجات الباقى الى الاسكندرية والكراء فيها وفى أمثالها أرخص من بواخر البريد لانه راجع الى السفن حيث ان أصحابها ليس لهم الا المحمولات التجارة التى هى موضوع تشغيل السفينة فلم يكن بها الا الطبقة العليا والاخيرة للركاب وليس بها المتوسطة وهما مثل طبقات البريد فركبنا الهلالان الباخرة عند تمام افراغ شحنها تسافر من غير تأخير ولكنها لم تسافر الا صباحا بعد الشروق وأسفت من ركوبها لما رأيت بها من الوسخ سوى داخل البيت الكبير فانه نظيف ومثله حجرات النوم ومن المعلوم أن الجلوس به دائما مقلق لكنه ما مضى من وقت السفر أربع ساعات الا وقع غسل ظاهر الباخرة غسلا محكما ونشف فصارت من أنظف البواخر والحق أن يقال ان بواخر الانكليز مطلقا أشد نظافة مما سواها من غيرها أعنى كل نوع بالنسبة الى نوعه وذلك انى كنت رأيت بواخرهم الحربية مجتمعة مع غيرها من البواخر الحربية للدول الكبيرة عند قدومها الى تونس سنة ١٢٨٠ فى الثورة العامة فاذا بواخر الانكليز أتقنها نظافة وكذلك البريدية والتجارية ويليهم فى ذلك الفرانساويون ثم استمر السير والبحر فى غاية السكون وكان معنا من الركاب فى الطبقة الاولى اثنان انكليزيان لهما معرفة بالتصوير فكدنا أن لا نمر بشئ الا وصوراه من طير أو سحاب أو سفينة بل وكل من فى الباخرة حتى كان فيها فى الطبقة الاخيرة على ظهر السفينة أناس من المغرب وآخرون من صفاقس كلهم متوجهون الى الحج وفى كل يوم عند ارادة غسل ظاهر الباخرة يؤمرون بالانتقال من مكان الى آخر مع حمل رحالهم فيكونون فى أشد التعب مع الدوار الحاصل لبعضهم بمرض البحر فصوروهم على تلك المشقة والجهد الجهيد ولما نظرت الى حالة هؤلاء الحجاج شاهدت مصداق قول الفقهاء بعدم وجوب الحج على تلك الصورة لانهم لا يصلون وصلاة واحدة مثل فريضة الحج وتركهم للصلاة يأتى من نجاسة أبدانهم من تغوطهم بلا

اسقنجاه ومن المياه الملقاة عليهم بغسل السفينة ومن عدم وجود مكان للصلاة لانهم يمنعون
من تجاوز مكان جلوسهم ومع ذلك يعاملون معاملة الحيوانات العجم من الخريتين
بالاهانة والسب الى غير ذلك وأيضا يعتري بعضهم الدوار البحري فيبقا باقيا في مكانه بل
منهم من يتغوط ويبول فيه وتصل نجاسته لمن بجنبه فلما رأيتهم في سوء تلك الحالة
ذهبت اليهم وأعلمتهم بالحكم الشرعي في وجوب الحج وشروط الاستطاعة فيه وسألتهم
لماذا يعدلون عن ركوب الطبقة الوسطى في بواخر البريد أو في العليا هنالك مع أنها ليست
بغالية وبعضهم تظهر عليه آثار الثروة فأجابوا بان ذلك العذاب لا ضير فيه لانه مدخول
عليه في السفر الى بيت الله بل مهما ازداد كان ثوابه أكثر وأصروا على ذلك منكرين
على قولي فعدلت عن ذلك ولاطفتهم في المحافظة على الصلاة فقالوا كيف نصلي ونحن على
هاته الحالة وأين نصلي فقلت لهم انكم مالكية ومذهبكم يرى صحة الصلاة ولو على ما أنتم
عليه لان ازالة النجاسة تجب وقيل تستحب فقط مع القدرة والتذكر فقال لي واحد منهم
اني أصلي كما رأيتني قلت نعم رأيتك تصلي والآخرون قالوا لو نجد مكانا ويتركوننا نتطهر
فاننا نصلي فتلطفت لرئيس الباخرة الى أن أذن لهم في التفسح واستعمال الماء في
المرحاض فقط لكن أغلبهم مع ذلك لم يصل وقد سألتهم أيضا عن موجب كثرة رحالهم
حتى ان بعضهم رافع جرة كبرى ملفوفة بشرطان الحلفاء مملوءة وقربة منها الادام والقديد
الى غير ذلك فقالوا ذلك لقوتنا فقلت انكم متوجهون الى مدن ان لم تكن أكبر من
مدنكم فهي نحوها ولا بد أن يكون لاهلها ما يكفيهم فهلا وسعكم ما وسعهم وزاد الطريق
في البراري يؤخذ من أقرب مدينة اليه فقالوا يلزم لذلك الثمن وهذا الذي عندنا انما هو
من بيوتنا فقلت لو بعتم هذا وأضفتم عليه كراء حمله بحرا وبرا لكان أرخص عليكم من
شراء الزاد من الاماكن اللازمة فقالوا تلك بلاد لا نعرف أحوالها والاولى التزود من
أماكننا وهكذا جرت العادة فعلمت ان تأثير العوائد أمر صعب جدا وفي غروب اليوم الرابع
وصلنا الى الاسكندرية ولم يظهر لنا منها شيء لان أرضها منخفضة ولا جبال بها حتى يمكن
رؤيتها من بعد وحيث كان وصولنا بعد الغروب ومن الرسوم ان لا تدخل السفن اليها
الا بهاد يهديها الطريق حيث كان قرب مرساها صخرات لا تتبين من البحر وتضر بالسفن
اذا صادمتها لزم حضور أولئك الهداة ليدلوا السفن على الطريق ولهم على ذلك أداء
معين فلزم الباخرة ان تكون طول الليل غادية رائحة في نحو ميلين ولم يظهر لنا من البلد
سوى منارة هداية السفن وقرب الشروق ظهر الهادي في قارب قادما للباخرة فاعرض

عنه

عنه السفن محتقراله وابتدأت مشاهد فى لتعاظم الافرنج على المصريين وتبين ان السفن كان عالما بالطبع وبقى لكنه انما توقف عن الدخول لمجرد الرسم فدخلنا المرسى فاذا هى ذات مأمن وذات مرسى صناعية فيها من بواخر الحكومة المنحازة الى جهة خاصة ثمانية بواخر كبار كلها خشب وفيها من البواخر التجارية الاجنبية أزيد من عشرين وفيها باخرة حربية أجنبية وبعد تمام الارساء وأخذ الاجازة للباخرة من مأمورى الصحة فى انزال المسافرين كانت الاذن للركاب بالنزول وذلك لان من القوانين العامة ان كل سفينة تسافر من مكان يلزمها أن تأخذ من مأمورى الصحة به الذين لهم ديوان خاص صكا منصوصا به حالة البلاد التى سافرت منها من جهة الامراض العامة ومقدار ما فى السفينة من الركاب وأنواع البضاعة التى بها فاذا وصلت الى مرسى مقصودة لها أول ما يتلقاها مأمورو الصحة فيطالعون ذلك الصك ويبحثون عن صحة الركاب وعددهم فان لم يوجد بها شئ مضر أذنت بافراغ ما تريد فى تلك المرسى فأحاطت بالباخرة القوارب الصغيرة وثار عجاج الصياح من أصحابها المختلطين من أهالى وافرنج فى النزاع على حمل الاثقال والركاب ولما رأيت الامر تفاقم أمضى لى خريتوا الباخرة صندقات رحلى وجاءت حارسالها فى زاوية لان أصحاب القوارب كادوا يختطفون الرحال شاء صاحبها أم أبى من غير مساومة للاجرة لك خلة فيهم فى أى بلد كانوا ثم بعد الوصول يطلبون الاجرة اضعافا مضاعفة ولما نزل جميع الركاب مع رحالهم ولم يبق حول الباخرة الا قوارب السلم التى عهدتها على القمرق دعوت قاربيا واتفقت معه على أجرة معين وأعانى على ذلك ابن وكيل حكومة تونس الحاج على الفيزانى رحمه الله حيث تلقانى فى الباخرة بعد دان ورد تابعه سائلا عنى وظننته أحد أولئك القاربيين تلقط خبرى لان حركاته لا تميزهم ثم لما وصلنا الى القمرق طالبوا ورقة الجواز وكادت ان تحصل لنا اتعاب بمنع الدخول الى الاسكندرية حيث كانوا يمنعون دخول من يريد الحج واغلبا جعلوا لهم خارج البلاد مكانا محاطا بالعساكر بحيث لا يسوغ للوارد الا الركوب فى البحر أو طريق الحديد توا الى السويس وكان سبب ذلك كثرة من كان يرد من الاقطار الغربية للحج بلا مال ولا زاد فيتكاثرون بمصر ويحملون حكومتها واهاليها أعباء ثقيلة مما لا داعى اليه لا شرعا ولا عقلا لان أصل فرض الحج معلق على الاستطاعة بنص القرآن الكريم فلا يسوغ الاقدام على السفر بدون شروطه نعم اذا وقع لعارض فقد المسافر لمال يقوم به فى الرجوع لوطنه أو لمحل ماله أو اقامته فى بيت مال المسلمين قسم معين بنص الكتاب لابناء

السبيل فيعطون حاجتهم الى بلوغ مكانهم ولو كان ابن السبيل غنيا لكنه فى ذلك
الطريق لا مال له فتداركنا الله بلطفه واذننا الملك بالدخول للبلد فنظروا الى رحالنا
وأرادوا التشديد فى تفتيشها وقلب عاليها على سافلها متطلبين الاحسان اليهم فلم يسعنى
الا التخلص من الظلم بدفع شئ من المال ارتكابا لاخف الضررين من الخوف من تشتيت
رحلى والسرقة منه مع التعب ثم قصدت منزل المسافرين الافرنجى المسمى أوتيل دى روب
فى أكبر طرق البلاد بعد مشقة فى التخلص من النزول عند وكيل تونس الذى لا داعى
اليه سوى تحميله الكلفة بالضيف والمصروف عليه مع تكلفى بلزوم مراعاة أحواله
وعاداته مما عساه لا يوافق حالتى وعاداتى اذ لم تمكن لى معرفة به قط مع ما أنا عليه من
المرض الملازم الذى اشتد منذ رجوعى الى تونس بسبب الانفعالات النفسانية فيلزمنى
المساعدة لمزاجى فى الاكل والنوم وغير ذلك مما يحمل مضيفى مشقات أو يضر بى تركه
فاكتريت فى ذلك المنزل بيتا واسترحت به على ما ساعدنى واغتسلت فى حمامه وأكلت
وخرجت ثم اكتريت عجلة وقصدت أخى فى الله الصفوة الخيرية عالى الاخلاق والاعراق
سيدى ابراهيم السنوسى الحسينى وهو المحدث البليغ المتفنن فى علوم المنقول والمعقول
والسياسة صاحب الاخلاق المطابقة لانتسابه العالى نشأ من بيته الاصيل بمدينة فاس
البيضاء قاعدة مملكة المغرب وحصل من العلوم ما استكمل به فخره ثم رحل الى تونس وأقام
بها بضع سنين وامتزجت به أفاضلها وأعيانها متأنسين بعلمه وأدبه وكاد أن يتخذها قرارا
لولا المحنة التى وقعت بها من سنة ١٢٨٠ الى سنة ١٢٨٦ فارتحل عنها على ما دعت
اليه مقتضيات الاحوال من فساد الحكومة واستقر بالاسكندرية مشتملا على كماله
وفضله وعفافه واتسعت نعم الله عليه لا زال أهلا لكل فضيلة فلاقيته فى الطريق
وألزمنى بالاستقرار فى مقره وحيث كانت الاسباب المشار اليها آنفا فى التخلص من الضيافة
مفقودة مع أخى الفاضل المومى اليه لا من جهتى ولا جهته ساعفت مراده وأقمت عنده
سبعة أيام ولاقيت أيضا أخى فى الله التقى النقى الكامل رستم باشا التونسى وهو الفاضل
العفيف النصوح المؤتمن نشأ فى بلاد الجراكسة من جبال القوقاس ووفد على تونس
دون سن العشر فأدخل الى مكتب الحرب وحصل على القرآن العظيم ونصيب كاف من
العقائد والعبادات والتجويد والنحو والحساب والهندسة وغيرها من الفنون الرياضية
والحربية مع تحصيل اللغة الفرانساوية ومعرفة اللغة التركية وثانوى علم التصوف ثم
تقلد الوظائف السامية فى حكومة تونس فولى أميرلوا حراسة الامير ثم مستشار الداخلية

ثم

ثم وزيرا فيهما وعضوا في المجلس الخاص والمجلس الاكبر وكان من أشد المحامين عن العدل والشورى ولما وقعت النكبة العامة لتونس سنة ١٢٨٠ وما نشأ عليها من المظالم سافر المشار اليه الى أوروبا ثم رجع الى تونس سنة ١٢٨٦ باستدعاء الحكومة وقلد وزارة الحرب مع توظفه في كل من المدتين بولايته عاملا على أعمال نديهة بجربة والاعراض وغيرها وسافر مرارا أميرا على المعسكرات لاقرار الراحة والامن في الولاية وفي كل ما تقلد به كان مستقيم السيرة والسريرة مثنى عليه بالسن الخاص والعام ولما ابتدأت النكبة الكبرى الاخيرة لتونس ورأى مباديها ترخص من الوالي السفر للتداوي فأقام في أوروبا مدة ثم أقام بالاسكندرية فلاقيته بها في احدى المنازه الكائنة بالرملة وانهملت من الكل الدموع لما توقعناه للوطن العزيز ولا حول ولا قوة الا بالله وهاته البلاد أعني اسكندرية هي ثاني مدينة في القطر المصري وهي مناخ تجارته مع سائر الممالك التي على البحر الابيض والمحيط الغربي وبها حصون حصينة وقشلات للعساكر ومكاتب عديدة لسائر الفنون وقصر للخديوي بقرب المرسى أنيق فاخر ومنتزه عام خارجها بالمكان المسمى بالمحمودية وهو منتزه جدا تتغنى به الموسيقى الرسمية في العشية ولكن أكثر من يرد اليه اغلبهم الاجانب وفي المحمودية طريق وسيع صناعي حوله الاشجار العظيمة يتماشى فيه المترفون بعجلاتهم ويقربه فرع من النيل وعليه آلات بخارية لرفع الماء وتصفيته وتقسيمه صافيا على البلاد في قنوات وأغلب طرق البلاد مبلطة بالحجارة حسنة المنظر سيما حارات الافرنج التي يوسطها البطحاء الكبرى ذات الجنينة والفوارات وحولها القصور الشاهقة ومن تحتها الحوانيت المزخرفة وبوسطها صورة محمد علي باشا مجسمة ضخمة كأنه راكب جواده وأغلب طرق البلاد في حارات المسلمين ضيق وما عداها فهو متسع وبها من الجوامع الشهيرة جامع الامام البصيري رحمه الله وهاته المدينة بناها اسكندر المقدوني وهو الرومي اليوناني الذي نشأ في مقدونية المعروفة الآن بالروميلي في بلاد فيلبه وهو تلميذ أرسطو الذي أشار عليه بتفريق ممالك الفرس عند تغلبه عليها سنة ٩٣٥ قبل الهجرة وقال له الحكمة المأثورة الى الآن وهي اقسم تحكم قال في الاقيانوس وليس اسكندر هذا باني سد يأجوج فان ذلك من الملوك المعروفين بالاذواء من قبائل حمير ببلاد اليمن واسمه الصعب ولقبه ذو القرنين ولاقى ابراهيم الخليل وعانقه كما في الصحيحين واطال في ذلك فليرجع اليه من أراده وهذا مما يؤيد ما قلناه في الكلام على سور الصين في المقدمة ولله

المجدو وقد سميا الاسكندر هاته البلدة بالاسكندرية باسمه وكانت هى قاعدة الاقطار
المصرية الى الفتح الاسلامى وكان تجاهها جزيرة يقال لها جزيرة فارس فاتصلت بالبر
برصيف بناه بطليموس وهى الآن جهة رأس التين وفى الشمال الشرقى منها بنى المذكور
منارة الاسكندرية الشهيرة وكان ارتفاعها اكثر من ١٥٠ قامة واحد جوانبها يزيد
عن ٥٠ ذراعا وكان أنشأ عليها احمد بن طولون قبة من خشب فأخذتها الرياح ثم
أصلح المنارة لتداعيها الملك الظاهر بيبرس وبنى عليها مسجدا انهدم بزلزلة ثم جدد ثم
انهدم الجميع وبنى بمحلها القنابر الموجودة الآن من آثار محمد على باشا وقد كان أسس
بها بطليموس الاول خزانة كتب تعد اذ ذاك من عجائب الزمان تحتوى على ٧٠٠٠٠٠
مجلدا وزعم بعض المفترين من المؤرخين ان أمير المؤمنين سيدنا عمر أمر بحرقها مع انها
احترقت قبل الاسلام بمدة مديدة لان الذى أحرقها هو يولس قيصر الرومان عندما كان
محاصرا بالاسكندرية ورامت أعداؤه الاستيلاء على سفنه فأضرم فيها النار وكانت
بقرب من القصر الملكى المحتوى على الخزنة المذكورة فاحترق الجميع كذا فى جغرافية
مصر الكبرى قال ومن المحقق انه بعد مدة من الزمن كان انطوان الرومانى أهدى
الى الملكة كليوبطرة من كتب خانة برجام ٣٠٠ الف او ٤٠٠ ألف كتاب فتجدد
بذلك خزنة كتب عظيمة وان كانت دون الاولى فأصابها الحريق مرتين ثم دمرت
بالتمام بواسطة المتعصبين للديانة النصرانية لازالة أفكار عبدة الاوثان فى مدة حكم
تيودوس قبل الاسلام اه باختصار وسكان هاته المدينة الآن نحو من ٣٠٠ ألف نسمة
وبها أزيد من ٣٠ ألف محل ما بين كبير وصغير وتشتمل على معمل فاخر للسفن واصلاحها
ومن غرائب البلدة المسلة الواقعة قرب محطة سكة الحديد الموصلة للرملة وهاته
المسلة على نحو المسلة التى ذكرناها فى باريس ولندره اذا الجميع نقل من مملكة مصر ولم
يبق بها الا هاته فقط وطولها ٦٤ قدما فى قطعة واحدة من حجر عليها كتابة قديمة
عملت مدة الملك موريس المتملك سنة ١٧٣٦ قبل الميلاد ومنها غرابة عمود السوارى
الشهير الواقع جهة ميناء البصل وهو عمود على قاعدة عظيمة فوق تل عال ارتفاعه مع
تاجه اكثر من ٣٠ ميترو ومحيطه نحو ٢٨ قدما يقال انه عمل مدة قياصرة الروم وبعد
اقامتى بهاته البلدة سبعة أيام وتزودى منها ما يلزم لطريق الحجاز غير الخيام والقرب فانى
أخذتها من مصر لانها هنالك أرخص ثمنا وارسالى جميع ذلك الى السويس توا مع الطباخ
والخادم اللذين استأجرتهما من الاسكندرية توجهت حينئذ الى مصر القاهرة راكبا حافلة

طريق

طريق الحديد ولم نجد بها انخداعا خاصا اذا فرش ومرافق مثل ما يوجد في اروبا وكان ركوبي بعد العصر فسار الرتل سيرا وسطا ولم يقف الا ببعض بلدان كبيرة وكان منظر الارض قرب اسكندرية يابس مجا وانما توجد براحات وسيعة بها الماء راكدا ومزروع بها الارز لكن تغير المنظر بحسن النبات والزراعة بعد حصة ولم يطل بنا ذلك المنظر الجميل لارخاء الظلام سدوله فوصلنا الى القاهرة بعد سير اربع ساعات ونصف فتلقاني في الموقف النجيب الوجيه الحاج علي الشماخي وكيل تونس واعتذرت اليه عن الاقامة بمنزله بما ورنزلت في منزل المسافرين المسمى الخمارة الكبيرة مواجه الروضة الازبكيه واسعار هاته المنازل نحو من اسعار اروبا

الفصل * الثانى

﴿ في صفة مدينة مصر القاهرة ﴾

هاته المدينة هي قاعدة الاقاليم المصرية منذ الفتح الاسلامي غير انها اختلفت اسماؤها وبقاعها على حسب اختلاف الدول والاعصار وان كان مركز جميعها واحدا فبعضها محاذ لبعض فاول ما اختطه الصحابة رضوان الله عليهم مدينة الفسطاط حيث ضرب سيدنا عمرو بن العاص فسطاطه في الفتح وعند ارادته للتقدم جهة الاسكندرية التي هي القاعدة اذذاك وجد يماما قد فرخ على عمود فسطاطه فاجاره وابقى الفسطاط الى ان رجع الجيش بعد الفتح واختط المدينة حول الفسطاط فسميت به ثم لما تغلب المعز الفاطمي على مصر على يد قائده جوهر واختط القاهرة وصارت هي دار الامارة وهي مدينة رحيبة على النيل بحذائها وعليه آلات بخارية لرفع الماء وتصفيته وارساله في قنوات تفرق على جميع المدينة وعليه جسر حديد طوله ميترو ٥٠٠ وعرضه يمر عليه ستة عجلات وعلى حافتيه طريقان للمشاة وقد صنع سنة ١٢٧١ وعلى حدودها جبل شاهق عليه قلعة حصينها وكانت مستقر الامراء وهي ذات حصون متينة صناعية مشحونة بالمدافع من الطرز الجديد الضخم زيادة على تحصينها الطبيعي وتنظر منها سائر المدينة وارباضها فترى عظم اتساعها وبهاته القلعة جامع ضخم ذو قبة شاهقة جدا ومنائر جميلة مرتفعة وبه اسطوانات من المرمر الملون ذات بهجة وارتفاع عظيم وبصحنه الرحيب متوضأ انيق جميل وبنى هذا الجامع محمد علي باشا كما انه اتقن قصر الحكم بها وهو ذو بيوت وسيعة واواوين رحيبة مشتمل على جميع الفرش ولا زال هو القصر الرسمي للمواكب المهمة

وان لم يكن فاخرا مثل القصور المحدثة التى يقيم بها الخديوى وبالقلعة ايضا معسكر وديوان
نظارة الحرب وبها بئر عميق جدا يدعى الجهال انه جب يوسف عليه السلام وكان الحامل
لهم على ذلك غرابة وجود بئر فى ذلك الارتفاع فعدوه معجزة وبالقاهرة أسواق
كثيرة جدا بل انى لم أر بلدا أكثر منها حوانيتا فى سائر الجهات وأهم طرقها القديمة
هو الطريق الموصل من الازبكية الى جامع سيدنا الحسين ويسمى بالموسكى فهو متسع فى
بعض جهاته نحو ثمانية أو عشرة أمتار وفى بعضها نحو الخمسة امتار واما بقية الطرق
القديمة فأكثرها لا تمر به العجلات وبعضها تمر به عجلة واحدة نعم ان الطرق الجديدة
التى افتتحها اسماعيل باشا فى عشرة الثمانين والمائتين والألف فى الحارة المنسوبة اليه
المسماة بالاسماعيلية هى على نحو الطرق الاوروباوية اتساعا واستقامة وهاته الحارة
كلها محدثة ملحقة بمصر ومن محاسن القاهرة حديقة الازبكية الجميلة الانيقة المحاطة
بسياج من قضبان الحديد الجميلة وبها أبواب من كل الجهات على الطرقات المحاطة
بها وهى ذات مماش ورياض واشجار وانوار ومقاعد وقهاوى تنتابها الموسيقى
الرسمية كل يوم عشية لكنها لا يحضرها غالبا الا الافرنج وقصور الخديوى وأقاربه
وحواشيه مالئة الحارات الجديدة مبهجة لها بزونقها وأهمها قصر عابدين أما القصور
التى له حول القاهرة فهى كثيرة مضاهية أو فائقة على قصور ملوك أوروبا وجمعت بين
ما للاوروباويين من التحسين وما للمشرقيين من التزويق والاسراف ولكل منها حدائق
وعيون وحيوانات غريبة ومن هاته بستان شوبرة وقصره ذو البركة الرحيبة الذى
أنشأه محمد على بعيدا عن القاهرة نحو ثلاثة أميال وله طريق جميل هو منتدى أهل
التمشى والتنزه بعجلاتهم وخيلهم لما له من البهجة بالاشجار العظيمة ومن ورائها
البساتين والقصور المونقة لاهل الترف والمنتخبة من الاوروباويين والامراء والوزراء وعلى
جانبه ترعة من النيل وهكذا حارات الافرنج والحارات الجديدة فى تأنيق البناء والقصور
وبهرجتها من الظاهر فضلا عن الداخل لكن ديار الاهالى ليس منظرها من الخارج
مما يسر النظر أما ما اشتملت عليه القاهرة من المقامات والاماكن المعظمة فاولها مقام سيدنا
الحسين رضى الله عنه وارضاه وذلك انه بعد الشنيعة الشنعاء بكربلاء أيام يزيد سنة ٦١
حمل الرأس الشريف المكرم ويقال انه دفن بعسقلان الى ان نقله الملك الصالح طلائع بن
رزيك وزير الفاطمية سنة ٥٤٨ الى القاهرة فى موكب عظيم ودفن بالمقام المشار اليه ثم
عملت عليه المقصورة من النحاس الموجودة الآن سنة ١١٧٥ وبنى حوله المسجد

الرحيب

الرحيب وقد تشرفت بزيارة هذا المقام الشريف وصليت الجمعة وغيرها في مسجده ولله
الحمد وقد صلى الخديوي محمد توفيق تلك الجمعة هناك فلم يكن له من الابهة والضخامة
الكبريائية ما ينكر وانما معه بعض خدم وأعوان ومن المشاهد أيضا مشهد سيدتنا
زينب شقيقة السبطين رضي الله تعالى عنهم ومشهد سيدتنا رقية ابنة سيدنا علي بن أبي
طالب ومشهد سيدتنا سكينة بنت الحسين السبط ومشهد سيدتنا نفيسة الطاهرة من
ذرية سيدنا الحسن الشهيرة بالزهد والصلاح والمناقب المأثورة ومشهد الامام الشافعي
خارج القاهرة في القرافة وغير ذلك من المشاهد والمقامات التي لا تكاد تحصى رضي
الله تعالى عنهم أجمعين وذلك لان مصر محط رحال الصحابة والتابعين والعلماء والمصنفين
رحمهم الله أجمعين وكذلك الجوامع التي بها تكاد تفوق العد وأول مسجد بني بها هو
الجامع العتيق ويسمى الآن جامع عمرو وأسس سنة ٢١ عند الفتح الاسلامي ثم زاد فيه
مسلمة بن مخلد الانصاري سنة ٥٣ وزوقه وقيل انه بنى به اربع منائر باركانه الاربع بأمر
سيدنا معاوية وهو أول اختراع في ذلك وفيها يقول عابد بن هشام الازدي

وكم لك من مناقب صالحات * واجدر بالصوامع للاذان
كأن تجاوب الاصوات فيها * اذا ما الليل ألقى بالجران
كصوت الرعد خالطه دوي * وأرعب كل مختطف الجنان

ثم الجامع الازهر وهو أول جامع أسس بالقاهرة بعد الفسطاط أسسه جوهر القائد سنة
٣٦١ وجدد اتساعه مرارا وهو ينقسم الى بيت وسيع ذي تقاسيم مرفوع سقفه على
أعمدة والى صحن وسيع محاط به اروقة يقيم بها جماعات من الطلبة المجاورين لاخذ العلم
وهذا الجامع هو مدرسة العلم الجامعة في الاقطار المشرقية وفي القاهرة جوامع أخر عديدة
ذات بناآت ضخمة أشهرها باعتناء البناء وضخامته وارتفاعه واتقانه جامع السلطان
حسن بن قلاوون ابتدأ في عمارته سنة ٧٥٧ وأتمه في ثلاث سنين ومقدار ما صرف عليه
بسكة الوقت نحو ثلاثة عشر مليونا فرنكا فهذه هي أشهر الاماكن بقاهرة مصر ومنها
مدارس العلوم الرياضية وقد جمع بها خزائن الكتب التي كانت متفرقة وتشتمل على نحو
مائة الف مجلد منها ثلاثون الف مجلد بخط اليد وفيها من نفائس الكتب تأليفا وخطا
مالا يوجد بغيرها ومنها مصحف كريم يقال انه بخط سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه
ومصاحف أخر عديدة عظيمة الحجم مزوقة بالذهب الى غير ذلك من الكتب العتيقة
والنفيسة وذلك بقية ما فات الفرانسيس من الكتب التي نقلها الى باريس عند استيلائه

على مصر مدة نابليون بونابارتي وكذلك المارستانات أى المستشفيات الجامعة للتداوى وتعليم فنون الطب وقد شاهدت أحدها فاذا هو جامع لسائر أدوات الكيميا والطبيعيات والاجسام المصبرة والمشرحة من بنى آدم وغيره غير انى كانت مشاهدتى لها انه الا آثار وهى على شفا جرف من الاضمحلال لما سيأتى خبره مما اعترى مصر أواخر مدة خديويها اسمعيل باشا ومن مهمات ما يذكر فى القاهرة الاهرام التى بقربها فى المكان المسمى بالجيزة وقد ذهبت اليها راكبا حمارا لان العجلات لا تصل اليها الا بكلفة حيث ان الارض حولها مرملة ولم تتصل الطرق الصناعية بها والاهرام بارض مصر كثيرة جدا منها ما هو باق الى الآن وعدها بعضهم فقال انها ٢٧ هرما ومنها ما اندثر بالهدم وصروف الايام وأكبر الموجود منها أهرام الجيزة المذكورة وهى ثلاثة أهرام أكبرها أوسطها ويعرف بابى هرميس وأشهر الاقوال فى بانيه هو فرعون كيوس أحد فراعنة العائلة الرابعة من فراعنة مصر وعلى ما حرره المؤرخون ان تلك العائلة لها الآن نحو ستة آلاف سنة وكانت مدة ذلك الملك فى الملك ٥٠ سنة وتم بناء هرمه فى ٢٠ سنة وكان المشتغلون فى بنائه ٣٦٦ الف نفس كل تلك المدة كانه جعل بحساب كل يوم من السنة الف نسمة للشغل وسلك فى بنائه طريقا عجيبا حتى صبر على تقلبات الزمن فقد وضع على شكل مخروط قاعدته مربعة وينتهى بنقطة ومن خواصه أنه يتساند على نفسه اذ مركز ثقله فى وسطه ويتحامل على نفسه وليس له ما يتساقط عليه وقوة ات زوايا ه بهاب الرياح كى لا تؤثر فيه لانها تنكسر سورتها بصادمة الزاوية بخلاف ما لو لاقت السطح وفى داخل هذا الهرم عدة محلات يدخل اليها المتفرجون وان كنت فى نفسى لم أستطع الدخول اليه لان المدخل ضيق مظلم يدخله الانسان حبوا ويدخل أمامه أحد السكان هناك بنور شمعة وأنا قائم بى ذلك المرض الذى يصحبه ضيق الصدر فلم أدخله ونقلت الكلام فيه من جغرافية مصر للفاضل محمد أمين فكرى وكذلك نقلت منها جملة مهمات تتعلق بالاقطار المصرية فلعمرى انه كتاب جامع الفوائد قلما توجد بغيره مجموعة مع حسن السبك والافادة والاختصار ومما قال فى هذا الهرم ان بوسطه حجرة تسمى حجرة الملك فيها حوض بديع الصنعة من قطعة واحدة وأخرى تعرف بحجرة الملكة ويرى الناظر فى داخله ما يبهر العقل من كمال احكام تركيب تلك الاحجار الهائلة حتى قيل ان مقدار الواحدة منها اثنا قدم مكعب وجميعها يرى كانه قطعة واحدة وينتهى أعلاه من داخل بسطح نحو عشرة أمتار ويقال انه سقطت منه حجرة وارتفاع أعلى الهرم على سطح أرضه

١٤٦ أما طول سطح أحد جهاته فهو ١٨٤ وطول كل ضلع من قاعدته ٢٣٠ مترو والاهرام الاخر أصغر من هذا وقد اختلفت الاقوال في الغرض من بناء الاهرام حتى قال عمارة اليمني

تنزه طرفي في بديع بنائها * ولم يتنزه في المراد بها فكرى

اه باقتصار وأظهر الاقوال انها قبور لاصحابها وبقرب هاته الاهرام صورة أسد جاثم نحتا في الحجارة رأسه رأس آدمي مسدول الشعر وهي أضخم ما يكون من الصور وأصله من أعمال الفراعنة الاقدمين يسمى أبا الهول وبقربها اطلال بناءات هائلة سطا عليها الرمل ثم كشفت منها بيوت حائط كل بيت منها في قطعة واحدة من الحجر وسقفها كذلك حجرة واحدة يندهل الرائي منها وكيف أمكن نقلها ووضعها بمحلها وحول هاته الجهات أناس سكان كأنهم لا صناعة لهم سوى التفتيش على الاشياء العتيقة من تحت الارض وبيعها للسواح والتطوف معهم لاراءتهم غرائب تلك الآثار القديمة مع ان الحكومة المصرية اعتنت كثيرا بجمع الآثار العتيقة التي يمكن نقلها وحفظها في محل خاص بها هو من أهم امثاله في الدنيا مباح لكل قاصد سيما أنتيكخانه وفي سائر الجهات المصرية عجائب من صنائع الاقدمين مما يدل على تقدمهم التام في المعارف والصنائع ومنها ما اندثر علمه الآن مثل الاقتدار على جر الاثقال وحفظ أجسام الاموات على حالها المسماة بالمومية المصرية التي نقل منها لسائر أقطار التمدن ونسج المنسوجات من مواد حجرية المسماة

وغير ذلك وأغلب ما يوجد من أمثال هاته الاشياء في أقاليم الصعيد حيث كانت مقر تخوت ممالك الفراعنة وبعض اليونان والحاصل انه يوجد بمصر من غرائب الآثار القديمة ما لا يوجد بغيرها وكل ما يمكن أن ينقل ولم تمتد اليه أيدي الدول الاجنبية فقد جمع في القاهرة في ديوان الآثار والغرائب حتى ذكر ان بعض دول أوروبا رضيت بشراء جميع ما في ذلك الديوان بما على الحكومة المصرية من الديون وعلى تقدير عدم صحة ذلك القول فانه ينبئ عما لتلك الآثار من الغرابة والعناية حتى صح أن يقال فيها مثل ما ذكر وقد اجتمعت في القاهرة باجلاء من فضلائها وأعيانها فقد زرت العلامة الشهير شيخ المشايخ الشيخ ابراهيم السقا وهو طريح الفراش بمرض الفالج الذي لم يبق له من حراك سوى الكلام والنظر وثبات العقل وهو على جلالة علمه وفضله والتكدر من ألمه على جانب عظيم من التواضع ولين الجانب وحسن الاخلاق فاخبرني

انه من تلامذة الشيخ سيدى ابراهيم الرياحى التونسى وانه أخذ عليه واجازه عند اجتيازه بمصر للحج وسألنى عن ذريته ودعا لهم بخير وعجبه الذوق من الشيخ التونسى ودعا لى وللمسلمين بمآثر جو من الله قبوله وأظن ان سنه نحو الثمانين سنة وكذلك

❁ حضرت تبركا بدرس العلامة النحرير الشيخ محمد عليش صاحب التآليف الشهيرة ووجدته يقرأ فى شرحه على مختصر خليل فى الفقه المالكى اثناء كتاب العتاق بمسجد قرب جامع سيدنا الحسين رضى الله عنه لانه لم يستطع الاقراء بالجامع حيث تكثر فيه الاصوات من المدرسين وهو لكبر سنه البالغ نحو الثمانين وضعف بدنه كان منخفض الصوت حتى انى لم أتمكن من سماع تقريره كما ينبغى لانخفاض صوته مع مزيد السكون فى المسجد ومع ذلك قد أطال الدرس حسب معتاد المصريين فكانت فيه ساعة ونصف وانصرفت وهو لازال بصدد الاقراء وعليه من مهابة العلم والصلاح

❁ ما يؤيد صيته الشهير وكذلك اجتمعت بالفاضل الصفوة الخيرة سيدى عمر السنوسى أخى صديقى سيدى ابراهيم السنوسى المتقدم ذكره فى الاسكندرية وهو ذو اخلاق مطابقة لما له من مجد الاعراق وغير هؤلاء من بعض الاعيان من الاهالى والمستوطنين من أهالى الاقاليم الاسلامية كالفاضل الحسيب محمد الاحبابى من أعيان

❁ تجار أهل المغرب ذوى الثروة وكالشهم الهمام الزبير باشا الذى كان مالكا لقسم من مملكة دارفور من السودان ودخل طوعا تحت الخديوية المصرية رغبة فى اتحاد كلمة الاسلام ثم عزله اسمعيل باشا وبقى مقيما بالقاهرة وهو رجل ذو فضائل جمة يتعجب مجالسه من كمالاته مع انه من أهالى السودان وان كان أصله من نسل العرب الكرام فهو مهذب الاخلاق عارف بالسياسة والحروب وبجغرافية دواخل افريقية وشطوطها الشمالية غيور على الملة كثر الله من أمثاله وقد دعت المقتضيات الى الاجتماع بحضرة الخديوى

❁ محمد توفيق باشا توجهت اليه وأحضرت أبياتا تضمنت تاريخى ولايته اذ كان اذ ذاك قد ولى منذ بضعة أشهر وتلقاها منى بسرور وفيها بيت التاريخ الهجرى هو قولى

فى سماء الملك ارخ * لاح توفيق الخديوى

١٢٩٦

وبيت التاريخ الميلادى هو قولى

فانشد التاريخ صاح * قرة تو يج الخديوى

١٨٧٩

والصاد بعدد تسعين لان ذلك هو حساب المشارقة فيها وأما المغاربة فهى عندهم بستين وذلك

وذلك لان حروف أبجد بحساب الجمل وقع فى اعداد بعضها خلاف بين المشارقة والمغاربة وهاته الحروف نذكرها هنا تتميما للفائدة حيث رأيت كثيرا من أهالى القطرين يجهلون ما عند اخوانهم حتى انهم ربما حملوهم على الخطأ فى العدد مع ان ذلك مبنى على الاصطلاح الذى لا مشاحة فيه ودونك حساب الاحرف والذى فيه الخلاف نضع حساب الشرق عن يمينه والغرب عن شماله وباقيها نضع له عددا واحدا ا ١ ب ٢ ج ٣ د ٤ ه ٥ و ٦ ز ٧ ح ٨ ط ٩ ى ١٠ ك ٢٠ ل ٣٠ م ٤٠ ن ٥٠ ٩٠ ص ٦٠ ع ٧٠ ف ٨٠ ٨٠٠ ض ٩٠ ق ١٠٠ ر ٢٠٠ ٦٠ س ٣٠٠ ت ٤٠٠ ث ٥٠٠ خ ٦٠٠ ذ ٧٠٠ ٩٠٠ ظ ٨٠٠ ١٠٠٠ غ ٩٠٠ ٣٠٠ ش ١٠٠٠ وحيث كنت قائلا للابيات فى المشرق راعيت قاعدتهم فاجتمعت بالخديوى فى قصر عابدين ولم يكن معنا أحد وهو متواضع دين متفنن متبصر وبعد اقامتى بالقاهرة بضع أيام واشترائى منها القرب لحمل الماء فى الطريق واشتراء الخيام اللازمة لذلك سافرت الى بلدة السويس فى طريق الحديد وكان العمران قرب القاهرة جميلا لكننا ما تجنبنا عن خط النيل الا وكانت الارض صحراء خاوية لا نبات بها ولا أنيس سوى بعض شجر القصب على حافتى الترعة الذاهبة الى السويس وبها أفراد من القوارب الصغيرة الحاملة كل منها الانسان أو اثنين مع بعض بضائع فوصلنا الى السويس بعد الغروب وكان السير من القاهرة اليها نحو ثمان ساعات فتلقانا الخبير العفيف وكيل المغاربة بتلك البلدة ونزلنا بأحد منازل المسافرين على نحو ما مر فى غيرها فاذا هى قرية بها بعض الاجانب وبها حاكم يلقب بالمحافظ وضابطية وعساكر واهم ما فيها مرساها الصناعية وبقربها من الشرق فوهة الخليج الجامع بين البحرين الابيض والاحمر وحول المرسى محل للتحفظ المسمى بالكرنتينة وعليه عساكر محافظون وفى البلد شجرات وشبه جنينات حول ديار بعض الافرنج وما وراء ذلك فهو صحراء خالية وان كانت الارض قابلة للاصلاح لكن تشديد الحكومة فى اعلاء سعرها أبقاها خرابا وجميع المنازل التى لخدمة خليج السويس لها بعض تحسين ومياه النيل واصلة اليها

الفصل ❁ الثالث

(فى التعريف بمصر)

هاته المملكة صارت الآن مؤلفة من عدة ممالك عظيمة فى افريقية فحدها الشمالى البحر

الابيض ويبتدئ الحد الشرقي منه مارا على خط موهوم بين الشام ومصر ثم على شاطئ البحر الاحمر الغربي شاملا بلاد النوبة الى أن يصل لمملكة الحبش التي يفصل بينهما جبال هناك فينعطف الحد معها شرقا محيطا بها مارا للجنوب مارا مع البحر الاحمر فيمر أيضا معه الى أن يحاوز باب المندب ومملكة الحبش حينئذ داخلة في الحد لكنها لاتصل للبحر لما املكته مصر من شطوطه ثم يمر الحد مع البحر ويشمل مملكة عادل المسماة بزيلع فيمر على شاطئ افريقية الشرقي على المحيط الشرقي الى أن يصل الى حدود مملكة زنجبار ثم يبتدى الحد الجنوبي فيمر من الشاطئ مغربا الى دواخل افريقية السودانية وينعطف الى الجنوب حتى يصل الى حد الدرجة الثالثة جنوبا وراء خط الاستواء ويشمل مملكة دارفور ويصل الى حدود مملكة وداى ويمتد الحد الغربي مع مملكة وداى الى أن يصل الى الصحراء الكبيرة فينعطف معها ذاهبا الى الشمال من غير تعيين لخط معين حيث ان الامر مهمل فلا حصر فيه وهذا في الجهات السودانية الى أن يصل الى طرابلس ويمر معها الى أن يصل الى البحر الابيض حيث ابتداء التحديد وحيث كانت على ماعلمت من الاتساع والكبر لاجرم ان كانت صفة أرضها مختلفة جدا (فأما مصر) الاصلية فالمعمور منها هو عبارة عن واد بين سلسلتين من الجبال مارة من الجنوب الى الشمال يضيق تارة الى ثلاثة أميال ويتسع أخرى الى نيف وعشرين ميلا كلها يسقيها نهر النيل وذلك كله في غاية الخصب والنضارة تتجدد أرضه سنويا بفيضان النيل ويخرج الله منها بركاتها ماجعل به مصر غنية عامرة وماعدا هذا الوادي فهو عبارة عن جبال محلة لانبات بها وأراضى يابسة مرملة لاترى فيها الا الحصا (وأما) بلاد النوبة الداخلة في مملكة مصر وهي المحادة لها من الجنوب فهي ذات صحارى وجبال خصبة وأراضى خصبة وبقية الممالك وهي وداى ودارفور وزيلع وغيرها فكلها ذات جبال وآجام وخصب (وأما جبال) ممالك مصر فهي كثيرة ليس منها جبل بركاني ولا منها الزائد في الارتفاع وأعلاها هو الفاصل بينها وبين الحبشة (وأما أنهرها) فأولها نهر النيل وما أدراك ما النيل وهو نهر يحمل السفن الصغيرة الى أول شلالة بعد الخرطوم وهو عندهم ينقسم الى ثلاثة أقسام (أحدها) يسمى نيل السودان وذلك من منبعه الى الخرطوم (الثاني) منها الى فيلة وهي جزيرة في وسطه قرب مدينة اسوان (الثالث) منها الى البحر الابيض فالقسم الاول يتكون من نهرين يسمى أحدهما البحر الابيض والآخر البحر الازرق عبارة عن عظمهما حتى الحقا بالبحر والبحر الابيض كأنه هو الاصل للنيل وهو يجتمع من عدة أنهر في أواسط افريقية

وهو

وهو أعظمها وأبعدها منبعا لانه منبعث من بحيرة أو كيريفي المعروفة بفيكتوريا على ظن آخر الجغرافيين الآن وإن كان التحقيق انه مجهول حيث تبين ان تلك البحيرة تستمد من بحيرة أخرى ولكن الوصول الى اكتشافها صعب ولعله تحدث أسباب لذلك وطوله الى حيث يجتمع بأخيه قرب الخرطوم ٢٣٠٠ كيلومتر أى نحو ألفى ميل (وأما) الازرق فحجمه نحو الثلث من السابق ومنبعه من بحيرة دمبعة فى بلاد الحبشة ويمر على عدة شلالات ثم يجتمع باخيه ويصير حينئذ القسم الاوسط فنصب فيه عدة أنهار غير معتبرة وذلك فى بلاد النوبة فاذا وصل الى أصوان حدثت منه الشلالة الاخيرة التى تمنع زيادة صعود السفن عن الانهار متكونة من ارتفاع الارض فى المجرى الاعلى وانخفاضها فى المجرى الاسفل مع صخور مرتفعة فيكون له خرير كالرعد القاصف يسمع من بعد بعيد فاذا وصل النيل الى أسفل القاهرة انقسم الى فرعين شرقى وغربى فالشرقى يصب فى البحر الابيض عند دمياط والغربى يصب فى البحر المذكور عند رشيد وأحدثت من النيل ترع عديدة حتى صار يصب فى البحر الاحمر وخليج السويس والاسكندرية وغير ذلك وصنعة الترع فى مصر كانت معروفة فى مصر باحسن مما هى عليه الآن حتى كانت تروى سائر رباها بل وجبالها أيضا ويرشد الى ذلك قوله تعالى حكاية عن فرعون وهذه الانهار تجرى من تحتى فكانت أرض مصر كلها عامرة بالانهار وهاته الترع تحمل القوارب وتقع بها المواصلات وتبين مما مر أن فى مصر أنهارا عديدة عظيمة سيما فى السودان ويجتمع الجميع فى النيل ولولا عظمة المياه لتلاشت فى الصحارى التى تمر عليها ومن غرائب النيل أنه يفيض فى وقت معين من كل سنة وهو وقت الانقلاب الصيفى ويستمر على ذلك الى الاعتدال الخريفى فيأخذ فى النقصان الى الانقلاب الشتوى فيحد فى مجراه الى السنة القابلة ويختلف فيضانه بالزيادة والنقصان واعتداله المطلوب للسكان هو أن يرتفع على المجرى الاعتيادى سبعة أمتار فان زاد أهلك بالغرق وان نقص أجحف الناس بالقحط ولهذا الفيضان كانت مصر الاصلية لها مناظر عجيبة ففى الربيع الذى هو شباب الزمان فى سائر البقاع تكون مصر عموما أقل بهجة من نفسها فى وقت آخر وفى الصيف الذى تجف فيه المياه فى المعروف تكون مصر بحرا من الماء العذب راسية فيه قرى ومدن وأمصار يسلك من بعضها البعض فى القوارب وفى الخريف الذى يبتدئ فيه فى غيرها ذبول النبات تكون هى قد شب نباتها وازدخرفت وربت وفى الشتاء تتنسم أزهارها وتغرد أطيارها

ويحصد زرعها وتدخر أقواتها وتفيض على العالم محصولاتها فانفردت بذلك عن غيرها وليس هناك مايشبهها الانهر السند المار على بلوجستان فانه يقرب من ذلك من حيث فيضانه فى الصيف ولما أحدثت الآلات البخارية لرفع الماء من النيل زمن نزوله قل ضرره من القحط اذلم يعهد أنه جف ماؤه الاسنة ١٢٧٨ وكان كربها شديدا (أما ضرر) تفاقم فيضانه فقد اعان على تخفيفه الاخبار بالسلاك الكهربائية حيث يأتى الخبر بتفاقمه سريعا من السودان ومصر العليا فتفتح له أفواه الخلجان وترتفع الناس عن الاراضى المنخفضة ومع ذلك يحصل منه ضرر عظيم أحيانا وقد اختلفت الاقوال فى أسباب فيضانه وأظهرها انه متركب من شيئين أحدهما ذوبان الثلج المتراكم على جبال الحبشة الشاهقة وعلى جبال أواسط افريقية بحر أواخر الربيع فتسيل مياهها ويطموا بها النهر الازرق وغيره واطول امتداد الانهر مايصل ماؤها الى مصر الا فى الانقلاب الصيفى (وثانيهما) ان جنوب خط الاستواء فصوله على عكس فصول شماله فالربيع عندنا هو الخريف عندهم والصيف عندنا هو الشتاء عندهم وقد علمنا ان النهر الابيض منبعث من جنوب خط الاستواء بعدة درجات وان الامطار فى الاقاليم الحارة تتراكم دفعية سيما وقت الخريف والخريف فى الجنوب هو ربيع فى الشمال فما يصل ماؤه الا فى الصيف فى الشمال فيحدث من ذلك طمو النهر الابيض أيضا ويلتقى باخيه وهما طاميان فيحدث فيضان النيل زمن الصيف فى مصر (أما) بقية الانهر فى ممالك مصر فى النوبة والسودان كثير من الانهار والجداول منها مايصب فى النيل ومنها مايجف فى الصحارى وليس منها ماينهم سوى النهر الابيض والازرق المتقدمى الذكر وفى أرض مصر من صعيدها الى بحريها لايوجد نهر أصلى سوى النيل لكن أحدثت منه أنهار عديدة عظيمة تسمى بالترع حتى صارت أغلب الاراضى المصرية مخترقة بتلك الانهر الصناعية ومنها الكبير الذى يحمل السفن النهرية ومنها الصغير ومنها الدائم الامتلاء بالمياه ومنها مايجف عند انتهاء انخفاض النيل والموجود الآن من هاته الترع يزيد عن السمائة وأحد عشر نهرا أطولها الابراهيمية فانها تقرب من مائتى ميل ولازال الاعتناء بتكثير الترع المستلزم لتكثير أراضى الزراعة حتى بلغت الآن الى مايقرب من خمسة ملايين فدانا مسقية مزروعة والفدان عبارة عن مساحة ٥٩٢٩ مترو مربع وهذا المقدار وان كان كثيرا فى ذاته لكنه لم يبلغ الى ما كانت عليه الترع فى مصر قديما حيث كانت زمن الفراعنة تصعد مياه النيل الى أعالى رباها وجبالها وتسقى جميع أراضيها حسبما نص عليه

عليه فى التاريخ ويشهد له قوله تعالى حكاية عن فرعون أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى فجمع الانهار والافتخار بها بل والتعاظم الى حد دعوى الالوهية قاض بانها كثيرة جدا او بالغة الى حد خارج عن المعتاد فى الكيفية كصعودها الى الاعالى والواسطة فى ذلك اما ان تكون بواسطة آلات تحمل الماء من أسفل الى أعلى بكثرة حتى يجرى فى الانهار ثم من هاته يحمل كذلك الى ما فوقها الى أن تجرى ومن هذه أيضا الى ما فوقها وهكذا الى نهاية الارتفاع والآلات اما ان يديرها الماء نفسه أو قوة أخرى جهات الآن فيما اندثر من علوم الاقدمين أو تكون الواسطة هى تفريع الترع من أعالى النيل قبل الوصول الى الشلالات بان يؤتى لاول شلالة قبل انحدار الماء منها فتفتح له فروع ذاهبة مع ارتفاع الاراضى بكيفية هندسية وبناء قناطر وحنايا للمرور الماء من الاعالى الى الاعالى ثم من شلالة أخرى يفعل هكذا ومع تجرى الانهار فى الارتفاعات كما تجرى فى الانخفاضات و يحصل منها النباتات الجميلة ومناظرها البهيجة (وأما) بحيرات مصر فهى عشرة أربعة كبيرة أكبرها بحيرة المنزلة ومحيطها نحو من مائتين وخمسين ميلا وتسير بها السفن الصغيرة وبها السمك دائما وموقعها شرقى مدينة دمياط ويخترقها خليج السويس والبقية أغلبها أيضا مع الخليج وليس لها فائدة معتبرة سوى استخراج الملح من بعضها عند جفاف حافاته صيفا و بعضها يجف تماما أما ممالك السودان ففيها بحيرات مهمة مثل بحيرات منبع النيل وغيرها ولكنها قليلة الجدوى بالنسبة للمنافع مثل بقية ذخائر السودان (وأما) هواء مصر ومايتبعها فهو على العموم حار وغاية الفرق ان الجهات الشمالية على شاطئ البحر الابيض يلطف حرها صيفا سيما عند ازدياد النيل (وأما) الجنوب وسائر السودان فهو حار جدا حتى انى كنت فى مدينة مصر فى شهر نبر بعد فيضان النيل ولم أكن أستطيع النوم بالغطاء باللحاف الكتان ولكنى لا أستطيع أيضا فتح الطيقان لكثرة الندى المضر ورأيت مثل ذلك فى اسكندرية أيضا التى هى مهرب السكان من الحر مع انى كنت بها فى ذلك الشهر أيضا (أما) السويس والصعيد فلا تسأل عن شدة حرها نعم هى بعد الانقلاب الشتوى يحصل بها البرد الى درجة طلب التدثر والتدفى فيكون الهواء عموما معتدلا مع ابتهاج الارض بالنبات (وأما) نباتاتها مع سودانها وجباله فيصح أن يقال ان فيها كلما يوجد من نبات الدنيا الا ماندر حتى الاشجار التى تكون فى الاراضى الباردة فانها توجد فى الجبال الشاهقة فى دواخل السودان ذات الثلج الدائم وفى السودان غابات عظيمة صالحة

أخشابها البناء السفن والديار وللاعمال الجيدة أيضا مثل الابنوس وغيره لكن أرض مصر الاصلية ليس بها من غابات طبيعية وغاية ماله بها منظر الغابات هو النخيل فالحاصل ان مما لكها مشتملة على كل ما يحتاج اليه من المزروعات الحبوبية والاشجار ذات الثمار وغيرها (وأما حيواناتها) ففيها الخيل بقلة بالنسبة لذاتها لكن يوجد في السودان نوع منها جليل يعرف بالكحيل والبغال قليلة والحمير كثيرة ويركبها حتى الاعيان ولهم اعتبار ويحلقون شعرها وتصبر بالتربية تفهم قصد صاحبها حتى اذا قال الحمار لحميره صخرة ظلمت وصارت تمشي على ثلاث مادام الشرطي ينظر اليها خوفا من تخديمها للحكومة بلا أجر والابل كثيرة جدا ومنها نوع الهجين وهو نوعان في السير أحدهما متعب لراكبه وهو الذي اذا سار رفع رأسه وعنقه والثاني لين لراكبه وهو الذي اذا سار دلى رأسه الى الارض ومد عنقه الى أمام وكلاهما من الابل المعتادة غير ان أصحابها يختارون الجيد الاطراف الخفيف الحركة ثم يمرنونه من الصغر على مداومة سرعة السير فيتربى عليها ويبقى ناحلا فيكون عدة لاصحابه للوصول الى الامد البعيد في الزمن القريب وكان عند الاقدمين عوضا عن طريق الحديد الآن غير انه لا يحمل الاثقال الكثيرة ولقد رأيت من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم ما يزيد القلب ايمانا وذلك في الحديث الذي رواه الامام مسلم في صحيحه في الكلام على سيدنا عيسى عليه السلام وانه يترك القلاص أي الابل بمعنى انه لا يستعملها وخاضت الشراح في تطبيق ذلك والحق ما بينته المشاهدة من الاستغناء عنها بالرتل وطريق الحديد والله أعلم انه سيعم جزيرة العرب ويصل الى مكة والمدينة حيث ان سيدنا عيسى عليه السلام ينزل هناك والله أعلم والبقر قليل وهو نوع ضخم والجاموس كثير والفلاح من العامة الذي له بقرة منه تغنيه عن كثير من الاشياء فيشرب ويبيع من لبنها ويأتدم ويبيع من سمنها ويحرث عليها ويوقد بخثائها ويستفتح أولادها ولذلك صارت البقرة عنده أعز شئ عليه في الدنيا (وأما) الغنم فهي كثيرة في السودان والحيوانات الوحشية يوجد منها في السودان كل الانواع التي تألف البلاد الحارة كالاسد والنمر والفيل والزرافة وغيرها (وأما) الطيور فيوجد سائر الطيور الاليفة (وأما) الوحشية فاغالبا يوجد منها بعض الرحالة كالسمان والخطاف والحدأة كثيرة وكذلك الغراب ولقد شاهدت منه نوعا غريبا الان لونه أبلق وعليه فتكون الصفة في قوله تعالى وغرابيب سود هي صفة كاشفة لا مؤكدة حيث يوجد في الغراب الاسود والابلق بعضه أسود وبعضه أبيض كما يوجد في السودان أنواع شتى من

الطيور

الطيور الغريبة كالببغاوات ذات الالوان البهية المذهبة والمفضضة وغير ذلك من أنواع الطيور
(وأما) معادن مصر ففيها أكثر أنواع المعادن المعروفة فالذهب يوجد بكثرة فى عدة أماكن
من السودان فمنه ماهو فى معدنه ومنه التبر الذى يوجد فى الرمال من سيول المياه وأشهر
معادنه فى سنار حتى يعرف بالذهب السنارى وكذلك يوجد الفحم الحجرى الغنى فى بلاد
النوبة ويوجد أنواع المرمر والرخام الابيض والازرق فى جهات من الصعيد وكذلك
الملح فى عدة سباخ والجص والسيمان والرصاص فى موضعين حوالى شط البحر الاحمر
والنحاس فى عدة أماكن والحديد بكثرة فى عدة جهات والكبريت حتى انه يوجد جبل
يسمى به (وأما) الفضة فهى قليلة وتوجد أحجار ثمينة وأهمها الزمرد لكنه قليل ويوجد
الفيروزج والعقيق والذى يحق به الاعتناء هو حجر البلور اذ هو كثير ونقى يضاهى مافى
بوهيمية النمساوية كثرة وصفاء وأكثر هاته المعادن متروك اما لعدم العناية به
أو لصعوبة نقله حتى رأيتهم يأتون بالحجارة لبلاط الطرق فى الاسكندرية من بلاد تريست
فى مملكة النمسا مع مافى البلاد من الحجارة التى صنع منها القدماء تلك الاهرام والهياكل
والعواميد التى تنقل ذخائر فى قواعد الدنيا ولاشك ان العناية لو توجهت الى استخراج
منافع السودان لسهل نقل تلك الحجارة وسائر المعادن بأخذ الفحم الحجرى للطرق
الحديدية التى تسهل ايصال الاثقال ومواصلة الاقطار اذ فى السودان كنوز لا يحصيها
الا خالقها واعظم بكثرة غاباتها وأخشابها المرغوبة كالشمشير والابنوس وغيرهما حتى
لا يحتاجون لجلب أخشاب البناء وغيره من خارج المملكة فانهم يأتون حتى بحطب الوقد
وفحمه من الخارج وذلك ضعف للبلاد (وأما) مدن مصر ففى مصر من القرى والمدن
ما يتجاوز الثلاثة آلاف بلدة وأشهرها قاعدتها وقد تقدمت صفتها ثم الاسكندرية
ومر ذكرها ثم طنطا ورشيد ودسوق وأشمون والابيض على وزن محمد قاعدة كردفان
وأبو حراز وتندلتى قاعدة دارفور سابقا وتسمى فاشر وغير ذلك وقد كانت بها مدن هائلة
فى الصعيد تحتوى على بناآت عجيبة وصنائع غريبة وقد دثرت تلك المدن ولم يبق لها
من اعتبار سوى ان بعضها صار بمحله قريات ليست بذات أهمية وتلك الهياكل القديمة
قد اكتشف عنها وتسمى بالبرابى وتقصدها السواح للاطلاع على ما احتوت
عليه من الاعاجيب والصنائع المندثرة ومن هاته البرابى واحدة فى بلاد دفو التابعة
لمديرية اسنى أخبرنى الرحالة محمد برادة أنه رأى به ايوانا كبيرا منقوشا فى الصخر على
حيطانه صور جميع المصنوعات المعلومة اذ ذاك وأنه رأى فيه بعين رأسه صورة طريق

الحديد بقضبان ممتدة وعليها حوافل ذات عجلات لكنها بدون مزجية أعنى الآلة الجارة كما رأى فيه صورة السلك الكهربائى يعنى صورة أعمدة عليها سلك ممتد منتهى الى آلة ورأى صورة سفينة ذات عجلات وصاعد من مدخنتها صورة الدخان وسمعت من غيره أنه يوجد فى جملة البرابى بيتان عظيمان أحدهما يحتوى على صور جميع الحيوانات والآخر على صور جميع المصنوعات وان منها ما تقدم وكله نقش فى الحجر ورأيت فى جغرافية فكرى ذكر تلك البرابى واحتوائها على النقوش والصور لكنه لم يذكر خصوص ما تقدم ذكره (وأما) مراسى مصر فأولها الاسكندرية ثم برت سعيد ودمياط ورشيد فى البحر الابيض والاسماعيلية والسويس فى الخليج ومصوع والقصير وسواكن فى البحر الاحمر وزيلع وغيرها فى المحيط الشرقى وأما أهاليها فهم على قسمين الاول أهالى مصر وهم نحو ستة ملايين بعضهم من ذرية القبط أبناء المصريين القدماء وبعضهم أبناء العرب الفاتحين واختلط نسل من أسلم من القدماء بالثانى وصار واجميعا مصريين وتكاثر عددهم فى هذا القرن أعنى حيث كانوا فى أول دولة محمد على باشا لا يبلغون الاربعة ملايين ولما امتد فيهم التهذيب والتحفظ على الصحة بتحسين الهواء والعلاج عافاهم الله من مصيبة الوباء والجدرى الذين كانا دائمين فيهم فبلغ عددهم الآن الى ما ذكرنا والقسم الثانى منهم هم السودان وهم أيضا على قسمين الاول أهالى النوبة وكانت قاعدتهم سنار وهم من الزنج وذرية الكوش من العرب ثم تسلطت عليهم قبيلة الفنج ودخلت فى الاسلام وبقيت هى الحاكمة الى أن افتتحها محمد على سنة ١٢٣٦ وثانى أقسامها هو قسم دارفور وعدد سكانه خمسة ملايين وهم من نوع سودانى يسمى فور وسميت البلاد بهم وديانتهم الاسلام ومعهم نوع يسمى المسبعات ولكثرة اختلاط الجميع بالعرب ودخول قبائل منهم فيهم حتى كانت عائلة الملك عربية صار الجميع يتكلمون بالعربية وتلخص مما مر أن الاهالى على العموم أكثرهم عرب واللغة الغالبة والرسمية عربية وتوجد لغات أخرى سودانية وعدد الجميع بالمضافات ستة عشر مليونا والديانة الغالبة هى الاسلام وتوجد النصرانية على مذاهب شتى ومنها المختلطة بشئ من شعار اليهود وشئ من شعار الوثنيين كما يوجد كل من ذينك الديانتين (وأما) صفتهم على العموم فأهالى المدن الكبيرة يكثر فيهم النبهاء والعارفون بالمصالح العامة المشتركة والباقى على الاطلاق هم على السذاجة والجهل بالمنافع الخاصة فضلا عن المشتركة واللون الغالب أسمر وأسود وأهل السودان والعرب

من

من أصل المصريين شجعان (وأما) فلاحو مصر فلما طال عليهم الاستيلاء الاستبدادى ضعفت فيهم الشجاعة بالمرة وكادوا أن يفقدوا الغيرة كما حكاه المقريزى

الفصل * الرابع

﴿ فى اجمال تاريخ مصر وملحقاتها ﴾

﴿مطلب فى تاريخها القديم﴾ اعلم أن مصر أشهر بقاع العالم بمعرفة أصول تاريخها القديم لكنه فى الواقع غير محرر ولا موثوق به وقد أطنب العلماء الاسلاميون وغيرهم فى تواريخ مصر وعلومها وقدنها فغاية ما نستطيع هنا انما هو الالمام باشارات الى أنموذج ذلك معرضين عما لبعضهم من المبالغات والخرافات ويدعى بعض المتأخرين ان المحقق عندهم فى علم مبدأ التاريخ فيها المحقق هو قبل الميلاد بالفى ومائتى سنة والحق أنه غير محرر لان استنادهم فى ذلك انما هو للتوراة التى بين أيديهم وهى كما علمت سابقا غير صحيحة سيما فى محل التاريخ وقد أقر بعض متدينيهم بالغلط الفاحش فى ذلك المحل سيما فيما يرجع الى التاريخ العام وانه مخالف للموجود من الكتابات المنقوشة على الاحجار العتيقة جدا وغيرها من القرائن الواضحة وتعلل فى تصحيح التوراة بان موسى عليه السلام لم يقصد تاريخا عموميا للخليقة وانما قصد ذكر عمود نسبه ولا يخفى ان هذا غير معقول اذ كيف يذكر عمود نسبه فى تواريخ مخالفة لنفس الامر لانه يلزم ان يكون قائلا بان فلانا نشأ بعد الطوفان بكذا ثم فلان بعده بكذا أو فى زمن الملك الفلانى المتسلطن فى تاريخ كذا مع ان ذلك الوقت ليس مطابقا لذلك التاريخ فما هو الا عين الكذب أو الغلط المنزه عنه كلام البارى تعالى والمعصوم منه الرسول فلا محيص عن القول بالتحريف فى التوراة التى بين أيديهم واذا أضفت الى ذلك الميزان المعقول فى حساب العمران وكمية التناسل من البشر بعد الطوفان ولو على القول بعدم عمومه فى سائر الكورة ونظرت الى المدة التى ذكران ابراهيم عليه السلام أرسل فيها وما كان عامرا من الجهات التى لانزاع ان الطوفان عمها وهى محل اقامة ابراهيم عليه السلام وقومه ومن كان معاصراله من الامم الذين طغوا فى البلاد وتجبروا بما لهم من القوة والعدد والعدد والعلوم لاشك انه يستحيل عندك انهم كلهم نشؤا فى مدة مائتى سنة من نسل أربعة من أولاد نوح عليه السلام وأيضا يستحيل ان تنسى وتنفد ذ بمعجزة الطوفان الهائلة من عقول أمة فى قرنين اذ يمكن ان يكون بعض من

أدرك من أدركها لم يزل بقيد الحياة فكيف مع ذلك ينسى توحيد الله ويعبد إله غيره ولا يتأتى ذلك الا بطول الزمان ونسيان المعجزات وانقراض العلماء ومن عاصرهم في مدة مديدة ولذلك لا نعتمد حينئذ على تعيين أوقات ما نتعرض له من الدول القديمة

* وانما نقول ان مصر قبل بعثة موسى عليه السلام كانت قامت فيها دول عظيمة ذات شان وقوة وعمران وملوكها يسمون بالفراعنة جمع فرعون وهي عبارة مصرية معناها نور الشمس وأول من يعرف الآن من فراعنتها هو منتر (أو) مصرايم الذي حول مجرى النيل وبنى مدينة منفيس ثم زادها اخلافه بهجة واتقانا حتى كانت أعظم مدن الدنيا واتخذتها الفراعنة تختا لهم ولو بعد انقراض عائلة فرعون المذكور وفي مدة أحفاد المشار اليه نشأت دول اخرى صغيرة في أراضي مصر وانقسمت على ثلاثة أقسام بقي أحدها تحت العائلة المذكورة والاخريان تحت عائلتين أخريين الى ان تغلبت على الجميع العائلة الرابعة من الفراعنة ومنها فرعون الباني للهرم الكبير الذي بالجيزة ومرذكره ثم انقسمت الى عدة أقسام كان منها العائلة الخامسة وتولى منها عدة ملوك أحدهم باني الهرم الثاني بالجيزة أيضا وكذلك العائلة السادسة وغيرها الى الثامنة عشر كلهم متفرقون على جهات من مصر الى ان قهر الجميع تحت حكم فرعون أوسيرطاسن (أو) سيزوستريس ثالث ملوك العائلة الثانية عشر وضم الى ممالكه بلاد الحبشة وغيرها من السودان وانقرضت عائلته بعده بقليل وغاية ما يعلم انه تداول مصر بعد ذلك عائلتان وهما الثالثة عشر والرابعة عشر وكان حوادثهما ليست مهمة فلم يوجد لهما وقائع شهيرة (وأما) الخامسة عشر والسادسة عشر فلهما اخبار من جهة قوة الملك والترقي في الصنائع والمعارف وفي آخر الاخيرة ابتدأ تسلط الملوك

* الرعاة على مصر وتم استيلاؤهم على قسم عظيم منها أو عليها كلها لكن بقي للاهليين جهة من أعالي الصعيد ملكوا عليها العائلة السابعة عشر من الفراعنة ولم يكن لها اهمية في جنب مملكة الرعاة وهؤلاء الرعاة يغلب على ظن محققي المؤرخين انهم من العرب اجتازوا الى مصر وبقوا فيها مدة طويلة ذوي شان وسلطان مهيب قوي وقال بعض الاخباريين ان دخول يوسف الى مصر كان في دولة هؤلاء الرعاة ولما قضي على تلك الدولة بالانقراض كان الذي باشر قهرها فرعون أموسيس وانتشأت العائلة الثامنة عشر ولها عدة آثار باقية الى الآن من المباني والصور الدالة على قوة الملك والتمدن كالمسلتين الموجودتين بالاسكندرية والقسطنطينية وكذلك الموجودة برومه

وقال

وقال بعض المؤرخين ان دخول يوسف عليه السلام انما كان في هاته الدولة ويستدل من الآثار ان عبادة الاصنام تفاحشت في مدة تلك العائلة ثم استولت العائلة التاسعة عشر من الفراعنة وكان منها فرعون سيزوستريس المشهور عند اليونان بذلك الاسم وامتدت مملكته من نهر الطونة في اروبا الى نهر الكنك في الهند وانشأ في كل مملكة افتتحها آثارا تدل عليه وارتقت مصر في مدته الى غاية كبرى من المعارف والغنى حتى قيل انه أول من رسم خريطة اصورة مملكه الواسعة وزادت ارتقاء وفخرا وانتهت في معارف الطبيعيات والهندسة والسحر في مدة حفيده فرعون زمن موسى عليه السلام حتى ادعى بملكه ومعارفه الالوهية وكان من قصته ماهو مذكور في القرآن العظيم ومن غريب ما يستحق الذكر ان مؤرخي مصر القدماء لم يذكروا حادثة غرق فرعون ونجاة موسى عليه السلام ببني اسرائيل بانفلاق البحر مع انها حادثة كبرى وبناء على اهمالها أنكرها من لادين له من متشرقي هذا العصر وأضافوا الى ذلك في الاستدلال ان قبر فرعون المذكور واسمه منفطا الثاني موجود بين قبور الفراعنة في الصعيد بالمكان المعروف بباب الملوك فلو كان غرق لما كان له قبر وأجاب عن هذا بعض النصارى بان وجود القبر لا يدل على وجود المقبور كما ان وجوده يمكن ان يكون قبل موت فرعون على عادة أسلافه من احضار قبورهم مضخمة مزخرفة وهو قد هيأ ذلك وان لم يدفن فيه ويحتمل ان يكون ايجاد القبر تعصبا من المصريين وعنادا في اخفاء الامر الذي احاط بهم دفعا للعار عنهم في الاجيال المستقبلة واستدل المجيب المذكور على ان فرعون موسى هو منفطا المذكور بان الذي ولى الملك بعده ابنته وتصرف بالنيابة عنها زوجها لانه لم يكن له ولد سواها وابن صغير قاصر فدل ذلك على حدوث أمر عظيم انقرضت به عائلة الملك حتى سلموه الى امرأة وزوجها مع ان جدهم القريب سيزوستريس المار ذكره قد ترك من الاولاد نحو عشرين فهذا الحادث الذي انقرضت به العائلة ليس هو الا ذلك الغرق لفرعون وملائه اهـ ولا يخفى ان كلا من الجواب والاستدلال غير مسلم (أما) الجواب فان وجود القبر الاصل فيه أن يكون فيه مقبور سيما اذا كانت عليه كتابة اسمه التي بها عرف انه قبره وتاريخ موته فانه الاثر مرسوم الابعد وضع صاحبه فيه واحتمال ان المصريين أقاموا ذلك القبر على تلك الكيفية قصد الاخفاء الواقعة في الاجيال القادمة احتمال بعيد كسابقه لا يؤثر مع الباحث سيما وواقعة غرق فرعون مع ملائه ونجاة موسى ببني اسرائيل بانفلاق البحر من المعجزات

الباهرة التى لا يبقى معها للمصريين عناد بعد ما شاهدتها وهلاك ملكهم الذى كانوا يعبدونه فلا تبقى فيهم بقية يفكرون بها عن الاجيال المستقبلة وأين هم من هذا مع افتضاحهم لانفسهم ولجميع معاصريهم ومن هو تحت مملكتهم من الامم المسالمين لما بين الطوفة والكنائس فهم أشغل بانفسهم والانقياد الى الحق أو الى تدارك أمرهم الدنياوى فقط فى الاقل بين أعين الامم الذين ينظرون الى هلاك مدعى الالوهية مع امرائه ووزرائه وجيوشه فكيف يخطر لهم فى تلك الحالة التعمية على أجيال مستقبلة مع ان سائر معاصريهم ينقلون خلاف ذلك (وأما) الاستدلال فهو غير منتج اذ لا يلزم من تولية البنت انقراض عائلة الملك كيف ذلك ونحن نرى فى التاريخ بل وفى خصوص تاريخ المصريين عدة نسوة صرن ملكات مع وجود العائلة بل ولم يزل ذلك جاريا فى جهات من الارض الى الآن فلم لا تكون ولاية البنت لان قاعدتهم كانت وراثة الملك لاكبر أولاد الملك الاناث والذكور سواء وتصرف زوجها حينئذ نيابة عنها باختيارها الا لانقراض العائلة وكانى أرى هاتيك التمحلات فى الجواب مبنية على اهمال علم السند والرواية أما لو كانوا يعرفون ذلك وجرت عليه اعمالهم لما استحقوا مثل ذلك ولتخلصوا من مهاومهلكة مع ان علم السند والرواية أمر ضرورى بل طبيعى لاخذ الاخبار الغائبة عن المشاهدة واذا بنيت عليه الاحكام استقام الامر وخلص من الغلط والغش والكذب وبناء على اعتبار ذلك فنحن المسلمون نقول ان الذى نقطع بوجوده هو غرق فرعون مصر مع ملائه ونجاة موسى عليه السلام وبنى اسرائيل بانفلاق البحر معجزة له أما كون فرعون المذكور اسمه منفطا أو غيره وكون مدته الى الآن كم هى فلا علم لنا بها ولا دليل لنا عليها وذلك العلم حصل لنا بالنقل المتواتر فى القرآن من نبينا سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام الذى ثبتت نبوته وصدقه بالمعجزات المتكاثرة فاخباره لا شك فى صدقه ويوافقنا على ذلك النقل المتواتر من أمة بنى اسرائيل منذ حصول الحادثة ممن شاهدها منهم وهم أمة عديدة يستحيل تواطؤهم على الكذب الى من بعدهم منهم ومن غيرهم نقلا منهم جيلا بعد جيل على تلك الصفة الى الآن وعدم ذكر الواقعة فى تواريخ علماء ذلك العصر لا ينفى وقوعها لان السكوت عن الشئ ليس بنفى له وهناك حامل على عدم الذكر لان المؤرخ انما يكون من علمائهم الذين هم أشد مضادة للديانة واذا شاهدوا شيأ مثل ذلك ولم يجدوا وجها للقدح فيه وتخريجه على ما يلائم مذهبهم يسكتون عنه على انه مندمج فى زمرة ما نسبوه الى اعمال القادحين فيه التى ينسبونها الى نوع من الباطل عنادا

أو جهلا والعياذ بالله وانى لا أعجب من انكار ذلك من غير ذوى الديانات من أهل العصر وانما أعجب من انكار النصارى واليهود الآن معجزة نبينا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى انشقاق القمر مستدلين على انكارهم بمثل ما استدل علماؤهم فى انكار واقعة الغرق من عدم ذكرها فى التواريخ مع انهم يجيبون بمثل ما تقدم ونحن نقول ان معجزة انشقاق القمر ثبوتها أبين وأمرها أوضح وذلك انها وقعت ليلا بعد مضى حصة منه لان القمر كان ليلة البدر أى الرابعة عشر وهو فى كبد السماء كما تشير اليه روايات البخارى من ان نصفه بقى ظاهرا فوق الجبل ونصفه غاب وراءه والروايات وان اختلف لفظها فهذا مدار معناها ثم ان الحصة فى انشقاقه لم تطل وعاد الى ما كان عليه ولا ريب ان حوادث السماء لا يشتغل بها العموم دائما الا اذا حدث العلم من قبل بها فتلتفت اليها الانظار أو تقع بحسب الصدفة سيما الامر الذى لا يطول زمانه مثل بعض الشهب المؤثرة للضوء القوى أو غيرها مما لا يطلع عليه الا الافراد صدفة ولا يعلم بخبره فى جميع الجهات والآفاق وان ذكره بعض الناس فلا يثبت عند علماء المؤرخين لعدم تيقنه عندهم لعدم ثقتهم باخبار الافراد القليلين فلا يكون سكوتهم دليلا على عدم الوجود على ان وراء ذلك ما هو أوضح وهو ان الممالك المتمدنة اذ ذاك الحاوية للعلماء المؤرخين الذين يمكن لهم رؤية القمر عند استقامته فى كبد السماء فى مكة المكرمة انما هم سكان ما بين شطوط المغرب الى مبادى جبال هملاى أما أهالى أوروبا فلم يكونوا اذ ذاك من أهل المعارف والتدوين سوى جهاتها الجنوبية من بقايا الرومان (وأما) الصين وشمال آسيا الشرقية فلا يرون القمر اذ ذاك لغروبه عندهم أو قرب غروبه فى ضوء النهار فهم وان كانوا اذ ذاك متمدنين وعلماء لكن ذلك غير مرئى لديهم ثم ان الممالك المذكورة التى يمكن لهم رؤية القمر اذ ذاك هم فى أنفسهم مختلفون فى الوقت فيكون الوقت اذ ذاك عند الهنود بعد نصف الليل وعند المغربيين عند غروب الشمس أو ما قارب ذلك فى كل من المكانين وهاتيك الاقطار مامضى عليها من وقت انشقاق القمر نيف وعشرون سنة الا وقد أدخل خالد بن سنان قائد جيش المسلمين فى المغرب قوائم فرسه فى المحيط الغربى وقال ليس لى وراء هذا ما أفتحه وقد بلغت فتوح الجيوش الاسلامية فى الشرق الى بخارى وسمرقند وأفغانستان وسائر تلك الجهات فعلماء هاته الاقطار عند الفتح الذى كان بقرب انشقاق القمر لان الانشقاق كان فى السنة الخامسة قبل الهجرة والفتح تم فى مبدأ خلافة سيدنا عثمان كانوا على قسمين منهم من آمن وهو الاغلب ومنهم من

بقى على دينه (فأما) من آمن وألف فقد روى مثل سائر المسلمين الانشقاق امالرؤيته أولرؤية أحد ممن يثق به من أهل وطنه مع التأييد بالرواية المستفيضة والتواتر القطعى من الصحابة الذين شاهدوا ذلك وعلموه ونقلوه بالكلام الذى يتعبدون بتلاوته ولا يرتابون فى حرف منه وكذلك صار نقل كل من آمن من سائر تلك الاقطار وهذا تواتر النقل بغير ذكر سند واقتصر ذكره على كيفية الوقوع وهو أيضا بالغ مبالغ التواتر مع ان الاصل ثابت بغير احتياج للسند كما فى سائر التواترات لانه اذا قال قائل ان الكعبة فى مكة المشرفة فلا يقال له عمن تروى هذا لانه قطعى معلوم بالضرورة وكذلك نقل الانشقاق لانه متواتر بالقرآن فى قوله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر (وأما) القسم الثانى من علماء تلك الاقطار الذين لم يؤمنوا فانهم لم يتحقق عندهم ما تقدم عند المسلمين فمن ثبت ذلك عنده منهم من قبل لاشك انه يضرب عن ذكره فى تاريخه لانه يكون حجة عليه وهو يتأول فى وقوعه بما تشير له الآية الكريمة فهو حريص على عدم اثباته بالمرة لكنه لما عارضه النقل القطعى سكت عنه ولم يتعرض له بنفى ولا اثبات والا فبالهم لم يذكر أحدهم ان ذلك الزمان قد كان فلان وفلان يرصدون القمر أو السماء ولم يروا ذلك الحادث مع انهم حريصون على ذكر كل قادح فى الدين فكان سكوتهم فى الحقيقة هو نفس الاقرار بالوقوع ولا يتخيل مع ما ذكرناه ان مجرد السكوت عنه حجة فى عدم الوقوع والحال ما ذكرناه ويتأيد هذا بالممالك التى بقيت لم تفتح وكان فيها بقية من التمدن وهى يمكن منها رؤية الانشقاق مثل بقية مملكة الرومان الشرقية والغربية فانهم لما تقاص ظلهم فى تلك المدة القريبة بدولة ذلك النبى صلى الله عليه وسلم الذى كان من معجزاته انشقاق القمر وهم على دين النصرانية وثبت ذلك عندهم قطعيا ممن فتحوا أقطارهم وعلموا ان ذلك الانشقاق حجة لخصمائهم فعلى تقدير ان يكونوا رأوه واثبتوه فى بعض تواريخهم عند وقوعه فلا يبعد ان أضربوا عنه بعد بلوغ قصته اليهم لكى لا يكون حجة عليهم ولا يبعد اثباته عند من يأتى من قومهم سيما والملوك اذ ذاك تحت الانقياد للقسوس وكبراء الديانة فربما انهم منعوا من ذكره كما يمنعون سائر ما يضر بديانا تهم فهاهنا يأتى مثل هذا التعليل الذى مر ذكره عن بعض النصارى فى شأن غرق فرعون وهو هنا على نحو ما أوضحناه أبين وأمكن فلذلك قلنا باشتداد عجبنا من انكارهم له ولا يقال لعلهم أنكروه واستندوا الى عدم ذكره فى التواريخ من حيث وقوع الخلاف فى وقوعه حتى

عند

عند المسلمين لان رواية أحاديثه لاتخرج من الافراد والآية المارة قد قال بعض المفسرين فيها ان الفعل الماضي وضع موضع المستقبل تحقيقا لما سيقع فلا يكون هناك النقل بالتواتر للوقوع بالفعل والوجه في سقوط ذلك بديهي عند من تضلع بالفنون الشرعية وبيانه انا قدمنا ان الاحاديث المروية في الصحاح انما هي في بيان الكيفية والاسباب أما أصل ثبوت الواقعة فانه منقول تواترا محققا لان مدار جميع الروايات البالغة حد التواتر على اثبات الوقوع فليس هي من الآحاد وكذلك صريح القرآن قطعي فيه وماذكره بعض المفسرين ليس هو من كلام أحد من الامة اذلا خلاف عندنا في ذلك وانما هو من كلام بعض الملحدة والمريدين لادخال الشبهة كيفما كان الحال على المسلمين وان نسب القول بذلك لاحد الامة فانما هو من التزوير والبهتان حيث لم يثبت بطريق الرواية الصحيحة عن الثقاة نسبة قول ذلك لاحد علماء الامة ولذلك لاترى كل من نقل ذلك من المفسرين الا وقال أثره ويرده قوله تعالى وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر الآية فانه اذا كان المعنى سينشق القمر لايكون لقوله يعرضوا الخ من معنى لان ذلك الزمن الآتي ليس فيه من مدع المعجزة حتى ينسبوها الى السحر وأيضا قوله تعالى وكذبوا نص صريح في تكذيبهم بأن انشقاق القمر معجزة وانما نسبوه الى السحر وقد جاءت قراءة وقد انشق القمر بزيادة التأكيد للماضي ولهذا نقل الاجماع غير واحد على ان الانشقاق قد وقع وانه لاخلاف بين المفسرين في ذلك وكذلك الروايات في الوقوع قد قال الواقدي انها متواترة بالقطع وبه صرح القاضي عياض وغيره من ممارسي الرواية والحديث وقال القاضي عياض أيضا ما معناه ان من يدعي عدم التواتر في ذلك انما هو الجاهل لكن يغمض بصره ويقول مالي لاأرى الضوء وكذلك هذا فان المعرضين عن الاطلاع على الحديث والسير هم الذين لايعرفون تواتر الرواية في ذلك زيادة عما قدمنا من صراحة القرآن فيه واجماع الامة على تفسيره بما لايحتمل تأويلا ولاشبهة ولم ينقل أحد خلافه سوى دسيسة الملحدة المذكورة مما لا يروج على عالم وكان نقل كثير من المفسرين لها للرد عليها هو الذي صيرها ذكرا والحق ان كثيرا من المتأخرين الذين فسروا لم يراعوا حق القرآن في تنزيه تفسيره عن سفاسف الاقوال مما هو مردود بالبداهة وأصول العقائد والاجماع كما وقع في هاته الآية مما جعل للقول ذكرا وان لم يكن له من أساس ولاسند ولا عجب لالحاد الملحدين ودسائسهم في المعاني بما استطاعوا بل انهم طمعوا حتى في

* الالفاظ وأرادوا أن يدخلوا عليها الشك والتحريف مع العلم القطعى بتواتر كل حرف من القرآن فى محله ومرور ألف وثلاثمائة سنة وعشر سنين عليه ولم يقع الشك فيه ولا راج التشكيك على أحد من الامة من عامتها فضلا عن علمائها ومن هذا القبيل ما رأيته عند كتبى لهذا المحل فى تأليف جديد للغوى أحمد فارس سماه بالجاسوس على القاموس فهو وان كان فى بابه من جهة اللغة حسن الموضوع لكن لما كان صاحبه غير متضلع بالعلوم الشرعية افترور اج عليه ما يذكر فى بعض كتب أدبية لذوى مجون متمخرقين بذكر ما يرونه من الطرف والظرائف لتقضية الوقت والتزلف لدى جهال الامراء حتى قالوا ان بعض كلمات القرآن الكريم وقع فيها التحريف واختلاف الرواية فى القراءة بسبب عدم وجود الشكل والنقط فى الاحرف العربية فى الزمن القديم وعدوا من ذلك جملة الفاظ حتى قال ان منها انا نا قرئ أوثانا وقضى قرئ وصى ويئس قرئ يتبين وعباد الرحمن قرئ عند الخ ولولا التحامل المقصود لهؤلاء لما صح لهم ذكر ذلك والا فأى ذى عقل يقول ان أحرف الكلمات المذكورة يشتبه بعضها ببعض حتى يقرأ على ما ذكر فن أين أتت الواو فى اناثا حتى صارت اوثانا وكيف يشتبه القاف بالواو فى وصى ومن أين أتت الالف فى عند حتى صارت عباد وهذا كاف فى بيان التمشدق والا فالحقيقة ان القرا آت السبع كلها متواترة باجماع أهل الملة والدين كما نص على ذلك علماء أصول الفقه

* وأصول الدين وسائر القراء واذا قال أحد مدعى العلم فى عصرنا ان التواتر يحصل به العلم العام فمالى لم يحصل لى حتى الظن بذلك فضلا عن العلم فنقول ان ذلك من الجهل المركب وذلك لان المراد بكون التواتر محصلا للعلم انما هو عند من علم التواتر وعند أهله أى أهل موضوع التواتر لا عند جميع الخلق ومثاله سهل جدا فانك اذا سألت أحد أهل السياسة وعلماء الجغرافية عن وجود بلاد تسمى استكهولم اجابك حالا بانها موجودة قطعا وانها تحت مملكة السويد وانه لا يرتاب فى ذلك مثل ما لا يرتاب فى وجود نفسه فاذا أتيت لجمهور علماء الجامع الازهر وعلماء جامع الزيتونة وعلماء جامع القرويين وغيرهم من عمد علماء الدين وسألتهم عن تلك البلاد لا تجد عند أحد منهم شعورا بها ولا يجيبك الا بانى لا أعلم لهذا الاسم من موضوع فهل يكون عدم معرفة الجمهور العظيم من علماء الشريعة قادحا فى وجود تلك البلاد أو فى خروجها عن كونها تحت تلك المملكة بثبوت التواتر ان لم يشاهدها من أهل العلم بذلك كلا فكذلك لا يكون جهل جميع الجاهلين قادحا فى وجود التواتر بالقرا آت السبع بل قال جمع من الاصوليين

ان

ان القرا آت العشرة متواترة فضلا عن السبع واذا كان كذلك فلم يبق محل لدعوى التصحيف أو التحريف فى تلك الكلمات واشباهها مما ثبتت به القراءة وانما جاء ذلك من التشديد فى الذى لا اعتبار له سوى التسويد فى الكتب لينقل عنه من يرى ان العلم كاف فيه وجوده فى كتاب مسود وسيأتى لهذا الموضوع مزيد بيان فى الخاتمة ان شاء الله تعالى ولنرجع الى تاريخ مصر فنقول انه من عهد منفتاوابنه لم يوجد فى التاريخ شئ معتبر من أحوال مصر سوى استيلاء عائلات أخرى الى ان آلت الى العائلة الثانية والعشرين فكان منها فرعون شيشق الاول الذى حارب ملك الشام وهو ابن سيدنا سليمان عليه السلام وفتح مملكته وبقيت تحت حكمه وصور فتوحه على هيكل الكرنك وكتب عليه بالنقش بحروفهم مملكة يهوذا فى قبضتى ثم خرجت عليه الشام وحاربها ابنه وانكسر ثم لم يكن لوقائع مصر من أهمية الى ان استولت عليها العائلة الخامسة والعشرون وهى من ملوك الحبشة وأولها فرعون سباقون وصارت من هاته العائلة عدة ملوك وحاربوا ملوك أشور التى كانت مملكتهم بين الفرس والشام وعظمت مملكة مصر فى أيام تلك العائلة حتى اتحدت بالحبشة وغالب أفريقية وصار فيها تمدن عظيم حسبما دلت عليه الآثار ثم انقرضت الدولة وانقسمت المملكة المصرية الى اثنى عشر قسما ثم اتحدت تحت العائلة السادسة والعشرين وأولها فرعون أبساميس وترقت المملكة فى أيامه وكان فيها ابتداء استعمال الحروف الابجدية فى الكتابة عوضا عن الكتابة بالصور التى كانت مستعملة سابقا كل صورة علامة على كلمة ومن مدته ابتدأ التثبت فى التاريخ المصرى وانجلى حاله نوعا عما كان من قبل فى اثبات الزمن فكانت ولايته المذكور سنة ٦٦٤ قبل الميلاد وكان خالط بمعارفهم معارف اليونان وكثرت بينهم المخالطة ثم استولى ابنه وفتح بعض آسيا ومنها بابل وأراد وصل النيل بالبحر الاحمر ولم يتمه وخرج عنه أيضا بعض ما فتحه فى آسيا كملك الشام ثم استولى عدة من ذريته الى أن فتح مصر بخت نصر وقتل فرعونها وأولى عليها أحد أعيانها فخالف عليه فحاربته مملكة فارس وتغلبت على جميع البلاد وصارت مصر ولاية فارسية حدثت فيها عدة ثورات من الاهالى لانقاذ أنفسهم من الفرس ولم تغن شيأ ونهاية خروج مصر من يد أهلها كان فى حدود سنة ٣٥٨ قبل الميلاد ولم يتولاها أحد منهم الى الآن بل كانت سائر دولها من المتسلطين من خارج ثم بقى بعد تلك الثورات استقرار ملك فارس الى ان ظهر اسكندر المقدونى اليونانى

وشرع فى الفتوح فافتتح مصر وجعل قاعدتها الاسكندرية كما مر وكان فتوحه سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ثم استولى عليها بطليموس الاول من اليونان أحد قواد الاسكندر عند اقتسام ممالكه بعد موته وانشأت الدولة البطليموسية التى تحفظت على ما أمكن لها معرفته من علوم قدماء المصريين وزادت بمعارف اليونان وقد فتح بطليموس المذكور الشام وجعله ولاية مصرية وأهلك من اليهود ما أبقاه بخت نصر حتى لم يبق منهم الا القليل النادر من الرعاع ثم لما تولى ابنه أعتق من وجده منهم وردهم الى بيت المقدس مكرمين وهو الذى أمر بترجمة التوراة من سبعين رجلا من اليهود العارفين باللغة اليونانية فترجمها كل منهم بانفراده وقوبلت التراجم مع بعضها واستخرج من الجميع نسخة واحدة وهى المعروفة الآن بالسبعينية ومع ذلك فهى مخالفة الآن للعبرانية والسامرية وكأن السبعينية أقل تحريفا للاتفاق عليها اذ ذاك وكان تحت مصر اذ ذاك تونس وطرابلس وكثير من جزيرة العرب والشام وكثير من جزائر اليونان ثم تولى بطليموس الثالث وزاد فى الفتوح الى ان دخل أواسط آسيا ثم تولى الرابع وقتل اليهود فى سائر ممالكه شر قتلة وكان بطاشا وتولى بعده ذريته ولكنهم لم يكن لهم من تقدم اجدادهم سوى اسم الملك أما الاعمال فهى قهرية استبدادية شهوية وسنة الله فى انقراض الدول حتى استولت منهم امرأة ذات جمال فائق واسمها كليوباتره فعاثت فى البلاد والعباد وضعف ملكها فقصدها أمبراطور الرومان بالحرب وأرسل لها جيشا ولكنها لما اجتمعت برئيس جيوشه شغفته حبا حتى تزوجها بعد ان كانت تزوجت أخويها واحدا بعد آخر ثم أقام معها رئيس الجيوش الى ان أرسل اليه جيش آخر وقتل فى المعركة ولما أيست الملكة من النجاة مكنت حية قتالة من ثديها فنهشتها وماتت وقد رأيت صورتها فى عدة أماكن من أوروبا والحية فى ثديها وكان بذلك انقراض دولة اليونان عن مصر وابتداء استيلاء الرومان عليها فلم تزل ولاية رومانية يلقب واليها بالمقوقس له الاطلاق فى التصرف الى ان جاءت البعثة وخاطب النبى صلى الله عليه وسلم الملوك بالدعوة الى الاسلام فكان من الملوك المخاطبين منه عليه الصلاة والسلام المقوقس ونص الكتاب الذى بعثه اليه بسم الله الرحمن الرحيم من (محمد) عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى (أما بعد) فانى أدعوك بداعية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فعليك اثم القبط يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيأ ولا يتخذ بعضنا

بعضا

بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون اهـ فاجابه بالعربية
بما نصه بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك أما
بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو اليه وقد علمت ان نبيا قد بقى
وكنت أظن ان يخرج من الشام وقد أكرمت رسولك وبعثت اليك بجاريتين لهما مكان
من القبط عظيم وكسوة وأهديت اليك بغلة لتركبها والسلام فلم يكن فيه اجابة ولا انكار
واغماء ويومى الى قرب الاجابة ثم فتحت مصر فى خلافة سيدنا عمر رضى الله عنه سنة ٢٠
على يد عامله سيدنا عمرو بن العاص فى جيش عدده ثمانية آلاف وأمده الخليفة باربعة من
أسود الصحابة قال ان الواحد منهم فى مقام ألف فتلك اثنا عشر ألفا ولن يغلب اثنا عشر
ألفا من قلة وتمادى الفتح منها لبقية أفريقية وحيث كانت أخبارها الى العائلة المحمدية
العلوية مبسوطة فى التواريخ لا يمكن استيعابها نقتصر هنا على ذكر الدول وسنيها
وملاحظات فى صفحتها فى جدول خاص بهذا وأما بقية الملحقات السودانية وهى القسم
الجنوبى من النوبة وما يليه جنوبا من بقية السودان وقاعدة ملكهم تسمى سنار باسم
المملكة فغاية ما يعلم من أحوالها انها قبل الهجرة بنحو ٣٧٣٥ سنة كان يسكنها
قوم من الزنج لا تعرف أحوالهم ثم وردت عليهم طائفة الكوش من العرب وحصلت
بينهم وبين المصريين وقائع اضطرت المصريين الى اقامة قلاع فى الحدود وتقاص ظلهم
عما كان لهم فى النوبة من النفوذ ثم تسلط أهل سنار العرب على مصر وهم الرعاة ثم
خرجت منهم كما سبق ذكره ثم دخلت فى أهالى سنار وغيرهم الديانة النصرانية فى القرن
الرابع من الميلاد ثم فى القرن الاول الهجرى افتتح العرب هاتيك الجهات وبقيت على
الاستقلال بادارتها سوى التبعية الدينية للخلافة الى سنة ٨٨٩ فاقبلت قبيلة تسمى
الفنج (أو) الفون ولا يعرف من أين أتت فتغلبت على تلك الجهات وتملكتها وكانت
على الديانة الوثنية ثم أسلمت وصار منها علماء أجلة فى عدة مدن وارتحل منها طوائف
الى قواعد الاسلام لاخذ العلوم فبرعت منهم فحول وكان ملكهم من أقوم ملوك الاسلام
الى أن حدث فيهم التنافر الداخلى والانقسام وتماروا فيما بينهم فجعلوا بذلك وسيلة
لجارهم فى التسلط عليهم فاغتنمها محمد على باشا فرصة واستولى على جميع سنار
بعد استيلائه على النوبة سنة ١٢٣٦ أما شطوط النوبة الشرقية أعنى ما كان منها
على البحر الاحمر فانه كان فى أغلب الاوقات تابعا لمصر حتى بعد الفتح الاسلامى وعند
ما افتتحت الدولة العثمانية مصر بقيت هاته الجهة تحت ادارة خاصة بها تابعة للدولة

الى سنة ١٢٤٣ ففوضت ادارتها الى محمد على وجعلت جزأ من الممالك المصرية وألحقت بها أيضا بلدة أنصبا وملحقاتها التى كانت تابعة للحبشة فاستولت عليها مصر شيأ فشيأ (وأما) دارفور فغاية ما علمت من تاريخها انها كانت من الممالك الاسلامية القديمة وأهلها من اخلاط السودان والعرب وآخر عائلة من ملوكها عربية سودانية يسمى أولهم السلطان عبد الرحمن توفى سنة ١٢١٨ وانتقل الملك فى أبنائه الى ان تغلب على المملكة اسمعيل باشا سنة ١٢٩١ (وأما) زيلع وغيرها من بقية جهات السودان على شطوط أفريقية الشرقية فحاصل ما بلغت اليه انهم قوم من العرب اجتازوا الى هناك من قبل الاسلام ثم أسلموا فى صدر الاسلام ولما استولت الدولة العثمانية على اليمن وغيره من جزيرة العرب وأفريقية دخلت تلك الممالك أيضا طوعا فى طاعة الدولة ولم تزل مجرية لهم عوائدهم ولها الحكم السياسى الى أن ألحقت ذلك بمصر بمقتضى فرمان منحة الى اسمعيل باشا وورثته وذلك سنة ١٢٩٢ (وأما) بلاد النوبة فكانت قديما مشغولة بعباد كرناه فى سنار الى أن استقر الاسلام بمصر فبقى أهل النوبة على الشرك حتى انه فى زمن المأمون لما قدم الى مصر اشتكى اليه ملك النوبة من عامل اسوان وأهلها بانهم ملكوا أراضى فى بلاده بالشراء من أناس والحال انهم أى البائعين عبيده فأحال فصلهم على قاضى اسوان ولم يقر البائعون بالرق فضغن عليهم ملك النوبة وبطش بهم ثم صار التعدى متواليا من النوبيين على أهالى مصر وكلما أغاروا وجه لهم حاكم مصر رادعا فيذعنون ثم يعودون الى زمن صلاح الدين بن أيوب فالتجأ اليه ابن أخ ملك النوبة مستنصرا على عمه فأعانه وأولاه ملك النوبة وضرب عليه خراجا وألحق بمصر نحو الربع من النوبة ثم لما ملكت الدولة العثمانية استقلت النوبة وكانت حدودها عند مصر مأوى للامراء أصحاب الفتن فيلجؤن اليها الى أن استولى محمد على فاستولى على جميع النوبة وغيرها وصار أغلب أهلها مسلمين ودونك جدول حكومات مصر منذ الفتح الاسلامى

جدول حكومات مصر

التاريخ من الهجرة	أسماء الحكومات	ملاحظات
٢٠	سيدنا عمرو بن العاص وخلفاؤه	عمال للخليفة من الخلفاء الراشدين ثم الامويين ثم العباسيين
٢٦٤	أحمد بن طولون وذريته	سلطان مستقل بالادارة خاضع الى الخليفة العباسى تدينا
٢٩٢	عمال العباسيين	مثل سائر العمال
٢٩٣	الدولة لاخشيدية ومنها كافور الاخشيدى	سلطان مستقل يدين بالتبعية للخلافة العباسية
٣٥٨	الدولة الفاطمية أولها المعز بن المهدى	خلافة مستقلة على مصر وسائر المغرب
٥٦٧	الدولة الايوبية وأولهم استقلالا صلاح الدين وآخرهم شجرة الدر	مستقلين وتملكوا الشام وغيره وصلاح الدين هو فاتح بيت المقدس من أيدى الافرنج وصاحب الوقائع الشهيرة فى حرب الصليب وفى مدتهم انتقل الخليفة العباسى الى مصر سنة ٦٥٩ وهو صورى فقط
٧٨٤	دولة الجراكسة أولهم المعز ايبك زوج شجرة الدر المذكورة	مستقلين خاضعين لخليفة عباسى بالاسم
٩٢٢	الدولة العثمانية وعمالها ومنهم المماليك	عمال لآل عثمان لهم ادارة مختارة فوضى
١٢١٣	الفرنساويون	تغلب نابليون الاول وبقى الى أن أخرج بسيف الدولة العثمانية واعانة الانكليز

{مطلب فى تاريخ مصر الجديد} لما استولى الفرانسيس على مصر وكان قاصدا التوصل من هناك الى افتتاك الهند من الانكليز لما كان بينهم من الحروب والعداوة بل وكانت سائر أوروبا اذ ذاك ضد الفرانسا وبين حسبما تقدم ذلك فى محله فحينئذ عاضدت انكلاتيره الدولة العثمانية على حرب فرانسا وأخرجاها من مصر ١٢١٦ وبعد استقرار أمرها للدولة استولى على امارتها محمد على باشا الذى أصله من الارناوط وقدم عسكر بامع عساكر الترك لاخذ مصر من الفرانسيس وكان كامل الاوصاف للرياسه فتقدم اليها بنفسه على بنى جنسه وانقاد له الجميع وقررت ولايته الدولة على دفع خراج معلوم سنويا وذلك سنة ١٢١٩ فوجد مصر فى نهاية درجة الفقر والبربرية والجهل بل حتى ان الامراض الوبائية من الطاعون قد تمكنت فيها وصارت عادية تفنى من الناس سنويا خلقا كثيرا حتى قل العمران ولم يبق من مآثر تقدم المصريين سوى الاسم فى التواريخ نعم وجد للعلوم الشرعية بقية آثار فى الجامع الازهر من العلماء وذلك كله لما مر عليها من تقلبات الدهر والظلم والجور والاستبداد والحروب فى الايام الخالية فشمر عن ساعد الجد ووافقه البخت وفتح لمصر عصرا جديدا فنظم فيها جيشا نظاميا من أهلها ورتب الاداء على الاهالى على قانون غير مجحف وألزمهم بتعمير الارض وفتح الترع وانشأ المدارس العلمية للعلوم الرياضية والحربية وأحضر المعلمين من أروبا وأحيى المارستانات وألزم الاهالى بالنظافة وتوسيع الطرقات والبناآت وأرسل التلامذة الى أروبا للتعلم الفنون وأحيى غوامض العلوم الشرعية وسهل أبواب التجارة وانشأ معامل السلاح والسفن وترجمت كتب النافعة فى فنون شتى من لغات شتى الى العربية فنشأ فى مصر جيل جديد وعصر جديد بسطت فيه طرق العمران والتمدن والقوة فى مدة يسيرة فافتتح النوبة وسنار واستولى على الشام والحجاز وافتكه من الوهابى بل امتد بالاستيلاء الى قرب الآستانة فى الاناطولى وخشيت شوكته من عصيانه على الدولة العثمانية فتعصب الانكليز الى الدولة فى الظاهر لتوطيد أركانها وفى الباطن خشية من انشاء دولة اسلامية شابة ذات قوة مثل تلك ومركزها مصر فتخشى ان تمتد من هناك الى الهند الذى هو روح قوة الانكليز سيما اذا عاضدتها احدى الدول الاروباوية مثل فرانسا فلذلك حاربته مع الدولة العثمانية التى هى اذ ذاك على ضعف شديد من حرب الروسيا والثورات الداخلية واستقلال اليونان وغير ذلك فقهر واحمد على ولكن لاتمام مقصد انكلاتيره لم تسمح للدولة بالاستيلاء التام على مصر لمراعاة المقاصد المشار اليها أيضا

فكان الاوفق لها ابقاء مصر على شبه استقلال لضعف كل من الجهتين وبقى محمد على
واليا على مصر على أن تكون الولاية فى ذريته من أكبر الى أكبر ويؤدى خراجا سنويا
للدولة ويعينها عند وقوع حرب معها بالعساكر الذين يبلغ عددهم الاربعين ألفا
وكذلك يعينها بالسفن وان الرتب العالية فى مصر يعين هو أصحابها وتوابعهم الدولة
والسكة والخطبة تكون باسم السلطان العثمانى والعلم عثمانى أيضا وخرج الحجاز عنه
الى الدولة وكذلك الشام وبقى على ذلك الى أن ضعف بالسن فتنازل عن الولاية لابنه
الاكبر وهو رئيس جيوشه وحروبه ابراهيم باشا سنة ١٢٦٥ وكان على قدم أبيه
وتوفى تلك السنة فتولى بعده ابن أخيه عباس باشا بن طوسون بن محمد على سنة ١٢٦٥ *
فاخذ عنه وان التمدن فى شئ من الانحطاط لصرف المداخيل فى الشهوات لكنه أحدث
شيئا من المنافع كبعض طرق الحديد والسلك الكهربائى وأحكم الصلة مع الدولة
العثمانية ثم توفى سنة ١٢٧١ وولى بعده سعيد بن محمد على فزاد انحطاط التمدن *
واتسع خرق الاسراف ومنح لجمعية لسبس الفرانساوية فتح خليج السويس وكثر الدين
على الحكومة ثم توفى سنة ١٢٨٠ وولى اسماعيل باشا ابن ابراهيم باشا فاعاد عصر *
التمدن والمعارف واتساع القوات البرية والبحرية وشدد الالتحام بفرانسا وانكلاتيره
مجاجعة له آخذا طريق الاستقلال بالمرة عن الدولة العثمانية وصادف ان كان فى أيام
ولايته حصلت حرب أمريكا المتحدة فى بعضها فانقطع منها جلب القطن الى انكلاتيره
واشتد طلبه من مصر وحصلت فيها ثروة لم تعهد مع امتداد طرق الحديد الى جهات
شتى والى السودان ثم تم فتح خليج السويس فى مدته ودعى له ملوك أوروبا فحضر له كثير منهم
كامبراطور أوستريا وامبراطورة الفرانسيس زوجة الامبراطور نابليون الثالث
من غير توسط الدولة العثمانية مما زاد الشبهة فى دعوى الاستقلال لكنه كأنه تحقق
من زائريه ان المقصد لا يتم له فتغيرت سيرته من وقتئذ وعاد لمصافاة الدولة العثمانية
وقد قدم اليه السلطان عبد العزيز بنفسه الى مصر والى مقره فى الآستانة وحصل منه
على فرمان امتياز بانحصار الوراثة فى خصوص بنيه من أكبرهم الى ابنه الاكبر
وهكذا وزاد فى الخراج للدولة واخذ منها سامالكة زيلع وفتح دارفور وكردفان وغيرها *
من السودان وزادت المعارف كلها شعشعة فى أيامه وانشأ المحاكم المختلطة بمصر لمنع
حكم القناصل وانشأ مجلس النواب من الامة لكنه صورى وكذلك مجلس الوزراء
الا ان الكل تحت أمره وحده لكن ازداد الدين على الحكومة بكثرة المصاريف

الداخلية فى انشاء القصور وغيرها كالترع والطرق وبكثرة المصاريف للدول لتحصيل
مطلوب به منهم مما ذكرناه وافتقر الاهالى من الظلم وأخذ أموالهم بالضرب وغيره
لحد غير معلوم ومع ذلك لم تقدر الحكومة على الوفاء بفائض الديون الاروباوية
وجعلت تزيد فى القرض الى أن توقف المقرضون عنها فتداخلت الدول فى حفظ
أموال رعاياهم وانشأوا وزارة فيها وزير انكليزى للمال ووزير فرانساوى
للاشغال العامة وتحرش الوزراء غير الاجنبيين حينئذ فى عدم الاذعان لمجرد
ارادة اسماعيل باشا وتقلب مرارا فى تغيير الوزراء فلم يفده الى أن ثار الجيش بالاغراء
متفقا مع مجلس النواب وأهانوا الوزارة المختلطة كلها بدعوى انها نقصت من مصاريف
الجيش وعدده لكن المعاملة مع الوزير الفرانساوى كانت لينة وهو متمحض عنهم حتى كان
لسان الحال يدل على ان لفرانسا باطنا نوع اتفاق مع الخديوى يوافق قصده فى التباعد
من انكلاتيره حتى تفطنت لذلك وأرسلت له رسولا خاصا ابلغه نصيحة شديدة مآلها
ان النافع لذاته هو الرفق بالرعية والكف عن الاسراف وان ركونه الى غيرها لا يفيده
عند تمحص الحق فأجاب بالخلاص مما رمى به واشتد حنقه من التداخل الاجنبى الى أن
حصلت تلك الامور من العساكر فعزل الخديوى الوزارة فتاغيظ فرانسا وانكلاتيره
وطلبوا من الخديوى أن ينعزل عن الخديوية فأبى وألحوا الى أن كادوا أن يباشروه
بالحرب وكانت الدولة العثمانية اذذاك أثر خروجها من حرب الروسيا التى قسمت بها
كثيرا من ممالك الدولة فارادت الدولة أولا أن تحمى الخديوى لكنها لما علمت أن
لامناص من عزله جعلتها كما قيل بيدى لا بيد عمرو حفظا لناموسها وسلطتها فعجلت بارسال
أمر بسلك الكهربا الى اسماعيل باشا تعلمه بعزله وأمر آخر الى ابنه الخديوى الحالى محمد
توفيق تأمره بالولاية وتسلم زمام الامور وذلك سنة ٢٩٦ ، ثم سافر اسماعيل الى ايطاليا بحريمه
وأبنائه وبقى ساكنا فى نابلى بقصر لحكومة ايطاليا وتصرف الخديوى توفيق فى مصر
بواسطة الوزراء وجعل رئيس الوزارة مصطفى رياض باشا وجعل لكل من انكلاتيره
وفرانسا مراقبا ماليا يحضر مجلس الوزراء وله صوت فيه بحيث لا يمضى شئ الا ما وافق
عليه المراقبان وقسمت مداخيل الحكومة على قسمين أحدهما لفائض الديون وقدر
تلك الديون نحو ألفى مليون فرنك ومقدار ما عين لفائضها واستهلاك أصلها نحو مائة
وستين مليونا فرنكا سنويا والباقى من مداخيل الحكومة يدفع منه خراج الدولة
العثمانية وبقيته مصاريف الحكومة وجرى التصرف للوزارة بدون مجلس النواب

مع

مع وعد الخديوى عند ولايته بفتحه واجراء مقتضاه الى أن ظهر للوزارة ان تحدث قانونا فى رتب العسكر كان من مقتضاه ان أبناء مصر العارفين بالكتابة والقراءة لا يتجاوزون رتبة رئيس الالاف أى بين باشى والذى لا يعرف ذلك لا يتولى الا رتبة رئيس عشرة وبقية الرتب يتولاها الدخيلون فى مصر كالترك والافرنج فامتنع من الامضاء على القانون فى وزارة الحرب عدة من أمراء الالايات معلنين بان ذلك خلاف الانصاف فسجنهم وزير الحرب فثارت العساكر وأخرجوهم من السجن وأحاطوا بقصر الخديوى طالبين عزل وزير الحرب فعزل وحصلت (حينئذ) طنطنة لاتحاد العساكر وانصافهم وحياة المصريين ونشأ فى الامة حزب يسمى الحزب الوطنى زعيمه فى الكلام رجل يسمى عبد الله نديم ✽ فصيح اللسان عارف بطرق الكلام وكثرت منه الخطب فى المجامع والمواكب ومن غيره أيضا فى الحث على الاتحاد وأخذ الاشغال لابناء الوطن وكذلك الوظائف والخروج من وطأة الاجانب الذين اشتد احتقارهم للاهالى واستبدادهم عليهم بالمرتبات الباهظة حتى انى لما مررت بمصر كنت أسمع دوى غليان الاهالى من التشكى من كثرة توظيف الاجانب الذين بلغ عددهم نحو ألف ومائتى متوظف يأخذون سنويا نحو أحد عشر مليونا فرنكا مع اقتدار الاهالى على الوفاء بتلك الوظائف ونقصان مرتبهم عن ذلك بكثير ثم بدا للوزارة لزوم التنقيص من عدد العساكر فثار الجند وأحدقوا بقصر الخديوى متسلحين حتى بالمدافع بعد ان أرسلوا الى نواب الدول بالامن عليهم وعلى رعاياهم والاعلام بمقاصدهم وكان رئيس ذلك الاتحاد رجل من أهل مصر فى رتبة أمير ألاى فصيح اللسان ثبت الجنان اسمه أحمد عرابى فطلب هو ورؤساء الجيش الاجتماع بالخديوى فلما تيقن الخديوى جد طلبهم بواسطة خطاب قنسل الانكليز معهم تلقاهم فأعلموه بأن مطلبهم هو عزل الوزارة وولاية رئاستها الشريف باشا وجمع مجلس النوّاب واجراء قراره حقيقة وان تكون له الحرية اللازمة لمثله وانه لا يمس حقوق الاجانب وتعهدات الحكومة معهم فلم يسع الحال الا القبول جميع المطالب واجرائه ففعلوا وازداد عرابى نفوذا وانطلقت الالسن بالحرية فلما اجتمع مجلس النوّاب ألف قانونه الذى تبتنى عليه أعماله وكان من ✽ جملته انه له الحق فى الاطلاع على حساب الحكومة فى الحال وله الرأى فيه مع ان ذلك من خواص مأمورية المراقبة الفرانساوية الانكليزية فامتنعت وزارة شريف باشا من قبول ذلك لما تعلم من تداخل الدولتين فى الامتناع حتى يفضى الى التداخل فى السياسة فأصر المجلس على طلبه وأظهرت العساكر التعصب الى المجلس فاستعفى شريف ووزارته

ومن هنا انحرفت الاعمال عن القصد الجميل لما يوقعها فى الزوال لان العاقل ينظر لجميع مقتضيات الحال ونسبة قوة الدول فتباعده عن موجبات الفساد ولا تطلب النهايات فى البدايات كما هو القاعدة الشهيرة القائلة من طلب الشئ قبل أوانه عوقب بحرمانه وما بالعهد من قدم قدر أوتداخل الدولتين فى عزل الخديوى السابق حتى تم مرادهم فكيف يفتح لهم باب التداخل وهم بالمرصاد منهم لكن سبق القدر فلم يتدبروا واستعجلوا فاصروا على طلبهم ففوض الخديوى انتخاب الوزارة الى المجلس مع انه من حقوقه تطييبا لخاطر الاهالى فاستولى رئاسة الوزارة محمود سامى واستولى وزارة الحرب عرابى وابتدء أيضا من هذا الاعتراض عليه من العقلاء فى قبول الوزارة لان مقامه من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر يحجب بتلك الولاية ويصير له غرض خاص به من الارتقاء الى المناصب العالية سيما بعدان رقى من كان معه من رؤساء العساكر الى رتبة اللواء وقبل هو من الخديوى تلك الرتبة بعد الالحاح عليه فوافقت هاته الوزارة رأى المجلس وكانت اذذاك ألسن الاهالى وصحفهم بذية مطلقة بالقدح فى الاروباويين والتبجح بما هم عليه مما أسف منه عقلاء المسلمين فهاجت ضدهم صحف أروباجميعا وأشدهم الفرانساويون والانكليزيون حتى أبرقت وأرعدت دولتاهم متهددين بالحرب طالبين نفى عرابى وبعضا من رؤساء العسكر الذين رقوا الى رتبة اللواء وارجاع وزارة شريف ودحض مطلب مجلس النواب فى التداخل فى أمر المراقبة فوقع اضطراب وهيجان ظهرت فيه دعوى على بعض من العساكر الجراكسة بانهم قصدوا قتل عرابى باغراآت سرية منها المنسوب الى طاهر باشا أحد علائق اسماعيل باشا فنفى أولئك الجراكسة الى الآستانة وبقوا فيها تحت الحفظ مكرمين فى أحد البناآت السلطانية الى أن رجعوا بعد الحرب الآتى ذكرها فلما أصرت الدولتان على ذلك أعلن الخديوى بعزل الوزارة فثارت الاهالى والعساكر وألزموا الخديوى بارجاع عرابى الى وزارته وقدم اذذاك مرخص عثمانى وهو المشير درويش باشا ومعه عدة رجال لاقرار الراحة فى مصر بالوجه السياسى لان الاهالى أيضا أكثروا من التنويه بانتمائهم للدولة العثمانية ووردت منها افراد على الوجه الخصوصى من قبل لاراحة الاهالى وكان الخلاف بين عرابى والخديوى عند قدوم درويش باشا مشتدا حتى ظهر الخبر بأن الاهالى قدموا مضبطة بطلب عزل الخديوى بل جرى الطمع حتى الى اخراج الخديوية عن عائلة محمد على بالمرة وطلب أن تكون مصر مثل البلغار فى امتيازاتها التى منها اختيار الوالى وأن لا تتداخل فيهم الدولة العثمانية

العثمانية بشئ فى ادارتهم بل ربما تحرشت صحفهم بانها تتوسل بعساكرضدهم فانهم يقاتلونهم كما يقاتلون سائر الدول وحينئذ أعانت كل من فرانسا وانكلاتيره بلزوم ابقاء الخديوى ونفوذه وقطع مضادته بالقوة الجبرية غيران فرانسا تطلب أن تكون قوتها وقوة انكلاتيره هى الفعالة ولا تسمح للدولة العثمانية بذلك وانكلاتيره على ضدها تطلب مبادرة عساكر الدولة العثمانية لذلك فرأت الدولة العثمانية ان فصل النازلة يتم بدون احتياج الى قوة وأرسلت درويش باشا ومن معه لذلك وحصل من قدومه ما أغاظ كثيرا من الاروباويين لانقياد العساكر المصرية والاهالى للسلطان وامتثال أمره وابتدأ السكون والتوافق والرضى بالحصول شيئا فشيئا لكنه حدث فى اسكندرية التى كانت اذ ذاك مرساها غاصة بأساطيل الدول الاروباوية حادثة شنيعة وهى قتال بين المسلمين والنصارى السكان بسبب مشاجرة عادية فطبل الاروباويون بذلك وزمروا حتى توجه الخديوى ودرويش باشا وعرابى الى الاسكندرية لاقرار الراحة وأقر الدول ان الواقعة عادية لادخل لها فى السياسة غير ان أصل المسئلة من اصرار الدولتين على مطالبهم وامتناع أهالى مصر لازال على ما كان وفرانسا أشد اقداما وتهديدا باعلان الحرب وطلبت انكلاتيره عقد مؤتمر فى الآستانة لما يجب من العمل فامتنعت الدولة العثمانية من التداخل فيه لما لها من حق السيادة وحدها على مصر فرأت ان ذلك من باب تداخل الدول فى داخليتها لكنهم عقدوه ودخلت فيه الدولة العثمانية أخيرا وبينما هو فى التفاوض كانت العساكر المصرية تصلح فى حصون الاسكندرية حيث انها خربة ولا استعداد فيها الان الدولة العثمانية كانت حجرت على اسمعيل باشا تحصينها عندما أحكم حصن أبوقير جوار الاسكندرية وحصون دمياط وغيرها لما سبقت الاشارة اليه فى أخبار اسمعيل باشا ولما رأت أساطيل الدولتين ذلك التحصين ادعوا انه تهديد لهم وطلبوا الاقلاع عنه فامرت الدولة العثمانية بالكف عن التحصين وادعى المصريون الامتثال وادعى رئيس أسطول الانكليز عدمه وطلب دخول عساكره الى الحصون فتفاقم الخلاف وأطلقت النيران من الاسطول الانكليزى على الاسكندرية فخربتها فى نحو عشر ساعات وتضررت بعض مدرعاته وانحازت العساكر المصرية الى مكان يسمى كفر الدوار وجيشوا هنالك واستولت العساكر الانكليزية على الاسكندرية وبقى الخديوى فيها وانكشف الغطاء على مخالفة العساكر للخديوى وكان معه درويش باشا المذكور فرجع الى الآستانة وبقى مع الخديوى الكاتب الثانى

للسلطان واشتد الحاح انكلتيره على الدولة في ارسال العسكر ولم ترسل الدولة الى أن وقعت عدة محاربات برية كان النصر فيها للمصريين واستولت انكلتيره على برت سعيد وسائر خليج السويس وكان أكبر المعسكرات المصرية في التل الكبير بين القاهرة والاسماعلية وتضايق الانكليز فى لزوم قوة كبيرة لهم لاتمام قصدهم لان فرانسا لما فتح مجلس نوابها الاستشارته في حرب مصر انكر ذلك أشد الانكار فسحبت أسطولها وبقيت على الحيادة والدولة العثمانية وان وافقت أخيرا في ارسال عسكرها لكن تشدد الانكليز في جعله تحت أمرهم وأن لا يتصرف الا على نحو اشارتهم وأن يخرج متى ما أمروه بالخروج ألزم تأخر ارساله وكان تصرف العساكر المصرية بغاية الاحتراز من الافعال البربرية سوى ما صدر من افراد من العربان والفلاحين في جهات قليلة وبينما الامر على ذلك واذا بالدولة العثمانية نشرت اعلانا حسب طلب انكلتيره بان عرابى وكل من انحاز الى حزبه عصاة فلم يمض على ذلك بضع أيام الا وقد انحلت عرى التعصب المصري ودخلت العساكر الانكليزية الى القاهرة راكبة في الرتل بدون أدنى حرب ولا معارضة مع ان الجيش المصرى ومن انضم اليه من العربان وغيرهم المتجاوزون المائة ألف والخمسين ألف محارب باتم قوات الاستعداد فتفرقوا جميعا أيدى سبا في بضع ساعات وسلم عرابى نفسه أسيرا الى الانكليز فرجع الخديوى الى مصر وأقيم وكيل مدافع انكليزى عن رؤساء العساكر المصرية وآل الامر حسب ارادة انكلتيره ان حكم بعقاب عرابى لكن الخديوى عفا عنه لانه لم يفعل شيئا الا عن وفاق من يتبع وأبقى له مرتبا للقيام بنفسه ونفى هو وكبراء الرؤساء الى جزيرة سيلان في الهند وذلك هو التعليل الباطنى مع ان حزبا عظيما من الانكليز يرون ان جناية أولئك العساكر سياسية لا توجب القتل فلذلك حكم عليهم المجلس الحربى بالقتل لكن الخديوى عفا عنهم وأبدل القتل بالنفى ولم تزل العساكر الانكليزيه مقيمة بمصرور جالهم السياسيون هم مرجع الامر والنهى والوزارة تحت رآسة شريف باشا وناظر الداخلية الذى له كمال النفوذ رياض باشا وانكلتيره بصدد ترتيب حالة جديدة للسيرة السياسية داخلية وخارجية لمصر مع اعلانها بان مصر تحت سيادة الدولة العثمانية على امتيازاتها المقررة بالفرامانات السلطانية وان التراتيب التى هى بصددها لا تمس شيئا من حقوق الدولة ولا معاهدات الدول الاجنبية وتقلص نفوذ فرانسا في مصر ولم تزل غير مسلمة رسميا لانكلتيره بمرادها وللروسية ميل الى معاضدة فرانسا هذا ما وقع الى الآن وهو المحرم

سنة

سنة ١٣٠٠ وبه يعلم صحة ما كنا ذكرناه فى استيلاء فرانسا على تونس وكتبناه سنة ١٢٩٨ والله يفعل ما يشاء ويختار وله عاقبة الامور

﴿مطلب فى السياسة الداخلية المصرية﴾ اعلم ان مصر مملكة عثمانية لها امتيازات خاصة بينها الفرمان الصادر فى ولاية الخديوى محمد توفيق باشا وهذا نصه

الدستور الاكرم المعظم الخديوى الافخم المحترم نظام العالم وناظم مناظم الامم مدبر امور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالرأى الصائب ممهد بنيان الدولة والاقبال مشيد اركان السعادة والاجلال مرتب مراتب الخلافة الكبرى مكمل ناموس السلطنة العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى خديوى مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلا والحامل لنيشاننا الهمايونى المرصع العثمانى ولنيشاننا المرصع المجيدى وزيرى سمير المعالى توفيق باشا أدام الله تعالى اجلاله وضاعف بالتأييد اقتدار واقباله انه لدى وصول توقيعنا الهمايونى الرفيع يكون معلوما لكم انه بناء على انفصال اسماعيل باشا خديوى مصر فى اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٩٦ وحسن خدمتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولمنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا بان لكم وقوفا ومعلومات تامة فى خصوص الاحوال المصرية وانكم كفو لتسوية بعض الاحوال الغير المرضية التى ظهرت بمصر منذ مدة ولاصلاحها وجهنا الى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المعلومة مع الاراضى المنضمة اليها المعطاة الى ادارة مصر توفيقا للقاعدة المتخذة بالفرمان العالى الصادر فى ١٣ محرم سنة ١٢٨٣ المتضمن توجيه الخديوية المصرية الى اكبر الاولاد وحيث انكم اكبر اولاد الباشا المشار اليه وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية ولما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة كافة اهاليها وسكانها ورفاهيتهم هى من المواد المهمة لدينا ومن اجل مرغوبنا ومطلوبنا وقد ظهر ان بعض احكام الفرمان العالى الشأن المبنى على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المبين فيه الامتيازات الحائزة لها الخديوية المصرية قد نشأ منه الاحوال المشكلة الحاضرة المعلومة صار تثبيت المواد التى لا يلزم تعديلها من هذه الامتيازات وتأكيدها وصار تبديل المواد المقتضى تبديلها وتعديلها واصلاحها فتقرر اجراؤه الآن هو المواد الآتية وهى ان كافة واردات الخطة المذكورة يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهانى وحيث ان اهالى مصر ايضا من تبعة دولتنا العلية والخديوية المصرية ملزومة بادارة امور المملكة الملكية

والمالية والعدلية بشرط ان لا يقع فى حقهم أدنى ظلم ولا تعدى فى وقت من الاوقات لخديوى مصر يكون مأذونا بوضع النظامات اللازمة للداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة وأيضا يكون مأذونا بعقد وتجديد المشارطات مع مأمورى الدول الاجنبية فى خصوص الكمرك والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لاجل ترقى الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولاجل تسوية المعاملات السائرة التى بين الحكومة والاجانب أو الاهالى والاجانب مع أمورضابطة الاجانب بشرط عدم وقوع خلل فى معاهدات دولتنا العلية السياسية وفى حقوق متبوعية مصر اليها وانما قبل اعلان الخديوية المشارطات التى تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تقديمها الى بابنا العالى وأيضا يكون حائزا للتصرفات الكاملة فى أمور المالية لكنه لا يكون مأذونا بعقد استقراض من الآن فصاعدا بوجه من الوجوه وانما يكون مأذونا بعقد استقراض بالاتفاق مع المداينين الحاضرين أو وكلائهم الذين يعينون رسميا وهذا الاستقراض يكون منحصرا فى تسوية أحوال المالية الحاضرة ومخصوصا بها وحيث ان الامتيازات التى أعطيت الى مصر هى جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التى خصت بها الخديوية وأودعت لديه لا يجوز لاى سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الاراضى المصرية الى الغير مطلقا ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠ ألف ليرة عثمانية الذى هو الويركو المقرر دفعه فى كل سنة فى أوانه كذلك جميع النقود التى تضرب فى مصر تكون باسمنا الشاهانى ولا يجوز تجهيز عساكر زيادة عن ١٨ ألفا لان هذا القدر كاف لمحافظة أمنية ايالة مصر الداخلية فى وقت الصلح وانما حيث ان قوة مصر البرية والبحرية هى مرتبة من أجل دولتنا العلية يجوز أن يزاد مقدار عساكر بالصورة التى تستنسب حالة كون دولتنا العلية محاربة وتكون رايات العساكر البحرية والبرية والعلامة المميزة لرتب ضباطهم كرايات عساكرنا الشاهانية ونياشينهم ويباح لخديوى مصر أن يعطى الضباط البرية والبحرية رتبا الى غاية رتبة أمير الآلاى والملكية الى الرتبة الثانية ولا يرخص لخديوى مصر أن ينشئ سفنا مدرعة الا بعد الاذن وحصول رخصة صريحة قطعية اليه من دولتنا العلية ومن اللزوم وقاية كافة الشروط السالفة الذكر والاجتناب من وقوع حركة تخالفها وحيث صدرت ارادتنا السنية باجراء المواد السابق ذكرها فقد أصدرنا أمرنا هذا جليل القدر الموشح أعلاه بخطنا الهمايونى وهو مرسل بمعية افتخار الاعالى والاعاظم ومختار الاكابر والافاخم على فؤاد بك باشكاتب المابين الهمايونى ومن أعاظم رجال دولتنا العلية الحائز والحامل للنياشين العثمانية

والمجيدية

والجديدة ذات الشأن والشرف حرر فى تاسع عشر شهر شعبان المعظم سنة ١٢٩٦ من هجرة صاحب العز والشرف

(أما) كيفية الادارة فلما قدمناه فى وهذا تعلم أصول الحالة التى عليها حكومة مصر
التاريخ لا يتيسر لنا التصريح بالحقيقة التى يرسى عليها الحال لانها غير مستقرة كما علمت
وانما نقول انها الآن لها خديوى يتصرف بواسطة الوزراء على نحو القاعدة الاروباوية
وما عداها فذاهو موقوف الى الآن وهو سنة ١٣٠٠ ومن العجب ان يبقى الحال
هكذا على غير استقرار وكل حين يسمع انهم يريدون ان ينشئوا أساسات للادارة ولم
تظهر للوجود مع شدة التشكى من الاهالى من الحالة الراهنة التى ما لها عدم العلم
بمرجع الامر وعدم تعين المتصرف رسما ونهلا فان القوة الحربية بيد الانكليز وهم
أصحاب النفوذ لكنهم مصرحون بانهم لا يتصرفون فى الادارة وانها راجعة الى
الخديوى وحكومته وهؤلاء أيديهم قصيرة اذ كل شئ مرجعه صاحب القوة لاسيما بعد
ان استعفت وزارة شريف باشا وتولية وزارة نوبار باشا الذى علم ان لا مناص عن مجاراة
القوى مع تفاقم الثورة فى السودان التى كانت ابتدأت أواخر مدة اسمعيل باشا بسبب
تعدى المأمورين على رجل منسوب للصلاح يسمى محمد أحمد كان شيخ طريقة وله
اتباع فغارت منهم اتباع طريقة أخرى فاغروا بهم عامل تلك الجهة وهى دارفور فارسل
اليهم بعض اتباعه فخالفوهم وقهروهم وتكرر ذلك وكلما أرسل اليهم قوة كسروها
فحصل لمحمد أحمد شهرة الى أن ادعى المهدوية وكانت الاعيان والامراء من السودان
فى حرج من ادارة المصريين فانضموا اليه بتدبيرهم وأموالهم الى ان استولوا على أغلب
السودان المصرى وكسروا المصرية جيوش عظام أحدها يشمل أزيد من عشرة
آلاف قتلوهم عن آخرهم واستولوا على مهماتهم وفى اثناء ذلك دخل عسكر
الانكليز الى مصر فافتت انكلاتيره بفصل السودان عن مصر واستقلالهم بامرهم
متعللة بانهم لا نفع فيهم للحكومة مع ضيق مالها عن الوفاء بحربهم وكان ذلك سبب استعفاء
وزارة شريف باشا متمسكا بان ذلك لا يصح بدون أمر الدولة العثمانية المسلم لها
السيادة ولضرره بمصر أيضا لكن انكلاتيره أصرت على رأيها وأولت نوبار باشا
وفائدتها من ذلك هى تضعيف مصر واستمالة السودان بموافقتهم اليها لكنهم كانوا أشد
عليها مما كانوا مع المصريين فارسلت اليهم انكليزيا كان معاشرا لهم يسمى غردون
كان متوليا حاكما عليهم مدة اسمعيل باشا فحاول تسكين ثورتهم فلم يقبلوا منه صرفا

ولاعد لا فتحصن ببلاد الخرطوم وطلب القوة من دولته وكانت الوزارة اذ ذاك بيد حزب الحر بة فاظهر وا من التناقض فى القول والعمل مايتعجب منه فى ارسال القوة وأمرها بالتقدم تارة وبالتأخر أخرى الى أن فتح السودانيون الخرطوم وتم لهم جميع أمر السودان وحصل من مجموع لامور الحالة الراهنة فى تخضرم الامور وكثرة التشكى من الادارة التى هى على غير أساس فعقدت انكلاتيرة التى زمامها حينئذ بيد حزب المحافظين اتفاقا مع الدولة العثمانية هذا نص تعريبه (أولا) ترسل كل من الدولة العثمانية وانكلترا مندوبا عاليا الى مصر (ثانيا) يتدبر المندوب العالى العثمانى متفقا مع جناب الخديوى أومع من يعينه هو لهذا الغرض المبين فى الوسائط النافعة لتسكين السودان ويتفاوض المأموران والخديوى فى جميع التدبيرات التى يمكن بها تعديل الاحوال المصرية عموما ويكون اجراؤها برضاء الجميع (ثالثا) يباشر المندوبان العاليان ومعهما الخديوى اصلاح وترتيب العساكر المصرية (رابعا) ينظر المندوبان العاليان مع الخديوى فى جميع فروع الحكومة المصرية ويمكن لهم أن يدخلوا التعديلات التى يرونها لازمة فى كل ماهو داخل فى دائرة الفرامين السلطانية (خامسا) يقع الاعتراف من طرف السلطنة العثمانية بجميع المعاهدات العمومية الاجنبية التى عقدت مع الحضرة الخديوية وذلك اذا لم تكن مخالفة للامتيازات المضمنة فى الفرامين السلطانية (سادسا) عند مايرى المندوبان العاليان ان هناء الحدود استقر وصارت سيرة الحكومة المصرية مستحسنة وأمرها راسخا يقدم كل منهما تقريرا الى دولته لعقد الاتفاق باخلاء العساكر الانكليزية البلاد المصرية فى وقت مرضى (سابعا) يقع امضاء هاته المعاهدة فى ظرف خمسة عشر يوما وتكون مبادلتها ممضية فى القسطنطينية اهـ وقدم المرخصان المشار اليهما فى الاتفاق وعند وصول المرخص العثمانى وهو مختار باشا احتفلت به الحكومة أزيد من احتفالها بالمرخص الانكليزى الذى كان سبق صاحبه (وأما) الاهالى فاحتفلوا بالثانى فقط وعند ملاقاتى معه للسلام مع جمع من الاعيان أنشدته هذين التاريخين أولهما

الى الخليفة تنمى دام منتصرا * قد احتفلنا هنا أرخ بمختار كم

وثانيهما بشرى الهناء لعموم أهل المصراذ * اصلاحها أرخ بمختار نجز

وبقى المرخصان بمصر وهما مباشران الآن للنظر فى الاصلاح وتأسيس الادارة على أصول راسخة فهذا ماوقع الى تاريخ طبع هذا المحل وهو ربيع الثانى سنة ١٣٠٣

مطلب

﴿مطلب فى السياسة الخارجية﴾ الاسباب التى بيناها فى احكام الداخلية هى بعينها جارية فى الخارجية والامور بيد الانكليز وجميع الدول مسلمة بذلك الا فرانسا فصرحت بالاعتراض وبمقتضى ما ذكرنا فى سلطة فرانسا على تونس يظهر ان رجحان الانكليز يتم فى مصر سيما وهم متخذون طريقتهم فى جلب الاهالى اليهم قولا وفعلا باعراضهم عن تحريتهم وسائر عوائدهم واصولهم كما هو ديدنهم فى الممالك التى لهم فيها النفوذ لكن الاهالى مصرون على النفور لان التصرف الانكليزى كان فى مصر على صورة لم تعهد من أحد قط لانهم فى الرسم معلنون بانهم لا يأخذون مصر ولا يجعلونها تحت حمايتهم وفى نفس الامر القوة بيدهم ولا يصدر شئ الا عن ارادتهم الى أن حصلوا على الاتفاق المار ذكره فى المطلب السابق مع الدولة العلية فحينئذ صار لهم حق المداخلة برضاء صاحب الحق اقناعا للدول لان بعضهم وهى المانيا أشارت بالتعريض صراحا على انكلتيره بتصريحها بالاستيلاء على مصر والنمسا موافقة لها وايطاليا كذلك مع مزيد التحام بانكلتيره فى المساعدة حتى أدخلت عساكرها الى مرسى مصوع وأعلنت بالاستيلاء عليها لكنها لا تمس حقوق الدولة العثمانية وهو كلام لا يعقل ولا مفهوم له الا عدم التصريح بالاستخفاف وأغرب من ذلك ان الدول أجابوا الدولة العثمانية لما طلبت منهم التداخل مع ايطاليا فى خرقها حقوق الدول بانهم لا يتداخلون حيث صرحت ايطاليا بمراعاة حقوق الدولة (وأما) الروسيا فلم تبد ممانعة ولا موافقة (وأما) فرانسا فكانت ممانعة للانكليز لكنها منذ رأت الدول الكبيرة موافقة على نحو ما رأيت وقد تكفلوا بان تكون عليهم جميعا كفالة قرض الى مصر قدره تسعة ملايين ليره ومع ذلك كله فان الانكليز امتنعوا من الاستيلاء الرسمى أو وضع الحماية كذلك بل حتى من كفالة القرض المذكور وحدهم لخوفهم من كونهم اذا فعلوا ذلك فتحوا بابا للدول فى اضرار بالدولة العثمانية ويرجع ذلك الى عدم معرفة ما تأخذه كل دولة وبترجح به ميزانها فربما رجحوا على انكلتيره ولذلك مالت الى ذلك الوجه من التراضى مع صاحب البلاد وكان لها وحدها حق برضاه لعلها تخلص من اضرار الدول بالدولة العثمانية الآيل عليها بالضرر أيضا لكن الاساغة الى الطليان فى الاستيلاء على مصوع مع تلك الدعوى التى أقرت الدول بانها كافية فى اقناع الدولة العثمانية هل يبقى معه الدواء الذى ارادته انكلتيره وهو ان تداخلها لم يكن الا بالرضى الظاهرى فان كل دولة يسوغ لها ان تستولى على بلاد الاخرى وتقول لها انها لا تمس حقوقها والكلام وحده سهل فالحاصل ان السياسة التى

وقعت من الدول فى مصر وبالخصوص من الانكليز أمرها عجيب واختراعها غريب ولله فيهم علم غيب هم صائرون اليه

﴿مطلب فى بعض صفات وعوائد المصريين﴾ أما أهل مصر الاصلية فهم مختلطون من العرب الفاتحين وأبناء القدماء المعروفين بالقبط وأبناء الروم الذين امتلكوا مصر نحو الستمائة سنة ولون الجميع أسمر الا قليلا من أبناء الترك والمغاربة وغيرهم من الوافدين الى هنالك ولهم حسن أخلاق وظرافة وبشاشة فى الخطاب واذا احتدت نفوس الرعاع للخصام تراهم بذيي اللسان لهم مهارة فى أصناف السب حتى اذا بلغوا الى حد التضارب قال أحدهما لصاحبه (ماعليهش) فتسامحا وعادا الى المصافاة ومن أخلاقهم حب السماع لكنهم اختصوا بكثرة اظهار استحسانه بالتأوه مع رفع الصوت ولا يتحاشى من ذلك حتى بعض أعيانهم بل انهم يستأجرون أناسا معدين لذلك لكى يصرخوا بالتأوه حتى تحجب أصواتهم صوت الموسيقى والمغنين وتمضى الحصة كلها هكذا ومن عاداتهم احضار قراء القرآن فى بيوتهم ليلا للتلاوة بالانغام ويعطونهم أجورا على ذلك بل من الغريب ان بعض القبط أيضا يفعلون ذلك ومن عاداتهم فى السلام انه اذا دخل الداخل يقف له جميع الحاضرين فيشير بيده للسلام هاويا بها نحو الارض ويرفعها الى رأسه فيجيبونه بنحو ذلك ولا يقع منهم التقبيل الا ليد العالم على ظهرها أو القادم من سفر يقبل فى كتفيه وسلامهم مع الامراء والكبراء هو بالاشارة أيضا لكنه فيه تعظيم كبير بان يدخل الداخل قابضا يديه الى صدره ويقرب خطاه منكسا رأسه مجللا بالخطا حتى اذا لصق بالرئيس هوى الى الارض كانه يريد تقبيل رجله أو ذيل سترته ويمسك الذيل ثم يجعل يده على فيه ثم جبينه والمتواضع من الكبراء المسلم عليهم يضم ذيله اليه كانه يمتنع من ذلك ويقول أستغفر الله أستغفر الله وغيرهم لا يفعل ذلك لكن أكثرهم متواضع وكلهم يقفون للداخل كبيرا كان أو صغيرا الا الحقير بالمرة مع العظيم جدا ويتكرر الوقوف الى الداخل مهما تكرر دخوله الا اذا كان خادما أو صاحب شغل وأكثر ركوب المصريين على الحمير الا العرب فالخيل وتوجد فى المدن العجلات للركوب على أنواع شتى وسائقوها أسوأ أخلاقا من أمثالهم فى سائر البلاد وان كانوا فى الجميع غير مستقيمين واذا ركب أحد الاعيان عجلته جعل أمامه رجلا يركض وهو لابس لباسا مزركشا وبيده عصا طويلة وهو حافى الرجل ويصيح بالمارين ليستيقظوا للعجلة وما أصبرهم على الجرى وما أجراهم حتى اذا خرجوا من البلاد وقفوا وذهبت العجلة فاذا رجعت الى البلاد رجع جاريا

جاريا أمامها والمصريون أهل جد وكد فى أشغالهم لا يميلون الى البطالة بل يقبلون على أشغالهم من غير فتور ويوجد عندهم السؤال المحزون المخفون حتى انهم اذا رأوا من أعطى سائلا يكادون أن يسلبوه ثيابه غصبا من الالحاح بل ربما أضروه فى بدنه فالاصلح بالانسان ان لا يعطى الاسرا لمن يعلمه حقيقة محتاجا اذ السؤال صار صناعة لتلك الفرقة ولهم رؤساء وعليهم أداء مقدر ولهم وقائع عجيبة فى الغنى وكتمانه فقد ذكر لى ثقة انه فى حدود عشرة السبعين من القرن الثالث عشر كان أحد الشحاذين مارا فى الطريق فسقط منه كيس وكان بمرأى من أحد الضابطة فايقظه لذلك فلما علم به انه ضابطى انكر ان يكون الكيس له فالح عليه الضابطى وآل الامر الى المشاحنة حتى بلغ الى رئيس الضابطية فامر الشحات باخذ كيسه الذى وجد به عدد كثير من الابرات الذهب فامتنع وأنكر ان يكون له حتى جلده رئيس الضابطية جلدا وجيعا وهو مصر على انكاره فاطلق سبيله وجله شيخ الشحاتين وداواه من ضربه وشكر صنعه كل بنى جنسه وأدوا له جميع ما خسره فى الكيس وزيادة لانه لم يظهر عليهم أثر الغنى لكى لا يحصل عليهم ضرر ولكى لا تقسى عليهم القلوب ولهم وقائع كثيرة من هذا القبيل مع أيادوصنوف فى الالحاح والتضرع تفتت القلوب ولم أر فى البلاد مثلهم قط ويغلب على الجميع الوسخ فى الثياب وفى البيوت والديار الابعض الاعيان ومن نحا نحو الافرنجى وأكثر ذلك فى الفلاحين وأصحاب القرى بل ان هؤلاء لا يستحيون من كشف العورة نساء ورجالا (وأما) أهل النوبة وبقية السودان والعرب فقد تقدم فى التاريخ أصلهم وأما عاداتهم فالسودان وان كانوا قريبى الطبع من الهمج لكنهم أحذق أنواع السودان وأقربهم للتمدن سيما من خالطوا العرب فكانوا امثالهم وأما العرب فهم على نحو الصفات التى ذكرناها فى عرب تونس ومن عادات الجميع ان مبدأ توقيت الساعات عند الغروب فيجعلون اذ ذاك عقارب الساعات فى الساعة الثانية عشرة وهى مبدأ الحساب عندهم وما يقابلها من الاثنى عشر ليس لها وقت معين بل هى على حسب ما يصادف وهذا أول رؤيتى لذلك وعليه عمل جميع الجهات الشرقية (أما) جميع الاقطار التى مر ذكرها كلها فانها تعدل على الزوال أى الزوال هو الساعة الثانية عشرة وتنتهى الى نصف الليل فتبتدئ الساعات الاثنتا عشرة التى هى تمام الاربعة والعشرين ساعة المقسم عليها الليل والنهار ولا شك ان اعتبار الزوال أصح فى التأقيت لانه لا يختلف عن زمنه سواء طال النهار او قصر بخلاف الغروب وذلك لان الزوال عبارة عن توسط الشمس فى قوس النهار وخط نصف النهار يقسم جميع أقواس

النهار بالسواء أعنى أقواس طوله وقصره فلا يختلف الزوال عن وقته بخلاف الشروق والغروب لان الشمس تنتقل عن محلاتها كل يوم وبذلك يكبر قوس النهار أو يصغر فتجد الغروب دائما امامتقدما عن زمنه بالامس أومتأخراعنه حسب سير الشمس فى طول النهار وقصره بحيث انك اذا حررت الحساب تجد من زوال يومك الى زوال غده أربعة وعشرين ساعة تامة واذا حررته من الغروب الى الغروب القادم تجدها أربعة وعشرين ساعة الادقائق فى أوقات زيادة النهار فى القصر أوأربعة وعشرين ساعة ودقائق زائدة فى وقت زيادة طوله لكن كان عدول الشرقيين عن التأقيت الذى لايختلف هو محاذاة الشرع فى اعتبار مبدأ اليوم من الغروب وان لم يكن بينهما تلازم

❊ ﴿مطاب فى الاحكام بمصر﴾ الاحكام بها الآن على ثلاثة أنواع (النوع) الاول الشرعى الاسلامى وهو فى كل مايرجع الى الزواج والطلاق والوقف وغيره ممايرجع الى أحوال الديانة فى المعاملات وهذا له قضاة ومفتون على المنهاج الشرعى وان أحدث فيه مصاريف يأخذها القاضى على الدعاوى مع بعض عوائد تجحف بالخصوم مما أوجب التشكى من ذلك والنوع الثانى بقية المعاملات بين سائر الاهالى ولها مجالس سياسية (ومنها) الضابطة تحكم بحسب قوانين سياسية موافقة للشرع غالبا وتارة بحكم الحاكم باجتهاده كما فى سائر الاقطار السودانية والنوع الثالث المعاملات التى بين الاهالى والاجانب فلها مجالس مختلطة من سائر الاجانب يحكمون بقانون عقلى ملائم لعادات القطر وعلى الاجمال فاهل مصر لهم الحرية الشخصية فيما يرجع الى الديانة وشعائرها حتى صارت المنكرات جهرا ولا يقدر الاب على منع ابنته من مثل ذلك بالحكم اذا بلغت سن الرشد وأما بقية الحرية الشخصية وهى أمن الانسان على نفسه وماله وعرضه الا بحق فهذا كانه موجود فى العموم لكن اذا أراد الحاكم المخالفة فالحيل ممكنة وأما الحرية السياسية وهى مشاركة العامة للحكومة فى الرأى فالتحقيق انه غير موجود وان كانت الصحف تتكلم فى السياسة لكنها مخصوصة بالسياسة الاجنبية أما القدح فى تصرفات الحكومة فهو ممنوع نعم لبعض الصحف المستند أصحابها على خصوصيات عينية القدح فى سيرة بعض افراد لمنفعة خاصة والامر موقوف على مايستقر عليه الحال من الترتيب السابق ذكره فى أحوال السياسة

﴿مطاب فى تجارة مصر﴾ التجارة بها متسع جدا فى السلع الوطنية والهندية والسودانية والاروباوية وأغلب الاروباوية فى يد الاجانب (فاما) غيرها فبيد الاهالى

ولهم

ولهم براعة فى الاكتساب ولكنهم قليلوا الاسفار فلا تكاد تجد منهم خارج مصالحهم الا النادر وكل من أقام بمصر من الغربا ربح الربح الحسن من التجارة لان محصولات الاقطار كثيرة فيخرج منها أنواع كالقمح والشعير والفول والتمر والعدس والذرة والارز والسكر وهو جيد كثيرا وقصبه والصمغ وفيه أنواع شتى والنطرون والصوف والافيون والعصفر والجلود والحصر والقطن وهو الغالب وفيه أنواع جيدة وبزره وكذلك سن الفيل وريش النعام والمنسوجات الكتانية وغيرها وهذا كله يصدر منها أما الداخل اليها فأهمه الجوخ أى الملف والحرير والشاشية والزرابى على أنواع والاخشاب للبناء والوقد والعنبر والنقل كالفزدق والجوز والاشربة والبن والصابون والدخان والورق والشمع والزجاج والنحاس وغيره من المعادن مصنوع وغير مصنوع والفرش الصوفية وغيرها بحيث ان مصر مسابقة لاروبا فى الغنى بالتجارة وأنواعها مختلفة منها ما هو على النحو الاروباوى كالتجارة فى الرقاع الدولية والتجارية ولها مرسى عظيم فى الاسكندرية وكذلك البريد فيها على غاية الانتظام برا وبحرا خاص بالحكومة وتأتى اليها أيضا برد أجنبية بحيث لا يخلو يوم من ورود بريد اليها من الاقطار مع السفن التجارية الكثيرة ومنها ما هو على النحو البربرى من التجارة فى القوافل الى دواخل السودان والصحراء واهمها القوافل السنوية وهى قافلة دارفور وقافلة الحبش وقافلة فزان ولكل منها عند وروده يوم حافل وكل منها تأتى بتجارة ما والاها من دواخل افريقية ولو زاد تسهيل الطرق والاعتناء بما فى السودان لاستغنت عن الخارج وزادت ثروتها للنهاية فان فى السودان كنوزا مكتومة ودونك قيمة قوة التجارة مع الممالك الخارجية لتعلم منه ما يفضل سنويا من المال فى المملكة

٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٣٦٠	قيمة السلع الخارجة منها
٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ١٦٠	قيمة السلع الداخلة سنة ١٢٨٩ نحو فرنك
٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٢٠٠	الفاضل

فلولا فائض الدين الاجنبى الذى يخرج سنويا الى أروبا حيث كان أغلبه بيد الاجانب لكان يبقى سنويا فى مصر مائتا مليون فرنكا ولكن مع ذلك أيضا فلا أقل أن يبقى فيها خمسون مليونا كل سنة هذا فضلا عن حركة التجارة فى داخل المملكة وبين أقسامها

(مطلب فى الصنائع بمصر) عنصر الصنائع مخطط بها نسبة لتقدمها وان كان بها بعض المنسوجات الحريرية والقطنية وغيرها كالفخار والنجارة حتى فى السودان لكنها متأخرة

مما يعجب لها نعم ان الفلاحة من الصعيد الى نهاية بحر الروم هى فى غاية التقدم وللفلاحين معرفة جيدة بكيفية رى الارض حتى بالآلات البخارية الرافعة للماء من النيل والترع وبكيفية اثارة الارض وتعميرها فلهم اليد الطولى فى ذلك وترى الفلاح بنسائه وبناته يشتغل آناء الليل وأطراف النهار واصحاب الفلاحة من الاعيان لهم منازل فى أراضيهم لمباشرتهم الاعمال ولهم ثروة عظيمة من ذلك أما أنواع الفلاحة فهى زراعة القمح والشعير والفول والعدس والحمص والترمس الذى يتخذ منه الاشنان والكتان وخس الزيت والسلجم لما فيهما من الزيت والبرسيم والجلجلان والبلة والحلبة والقرطم وهو حب العصفر والخشخاش والخردل وغير ذلك من الخضروات والحبوب والقطن على أنواع لذاته ولبزره ليخرج منه الزيت للصابون والتسريج وكذلك قصب السكر الرفيع ويزرع أيضا التبغ المستعمل للتدخين والفول السنارى فى كل من السودان ومصر وهو صالح للاكل ويستخرج منه زيت جيد لذيذ لا رائحة له ولا طعم واذا اشعل ليس له دخان مثل غيره (وأما) الاشجار فلا يكثر عندهم الا النخل فى جميع الجهات والزيتون استنبت لكنه ردئ الزيت لكنهم لهم حبوب أخرى زيتية كالسمسم والخروع غنية جدا (وأما) البردقان والليمون فهو قليل والموز كثير غير لذيذ وعندهم شجر الدوم الشبيه بالنخل وكذلك الاهليلج ويزرعون الزهور الطيبة مثل الورد والياسمين وغيرها والاشجار الغير المثمرة قليلة كما تقدم تفصيله فى التعريف بمصر وأيضا قد وجد اعتناء بأنواع من الصنائع سيما التى تمس اليها حاجة الحكومة فتقدم فيها الاهالى كصناعة الاسلحة والبوابور وتوجد معامل للحكومة منها نحو عشرين للسكر متقنة ومعمل آخر لسبك أحرف الطبع وتجليد الكتب ومعمل للسلاح وآخر للسفن وحوض لها وآخر للجوخ وآخر للدبغ وآخر للورق وكلها على النحو الارو باوى المتقن ويمكن أن تقوم بنفسها من الاهالى حتى فى صنع المدافع والبنادق من الطرز الجديد وللاهالى أيضا عدة معامل فى صنوف شتى (وأما) الجهات السودانية فكثير من أراضيها وان كانت صالحة للزراعة لكنهم يهملونها فلا يوجد منها الا القليل حول المدن واشتغالهم انما هو برعى الغنم والخيل والابل وصيد الوحوش النافعة للتجارة كسن الفيل وريش النعام وجلد الاسد والنمر وتحصيل الذهب من معدنه الملقى بالطبع كالتبر من سنار والصحراء وغيرها

﴿مطلب فى المعارف بمصر﴾ العلوم الشرعية كلها نافقة فى القاهرة وكفى بالجامع الازهر

مدرسة

مدرسة العلوم عامة فقد دخلت اليه ووجدته يزاروج بالدروس والتلامذة ولهم طريقة حسنة في سرعة ختم الكتب اقراء بحيث ان كل كتاب لهم فيه مدة معينة لا يسوغ مجاوزتها ولا يخرجون في التقرير عن الشارح والحاشية المعينة للاقراء ووجدت عندهم اعتناء في الاقراء بالحواشي بحيث لا يقرا كتاب بلا حاشية معينة يتفق عليها الشيخ والطلبة ولهم اصطلاح في الاوقات للعلوم مثلا الصباح كله الى الزوال للعلوم النقلية كالفقه والحديث الخ والمساء للعلوم العقلية كالنحو والبيان الخ ويقرأ فقه المذاهب الاربعة وللازهر شيخ هو مثل شيخ الاسلام له النظر على سائر العلماء وتوظيفهم وكثير من التلامذة يقيمون بالازهر في رواقات خاصة وتجد صحن المسجد ملآن بالتلامذة المطالعين والحافظين للمتون وغيرها وفي كل من الاسكندرية ودمياط وطنطا جوامع حافلة بالعلوم الشرعية وفي بعض مدن السودان أيضا مثل سنار وهرر كذلك ومن عاداتهم جميعا في الدروس التطويل حتى يبلغ الدرس الى ثلاث ساعات ولا أقل من ساعة ولذلك كان للتلامذة الاطلاق في هيئة الجلوس بل حتى يتكئون على جنبهم ووجوههم ويأكلون وينامون وهم في الدرس (وأما) العلوم الرياضية فلها مدارس عديدة منها للابتدائيين ومنها للانتهائيين جامعة لتعلم اللغات كالتركية والفارسية والانكليزية والفرانساوية ولتعلم الطبيعيات والفلاحة والهندسة والحساب والجبر والهيئة والفلك والطب والتشريح العامي والعملي والكيمياء وتركيب الادوية وسائر العلوم ومعلموهم من الاجانب والاهالي وفي المدارس سائر الآلات والكتب المحتاج اليها ومنها ما هو مجانا ومنها ما هو بالاجر من التلميذ ومنهم المقيم ومنهم المتعلم فقط وكذلك المدارس الحربية وهذا كله خاص بالقاهرة وتليها الاسكندرية (أما) بقية البلدان فلا يوجد بها الا المدارس الابتدائية في بعض مدن والبقية انما يوجد بها مكاتب للقرآن والخط وبعض من العلوم الشرعية في بعض من الجوامع لكن لا توجد بلدة ولو قرية صغيرة بدون مكتب وقد أخذت هاته المكاتب الابتدائية في التحسين حتى شملت تعلم مبادي الحساب والعبادات والعقائد ورأيت في جغرافية فكري احصاء في سنة ١٢٩٢ لاحوال المعارف دونك خلاصته

تلامذة	مكاتب ومدارس	معلمين
١٤٠٫٩٧٧	٤٨١٧	٦٠٤٦

ولا شك ان العدد تزايد من ذلك التاريخ فلا شك انها في غنى عظيم بالمعارف والعلوم

النهائية الرياضية يكملون تحصيلها فى الممالك الاروباوية ورأيت من تلامذتهم فى باريس ولندره وجنيف وغيرها ورأيت فى مصر وبواخرها سائر العاملين والرؤساء من الاهالى والاجنبيون متوظفون لا للضرورة بل لدواع أخر ولهذا وقع التشكى المشار اليه فى مبحث التاريخ وقد كثرت المطابع وطبعت فيها الكتب مما جعل سائر المسلمين ممنونين لهم وكذلك كثرت الصحف الخبرية يومية وأسبوعية لكنها فى الحرية على حسب حالة الحكومة

﴿مطلب فى هيئة المساكن﴾ البناء الجديد كله على النحو الاروباوى ظاهرا وباطنا سيما محلات الحكومة ورجالها (وأما) الابنية القديمة والمعتادة للاهالى فليست بجميلة الظاهر بل انه لما كان الطين الذى يبنون به مسودا من أصل لون التراب ولا يضعون فيه الجير الا قليلا حيث كان غالبا ولا حاجة اليه لقلة المطر أو انعدامها عندهم ثم انهم لا يطلون ظاهر البناء على الطرق ولا يبيضونه فصار منظره بشعا وان كانوا يتأنقون فى الرواشن الخشب بالنقش والهيئة لكنهم أيضا لا يصبغونه فيكون لونه مكدرا وصورة عموم الديار ان يكون فيها دهليز ووسط غير مسقوف يحتوى على بعض بيوت لجلوس الرجال والضيوف ووضع بعض المرافق ومحل لغسل الثياب والطبخ محجوز للنساء كل ذلك فى الطبقة السفلية ثم باب ودرج فى الغالب غير حسنة يتوصل منها للطبقة العليا فتجد فيها عدة بيوت أغلبها مائل الى التربيع وبكل منها طواقى للضوء والنظر وتجد أيضا كنيفا بالوعته مكشوفة وغالبا تحصل منه رائحة كريهة وغالبا تكون البيوت والدرج غير مبلطة ويستعوضون عن ذلك بفرش الحصر والزرابى فى البيوت ويجعلون عليها للجلوس اما مساطب من خشب أو تبن وعليها مقاعد محشوة قطنا وعلى الابواب ستارات ليست بانيقة وانما هى من منسوجات القطن وحول المقاعد متكئات يابسة محشوة تبنا وعليها أغطية رقيقة من القطن ولا يزيد البناء على طبقتين غالبا وأما الاعيان فتكون ديارهم على ذلك النحو لكنها أكبر وأنظم وأنظف وربما زادت طبقة ثالثة الى السابعة فى القديم والمفروشات تكون حريرية وصوفية جميلة مع تزيين البيوت بالمرايات والساعات والادوات الصدفية والذهبية والفضية على حسب الرفاهية ويكون فى الطبقة السفلى التى للرجال دواوين كبرى وفى أطرافها دكة من البناء عريضة للجلوس عليها والجميع مبلط بنحو الرخام والكذال وعند الجميع فرش النوم عدة فرش محشوة قطنا أو صوفا خفيفة يوضع بعضها فوق بعض من اثنين الى ثلاثة توضع ليلا عند النوم وتسوى بالوسادات واللحف

وتارة

وتارة يوضع عليها ناموسية ثم يرفع جميع ذلك صباحا ويوضع فى خزائن فى البيت معدة لذلك ويبقى البيت للجلوس فليس لهم فرش دائمة ولا مكان خاص بالنوم وخدمتهم من ذلك فى تعب كبير وتلك العادة جارية عند جميع المشرقيين فيما رأيت من البلدان لكن من اتخذ تقاليد الاوروباويين صارت بيوتهم ودبارهم ومفروشاتهم ونومهم كله على نحو ما ذكرنا فى بلاد أروبا ومما تعجبت منه فى مصر رؤيتى للزرابى مفروشة وغير ذلك مما ذكرناه مما يزيد فى الحر مع ان قطرهم حار وكان الاولى به الرخام والزليز وغير ذلك مما يبرد المكان ويروق هواءه لكنى لما تذكرت قاعدة الناس على مذهب أمرائهم زال عنى التعجب وذلك ان أمراء مصر منذ مدة طويلة وهم من الترك وهؤلاء بلادهم باردة فجروا فى مفروشاتهم على ما اعتادوه فى بلادهم وقلدتهم الاهالى وحتى العائلة الخديوية الآن لم تزل ناهجة منهج شارة الترك واصطلاحهم بحيث لا يشك الرائى انها قسم من الدولة التركية لما يرى من أسلوب جميع حركاتهم وهيئتهم هذا (وأما) الطرقات فالجديد منها متسع ثم فيه العجلات والقديم فى ضيق عظيم لا يكاد يتخلله الهواء وكلها غير مبلطة الا اسكندرية لان المطرقليل النزول عندهم أو مفقود الا فى اسكندرية وفى كل بلد نظارة لنظافة الطرق والتنوير ليلا وتحسين البلاد على حسب التيسير اذ لم يزل العمل متماديا فى توسيع الطرق ومصيبة ضيق الطريق عامة فى سائر بلدان المشرق التى رأيتها وكان ذلك فى الاقاليم الحارة لشدة الحر فاذا ضاق الطريق لا تنزل الشمس الى الارض لارتفاع الابنية فيقل الحر نوعا ما لكن ذلك مضر بالصحة لصعوبة تخلل الهواء وكثرة الندى ومخالف للشرع أيضا لان المشروع فى الطرق ان يكون عرض المعتاد منها سبعة أذرع والطريق العام اثنى عشر ذراعا والبطحاآت التى من المشروع أيضا ان تكون أمام المسجد تكون ستين فى ستين كما نص على ذلك فى الفقه والسير وصرح به مكتوب الخليفة الثانى سيدنا عمر رضى الله عنه الآمر برسم الكوفة ومما ذكره ان لا تزيد طبقات دورها عن طبقتين والوجه فى ذلك هو ان الدار اذا اشتملت على أكثر من طبقتين سكن بها أزيد ممن يسكن فى طبقتين فتصغر البلد مع انها بلاد اسلامية منشأة فى وجه العدو فالاصلح تكبيرها وأيضا فساد الهواء من كثرة الاجتماع فى محل واحد ضيق المساحة اذا كان ذا طبقات كثيرة وأيضا تعب الساكن بكثرة الصعود وأيضا كثرة التعب والاسراف فى مصروف البناء اذا علت الطبقات لان المصروف فى الطبقات العليا أزيد بكثير من الطبقة السفلى لما يحتاج اليه من كثرة العملة وأيضا فيه نوع من الكبرياء

والغبار المنهى عنه شرعا وعلى هذا فضيق الطريق قبيح شرعا وعقلا وحر الشمس يدفع بما يجعل من المظلات والسقوف كما هو واقع فى عدة جهات من مصر فى الاسواق بل وفى الطرقات أيضا من سقوف خشبية بعضها محسن وبعضها ليس فيه الا دفع اذاية الشمس والطرقات فى القاهرة ترش بالماء عدة مرار فى اليوم حتى يحصل فيها نوع طين والطرق الجديدة العامة كلها محصبة الارض وحواليها الاشجار المظلة والقليل من الديار بها جنينات وبها ماء النيل جار فى القنوات والغالب ان يأتى السقاؤن بقرب أو براميل من ماء النيل غير المصفى ويخزن فى الديار فى جرار كبيرة وكل دار لها عدد معلوم يأتى لها به السقاء بثمن معين

(مطلب فى اللبس بمصر) (أما) لبس رجال الحكومة العادى والرسمى فهو على النحو الافرنجى غير ان الشارات والعلامات هى تركية صرفة حتى الشاشية والسترة والنياشين هى ذات العثمانية باسمائها (وأما) لبس الرجال فاهل المدن الاعيان يلبسون قميصا وسروايل واسعة يربطونها تحت القميص ويسدلون القميص عليها وهو طويل الى نحو نصف الساق ويلبسون عليه صدرية مقفولة الوسط بعقد وفوقها قفطان طويل الى الكعبين ويداه تصل الى أصابع اليد ويطبقونه على صدورهم ثم يتحزمون عليه بحزام ويلبسون فوق جميع ذلك جبة طويلة أيضا الى حد القفطان ومقدمها مفتوح الى الاسفل ويداها ضيقتان الى أسفل المرفق والجميع من الحرير من منسوجات رفيعة وعلى رؤسهم شاشية تونسية وعمامة قليلة الطول ملفوفة على نحو العمامة التونسية وهو لباس العلماء وكبراؤهم يزيدون فوق الكل جبة واسعة جدا وواسعة الاكمام أيضا وبعضهم يلبس العمامة عوضا عن الجوخة والقفطان (وأما) الاواسط وبعض التجار فيلبسون القميص من أسفل وفوقه صدرية مثل السابقة وفرملة أى صدرية غير مقفولة ومنتان يصل الى الحزام وسروالا واسعا جدا طويل الالية الى الارض اسود اللون ويتحزمون به فوق القميص وعليه حزام والجميع من المنسوجات الرفيعة المخيطة والمزينة بخيوط من الحرير حتى تصير كلها مزينة وفى الشتاء يلبسون فوق ذلك كبوطا من الجوخ يصل الى الركبة وعلى رؤسهم شواشى تركية وحدها أو معها عمائم هندية مطرزة بالحرير (وأما) الاسافل والخدمة فيلبسون من الشكل الاول الى القفطان وفى الاكثر يكون من قطن أبيض وعليه بنطلون افرنجى وشاشية تركية أو تونسية والفلاحون وأهل القرى يلبسون قمصا زرقا وعراقية لبس الاولا يلبسون فى أرجلهم شيئا (وأما) بقية الاصناف فيلبسون الاحذية على أنواع شتى من الانواع الافرنجية أو نوع

من

من الحذاء أحمر بلا قدم عال ومن جهة الاصابع يكون مخروطا منحنيا مخروطه الى أعلى
(وأما) النساء فالصنف الاسفل يقتصر على القميص ولا يتستر فى الطريق بل رأيتهن
يخدمن فى آلات البناء وبناوان الحجر والطين وغير ذلك مثل الرجال وهن مشوهات الوجوه
(وأما) الاواسط والاعالى فبعضهن صرن يلبسن مثل نساء الافرنج تماما سواء غيرانهن اذا
خرجن فى الطريق يلبسن رداء من حرير ويتنقبن بصفيق من الحرير أو القطن على
أنوفهن فما دونها وفى الحقيقة وجوههن كله مكشوف واذا ركبن فى العجلات تكون
طواقيها مفتوحة غير انهن يسدلن ستاراتها نحو النصف من الطاقة والبعض الآخر
الذى لم يزل على العادة القديمة فيلبسن على القميص فرملة مزركشة بالفضة وعليها
عباءة رفيعة وعلى رؤسهن مخروطات من ذهب أو فضة أو نسيج رفيع وكل ثيابهن يصل
الى الكعب واذا خرجن التحفن فى رداء ثخين وعلى وجوههن نقاب ثخين ويجعلن على
الانف شيئا مثل الاصبع ممسوكا فى النقاب ليبعد النقاب عن الاعين والانف للنظر
والتنفس والنساء لهن صولة على الرجال فى البيوت

مطلب فى الاكل بمصر (أما) الخبز فالعام عند الجميع هو نوع مستدير فى ارتفاع
أصبع قليل النضج قطره أزيد من شبر ويوجد بقية أنواع الخبز الافرنجى (وأما) الاطعمة
فلها أنواع عديدة والغالب فى الاسواق نوع من الفول مطبوخ فى الماء وعليه شئ من
السمن وكذلك نوع من السمك مقدد عفن الرائحة وسائر طعامهم فيه الادام بكثرة
وادامهم السمن (وأما) الزيت فلا استعمال له الا فى السلاطة وزيتهم ردئ لانه مجلوب من
اكريد والشام وكل لا يحسنون عصر الزيتون والحسن عندهم هو المجلوب من ايطاليا
ولا يستعمل الا فيما ذكرناه كما انهم لا يأكلون من النعم الا الغنم ولحم البقر لا يأكله الا
الفقراء وهو معيب كما انه فى نفسه ردئ والافرنج يأكلونه والفقراء يأكلون الجاموس
والابل وفى القرى والعرب والسودان يكثر أكل الابل وكذلك الذرة والدخن أى الدرع
أما هيئة الاكل فهى على نحو الانواع التى ذكرناها فى تونس (وأما) وقته فهم يأكلون
مرتين غالبا احداهما صباحا بعد الشروق ويخرجون الى أشغالهم ثم يعودون الى ديارهم
قرب الغروب فيتعشون

مطلب فى المواكب (أما) المواكب الرسمية فهى فى العيدين أى الفطر والاضحى
فيجلس الخديوى فى ايوان كبير بقصره بعد الاعلان من قبل بوقت المعايدة ويكون
لابسا لباسه المزركش الرسمى متقلدا بنياشينه فيدخل عليه رجال دولته
والعلماء والاعيان واحدا اثر الآخر مسلمين عليه بتقبيل ذيله ويقف هؤلاء الكبراء

ثم يتصرفون ويكثر تزاور الناس فيما بينهم (وأما) الاعراس والختان فيحتفلون لها بزينة الدار ويدعون طباخين معدين لذلك فيأتى الطباخ بسائر أدوات الطعام والموائد والمناديل والخدمة ويطبخ كفاية كل المدعوين الذين يعين لهم الوقت للدعوة من بعد الظهر الى قرب الغروب ومهما حضر اثنان أو أزيد أدخلوا الى بيت كبير وتقدم لهم مائدة على قدرهم فيها أنواع شتى من الطعام المطبوخ والحلو ويكثرون من الاصناف الى نحو العشرين لونا والمترفون يزيدون الى نحو الاربعين لونا وهكذا الكل جماعة بحيث يأكلون أكل شبع ولا يوضع اناء يظهر عليه انه به أثر أكل سابق وعادة تكثير الطعام موجودة حتى للضيوف بل حتى فى الاكل العادى يوميا بحيث ان أواسط الناس لا يكون فى مائدتهم أقل من ستة ألوان فطورا وعشاء ولهم عادة التطوف بالمختون على نحو ما ذكرنا فى تونس بل ويزيدون بالتطوف به ليلا والشموع والمنائر موقودة والمغنون رافعون أصواتهم بالشعر والمدايح وكذلك الاعراس يطوفون بالعروسة ومعها المواكب والطبول والمزامير تعزف ولهم أيام لبعض المنتسبين للصالحين يخرجون فيها تلامذتهم بالالبسة الرفيعة والاعلام والمباخر وغيرها وينبطح بعض الناس على الارض فى الطريق ويأتى شيخهم راكبا فرسه ويمر فوق أولئك الملقون ولا يضرهم بوطئ أرجل فرسه يدعون ذلك كرامة وأعظم المواكب يوم خروج ركب الحاج وكسوة الكعبة فيحضره الخديوى والعساكر وخلائق لا تحصى وتحمل الكسوة فى محمل على جمل مزين ويحاذيها الخديوى وكبار الدولة بل قد فعل ذلك أمراء الانكليز مع الخديوى بغاية التوقير والمدافع تطلق الى أن يخرج الركب عن البلاد وينزل هنالك حتى يجتمع المسافرون ويتوجه برا الى الحجاز ويحمل ذلك الركب أيضا أموالا عديدة لمرتبات وعوائد لاهل الحرمين مع صدقات ومحصول وقف الحرمين ومن المواكب مولد السيد البدوى فى بلد طنطا ويعقد فيها سوق عظيم تأوى اليه التجار من سائر أطراف القطر المصرى ولهم حكايات فى كراماته رضى الله عنه فى نفاق السلع لكل قادم غيران ذلك السوق يشتمل من منكرات الزنى ما يستقبح ذكره وشهرته (وأما) الجنائز عندهم ففيها من عادات الجاهلية أمر فظيع جدا وذلك انه اذا مات الميت تأتى النائحات الصايحات وتبقى تنوح أسابيع ليلا ونهارا بما يزعج أهل الحارة بحيث انى سمعت المكث بدار صديق فى الاسكندرية لموت جارله ولم أستطع النوم ليلا ولا نهارا وأقبح من ذلك إن النائحات والنسوة يخرجن مع الجنازة فى الطريق الى أن تدفن ويرجعن هكذا

نائحات

نايحات والغريب ان ذلك يقع ولو فى محلات العلماء مع انه منكر شرعا وفيه وعيد شديد وكذلك انكاره عقلا وعادة ولهم اتباع للسنة عند دفن الميت فيطلب قائل الشهادة فيه من الحاضرين فيشهدون فيه بالخير عملا بحديث من أثنيتم عليه شرا وجبت له النار ومن أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة أو كما قال صلى الله عليه وسلم

﴿مطلب فى اللغة بمصر﴾ اللغة هى العربية ولو فى السودان غيران بعض جهاته لهم لغات أخرى بربرية لكن اللغة العربية حرفت هنالك كثيرا سواء فى تغيير الحروف أو فى ذات الكلمات فان الجيم لا يكادون ينطقون به وكذلك الذال يبدلونها زايا الى غير ذلك واذا سألك أحد عما تريد قال (تعوزايه) وأشباه ذلك بل ان ذلك جرى حتى عند بعض أصحاب الصحف فيكتبون كتابة مختلطة بين أصل العربية والاعتيادية مع ان الاصل فى الكتابة هو الرجوع الى حقيقة العربية وهو الجارى عند العلماء والكتاب نعم ان الكتاب الرسميين صاروا يستعملون بعض الفاظ اصطلاحية أو فرانساوية وكذلك نفس اصطلاح الكتابة كاد بعضهم أن يخرجه عن الاصطلاح والاسلوب العربى غيران هذا ليس بعام بل المهرة تبهر الالباب بلاغتهم فى الصحف وغيرها من الكتابات ومع ماذكرناه من صعوبة النطق عندهم ببعض الحروف تجدهم أتقن خلق الله أداء لقراءة القرآن وتجويده ولهم نحلة فيه تخشع لها القلوب وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

﴿مطلب فى الاحصائيات بمصر﴾

٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٥٠	عدد أهالى مصر
٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٥٠	عدد أهالى دارفور
٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٠٦	عدد أهالى النوبة وزيلع وغيرها
٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ١٦	
٠١١٠٠	طول سكك الحديد أميال
١١٤٧٢	طول اسلاك التلغراف أميال
٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ١٦٠	قيمة التجارة الداخلة فرنك
٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٣٦٠	الخارجة

٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٢٤٣ دخل الحكومة فرنكا وكان دخلها فى ولاية سيدنا عمرو بن العاص من خصوص الدخل الشرعى مائة وثمانين مليونا فرنكا خصص منها الثلث لتكثير الترع والزراعة حتى أوصل ترعة تسير فيها السفن من الفسطاط الى مراسى الحجاز

٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٢١٦ خرجها
٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٢٠٠٠ الدين الذى عليها الفا مليون فرنكا
٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ١٦٢٠ فائضه
٠٠٠ ر ٦٠٠ ر ١٧٠٠ خراج الدولة العثمانية
٠٠٠ ر ١٨٠ ر ٠٠٠ عدد العساكر وقت السلم
٠١٣ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠ عدد السفن ليس منها مدرعة وهذا عدا بوابور البريد والنهر

الباب السابع فى الحجاز

الفصل الاول فى سفرى اليه

بعد ان أقمت فى السويس بعض أيام منتظرا السفر بباخرة الى جدة وجدت عدة بوابور أجنبية ومصرية فآثرت المصرية وكان رئيسها مسلما وسائر موظفيها أيضا مسلمون ولا يركب أحد الا بعد أخذ اذن مرسوم على ورقة جوازه من محافظ البلدة ويؤدى على ذلك أداء نسيت قدره وأظنه نحو سبعة فرنكات وعند ركوبى فى الباخرة وجدت الازدحام من الركاب والمشيعين فوق الحد فالتزمت ان أضم الى أتباعى ورحلى الى استقرار الحال فى السفر وجلسنا فى حجرتى بالطبقة الاولى لان بيتها صغيرة ليس بها الا حجرتان احداهما سكنها أحد المصريين بعياله والاخرى سكنتها أنا ورأيت من ازدحام الركاب وتراكمهم على بعضهم مع الوضخ وسوء الحالة وعدم احترامهم للطبقة الاولى وكثرة السكان على سطحها من النساء والرجال بحيث لا يجد الانسان محلا فسيحا يرتاح به ما أسفت منه على الركوب هناك ولكنى تسليت بما رأيت من انشراح جميع الركاب وعدم اكتراثهم بما هم فيه من المشقة والكدر كما تسليت برفقة الحال منى محل البنوة أحمد ظافر النجيب النسيب وبحسن اخلاق رئيس الباخرة والركاب على السطح من الطبقة الاولى وهم من أعيان قرى المصريين وعربانها وبعضهم له اطلاع على مسائل الفقه وكان أيضا راكبا معنا ناظر بوابور الوسطة الخديوية فى الحجاز وهو محمد موسى لطفى رتبته العسكرية بين باشى وهو كامل الاخلاق والمعارف وله مشاركة حسنة فى العقائد والفقه والعربية مع محافظته على شعائر الدين من الصلاة وغيرها وله اطلاع كامل على أحوال فن البحر لانه كان رئيسا للباخرة التى نحن بها المسماة بالزقازيق ورأيته يشير على رئيسها بعدة أمور وهو ينقاد اليه وله اطلاع أيضا على الجغرافية والعلوم الرياضية وبعض الالسن مع

تفطن

تفطن للاحوال السياسية فانستني رفقته مع بقية الركاب وكثيرا ما يقضى الوقت فى مداعبات مع بعض العربان الموجودين بالشيح وكنت أجد الباخرة كأنها ادارة اسلامية باقامة الاذان فى الاوقات كلها والصلاة جماعة فى عدة جهات لكن الكثير لم يصل ولا يستطيع الصلاة سيما عند اضطراب البحر وان كان لم يقع منه شئ شديد لكن حصل فى الباخرة تعفن الرائحة سيما فى اليوم الاخير لان أكثر الركاب لا يغسل يديه من الطعام مع كثرة ادامه فضلا عن غير ذلك حتى كانت بيت الطبقة الاولى عفنة لازدحام خدمة سكانها وكثرة أكلهم المؤدم وعدم توقيهم الوسخ لكنهم يقضون أغلب الاوقات بالتلاوة الحسنة أو انشاد الشعر وقد وجدوا عند تفقدهم الركاب وأوراق ركوبهم ان أحدهم ركب فى الازدحام بدون أداء الكراء وهو فقير وأجمعت أصحابه عن الاداء عليه فسجن فى سجن الباخرة وبعد عدة ساعات انتدب أحد أصحاب الخير الى ان دار فيها لذلك المسجون خيرا واذنه بالتطوف على جميع الركاب البالغين ستمائة شخص واعلامهم بحالة رفيقه وطلب اعانتهم له فى اجرة الركوب فحصل له مقدار ذلك وزيادة وعند حضور المال أحضر المسجون وأطلقه نائب الموسطة محمد لطفى المشار اليه مجانا ودفعت له الدراهم والدنانير المجتمعة له ليستعين بها فى حجه ورأيت من بعض الاغنياء الشح المطاع فى هاته الواقعة ومن بعضهم الاقتصاد ومن بعضهم الكرم ولما بلغنا سمت رابغ اعلم الرئيس الحجاج بذلك ليحرموا فاغتسلوا وأحرموا بنزع ثيابهم والله اعلم بكيفية غسلهم وأدائهم فرض الاحرام لان حالة الضيق والوسخ فوق ما أقدر ان أعبر عنه ولا يعلم مقدار ذلك التعب الا من شاهده وأضف الى ذلك ان الباخرة لا تعطى الاكل ولولا أصحاب الطبقة الاولى فلزم كلا أن يطبخ لنفسه وأغلب الركاب كان معهم زادهم مما يصبر من الطعام من لحم وغيره وكنت أخذت زادنا من السويس محارد جاجا وخبزا وغيره فكان طباخي يطبخ لى ولمن معي فى مطبخ الباخرة وفى ذلك من المشقة ان لم يعتد البحر ما لا يخفى فكان ذلك من عجيب أمر الباخرة مع انها بريدية وذلك خلاف معهود صفتها ولما سألت نائب الموسطة عن سبب ذلك قال ان الركاب الى جهات البحر الاحمر لا يوجد منهم من يأكل من الباخرة فرأينا ترتيب ذلك عبثا ولهذا تجد بواخر البريد فى البحر الابيض على نحو غيرها وأماهنا فلا ثم عند غروب اليوم الثالث من ركوبنا قل سير الباخرة وأعلمنى الرئيس بذلك لانها ان دامت فى سيرها نصل الى جدة ليلا ولا يتيسر الدخول الها الا نهارا فكان تقليل السير أولى من الوقوف قربها وبعد شروق اليوم الرابع وصلنا الى جدة فتلقانا دليل المرسى

وهو اعرابي لا بس قميصا أزرق وعلى رأسه عمامة حمراء راكب قاربا فصعد الى الباخرة وصار يأمر بالسير يمينا وشمالا لكثرة شعاب الحجر المغطاة بالماء حتى دخلنا حوض المرسى فاذا هو حوض وسيع أمين طبيعي بما حوله من الاحجار الخافية وفيه عدة بواخر أجنبية وباخرة حربية صغيرة للدولة العثمانية وعدة سفن شراعية صغيرة وبعد الارساء وأخذ الاذن فى النزول من مأمورى الصحة ونزول أغلب الركاب نزلت مع رفقائى ودفعت على كل واحد منا نحو أربعة فرنكات لاخذ ورقة على أن المدفوع لنظافة أماكن الحج فكان نمرة ورقتى ٧٦ ألف ونيف من المئات والآحاد ونسيت الآن تحرير كل الاعداد ولقيت أحد مطوفى التونسيين وهو جميل الاخلاق على خلاف غيره فادبنا ارحالنا للكمرق وتعسف المأمورون الى أن أخذوا عشرة فرنكات وأقل مكرهم بمن لا يعطيهم تركهم لحوائجه أياما بدعوى كثرة شغلهم فهم من أخس المأمورين وأكثرهم سرقة كما ثبت ذلك من التجار وغيرهم ثم دلنى المطوف على دار اكتريت احدى طبقاتها وأقمت هنالك ثلاثة أيام وجدة بلدة على ساحل البحر هى مرسى الحجاز العظيمة للحجاج والتجارة من سائر الجهات وسكانها أغلبهم من العرب والهنود ثم المغاربة والآفاقيون حتى الافرنج ولها أسواق رحيبة مسقفة وتكنس البلد وترش يوميا وتنور ليلا بزيت النفط وبها جوامع حسنة وماء شربها يؤتى به من بعد فى قرب من مصانع وفساقى وهواؤها حار جدا ردىء لان أرضها سبخة وبها بعض ديار جميلة المنظر لنواب الدول وبعض التجار وأغلب المبانى الكبيرة للكراء فيها أملاك للاشراف وبعد ان أتممت فيها لوازم السفر من الفرش والبسط وأحرمت منها حيث كنت قاصدا لها لما آرب لى فيها غير انى لم أنزع ثيابى وفديت عن لبسها بدما اكتريت جمالا لى ولاصحابى فركبت الهودج الذى اشتريته من هنالك وهو مثل مهدين من عيدان مسمرة ومشدودة فى بعضها على نصفين كل نصف طوله نحو ذراعين وعرضه ذراع أسفله الذى هو محل الجلوس حصير من عزف النخل مشدود فى تلك العيدان وفى زواياه الاربع عيدان صاعدة نحو ذراعين ونصف ثم تقوس الى أن تتصل ببعضها فيحصل منها شكل أربعة أقواس متقابلة ويشملك على نحو الربع الاسفل منها شبالك من حبال جيدة من الحلفاء لتحمى الراكب من السقوط وذلك فى جهة واحدة وهى جهة الجنب المقابل لظهر الجمل ثم يوصل كل من النصفين بصاحبه فيتألف من ذلك مهدان متلاصقان مسوكان مع بعضهما بحبال متينة ولكل منهما أربعة أرجل تستند بها على الارض اذا برك الجمل ثم يوضع على الجميع من فوق

زربية

زريبة أو كليم أو منسوج قطني على حسب ارادة صاحبه ويدلى ذلك مع الجنبين الخارجين
ويخاط على تلك الاعواد ثم يجعل من فوق جلد بقر أو جمل ويخاط أيضا ليمنع نزول
المطر ان وقع ثم يفرش كل من الشقين بزريبة على عدة طبقات ومعها لحاف محشو قطنا
ثم توضع عليه ستة أو ثمانية وسادات محشوة قطنا أيضا من جهاته الاربع ويشق
بالقطع فى الغطاء الشامل من الجهة الخارجة نحو طاقة لها ستارة من ذاتها ترفع وتنزل
وتمسك بخيوط ويربط فى قوائم الاقواس عدة جيوب من سعف النخل لوضع اناء الماء
وغيره مما خف من ضروريات المسافر وزاده بحيث يصير كل من القسمين فراشا
مريحا يضطجع به الراكب ويكون أمامه وخلفه مفتوحا وجنبه الذى من جهة رفيقه
مفتوحا أيضا وجنبه الآخر به طاقة ان أراد فتحها والا أغلقها ثم يوضع الجميع على الجمل
ويربط به ربطا محكما ويوضع سلم من خشب رقيق فى مقدم الهودج المسمى بالشقدف ليصعد
منه الراكب الى شقه ويمسك الجمال الشق الآخر الى ان يصعد اليه صاحبه أيضا ويعدلان
فى الثقل ويسير بهما الجمل ويلزم ان يكون جملا مؤنسا بذلك وكان ركوبنا بعد
صلاة العصر خارج البلد ومع كون ذلك المركب متوسط الراحة وجدت فى نفسى
تعبا من سير الجمل المهين حتى حصل لى نوع من الدوار لكن اذا تأنس به الانسان يومين
يزول عنه ذلك ويصير مرتاحا سوى الفرق بين قوة الجمل وسيره فان الضعيف والغير
المؤنس يتعب مشيه التعب الزائد وكان عديلى أحد أتباعى وبقيتهم ركبوا على جمال
الرحال وبعد ان سرنا عشيتنا وليلتنا وصباحنا ولم ننزل لسوى الصلاة فى أوقاتها وصلنا
عند الضحاء قرية تسمى حدة فى صحراء مقفرة بها بعض عيون عذبة عليها شئ من النخل ✽
وعلى الطريق قهاوى من أعواد الحطب والحصير كثيرة العدد أكثرها فارغ لمن يريد
النزول فنزلنا بها واكتريت اثنين منها ففرش لنا بها حصر وأتى لنا بماء فأكلنا
من زادنا وأطعمنا الجمالين والقهوجى واسترحنا الى بعد الظهر فركبنا ووصلنا مكة
المشرفة بعد نصف الليل ولم نر فى الطريق الا أفرادا ويكثر المشى ليلا سيما على الحمير
لان كثيرا منهم من يركب من جدة الى مكة على الحمير وهى سيارة فيصلونها فى نحو تسع
ساعات الى احدى عشرة ساعة لكن ذلك وان كان فيه قلة الحصة لكنه متعب فلذلك
آثرت الجمل وعند الوصول الى خارج مكة المشرفة سألت هل يوجد حمام هناك فاجبت
بانه لا يوجد الا الماء البارد ولم نستطع الاغتسال به فلذلك اكتفيت بالوضوء ثم تلقانا
المطوف وطلبت منه ان يكتفى باعلامى بالامكان والاعلام بالمشاعر كأن يقول لى هذا

باب السلام والكعبة مقابلة اليك أو عن يمينك الى غير ذلك حيث علمت انهم يزيدون وينقصون ويدعون ويأتون بما لم يرد به الشرع وكنت استصحبت عدة كتب فى الفقه وفى خصوص المناسك وأخذت منها ما يسره الله لفهمى غير انى وجدت فى بعضها رسالة فى المناسك لملا على قارى فلم أنظر اليها الان صاحبها له بحرفة فى حق أبوى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يكون له على أدنى منة وأغنانا الله عنه بتآليف علماء أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم المحبين فى آله الكرام والمعظمين لجنابه العظيم عليه وعلى آله أكمل الصلاة والتسليم فاقبلت الى باب السلام وأديت هنالك ما ينبغى ونظرت الى الكعبة المشرفة ولله الحمد ثم دخلت المسجد الحرام وطفت بالبيت الكريم وقبلت الحجر الاسعد وسعيت بين الصفا والمروة وأديت ما استطعت مما ينبغى فى ذلك القدوم المبارك ثم توجهت الى المطوف الى دار وكيل تونس حيث كان ساكنا فيه كل من الاخيار الثقات السيد أحمد والسيد اسماعيل والسيد محمد أبناء زروق القادمون من تونس قبلى حجاجا وأقمت بقية تلك الليلة عندهم وصلينا الصبح فى المسجد الحرام ثم أخذت منزلا أقمت فيه ولم يرد صاحبه أخذ كراء عليه وابتدأت رؤيتى لسوء أخلاق بعض الاهالى مما كان ينبغى لهم التحاشى عنه عفا الله عنا وعنهم وبعد ان أقمنا بضعة أيام تشرفت فيها بالدخول الى داخل البيت المعظم بمحاسن أخلاق الفاضل الشيبى وذلك ليلا ولم يكن معنا الا افراد قليلون بحيث تيسر لنا التمتع بتلك البقعة العظيمة والتبرك بما احتوت عليه من المشاعر وكذلك تشرفت بالمثول بين يدى المولى الشريف المعظم صاحب الاخلاق الحسان والتواضع مع ما هو عليه من رفعة الشأن المقدس الشهيد سيدنا حسين أمير مكة قدس ثراه وهو رحمه الله حسن الاخلاق متواضع عفيف جدير بمنصبه السامى ولاقينا بعضا من أعيان البلاد كالنحرير البارع أحمد المشاط وغيره ولما آن وقت التوجه الى منى ابتدأ المطوف ووكيل تونس فى تهويل أمر الذهاب اليها والى عرفات وأكبرا فى ذلك ما شاءا حتى ظننت انها مسافة سفر وان الحرب ثائرة فى الطريق فوجهت رحلى على الجمال واكتريت أجرة لركوبى وركوب من معى مدة أيام الحج وبينما نحن سائرون والطريق فى غاية الراحة والامن والعمران واذا نحن بقرية سألت عنها فقيل لى هى منى فبقيت متعجبا من قول أولئك المرشدين اذ لم تكن تبعد عن مكة الا أربعة أميال ولكنى عرفت السبب فى عملهم تجاوز الله عن الجميع وأقمت ليلة بمنى ثم توجهنا صبيحة اليوم الثامن الى عرفات لوقوع الشك فى ثبوت الشهر

وآقمنا

وأقمنا فيه الى ليلة العاشر من الشهر وبعد الوقوف وأخذ حصة من الليل أفضنا من
من عرفات بعد ان أدينا ما نسأل الله قبوله وكان موقفا تقشعر منه الجلود من خشية الله
لا لتجاء عباده اليه حسبما أمرهم وكانت الارض تموج بالخلائق ضارعين لباريهم جل
وعلا نقبل الله من الجميع وعند الافاضة اتفقت مع الجمار ومع الرفقاء على التأخر
عن الازدحام وأخذ الطريق الاول ازدحاما وكان دليلنا مضمرا خلاف ذلك لانهم انما
يرون من شعائر الحج الظواهر وهم عن حقائق المشروعات غافلون فيرغبون في الالتحام
والزحام والخصام لتبقى لهم وقائع يتحدثون بها سنتهم فلما افضنا كانوا يسرعون السير
ومن عادة جميرهم أن لا ينقاد الى راكبه بل الى سائقه فقط ولو انقطع اللجام من فيه
فأدخلونا كرها في وسط الزحام ولم يبق منا واحد يسمع صوت صاحبه لثوران عجيج
الصياح والرغاء والنهيق فمن حاد يحدو ومن داع يدعو ومن مصرخ ينادي رفيقه ومن
صائحة مستجيرة بالمارة من سقوطها او من آن يئن من كسره بسقوطه ومن باك متذكر
هول المطلع ومن بعير برغو لسقوط حمله وحمار ينهق لرؤية أتان وأناس ملقاة وآخرون
يجرون وآخرون يزدحمون وآخرون واقفون في الظلام مرخ سدوله والناس لا يذكر بعضهم
بعضا كل طالب النجاة لنفسه فرأيت أنموذجا لهول يوم الفزع الاكبر وما أيقنت بالنجاة
لنفسي حتى دهمني بعض شقادف الجمال فاسقطني عن حماري وخرجت من بين أرجل
الحيوانات متطلبا النجاة ذات اليمين حتى يسر الله لي الخروج عن الطريق بالصعود
الى محجر مرتفع فجلست هنالك حامدا الله على النجاة وبعد هنيهة لحق بي بعض أصحابي
وجاءني الدليل حاثا على الذهاب والا نكن في خطر من البدو فقلت له يا أيها الرجل
ان الله حوم في هذا الموطن الجدال ولكن ما عليك من الانذار فقد أديته وأنا في نفسي
أفعل أخف الضررين لان البدو لا يفعلون أكثر من القتل وهو الذي تدعوني اليه لان
افعله بنفسي على انهم يقتنعون باخذ السلب ودونه الدفاع ما استطعت وو راء هذا كله
انه لا وجود لشيء مما تهول به وهؤلاء الخلائق في الطريق وعند آخرهم أتوجه فودعني
ونفسي فذهب مغاضبا وبقيت أنظر في عجائب الخلق من الحالة التي بينا بعضها الى
أن خف الماشي فرافقت آخرهم حتى وصلنا الى المزدلفة ولم أجد رحلي فجلست في قهوة
حتى مر بي أحد أصحاب رحلي فانتقلت اليه وجمعنا بين المغرب والعشاء ثم بعد أداء
مناسك المزدلفة توجهنا الى منى وخيمت في مرتفع من الارض في أطراف نزل الحاج
مع أهالي جاوة و رجعت الى مكة وأديت بقية المناسك وفككت الاحرام ثم رجعت

الى منى الى تمام أيامها وكان فى اليوم الاول عند رمى الجمار من الزحام ما وصفنا بعضه حتى مات عدة أناس وانكسر عدة وانما ذكرت هذا تنبيها للاخوانى حتى يحترزوا من ذلك ولا يغتروا بأقوال الادلاء لان لهم مقاصد وأطوارا غير محمودة ثم اتممنا مناسك منى ورجعنا الى مكة واكتريت بيتا فى المحصب خارج مكة تطلبا لصحة الهواء وبرودته لان المرض اشتد على ثم أحرمت بعمرة وأديت مناسكها ثم خيمت قرب الركب الشامى الى أن تهيأت القافلة التى أكتريت بها الجمال للتوجه للمدينة المنورة فسافرنا اليوم التاسع عشر من الشهر واشتريت حمارا للارتياح عليه فأفادنى جدا لانى كنت أركبه بعد الظهر فنسير ومعى أحد رفقائى الذين صار منهم بعض التونسيين الى أن نصل الى أول القافلة الحاوية عدة مئات من الابل والمسافرين فنأتى الى جهة مستظلة قرب الطريق ونجلس على زربيتين ونستريح ونتوضأ ونصلى فى نحو ساعة أو ساعة الا ربعا فيأتى آخر القافلة فنركب الحمار ونفعل كذلك مرتين أو ثلاثا الى أن نصلى المغرب ويشتد الظلام فنركب الجمل وكان سفرنا على الطريق الفرعى بعدضمانة مشايخ أصحاب الابل لامير مكة فى أمن من معهم وكان كراء الجمل الذى عليه الهودج ثلاثة وعشرين ريالا دورو أى مائة وخمسة عشر فرنكا من مكة الى المدينة ومنها الى ينبع وبقية جمال الرحل والاتباع لكل جمل خمسة وسبعون فرنكا واكتريت رجلا بدويا من موالى الجمالة شجاعا قويا بالقود للجمل الذى نركبه والاعانة على بقية اللوازم فرأيت منه خيرا لكنه لم يوف بوعده فانه تخلف عنى فى المدينة المنورة ولم يصل الى ينبع فرحلنا من مكة اليوم الاول بعد الظهر وسرنا يوما فى طريق طيب ونزلنا بعد العشاء ثم رحلنا قبل الشروق وصعدنا فى جبل وعر جدا وبعد ان سرنا فيه نحو خمس ساعات سرنا فى طريق بسيط الى المدينة المنورة ولولا ذلك الجبل لكانت العجلات تستطيع السير بسهولة فى الطريق وكان سير الجمال لا يزيد عن ثلاثة أميال فى الساعة حسبما حررته اذ ذاك وهو سير مهين متعب وتدوم المرحلة من اثنتى عشرة ساعة الى ستة عشرة ساعة وواحدة منها دامت اثنتين وعشرين ساعة بحيث جعلوا مرحلتين فى واحدة لكى يستريحوا يوما بدون رحيل فى بلادهم وهى الجديدة ولا ينزلون الا قرب ماء وفى الليلة الثانية عشر وصلنا المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام فدخلناها عند الفجر وتلقانا المعرف التونسى الخير حلابة والمعرف هناك يسمى مزورا ونزلت عند الفاضل النحرير صاحب الاخلاق الحميدة والصفات السديدة النابغ الكامل عبد الجليل برادة جازاه الله خيرا وكثر من أمثاله فى الامة وبعد أداء الآداب والسنن

أسعدنى

أسعدني الله بالوقوف بين يدي نور العالم وسيد الخلائق وملجأ الامم وفضل الله على خلقه ورحمته للعالمين سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فياله من حظ نفد به بالمهج ويا له من فضل تبدى من كرم الله وبلج وحظيت بالسلام عليه وعلى صاحبيه عليه الصلاة والسلام وعلى آله الكرام وأصحابه الاعلام وفي اليوم الثالث انشدت بين يديه عليه الصلاة والسلام قصيدتي التي مطلعها

الى السدة العظمى شددت عزائمي * الى سدة الاجلال شمس المكارم

وبثثت اليه عليه الصلاة والسلام شكواي في دنياي وأخراي ونلت قضاء أغلب مطالبي ولله المنة والحمد منها ما قضي في حينه ومنها ما تم قضاؤه بعد مدة قليلة وأنا أرجو كرم الله في قضاء باقيها بوسيلة رسوله عليه الصلاة والسلام وزرت آل البيت عليهم السلام وكثيرا من الاصحاب والائمة الاعلام والمشاهد المباركة ثم قفلت مع القافلة وتوجهنا الى ينبع ورفعنا ما أبقيناه من رحالنا في بلد الجديدة ووصلنا ينبع في الليلة الرابعة قرب الفجر فاردت النزول في خيامي فمنعت لاجل ان اكترى دار الاخ حاكم البلدة واكتراها الى بخمسة وثلاثين فرنكا في الليلة وهي أربع بيوت خربة اثنان فوق اثنين والدرج خربة وليس بها ولا حصير فأقمت بها ثلاثة أيام وكان في المرسى ثلاث أو أربع بواخر تنتظر ازدحام الحاج فجاءت باخرة نمساوية قافلة من الهند ومرت على جدة ثم ينبع فاكتريت بها قاصدا الاستانة

الفصل * الثاني

﴿في صفة البلدين المكرمين وموكب الحج﴾

﴿مطلب صفة مكة المكرمة﴾ أما مكة المشرفة فهي واقعة في عرض ٢١ درجة و ٣٠ دقيقة شمالي وطول ٣٧ درجة و ٣٦ دقيقة شرقي واسمها مكة وبكة وأم القرى وأول من سكنها سيدنا ابراهيم عليه السلام بوالدة ولده سيدنا اسماعيل عليه السلام فكان سيدنا اسماعيل أبا العرب ورفع هو وأبوه قواعد البيت العتيق فكان مقصد الامم الحنيفية وهذا البيت الكريم هو في وسط المسجد الحرام وزواياه الاربع مقابلة للجهات الاربع أعني الجنوب والشمال والغرب والشرق وآخر بناء له الى الآن هو بناء السلطان سليم الثاني على نحو الاصل الذي كان عليه زمن النبي صلى الله عليه وسلم لان سيدنا عبد الله بن الزبير بناه على قواعد ابراهيم عليه السلام وأدخل فيه الحجر ثم هدمه

عبد الملك وأعاده على هيئته زمن الرسالة فلما استخلف أبو جعفر المنصور أراد أن يعيده على ما بناه ابن الزبير لان النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله عنها لولا قومك حديثو عهد بكفر لبنيت الكعبة على قواعد ابراهيم فلما زال المانع وحدوثية الايمان ترجح عوده الى الاصل واستشار الخليفة الامام مالك بن أنس رضي الله عنه فقال له ما معناه يا أمير المؤمنين لا تجعل بيت الله ملعبة بأيدي الملوك فان الذي رأيته وان كان صوابا لكن ابقاؤه على حالته احتراما لشأنه أولى فبقي على ما هو عليه الآن وأساس جدران الكعبة مرتفع عن الارض ما بين عشرين صانتي الى ثلاثين وزائد العرض عن الحيطان ما بين عشرين الى أربعين فهو كالدرجة محيط بالجدران وهو المسمى بالشاذروان والحجر الذي هو من قواعد ابراهيم عليه السلام في جهة البيت الواقعة بين المغرب والشمال ومحيط به الحطيم الذي هو بناء مستدير نحو نصف دائرة ارتفاعه ميترو وسمكه ميترو ونصف مغلف بالرخام وينتهي قوس النصف دائرة قبل أن يصل الى جدران الكعبة بنحو ميترين وخمسة وثلاثين صانتي والبيت مبني بصخر كبير وأرضه مرتفعة عن مساواة المسجد نحو ميترين وبابه قرب الركن الشرقي مستقبلا ما بين المشرق والشمال ويصعد اليه بدرج مثل المنبر في المواكب العامة وعند فتحه الخصوصي يؤتى له بسلم صغير وعتبة الباب من فضة وعواضده من مرمر والباب بدفة واحدة وقفله من ذهب وهو من خشب الساج وداخل البيت ثلاث أسطوانات من القماري قطر الواحدة أزيد من شبرين وارتفاعها أزيد من ستة أذرع وعليها مكابس من ذهب والبيت مبلط بقطع كبيرة من المرمر وكذلك حيطانه وسقفه من الساج وفي ركنه الشرقي من خارج ما بين المشرق والجنوب في ارتفاع قامة الحجر الاسود وهو حجر محفوف الجوانب بصفايح من فضة أسود لامع أثرت فيه أيدي اللامسين حتى صار في بعض جهاته انخفاض وصار ذا شكل مقعر مثل اناء الشرب وأصله قطعة واحدة ثم تشقق من ضرب المنجنيق عند ما حوصر ابن الزبير رضي الله عنه فجعل له صندوق من الفضة وبه فوهة يظهر منها الحجر قطرها سبعة وعشرون صانتي ميترو أي نحو شبر وثلث وفي سطح البيت ما بين الشمال والغرب ميزاب الرحمة من ذهب يصب في الحجر والبيت طوله مما بين المشرق والشمال أزيد مما بين المغرب والجنوب فطوله اثناعشر ميترو وعرضه عشرة أمتار وعشرة صانتي عدا الشاذروان وارتفاعه خمسة عشر ميترو ويكسى كل عام بكسوة من الديباج الاسود يؤتى بها من مصر وعليها حزام مزركش بالفضة مكتوب به آيات كريمة

كريمة وكذلك نفس الكسوة فيها كتابات جيدة بالقلم الثلثي من نفس النسج وقبالة
باب الكعبة على نحو اثني عشر ميتر ومقام ابراهيم عليه السلام وفيه بيت مربع داخله
آيات بينات من تأثير القدمين في الصخرة ووراءه بانحراف الى الجنوب الشرقي بئر زمزم
وعليه قبة وحوله أحواض وعليه بكرات من النحاس ثم صحن المسجد متسع جدا طوله مشرقا
ومغربا مائة واثنان وتسعون ميتر وعرضه مائة واثنان وثلاثون ميتر والروافات
مرفوعة أقواسها على اسطوانات من حجر وسقوفها قباب من بناء وفي وسط الصحن على بعد
نحو اثني عشر ميتر ومن الحطيم اسطوانات من حديد أو نحاس ذاهبة في الهواء موصولة
ببعضها بسلاسل من نحاس يعلق بها منائر ومصابيح وهي دائرة بالبيت علامة على حدود
المطاف وعلى سمت الركن الشمالي على بعد دكة لجلوس المؤذنين والمسمعين وخلف المطاف
وقبالة جهة البيت التي بها الميزاب يقيم امام الصلاة من مذهب الحنفي وله محراب وهو أول
مصل في الاوقات كلها ماعدا الفجر فاذا أقيمت الصلاة وتقدم الامام الحنفي رأيت المسجد
الحرام كله على غاية من الهدو ولم أر شيأ لم تدخله البدعة أبدا الا الصلاة في ذلك الوقت
ماعدا تسميع المسمع فهو زيادة على بدعة تغنيه يزيد أن يضع المؤذن أصبعيه في أذنيه وهو
في الصلاة وماعدا هذا فانك ترى آداب الاسلام حقيقة وامتثال الخلق أمر خالقهم فيقع
من الخشوع مالا يعلمه الا الله سيما في صلاة الجمعة ولله الحكمة البالغة في وسع المسجد
كل من يدخله وترى الخلق مع ذلك الازدحام على غاية من التؤدة وامتثال أمر الشرع بحيث
لا تسمع الا همسا من تسبيحهم وتكبيرهم في الركوع والسجوع فاذا سلم الامام الحنفي
عادت الحركة لما كانت عليه ولو عند صلاة كل من أئمة المالكي والشافعي والحنبلي حتى
لا يكاد المؤتم يعلم بحركات الامام أمامه . صلاة الفجر فيتقدم فيها الشافعي على غيره لان
مذهبه يرى استحباب التبكير بها وكل أحد من الائمة له جهة من جهات الكعبة يصلى
اليها وقد علمت محل الامام الحنفي وأما الشافعي فمحرابه خلف مقام ابراهيم عليه السلام
وأما المالكي فمحرابه تجاه الضلع الغربي الجنوبي من الكعبة خلف المطاف بميترين
وأما الحنبلي فمحرابه مواجه للضلع الجنوبي الشرقي على نحو ذلك البعد أيضا وباب السلام
من المسجد الحرام تجاه باب الكعبة وباب الوداع في الجهة المقابلة له ووراء الروافات
عدة مدارس لسكنى المجاورين ويسكن بيوتها الحجاج أيضا وحول المسجد من أغلب
الجهات طرق وباب السلام يفتح في الطريق الواقع بين الصفا والمروة وهو طريق متسع
حوله ديار ذات عدة طبقات ومنها دار الشيبي وأسفل الديار حوانيت عليها مظلات يباع

بها المأكولات وغيرها وكل من الصفا والمروة محل في نهاية زاوية من الطريق متسع ذو درج عريضة تنتهي الى حائط وبينهما طريق متسع عرضه ما بين عشرة واثني عشر ميترو وطوله نحو اربعمائة وخمسة أمتار وفي وسطه محل الهرولة في السعي تبتدئ من الميلين أي العلمين الاخضرين على بعد خمسة وسبعين ميترو من الصفا عند باب البغلة من الحرم وتنتهي الى العلمين الآخرين بعد مسافة نحو سبعين ميترو وعند باب علي وكل من العلمين يقابله مثله في الحائط المقابل وفي مكة المشرفة أسواق كثيرة يباع بها سلع سائر الاقطار وأكثرها سلع الهند كما أن التجار أكثرهم من أهالي الهند والاسواق مسقوفة بالواح وفيها قهاوي كما أن أطراف البلاد عند مداخلها فيها قهاوي على نحو الخصوص ويجلس فيها على كراسي كبيرة وصغيرة من أخشاب الحطب وعزف النخل وخارج البلد على طريق عرفات مقبرة المعلى ثم بعض بساتين لافراد من الاشراف رضي الله عنهم وبيوت لبعض من الاعراب وغيرهم وفي جبل أبي قبيس المطل على المسجد الحرام مسجد صغير وبعض ديار وزاوية للشيخ السنوسي وشرب جميع الاهالي من عين زبيدة التي أوصلتها امرأة الخليفة هارون الرشيد من قرب عرفات الى مكة فسميت بها وعلى مجراها في الطريق والبلاد عدة منافذ يملأ منها السقاؤن وغيرهم ويحصل من كثير من الناس تقذيرها بما يلقون فيها من الاوساخ كما توجد آبار أخرى عميقة جهة الزاهر وغيرها يؤتى بالماء منها ويفرقه السقاؤن على الديار فيوضع في جرار ثم يملأ منه دوارق وتوضع في طواقي أو غيرها مما يمر عليه الهواء البارد فيبرد الماء لكن من عادتهم فيه أنهم يبخرون الدوارق بعود يسمى عود القفل وهو الكثير وتارة بالمصطكى فيحصل طعم في الماء غير شهي والقفل أسوء وهم يرونه حسنا وتنقسم مكة الى سبعة عشرة حارة وقيل ان عدد سكانها مائة وسبعون ألفا

❁ ﴿ مطلب في صفة المدينة المنورة ﴾ واسمها المدينة وطيبة وطابة ويثرب واقعة في فسيح من الارض المرتفعة في عرض ٢٥ درجة و ٣٠ دقيقة شمالي وطول ٣٧ شرقي وغربيها على نحو اربعة أميال جبل أحد وعليها سور حصين وحصون ذات مدافع وخزائن للذخائر الحربية والحرم الشريف النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام في جهتها الشمالية الغربية وقد جدد الحرم الشريف والمسجد السلطان عبد المجيد فكان المسجد وحده مائة وخمسة وخمسين ذراعا طولا أي من الجنوب الى الشمال وعرضه مشرقا مغربا من جهة الجنوب مائة وخمسة عشر ذراعا ومن جهة الشمال ثمانية وثمانون ذراعا

ذراعا ونحو تلك المسافة أيضا صحن المسجد الذى هو جهة الشمال ويحيط به رواقات وكله من بناء ضخم مرفوعة قبابه على أقواس قائمة على اسطوانات من المرمر الاحمر المأخوذ من مقاطع بجازيه قرب المدينة وكذلك عواضد الابواب وصحن المسجد تحيط به رواقات وما عداها مكشوف وليس بين المسجد والصحن أبواب وباب السلام من غربى المسجد قرب حائط القبلة والمحراب فى نحو ثانى عرض المسجد أعنى أنه أقرب الى الشرق حتى يكون قبالة المحراب النبوى الاصلى لان المسجد النبوى على صاحبه أفضل الصلاة والسلام قد زيد فيه مرارا أولها فى خلافة سيدنا عمر رضى الله عنه حين ازدادت كثرة المسلمين وآخرها الى الآن ما زاده السلطان عبد المجيد رحمه الله وكل من زاد فيه تحرى مواقف النبى عليه الصلاة والسلام لتبقى محفوظة فلذلك وان زيد فى جهة القبلة حتى صار حائطها يبعد عن حرم الحجرة الشريفة نحو الثمانية أذرع مع أن حائط القبلة كان مساويا لحائط الحجرة لكن بقيت بقعة المحراب الاصلى معلما عليها والمحراب الجديد قبالته أما المنبر فهو وان تغيرت ذاته لكن محله لم يتغير وهو الآن من المرمر المتقن والاصلى من خشب وأما الحجرة الشريفة فالاصلية عليها بناء ضخم مستطيل من الغرب الى الشرق وعليه قبة عالية أرفع من سائر قباب المسجد وداخلها القبر الشريف المكرم لصق الحائط القبلى من جهة الغرب ويليه قبر الصديق رضى الله عنه لجهة الشمال متأخرا الى المشرق بحيث ان رأس الصديق رضى الله عنه مسامتة لاسفل من رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو ذراع وذلك تأدبا من الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يليه شمالا أيضا بانحراف للغرب قبر الفاروق رضى الله تعالى عنه وهاته الحجرة لا يدخلها أحد ووراء حيطانها من خارج شباك من حديد متين متصلة قواعده برصاص مذاب غليظ الحجم مالئ للاساس الى عمق عميق حتى اتصل بطبقة الماء فى الارض والسبب فى وضعه هو انه كان فى مدة السلطان نور الدين الشهيد بمصر حدث حادث عظيم بالمدينة وكان أمر الحجاز اذ ذاك تابعا لسلاطين مصر فرأى السلطان نور الدين رؤيا هالته وهى أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فى ليلة واحدة وهو يقول له أنجدنى أنقذنى من هذين الرجلين وأشار اليهما فرآهما رجلين أشقرين وتحقق وصفهما وعلم التأكيد من النبى صلى الله عليه وسلم فى أمرهما والاسراع به فاستيقظ السلطان رحمه الله مهتما جدا فما صلى الفجر الا وقد أحضر وزيره وعشرين نفرا من صناديد فرسانه واحضر أموالا جسيمة وركب جواده فى خاصته وفرسانه وما خف من الزاد وقفل الى المدينة المنورة مجد

السير ولم يعلم بما رآه أحدا فوصلها في ستة عشر يوما فزار النبي صلى الله عليه وسلم ثم أمر باحضار أهل المدينة بعد كتابتهم وصار يتصدق عليهم ويتأمل تلك الصفة التي رآها في النوم الى أن انفضت الناس فقال هل بقي أحد قالوا لم يبق سوى رجلين صالحين عفيفين مغربيين يكثران الصدقة فلما رآهما اذا هما الرجلان اللذان رآهما منا ما فسأل عن منزلهما فأخبرانه ما في رباط خارج المسجد بقربه جهة الحجرة الشريفة فأمسكهما ومضى الى المنزل فلم يجد به سوى ختمتين وكتبا في التصوف ومالا كثيرا وأثنى عليهما الاهالي ثناء كثيرا فرفع السلطان حصيرا في البيت فوجد تحته سردابا ذاهبا صوب الحجرة الشريفة فارتاعت الناس لذلك وقال السلطان اصدقاني وضربهما حتى أقرا بانهما نصرانيان بعثهما ملك من النصارى في زى الحجاج وأعانهما بأموال كثيرة للتوصل للذات الشريفة ونقلها فنزلا باقرب رباط وصارا يحفران ليلا ولكل منهما محفظة جلد يملآنهما ترابا صباحا ويذهبان الى المقبرة فيفرغانهما هناك على عدة كرات وهكذا دأبهما منذ مدة فقتلوهما عليا وعمل ذلك الحاجز الرصاص رحمه الله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه ومن والاه ولا يخفى ان الواقعة كانت مدة حرب الصليب فرأى أحد ملوك النصارى المحاربين للمسلمين ولم يعينه أصحاب التاريخ لعدم اعتنائهم اذذاك بمثل ذلك حتى انك تراهم يذكرون الوقائع الحربية في الشام مع النصارى ولا يذكرون من هم حيث نصبت اذذاك ملوكهم مع الباباوصار وايدا واحدة على المسلمين ولذلك لم يعين الملك المرسل لذينك الرجلين لاجل مكيدة المسلمين بنقل نبيهم اليهم والتشفي منهم ولاجل ابطال معجزة تعيين محله عليه الصلاة والسلام دون غيره من الانبياء عليهم جميعا الصلاة والسلام وفي المدينة المنورة أسواق وصناع لكل ضروري ومدارس لسكنى المهاجرين وكتب موقوفة في عدة خزائن بمكتبات أهمها مكتبة عارف باى ورأيت بها كتابالم أكن أعرفه وهو الجامع الصغير في النحو لابن هشام مع اشتهار كتبه وطرق المدينة غالبها ضيق لا يمر به الا رجل واحد الا طريق الباب المصري الموصل لباب السلام وقرب الباب المصري المناخة وهاته المناخة بطحاء وسيعة وحولها مخازن للذخائر ومن عادات أهل المدينة انهم لا يركبون داخلها تأدبا مع النبي صلى الله عليه وسلم الا المعذور واذا لاقى أحدهم غيره خارجها وهو راكب ترجل له عملا بالاثر المروى وبقية عوائدهم على ما سيأتي في العادات العامة غير ان اخلاقهم رضي الله عنهم أحسن أخلاق أهل الارض فيما علمت من لين الجانب وصفاء القلب ومواساة القريب والبعيد

والبعيد والكرم ولو كان بهم خصاصة وحرية النفس والشهامة والشجاعة فهم أهل
لذلك الجوار كما ورد وصف مدحهم فى القرآن العظيم ومن وفد عليهم تخلق بخلقهم
لان أصل الانصار لم يبق منهم هنالك الا عائلة واحدة وبقية السكان كلهم من الوافدين
فيما بعد الا السادة الاشراف حقا فهم من أبناء سيد الوجود وابن عمه سيدنا على رضى
الله عنه وأما بقية المهاجرين فلم يبق من نسلهم هنالك أحد معروف سوى واحد نقيب
فى ضريح سيدنا حمزة هو من بنى العباس رضى الله عنهم أجمعين

﴿ مطلب فى صفة موكب الحج ﴾ لما كان الحج فرضا على كل مستطيع له من المسلمين
فهم يهرعون اليه من كل فج عميق فيجتمع المسلمون من جميع قبائل الارض من مشارقها
ومغاربها وقد كان فى الزمن السابق يأتى أكثرهم برا أما بعد حدوث البواخر فصار
الاكثر يأتى بحرا بالركوب فى البواخر الا من كان من أهالى جزيرة العرب فانهم يأتون برا
وكذلك الركب المصرى وان بطل سفره برا عند طبع هذا المحل وأما عند حجى فانه كان
يأتى برا ومثله فى الاتيان برا الركب الشامى الذى كان يخرج من القسطنطينية ويأتى
الى دمشق الشام ويجتمع هنالك بركب العراق مع حجاج الشام ويسافر الجميع الى مكة
وصورة هاته الاركاب هو أن يعين السلطان حاكما من رجال دولته على الركب ويصحبه
أمين الصرة أى الحامل للاموال المعينة لمصاريف الحرمين ولسائر المتوظفين وللاعراب
الذين لهم عوائد من الدولة وتلك الاموال مأخوذة من دخل أوقاف الحرمين ومن خزنة
الدولة كل لما يخصه وكذلك يحمل الهدايا والصدقات الخاصة التى يرسلها السلطان
وأهالى دولته وسكان قصره بحيث يجتمع عنده أموال جسيمة وقد سمعت ان الذى ترسله
الدولة للقيام بما يعود اليهما من جميع ما يلزم الحرمين سواء كان من الخزنة أو من الاوقاف
هو الآن نحو مليونين ونصف فرنك عدا الهدايا الخاصة ثم يعين مع هؤلاء قسم من
أنواع الجيوش فرسان ومدافعية ورجالة وتنصب لهم خيام للرحلة بها ثم ينضم اليهم
كل من أراد الحج بخيامه وسائر لوازمه كل حسب مستطاعه ويحصل يوم خروج المحمل من
دار الخلافة موكب مشهود ثم يسافر الركب نهارا ويقيم ليلا على مراحل معلومة الى أن
يصل الى مكة وكلما مر على بلد انضم اليه حجاجها وقد بقى الحال الآن على ذلك سوى
كون السفر من الآستانة الى مرسى بيروت صار بحرا ثم من بيروت الى دمشق الشام يسافر
من غير أبهة ولا انتظام ومن دمشق ترتب له العساكر وغير ذلك ويسافر على نحو ما ذكر
وعلى نحو منه الركب المصرى وأما القوافل من الجهات البرية فانها تأتى كل قافلة

عليها تشويش للرفقاء ويسافرون حسب استطاعتهم فاذا اجتمع الجميع في مكة واتخذ كل منهم مكانا يخصه للاقامة فيه خرجوا اليوم الثامن من ذى الحجة الى منى ومنها الى عرفات وهم محرمون فيقفون يوم عرفة وبعد الغروب يفيضون الى المزدلفة ثم قبل الشروق يأتون الى منى وذلك يوم العيد ويقيمون ثلاثة أيام لاداء المناسك ويحصل ليلة ثانى العيد أفراح عظيمة من عسكرى الاركاب بالالعاب النارية واعمال صور حربية بالمشاهدة لكى يحصل ارهاب الاعراب من الحركات العسكرية وسرعة سلاحهم وعظم مدافعهم ثم فى صبيحة يوم ثانى العيد يحصل موكب عظيم فى منى لدى فسطاط الشريف أمير مكة فيحضره الوالى وأمراء الاركاب ورئيس العساكر بالحجاز وسائر الاعيان من أهل مكة والحجاج كلهم بالملابس الرسمية ولما يجتمع الموكب يخرج السيد الامير الشريف ويقف فى الصدر وتقف الناس حوله على حسب مراتبهم ثم يتلى المنشور السلطانى المؤذن بالثناء على الامير وتقليده الامارة أو ابقائه فيها وتحريضه على ادامة الامن والقيام الواجب بحقوق الحرمين والاهالى وهو باللغة التركية ثم يتلى تعريبه ثم يخلع عليه أمير الركب الشامى الخلعة التى يرسلها أمير المؤمنين الى أمير مكة السيد الشريف وهى جبة من الجوخ واسعة سوداء مطرزة بالذهب ثم يقبل الجميع بالتهنئة السيد الامير ثم يتفرق الناس لتهنئة بعضهم بعضا ثم يسافر كل ركب بعد عوده الى مكة فى يوم معين بعد اداء جميع المناسك وتسليم الاموال لاصحابها والمقبضين بها من الامراء والرؤساء وكل منهم أى الاركاب يعود الى بلاده على الطريق الذى قدم منه ويكون كل ركب كانه بلد راحل يحصل فيه من النزهة والانشراح لذوى اليسار ما ترغب فيه النفوس هذا ولا يخفى ان مناسك الحج مقررة فى كتب الفقه بل وقد خصصت بها تآليف منفردة لعلماء كثيرين فلا يمكن لنا الاتيان بذكرها لانها خارجة عن الموضوع وانما الذى يناسب ذكره هنا هو ان الحج من أحد أركان الاسلام الخمس وهى كلمة الشهادة أى أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت على من استطاع اليه سبيلا وهو فرض مرة فى العمر ويندب تكراره كلما استطاع الانسان وقد ذكر العلماء حكمة مشروعيته كما ذكروا الحكمة فى مشروعية جميع الاركان وحاصل ما أشاروا اليه هو كونه شكر الله على ما منحنا به من نعمة السلطة على الانعام أى الحيوانات وهو عبادة مركبة من أعمال بدنية وأعمال مالية ويمكن ان يكون مشتملا أيضا على حكمة أخرى مرعية فى نظر الشارع وهى أحكام الوصلة بين قبائل المسلمين

المسلمين وتعرفهم ببعضهم واطلاع كل منهم على حاجات أخيه وعوائده ليعين كل منهم أخاه فى الحضرة والغيبة بما يستطيع حسبما أمره الشارع بذلك وينتج منه مزيد المواصلات بين الامم والشعوب والقبائل من مشارق الارض ومغاربها كما هو الامر الواجب شرعا فى جعل المؤمنين عصابة واحدة وقد مثلهم الشارع بالبنيان يشد بعضهم بعضا ومثلهم بالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد وجعلهم اخوة فى رحم الدين الواحد الى غير ذلك من النصوص الدالة على اتحادهم ووحدتهم مما لا يمكن ايجاده بدون تعرف فجعل لهم فى كل سنة موعدا يجتمعون فيه ليحصل ذلك القصد وفيما تضمنته مناسك الحج ايماء الى ذلك حتى يحصل على أكمل وجه فانه عين لهم المحل الذى يجتمعون فيه بصورة لا يحصل معها تأكد من بعضهم على بعض فى التفضيل كما لو كان الاجتماع فى بلد قبيلة أو جهة دنيوية بل جعل ذلك المحل هو خاص وخالص النسبة للخالق جل وعلا وحده ثم عند زيارة نبيه الذى هو واسطتهم الى خالقهم فلا يحصل من قصد ذلك المحل أدنى امتياز بغير القلوب ثم انه أوجب عند أول القدوم الى ذلك المحل الاحرام الذى هو من جملة ما تضمنه ترك لبس المخيط وغيره من سمات الرفاهية التى يحصل فيها التحاسد بحيث يكون الناس كلهم سواء لافضل لملك على راع ولا لعالم على جاهل وأوجب على من اضطر الى ترك ذلك أن يزيد فى الاحسان والصدقة الجالبة لقلوب الفقراء الذين هم مظنة انكسار القلوب مما يرونه من الرفاهية فيعوض ذلك بزيادة صلاتهم والاحسان اليهم والاحسان يجلب القلوب فتعتدل الحال وكذلك شرع مزيد النفقات والاحسان على حسب رتبها واستطاعة المنفق لكى يزيد التوادد ثم قصر ذلك الاحرام على مدة مخصوصة هى مظنة حصول التعرف واستقرار التوادد بين الافراد فاذا حصل التوادد وتأكد بالصلات يبعد زواله بمجرد رؤية أثر النعمة على المنعم عليه ولذلك اباح اللبس حينئذ وكذلك شدد النهى والنكير على الجدال فى الحج الموجب للتباعد الذى هو نقيض المقصود كما شدد مثل ذلك فى الفسوق الذى هو موجب لاستنقاص العبد بمعصية خالقه فيقول أخوه اذا كان هذا لم يراع حق الخالق فى بلده الامين فكيف يراعى حق أخوتى بالغيب وكذلك منع التمتع بالنساء لكى لا ينصرف الفكر هنالك الا لطاعة الخالق وحده ومن طاعته ما أشرنا اليه من احكام الوصلة مع اخوانه المؤمنين وهذا الامر وهو كون الحج مشتملا على حكمة الوصلة بين الامم قد أشار اليه بعض المتأخرين تبعا لبعض المتقدمين فى التحريض على مزيد المواصلة

بين الامة وقالوا ان أهل المحلة الواحدة أكد عليهم الشارع زيادة عما يلزم في حق الجوار أمراً تضمنته عبادة الخالق وهو اجتماعهم خمس مرات في اليوم بمسجد محلاتهم للصلوات الخمس فيجتمع الاعلى والادنى في صعيد واحد ببيت الله على سواء فيروا أحوال بعضهم ويتأنس البعض بالبعض لكي تتأكد الوصلة الروحية بالوصلة البدنية ويعمل كل بما يجب عليه في حق أخيه ثم أوجب على أهل المصر الواحد الاجتماع العام في يوم من الاسبوع وهو يوم الجمعة ليحصل ما أشير اليه مع جميع أهل المصر ثم زاد لهؤلاء يومين آخرين في كل سنة على حالة مخصوصة من اظهار الترفه لكل واحد بحسب حاله حتى يستدل غيره بهيئته على حالته ليعلم مقتضى الحال في الوصلة وذلك يومي العيد وكان وجه تكريرذلك مرتين احداهما بعد الصيام شهرا المؤثر في الخلق وفي الخالق والثانية في وسط العام على معتاد الناس لمزيد التدين فيما يقتضيه الحال للتعرف بالفراسة وأكد الشارع في جميع هاته الاجتماعات باجتناب المنفرات وباجتلاب المقربات كالتباعد من أكل الثوم وكالتطيب والنظافة ثم أوجب على كل فرد الحج مرة في العمر ورغبه فيما زاد على ذلك ليحصل ما أشرنا اليه في الحج ولا شك أن التيسير للعجز لا يحصل لجميع أهل القطر كلهم في عام واحد فيحصل على الاستمرار اجتماع الامم من كل قطر في عام فاذا حصل منهم ما أشرنا اليه دامت المواصلة بينهم ولا أقر انها تحصل في ذلك الوقت وحده أما اذا عمل بمقتضى التعرف فانها تشتد الوصلة بالمراسلات والاسفار والتجارة فضلا عما يجب أحيانا من الفزع من أمة الى اعانة أمة أخرى وانقاذها اذا هجم عليها العدو كما هو معلوم في وجوب القتال وجوبا عينيا على كل فرد فيما اذا هجم العدو على قسم من الامة وعجز أو تقاعس عن دفاعه فانه يجب على من جاوره أو بلغ اليه الخبر انقاذه ومنه يسري الى من وراءه وهكذا حتى يعم الوجوب المشرق والمغرب ولو على النساء والاطفال ممن يقدر على الدفاع وما ذلك كله الا لتوحد المؤمنين وحفظ بيضتهم الاسلامية لكنا الآن نرى أن الناس غافلون عن جميع ما ذكرناه ولا يعتبرون تلك الحكمة ولا يلتفتون اليها ولا نرى الا أهل كل اقليم مقتصرين على مجرد المخالطة مع بعضهم فقط بل ربما لا يخالطون ولا يتعرفون الا بمن عرفوه في بلدهم سابقا فضلا عن التخالط مع أهالي الاقاليم الاخر كأنهم ليسوا منهم ولا هم مكلفون بالوفاء لهم بحاجاتهم حتى انه ترجع الناس الى أقطارهم من غير شعور لهم بشئ من حالة اخوانهم في الاقطار الاخر كأنهم لا مطالب لهم بشئ وقد كانت رجال الامة على غير هذا وكانوا ملاحظين لما ذكرناه فترى من جملتهم يتعرف بأهالي

الارض

الارض وحصل بذلك اشتهار رجال الامة فى الاقطار لا سيما العلماء والصالحين فانهم يتشرفون بذكرهم ويطيرون بطهم بما يسمعونهم من الحجاج وان لم يروه فى جهتهم ومن طالع التواريخ والسير والرحلات علم من ذلك كثيرا فسبحان محول الاحوال وهو الباقى لا رب سواه

الفصل * الثالث

﴿ فى التعريف بالحجاز ﴾

اعلم أن الحجاز قسم من جزيرة العرب ممتد على شاطئ البحر الاحمر وحدوده الآن التى تحت تصرف الدولة العثمانية هى انه يحده شمالا العقبة وغربا البحر الاحمر وجنوبا اليمن من قرب صنعاء وشرقا الحناكية وهى تبعد شرقا عن المدينة بمرحلتين فى حدود نجد وهذا الحجاز أحد أقسام جزيرة العرب الخمس وهى اليمن وهو القسم الجنوبى منها الممتد على شاطئها على المحيط الهندى الى أن يصل الى خليج فارس والحجاز هو القسم الثانى وهو القسم الغربى منها الممتد على شاطئ البحر الاحمر ويليه شرقا القسم الثالث وهو نجد يتصل شمالا بالشام ويحده غربا الحجاز وشرقا العراق وجنوبا اليمامة والقسم الرابع تهامة وكان مقره بين الحجاز واليمن ويمتد من البحر الاحمر الى أن يتصل باليمامة على خليج فارس فيحده جنوبا اليمن وشمالا الحجاز ثم نجد وشرقا اليمامة وغربا البحر الاحمر وقد اضمحل هذا القسم فى اعتباره السياسى وصار مقسما بين جيرانه والقسم الخامس هو اليمامة وهى يحدها جنوبا اليمن وشمالا العراق وشرقا خليج فارس وغربا نجد وكذلك هذا القسم صار فى السياسة تابعا لغيره لنجد فتلك الاقسام هى الاقسام الاصلية لبلاد العرب التى كانت معتبرة أقساما أصلية للقارة وان كانت لا فرق بينها من جهة طبيعة الارض غير ان القسم المشهور بحسن الهواء وخصوبة الارض وجودة الحيوانات فهو قسم نجد وطال ذكره فى أشعار العرب وامتداحه بينهم وأما بقية الاقسام كلها فما كان منها مرتفعا فهو جيد الهواء وخصب النبات وما كان منخفضا فهو حار أجدب وعلى ذلك النحو ما نحن بصدده وهو الحجاز وقد علمت حدوده الآن واما جباله فهى كثيرة وان شئت قلت انه كله جبال نحلة صخرية متشققة سوداء من شدة الحر واشهرها جبل الكانى غير انه فى مستهل جمادى الثانية سنة ٦٥٤ حصل فى المدينة المنورة وما حولها زلزال شديد دام ازيد من ثلاثة أيام بلياليها ثم اعقبه خروج نارها ئلة من جهة جنوب

المدينة على مرحلة منها من جهة الموضع المعروف (حبس وسيل) وسالت النار في وادى آحيلين كالنهر العظيم تحطم جميع ما مرت به وتجعل الصخور ذائبة مائعة تجرى كالنهر العريض العظيم وامتد سائلا الى قرب المدينة أى الى أن بلغ حرمها فصرف عنها ساذات الشمال ووقف وانطفأت النار بعد ان كانت ظهرت أول يوم نهار الجمعة كالغمام الاسود الذى عم الافق حتى أظلم الجو وظنوا أن الشمس والقمر قد كسفا ثم لما أظلم الليل ظهر ضوؤها وعلا في الجو الى أن رئيت من حول بصرى ومن مكة والطائف وكان لها دوى كالرعد ونهرها يغلى بأمواج كالبحر من النار المتلاطمة وتقذف في الهواء الصخور كالجبال والمدن ونهرها ذو الوان زرق وحمر ورعبت منها قلوب الناس والتجؤا الى ملاذ الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما بلغ سيلها الى حرم المدينة صرفت وانطفأت ومع عظيم لهيبها وسطوع ضوئها على الاماكن البعيدة لم يصل من حرها الى المدينة المنورة شئ وكان النسيم يأتيها باردا وكان خروج تلك النار احدى معجزاته صلى الله عليه وسلم التى لا تحصى فقد روى البخارى ومسلم في صحيحيهما وهما في أول القرن الثالث حديث لا تقوم الساعة حتى تظهر نار الحجاز وللبخارى تخرج نار من أرض الحجاز تضىء أعناق الابل ببصرى ورواياتها كثيرة حتى كان في احداها تعيين محل خروجها وانذار الساكنين به منها فكان الامر كما قال صلى الله عليه وسلم وبقية جبال الحجاز كثيرة منها المشهور كاحد وأبي قبيس وعرفات وهو ليس بمرتفع ومن أحسن جبالها هواء الطائف فانه في شدة الصيف يكون معتدل الهواء وهو مصيف أعيان مكة وجدة وأما أنهار الحجاز فليس به نهر مستديم وانما تسيل الانهر به عند نزول المطر حتى ان أحدها يأتي من جبال الطائف ويمر على المدينة المنورة على صاحبها أكمل الصلاة والسلام ثم يذهب مغربا الى البحر وأما البحريات فليس بالحجاز بحيرة وأما العيون فبها عيون عظيمة عذبة احداها العين الزرقاء التى تسقى المدينة وهى نابعة من قباء تحت الارض في عمق عدة أذرع وتذهب الى المدينة تحت الارض وعليها عدة منافذ لملء المياه وفيها الكفاية لجميع البلد وما حولها وانما سميت الزرقاء نسبة لجاذبها مروان بن الحكم أزرق العينين أجراها بأمر معاوية رضى الله عنه ومنها عين زبيدة التى تسقى بها مكة وهى آتية من قرب عرفات تحت الارض مثل السابقة وقد أجرتها زبيدة زوج الرشيد العباسى وقد عمرت الآن عمارة حسنة صارت بها في غاية الانتظام ومنها عين بلد الصفراء وهى أيضا تحت الارض لكنها ليست بمخفضة بل انها تبعد عن سطح الارض نحو ذراعين وبها ماء غزير صاف عذب حار يشرب فاذا حل في

الاوانى

الاوانى برد وهى تغور بعد البلد فى الارض ولا ينتفع منها الا بشئ يسير للشرب وسقى بعض بساتين ومثلها عين البلد الجديدة مع أن كلا منهما يصلح لسقى غاية عظيمة مع حسن الماء وجودته فقد شاهدت عين الصفراء وقد أناخت حولها قافلتنا المحتوية على أزيد من ستمائة نسمة وهرع الى العين جميعهم لغسل ابدانهم وثيابهم بل ولغسل اكراش الغنم التى ذبحت يومها فى القافلة ومع تراكم تلك الاوساخ كنت أرى الحصباء كالفضة فى مجرى العين والماء يزيد عمقه عن ذراعين وأما هواء الحجاز فهو على الجملة حار لكان عرضه من خط الاستواء ولا شك أن الاودية بين الجبال تزيد حوا بخلاف المرتفع ولذلك يختلف الحال فمع كون مكة المشرفة شديدة الحر حتى انى كنت بها فى دجنبر ولما أردت صلاة العشاء فى الحرم لم استطع الجلوس على الارض بدون بساط فى وقت العشاء لما أثرت الشمس فى الارض فان الطائف لا يمكن فيه فى الصيف الا التدثر فى الليل بالغطاء الثخين وقد شاهدت من أمر السراب شيئا عجيبا فانى لما كنت مسافرا من مكة الى المدينة سمعت من اصحاب القافلة انهم يقولون ان الماء هنا ليس بموجود ولا بد من المبيت على الماء وكان الوقت بعد العصر فرأيت على قرب من الطريق غدرانا كثيرة فسألت الجمال هل هنا سبخة أم ان المطر صبت قبل مرورنا فقال كل ذلك لم يقع فقلت من أين هذه الغدران حينئذ فقال ليس هنا غدران وانما ذلك سراب فلم نطمئن لقوله وأرسلت أحد أتباعى باناء لملاءه من ذلك الماء الذى أريته له فشاهده وذهب اليه فلما بلغه صاح لى قائلا ليس هنا شئ فضحك منى الجمال وما ذلك الا للتعود فانى لم أعهد السراب على ذلك النحو وذلك لحر القطر وتأثر الهواء بذلك وأما نباتاته فينبت بالحجاز جميع النبات الذى يكون بالاقاليم الحارة ووراء جبل أحد من الشق المقابل للمدينة غابة كبرى بها عيون ضعيفة وأشجار كثيرة صالحة للبناء بأخشابها وأكثر الشجر المستنبت النخيل على أنواع شتى وبقية الشجر ذو الغلال يغرس منه الليمون بكثرة والبردقان والعنب والرمان وهو جيد للغاية لا سيما رمان الطائف والتين كما يستنبت بعض البقول مثل البامياء والطماطم وقليل من بقية المستنبتات ومن تأمل الحكمة فى حماية أشجار الحرم المكى والمدنى من القطع علم قصد الشارع الى استكثار الشجر هنالك لما يعود منه لحمته على الامة فانه يجلب السحب ويكثر المطر ويحسن الهواء ويشرح النفوس ويقى الناس من الشمس ويلطف الحر ويوقد بفواضل ما يقطع منه للتحسين ومن شاهد تلك البقاع علم شدة الاحتياج الى الاستظلال من الشمس وعلم حكمة تحريم الشجر حول البلدين المكرمين

الذين تلزم عمارتهما وتهرع الناس اليهما من كل فج عميق وقد أشار الى حكمة تحسين الحرم بالشجر وحرمة قطعه بعض العلماء ومنهم السمهودى فى خلاصة الوفا باخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم فقال قال الطحاوى يحتمل أن يكون سبب النهى عن صيد المدينة وقطع شجرها كون الهجرة كانت اليها وكان بقاء ذلك مما يزيد فى رؤيتها ويدعو اليها كما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن هدم آطام المدينة فانها من زينتها فلما انقطعت الهجرة زال ذلك الخ وقوله انقطعت الهجرة أى بقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح وكلامه تعليل لمذهب الحنفية فى عدم تحريم المدينة وأما الأئمة الثلاثة فهم على تحريمها مثل مكة وأدلتهم قوية والحاصل أن مرادنا هو أن تكثير الشجر فى البلاد لاسيما البلاد الحارة مما يرغب فيه وقد صرح الفقهاء فى كتاب السير بالنهى عن قطع شجر دار الحرب بلا حاجة اليه فكيف بغيرها فضلا عن دار خير الخلق عليه الصلاة والسلام القائل بتحريمها وتحريم ما حولها أكثر الائمة رضى الله عنهم مع الفائدة الظاهرة من ذلك (وأما) حيوانات الحجاز فيوجد به الحيوانات الانيسة المعلومة كلها لاسيما الخيل العرابية التى يضرب بها المثل فى الدنيا وترغب فيها جميع الامم واعلاها الخيل النجدية وكذلك الابل الجيدة لاسيما النجيبات السريعة مثل ماذكرنا بمصر واحسن منها كما توجد البغال بقلة والحمير بكثرة والحيوانات البرية كلها موجودة الا القليل كالدب والفيل (وأما) الاسد والنمر فوجود بكثرة وكفى بما ذكره بشر فى قصيدته التى شطرها الشيخ قبادو التونسى بعد ان زاد عليها مطلعا بيانا لحالة أسود أرض العرب وتلك القصيدة لما كانت بديعة أثبتها هنا مع تشطيره المنظر براعة المشطر الذى صار كأنه بدوى قح مع كونه حضريا بحت وهى

(أفاطم لو شهدت ببطن خبت) * لهانت عندك الاخبار خبرا
ولو أشرفت فى جنح عليه * (وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا)
(اذا لرأيت ليثا أم ليثا) * وكل منهما بأخيه مغرى
يرى كل على ثقة أخاه * (هزبرا أغلبا لاقى هزبرا)
(تبهنس اذ تقاعس عنه مهرى) * وأقبل نحوه أذنيه ذعرا
فكاد يريه فيخال منى * (محاذرة فقلت عقرت مهرا)
(أنل قدمى ظهر الارض انى) * أرى قدمى للاقدام أحرى
ولست مزحزحى شيئا ولكن * (رأيت الارض أثبت منك ظهرا)

(وقلت

(وقلت له وقد أبدى نصالا) * يا هرة فاغر يهرون صرا
وسوسا ذات ألحاظ تلظى * (محددة ووجها مكفهرا)
(يكف كف غيلة احدى يديه) * كالى القوس ينزع مسبطرا
ولا يثنى براثن منه الا * (ويبسط للوثوب على أخرى)
(نصحتك فالتمس يا ليث غيرى) * فلى بقياعليك وأنت أدرى
ومهرى قال لك لا تخالى * (طعاما ان لحمى كان مرا)
(ألم يبلغك ما فعلته كفى) * الست ترى بها الاظفار حمرا
ألم تك طاعما اشلاء فتكى * (بكاظمة غداة قتلت عمرا)
(فلما خال ان النصح غش) * وغرته الجراءة فاستغرا
وجع على التهور فى نزال * (وخالفنى كانى قلت هجرا)
(مشى ومشيت من أسدين راما) * مساورة فلاقى البحر بحرا
ورجا الارض اذ بغيا عليها * (مراما كان اذ طلباه وعرا)
(سللت له الحسام فخلت أنى) * اسلت من المجرة فيه نهرا
ولم أمش الضراء له لانى * (شققت به لدى الظلماء فجرا)
(وأطلقت المهند من يمينى) * فاوثقه لغير المن أسرا
بابريق هفا هفوان برق * (فقد له من الاضلاع عشرا)
(فخر مضرجا بدم كأنى) * بجبهته أفضت عليه سترا
وكدت لهول وجهته أرانى * (هدمت به بناء مشمخرا)
(بضربة فيصل تركته شفعا) * وشقاه لقى بطنا وظهرا
وشكلما اثنى منها مثنى * (لدى وقبلها قد كان وترا)
(وقلت له يعز على انى) * أرالك مسفرا شطرا فشطرا
واستحى المروءة أن ترانى * (قتلت مناسبى جلدا وقهرا)
(ولكن رمت أمرا لم يرمه) * أبى لا يبيع النفس خسرا
ولم يك سامنى بالنصح خسفا * (سواك فلم أطق يا ليث صبرا)
(تحاول أن تعلمنى فرارا) * فهل علمت نفسك أن تفرا
وتنفض مذرويك لفعل عزمى * (لعمر ابيك قد حاولت نكرا)
(أتيت تروم للاشبال قوتا) * طلات به الدماء ورعت سفرا

ولكنى أقيد بها وأحمى * (وأطاب لابنة البكرى مهرا)
(فلا تبعد فقد لاقيت حرا) * برى ويقرّان أبلغت عذرا
وعن كرم برزت الى كريم * (يحاذر أن يعاب فتحرا)
ولا أسف على عمر تقضى * أفادك منه حسن الذكر عمرا

* وأما معادن الحجاز فانه يوجد به المرمر الرفيع ويوجد قريبا من المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام حجر البلور المشابه للالماس ويوجد أيضا الذهب وكان مستخرجا ثم دثر ولا يبعد وجود الفحم الحجرى وكذلك غيره من المعادن المحتاجة للبحث عنها * وأما مدن الحجاز فاصل قاعدته وقاعدة عموم الاسلام هى المدينة المنورة وكانت مدة اقامة الخلافة بها اتسعت وكبرت وكذلك بعد ذلك فى العصور الاولى من الاسلام وان حدث فيها الخراب الكلى والجلاء العام مدة يزيد ثم دون ذلك مدة القرامطة ثم تراجع عمرانها الى النمو ثم عادت الى ماهى عليه الآن مما ذكرناه فى صفتها وقاعدة الحكومة الحجازية الآن هى مكة المشرفة وقد مر ذكر صفتها ومن اعتبر ماجرى عليه الحال فى ظهور الاسلام يرى ان عناية الله بالمدينة عظيمة وقد جعلها مظهرا للدين القويم وانتصار الرسوله الامين عليه الصلاة والسلام وكانت مكة تابعة فى الحكم للمدينة حتى بعد فتح مكة وقد خاف الانصار عند الفتح انتقال النبى صلى الله عليه وسلم الى بلده الاصلى فاعلمهم بانه لايفارقهم واستقرهو ومن بعده من الخلفاء الراشدين بالمدينة الى خلافة سيدنا على فكان صدرها بالمدينة وآخرها بالكوفة ومع ذلك فقاعدة حكم الحجاز هى المدينة وذلك هو الموافق لحالة السياسة لتوغل المدينة من القارة واذا كان الحاكم فى مكان تمهدت سائر السبل اليه وعلى تقدير حدوث بعض العوائق فى الطرق يزال عن محل وتنفذ الاحكام فى الاطراف لاستقرار القوة فى الوسط وليست مكة المشرفة على ذلك النمط وقد تغير الحال مرارا مدة الاسلام فى قاعدة الحكم بالحجاز فكان الامر على ماذكرناه من كون المدينة هى القاعدة ثم انفردت مكة بحكمها وبقيت المدينة مستقلة ثم صارت الاحوال تتقلب فتارة تكون مكة تابعة وتارة متبوعة وتارة يستقل كل منهما بحكم ولو بعد استقرار الدولة العثمانية والذى عليه العمل الآن هو أن مكة هى القاعدة وللمدينة حاكم يرجع فى أمره الى حكومة مكة وأما بقية المدن بالحجاز فليست بموجودة وانما الموجود عبارة عن قرى مثل الطائف وهى أكبرها والصفرا والجديدة وحده ورابغ وخيبر وقد غلط كثير من الجغرافيين حتى من المسلمين فى ذكرهم لسكان هاته البلدة

وكونهم

وكونهم يهوداغترارا بما كان فى أصلهم وغفلة عما وقع فى خلافة سيدنا عمر رضى الله عنه من جلاء جميع الاديان الا الاسلام عن جزيرة العرب مستندا للنص من الشارع فى كونه لا يجتمع بها دينان ومنذ ذلك التاريخ لم يبق بها الا المسلمون وسكانها الآن من ضعفاء القبائل مسلمون وهم تبع لحكم المدينة صورة وفى الحقيقة تحت حكم محمد بن رشيد النجدى أكبر حكام قبائل نجد بل هو الحاكم على جميع أواسط قارة جزيرة العرب وهو على مذهب الوهابى وله نفوذ تام وحكم عادل ذو هيبة وسطوة بحيث أن رقعة منه بيد حاملها تؤمنه فى جميع الانحاء من أواسط القارة ويجلس فى مجلس حكمه ويحضر القاضى ومعه أحد العلماء بصفة المفتى ويقف حوله أصحاب الخيل من أعوانه ليرسلهم فى الخصومات فاذا دخل المشتكى ألقى دعواه على القاضى ويجيب خصمه بما ظهر له ويحكم القاضى بما يراه فيستشير الامير ذلك العالم الحاضر هل ان حكم القاضى موافق للشرع أم لا فان وافقه فيها والا تباحثا وما يرسى عليه ينفذه الامير حالا وأما النوازل المتعلقة بالادارة وحفظ الامن فيحكم فيها باجتهاده مراعيا فيها الانصاف والعدل بما لا يخرجها عن السياسة الشرعية مع الصرامة التامة فى التنفيذ حتى انه قيل انه أتاه يوما رجل وهو فى مجلسه الحكمى وأخبره بأنه وجد عدلا لبعير ملقى فى الطريق وهو مملوء بالرمل ولا يعلم صاحبه فأخبره به لكى يبلغه محله فسأله الامير من أين علمت أنه رمل فقال له انى مسسته فقال له كيف مسسته وبأى يد فقال له مسسته بيدى هاته وأشار باحدى يديه فما كان من الامير الا أن جرد سيفه وقطعها وقال له ما كان ينبغى لك أن تمسه حتى تعلم ما فيه وأى فائدة لك فى ذلك لولا نيتك الخيانة اذ لو وجدته شيأ ثمينا لما كنت أخبرت عنه ومن علم حالات القوم وطباعهم فى هاته الازمان يرى أن ذلك الحكم الصارم مطابق لما يقتضيه الحال اذ لم تأمن ولا ينه ولم تستقر بها الراحة والهناء الا بمثل ذلك الحكم واذا أمر أحدا بأمر ولم ينفذه ونحمله قبيلته على تنفيذه فانه يصدر فى الحال أوامره الى القبائل التى يرعاها الى جهة المأمور بحضور فرسانهم فى وقت معين ثم يركب هو وفرسان جيشه ويأمر بقبيلة من المأمورين المشار اليهم الا انضموا اليه الى أن يعظم جيشه فيصل الى المأمور وقبيلته ويأخذهم أخذ رابية ويملك أرزاقهم لمن كان معه من المعسكر وبمثل ذلك نفذ أمره وعلا صيته وخضعت القبائل اليه مع كونه جوادا وفيا بالعهد عالى الهمة على شيمة كرام العرب وهاته البلدان المار ذكرها أغلبها به حصن أو بقربه حصن لاقامة العساكر للمحافظة على الامن غير ان أغلب الحصون صار خرابا

للاهمال وليس به حامية وأما مراسي الحجاز فأعظمها مرسى جدة ثم ينبع البحر وهاته هي أقرب المراسي الى المدينة المنورة بحيث يصلها البريد في يوم وتبلغها القوافل في ثلاثة ثم بقية المراسي على قلتها ليس لها أهمية غير ان الموجود منها كلها هي مراسي أمينة للسفن لما خلقها الله عليه من احاطة الصخور العظيمة حول الحوض الذي ترسي به السفن بحيث يصح أن يقال ان الذين انتخبوا تلك البقاع لجعلها بلادا للمراسي هم من حذاق أهل التدبير واتساع المعارف بالصناعة البحرية فقد شاهدت كلا من مرسى جدة وينبع وحوض كل منهما يسع مئين من السفن الضخام في أمن تام ولو عند تلاطم الامواج التي كالجبال وأغلب الخريتين لا يدخلونها الا بدليل من بحرية أهالي تلك المراسي وقد شاهدت الخريطة البحرية التي في الباخرة المصرية التي سافرت فيها الى جدة معلما بها على جميع الحجارة المستورة بالبحر حوالي شاطئ البحر الاحمر مع بيان حجمها ومركزها وهي من صنع الانقليزيين فسألتهم هل لهم خريطة مصرية أو عثمانية فأجابوا بأن تلك الخريطة هي المعول عليها عند جميع الامم ولو العثمانيين الذين يعد البحر الاحمر بحيرة في مملكتهم من جميع جهاته فعجبت واندهشت من حزم قوم واهمال آخرين وهي احدى علامات تأخرنا اذ صرنا لا نعلم بلادنا وشواطئها الا بتعريف الاجانب لنا بها وسبحان الفعال لما يريد وأما سكان الحجاز فهم كلهم عرب من نسل العرب الاقدمين الاسكان البلدين المكرمين فأغلبهم من الوافدين من جميع الاقطار وأكثرهم بمكة من الهنود وأما في المدينة فأكثرهم من المغاربة وعدد جميع السكان في الحجاز يقرب من نحو مليونين فالذين يعمرون الارض ما بين مكة والمدينة هم قبيلة مزينة وتعرف بالاحامدة ومنها فخذ يعرف بقبيلة حرب وهم التجار ومنهم البغاة الذين يكثرون قطع الطرق بين البلدين المكرمين وهاته القبيلة وهي مزينة المعروفة بالاحامدة تنقسم الى قسمين كبيرين أولهما يسمى المسروح وهم سكان البراري من مكة الى الصفراء وثانيهما يعرف ببني سالم ومنهم فخذ حرب وهم سكان بقية الجهات وديانة الجميع هي الاسلام على مذاهب شتى أغلبهم أهل سنة على المذهب الحنفي والشافعي وانتشر فيهم التعاليم الدينية بكثرة زوايا الشيخ السنوسي المنتشرة في جميع جهاتهم وقد مر الكلام على مذهبهم عند الكلام على جزيرة العرب في المقدمة وعلى حوادث تونس في فصل سفري الى فرانسا كما يوجد المذهب الوهابي بقلة وان كثر في جهات نجد الخارجة عن حكم الحجاز وأما تقاسيم الاهالي بالنظر للحكم فان كل قبيلة لها مشايخ منها ويرجع الجميع الى أمير مكة السيد الشريف

﴿ تم الجزء الرابع و يليه الجزء الخامس أوله فصل فى تاريخ الحجاز ﴾

بحمد من أسبغ نعمه على العباد والصلاة والسلام على بدر الهدى وعلى آله نجوم
الرشاد قد تم طبع الجزء الرابع من صفوة الاعتبار على يد مصححه مصطفى
محمد قشيشة المفتقر الى رحمة الكريم الغفار مصححا كما يرام حاويا
من الفوائد ما يتم به المرام وذلك بالمطبعة الاعلامية التى
هى عن التعريف غنية ووافق طبعه يوم الاثنين
المبارك وهو التاسع من شهر جمادى الاخرى
الذى هو من شهور سنة ثلاث وثلاث
مائة وألف من هجرة من خلق
على أكمل وصف وصلى
الله على سيدنا محمد
وعلى آله
وصحبه
وسلم

﴿ طبع بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٣ ﴾

فهرست الجزء الرابع من كتاب صفوة الاعتبار

صحيفة

صحيفة

صحيفه

صحيفة

صحيفة

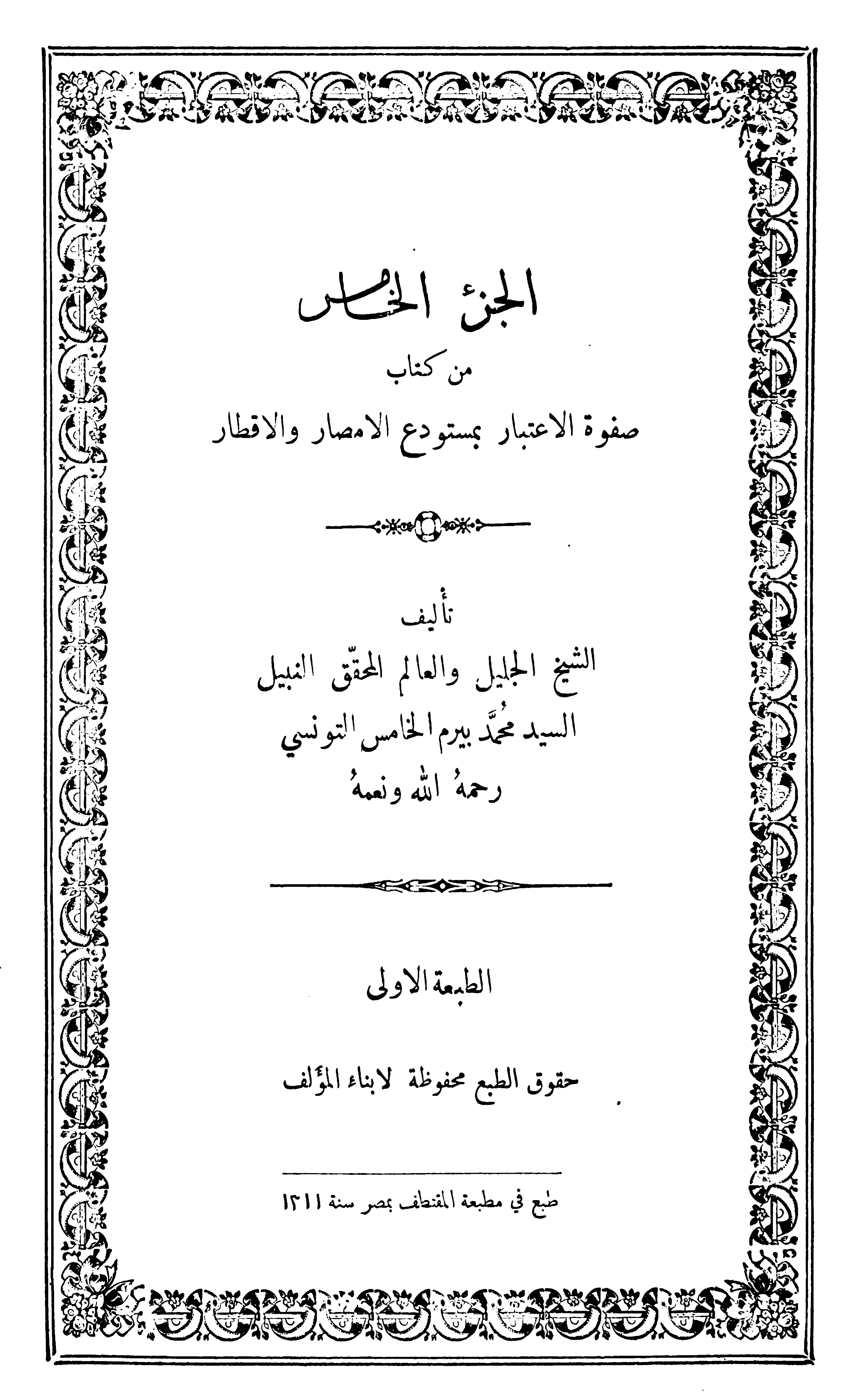
صحيفة

صحيفة

صحيفة

﴿ تمت الفهرست ﴾

﴿ طبع بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٣ ﴾



الجزء الخامس

من كتاب

صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار

تأليف

الشيخ الجليل والعالم المحقّق النبيل

السيد محمَّد بيرم الخامس التونسي

رحمهُ الله ونعمهُ

الطبعة الاولى

طبع في مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٣١١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله اللّهمّ صلِّ على سيّدنا ومولانا محمّد وآلهِ وسلّم تسليماً

فصل في تاريخ الحجاز

مطلب في تاريخهِ القديم

اعلم ان سكان الحجاز هم العرب فتاريخهُ هو تاريخهم نعم قد كان الحجاز معمورًا قبلهم لكن ذلك العمران قد جُهل تاريخهُ بالمرة لتقادم العهد تقادماً كثيرًا وغاية ما يعلم من حوادث ذلك التاريخ هو بعض جزئيَّات لها تعلق ببعض الاماكن المشرفة هناك مثل بيت الله الحرام فانها بُنيت منذ عهد سيدنا آدم ابي البشر عليهِ الصلاة والسلام وجُدّدت ايضاً قبل سيدنا ابراهيم ولكن الاخبار عن ذلك كادت ان تكون خليَّة عن التحقيق ثم انهُ لما تكوَّنت امة العرب واستقرت في جزيرتها حدثت فيها حوادث تاريخيَّة مهمة جدًا غير انها في ذاتها ايضاً منقسمة الى اربعة اقسام باعتبار انقسام العرب في انفسهم لان العرب منذ نشأتهم الى الآن منقسمون الى اربع طبقات فالطبقة الاولى هي العرب البائدة والثانية العرب العاربة والثالثة العرب المستعربة والرابعة العرب المولدين او المخضرمين

فاما الطبقة الاولى فهي التي كانت قبل سيدنا ابراهيم وانما سميت بائدة لابادتها اي انقطاعها وانقطاع اخبارها وان كانت ذريتها لم تزل وهم بقيَّة الطبقات وانقطاع اخبارها انما جاء من شدة طول العهد والامد فلم يعلم من احوالهم الَّا بعض حوادث قصها الله تعالى في القرآن المجيد مثل ما ذكر من احوال رسول الله سيدنا صالح الى قومهِ ثمود وكذلك قصة عاد مع رسولهم سيدنا هود والاشارة الى ما كان لهاتهِ الامة

من القوة والعمران والثروة وشدة البأس الى غير ذلك من احوال انقراضهم والاعتبار بما كان لهم وبقيت بعض آثارهِ في ديارهم واما غير ذلك من تفاصيل تاريخهم فلا يوجد منهُ الاَّ قصص يذكرها بعض المفسرين او المؤرخين لا سند لهم فيها الاَّ الاعجاب بقصص القصاص مماَّ لاينبغي الاعتماد عليهِ اللهمَّ الاَّ ما اذا ورد شيء من ذلك عن الصادق الامين رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فانهُ ينبغي ان يتلقى بالقبول ولعلهُ لا يوجد من ذلك عدا ما في القرآن المجيد الاَّ ما ندر مماَّ روي بصحيح السند وهكذا ما يروى عن الصحابة رضي الله عنهم في ذلك الصدد لانهم اذا صحت الرواية عنهم لايقولون الاَّ ما لهُ ثبوت باحدى الوجوه الموصلة وحاشاهم ان يذكروا خرافات القصاص ولذلك كانت الاخبار عن تلك الطبقة من العرب في غاية الابهام وانما المحقق منها هو انهم كانوا امة عظيمة ذات نخوة وشهرة وعمَّروا الارض عمرانًا عظيمًا وحادوا عن جادة الصواب في عبادة الخالق * فأرسل اليهم الرسل في ازمان مختلفة يدعونهم الى الرشاد فعاندوا الى ان احاط بهم العقاب وطول الزمن الواقع ما بين اولئك الرسل الدال عليهِ سياق القرآن المجيد والدال عليهِ ايضاً نسيان القوم لما كان اصاب سابقيهم يدل على طول الزمن بين سيدنا نوح وبين سيدنا ابراهيم عليهم جميعًا الصلاة والسلام زيادةً على ما يزعم انهُ مذكور في التوراة باضعاف مضاعفة فان تكوُّن الامة وكثرتها بعد الطوفان الى ان تبلغ الى ذلك المقدار من الكثرة والشدة وغير ذلك من الصفات لابدَّ لهُ من زمن طويل كافٍ لتكوُّن ذلك العدد الوافر من رجل واحد ثم ان نسيانهم لمعجزة الطوفان وسبب نجاة جدهم يستدعي ايضاً ذلك الطول ثم ان تعدُّد الرسل مع التعاقب اي ان كل واحد منهم في زمن بعد الآخر وكل واحد منهم يحل العقاب بمن خالفوهُ فبعضهم أُهلك بالريح وبعضهم أُهلك بالصيحة الى غير ذلك يدل ايضاً على شدة طول الزمن فيما بينهم حتى تنوسي خبر السابق وكل ذلك قبل سيدنا ابراهيم عليهِ السلام فلابدَّ ان تكون المدة بينهُ وبين سيدنا نوح طويلة جدًّا لا يعلم مقدارها الاَّ الله تعالى ومجموع ذلك يدل على طول عمر الدنيا وانما غايتها انها حادثة وانها مآلها الى الفناء وهذا كلهُ يبين لنا معنى قولهِ عليهِ الصلاة والسلام بعثت انا والساعة كهاتين وقرن بين اصبعيهِ الكريمتين الوسطى والسبابة وكذلك ما دلَّ من الآيات والاحاديث على قرب الساعة فربَّ قائل يقول اين هذا القرب وهذا الاقتراب وقد مضى من زمن البعثة الى الآن أزيد من الف وثلاثمائة سنة ومع ذلك لم تظهر العلامات الكبرى كنزول سيدنا عيسى عليهِ السلام وطلوع الشمس من مغربها الى غير ذلك فنقول لهُ ان الامور نسبيَّة فمن علم المقدار الكثير

من مدة الدنيا التي مضت وعلم ما بقي منها رأى ان الساعة قربت وانها مقترنة بالبعثة ولا يتأتى ذلك الاَّ اذا كانت المدة الماضية طويلة طولاً كثيرًا كما هو الواقع والمشاهد من حالة الآثار الدالة على ان ما مضى يزيد على العشرات من آلاف السنين فنسبة الفين سنة او ثلاثة آلاف من تلك العشرات من الالف ما هي الاَّ كنسبة المتلاصقين والمقترب واما اذا اعتبر ما يزعمهُ اهل الكتاب من المدة وانها ستة آلاف مثلاً فلا يمكن الفهم الاَّ على ضرب من التأويل الذي لا حاجة اليهِ لمخالفتهِ للواقع ولتبين التحريف الثابت فيما يستند اليهِ اهل الكتاب الذي غرَّهم فيما ذكر فللهِ الحمد على تنزُّه شريعتنا المطهرة عن مثل الخرافات المخالفة للواقع

واما الطبقة الثانية من العرب وهي العرب العاربة فهي التي من زمن سيدنا ابراهيم وسيدنا اسماعيل ابنهِ ابي العرب المعروفين الى عصر البعثة وهاتهِ الطبقة اخبارها معروفة اجمالاً لاسيما قرونها المتأخرة بما يستنتج من اشعارها وقصائدها واخلاقها وان كانت تفاصيل الحوادث التاريخيَّة غير محققة لاسيما القرون الاولى لها والمتوسطة لعدم وجود تواريخ محررة في اخبار هاتهِ الامم من العرب دوّنت قبل الاسلام وانما الذي يوجد في ذلك من التآليف انما هو بعد الاسلام عند ما حدث تدوين الكتب في الامة الاسلاميَّة وذلك من القرن الثالث من الهجرة فيوجد في التواريخ الاسلاميَّة اخبار كثيرة عن هاتهِ الطبقة وكثير منها تلوح عليهِ سمات الصحة لما يؤيدهُ من الاشعار في الوقائع وحوادثها واتياننا على جميع ذلك في هذه الخلاصة مغاير لمقصدنا لانهُ لا يكون الاَّ زيادة نسخة من احدى التواريخ المشتهرة في ذلك مثل تاريخ المسعودي او تاريخ ابن خلدون او غيرهما من التواريخ الكثيرة وانما الذي يليق بنا ذكرهُ هو ان نقول ان هاتهِ الامة قد انتشأت فيها دول عظيمة وممالك واسعة وكانت في أغلب الاوقات منقسمة الى ثلاثة اقسام جنوبي وشمالي ووسط

فاما القسم الجنوبي فهو اليمن وحدثت فيهِ دول عظيمة مستقلة بنفسها في أغلب الاوقات ولكنها لم تتسلط على غيرها من الامم الاَّ نادرًا نعم قد يتسلط عليها غيرها احيانًا فتارةً تكون تابعةً لملوك فارس وهو الاكثر وتارةً تتبع دولة الحبش او دولة اليونان او الرومان او المصريين وفي كل الاحوال الاغلب ان يكون حكامها منها وان كانوا تابعين لغيرهم ممن ذكرناهُ ونشأ فيهم تمدنًا جميلاً كما تدل عليهِ الآثار التي حول المدن القديمة مثل صنعاء وغيرها وصار في اليمن رجال ذوي فطنة وفكر وقاد وتأهل للكمال كما يرشد اليهِ الحديث الشريف القائل الايمان يمان والحكمة يمانية او كما قال عليهِ الصلاة والسلام

واما القسم الشمالي فهو مملكة غسان اي الجهة الموالية للشام والعراق فهاته كثيرًا ما حدثت بها دول مستقلة ذات شأن لكنها لم تبلغ مقام دول اليمن وفي اكثر الاحوال تكون هاته المملكة تابعة لصاحب ملك الشام كالرومان وغيرهم وفي اكثر الاحوال ايضًا تكون رؤساؤهم منهم وان كانوا تابعين لغيرهم

واما القسم الثالث وهو الوسط الشامل للحجاز ونجد وتهامه فالحجاز منهُ في أغلب الاوقات ان لم نقل في كلها كان منفردًا

واما غيره فيكون تارة تابعًا للجنوب وتارة للشمال وتارة ينفرد بنفسهِ مثل الحجاز والحجاز الذي هو بيت القصيد مع كونهِ كان منفردًا عن الخضوع لغيرهِ الَّا ان يكون خضوعًا اسميًا بمعنى الادلاء بالبيعة لبعض ملوك اليمن العظمى الملك فانهُ في نفسهِ لم تكن بهِ دولة ملكيَّة قط وانما جميع السكان منقسمون الى قبائل كل قبيلة خاضعة الى رؤسائها فقط ولا سلطة لواحدة على أخرى الَّا ما يكون على طريق الظلم والعدوان وقد انفردت قبيلة قريش من بين سائر قبائل العرب بالمجد والفضل لما لها من المزيَّة باختصاصها بالسكنى حول بيت الله الحرام الذي لم يزل معظمًا عند الجميع منذ بناهُ سيدنا ابراهيم وسيدنا اسماعيل ابو العرب وكانت سائر القبائل العربيَّة تحجهُ من جميع الآفاق اليمن والشام وغيرهما وتعظم اهلهُ وتكرمهم واختص بمزيد الشفوف على قريش بنو هاشم منهم فكانوا هم سدنة البيت وهم حماتهُ * وقد تقررت في قبائل العرب اكثر شيم المكارم لا سيما قريش فكانوا ابعد الخلق عن تحمل الضيم وكانوا احرص الناس على حفظ المجد وحماية النسب فيحفظون انسابهم ويتفاخرون بها ويكرمون الضيف ويتنافسون في البذل والكرم ويحمون الجوار ويوفون بالعهد ولهم اليد البيضاء في الشجاعة والرماية والفروسيَّة والاعتناء بتربية الخيل الجياد والابل ويتفاخرون بالعدل ويستقبحون الظلم وان افتخروا بهِ في قهرهم بهِ لاعدائهم والحاصل انهم اقتنوا اكثر سمات الفضائل ومكارم الاخلاق حسب ما يرشد الى ذلك قولهُ عليهِ الصلاة والسلام بعثت لاتمم مكارم الاخلاق ويؤكد ذلك حلف الفضول الذي قال فيهِ صلى الله عليهِ وسلم لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما احب أن لي بهِ حمر النعم ولو أُدعى بهِ في الاسلام لاجبت الخ وذلك ان قريشًا تحالفوا على ان لا يجدوا مظلومًا الَّا انتصروا اليهِ حتى يردوا ظلامتهُ ويأخذون حق الضعيف من القوي ولتنافسهم في سمات الكمال حدثت بين القبائل المشاحنات على استحصالها وتمكنت العداوة بينهم وصاروا على قلوب شتى

وكان اعظم هممهم وغاية تفاخرهم هو البلاغة في لغتهم التي بها يعبرون عن خصال فضائلهم ومناط تنافسهم حتى صاروا يعقدون لذلك اسواقاً كسوق عكاظ فيفيضون اليهِ من كل فج عميق وتأتي القبائل بما لديها من البضائع والتجارة ويقع بينهم تعارف ورواج في المتجر ولكن موضوع اصل الاجتماع هو عرض كل قبيلة كلام فحول فصحائها من نثر ونظم فتنصب لاصحاب البلاغة واللسان الطلق المنابر وينشد كلٌّ منهم ما لديهِ من القصائد التي كان تأنق في احضارها حتى ربما بلغ الحال بأحدهم ان لا يظهر قصيدتهُ الّا بعد التروّي والتدبر فيها واصلاحها مدة العام والعامين حتى كانت لهم قصائد تسمى بالحوليّة وقد يكون الانشاد ارتجالاً مع الابداع والاغراب من مصاقعهم في اغراض شتى من نصائح وحكم وصفة مكارم الاخلاق او في الشجاعة والبطش والحروب او في الغزل والنسيب او المفاخرة والمدح والذم الى غير ذلك مما اشتهر امرهُ في الآفاق بين سائر الامم الى الآن ولا زال يضرب بهِ المثل فيما كان للعرب من سعة اللغة وكمال الادراك فيما خاضوا فيهِ من مناهج الكلام وكانت لهم حكام مسلم اليهم الانصاف ومعترف لهم بكمال الخبرة والاحاطة بأساليب البلاغة وجزالة المعنى ودقة المدرك فيحكمون بتفضيل بعض الكلام على بعض وربما بلغ الحال من العناية بالكلام البليغ ان يكتب في صحائف مونقة ويعلق في داخل الكعبة التي هي مناط تعظيمهم قديماً وحديثاً ولو في الجاهليّة دلالة على ان ذلك الكلام قد بلغ الغاية القصوى في المهيع الذي هو بصددهِ لما احتوى عليهِ من الفصاحة ومن ذلك المعلقات السبع الشهيرة غير انهم مع هاتيك الكمالات قد تناسوا دين آبائهم ابراهيم واسماعيل عليهم السلام ولم يبقَ فيهم من آثارهِ الّا اعتقاد الخالق والاعتراف لهُ بالوجود كما يرشد اليهِ قولهُ تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولنَّ الله وكذلك تعظيمهم للبيت الحرام ثم تفرقوا في بقيّة العقائد على انحاء شتى باطلة من وثنيّة ومجوسيّة ودهريّة وكتابيّة اي متنصرين او متهودين مستغرقين في الضلال الذي عم جميع اطراف الارض في ذلك العصر بحيث لم يكن بها من يعبد الله على حق الّا عدد من افراد مخصوصين * وبينما كان اهل الارض في ذلك الظلام الحالك واذا بنور الله قد سطع وكشف عن البصائر الحجب ببعثه رسول الله سيدنا ومولانا مُحَمَّد صفوة بني هاشم سادة العرب فانقلب الكون حينئذٍ الى طور آخر في سائر الاحوال المتعلقة بالدين والدنيا وظهر في العالم عصر جديد عمَّ اعتدالهُ واستقامتهُ اغلب المعمور من الارض في سنين قليلة والكلام على تفاصيل زمن البعثة وما سبقهُ وما لحقهُ من مكملات

دعائم الدين الاسلامي قد بسط ووفر في مجلدات عظيمة من كتب السير والتاريخ لا تمكن الاحاطة بها هنا وشهرتها غنيَّة عن البيان وانما الذي ينبغي التنبيه عليهِ هنا لمن لم يكن خبيرًا هو ان تاريخ ذلك العصر اعني عصر البعثة وعصر الخلفاء الراشدين يلزم فيهِ من القيود ما لا يلزم في غيرهِ من التواريخ وهو صحة السند واتصالهِ بحيث يصح ان يكون معتمدًا لانبناء الاحكام الشرعيَّة عليهِ * لان جميع حركات وسكنات رسول الله صلى الله عليهِ وسلم تشريعيَّة للامة الَّا ما قام الدليل على اختصاصهِ بهِ عليهِ الصلاة والسلام وهكذا اعمال خلفائهِ الراشدين من بعدهِ ومن المقرر في كتب الاصول ان الادلة الشرعيَّة لا تثبت بمجرد النقل بل لا بد ان يكون النقل على الوجه المعتبر وهو روايتهُ اي الدليل بالتواتر او الشهرة او الافراد على ما هو مبسوط في كل منها وبهذا يتبين غلط من يزعم ان الامام ابا حنيفة رضي الله عنهُ كان غير عالم بالسير الذي هو تاريخ سيرة رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليهِ وسلم وعلى آلهِ وكذلك سيرة خلفائهِ الراشدين من بعدهِ وهم سيدنا ابو بكر وسيدنا عمر وسيدنا عثمان وسيدنا علي وسيدنا الحسن وسيدنا الحسين رضي الله عنهم لان كل ذلك يتوقف عليهِ كثير من مسائل الاجتهاد كمعرفة الناسخ والمنسوخ من الاقوال والافعال وكذلك نفس الادلة التي يستند اليها المجتهد فمن تمشدق بحكايات عن ابي يوسف او محمد فيما سلمهُ امامهم ابو حنيفة رضي الله عنهم اجمعين ليس هو الَّا جهول بمقام الاجتهاد وبمعاني الكلام وارتباط العلوم ببعضها ولا غرابة حينئذٍ في فحش غلط وكذب مؤرخي غير المسلمين فيما ينسبونهُ بهتانًا الى النبي صلى الله عليهِ وعلى آلهِ وسلم في بعض سيرهِ وصفاتهِ لانهم يظنون ان تاريخ ذلك العصر خصوصًا ما يتعلق بالنبي صلى الله عليهِ وسلم هو مثل سائر التواريخ التي تتوقف على مجرد الرواية مع عدم المانع العقلي وقد عرفت ان الامر عندنا ليس كذلك بل هو مشروط بما ذكرناهُ فلا يغتر مسلم بما يذكرهُ الافرنج الآن في تواريخهم في هذا الموضوع وننبه على الخصوص ابناء أوطاننا المعجبين بأحوال الافرنج على الاطلاق لانكبابهم على تعاليمهم وعدم فتح بصائرهم في حقائق معارف المسلمين حتى جرهم ذلك الى استحسان طريقة التاريخ عند الافرنج مطلقًا مع انها في نفس الامر ليست مطابقة للواقع في الموضوع الذي ذكرناهُ ثم ان هاتهِ الطبقة من العرب لما كتب الله لها ان تسود على الارض ويعم حكمها فيها في الطول والعرض وأنجز لها وعدهُ في اقرب مدة بحيث انها في خلافة سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنهُ المتوفى سنة ٢٧ هجرية امتدَّ حكمها من جبال

القوقاز الى المحيط الغربي جهة اسبانيا ومراكش وكان ذلك احدى معجزاتهِ عليهِ الصلاة والسلام حيث قال (وزويت لي الارض فأوربت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أُمتي مقدار ما زوي لي منها) فكان الامر كذلك ولم يتوغل ملك الامة في الجنوب وفي الشمال مثل ما توغل في المشرق والمغرب كما قالهُ حجة الاسلام الغزالي في الاحياء وسبب ذلك والله اعلم أن العمران في الارض كان في ذلك التاريخ غير معتبر في جهتي الجنوب والشمال وانما مناخ الامم ومقام اغلب الخلق في جهتي الشرق والغرب وكان الوجه في الاتيان بلفظ المشارق والمغارب بصيغة الجمع هو الاشارة اما الى المشارق بالنسبة للعرض اي تعددها نظرًا لاختلاف الفصول او بالنظر الى الطول اي مشارق اهل الارض فان كل جهة من الارض شرقيها مسكون الى نهاية المحيط الشرقي بالنسبة لنصف الكرة الذي هو القسم المعمور والمعروف اذ ذاك وهكذا الغرب فيكون في الحديث على الوجه الثاني اشارة الى عدم تملك المسلمين في امريكا كما هو واقع بالفعل لانها ليست بمشرق ولا بمغرب لاحد سكان هذا القسم اعني القسم المشتمل على آسيا وافريقيا وأُوربا لان بعد قارة امريكا من هاتهِ القارة جعل مشرق شطوط قارّاتنا ومغربها هو البحر فبسبب امتداد ملك هاتهِ الطبقة الى ذلك الحد وانتقال القبائل الى تلك الاصقاع المفتوحة واختلاطهم بأُممها ورجوع تلك الامم ايضًا الى مركز الحكم وتختهِ وتخت الديانة ايضًا لانهم دخلوا فيها افواجًا * فبسبب ذلك كلهِ حدثت الطبقة الثالثة من العرب وهي العرب المستعربة اي الذين تعربوا وان لم يكونوا في الاصل عربًا وامتدَّت هاتهِ الطبقة الى نهاية دولة العرب في الصورة والمعنى اعني إلَى حدود المائة الثالثة التي تقلص فيها ظل دولة جنسيَّة العرب وان بقي فيهم الملك لكن عصبتهُ وانصارهُ والقائمون بهِ والذين امر الدولة في أَيديهم حقيقة هم الاعجام من الترك والموالي الذين اتخذهم بنو العباس بطانة لهم فتغلبوا على الاطراف وعلى نفس الخليفة تارةً مع شدة في الاستيلاء وتارةً مع ضعف الى ان اندثر ملك الخلفاء بالمرة بواقعة هلاكو خان على بغداد التي بها انقرضت دولة بني العباس وان عادت اسماً بلا مسمًّى بعد مدة قليلة من السنين بظهور احد ذريَّة بني العباس في مصر واكرامهم لهُ بالبيعة الصوريَّة وتسميتهِ بالخليفة ثم يحجرون عليهِ في قصرهِ الرحيب بحيث لا يكون لهُ من الامر شيءٌ ويكتب كتابًا يشهد فيهِ على نفسهِ انهُ فوَّض الامر الى ذلك السلطان الذي ولاهُ ويبقى ممتعًا في لذاتهِ التي يتفضل بها عليهِ حسن ظن من سلاطين ذلك الزمان بمصر حتى اعتقدت العامة ان وجود الخليفة

موقوف على شرط النسب العباسي وحدهُ فأَزاحت هاتهِ البدعة الدولة العثمانيَّة عند استيلائها على مصر سنة ٩٢٢ هجرية بفتوى العلماء

ومن تاريخ انحصار دولة العرب اي بني العباس في مملكة العراق وخروج الحجاز عنها غالبًا الى بيعة من هو بمصر حدثت الطبقة الرابعة وهي العرب المخضرمون الذين هم سكان جزيرة العرب الى الآن فانهم وان كان اكثرهم قبائل عربيَّة النسب اصالة لكن لغتهم قد خرجت عن اصلها وكذلك طبائعهم وعاداتهم لتقليدهم الامم المتغلبين على الدولة التي هي اكثر نفوذًا في ممالك الاسلام فهم وان كانوا عربًا من جهة الانساب لكنهم غير عرب من جهة اللغة والطبائع وبعض الاختلاط في الانساب ولذلك اطلق عليهم اسم المخضرمين وقد أَدانا الكلام على اجمال اوصاف الطبقات الاربعة من العرب الى التكلم عن شيءٍ من حالة التاريخ الجديد للحجاز لكي ينسجم تعريف تلك الطبقات على وتيرة واحدة ثم نعود الآن الى ديدننا في التكلم على التاريخ فنقول ان انتهاء التاريخ القديم للعرب كان بظهور الاسلام



فصل

في التاريخ الجديد للحجاز

اعلم انهُ ببعثة رسول الله صلى الله عليهِ وسلم خلاصة العرب وسيد الامم قد حدث تاريخ جديد في سائر العالم لا في الحجاز فقط الذي هو مطلع نورهِ عليهِ الصلاة والسلام وذلك لعموم رسالتهِ صلى الله عليهِ وسلم فانهُ ولد عام الفيل الذي كانت تؤرخ بهِ العرب وهو العام الذي قدم فيهِ ملك الحبشة للاستيلاء على مكة ومعهُ فيلة للحرب فولي كبيرها على عساكرهم وانهزمت الحبشة بدون حرب وكان ذلك من الارهاصات الدالة على البعثة وذلك العام قبل الهجرة بسنة ٥٣ ويوافق ذلك سنة ٥٦٩ ميلاديَّة وقد كان والد النبي صلى الله عليهِ وسلم قد توفي قبيل ولادتهِ فكفلهُ جدهُ عبد المطلب وارضعهُ اخوالهُ بنو النجار في المدينة ثم نشأ صلى الله عليهِ وسلم على كمال الاخلاق واشرفها سجيَّة فطر عليها من غير تعليم ولا تأديب حتى انهُ كان اميًّا لا يقرأ ولا يكتب على ما هو الغالب في الامة اذ ذاك وكفلهُ عمهُ ابو طالب بعد وفاة جدهِ فلما استكملت شبوبيتهُ تعاطى التجارة

على وجه المضاربة وهي ان يكون المال لانسان والعمل على الآخر والمال الذي اتجر بهِ
كان لخديجة بنت خويلد احد اعاظم قريش واغنيائها فسافر الى الشام ورجع بربح فاق
على انظارهِ ثم تزوج السيدة خديجة وقد رغبت فيهِ لعلو نسبهِ حيث كان صفوة بني
المطلب وبني هاشم سادات العرب كما تقدَّم ولكمال حسبهِ لما رأَت من جزيل الارباح
في تجارتهِ مع ما هو عليهِ من استجماع كافة مكارم الاخلاق ووفرة العقل والجلالة
والمهابة حتى كانت قريش يدعونهُ الامين وينقادون لاشارتهِ وامرهِ حتى انهم لما اختلفوا
عند تجديدهم بناء الكعبة فيمن يبني الحجر الاسود وهم بالمسجد الحرام وتراضوا على تحكيم
اول داخل فكان هو النبي صلى الله عليهِ وسلم فقالوا جميعاً رضينا هو الامين

ومن كمال تدبيرهِ ارضى جميعهم في ذلك حيث اخذ ثوباً ووضع فيهِ الحجر الاسود
ثم قال لهم لترفع كل طائفة من احدى جهاتهِ فرفعوهُ جميعاً حتى اذا بلغوا بهِ محلهُ وضعهُ
فيهِ هو عليهِ الصلاة والسلام وهكذا عرف بين الجميع بالصدق والوفاء والنزاهة عن كل
نقيصة فلما بلغ الاربعين من عمرهِ بعثهُ الله رسولاً بنزول الوحي عليهِ صلى الله عليهِ وسلم
مع الملك واقام بعد ذلك بمكة ثلاثة عشر سنة يدعو فيها الناس للايمان بما انزل عليهِ من
القرآن واقامة الدليل والبرهان واظهار المعجزات الخارقات للعادات من الاخبار بالمغيبات
الماضية لحوادث الامم الماضية مما اختلفت فيهِ اخبار اهل الكتاب فجاءهم فيهِ بما يوافق
الحق والعقل وان خالف اقوالهم جميعاً وكذلك المغيبات الحاليَّة كالاخبار عن بيت
المقدس وتوصيفها توصيف معاين لها مع انهُ لم يرَها قط الاَّ في الاسراء الذي هو معجزة
لهُ عليهِ وآلهِ الصلاة والسلام وكذلك المغيبات المستقبلة كغلب الروم من الفرس وعود
الكرة لهم وانتصار المؤمنين وعزتهم وامتلاكهم مشارق الارض ومغاربها مما جاء كلهُ على
نحو ما قال وهكذا اجابة دعواتهِ وغير ذلك من المعجزات واعظم بمعجزة انشقاق القمر
التي بينَّا ثبوتها القطعي في الكلام على مصر وفوق ذلك كلهِ معجزة القرآن الذي هو من
جنس كلامهم ومن النوع الذي فيهِ مجال تفاخرهم واعتنائهم فاذا هو يوميًّا يقصص عليهم
القصص ويقيم البراهين على الايمان ويوعظ ويرغب ويرهب باساليب شتى ويدعوهم الى
المعارضة باتيانهم بمثلهِ وينادي عليهم بالتعجيز مما يزيد في حماستهم في المعارضة ولم يتفوه واحد
منهم بشيء حتى لجأُوا الى انهُ سحر وغير ذلك من اعذار المعاندين العاجزين كقولهم انهُ تعاليم
نسطور الرومي مما ردهُ عليهم القرآن الكريم حيث قال لسان الذي يلحدون اليهِ اعجمي
وهذا لسان عربي مبين (الآية) فقد اخطأُوا وافتروا ولم يفقهوا ان مناط المعجزة هو اللسان

العربي وهو محل مناداتهم الى المعارضة وذلك لا يتأتى فيهِ قولهم لان لسان من زعموهُ عجمي وليس هو موضوع التعجيز وهذا كافٍ في دحض اصل الدعوى من كون نسطور لم تكن بينهُ وبين النبي صلى الله عليهِ وسلم علقة ولا مواصلة وغاية الامر ان النبي صلى الله عليهِ وسلم قد رآهُ اثنان من الرهبان قبل النبوّة وآمنا بهِ حتى عدهم البعض من الصحابة على قول من يرى الصحبة تثبت بالرؤية مع الايمان ولو قبل البعثة وهذان الراهبان اولها يسمى بحيرا او جرجيس رآهُ صلى الله عليهِ وسلم عند اول سفرة لهُ صلى الله عليهِ وسلم مع عمهِ ابو طالب الى الشام وهو ابن اثنتي عشر سنة وكان الراهب في صومعة لهُ ينزل حولها الركبان فلما رأى النبي صلى الله عليهِ وسلم ورأى بعض العلامات التي استدل عليهِ بها قرب من النبي صلى الله عليهِ وسلم وتفحص جسمهُ فرأى الخاتم وتعرف اخبارهُ من رفقائهِ ثم تلطف الى عمهِ حتى رجعهُ الى بلدهِ خوفًا عليهِ من اليهود واخبر عمهُ ورفقاءهُ بما يكون لهُ من الشأن والامر (وثاني) الراهبين هو نسطور الراهب رآهُ ايضًا قبل البعثة وعند سفرهِ للتجارة الى الشام ومعهُ ميسرة غلام خديجة زوجتهِ فلما رآهُ من الصومعة ايضًا تعرّف خبرهُ من الرفقاء واخبرهم بما يكون لهُ من الشأن ابضًا ولا يعلم ولا ينقل عن احد لا في الثقات ولا في الموضوعات انهُ اجتمع بغيرهما في غير ذلك الموطنين الاَّ ما روي بضعف من انهُ صلى الله عليهِ وسلم سافر وهو ابن عشرين سنة الى تجارة ايضًا بالشام وفي صحبتهِ ابو بكر الصديق رضي الله عنهُ وان نسطورا اجتمع بهِ اذ ذاك ايضًا وحذرهُ ورغبهُ في الرجوع عن الشام خوفًا عليهِ من الروم فارسل معهُ ابو بكر رضي الله عنهُ غلامهُ مصاحبًا في الرجوع وهاتهِ الرواية على ما فيها من الضعف ليس فيها شيء زائد عما في الروايتين السابقتين بالنسبة لامر الراهبين فيا ليت شعري من اين افترى بعض المتشدقين من الافرنج المدعين معرفة التواريخ بان النبي صلى الله عليهِ وسلم كانت لهُ مودة مع ذلك الراهب وهو بحيرا وينصحهُ بالنصائح وقد علمت ممَّا مرَّ سابقًا ما يشترط في حالة تواريخ ذلك العصر ثم ان النبي صلى الله عليهِ وسلم قد امرهُ الله بالهجرة الى المدينة التي قدر ان تكون هي مظهر اصلاح هذا العالم الارضي ونجاة اهلهِ في الآخرة وكان اذ ذاك قد فشا خبر الاسلام والبعثة فتلقَّاهُ الانصار اهل المدينة بالبيعة والطاعة وانثالت عليهِ القبائل بالايمان واستعد اذ ذاك لاجراء امر الله واحكامهِ على من عاندوا بعد اقامة البرهان والحجة وتمم ابعد وعدهِ لرسولهِ وللمؤمنين ففتحت مكة وآمنت في اثرها جميع قبائل جزيرة العرب ولم يزل الدين ينتشر الى ان عمَّ البسيطة في نحو نصف قرن ثم ان تاريخ

الحجاز لما كان من ذلك الوقت هو تاريخ الامة الاسلاميَّة الى انتقال الخلافة منهُ في خلافة
سيدنا علي ثم عودها اليهِ في خلافة سيدنا الحسن رضي الله عنهم جميعاً ثم خروجها منهُ من
ابتداء خلافة سيدنا معاوية والكلام على ذلك كله مبسوط في جميع التواريخ الاسلاميَّة
فلا ثمرة في ذكرنا لازيد ممَّا ذكرناهُ هنا طبقاً لقاعدتنا وانما نقول ان الخلافة لما انتقلت
عن الحجاز صار على كلٍّ من مكة والمدينة والٍ مخصوص غير ان والي مكة قد تعين
من وقت الفتح واول والٍ بها هو عتاب بن اسيد وُلي سنة ثمان عند الفتح وولي ايضاً
على اقامة الموسم والحج ثم ان بني اميَّة كانوا لا يولون على المدينة الاَّ اقرب الناس وآمنهم
لديهم واستمرَّ الامر على ذلك الى حدود سنة ٢٥١ التي استقلت فيها عائلة ساداتنا الاشراف
بني الاخيضر وبقيت بايديهم الى ان غلب عليهم القرامطة سنة ثلاثماية وسبعة عشر وهولاء
القرامطة قوم ظهروا باليمن مظهرين الاسلام والتمسك بالسنة وهم اشد كفراً ونفاقاً من
المنافقين فادخلوا في الدين الدسائس ووضعوا الاحاديث وفعلوا من المناكر ما لهُ خبر
مأثور حتى استولوا على مكة والمدينة وخربوا الكعبة وقلعوا الحجر الاسود من موضعهِ
الى ان رجعهُ بعد ذلك عمال بني العباس الذين طهر الله بايديهم الحرمين من اولئك
القرامطة ثم استقلَّ بالحرمين ايضاً السادة الاشراف بنو سلمان بن داود بن الحسن
المثنى وبقي الملك بأيديهم الى سنة اربعمائة واثنين وخمسين فاستقلَّ بملك الحجاز الهواشم
الذين هم العائلة المستولية الى الآن من ساداتنا الاشراف واولهم سيدنا المولى الشريف
ابو هاشم محمَّد العلوي المستولي في السنة المذكورة والمتوفي سنة ٤٨٧ وبقيت في بنيهِ الى
الآن فانهم كانوا من ذلك التاريخ مستقلين بالامر والنهي والنصب والعزل وسائر الادارة
الداخليَّة الاَّ انهم يدلون بالبيعة ظاهراً الى الخلفاء العباسيين والسلاطين الذين تغلبوا
عليهم ببغداد الى انقراض دولتهم فادلوا بالبيعة الى سلاطين مصر وانما كان الحال يختلف
عندهم فتارة تنفرد مكة والمدينة بامير واحد منهم وتارة تستقل كلٌّ منهما بامير الى ان
فتح السلطان سليم الاول مصر واقام بها مدة فاستقبلهُ في الطريق وهو راجع الى الاستانة
الشريف المقدس ابو نمي ابن الشريف بركات فبايعهُ نيابةً عن ابيهِ وقلدهُ السلطان حالاً امارة
الحجاز كلهِ بمشاركة لابيهِ في حياتهِ واستقلالهِ بعد مماتهِ ولم تزل ولله الحمد هاتهِ العائلة
الكريمة الشريفة هي الحاكمة على الحجاز الى الآن وذاك اعظم دليل على ثبوت نسبها لانها
من عهد استقلالها الذي هو كبد القرن الخامس وتوفر حالة معرفة الانساب من الدولة
العباسيَّة التي لم تزل الى ذلك التاريخ لها صولة وشوكة خصوصاً فيما يعود لامر النسب الذي

يخشى منهُ حتى السلاطين المتغلبين عليهم لانهم يخشون من خروج الخلافة الى غير العباسيين الذين هم من شيعتهم واخضعوا الناس باسمهم ان يتلاشى امرهم بتلاشي متبوعهم فلم يقروا لهم بالنسب ويرضوهم بالسكوت عن الحجاز الّا لما يعلمون من حقيقة نسبهم وثبوتهِ عند الخاص والعام وهكذا بقيت هاتهِ العائلة بارك الله لنا وللمسلمين فيها حاكمة على منبع البعثة أقرّ الله اعيننا والمسلمين بوجودهم والقيام بسنة الحق لابائهم وجدودهم والامير الحالي هو مولانا الهمام الشهم عون الرفيق ابن مولانا المقدس المبرور سيدنا مُحَمَّد بن عون صلوات الله وسلامهُ على جدهم رسولهِ وعليهم وعلى جميع آلهم

مطلب في السياسة الداخليَّة للحجاز

اعلم ان مدار الادارة كلها جليلها وحقيرها كلياتها وجزئياتها قد كان سابقاً مناطهُ هو الامير السيد الشريف وكانت على حسب اصول المراسم الشرعيَّة المتعارفة من قديم مثل تفويض الاحكام الشخصيَّة الى القاضي والمفتي وانفراد الامير بالجلوس الى رفع المظالم واجراء بقيَّة الادارة واستمر على ذلك بعد الخضوع للدولة العليَّة ايضاً قسماً مديداً من الزمن حتى في امر القوة الحربيَّة فقد كان للامير عساكر خاصون بامارتهِ ليقيم بهم ما تستدعيهِ القوة وقد بقي الى الآن شيءٌ من ذلك حيث ان للامير نحو الحراس او العساكر الخاصة لا يبلغ عددهم المائتين وعند ما بدى للدولة العليَّة الاحتراس من امر الولاة مدة السلطان محمود الثاني في اواسط القرن الثالث عشر لكثرة مخالفة ولاة الاطراف على ما سيأتي بيانهُ في محلهِ حصل ذلك التغيير. ايضاً في الحجاز لكنهُ بأمر هين وهو جعل القوة العسكريَّة الكبرى خاصة بالدولة العليَّة بان ترسل هي من تحتها عساكر يقيمون هناك وتزيد قوتهم وثقلها على قدر الحاجة ورئيسهم من طرف الدولة ايضاً ليس بملزوم لامتثال امر الامير فيما يراهُ من معاقبة بعض القبائل بل هو على حسب ما يظهر لهُ في الواقعة وعند مخالفتهِ في الرأي للامير يخبران الدولة معاً لتأمر بما تراهُ وكذلك امر العاشر اي الكمرك في المراسي البحريَّة استبدَّت بهِ الدولة وحدها بمأمورين ترسلهم من طرفها ونشأ عن ذلك في اول الامر قلاقل ومحاربات افضت الى ابدال الامير بغيرهِ من فروع عائلتهِ الكريمة ولم يزل يزداد تداخل الدولة في التصرفات الداخليَّة الى ان جعلت والياً على الحجاز من احد كبار رجال دولتها مثل بقيَّة ولاياتها مع بقاء سيادة الامير على منصبهِ واعتبار نفوذ اوامرهِ

على الاطلاق ولا يخفى ما في وجود آمرين على مأمور واحد في زمن واحد من الاضطراب ونشأ ايضاً عن ذلك الاحتراس ان الدولة صارت تستدعي من يلي سيادة الامير في السن من عائلته ليبقى بتخت السلطنة ويتخلق بأخلاق الدولة ويتعرف سياستها الداخلية والخارجية لانهُ هو وليُّ عهد الامير فاذا آلت لهُ الولاية كان عالماً بأحوال الدولة التي هو خاضع لها وتقلدهُ الدولة مدة اقامتهِ بتخت السلطنة رتبة الوزارة والمشيرية وتجعلهُ عضواً بمجلس شورى الدولة الذي يرجع اليهِ غالب التدبير في اغلب مصالح الدولة الداخلية هكذا ظاهر الحال ونعم المسلك لو يكون هو الامير والوالي بحيث تحدد لهُ الدولة تصرفاتهُ على نحو بقية ولاتها غير انهُ ينفرد بكونهِ ممتازاً بعدم خروج الامارة عنهُ وعن عائلتهِ وبكون الادارة في امارتهِ تجري على طبق الشريعة المطهرة مع غاية الاحتراس عن البدع التي لا داعي لشيء منها هناك لكنهم اقتصروا على خصوص الفائدة في ابقاء ولي العهد بالتخت لمآرب للدولة ربما احتاجت اليها مع سيادة الامير نسأل الله التوفيق

والجاري الآن هو ان يختص سيادة الامير بالامر والنهي والولاية والعزل في جميع قبائل الاعراب وكذلك الوظائف المتعلقة بالبيت الحرام من امامة وخطابة وغيرها الّا انهُ ينهي الى الدولة ما يراهُ في كبارها لتصدر الاوامر السلطانية على حسب ما ينهيهِ وعلى نحو من ذلك الوظائف الدينية بخصوص مكة كالفتوى في المذاهب ونقابة الاشراف وما شاكلها واما القاضي فانهُ يرسل الى مكة قاضٍ والى المدينة المنورة قاضٍ من تخت السلطنة على نحو بقية ولاياتها وكذلك بقية الولايات العرفية كلها تتصرف فيها الدولة والحاصل ان الذي استقرّ عليهِ الحال الآن هو اختصاص الامير بأمر قبائل الاعراب ما لم يستدعِ الحال محاربتهم وبعض الوظائف في خصوص مكة مما مرجعهُ الديانة كائمة الصلاة في البيت الحرام من المذاهب الاربعة وهم وان كانوا اربعة الآن لكنهم لم يقع استقرارهم هكذا في زمن واحد بل كان الامر اولاً امام واحد شافعي ثم زيد ثانٍ من المذهب الحنفي ثم آخر من الحنبلي ثم آخر من المالكي في ازمان متباعدة بحسب المناسبات في اتباع ذلك المذهب ونفوذهم لدى الدولة الحاكمة وهكذا الامر في ائمة المسجد النبوي على صاحبهِ اكمل الصلاة والسلام وعلى آلهِ فان الامام المالكي لم ينصب الّا في عشرة التسعين من القرن الثالث عشر

واما بقية مدن الحجاز التي هي المدينة المنورة وجدة فاما المدينة المنورة ففيها محافظ وهو كبير العساكر وشيخ الحرم النبوي على صاحبهِ اكمل الصلاة والسلام وقاضٍ

وكلهم يأتون من تخت السلطنة وفيها مفتٍ وائمة وخطباء وامين الخزنة مع وظائف أُخر صغيرة وهؤلاء المتوظفون سيما اصحاب الادارة والحكم تابعون لوالي الحجاز مع بعض امتياز لهم في مخاطبتهم للدولة رأساً

واما جدَّة فمتوظفوها مثل متوظفي بقيَّة مدن المملكة العثمانيَّة ما عدا المجالس الحكميَّة القانونيَّة لان الاحكام سيأتي بيانها وانها على خلاف بقيَّة الممالك العثمانيَّة اذ لا مجالس عرفيَّة بها فاجمال الحال ان الادارة السياسيَّة مرجعها هو سيادة الامير مع الوالي اللذان يرجعان جميعاً الى ما تراهُ الدولة العثمانيَّة

وكليات الادارة الآن هناك ليس فيها مكوس ولا ضرائب ما عدا الكمرك على الواردات البحريَّة وبعض اعشار على النخيل في القبائل الخاضعة حقيقة وكل هولاء القبائل لا يدفعون شيئاً الى الحكومة ولا الى الامير بل ان خضوعهم الذي ذكرناهُ الى سيادة الامير في الحقيقة هو ظاهري فقط وانما يختلف الحال فيها بحسب الزمان وشدة الطغيان في الانقياد وعدمهِ وبعض الجهلة ينسبون ذلك الى ارادة بعض الامراء من العائلة الشريفة معللين ذلك لان بقاءهم في الامارة انما هو لاخضاعهم تلك القبائل فهم لا يريدون ان يكسروا شوكة القبائل بالمرة حتى تجري فيهم الاحكام مثل غيرهم ويدخلون تحت قياد المذلة اذ ربما استغنت اذ ذاك الدولة عن الامراء الاشراف والحق ليس كذلك فان بعض هولاء الامراء قد اخضعوا جميع القبائل الى الاحكام حقيقة منذ عهد ليس ببعيد زمن السلطان عبد المجيد وولاية المولى المقدس الامير الشريف عبدالله بن عون عند ما ساعدتهُ الدولة وعملت برأيهِ وامدتهُ بالعساكر مثل ما اراد والباعث الحقيقي على اهمالهم هو عدم مساعدة الدولة للامراء على اخضاعهم متعللاً رجالها في الظاهر باحترام هاتيك البقاع الكريمة ومراعاة مجاوريها وسلاطين آل عثمان احترامهم وتعظيمهم لشعائر الدين وتوقيرهِ شنشنة معروفة قديماً وحديثاً ولذلك يوافقون على مثل تلك النصيحة على انها ربما كان باطنها غير ذلك وهو عدم استفادة اولئك الرجال من انقياد تلك القبائل لانهم وان خضعوا حق الخضوع فلا مساغ لضرب شيء من الضرائب عليهم لا سرًّا ولا جهرًا فتكون فائدة خضوعهم راجعة لسيادة الامير وحدهُ من نفاذ احكامهِ واوامرهِ فيها فيظهر اولئك الرجال النصيحة الى السلاطين على نحو ما قدمناهُ مع ان اخضاعهم واجب شرعاً لأمن السبل وحفظ الحجاج من التعدي واقبال تلك القبائل على عمران اراضيهم لانهم الآن زيادة عن عدم دفعهم للدولة ولا للامير حتى اعشار ابلهم فهم يأخذون من الدولة

اموالاً في كل سنة بمجرد محافظتهم على امن السبل ولا يؤخذ منهم شيء من المال قل او جل غير انهُ قد كان في اواسط القرن الثالث عشر رجل من قبيلة حرب يسمى الشيخ سعد قد تقوى بدهائهِ على اتحاد جميع قبيلتهِ وعظمت شوكتهُ بانقياد غيرهم من القبائل ايضاً ولم يخضع الى الحكومة قط الاَّ انهُ اذا اخذ المرتبات التي اشرنا اليها امن طريق الحاج الى المدينة وعند ما تسافر القوافل اليها يعد جمال كل قافلة ويأخذ على كل جمل نصف ريال اي اثنين فرنك ونصف ضريبة منهُ على اصحاب الابل وبعد موتهِ وخضوع ابنهِ وانقياد القبائل نوعاً ما ابقت تلك الضريبة على اصحاب الابل عند ما يكترونها الى الحجاج وليس للدولة غير ما مر ذكرهُ من انواع المداخيل الاَّ انواع من الضرائب الخفيَّة اكثرها يستفيدهُ افراد من المتوظفين لانفسهم مماَّ يؤخذ على الحجَّاج بأسماء سموها كضريبة على تنظيف منى في العيد من الضحايا وغيرها مما لا يصرف منهُ في الحقيقة الاَّ نزر يسير في الجهات التي يذكرونَ الصرف لاجلها وكل المصاريف اللازمة لكلٍ من الحرمين سواء كانت الوظائف الدينيَّة او السياسيَّة او شعائر المسجدين او اقامة المواسم كلهُ تصرفهُ الدولة من خزانتها وهو مقدار يبلغ نحو مليونين ونصف فرنك لان الاقامة بخصوص شعائر المسجدين الشريفين مبالغ في اقامتها ولا اقول على حسب الاستحقاق لان حقهما لا يبلغ اليه ولو ببذل النفس والنفيس . ومن المعلوم ان الشريعة المطهرة كان منبعها تلك الاماكن المكرمة وقد اجريت فيها الشريعة حق الاجراء واستقر الامن في سائر جزيرة العرب وكانت القبائل تؤدي الى بيت المال الاسلامي ما اوجبهُ الشرع على كل مسلم فكيف يغير ذلك الآن حتى يتجروا على ابدال حرم الله بعد الامن بالخيفة والاتيان بما يسود منهُ الوجه يوم القيامة وتثقل بهِ في الذنوب الصحيفة مع ان حملها على الاستقامة امر سهل يسير

وما اجدر هاتيك الاماكن الشريفة بالمحافظة فيها على ادارة تحافظ على السنة واعمال الخلفاء الراشدين الذي هو الامر الوحيد في جلب قلوب سائر المؤمنين الى الدولة التي تجري ذلك فضلاً عن خصوص اهالي الحجاز ولا ريب ان ذلك يرسخ قدم الدولة وتستغني عن الاحتراسات الناشئة عن الدسائس في رمي بعض ذوي الامر بمعاضدة بعض الدول الاجنبيَّة لتطلب الخلافة او الاستقلال نسأل الله اصلاح الحال



مطلب في السياسة الخارجيَّة

اعلم ان الحجاز مرتاح ولله الحمد من امر السياسات الخارجيَّة اذ ليس في دواخلهِ ومدنهِ ما عدى جده وينبع اجانب ولا يدخلهُ الَّا المسلمون وليس لواحد الادعا بحماية احدى الدول الاجنبيَّة وكل من دخل فهو خاضع لاحكام البلاد ولا ريب ان المسلمين يحجون في كل عام من جميع آفاق الارض وعلى الكثير منهم استيلاء الدول الاجنبيَّة التي يبلغ عددها في هذا الوقت الى ثلاثة عشرة دولة منها القوي ومنها الضعيف ومنها المنصف ومنها المعتسف ومع ذلك كلهِ ليس لهم ادنى تداخل او تكلم فيما يتعلق برعاياهم المسلمين هناك والله يديم سترهُ الجميل نعم ان جده يوجد بها قناصل كثيرون للدول الاجنبيَّة الذين لهم عناية او علاقة بالمشرق ولهم تجار افرنج في تلك المرسى وكذلك بعض الدول الاجنبيَّة الذين ليس لهم هناك شيء يذكر تجد لكثير منهم قناصل يستولون تلك الوظيفة برغبة منهم للدولة الموظفة لمجرد الفخر لهم من غير داع ولا مرتب وعلى كل حال فسياسة اولئك القناصل متعلقة بالدولة العثمانيَّة اما بواسطة واليها هناك او بواسطة سفرائهم في تخت السلطنة فالسياسة الخارجيَّة حينئذٍ في خصوص جده تابعة لسياسة الدولة العثمانيَّة التي سيأتي الكلام عليها في محلهِ ان شاء الله تعالى

مطلب في عوائد وصفات الاهالي

اعلم ان البلدين الاكرمين سكانهما الآن اغلبهم من غير العرب الاصليين فان المدينة لا يوجد بها الَّا العائلة الشريفة حقيقة من العرب وقد كنت رأيت رجلاً واحدًا من ذريَّة العباسيين قيمًا في ضريح عمهم سيدنا حمزة ولم يبق من الانصار هناك الَّا بقيَّة عائلة واحدة وبقيَّة سكانها كلهم من الآفاق واكثرهم مغاربة واما مكة فلا يوجد بها من العرب المحققين الَّا عائلة السادة الاشراف وعائلة الشيبي والبقيَّة كلهم من الآفاق واكثرهم هنود ولا يخفى ان العوائد والصفات تغلب على السكان باعتبار اصلهم غير انهُ لا بدَّ ان تحدث فيهم تغيرات تناسب حالة السكان الاصليين فأخلاق هذين البلدين على الاجمال مناسبة لاخلاق العرب غير ان اهالي مكة تعتري اخلاقهم الحدة بخلاف اهالي المدينة فانهم ليني الاخلاق كرام الطباع ويغلب على الجميع الحشمة والحياء وسلامهم بالمصافحة او الاشارة باليد ويقفون لكل داخل ولو تكرر دخولهُ واهالي المدينة اشد حريَّة في الطباع

وعدم المذلة والتمكن في اخلاق الرجوليَّة والجلد فيركبون الخيل ويسافرون الى الحج ركوبًا على الهجين من غير تخوت مع السير الحثيث مع التمكن في معرفة الرماية والفروسيَّة ولكل منهم سلاح مستوفر . واما الملاهي فلا يلتفتون اليها ولا وجود لها كما هو الواجب سيما في تلك الاماكن نعم قد وجد من بعض الوافدين تساهل وتجري على استعمال الخمر وآلات السماع سرًّا وكاد ان يكون من بعضهم جهريًّا سيما من بعض اجلاف العساكر او المتوظفين الذين لا يخافون الله ومن المعلوم ان الفساد ملائم لطباع البشر فيسرع فيهِ التقليد لكنهم مع ذلك لا يزال الامر بحمد الله مستورًا فلا تجد المحارم متجاهرًا بها ولا ترى حانة لخمار او دارًا معينة للفسوق وان وجد شيءٌ فانما يكون في بيت صاحبهِ في الستر . وعلى قريب من هذا المنحى اهالي جدة . واما بقيَّة البلدان فهم على اخلاق بقيَّة السكان من قبائل العرب الذين لم تبقَ فيهم من الاخلاق العربيَّة التي قال فيها صلى الله عليهِ وسلم (بعثت لاتمم مكارم الاخلاق) الَّا القليل وعاد اليهم التفاخر بالتظالم وهجوم القوي على الضعيف فلا تجد الامن مستقرًّا الَّا قليلاً الَّا انهم بقي فيهم حفظ الذمار وتوقير الصغير إلَى الكبير فاذا جعل الرجل من بيتوتاتهم يدهُ على ذقنهِ كناية عن حفظ ذمة المستجير بهِ فانهُ يوفي بعهدهِ ولو حملهُ ذلك على الحرب وهلك فيها هو وقبيلتهُ هذا غاية ما يمكن ان يذكر لهم من الصفات الحميدة مع اكرام الضيف واطعام الطعام . واما بقيَّة الاخلاق السابقة العربيَّة فكادت ان لا يوجد منها شيءٌ كجودة القريحة والدهاء في الامور ومعرفة احوال العالم فمن عجيب ما شاهدتهُ من السذاجة في بعضهم وبلههِ ان كان احد الجمَّالين ماشيًا بقرب مني في طريق المدينة المنوَّرة على صاحبها افضل الصلاة والسلام وعلى آلهِ وهو كهل يخاطب شابًّا في حساب بينهما فقال لهُ الشاب سبعة وعشرون مع سبع كم هو فقال لهُ الكهل هيه فأعاد عليهِ السؤَال فأجابهُ بالجواب الاول ثم اعادا ذلك ثالثًا ايضًا فقال حينئذ الشاب هي سبعة وعشرون فقال لهُ صاحبهُ هيه ايضًا وانفصلوا على ان ذلك هو الحساب وعلى ذلك فقس فلا تكاد تجد من عامتهم من يصلح للخطاب في البديهيَّات وانما لخواصهم بعض من الآداب التي يفقه بها الضروريَّات غير ان حفظ الحريم والبنات من صغرهنَّ فلهم فيهِ مبالغة كليَّة بحيث لا يمكن ان يرَ الرائي امرأة ولو معتجرة وما اصبر نسائهم على الجلد في التخدر فقد كان رئيس الجمَّالين في قافلتنا استصحب معهُ عيالهُ من مكة الى بلد الجديدة وكان مردفًا لها على جمل لهُ فكانت من ساعة ظهورها الى ساعة دخولها لبيتها التي هي مدة تنيف عن ستة ايام وهي ملتحفة

بعباءة ثخينة من الصوف سوداء لا يظهر منها مقدار ظفر ولو من اصابع رجليها فضلاً عن يديها او وجهها ليلاً ونهارًا لاتفارق حويَّة البعير وعلى هذا النمط النسوة في المدن فلم أرَ بالمدينة امرأة قط . واما مكة فكان بعض نسائها يخرجنَ لاداء مناسك الحج لكنهنَّ في غاية التستر بحيث لا يظهر منهنَّ شيء وعادتهنَّ في الجميع ان لا يخرجنَ الاَّ ليلاً مع شدة التستر بالخمار واللحاف وان اضطررنَ للخروج نهارًا فلا يمررنَ بالاسواق ولا بالطرقات الكثيرة المرور وتوجد قبيلة تسكن في عوالي المدينة اي خارجها بقرب من فنائها يسمون النخاولة وهاتهِ القبيلة اصلها من قوم قد تفرقوا في آفاق الارض وهم في كل قطر مستقلون بأنفسهم لا يداخلون احدًا ولا يخالطون الناس الاَّ في ضرورة البيع والشراء ولهم في كل قطر لقب بحسب عرف اهلهِ فيقال لهم في بلاد الترك شنكانة وفي تونس جمازيَّة ويتبعون في كل جهة الصنائع الخسيسة مثل اصلاح اواني النحاس وصفائح الخيل وقد اتخذوا في جهة المدينة صناعة خسيسة ايضًا ويتمذهبون بمذهب الشيعة على دعواهم ويستحلون نكاح المتعة فاذا قدم بعض حجّاج الفرس ممن يرى مذهبهم يأوي الى بيوتهم لقضاء الوطر بنكاح المتعة وامرهم في ذلك شهير وليس عليهِ نكير والامر لله الذي اليهِ المصير

مطلب في التجارة بالحجاز

اعلم ان بلد جدة هي مرسى تجاريَّة عظيمة لانها مركز للبضائع الهنديَّة وغيرها من البضائع في الاقطار الشرقيَّة ومنها يرسل لبقيَّة الممالك الاسلاميَّة التي تجارها مسلمون وكذلك لكثير من البلاد الاورباوية كما ان البضائع الاورباويَّة والبضائع الغربيَّة من بلاد المسلمين وكذلك بلاد الترك ومصر والشام يؤتى بها الى هناك وترسل الى الهند وغيرهِ من الاقطار الشرقيَّة فبذلك كانت جدة مرسى تجارية كبرى فضلاً عما يدخل منها الى جزيرة العرب على طريق البر سواء كان للحجاز او لغيرهِ من بقيَّة الاقطار ومركز تجارة جزيرة العرب هي مكة المشرفة فتأتيها البضائع من جدة وتوزع منها على القوافل الى سائر جهات جزيرة العرب الاَّ ما قرب من الجزيرة الى جهات اليمن التي بها مراسي تجاريَّة مثل الحديدة وقليل ما هي فكانت مكة حينئذٍ هي المعتبرة لتجارة العرب والتجار المعتبرون فيها اغلبهم هنود واما جدة فتجارها من اجناس مختلفة وفي اسواق كل من هذين البلدين تقاسيم حسنة تجعل لكل

صنف من التجار جهة مخصوصة وتجارتهم غنيَّة جدًّا واما المدينة المنورة فالتجارة فيها مقصورة على اهلها غالبًا فيؤتى اليها بالبضائع المحتاج اليها فيها وتباع لاهلها والقبائل تحمل البضائع على قوافلهم الى مراكز القبائل والى جهات جزيرة العرب مع الامان على البضائع التي يحملونها فالقافلة لها رئيس يكون ذا ثروة ولهُ كفال اغنياء في الجهات التي يذهب اليها ويحمل منها فتسلم اليهِ البضائع والمكاتيب البريديَّة ويبلغها بامان الى اصحابها وان حصل ضياع لشيء منها ولو بتعدي بعض القبائل بالاغارة فكفلاؤُهُ يؤَدون لاصحاب البضائع جميع ما يضيع لهم ومن اهم انواع التجارة التجارة في المأكولات من الحبوب كالقمح والشعير وقد علمت ان البريد موكول الى هولاء القوافل التجاريَّة فامرهُ غير منتظم كما انهُ غير محتاج اليهِ في اغلب تلك الجهات غير انهُ يوجد بين مكة وجدة بريدًا منتظمًا يوميًّا صباحًا ومساء يحمل على الحمير السيَّارة فيصل في نحو تسع ساعات كما انهُ يوجد في مكة مركز للتلغراف اي السلك الكهربائي ويصل الى جدة ومنها يتصل بجميع العالم كما انهُ يوجد بريد منتظم في كل شهر مرة بين مكة والمدينة الاَّ ان يكون امرًا مستعجلاً فيرسل مع سيَّار مخصوص وهذا البريد كلهُ ما عدا اصحاب القوافل مرتب من الحكومة والمباشرون لهُ من قبائل الاعراب الساكنون في اماكن مرورهِ وفي كل سنة في موسم الحج تروج التجارة في مكة لان اغلب الحجاج يشترون منها البضائع التي لا تعلم في بلادهم مما على وجه التجارة فيها وهو القليل او على وجه الاهداء الى اقاربهم واحبائهم وكذلك تروج التجارة بالمدينة المنورة لان سكانها يأتيهم في ذلك الوقت واردهم المالي اما من اموالهم في بلدانهم او من الهدايا التي ترسل من الآفاق او من الاوقاف والارصادات المعينة لذلك في بعض الجهات وهاتهِ الجهات هي الدولة العثمانيَّة وهي الركن في ذلك لانها ترسل في كل عام للقيام بشعائر الحرمين الشريفين ولمرتبات المجاورين واهل الوظائف ما يبلغ مقدارهُ سنويًّا نحو المائة الف ليرة اي مليونين ونصف فرنك وكذلك الحكومة المصريَّة ترسل كل عام احدى وعشرين الف اردب من القمح مع اموال عينًا يبلغ مقدار جميعها الى نحو العشرين الف ليرة اي نحو خمسمائة الف فرنك فضلاً عن قيامها بمدرستين كل منهما في احدى الحرمين لها اوقاف مخصوصة بمصر يرسل منها قدر كفاية القائمين هناك في كل عام وكذلك القطر التونسي يرسل من اوقافهِ المعينة على الحرمين الفين ليرة في كل سنة لكل حرم الف اي خمسة وعشرين الف فرنك فاهالي المدينة اذا فرقت عليهم تلك الاموال يدفعون منها ما كان عليهم من ديون ترتبت عليهم في ضروريَّات اشتروها

نسيئة ثم يشترون كفايتهم للسنة القابلة اكلاً ولبساً وان فضل شيء بعد ذلك ادخروهُ لبقيَّة السنة فلذلك يحصل في ذلك الوقت رواج للتجارة وهذا بالنسبة لغير ذوي الثروة منهم اما هولاء فهم على نسق غيرهم من ذوي الثروة وكذلك بعض قبائل الاعراب المقيمين بين الحرمين لهم نصيب مما ترسلهُ الدولة والحكومة المصريَّة فيحصل منهم ايضاً رواج في التجارة بما يشترونهُ من ضروريَّاتهم والحاصل ان التجارة المعتبرة مركزها هو جدة ادامها الله بلد اسلام

مطلب في الصنائع

لا يخفى ان الصنائع شعبة من شعب التمدن فتتكاثر وتقل على حسب ما في المكان التي هي بهِ من التمدن وحيث تطاول زمن بعد الخلافة عن الحجاز وتكاثر بعد عهدها فيهِ الهرج وقل العمران وتغيرت طباع العرب السكان على حسب ما اشرنا اليهِ فلم يكن الآن بالحجاز الاَّ الصنائع الضروريَّة وبعض الحاجيَّة فاما الفلاحة فكادت ان تنعدم الى ان صار اهل الحجاز عيال في قوتهم جميعهِ على ما يرد اليهم من خارج بلادهم الاَّ ما ندر والمسافر في تلك الاقطار لا يرى من الزراعة الاَّ نزر يسير حول بعض البلدان لا يسد من عوز مع ان عشر ما حول المدينة وحدها قد كان في خلافة سيدنا عمر يبلغ الى اربعمائة الف اردب من الشعير وحدهِ فضلاً عن بقيَّة الجهات ولو جمع الآن حاصل جميع ما بالحجاز لما بلغ الى عشر المعشار من ذلك المقدار وعلى نسبة من ذلك امر زراعة الاشجار فانهُ يوجد بالطائف بساتين بها كثير من انواع الشجر الليمون والرمان والعنب وغيرها من الفواكه المتعارفة كثيرًا وغير هاتهِ البلد لا يوجد بها الاَّ بعض شجيرات من تلك الانواع لا تستحق الذكر وان كان حول المدينة بعض من البساتين لكنها ليست على ما ينبغي الاَّ النخيل فيوجد بها كثيرًا كما يوجد بجهات اخرى حول المدن والقرى وفيهِ انواع كثيرة جدًّا من انواع التمر منها الحسن للغاية ومنها دون ذلك وفيهِ بعض تجارة سيما في موسم الحج لشراء الزائرين للتمر وحملهِ الى آفاقهم كل على قدر سعة حالهِ تبركًا بذلك واما البقول فكادت ان لا يوجد منها الاَّ النادر كالبصل وما شاكلهُ من البقول المتعارفة الشهيرة وكذلك الازهار واما بقيَّة الصنائع فيوجد منها البناية والخياطة والتجارة وبعض صنائع اخرى من الحاجيات كالسروج وحوايا الابل وغيرها مما يحتاج

اليهِ اكيدًا من غير تحسين والسبب في هذا الانحطاط في كل من الفلاحة وبقيَّة الصنائع هو اعتماد السكان اعني اغلبهم على المرتبات والجرايات من الدولة والاوقاف وتعويل الاعراب على مثل ذلك ايضًا لان الدولة جاعلة للقبائل جرايات سنويَّة من مال وحبوب للقوت ليقوموا بحفظ امن الطرق ومن الطبيعي ميل الانفس الى ما يرد بلا تعب فصاروا حينئذٍ عيالاً على تلك الواردات ونشأ عن ذلك اعتساف الاعراب بقطعهم للطرق وتعديهم على قوافل الحجاج اذا تأخرعنهم ذلك المرتب او شيء منهُ حتى ان بعض المتوظفين الذين لهم يد في توزيع ذلك المال ربما تساهل في تنقيص شيء باولئك الاعراب من مرتباتهم فيثورون ويعثون في الارض بالفساد ونشا عن ذلك قلة الامن في جميع الجهات حتى ان المدينة المنوَّرة على صاحبها وآلهِ افضل الصلاة والسلام كثيرًا ما تبقى محصورة ويدافع عن اسوارها وابوابها من حصونها بالمدافع والطرق منقطعة عنها وتتضايق اهلها لقلة القوت والحبوب ويتطاول الاعراب على ما حولها من البساتين بالتخريب والفساد فاذا كان هذا حال المدينة فما بالك بغيرها الاَّ القرى التي هي لنفس القبائل ممَّا لا يزرع حولهُ الاَّ النخيل فلذلك ضعف الامن وقل العمران وجدبت الارض مع انها صالحة للزراعة وفيها عيون كثيرة احدثها المتقدمون في عصر الخلافة وما قرب منهُ وقد شاهدت في كل من بلدي الصفرا والجديدة عينًا غزيرة الماء عرضها ازيد من ذراع ونصف وعمقها ازيد من ثلاثة اذرع جارية في غاية العذوبة غير ان ماءها حارٌّ فاذا رفع في الاواني برد وصلح للشرب وهو صالح جدًّا للزراعة لكنهُ الآن ليس عليهِ الاَّ بعض نخيلات وباقيهِ يسيح على الارض الى ان يغور فيها وقد ذكر في خلاصة الوفاء في اخبار دار المصطفى صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم عيونًا وآبارًا كثيرة على ذلك النحو لم يبقَ الآن منها منتفعًا بهِ سوى ما ذكرناهُ وكذلك الغابات والآجام التي بقرب المدينة وغيرها كلها ذات اشجار مثمرة وغير مثمرة صالحة لاخذ الاخشاب للبناء وهي الآن مهملة ولا ينتفع اهالي البلدان الاَّ برقاب شجر النخل ممَّا حولهم وبقيَّة الخشب يؤتى بهِ اليهم من الهند وغيرهِ مع انهُ حولهم مبذول والمانع من الوصول اليهِ عدم الامن والجهل بكيفيَّة القطع هذا فضلاً عن الاراضي الخصبة الوسيعة الصالحة للزراعة واما بقيَّة النباتات فقد كان سيدنا عمر رضي الله عنهُ حمى في وادي القرى جهة تكفي اربعين الفًا من الخيل المسبلة للرعي فيها ثم زاد بعدهُ سيدنا عثمان ومن بعدهُ الى اضعاف ذلك المقدار فيا اسفا على الخوف في بلاد الامن وتلك العوائد وان كان القصد منها حسنةً فقد آلت الى سيئةٍ اذ لو انقطع عنهم ذلك المدد

ومن تجرأ على السبل عوقب وأُقيمت الشريعة حق القيام لاقبل السكان على العمران وكفى الله المؤمنين غوائل الطغيان وما الله بغافل عما يعملون

مطلب في المعارف

من البديهي ان الذي ذكرناهُ في الصنائع من جهة الرواج والكساد هو اساس ايضاً في المعارف فالمعارف الآن بالحجاز على غاية من الخمول وما يوجد منها انما هو محصور ومقصور على خصوص البلدين المكرمين فيوجد في كل منهما بعض دروس في المسجدين المحترمين في بعض العلوم الدينيَّة وبعض وسائلها فيوجد من الوسائل قليل من دروس النحو والمعاني ومن المقاصد بعض دروس في التفسير والحديث والفقهِ على اختلاف مذاهبهِ وان يكن يوجد بكل من البلدين الاكرمين علماء اجلة لكنهم نبغوا في اقطار أُخرى ثم جاوروا الآن هناك الَّا ما ندر من بعض الاهالي لذين تلقوا العلم هناك من العلماء الوافدين من الاقطار على احوال خصوصيَّة غير منتظمة ولا مفيدة للعموم وفي هاتهِ المدة الاخيرة أَنشأ بعض الهنود ذوي التوفيق بواسطة العالم الجليل الشيخ رحمة الله مؤَلف كتاب اظهار الحق مدرسة بمكة المشرفة يقرأُ بها الشيخ المذكور ومن معهُ من العلماء المجاورين بعض دروس في الهيئة والجغرافيا والطب وبعض علوم اخرى رياضيَّة وعلم التصوُّف ايضاً وبما ذكرناهُ بلغ السكان لاسيما الاعراب الى درجة عالية في الجهل وفساد الاخلاق غير ان لطف الله حف بما حدث منذ مدة قريبة من انتشار طريقة الشيخ السنوسي الذي كنا ذكرناهُ عند ذكرنا لرجوعي من فرانسا لان هذا الشيخ كان استقرَّ بمكة المشرفة وأَنشأَ في جبل ابي قبيس زاوية نشر فيها طريقتهُ فأَنبتت في قبائل اولئك الاعراب حتى كادت ان لا توجد قبيلة الَّا وفيها زاوية وشيخ يرشد الى الطريق فحصل في القبائل نوع من معرفة اصول الديانة الاسلاميَّة والفروض العينيَّة والمحرمات الذاتيَّة ودب في هؤُلاء شيءٌ من صلاح الحال وان لم يكبحهم عن التعدي على عباد الله القاصدين لاحد الحرمين فيا اسفا على اهمال المعارف وضياعها في مكان ينبوع الحكمة وظهورها ولولا وجود افراد من اطباء الدولة الذين ترسلهم لاحد البلدين الاكرمين او البعض من الهنود العارفين بالطب على الطريقة القديمة لكن معرفتهم لذلك عن علم وتدريس للكتب على طريقة اخذ العلم حقيقة فلهم باع حسن في علاج الامراض ولولا هؤُلاء لحرمت السكني في البلد التي

يفترض على عموم الامة تعميرها فان ابا حنيفة وغيرهُ من الائمة يقولون بحرمة سكنى البلاد التي لا طبيب بها وكل من المدينة المنوّرة ومكة المشرفة يفترض حمايتها فكيف يسوغ اهمالها بأمر المعارف واهلها حتى تخلو من طبيب لولا أُولئك وانما قلت في اطباء الهند انهم عالمون بالطب على الطريقة العلميَّة احتراساً من المدجلين ممن يدعي هذا العلم مع جهلهِ المطبق بهِ المتكاثر ظهورهم بالبلدان التي لا تتنبه حكوماتها لمنعهم من ذلك التدجيل لانهم يضرون بجهلهم وقد شاهدت ذلك في نفس مكة عياناً حيث كنت مريضاً بابهام رجلي اليمنى حيث انقلب الظفر تدريجاً وغاص في اللحم واشتدَّ امرهُ حتى كاد يمنعني عن المشي وكان حصل لي مثل ذلك وانا بباريس فجيء لي بطبيب خاص بذلك النوع من الامراض وعالجني برفع الظفر بآلات وكيفيَّة في عملها لم يحصل لي منها شدة أَلم وجعل تحت ظفري ورقة من الرصاص صفيقة لكيلا يغوص ثانياً وقطع الظفر الى محل التصاقهِ باللحم وعافاني الله بسبب ذلك فلما كنت بمكة وعاودني مثل ما وقع سابقاً وذكرت لبعض الحاضرين عندي ما كان وقع اخبرني بانهُ يوجد حكيم يفعل مثل ذلك فجيء بهِ اليَّ وكنت محترساً منهُ لكني رايت معهُ آلات للقطع وغيرهِ كثيرة متقنة وابتدأ في العمل من غير كثرة أَلم فظننت انهُ عن علم فلم يفعل الاَّ قطع الظفر لكن عقبهُ أَلم كدت معهُ ان لا استطيع المشي لولا لطف الله لانهُ اراد الزيادة في القطع بعد ذلك فامتنعت لانهُ ليس لهُ من العلم شيءٌ سوى كونهِ حلاقاً حجاماً تعوّد على فصد بعض الناس فامثال هذا يمنعون شرعاً عن مباشرة اعمالهم

ولكن البلاد اذا اقشعرت وصوح نبتها رعي الهشيم

فاذا خلت البلاد عن حكماء عارفين بعلم الطب يضطر الناس الى هؤلاء الدجالين والحق ان امر المعارف مع كونهِ واجباً في كل صقع وبلاد فهو في الحرمين اشد تاكيدًا وانَّا لله وانَّا اليهِ راجعون

مطلب في الاحكام

قد علمت مما مرَّ في مبحث السياسة الداخليَّة الاصول التي تجري عليها الاحكام وحاصلها ان سيادة الشريف امير الحجاز هو مرجع الحكم في قضايا الوقائع التي تقع بين القبائل وهو ايضاً مرجع الشكايا من مظالمهم فيحذر رؤساءهم ومشايخهم ويأمرهم بما يراهُ

وينفذ الحكم في الظالم بحسب اجتهادهِ هكذا الاصل ولكنهم الآن مستبدون بامورهم كل قبيلة لا تخضع الاّ لمشائخها ورؤَسائها مما يذكر في زمن الفترة وكلٌّ يحكم باجتهادهِ واستبدادهِ ولو في القصاص في الانفس واذا تعدت قبيلة على أُخرى كان الامر لمن هو اقوى فطاعتهم الآن لسيادة الامير انما هي ظاهريَّة وهو وان استطاع على اخضاعهم ولو بدون عساكر الدولة بل بمن ينضم اليهِ من بقيَّة القبائل لكنهُ لا يقتدر على تنفيذ ذلك لما مرَّ في احوال السياسة الداخليَّة كما يرجع الى سيادة الامير فصل المظالم في اهل مكة والوالي هو الذي يجلس الى فصل المظالم فيما يقع بين السكان في مكة ايضاً فكانها مشتركة بين الامير والوالي لكن الوالي ينفرد بسائر مظالم جدة. والمدينة المنوَّرة يجلس فيها المحافظ في مثل ما ذكرناهُ وفي كل بلد حاكم يلقب قائمقام يجري ما ذكر ايضاً في المسائل الخفيفة والمسائل الثقيلة ترفع الى الوالي بمكة او الى سيادة الشريف الامير والقبائل كلها مشايخها هم مرجع الحكم في سائر القضايا ثم ان كلاً من البلدين الاكرمين بها قاض هو مرجع الحكم في كافة النوازل الشخصيَّة يجريها بمقتضى الشريعة وفي كل من البلدين مفت حنفي يسترجعهُ الخصوم في احكام القاضي لكن القاضي ليس ملزوماً باتباع فتواهُ بل لايجري الاّ ما يراهُ وان كان جاهلاً والمفتي عالماً ولا يخضع القاضي الاّ لاوامر باب مشيخة الاسلام في تخت السلطنة ان اقتدر الخصم الى البلوغ اليهِ ولا يخفى ما في ذلك من المشقة لبعد الشقة كما يوجد في كل من البلدين الاكرمين محتسب لهُ النظر في امر المعاشات وقيم المبيوعات وغش البائعين وخسران الكيل والميزان ويحكم في ذلك كلهِ بما يراهُ من الاجتهاد ولو بالضرب المبرح كما يوجد بهما مفات أُخر على بعض المذاهب الاخر يرجع اليهم اهالي ذلك المذهب في الاحوال الشخصيَّة ويفتونهم بحسب مذاهبهم وهؤلاء المفتيون كلهم يولون بأمر من الدولة العثمانيَّة

واما بقيَّة البلدان فجدة بها قاض يُولى مثل السابقين وغيرها من البلدان يولى فيها نائب عن القاضي يعينهُ قاضي مكة لاجراء الاحكام الشرعيَّة في البلد التي هو بها وبقيَّة الادارات والاحكام ترجع الى القائمقام او الشيخ وهو الذي يحكم بما يريد. والحاصل ان ادارة الاحكام بالحجاز لا زالت الى الآن على شبه من النمط القديم اعني انها ليس بها مجالس للاحكام العرفيَّة وغيرها من القوانين الجارية بالممالك العثمانيَّة الآن ويا ليت الامر يجري حقيقة على المنهج الذي سلكهُ الخلفاء الراشدون كيف وهو مكان ظهور الشريعة واقامة العدل وتأسيس التمدن الحقيقي الصالح لاستقامة الدنيا والآخرة والامر لله وحدهُ لارب سواهُ

مطلب في هيئة المساكن

المساكن بالحجاز تختلف بين حالها بالمدن وحالها بالقرى فاما المدن فالديار بها هي شبيهة بالنوع الذي ذكرناهُ في مصر غير انها في مكة تكثر طبقاتها حتى انها ربما بلغت الى الست طبقات كل منها مستكمل اللوازم لا يحتاج الى غيرهِ في السكنى والطبقة الارضيَّة لا يعتنى بها للسكنى وانما هي للمرافق وجلوس الرجال بخلاف المدينة المنوَّرة فان دورها كل منها بها طبقة ارضيَّه يسكن فيها في الصيف لانها ابرد من العلوية غير ان المبيت بكل منهما يكون غالبًا في الصيف في السطوح التي يجعل لها حرم كاف لوقاية السكان من السقوط والابنية كلها لا تجصص حيطانها الَّا في بعض الديار الحسنة لاهل الثروة فانها تجصص وتبيض حيطانها وتدهن سقوفها التي تجعل من عيدان النخل ويجعل عليها من اسفل أَلواح لاصقة منظمة ويعلق فيها ثريَّات . واما بقيَّة الديار وسائر الابنية فان الحيطان يسد فيها ما بين الاحجار بطين البناء المركب من الجير والطين ثم تبيض بماء الجير والسقوف تكون من عيدان النخل مكشوفة للرائي وفوقها حصير من انواع الحلفا وفوقهُ التراب وليس في الحجرات بلاط ولا غيرهُ بل الارض تكون ترابًا عليها الحصير او الزرابي (الابسطة) الَّا المدينة المنوَّرة فان الطبقة الارضيَّة مبلطة بأَنواع من الاحجار الشبيهة بالمرمر والدرج في كل غير محسنه متعبة الَّا نادرًا وديار مكة لا سيما المعدة للاجرة كل طبقة منها لا يوجد فيها مطبخ وانما يطبخ اهلها باحدى حجراتها بالفحم او الحطب نادرًا لاحضار مياه الاغتسال في الشتاء واما في الصيف فلا يسخنون الماء للاستغناء عنهُ ولهذا لا يوجد في كل من مكة والمدينة الَّا حمَّامان بكل منهما لان السكان يغتسلون في ديارهم غالبًا وهكذا بقيَّة البلدان ليس بها حمَّامات ومفروشات الديار على النحو الذي هو جارٍ بمصر وغيرها من التشبه بالمفروشات التركيَّة والاورباويَّة ومن غريب صناعتهم المغالق التي تقفل بها الابواب فان المفاتيح نحو عود مستطيل في آخرهِ اسنان تدخل في ثقب في المغلاق وترفع الى فوق ويجذب المغلاق بعجلة اذ ذاك فينفتح ولا ريب انهُ سهل السرقة اذ تقليد المفاتيح على ذلك النحو يسير لكن الامر الفظيع هو ان تلك المغاليق على شكل الصليب وقد رأَيت على باب الحجرة النبويَّة مغلاقًا من تلك المغاليق وهو من ذهب تقشعر من رؤْيتهِ الجلود وقد خاطبت من يقتدر على تغييرهِ فتعلل بان ذاك لا يخطر على فكر احد من الاهالي لجهلهم الصليب وبقي الحال على ما هو ولله الامر

هذا في المدن واما في بقيّة البلاد الاخرى فكل دار توءلف من طبقة واحدة الاّ نادرًا من طبقتين وهي في الحقيقة بيوت لا ديار والفرق بين الدار والبيت ان الدار هي المسكن الذي يشتمل على جميع المرافق المحتاج اليها وابواب حجراته الى فسحة تكون في وسطها غالبًا مكشوفة الى السماء واما البيت فهي التي مثل ما ذكر غير انها لا فسحة بها مكشوفة اعني الفسحة التي فيها ابواب الحجرات وهذا هو الفرق اللغوي وان كان الاستعمال مختلف بحسب الاصطلاح في البلدان فالحجاز ومصر مثلاً يطلقون على الكل بيوت وتونس والمغرب يطلقون على الكل ديار وهاتيك البيوت في القرى الحجازيّة مظلمة غالبًا اذ لا يجعل لها شبابيك على الطرقات وليس بها فسحة مكشوفة فغاية الامر ان يجعل للحجرات منافذ للضوء بقرب السقوف احتراسًا من كشف النساء لانهم يشددون بحجبهنّ كما تقدم سابقًا فتلك البيوت شبيهة بالغيران ولا تبيض بالجير الاّ نادرًا ما عدا سطوحها التي هي على نحو سطوح المدن من الاتقان في تجبيصها لكيلا تخترقها الامطار فتكاد هاته القرى ان لا تبين للناظرين الاّ اذا بلغوها خصوصًا التي هي في مرتفعات الجبال السود فانها لا تكاد تبين والحاصل ان الابنية على العموم نسبتها للتمدن كنسبة بقيّة الصنائع التي مرّ ذكرها في مطالبها غير انهُ يوجد في صناعة النجارة اتقان للرواشن وبعض الابواب والشبابيك على العموم اي الطواقي المطلة على الطرقات او غيرها لا يوجد بها زجاج يمنع دخول الريح الاّ نادرًا في بعض الديار المترفه اهلها ومن الغريب ان ترى البيوت مفروشة بالزرابي في مدة الصيف مع شدة الحر هناك فهم في الحقيقة غير مستعدين للتوقي منهُ الاّ اهل المدينة فانهم معدون الطبقات السفلى لذلك فيجعلون فيها بيتًا رحيبًا لهُ جهتان يمنى ويسرى مرتفعتا الارض عن الوسط الذي بهِ حوض للماء غالبًا وسقفهُ مكشوف الى السماء ينجذب منهُ الهواء الى اسفل ويكون الماء جاريًا الى ذلك الحوض ويجلس السكان باحدى الجهتين التي يجعل بهما مساطب وارائك وكل تلك الطبقة مباطة بنحو الرخام كما ذكرنا سابقًا وذاك مناسب لشدة الحر على خلاف من اهل مكة وغيرهم الذين ليس لهم مثل ذلك واما الطرقات على العموم بالبلدان وغيرها فهي طبيعيّة ليس بها تحسين ولا صناعة وغاية الامر انها تكنس في المدن فهي نظيفة واغلبها ضيق حتى يكاد ان لا يمشي ببعضها الاّ انسان واحد مع ان اصل الشريعة على خلاف ذلك * فان سيدنا عمر رضي الله عنهُ لما استشير في بناء بلد للصحابة والجيش الذي فتح الفرس لما استوخموا ارض فارس وامرهم باختيار ارض تشبه ارض العرب فاختاروا الكوفة فامرهم ببناء بلد بها وان تكون دورها لا تتجاوز الطبقتين

وان تكون طرقها العامة كل منها ثلاثة عشر ذراعاً والطرق الخاصة سبعة اذرع عرضاً والبطحاء التي تكون امام المسجد ستون ذراعاً في ستين وهذا هو الاصل الذي يستند اليهِ المذهب الحنفي في ذلك فانظر كيف كانت حالة البلدان في صدر الاسلام ويؤيد هذا ان بئر حا التي هي بستان كان لابي طلحة الانصاري رضي الله عنهُ قد كان في زمن النبي صلى الله عليهِ وسلم تجاه المسجد النبوي كما هو مذكور في صحيح البخاري رضي الله عنهُ فاين هو الآن من المسجد النبوي اذ بينهما الآن ابنية وديار وطرقات واسوار وغير ذلك فيا اسفاعلى وقوع مثل هذا التغيير المخالف للشريعة المكدر للتمدن ومصالح الناس حقيقة فليس توسيع الطرق وتنظيفها من تقليد الافرنج كما يدَّعيهِ الجهلاء بل هو من شريعتنا التي تنوسي الالتفات لمثل ذلك فيها وحيث كانت الطرق على نحو ما مر ذكرهُ يكثر فيها الوحل زمن المطر غير انها تنور ليلاً من قبل الحكومة بفوانيس من القصدير والزجاج تعلق في الحيطان او سقوف الاسواق لان كل صناعة لها سوق يخصها وبعض هاتهِ الاسواق بل اكثرها مسقوف بالالواح على نحو ما ذكرنا في اسواق تونس والحوانيت هيئتها ايضاً على ذلك النحو وليس للديار جنائن ولا بطحاآت خاصة وانما ابوابها في الطريق تفتح الى سقائفها المختلفة كبرًا وصغرًا واما الطرقات خارج البلدان فهي على طبيعتها الاصليَّة واغلب الطرق بين مكة والمدينة صالحة لمشي العجلات وتمر فيها المدافع الآن وهي مثل العجلات وكذلك الطريق بين جدة ومكة فيا ليت شعري اي مانع لاستعمال العجلات في السفر هناك فاني لم أرَ الاَّ عجلة واحدة لوالي الحجاز بمكة وقالوا انهُ ليس بها غيرها ورأيت بالمدينة عجلة قيل انها لركوب بعض المرضى هي اشبه شيء بعجلات حمل السلع ملقاة في الطريق وكأن امر الامن هو الاساس

مطلب في اللبس وبقيَّة العادات

اما اللبس الرسمي فهو كاللبس بالدوله العثمانيَّة الذي تقدم مثلهُ في مصر وكذلك لبس الرجال هو مثل لبس اهل مصر والاعيان يلبسون جبة واسعة الاكمام كعلماء مصر الاَّ انها لها رقبة مرتفعة خصوصاً للسادة الاشراف ويجعلون على رؤوسهم كوفيَّة مطرزة بالحرير على اشكال حسنة بديعة تكون مكشوفة الوسط وعليها عمامة مكورة عظيمة يشدونها شدًّا محكمًا جميلاً وهي بيضاء . واما الاشراف في القبائل فيجعلون على رؤسهم

منديلاً من الحرير ملوّناً وعليهِ عوض العمامة عقال من وبر الابل مقصب بخيوط الفضة المذهبة ولكل واحد منهم مطلقاً في البلدان او القبائل خنجر يجعلهُ في حزامهِ في وسطهِ من امام وكانها هي علامة الشرف مع لبسهم لعباءة يمانيَّة او عرافيَّة مقصبة بالذهب ونحوهم في هذا سائر الاعيان من القبائل وبقيتهم يلبسون عباءة على قميص ويتمنطقون على القميص بمنديل او غيرهِ وكثير منهم يعلق على جنبهِ خنجرًا والكل يلبسون في الارجل النعال الحجازيَّة ذات الشرطان التي تدخل بين الاصابع وتختلف جودة ورداءة على حسب ثروة اللابس وربما تدثر بعض اهل البلدان بالجبائب ذات الفراء المعروفة بالكرك ولبس نسائهم سراويل من نسيج الحرير او المقصب بالذهب بحيث انهنَّ يتنافسنَ في صنعهِ على حسب الثروة والمكان والزمان للابسهِ ومثل السراويل فيما ذكر منتان ينفتح صدرهُ ويغلق ذو اكمام ضيقة لا تبلغ المرفقين وفوق الجميع نحو عباءة من المنسوجات الثمينة مشقوقة الى السرَّة من اعلا بلا اكمام واسعة جداً حتى انها تغطي اصابع الكف وان كان لها ثقوب في محل الاكمام تخرج منها الايدي وعلى رؤوسهنَّ نحو المناديل من منسوجات صفيقه يحيطون باطرافها شريطاً مكعباً بخيوط الفضة او الحرير على حسب الاحوال وفي ارجلهنَّ احذية من نوع البشامق التونسيَّة واذا خرجنَ من البيوت زدنَ على ذلك خفاً من الجلد الاصفر مع رداءٍ واسعٍ جداً ذي اكمام ساتر للاصابع وخمار مسدل الى السرة مثقوب جهة العينين ويلبسن ايضاً المصوغ بانواعهِ كلها. واما الاكل فانهم يجلسون لهُ على الارض ويوضع على الخيوان وهو مثل ما تقدم في اكل اهل مصر غير انهُ اكثر اداماً من السمن واكثر ابهرة والاعراب اكثر اكلهم الارز مع العدس ولا ياكل الجميع لحم البقر الاَّ نادرًا بحيث يستعير بهِ الاعيان في المدن وياكلون الجمل بكثرة ويبخرون الماء بالمصطكي او بعود القرنفل ثم يجعلونهُ في اواني ويضعونها في ممرّ الريح لاكتساب البرودة

واما المواكب فأعظمها موكب الحج وقد تقدَّم الكلام عليهِ ولاهل مكة موكب يسمى الرجبيَّة يسافر به ذوو اليسر الى زيارة النبي عليهِ وعلى آلهِ اكمل الصلاة وازكى السلام ويحصل من ذلك في المدينة المنورة موكب حافل في رجب ولكثرة اسراف اهل مكة في حجهم والتباهي بينهم فيما يفعلونهُ فيهِ يضطرُّ بعضهم الى تأخير فرضهِ الى ان يبلغ سن الشيخوخة خشية المعرة من كونهِ لم يفعل تلك العادات الاسرافيَّة في الرحل والمركب والخيام والمآكل واما الاعراس فهي اقرب عندهم الى الطريقة المشروعة

من جهة عدم وجود المغنيات جهرة والملاهي الاّ الدفوف وشيء من غيرها مع حفظ التستر في النساء ولاهل المدينة عادة وهي ان الرجل اذا تزوج ببكر ودخل بها فلا يخرج من بيتهِ اسبوعاً تاماً الاّ انهُ يجتمع باحبائهِ في بيتهِ وان خرج يوماً ولو للصلاة استاء اهل المرأة لان ذاك دليل على انها غير مستحسنة عند زوجها واما الثيب فلا يعتبرون ذلك فيها . واما المآتم فهي على الوجه المشروع من اكثر وجوهها فلا عياط ولا زياط ولا قراءة بالطرقات ولا ولائم من صاحب المأتم وانما يفعلون في ذلك ما هو المشروع في السنة اجرى الله احوالنا واحوالهم جميعاً على الوجوه المشروعة

مطلب في اللغة

لا يخفى ان الحجاز هو ميدان بلاغة العرب ومجال تسابق فرسان الكلام لكن ذلك كلهُ قد انعكس على ضدهِ فلا تكاد تجد متكلماً باللغة العربيَّة المعربة حيث دخلت العبارات العجميَّة بين القوم منذ تغلب الاعجام على الدولة الاسلاميَّة لان الناس على مذهب امرائهم فيقلدون الغالب والقوي حتى في نحلتهِ وكلامهِ وما كفى ذلك في ادخال المفردات الاعجميَّة حتى سرى الامر الى اللحن في الاعراب كما هو مقرر من قديم حيث ذكروا في سبب وضع علم النحو سماع سيدنا علي عليهِ السلام للحن في الكلام فاشار بوضع ذلك العلم ومن البديهي ان الامر يتفاقم بطول المدة وشدة الاسباب ففي ذلك الوقت لم يكن الاّ اختلاط الامة بامم اخرى ثم ازداد بعد ذلك بتمكن الاعاجم من الدولة ففسدت اللغة في الحجاز فساداً كليًّا حتى لم يبقَ من يكتب كتابة مستقيمة في الاعراب والالفاظ الاّ النادر ممن هم اهل علم وربما اضطروا الى كتابة كثير من المفردات الاعجميَّة لشهرتها وتعارفها وهجران ما يرادفها من اصل العربيَّة وسبحان مقلب الاحوال وهو لا يتغير ولا يزال

الباب العاشر

في المملكة العثمانيَّة

(تنبيه) * لما كانت هاتهِ المملكة ليست كسائر الممالك التي مرَّ الكلام عليها لا من جهة الذات ولا من جهة المعنى اما الذات فانها مركبة من ممالك شتى كانت كل واحدة منها مستقلة بنفسها ولا يزال كل منها لهُ صفات خاصة من جهة جغرافيتهِ وجنسيَّة اهلهِ وعوائدهم واخلاقهم وغير ذلك فيمتنع الكلام عليهم كلهم من هاتيك الجهات بصفة واحدة وان تكلمنا على كل واحدة منها بانفرادها ربما عدل الكلام فيها جميع ما تقدم وما يأتي في الممالك التي شاهدناها ولذلك راينا ان نتكلم عليها من الحيثيَّة التي يدل عليها اسمها وهو كونها مملكة عثمانيَّة اذ ليس هناك قطعة من الارض تسمى في الاصل بهذا الاسم وانما لكل منها باعتبار ذاتهِ اسم خاص والجامع بينها في هاتهِ التسمية انما هو كونها تحت سلطة دولة سلطانها من هاتهِ العائلة وهي العثمانيَّة اي المنسوبة الى عثمان الذي هو اول من تسلطن من العائلة وبقيت في ذريتهِ الى الآن هذا من جهة الذات واما الحامل على مخالفة ما سبق في مثلها من جهة المعنى فلصعوبة الامر او تعسره لان قول الحق صعب والكذب حرام ونحن وان كنا في هذا القطر السعيد بأَمنهِ في ظل خديوينا المعظم التوفيقي لا زال قرة لاعين اهل الاسلام ولكل سكانهِ من الامن والحريَّة ما يسيغ لهُ ان يقول الحق ولا يخشى لومة لائم غير ان بعض مقتضيات الحال تستدعي الاقتصار في المقال فلا مخلص في الكلام على هاتهِ المملكة العثمانيَّة الَّا الاقتصار على الاجمال على حسب ما تسيغهُ الاحوال الى ان ييسر الله بفضلهِ افراد هاتهِ المملكة بتأليف خاص يحتوي على التفاصيل في الحقير والجليل ورحمتهُ تعالى قريبة لا يعزب عن امره شيءٌ وهو على كل شيءٍ قدير

فصل في سفري اليها

قد تقدَّم انا ركبنا من مرسى ينبع في رجوعنا من الحج وقد كان ركوبنا في باخرة نمساويَّة من اجمل البواخر البريديَّة السيَّارة بين الهند واوربا فاجتازت بجدة وحملت منها ذلك الطود الشهير ذا النسب الخطير والحسب المنير السيد سلمان القادري حفيد قطب الاقطاب الاكبر مولانا سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنهم وهو نقيب اشراف

بغداد ايضاً واكبر عائلته وكان حاجاً في ذلك العام فمن الله تعالى عليَّ برفقتهِ عند ما
اجتازت الباخرة بمرسى ينبع وركب في الباخرة ايضاً بعض من الحجاج الترك العثمانيين
والروسيين غير انهُ لم يركب في الطبقة الاولى سوى السيد وبرفقتهِ اخوهُ السيد احمد
وابن عمهِ السيد عبد القادر وجوار لهُ وبعض من الخدمة القائمين بين يديهِ لانهُ ابقاهُ
الله قد اتخذ في الحجرة الكبرى في الباخرة احدى زواياها واختص بها وفرش بها فرشاً
عربيَّة وكانت خدمتهُ هم القائمون بشؤونهِ زيادة عما يباشرهُ خدام الباخرة مثل كونهِ يأكل
منفردًا هو ومن معهُ على مائدتهِ الخاصة في الارض من خصوص طعامهِ الذي يطبخهُ
لهُ طباخهُ الخاص غير انهُ من مكارم اخلاقهِ كان يتحرى للاكل وقت اكل الرفقاء
بحيث كنَّا نتخاطب وكل منا على مائدتهِ حتى على الطعام الذي بين يدي كل منا اذ
كنت اجلس مع بقيَّة ركاب الطبقة الاولى أنا وتابعي في ذلك الايوان للفطور والعشاء
وسارت بنا الباخرة ثلاثة ايام فوصلنا جبل الطور ووقفنا هناك مدة الحمية وهي يومان
وانزل كل من كان بالباخرة الَّا اصحاب الطبقة الاولى ومن انزل ابقى رحلهُ في الباخرة
الَّا القدر الذي يحتاجون اليهِ واخبرونا عند صعودهم انهُ لم تحصل لهم مشقة لقلة الازدحام
وكان من هولاء الترك رجل من اهل بوسنه يعرف قليلاً من العربي حصلت بيني وبينهُ
مودة حتى استأذنت عليهِ رئيس الباخرة وأُذن لهُ في الجلوس معي بايوان الطبقة الاولى
وهو جميل الاخلاق لهُ بعض مشاركة في النحو والفقه وقد ترجم يوماً بيني وبين احد
الترك الروسيين من اهل ولاية قازان وان كان تفهمهُ منهُ عسر جدًا لان لغتة مخالفة
للغة التركيَّة العثمانيَّة ولهُ بعض اطلاع على العربيَّة من جهة كونهِ قرأ بضاعة مزجاة في
الفقه فسألتهُ عن حالة المسلمين اهل بلدهِ من جهة الاحكام الروسيَّة فكان مآل كلامهِ
ان الروسيَّة لا زالت محترمة لهم في احوالهم الشخصيَّة ولا يتداخلون فيما شجر بينهم اذ
مرجعهم في ذلك الى حكام منهم وكأن هذا خاص باهل تلك الولاية التي صارت مع
الروسيَّة على توافق لطول عهد استيلائها عليهم ومحافظتهم على الشروط التي خضعوا بها اليها
لان الروسيَّة مجرية في الولايات التي استولت عليها في الحرب الاخيرة مع الدولة العثمانيَّة
ما هو جارٍ في بقيَّة ولاياتها والزمت جميع السكان من مسلمين وغيرهم بان يكون التعليم
بلغتها فقط لان اللغة هي التي توحد الجنسيَّة فاذا تنوسيت لغتهم صاروا روسيين حتى في
الجنسيَّة ثم انَّا وصلنا الى خليج السويس الموصل بين البحر الابيض والبحر الاحمر وهو
احدى مآثر هذا القرن لان السفن صارت تصل من شطوط المغرب في افريقيا الى

شطوط الصين والهند في ايام قليلة لا تتجاوز الشهر الى ابعدها بعد ان كانت يلزمها
عدة اشهر لانها كانت يلزمها الخروج من خليج طارق ثم تحيط بجميع قارة افريقية
بالبحر المحيط ثم بحر الهند فلعمري انها لمأثرة مفيدة للتجارة على العموم وان كانت فيها
مضرّات سياسيّة بالنسبة لكثير من المسلمين وقد روي ان عمرو بن العاص استأذن
سيدنا عمر بعد فتحهِ لمصر ليفتح خليجًا موصلاً ما بين البحرين ولعلهُ بهذا المكان الذي
هو عليهِ الآن لانهُ اصلح الاماكن لذلك حيث كانت بالوسط بحيرات عميقه مغنية عن
حفر خليج فيها . ثم ان سيدنا عمر سألهُ عن هذا الخليج الذي يراد فتحهُ هل يحصل بهِ
فصل بين ارض جزيرة العرب ومصر فاجابهُ بنعم فقال لا افصل بين ارض المسلمين
بالبحر . ويقال ان سيدنا علي رضي الله عنهُ قال للخليفة عند ما استشار كبار الصحابة
في ذلك انهُ اذا تمّ ذلك الخليج تصير سفن الروم تضرب الى جده وغيرها من مراسي
بلاد العرب وليس للمسلمين سفن تعارضهم فيسهل عليهم غزو بلاد الاسلام ولذلك
كتب سيدنا عمر رضي الله عنهم اجمعين الى عاملهِ عمرو بن العاص بان يضرب عن
ذلك صفحًا ويمكن ان يكون الخليج في اصلهِ موجودًا في العهد القديم . ثم ان الرمال
تراكمت في احدى جهاتهِ على ما سيأتي ذكرهُ فسدت البحر وامتدَّ عرضها الى ان صارت
الارض واحدة ما عدا البحيرات التي في الوسط على سمة واحد التي ربما دلت على اتصال
البحر سابقًا . ويدل على هذا ان بعض المفسرين روى في تفسير قولهِ تعالى " حتى اذا
بلغا مجمع البحرين " في قصة موسى والخضر عليهما السلام ان بعض المؤرخين يقول ان
المراد بالبحرين هما بحر فارس والروم اما بحر الروم فهو معلوم واما بحر فارس المعروف
الآن فيستحيل ان يتصل ببحر الروم الذي هو البحر الابيض خصوصًا في هذا الزمن
القليل نسبيًا من زمن موسى عليهِ السلام الى ما قبل البعثة المعروف فيهِ حالة الارض
على ما هي عليهِ الآن فلا يصح ذلك الكلام الاَّ اذا كان البحر الاحمر يطلق عليهِ بحر
فارس سابقًا لانهُ متصل بهِ وقريب منهُ جدًا لانهما يلتقيان الآن في جزيرة العرب
اي شطوطها الجنوبيّة فلا يبعد ان يكون الاسم يطلق سابقًا على الجميع سواءً . واتصال
البحر الاحمر ببحر الروم سهل جدًا لما مرَّ بيانهُ ولما هو مشاهد بالفعل حيث اتصلا في
هذا الزمن وسبب هذا الاتصال هو ان رجلاً فرنساويًا يقال لهُ فردنان دي ليسبس
لهُ مهارة في الهندسة وهو من مشاهير قومهِ بدى لهُ يومًا امكان اتصال البحرين بهذا
الخليج واعانتهُ على مرغوبهِ دولتهُ لمآرب سياسيّة في قرب الاتصال بالهند لعلهُ يمكن لها

يوماً ما اخذ الثار من الانكليز على نحو ما سبق في تاريخ الدولتين فساعفهم على قصدهم والي مصر اذ ذاك سعيد باشا ابن مُحَمَّد علي باشا وكان الانكليز من اشد المعارضين في ذلك سرًّا وكأَن الاقدار تقول لهم (وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) فانهم حصلوا فيهِ على اكبر فائدة اذ صارت سفنهم هي اكثر السفن المارة بهِ مع تحصيلهم على مآرب اخرى سياسيَّة كتداخلهم في القطر المصري وغير ذلك زيادة عن كونهم صاروا هم المالكين للقسط الاوفر منهُ ومحصلين على ارباحهِ الباهرة وذلك لان فردنان دي ليسبس أَلف جمعيَّة لذلك العمل وجعلت هاتهِ الجمعيَّة التي هو رئيسها رأس مال لمصاريف العمل وجعلتهُ على اوراق ذات أَسهم تباع وتشترى لكل من اراد وكان للحكومة المصريَّة من تلك الاوراق ما مقدار قيمتهِ نحو المائة مليون فرنك وآل الامر بعد ذلك الى بيع اسماعيل باشا خديو مصر لاسهم حكومتهِ فاشترتها الدولة الانكليزيَّة تماماً زيادة عما اشترتهُ سابقًا ولا حقاً من الاسهم افذاذًا وصار دخل هاتيك السهام يوازي اصل قيمتها حتى صارت كل رقعة منها اصل سعرها خمسمائة فرنك تباع الآن بالفين وثلاثمائة فرنك او نحو ذلك لان تلك الجمعيَّة شرعت في العمل وتممتهُ بحفر خليج من البحر الاحمر بمحاذات مرسي السويس واوصلتهُ بالبحيرة الاولى ثم حفرت خليجاً بين هاتهِ البحيرة والبحيرة الثانية الى ان وصلت الى البحر الابيض وعند ما تم عملها عقد اسماعيل باشا خديو مصر لفتح هذا العمل الغريب موكباً مشهودًا جعل بهِ القطر المصري كانهُ دار عرس واستدعي اليهِ ملوك اوربًا كلهم لمشاهدة مرور اول باخرة تمر في ذلك الخليج وكذلك اعيان غيرهم من الاوربَّاويين وكل من قدم منهم فمصاريفهُ مدة اقامتهِ بالقطر المصري على الحكومة المصريَّة ولهم ان يتفرجوا حيث شاؤُوا وقد ساح بعضهم حتى الى السودان مع القيام بكل منهم على حسب مقامهِ اعظم قيام ووفد عليهِ من ملوك اوربا العظام امبراطور النمسا وامبراطورة الفرنسيس اي زوجة الامبراطور وولي عهد كل من انكلترا والروسيا وبروسيا فضلاً عن بقيَّة الملوك المتوسطين والصغار وصرفت في ذلك كلهِ من الحكومة المصريَّة اموال تكاد ان لا تحصى تعاظمت بها ديونها وذلك كلهُ لمآرب سياسيَّة لم ينجح منها المقصود ونشأَ عنها وحشة مع الدولة العثمانيَّة آلت الى الرضاء بعد صرف اموال باهظة ثم استقر عمل جمعيَّة الخليج على اقامة فعلاء ومراقبين على محافظة الخليج ويستخلص على كل سفينة تمر فيهِ مقدار معلوم من الاموال على حسب حمولتها ونوعها حربيَّة او تجاريَّة وفي رأس كل سنة تقسم الارباح على اصحاب الاسهم بعد

اخراج المصاريف المستمرة لان الخليج من جهة السويس لم تزل الرمال تنثال عليهِ منذ فتحهِ الى الآن لولا شدة العمل في رفع تلك الرمال ليلاً ونهارًا على مسافة طويلة تزيد عن العشرة اميال ومع ذلك كلهِ فقد شاهدت في الباخرة التي اجتزنا فيها ان سيرها كان بطيئًا جدًا هناك وكذلك غيرها احتراسًا من الغرز في الرمل مع كثرة العلامات المجعولة في المياه لمحل المرور ومع ذلك كلهِ قد اصطدمت الباخرة في الرمل عدة مرار حتى اني خلت انهُ عمل لا يدوم لشدة التعب لذي شاهدتهُ من العملة في جلبهم للسفن والبواخر المصطدمة في الرمال حتى كانها تجر بالايدي مع كثرة ومداومة العمل بالآلات الرافعة للرمال ومع ذلك كلهِ لا تجتاز فيهِ الاَّ سفينة واحدة وفيهِ اماكن لوقوف السفن اذا كانت تعارضها سفينة اخرى اي احداها غادية والاخرى رائحة فتلك الاماكن وسيعة تمر بها السفينتان ولذلك يجعلون علامات على اعمدة مرتفعة في البر يمينًا وشمالاً ليدرك منها رئيس الباخرة ما يأمرهُ بهِ محافظو الخليج من الوقوف او المشي السريع او البطيء او غير ذلك ولذلك رأيت رئيس باخرتنا قد اخرج كتابًا فيهِ تلك العلامات وشرح المراد منها ليعمل بمقتضاها عند دخوله الى الخليج وبسبب ذلك كانت السفن لا تتحرك فيهِ ليلاً في تاريخ مرورنا وقد وقفنا مرة لمعارضة باخرة انكليزيَّة حربيَّة ذاهبة الى الهند حاملة للعساكر فلما مرت بنا خيل الينا انا راكبون في زورق مع انا راكبون في اعظم البواخر البريديَّة لكن عظم تلك الباخرة الحربيَّة التي هي من نوع الفرقطين خيل الينا ذلك فانها كانت ذات ثلاث طبقات من المدافع وحاملة لاربعة آلاف وخمسمائة عسكريًا وكثير منهم معهم عيالهم وكانوا على همجيَّة فانهم لما رأونا صاروا يصرخون ويضحكون ثم وصلنا الى مرسى الاسماعيليَّة التي هي بوسط الخليج وبقربها ينصب جسر يصل بين اسيا وافريقيا ولا ينصب الاَّ عند وجود المارين ويدفعون عليهِ خراجًا للحكومة المصريَّة وبتنا بالخليج ليلتين وفي صبيحة اليوم الثالث وصلنا الى بورت سعيد ووقفنا بضع ساعات وكان عمال الحكومة المصريَّة حارسون لباخرتنا لكيلا ينزل منها احد لانهم رسموا في ذلك التاريخ بان لا يدخل الى القطر المصري حاج الاَّ من هو من اهلهِ لانهُ كان كثير من المغاربة يدخلونهُ وهم فقراء فربما حملوا الاهالي والحكومة مصاريف لرجوعهم الى اوطانهم ولذلك اعلنوا بذلك التحجير ثم قفلنا من هناك الى ان وصلنا الى مرسى بيروت اعظم مراسي ولاية الشام المعروفة بسورية فطلب مديرو جمعيَّة تلك الباخرة من الركاب ان ينزل منهم الى تلك البلدة كل من كان قاصدًا القسطنطينيَّة وما حولها واما القاصدون بوسنه وهرسك وغيرها ممن تكون لهم

مرسى تريست طريقاً فانهم يبقون في الباخرة لانها قاصدة هناك توًّا والذين ينزلون وكانت الباخرة تعهدت لهم بالوصول الى القسطنطينيَّة وما حولها فانهم ينتظرون هناك الى ان تأتيهم بعد خمسة ايام باخرة اخرى لجمعيَّة الباخرة الاولى وتحملهم الى مقاصدهم وكل من اراد من هولاء اخذ مصاريفهِ مدة انتظارهِ فلهُ ذلك يدفعها اليهِ القيّمون بامر شركة تلك البواخر البريديَّة النمساوية المسماة بشركة لويد وقد اخذ منهم بالفعل كثير ممن نزل لكن بعد مشقة لعدم التفاهم حيث كان اغلبهم من الترك الروسيين الذين قل من يعرف لغتهم ولاستشاطة بعضهم في مقدار المصاريف التي طلبها مع ان اللجنة مقومة لاهل كل طبقة مقداراً عن كل يوم لم اعلم ما هو لاني صرفت النظر عنهُ حيث كان النزول هناك من اعظم مرغوباتي لمزيد التأنس بذلك السيد الجليل القادري وللتعرف بتلك البلاد

فنزلت هناك وكانت المرسى صعبة جدًّا لبعد ارساء الباخرة عن الشط وركوبنا في زوارق مع هيجان البحر وبعد ان خلصنا رحلنا من الكمرك الذي لم نرَ من اهلهِ الّا خيرًا دخلنا الى البلاد راجلين لقربها وعدم وجود ما يركب حول الكمرك فدلني رجل من المتشبثين بخدمة المسافرين على منزل المسافرين قريب من جهة طريقنا كاشف على البحر فاذا هو منزل لاحد الافرنج مثل منازل اوربا المتوسطة الحسن واخذت بهِ بيتاً واسعة ذات حجرة للنوم والصناديق وحجرة للجلوس واغتسلت في حمّامهِ وبتنا تلك الليلة والاكل فيهِ حسن ومن غد شرعنا في زيارة بعض اعيان البلاد والتفرج على منازهها ومنافعها فاذا هي بلد جميلة الوضع في سيح جبل مطلة على البحر وحولها كثيب رمل وجبل لبنان بحيث ان حدودهُ منها على نحو ربع ساعة مجعول لهُ علامات ولهُ ادارة ممتازة كما سيأتي في محلهِ وواليهِ يسكن في الشتاء في بيروت وهو اذ ذاك رستم باشا وقد رايتهُ يوماً راجعاً من الجبل الى دارهِ متخذًا ابهة فاخرة في عجلة يجرها ثلاثة من الخيل العتاق وامامهُ فارس ووراءهُ اربعة من العساكر الخيالة متسلحين وبندقيَّة كل منهم حاملها في وجههِ وهذا الباشا هو شيخ مسن اصلهُ طلياني خدم الدولة العليَّة بنصح وشاخ في خدمتها وسمعت الثناء عليهِ في تلك البلد وغيرها من مسلمين وغيرهم غيور على الدولة محافظ على ناموسها ومصالحها ومن غريب ما سمعتهُ عنهُ انهُ كان مرة يتفقد في جهات ولايتهِ على ذلك الجبل فصادف انهُ يتفقد الجهة القريبة من طرابلس الشام ويصل الى تلك الجهة آخر النهار وليس بقربهِ مكان صالح للمبيت الّا بلد طرابلس فارسل من صباح اليوم الى متصرفها اي حاكمها يعلمهُ بانهُ يبيت ضيفهُ وكان الوقت رمضان فرضهُ آخر النهار ذلك المتصرف وعلماء البلد

ووجهاؤها ثم دخلوا جميعًا الى دار المتصرف وجلسوا في ايوانها كلهم فدخل الخدمة باطباق المشروبات المبردة والحلويات وكان الغروب لم يقع وكان هو اي رستم باشا لا زال على دين نصرانيتهِ لكنهُ لما راى تلك الاطباق داخلة وعلماء البلدووجهاؤها جالسون اكفهر وجههُ وقال للمتصرف ما هذا فاجابهُ بانهُ مشروبات مبردة فقال الباشا أليس هذا رمضان فتبسم المتصرف وقال تملقًا من غير ان يريد اظهار قصدهِ لمخالفة الدين نعم هو رمضان ولكن جنابكم مسافر وانا ايضًا مثلكم وها انا ابتدئ بذلك واخذ الكاس وشرب فاشتد حنق الباشا عليهِ وخاطبهُ بشدة بما معناهُ انك ان كنت لم تراعِ ديانتك فانا يجب عليَّ ان اراعي دولتي ووظيفتي لاني متوظف ووزير لخليفة المسلمين وهذا المقام انما جاءني منهُ وهاتهِ البلاد بلاد مسلمين وهؤلاء الجمع مسلمون جاؤني لاجل وظيفتي فهبني نصرانيًا فاني اذب على الشعائر الاسلاميَّة التي صرت بها انا من انا واقتدر بها على احتقارك وطردك ايضًا من هنا فاخرج حالاً حيث لم تراعِ سلطانك وامامك الذي هو خليفة المسلمين ولا اهل البلاد التي انت عليها ولا انا الذي تعدني ضيفًا فخرج المتصرف من المجلس وشكر الحاضرون كلهم عمل ذلك الباشا فقال لهم ما فعلت هذا لاشكر وانما هي واجباتي اديتها ولعمري ان مثل هذا الرجل يحق ان يستخدم ويا ليت متوظفي الدولة كلهم على نمطهِ كثر الله من المخلصين الناصحين امثالهِ ووفقهُ لسعادة الدارين . وحاصل وصف هاتهِ البلد هي انها بلد جميلة المنظر لان ديارها محسنة الحيطان من خارج وحسن اكثر طرقها غير ان بجانبي الطريق مجاري للمياه على عمق شبر مكشوفة ربما اضرت بالمارين والبناء طينهُ مخلط بالجير فهو حسن المنظر ويقرب شكل الديار من ديار تونس غير انهم يجعلون لبعض الديار ذات الطبقات درجًا مكشوفة في البطحاآت الخاصة بالديار وجعل في البلد طريق للعجلات وهذا الطريق واصل الى دمشق الشام جعلتهُ جمعيَّة افرنجيَّة منتظم السير في اوقات معلومة وكراء معين وتغير الخيل في مراكز معينة ليلاً ونهارًا وكنت اردت الذهاب فيهِ الى دمشق لكن قصر الوقت مع تعطل السير في الطريق لكثرة الثلوج منعني من ذلك

واعظم جوامع البلد الجامع المنسوب لسيدنا يحيى عليهِ السلام وهو جامع واسع نظيف وكذلك بقيَّة جوامعها نظيفة وحماماتها جميلة نظيفة جدًا متقنة التحسين بأنواع المرمر وفوارات المياه وبها اسواق جميلة وان كانت صغيرة على نسبة البلاد لان البلد الاصليَّة صغيرة وكثر حولها البناء المتقن على اشكال شتى منها قصر بديع صالح للملوك

وحولهُ بستان موَّنق غاية التأنيق فيهِ من المرمر في البناء والرخام وانواع المفروشات البديعة والاشجار وتقاسيم الماشي وهو لاحد الاهالي النصارى ذوي الثروة الكبيره التي حصلت لهُ من بعض خدمات لهُ عند خديو مصر السابق ثم استحصل على ان يكون قنصلاً للروسيا في بلدهِ وتوجد بيوت اخرى حسنة تقرب من ذلك كما توجد مدارس علميَّة اسسها القسوس من البورتيستانت الاميريكانيين ومن الجزويت الفرنساويين وقد اثرت هاتهِ المدارس تأثيرًا واسعًا في المعارف هناك فتقدمت النصارى سكان بيروت في التحصيل على معارف جيدة من اللغة العربيَّة نحوًا ولغة وانشاء وفي معرفة بعض اللغات الاجنبيَّة واغلب مبادي الفنون الرياضيَّة حتى صاروا متاهلين للتقدم وتقلد الوظائف في بلادهم وغيرها ويحصلون ذلك في مدة قليلة لسهولة التعليم بالكتب التي اخترع بعضها نفس الاهالي وغيرها غير ان انشاءهم بالعربيَّة يكون غالبًا على غير اللهجة الفصيحة والاسلوب العربي القح لان غالب التلامذة يولعون باللغات الاجنبيَّة فينسجون كتاباتهم العربيَّة على منوال تلك اللغات فيصير السبك اعجميًا في قوالب عربيَّة يمجها من ذاق طعم البلاغة ودونك ما كنت رايتهُ من رسالة لاحد برعاء ذلك الوطن وهو البارع المتفنن رشيد الدحداح كتب بها في ذلك المعنى نص محل الحاجة منها بعد ان ذكر ما طرأ على اللغة العربيَّة الشريفة وما حصل لها من التغيير بالاساليب الاعجميَّة الى ان قال " وكذلك لاجل تحبيب الفرنسيس للمسلمين يجب ترويج لسان العرب باللغة الفرنساويَّة حتى تصير لباسًا لهُ ويصير لباسًا لها فيبدأ بتبديل الاسماء فيجعل اسم المعلم ميخائيل ميشال افندي ويبدل مريم بماريا واذا كتب رسالة قلب رجلاً على قدم. وتناول ريشة عوض القلم. وقال اخذت الحريَّة لاكتب لكم اوعندي الشرف ان اخبركم اني قبلت رسالتكم المكرمة وبالطبع صرت ممنونًا لما تضمنتهُ من الاحساسات الوديَّة. والشعائر الوطنية. ورايتها ملهومة من روح الصداقة . وراغبة في دوام العلاقة. واخذت الاحتياطات اللازمة لادخالها في اعمدة الجرائد ليس فقط لاجل مسرتكم بل بالسبب الاقوى لاجل مصلحتنا ولكن من سوء البخت مراعاة الظروف توجبنا على نوع ما ان نتخذ التمهل بالعمل الى فرصة وفوق كل شيء لانهُ الآن حاصل هنا افكار واستعدادات حريَّة واما عاملو الالقاب فبالضد ومع الاعتبار يقدم لكم الشكر ويهدي لكم السلام حبكم فلان وقس على ذلك الف داهية. من التعبيرات الواهية. التي هي بالمقت حريَّة والتي في اعجميتها سرف. كعندي الشرف. وما هو احط من السفالة. كقبول الرسالة. وآلم من الصفع. كطبيعيًا وبالطبع. وامر من ريب

المنون. كالممنون. واسمج من الخسائر. كهذا الاستعمال للروح والافكار والتقدم والاستعدادات والاحساسات والشعائر". الى ان قال" اما تشبثهم بمادة اخذ فداء اصفر وموت احمر ولو حرمت عليهم اليوم هذه المادة لكسروا الاقلام وعجزوا عن الكلام فتراهم يعبرون بها عن كل الافعال العربيَّة فيقولون اتخذ الباشا مادبة للقناصل واتخذ الملاطفة لهم واتخذوا الدعاء للدولة الى ان قال فيا للخسارة والاسف. على مرض اللغة واشرافها على التلف. فوأيم الله انهُ لصدع لا يلتئم. وجرح لا يلتحم " الى آخر ما اطال بهِ في تلك الرسالة المنشورة في جرائد عديدة عربية ومنها العدد ٩٥ من مرآة الشرق وهذا الكاتب وان كان من اهل لبنان البارعين في العربيَّة والفرنساويَّة لاقامتهِ بفرنسا وصيرورتهِ من اغنيائها لكنهُ استفاد من ذلك التعليم لان هذا التعليم شمل اهل لبنان ايضاً بفوائدهِ والحق يقال ان فوائدهُ جليلة لحسن التعليم وان اثر بعض تأثيرات سياسيَّة في جلب طباع سهل الطبيعة الى حب جنسيَّة المعلمين لكنهُ من حيث التعليم لهُ مزيَّة معتبرة تقدم بها النصارى هناك على المسلمين حتى تفطن في المدة الاخيرة بعض المسلمين الغيورين لهذا المدرك ووجدوا والياً يمد اليهم يد المساعدة وهو مدحت باشا فعقد لهم جمعيَّة تسمى جمعيَّة المقاصد الخيريَّة ومكنها من الاوقاف التي في البلد وكانت استولت عليها ايدي الاغتصاب والمنافع الشخصيَّة فاستعانوا بها مع ما يوزعونهُ على اهل البلد من كل ذي حميَّة وعلى اباء التلامذة وانشأُوا بذلك مدارس على نحو النوع السابق ذكرهُ وكنت دخلت الى كِلاَ القسمين فرايت من تلامذتها ما يسر القلب ولعمري انها مأثرة جليلة تحق ان تذكر * وهذا الرجل وهو مدحت باشا هكذا دأبهُ في كل ولاية وليها لا بد ان يترك فيها مأثرة تذكر وان اعترى كثيراً منها بعدهُ بعض الخلل الَّا انها لا تزال قائمة لما فيها من المصلحة المشاهدة وهو في الحقيقة من افراد رجال الدولة الذين يشتمل عليهم تاريخها نصحاً وتدبيراً وعملاً وعملهُ اكثر من قولهِ بحيث لا يجد القادح فيهِ قولاً لولا عجلة فيهِ كأَنهُ حملهُ عليها مداومة ما يشاهدهُ في وظائفهِ من التأنيات والتسويف الذي يستعملهُ الرؤَساء في وظائف الدولة حتى صار لهم طبيعة والوقت لديهم ليس لهُ اعتبار فاداهُ ذلك الى انتهازهِ للفرص التي يجدها لاجرائهِ المصالح فعلا وجرأهُ ذلك لما اوقعهُ اخيراً فيما اداهُ الى الوقوع في حتفهِ رحمة الله عليهِ رحمة واسعة. وقد حصل من تلك الجمعيَّة فائدة لا تنكر في المعارف لاهل تلك البلاد وهي وان تأسست في جميع البلاد الشاميَّة لكنها كانت في بيروت اشد تقدماً في المعارف حتى صارت هي اول البلاد الشاميَّة في المعارف على العموم وان كان لدمشق

مزيد التقدم في الفنون الشرعيَّة ثم ان اهالي بيروت وان كانوا قسمين مسلمين ونصارى لكنهم جميعاً في غاية الالفة بعضهم مع بعض وعوائدهم جميعاً واحدة حتى في محاسن اخلاقهم وقد شاهدت من فضلاء القسمين ما اشكرهم عليهِ من محاسن الاخلاق والفرح بالضيف مثل الشيخ الدراكة البليغ البارع ابرهيم الاحدب ولهُ ديوان شعر شهير ومثل الاعيان الاجلاء حسين بيهم ونخري بك رئيس الجمعيَّة الخيريَّة وعبد القادر القباني صاحب جريدة ثمرات الفنون احدى الجرائد العربيَّة المتكاثرة في هاتهِ البلد لما في اهلها من التقدم الذي اشرنا اليهِ مع بعدها عن مراكز السياسة ومن اصحاب الجرائد الذين اجتمعت بهم هناك ايضاً البارع المجيد المتفنن سليم البستاني صاحب جريدة الجنة وجريدة الجنان وهو من النصارى اعيان البلاد وممن اجتمعت بهِ منهم ايضاً الوجهاء الاعيان ابرهيم اليازجي ابن الحسن الذكر المتفنن اللغوي البليغ ناصيف اليازجي صاحب المقامات الشهيرة ومنهم سليم ثابت وغيرهم ومنهم الكاتب البارع حسن الجابي وهو وان كان من اهالي دمشق الَّا اني اجتمعت بهِ في بيروت لانهُ قدم اليها صحبة والي الشام اذ ذاك مدحت باشا رحمهُ الله لانهُ كان من كتَّاب الولاية المجيدين عربيَّة وتركيَّة فاستصحبهُ الوالي لنصحهِ ونجابتهِ ثم ترقى بعد ذلك في خدمات الدولة العليَّة وكذلك اجتمعت بالوالي المشار اليهِ هناك لما لي معهُ من المعرفة السابقة في باريس ولافيت عندهُ مرة النصوح رائف باشا متصرف بيروت اذ ذاك ولقد شاهدت من هؤلاء الجمع اكراماً يوجب عليَّ الثناء عليهم جازاهم الله عني كل خير واجل ما حصلت عليهِ في هاتهِ البلاد اخذي للاجازة في الطريقة القادريَّة من مولاي وسيدي السيد سلمان القادري ومثلهُ ابقاهُ الله من يجيز ويحافظ على شريعة جدهِ الاعلى عليهِ وعلى آلهِ الصلاة والسلام فانهُ عند ما اجازني قال لي ما معناهُ في امر الاذكار وآداب الطريقة ليست هي الَّا الشريعة فقف على ما ورد بهِ الشرع واعمل بهِ فهكذا يكون المرشدون وما اجازني بذلك الَّا بعد مزيد الالحاح تواضعاً منهُ ابقاهُ الله الى ان اتت ليلة سفري فساعفني بمرغوبي فودعتهُ وسافرت صبيحة تلك الليلة الى القسطنطينيَّة في احدى البواخر السابق ذكرها * فوقفت بنا بضع ساعات على ازمير التي هي قاعدة احدى ولايات الدولة ونزلت متفرجاً على مرساها وما حولها فاذا هي ذات مرسى جميل حصين صنعهُ احد الافرنج برخصة من الدولة وفيهِ بواخر جمة وتصل سكة الحديد الى رصيفهِ وهي ذات فرعين يمتدان الى داخل الولاية شرقاً وغرباً وحول المرسى قشلاقات عسكريَّة وبعض ديار للافرنج والطريق فيها واسع جميل وبقيَّة الطرقات والاسواق ضيقة عليها

آثار الهرم لان غالب الابنية من الاخشاب وقدم عهدها فلم ارَ ما يذكر الا كونها بلاد تجاريَّة لغنى الولاية بما منحها الله تعالى من كثرة الغلال والفواكه التي تحمل منها الى سائر الآفاق مثل التين المجفف وغيرهِ ثم مررنا على جزر كثيرة تابعة للدولة العليَّة ذات جمال باهر لكثرة اشجارها وجبالها الخضر المتعممة اذ ذاك بالثلج ومن اجملها جزيرة رودس وجزيرة استانكوى التي تشرح الخاطر بما كساها الله من حلل النبات والاشجار العظيمة ثم وصلنا الى جنه قلعة قبيل الغروب من اليوم الثاني وهي باب الخليج القسطنطيني والبلدة ليست بشيء يذكر سوى انها مقام حربي اذ حولها وامامها من الحصون والطوابي والاستحكامات ما يدهش الناظر وهي كثيرة ممتدة على طول مضيق ذلك الخليج على فوهتهِ الى البحر الابيض التي هي ضيقة جدًّا لاتسع ازيد من مرور اربع بواخر جسيمة وتلك الحصون اكثرها لا يكاد يبين لتخالهِ وسط الجبال المحيطة بالجانبين وما يظهر منها تلوح منهُ مدافع ضخمة تكاد تخرق الجبال عند انطلاقها ولذلك يعد هذا المركز اعظم المراكز الحربيَّة تحصنًا بحيث لا يمكن ان يجتازهُ مجتاز بغير رضاء صاحبهِ ولا تدخلهُ سفينة الآن ولو تجاريَّة الَّا بالاذن من موظفي الدولة هناك ولذلك وقفت الباخرة هناك لاخذ الاجازة وهي لا تطول مدتها الَّا نحو نصف ساعة في اثنائها طافت بنا القوارب من البياعين لسلع تلك البلاد والمأكولات والفواكه والذي يمكن ان يذكر من سلعها ليس هو الَّا اباريق من طين مطلي بمعدن اخضر يصير بهِ الطين صقيلاً ويذهَّب باشكال وعلى نحو هاتهِ الاباريق اوان أُخر على اشكال مختلفة المياه ثم دخلنا الى بحر مرمره المتوسط بين فوهتي خليج الاستانة التي مر ذكر احداها التي على البحر الابيض والاخرى بجنب الاستانة على البحر الاسود فبقينا سائرين الى طلوع الفجر وما انفلق الصبح الَّا وقد بانت مآذن جوامع القسطنطينيَّة التي هي مثل غابة من النخيل وبينها قباب الجوامع الضخمة فارست الباخرة في داخل الخليج على مقربة من القنطرة الموصلة بين استانبول وغلطه وطافت بالباخرة القوارب لمن يكتري من الركاب وقوارب السلع ثم بعد هنيهة قدم اليَّ البعض من اصدقائي مع زورق مخصوص للوزير خير الدين باشا التونسي انزلوني فيهِ وتكفلت اتباعهم مع تابعي بانزال صناديقي فنزلت ضيفًا عند الوزير المذكور ثم بعد بضع ايام اكتريت دارًا جميلة على الخليج وسكنت بها بعد ان اشتريت لها جميع مفروشاتها اللازمة واحضرت من الخدمة اللازمين والطباخ مقدار الحاجة واقمت ساكنًا من صفر سنة ١٢٩٧ الى شعبان سنة ١٢٩٨ واحضرت اليَّ ابني البكر من

تونس وبقيت بالقسطنطينيّة مستريح الفكر والبدن متنعماً بهوائها الحسن متأنساً بالاصدقاء ذوي الوفاء الى ان حل بالوطن ما حل في سنة ثمانية من استيلاء الفرنساويين عليهِ ممَّا كنت بهِ انذرت ولم تفد النصيحة لغلبة الهواء والله يقضي ما اراد فذهبت الى ايطاليا لاخابر عائلتي في نقلتهم وبيع املاكي وفي اثناء ذلك ذهبت الى جنيف من مملكة سفيسرا فوضعت بها ابني في مكتب خصوصي ثم رجعت الى ايطاليا لاتمام ما ذكرناهُ ثم رجعت الى القسطنطينيّة بعد ان اعلمتني عائلتي بسفرها اليها فمررت على مملكة المانيا ثم النمسا ثم الرومانيا ثم الصرب والبلغار وسيأتي ذكر هاتهِ الممالك ان شاء الله كل منها منفردًا ببابهِ ثم رجعت الى القسطنطينيّة مقيماً فيها بعائلتي من اول سنة تسعة الى اول سنة اثنين وثلثمائة التي توجهت فيها الى مصر حيث لم اجد من الراحة الفكريَّة والبدنيَّة ما يستقيم بهِ الحال وكذلك امر المال وان كانت الحضرة السلطانيّة تفضلت عليَّ بمرتب وكراء بيت لم يمكن استطرادهما لما في خزنة الدولة من التضايق المجحف حتى بالقيام بالضروريَّات الواجبة في اغلب الجهات نسأل الله تفريج الكربات

مطلب في صفة القسطنطينيَّة

هاتهِ البلدة قديمة الانشاء وتأسست تختاً لمملكة الرومان المعروفين بالروم سابقاً على ما تقدم في تاريخ ايطاليا وسميت البلدة باسم احد ملوكهم ذوي الصيت المنتشر وهو قسطنطين المتولي سنة ٢٢٣ ميلاديّة واتخذ موقعها في اجمل مواقع الكرة الارضيَّة في نصفها المعروف قديماً وموقعها ايضاً احصن هاتيك المواقع لانها متحكمة بين البحر الاسود والبحر الابيض ويوصل بينهما الخليج الذي بوسطهِ بحر مرمرا وهذا الخليج بمكان البلدة يكتنفهُ جبال يميناً وشمالاً والجبال مكساة بحلل النبات الباهر في جميع الفصول وقد وضعت البلد على سفح ثلاث جبال يفصل بينها الخليج اما قسم منها فيفصل بينهُ وبين غيرهِ الخليج الكبير وهذا القسم هو المسمى باسكودار الواقع في قارة آسيا والقسمان الآخران يفصل بينهما فرع من هذا الخليج داخل في قارة اوربا الى ان يتصل بجدول يعرف بكاغدخانة فالقسم الشرقي من القسمين يسمى بغلطه والقسم الغربي يسمى باستانبول وقد كان في القديم محل البلدة مفصولاً عن بقيَّة القارة بخليج واصل الى بحر مرمرا وهو قرب مقام سيدنا ابي ايوب الانصاري الآن فكانت جزيرة منفردة

وهذا القسم هو مقر البلاد الاصليَّة الذي يشتمل على مركز الادارة والاسواق وغير ذلك وحيث كانت البلد واقعة في عرض سبعة واربعين شمالي كان هواؤُها يغلب عليهِ البرد وتنزل عليها الثلوج في كل سنة وربما جمد الخليج في بعض السنين فهي في جميع اوقاتها لها منظر منفرد في الارض لمن يراها داخلاً من الخليج حيث كان الخليج في الوسط وتحفهُ على جميع شطوطهِ الممتدة نحو ٢٢ ميلاً قصور ودساكر جميلة الصنع ذات ألوان لان البناء بالاخشاب ويدهن ظاهرًا وباطنًا بألوان جميلة مع كثرة طاقاتهِ ويتخلل هذا البناء الصوامع المتناغية في الجوّ مع جودتها وتعدد ادوار مآذنها وبينها القباب الشاهقة ثم وراء هاتهِ البناآت على سفح الجبال البساتين والجنائن والاشجار الملتفة والعيون المتدفقة فتدهش رؤيتها ابصار الناظرين وتستمر البواخر خارقة لهذا الخليج في ذلك المنظر البديع مدة نحو ساعتين فلا ريب ان كانت هي سيدة البلدان السياسيَّة خصوصًا ووضعها قد جاء على كل من قارتي اوربا وآسيا وعلى كل من البحرين الابيض والاسود ولهذا يسمونها في القديم بفاروق لفرقها بين البرين والبحرين لكن ذلك المنظر والجمال ينحط درجات عديدة اذا نزل قاصدها الى البر وتخلل بالمشي في شوارعها لان طرقاتها اغلبها ضيق ومباط بحجارات على اصل خلقتها مقلبة مكعبة تتعب الراكب والماشي وكثيرًا من الديار قد اخذ منهُ الهرم مأخذهُ خصوصًا في هذا الوقت الذي تفاقم فيهِ على اهلها الضيق المالي لان اهلها المسلمون وهم اكثر السكان اغلبهم لهُ جرايات ومرتبات بحيث ان اقاتهم مناطة بالدولة التي ضاقت خزينتها عن القيام بشؤُونها وبقيتهم ذوو صنائع خسيسة كسائقي العربات والنوتية وما شاكل ذلك والقليل النادر لهم تجارة على قدر الحاجة والتجارة المعتبرة انما هي بيد الافرنج او النصارى من رعيَّة الدولة وكذلك اغلب الصنائع الضروريَّة والحاجيَّة والتحسينيَّة على كثرتها كلها بيد النصارى ايضًا الاَّ ما ندر وكأن سبب ذلك هو اختصاص المسلمين قديمًا بالوظائف والرتب فانحصرت معيشة غيرهم فيما يجيدونهُ من صنائعهم وتجارتهم ولما انفتح الباب في الازمان المتأخرة شاركوا المسلمين في الوظائف وسابقوهم فيما كان خاصًا بهم لمد أيدي المساعدة لهم من الافرنج ودولهم الاجنبيَّة فاتسعت معارفهم الرياضيَّة واتقنت صنائعهم واتسعت تجارتهم وتقهقر المسلمون لوقوفهم فيما كانوا عليهِ بل لانحطاط درجة المعارف لديهم واعراضهم عن الصنائع وغيرها من اوجه التكسب لانحصار الامال في مجرد التوظف في الدولة ولهذا ترى البلاد ممتلأَة بالقهاوي وبالقرائتخانات التي هي

قهاوي نظيفة ينتابها الوجهاء من الناس فلذلك صارت الديار الحسنة قليلة في هاتهِ البلد العظيمة التي يتجاوز سكانها المليون وربع واذا ضممت القرى التابعة لها في جوارها مثل بيوك آطه اي الجزيرة الكبيرة وغيرها من بقية الخليج يكون مجموع سكانها مليون ونصف على ما يقال حتى انها كانت هي اعظم البلاد المعروفة وسميت بالقسطنطينية العظمى والحاصل ان طرقها الآن التي لها نوع من الحسن هي طريق يبتدى من بطحاء في وسط استانبول تسمى بميدان السلطان احمد وفي وسطها مسلة من المسلات المصريّة متناغية في الهواء فيمر الطريق على الباب العالي ثم على القنطرة الموصلة الى غلطه ثم يمر منها الى الطوبخانة على سمت نحو المستقيم وهكذا يمتد على ذلك النحو الى قبطاش وبشكطاش واورطه كوى ثم قورى شيشمه ثم ارنؤوط كوى ثم الى ببك ثم الى روم ايلي حصار ثم الى يني محله ثم الى طرابيا ثم الى بيوك دره ثم الى نهاية الخليج المسمى بروم ايلي قواغي جهة البحر الاسود والاماكن التي تقدمت اسماؤها كلها حارات مثل البلدان متصل بعضها ببعض ممتدة على طول الخليج وانما كان هذا الطريق محسناً لان اغلب اماكنهِ بها بناآت للدولة او للسلاطين او ابنائهم او بناتهم او وزرائهم او امرائهم او لسفراء الدول الاجنبيّة او للاغنياء من الافرنج والنصارى اتباع الدولة مع كون شركة افرنجية قد جعلت بذلك الطريق عجلات الترامواي برخصة من الدولة على شرط تحسينها للطريق وتوسعتها لهُ حتى لا يعارض مروره العجلات الاخر وهكذا يمتد هذا الطريق أيضاً بفرع آخر من البطحاء المذكورة ويمر على بطحاء السلطان بايزيد ثم على آق سراي ويمتد هكذا مستطيلا على نحو استقامة الى ان يصل الى آخر استانبول في باب ادرنه ويوجد طريق آخر على ذلك النحو يبتدي من غلطه امام القنطرة ويصعد في جبلها ويمر في بايوغلي التي هي حارة السفراء في الشتاء واما في المصيف فانهم يسكنون في الخليج ومثلهم بقيّة الاعيان وحسن طريق بايوغلي فائق على الكل لمزيد التحسين في الديار الحافة بجانبيهِ وقد احدثت طرق اخرى كثيرة على النوع المتعارف في اوروبا في جهات سراية يلدز ونيشان طاش الى ان تتصل بطريق بايوغلي لكن هاتهِ الطرق لم تنتظم الديار التي على حافتيها فاغلبها خالٍ عن البناء بالمرة ويمكن ان يقال ان البناآت الحسنة الموجودة في هاتهِ البلاد تكاد اصحابها ان لا يخرجون عن الاصناف الذين ذكرناهم وهذه البناآت قديمها كلهُ من اخشاب ذو طبقتين او ثلاث نادرًا وجديدها من بناء اغلبهُ بالطوب المطبوخ الاحمر او الحجارة والمرمر متقاربة الشكل الحسن منها حسن الظاهر والباطن

وصورتها ان يدخل من الباب الى دهليز فيهِ درج قليلة يصعد منها الى الطبقة الاولى التي هي ايوان مثل وسط الدار مسقوف مع بقيَّة بيوتها وفيهِ ابواب هاتيك البيوت التي هي مربعة او مستطيلة وفيهِ ايضاً نحو المقعدين يميناً وشمالا في الغالب ثم تلك الدرج تنبعث صاعدة الى الطبقة العليا التي هي على نحو التي تحتها وتختلف اشكال الدرج في كونها ذات فرع واحد الى آخرها او ذات فرع وفرعين وكل دار تشتمل على عدة مراحيض جميلة الوضع نظيفة كل منها بهِ محل للوضوء ومحل لمنديله بحيث ان الوضوء في هاتهِ البلاد ايسر شيء على صاحبهِ مع نظافة المكان والحق ان جميع الديار بل وجميع احوال السكان نظيفة للغاية كل على حسب حالهِ عسرًا ويسرًا وقصور السلطنة ومساكن السلاطين قد اشتملت على اشكال البناآت المستحسنة في اكثر البلدان واعظمها بهجة ورونقاً قصر دولما بخنشه الذي هو الآن قصر السلطنة الرسمي فانهُ لهُ باب عظيم ذو اتقان وتزويق بالذهب لم ارَ مثله قط ضخامة وزخرفة في جميع اوروبا وغيرها وهو يفتح الى بطحاء عظيمة امامهُ وفي مقابلتهِ جامع انيق لهُ باب مقابل ذو بهجة وقريب من باب القصر في الحسن باب ثان يفتح الى طريق بشكطاش وكلا البابين يدخل الى بطحاء عظيمة بها باب القصر الذي هو منقسم الى ثلاثة اقسام في الحجم متصلة ببعضها اوسطها ارتفاعهُ يوازي ارتفاع القسمين الآخرين مرتين وهذا القسم الوسط كلهُ ديوان واحد هو مجلس السلطان في المواكب فانظر الى هذا البيت الذي اتساعه قدر اتساع قصر تام سلطاني فان القسم الاول هو قصر ذو طبقتين وطبقة ثالثة سفليَّة نصفها تحت الارض ونصفها فوقها وتشتمل كل طبقة على دواوين واواوين وحجرات مزخرفة مكللة مزوقة بالذهب والفرش الفاخرة والثريات المتكاثرة وغير ذلك من الزخرفة والابهة التي تأنق فيها السلاطين للمباهاة وهذا القسم خاص بجلوس السلطان للرجال والقسم الثالث مثل هذا القسم وربما زاد عليهِ رونقاً في الفرش وهو مسكن حرم السلطان ثم عند الباب الاول في الذكر قصران يميناً وشمالاً لحاشية السلطان وخاصتهِ وبطانتهِ ووراء قسم الحريم قصر آخر مفصول عن السابق مثل احد القسمين السابقين هو مسكن ولي العهد لكنهُ لا يلقب بهذا اللقب وانما يقال فيهِ اكبر ابناء السلاطين بعد السلطان المستولي وهاتهِ القصور انشاها السلطان المنعم عبد المجيد رحمهُ الله وتسمى دولما بخنشه وقريب معهُ قصر آخر انشأهُ السلطان عبد العزيز يسمى تشارغان هو اشد رونقاً وزخرفة في داخلهِ من الاول لكن الاول ابهج منظرًا والجميع على

شاطيء الخليج تفتح اليهِ رواشينها المتكاثرة كما هو شان جميع الدبار هناك فلا تجد بين الشباكين ازيد من نصف ذراع او ذراع وعلى نحو من هذين القصرين في قسم اسكودار قصر بناهُ السلطان محمود رحمهُ الله يسمى بكلر بك وهو اصغر من الكل ثم قصر آخر بديع للغاية يسمى بيقوز حجارتهُ كلها داخلا وخارجًا من المرمر الاحمر والاخضر فنصفهُ الاعلى اخضر والاسفل احمر وهناك قصور أُخرى عديدة صغيرة دون هاتهِ الّا القصر السلطاني الآن المسمى بيلدز الذي هو في الاصل مثل هاتيك الصغيرة لكنهُ لما رجحهُ السلطان المعظم عبد الحميد للانفراد فيهِ والسكنى بهِ دائمًا تزايدت قصورهُ شيئًا فشيئًا حتى صار ابهى في الداخل من الكل وان كان من خارج لا يظهر منهُ الّا القليل لوقوعهِ في وسط بستان متسع ملتف بالاشجار ومحيط بهِ اسوار ومساكن للعساكر على جميع محيطهِ

فصل

في مجمل تاريخ الدولة العثمانيّة

اعلم ان الدولة العثمانيّة كانت تأسست عند ما تفرقت الملوك الاسلاميّة واستبد كل منهم بجهة مع الخروج عن العمل بالشرع بل اتبعوا الشهوات واسترقوا الرعيّة وتصرفوا في الاموال بحسب الاغراض فضعفت شوكة الاسلام وصارت ممالكهم طعمة للاجانب فرحل من وراء النهر اي نهر سيحون ويعنون بما وراءهُ ما كان على عدوتهِ الشرقيّة قبيلة من مسلمي الترك تحت رئاسة سليمان شاه جد عثمان خان ملتجئين الى السلطان السلجوقي لما شملهم من ظلم التتر فاظلهم بالامن واسكنهم ارضًا بالاناضول واذن لرئيسهم ارطغرل بعد وفاة ابيهِ سليمان شاه بالغزو حيث كانوا قومًا شدادا متمرنين على الحرب فافتتح بسيفهِ الباتر اراضي وبلدانًا وفوض امرها اليهِ السلطان السلجوقي والى ابنهِ عثمان من بعدهِ فتلقب بالسلطان عثمان وذلك في سنة ٦٩٩ وقد نظم الجد الشيخ محمّد بيرم الثاني قصيدة تشتمل على انموذج من تاريخ هاتهِ الدولة مع اسماء سلاطينها ذكرناها هنا لا يفائها بالمقصود وسماها "عقد الدر والمرجان في سلاطين آل عثمان" وهي

اقدم قبل القصد شكرًا لمنعم — علينا بما اربى على كل انعم
على عز هذا الدين والملة التي — وان لحقت فازت بفضل التقدم
واتبعهُ ازكى الصلاة مسلمًا — على اشرف المخلوق قدرا واعظم
نبي لهُ وصف النبوة ثابت — وآدم بين الماء والطين فاعلم
محمد من قد اظهرالله دينهُ — بمكة ذي البيت العتيق المعظم
واعلاهُ بالانصار اذ حل طيبة — فحيا بوجه مشرق ذي تبسم
وما زال محروس الجناب مؤيدًا — بكل امام بالعلا ذي تهمم
محوطًا الى ان آل تدبير امرهِ — وحفظ حماهِ بالخميس العرمرم
لحي حلال يعصم الناس امرهم — اذا طرقت احدى الليالي بمعظم
كرام فلا ذو الضغن يدرك تبلهُ — لديهم ولا الجاني عليهم بمسلم
ملوك بني عثمان سلسلة العلا — غصون نمت اذ فرعت عن غطمطم
فللهِ ما قد شيدوا من بنائهِ — وما هدموا للكفر من كل معلم
لقد احكموا امر الجهاد بما اتوا — باعظم صنع فيهِ من بعد اعظم
فكان لهم والله يكلأ مجدهم — بما فعلوا حق على كل مسلم
وقدرمت في ذا النظم جمع ملوكهم — وبعض مزاياهم لتروى فتعلم
فأولهم (عثمان) باكورة العلا — مذيق الردا من بأسهِ كل مجرم سنة ٦٩٩
لهُ فتحت برصا فاضحت سريرهم — فكان لها في ذاك فضل التقدم
وثانيهم (ارخان) من قد اتت بهِ — كريمة من صلب الولي المعظم سنة ٧٢٦
شجاعتهُ قد اظهرتها حروبهُ — فعنهُ بما تختار فيها تكلم
وثالثهم من نال فضل شهادة — (مراد) محلى القرن حمرة عندم سنة ٧٦١
فذاك الذي قد فض ختم ادرنة — فذاقت بهِ برد الهنا والتنعم
ورابعهم شمس العلا (بايزيد) هم — موافقهُ في الحرب مرة مطعم سنة ٧٩١
لئن كان مع تيمور ما انفذ القضا — فان ارتكاب الغدر منشا التثلم
ولا عجب للاسد ان ظفرت بها — كلاب الاعادي من فصيح واعجم
فحربة وحشي سقت حمزة الردا — وحتف علي من حسام ابن ملجم
وخامسهم فخر الملوك (محمد) — مجدد هذا الملك بعد التصرم سنة ٨١٦
وسادسهم ثاني (مراد) بمن رقى — من العز مرقى لا ينال بسلم سنة ٨٢٤

تخلى عن الامر اختيارًا لشبله وعاد لجبر الحال خوف تألم
وسابعهم فحل الفحول (محمّد) لهُ فتح اصطنبول اشرف مغنم سنة ٨٥٥
عقيلة عن صيد الملوك تمنعت وكلهم في وصلها ذو تهمم
لقد جاءها يختال في العز مودعًا خبايا المنايا بين جيش عرمرم
لدى اسد شاكي السلاح مقذف لهُ لبد اظفاره لم تقلم
فدحرج عنها سيد الروم خاسئًا لدى حيث القت رحلها ام قشعم
وحل بها لما تنادت جنوده بتكبير منشي العالمين ومعدم
وقد وسم السيف العدافي رؤوسهم كأنهم قد خضبوها بعظلم
فما الحرب الاَّ ما رأوا من بلائهِ وما هو عنها بالحديث المترجم
وثامنهم فرع لهُ (بايزيد) هم ابو الجود ماذا سد خلة معدم سنة ٨٨٦
وتاسعهم مفتاح فتح ممالك غدت في جبين الدهر غرة ادهم
(سليم) الذي قد حل بالشاه بأسهُ فادبر يطوي الارض من قرب جهضم سنة ٩١٨
ولاح بتبريز سناه فاصبحت عروسًا تجلت في وشاح منمنم
ومذ برقت بالشام انوار برقهِ دعتهُ دعاء البائس المتظلم
فسكن منها روعة بقدومهِ وضمت عليهِ سورها ضم معصم
وواجه مصرًا بالاذى اذ تلكأَت فاجرى بها نيلاً تدفق بالدم
وقد غرها الغوري فغار بدابق واقبل طومان كذيب لضيغم
فاصبح مصلوبًا بباب زويلة يداس باقدام ويوطا بمنسم
ولم يبق من ابناء شركس ناعق كانهم قد لامسوا عطر منشم
واضحى سليم للمقامين خادمًا بذاك ينادي للسلاطين خدم
وعاشرهم ذو الرأي والبأس والندا (سليمان) جراع العدا كاس علقم سنة ٩٢٦
قد انتظمت بغداد في سلك ملكه فصار له امر العراقين ينتمي
وقد ظهرت آثاره بحديثها حداة الورى تحدو بها كل موسم
فمنها ويا لله غزوة رودس تغنى بها طير الفلا بترنم
وفي سكتوار بعد ان فتحت له اجاب الى المولى بقلب مسلم
فلاحت بافق الملك طلعة شبله (سليم) عظيم الملك فرع معظم سنة ٩٧٤
لهمتهِ العلياء قبرص اذعنت تقابل مسعاهُ بوجهٍ مقسم

وفي يمن من بعد بدء فتوحهِ لوالدهِ الارضي اتى بالمتمم
واحيا بهِ الرحمن تونس عند ما غدت بعد عزٍّ شامخ في تحطم
فشدَّ بضبعي سعدها فاقامهُ وكان بقهر الاسر صاحب مجثم
ومن بعدهِ قد بايع الناس فرعهُ (مرادًا) كريم النفس وابن مكرم سنة ٩٨٣
ويتلوهُ في دست الامامة شبلهُ (مُحَمَّد) مغضي الطرف عن فعل مأثم سنة ١٠٠٣
اقام على اغرى فابدى بافقها سحائب حرب امطرت كل لهذم
وعفر للرحمن في الارض وجههُ فآب بفتحٍ للطواغيت مرغم
وقام ابنهُ ذو الحسن (احمد) بعدهُ يحيي ببدر تحت تاج منظم سنة ١٠١٢
ومن بعد هذا (مصطفى) بن مُحَمَّد اقيم ولكن عقدهُ غير مبرم سنة ١٠٢٦
فبويع (عثمان) بن احمد بعدهُ وأُنزل عن قربٍ لامر محتم سنة ١٠٢٨
وقد عاد بعد الخلع خاقان مصطفى وأُنزل بعد العود مثل المقدم سنة ١٠٣١
فجاء (مراد) نجل احمد بعدهُ فكان كعلمٍ لاح اثر توهم سنة ١٠٣٢
اطل على دار السلام بجيشهِ نأَنقذها من رافضيٍّ مذمم
وقد لبست ما زانها لمسرةٍ والقت بما قد شان من ثوب مأتم
وعادت الى عاداتها دار سنة تجرّرُ اذيال الهنا والتنعم
وقد قام (ابراهيم) وهو ابن احمد فللّهِ من حزمٍ وحسن توسم سنة ١٠٤٩
بكندية منهُ وقد جاس ارضها باسياف اجنادٍ لها نهشُ ارقم
اقاموهُ عن كرسيهِ وتقدموا لمن هو في عهد الصبا والتعلم
(مُحَمَّد) فرع منهُ فانصدع البنا وهبَّ من الكفار كل تضرم سنة ١٠٥٨
ولكنهُ لما تكامل واستوى بدا منهُ حزمٌ فاضح كل احزم
فتمم فتحًا سنهُ والدٌ لهُ بكندية اعظم بهِ من متمم
وناهيك من فتحٍ يضيق بيانهُ عن النظم فانظر في التواريخ تعلم
ومن بعد هذا تمَّ بالخلع امرهُ فيالك من فعلٍ قبيحٍ مذمم
فقام (سليمان) اخوهُ مقامهُ ولم يألُ جهدًا في صلاح المحطم سنة ١٠٩٩
ومن بعدهِ قد قام (احمد) صنوهُ فبانت جراحٌ لا تداوى بمرهم سنة ١١٠٢
واعقب هذا (مصطفى) بن مُحَمَّد واخر عما نالهُ من تقدم سنة ١١٠٦
فقام اخوهُ (احمد) بعد خلعهِ وسلم لما شام برق التألم سنة ١١١٥

وقد فتحت تبريز قهرًا ومورة   بايامهِ وجه الزمان المطهم

فبويع للسلطان (محمود) بعدهُ   هو ابن اخيهِ مصطفي المتقدم سنة ١١٤٣

سنه ١١٦٨ ومن بعدهِ قد قام (عثمان) صنوه   ومن بعد هذا (مصطفى) ذو التقدم سنة ١١٧١

الى الموسقواذ وجه العزم نحوه   وجرد في حرب لهُ كل اصرم

ومن بعدهِ (عبد الحميد) امامنا   اخوهُ عظيم من عظيم مفخم سنة ١١٨٧

ابان لهُ الله الهدى واناله   رشادًا وتسديدًا لدى كل مبهم

فهاك سلاطين الزمان جمعتهم   بنظمٍ كسمط باللآلي منظم

وعدتهم سبع وعشرون قد غدت   سماءُ العلا منهم تضيءُ بأنجم

ودولتهم خمس المنيدات عمرت   وفي طول هذا العمر لم تك تهرم

وذا في ثمانٍ بعد تسعين ضمها   الى مائة من بعدها الالف تعلم

وناظمها العبد الفقير محمد   اقل الورى المشهور فيهم ببيرم

يقول تنادبني المعالي بقولها   اليك الذي قد قلت فيهم بهِ اختم

ايا دولةً اربت على كل سابق   عليها لعز الدين والملة اسلم

وقد سلمت حتى رأت في سريرها   هماماً بهِ الدين الحنيفي يحتمي

(سليم) ابن خاقان الخواقين مصطفى   لدينك يا مولاي صنهُ وسلم سنة ١٢٠٣

فلا زال منها قائمٌ اثر قائمٍ   الى زمن المهدي وعيسى بن مريم

يقول حفيد الشيخ قدس سرهُ   موافقهُ في الاسم لا في التعلم

لقد انجح الدعوى بفضل نوالهِ   كريم لهُ النعمى على كل مسلم

بتسليم هذا الامر لليث (مصطفى)   لعبد الحميد الفرد لقب بابنم سنة ١٢٢٢

ولما قضي نحبًا قتيلاً من الاولى   اضاعوا التقى واستبدلوا الامن بالدم

تعالى الى دست الخلافة حازمًا   اخوهُ الرضى (محمود) خير ميمم سنة ١٢٢٣

لهُ صولة في الروسيا مع بغاتهِ   فارواهم ماءَ الردى والتقسم

ومن بعده قام ابنهُ من لمجدهم   غدى ينشر الاعلام فى كل معلم

ألا انهُ (عبد المجيد) وحيدهم   لهُ النصرة الغراءُ في كل معظم سنة ١٢٥٥

بحرب القريم الخطب دام مصابرًا   فنال المنى من بعد طول تجهم

ونظم قانونًا الى الخير راشدًا   وتمم ما ابداهُ رأيه المقدم

فاصبح وجه للبسيطة مبهجًا   بما نالها من فرط عدل متمم

ومن بعد ذا وافى الى الدست ضيغم | لهُ مفخر اربى على كل ضيغم
فذاك الذي عم البسيطة عزه | وسلطانهُ فاق السوى بالتنظم
وان رمت عدًّا للمآثر تكتفي | بذكر اسمهِ (عبد العزيز) مترجم
لقد خضعت سود الجبال لعزمهِ | فاضحت لعز بالخلافة يأتمي
ومذ ارتقى فوق السرير تتوجت | بافعاله هام الزمان بانعم
لذاك تباشير الولاية ارخت | حسيبٌ بهِ الاسلام ما زال يحتمي سنة ١٢٧٧
ولكنما قد حل ما جلَّ امرهُ | نخيف من الخطب العظيم المطهم
فتم باهل الحل والعقد خلعهُ | ونادوا بنجل للهمام المقدم
(مراد) ولكن لم يطق عبء حملها | لاخلال شرط بالامامة مخرم سنة ١٢٩٣
فنادوا سراعًا مجمعين باسرهم | بمن يحسم الاهوال في كل معظم
الا انهُ ❁ عبد الحميد ❁ امامنا | عماد الورى والدين نجل المكرم
فاربى على كل الملوك مفاخرًا | تحلى بها الافاق في كل موسم
تلافى بحسن الرأي ماجل خطبهُ | بدس العدو الموسقو المذمم
فارجع قهرًا طاعة الصرب بوسنا | وهرسك بلغارا بنصر متمم
كذا الجبل المسودلان عريكة | بفتك وحلم ثم عاد لاعظم
فكان الى الروس الطغاة معاضدًا | وحل القضا اعظم به من محتم
وابقى اله العرش حوط الخلافة | بابقاء جبل للممالك محتمي
فاسدى لها سلطاننا فيض عدلهِ | باجرائهِ تأسيس عدل منظم
ولا زال يبدي كل يوم فضائلاً | تترجم عن شد النهى والتقدم
فنسأل من فيض الكريم لهُ حمى | بنصر لاعلام الخلافة مبرم
ودونك بشرى للولاية ارخت | مفتح ابواب الصفا والتقدم سنة ١٢٩٣
وان رمت بشرى الحال تاريخها اذًا | لعبد الحميد العيد اسعد موسم سنة ١٢٩٧

فتضمنت قصيدة الجد المشار اليهِ عليهِ سحائب الرحمة تاريخ السلاطين الذين اولهم السلطان عثمان وآخرهم السلطان سليم ابن السلطان مصطفى كما تضمن تذييلنا تاريخهم من السلطان مصطفى الى سلطاننا الخاقان عبد الحميد ايدهُ الله وتبين مما سبق ان الدولة العليَّة لم تزل منذ ستمائة سنة ولله الحمد قائمة معتبرة بين الامم غير انها منذ نحو مائتي سنة تناقصت سطوتها عما كانت عليهِ لا سيما في حروبها مع الروسيا لان الدولة

الروسيَّة منذ وليها بطرس الاكبر في سنة ١٦٨٢ جعلت مطمح نظرها توهين شوكة الدولة العليَّة والاستيلاء على ما يسمح لها من ممالكها ثم الاستيلاء على بقيَّة المعمور اقتداء بدولة الرومان في استيلائها في عنفوانها على سائر المعروف من الكرة اذ ذاك ويبرهن لهذا صريح الوصيَّة المنسوبة الى ذلك القيصر واول من اشهرها في اوروبا هو فريدريك كياردي سنة ١٨٣٦ وهذا تعريبها

من بطرس الاول الخ — الى كل من يخلفني على تخت الروسيا التحيَّة . فان الله سبحانهُ لم يزل منذ بداية الابد في اعانتنا واسدل فضلهُ علينا بما حملني على الاعتقاد بان الامة المسكويَّة تتسلط ان شاء الله على الممالك الاورباويَّة (لا قدر الله) والدليل على ذلك ان الامم الاورباويَّة قد هرم اكثرهم واخذ البعض منهم في التلاشي فان ادركت الروسيا تمام قوتها لا شك انها تتغلب على سائر الممالك لما لها من شوكة الصغر وعندي ان هجوم الامم الشماليَّة على اوربا من احكام القدرة الالهيَّة التي لا بد من نفوذها كما وقع سابقاً عند هجوم الامم المذكورة على مملكة الرومانيين فاحيتها بعد اضمحلالها وانا وجدت الروسيا جدولاً صغيراً فتركتها نهراً وارجو انهُ باعتناء من يخلفني تصير بحراً عظيماً يغطي بمياههِ اوربا باسرها ولا يتعرض لسيلانهِ عرمرم فحملني هذا الاعتقاد على ان اقرر هنا الاصول التي لا بد من اتباعها نظراً الى ادراك هذا المقصود المعتبر وهي

اولاً

على ملوك الروسيا ملازمة الحرب لتكون جيوشهم دائماً على حال الرياضة والاستعداد فلا يكفوا عن الحرب الَّا لاصلاح شأن الماليَّة وجبر ما نقص من العساكر وتربص فرصة الهجوم على الاعداء فالحرب والصلح يتناوبان حسبما تقتضيهِ الحاجة نظرا الى توسيع دائرة شوكتنا وفلاح البلاد

ثانياً

عليهم ان يجلبوا من سائر الاقطار الاورباويَّة العارفين بالفنون الحربيَّة مدة الحرب واما مدة الصلح فعليهم جلب من اشتهر من العلماء لتنفيع الروسيا بما يلائم الاخرى من دون خسارة ما لها طبيعة

ثالثاً

عليهم التداخل في سائر احوال الممالك الاورباويَّة وخصوصاً المانيا لقربها الينا

رابعاً

التداخل في احوال بولونيا وفي انتخاب ملوكها حتى لا ينتخب الّا المحب للروسيا وادخال جيوشنا بها لحماية هولاء الملوك الى ان يتيسر التسلط على البلاد راساً فان تعرضت الدول الاخرى تجب الاجابة الى مطالبهم الى ان نقدر على استرجاع ما سلمناهُ

خامساً

نأخذ من مملكة السويد ما يمكن اخذه ونجعل بينهم وبين الدانمرك عدواناً دائماً

سادساً

لا يتزوج اهل بيتنا الّا بنات ملوك المانيا لتاكد المحبة بين الروسيا والمانيا وتكثير وسائل المواصلة بينهما

سابعاً

يجب الاعتناء بمحالفة انكلترا لما لها من الحاجة الى اشجارنا لسفنها ولما نستفيدهُ منها نظراً الى اصلاح شأن اسطولنا فضلاً عن تبديل فائدة تبديل ما لنا من الخشب وغيره من النتائج بذهب انكلترا وما ينشا منهُ من كثرة المواصلة بين تجارها وتجارنا

ثامناً

نمتد بقدر الامكان من جهة الشمال وعلى شواطيء البالتيك كما يجب السعي بالامتداد من جهة المغرب وعلى شواطيء البحر الاسود

تاسعاً

نقرب من القسطنطينيّة والهند بقدر الامكان فمن ملك القسطنطينيّة فقد ملك الدنيا فبناء على ذلك ينبغي ملازمة الحرب مع الترك ومملكة الفرس وجعل ترسخانات بشواطيء البالتيك والبحر الاسود وهذا من اللازم لنجاح ما قصدناه وينبغي ايضاً تعجيل مملكة الفرس من الاضمحلال وتنشيط التجارة التي كانت بين الشام وجبل قاف فنتقدم الى الهند التي هي مخازن الدنيا وان حصلنا على ذلك لا حاجة لنا بذهب انكلترا

عاشراً

يجب السعي في تاكيد المحبة مع دولة النمسا باسعافها ظاهراً على ما قصدتهُ من التسلط على المانيا مع اننا نحرض عليها ملوك المانيا سراً

حادي عشر

نشارك النمسا فيما قصدناهُ من اخراج الترك من اوربا فان ظفرنا بالاستيلاء على القسطنطينيَّة واظهرت دولة النمسا شيئاً من الغيرة لاجل ذلك فاننا نحث دولة من دول اوربا على محاربتها او نسلم لها جانباً مما حصلنا عليهِ ونسترجعهُ في اول فرصة

ثاني عشر

نجمع سائر الاغريق ببولونيا وبممالك النمسا ونسعفهم بقدر الامكان بالحماية والدفاع عنهم حتى يكونوا لنا احباء ما بين الاعداء

ثالث عشر

بعد الاستيلاء على مملكة السويد وغلبة الفرس وبولونيا والتسلط على الممالك العثمانيَّة وجمع جيوشنا ودخول اساطيلنا بالبالتيك والبحر الاسود نشرع في المفاوضة السريَّة مع فرنسا ودولة النمسا في قسمة الدنيا بيننا فان ارتضت احدى الدولتين ما نعرضهُ عليها نستعين بها على قهر الاخرى ثم نهجم عليها ونغلبها ولا يصعب علينا ذلك حينئذ حيث يكون بيدنا ملك المشرق ومعظم اوربا

رابع عشر

ان امتنعت كلا الدولتين المذكورتين مما نعرضهُ عليها وهذا مما يبعد وقوعه يجب السعي بتحريض احداها على الاخرى فنتربص الفرصة ونهجم على المانيا بجيش عظيم ونوجه اسطولين الى البحر المحيط والبحر الاوسط للاستيلاء على فرنسا وبعد قهر فرنسا والمانيا لا يصعب الاستيلاء على بقيَّة ممالك اوربا . اه

وهاتهِ الوصيَّة وان انكرتها رجال الدولة الروسيَّة لكن السيرة السياسيَّة والعسكريَّة الموجودة في الخارج من ذلك التاريخ الى الآن تصدق وجودها اذ هي مطابقة لها مطابقة النعل للرجل فلا زالت تمد سطوتها في اسيا واوربا ولما كانت الدولة العليَّة هي الدولة ذات الشأن المجاورة لها في كل من القارتين مع مخالفة الديانة جعلتها مطمح نظرها ووجدت سبيلاً لمخادعة الدول الاورباويَّة بالانتصار للمسيحيين الموافقين لهم في الديانة لما تدعيهِ من التعدي عليهم فتريد تحريرهم من استيلاء الدولة العليَّة عليهم على ما سيرد بسطهُ في الفصل الاول من الخاتمة فجعلت تثير ثورات في احد الاقسام ثم تنتصر لهُ بان يجعل لهُ ادارة مستقلة في داخليتهِ وبعد مدة تغريهِ بالاستقلال وتنتصر لهُ فاذا تمَّ

استقلالهُ لا تلبث ان تبتلعهُ ثم تنتقل الى قسم آخر يواليهِ وهكذا ولما تفطنت الدولة العليَّة الى هذا المقصد تداركت الامر باصلاح الادارة على حسب ما تقتضيهِ الاصول الشرعيَّة ويزيل تلك الاعتراضات حتى تتقوَّى وتمنع نفسها وتستميل بقيَّة الدول الاورباويَّة الى انصافها من مشاحنها فتعاطى المرحوم السلطان محمود مبادي الانتظام بعد ان لاقى متاعب شديدة مع العساكر الينكشاريَّة الذين كانوا اعظم اسباب التخصرم في الممالك العثمانيَّة العليَّة حيث عاثوا في الارض بظلم الرعيَّة والاستيلاء على الاحكام السياسيَّة في القاعدة وانحاء الممالك وخروجهم عن طاعة السلاطين وتلاعبهم بهم هذا بعد ان كانوا هم عدة الاسلام وناشري اعلام انتصارهِ عند ما نفثتهم الدولة الى خلال القرن الحادي عشر فابتدأوا بما سبق ذكرهُ وتمادوا عليهِ الى ان وهنت الشوكة وتداركها السلطان محمود فازال ذلك الصنف بالمرة بعد حرب ذريعة ونظم عوضهم العساكر النظاميَّة على نحو انتظام العساكر الاورباويَّة في الممالك المتمدنة مع انهُ كان اذ ذاك في تعب عظيم من حرب الروسيا التي كانت خاتمتها معاهدة ادرنة الموهنة لتمام استقلال الدولة العليَّة والجاعلة للروسيا اليد في احوال الممالك العليَّة وكذلك كان السلطان في مهم من ثورة الاغريق في جزيرة مورا وأُضيف اليهِ غدر الاسطول الانكليزي باسطولهِ واساطيل الولايات التابعة للخلافة كمصر وتونس والجزائر اذ بينما تلك الاساطيل العظام راسية في بحر الجزر للاحتراس في شأن ثورة مورة واذا بالاسطول الانكليزي وارد عليها في صورة المعاضد لان السلم متاكد بين الدولتين ولم تكن بينهما شائبة حرب بالمرة واشارت الاساطيل الى بعضها بعلامات السلم فلم تلبث ان تخللت بين الاساطيل العثمانيَّة حتى اذا تم تمكنها منها اطلقت عليها النيران من جميع الجهات في آن واحد مع شدة الالتحام والتداخل والمسلمون في حال الدعة اعتمادًا على السلم المحقق فهلكت جميع تلك الاساطيل وغرقت في لجة البحر دفعة واحدة بمن فيها فكانت حادثة لا تنسى ولا تمحي من صفحات التواريخ حتى ان اعضاء مجلس الاعيان ومجلس النواب من الانكليز انفسهم هاجوا وماجوا على دولتهم من تلك الفعلة والزموا الوزراء بالمحاكمة والقصاص فانكر وزير البحريَّة اذنهُ بذلك وقال ان فعل رئيس الاسطول لما فعل هو افتيات منهُ ولا علم للدولة بهِ فألزموا احضارهُ والحكم عليهِ بالقتل وعند ما أُحضر ورفع في مجلس الحكم وصدر الحكم بقتلهِ وعلم انهُ لم يبقَ لهُ مفر اقبل على وزير البحريَّة وسارَّهُ في اذنهِ بقولهِ ايها الوزير ان تلك البطاقة التي بخطك قد نسيت ان احرقها وها هي الآن في جيبي فبهت وجههُ واطرق صامتًا ثم عقد جلسة

سريّة واطلق سبيل الرجل ويقال ان الحامل على ذلك ما هو مركوز في طباع الدول سيما اذا كان القصد هواركاس المسطوعليهِ لما يأتمر بهِ الساطي بيد ان الدولة الانكليزيَّة لم تزل من ذلك الوقت الى الآن تعاضد الدولة العليَّة وتنصح لها وتظاهرها متى استطاعت كما ياتي ومع هاتهِ الشدائد التي تقدمت الاشارة الى بعضها فالسلطان محمود رحمهُ الله ونعمهُ لم يزل جالدًا مقداماً حتى انهُ لما بلغهُ خبر الاسطول وهو يحادث احد كبراء دولتهِ لم يزد على سؤالهِ عن تحقق الامر من غير انزعاج ثم عاد لحديثهِ الذي كان فيهِ وشمر عن ساعد الجد في تجديد الاسطول واقرار الراحة بانتظام العساكر النظاميَّة والاحكام السياسيَّة والشرعيَّة فاخترمتهُ المنيَّة قبل الاستتباب وتسلطن ولدهُ السلطان عبد المجيد فاخذ في السعي في الانتظام وتغيير السيرة القديمة الى التهذيب الوقتي الذي هو موافق للشرع العزيز كما يأتي في الفصل الرابع من الخاتمة واصدر الفرمان العالي المحدث للتنظيمات وتعريبهُ هو

من المعلوم عند الجميع ان دولتنا العليَّة لم تزل من مبدإ ظهور امرها معتنيَّة بكمال الرعاية للاحكام القرآنيَّة الشريفة والقوانين الشرعيَّة المنيفة وان سلطنتنا السنيَّة قد وصلت بذلك الى الدرجة القصوى من القوة والمكانة ورفاهيَّة الرعايا وعمارة المدن والقرى الَّا انها منذ مائة وخمسين سنة تناقصت قوتها ومعموريَّة ممالكها واخذت في التاخر والضعف وذلك لغوائل متعاقبة واسباب متنوعة نشأ منها تجاوز الحدود الشرعيَّة والقوانين المرعيَّة ولا يخفى ان الممالك التي لا تنسج ادارتها على منوال القوانين الشرعيَّة لا تدوم استقامتها فلذلك لم تزل افكارنا منذ جلوسنا على سرير الملك مصروفة الى تدبير وسائل عمارة الممالك ورفاهيَّة الاهالي مما يحصل بهِ المطلوب في مدة يسيرة بعون الله تعالى نظرًا الى حسن الموقع الجغرافي المحتوي على ممالك دولتنا العليَّة ذات الاراضي الخصبة والاهالي ذوي الاستعداد وتمام القابليَّة الى ان راينا من المهم وضع قوانين جديدة مؤسسة على القواعد الشرعيَّة المشيدة واعتمادنا في وضع ذلك على العناية الربانيَّة متوسلين بحرمة سيد البريَّة صلى الله عليهِ وسلم ومدار القوانين المشار اليها على وجوب حفظ النفس والعرض والمال وعلى بيان المرجع في تعيين الاداء وجلب العساكر اللازمة اما وجوب حفظ النفس والعرض فلكونهما اعز الامور الدنيويَّة فاذا خشي الانسان عليهما اضطر الى التشبث بمن يرجو بهِ وقايتهما كائنًا من كان وان لم يكن في اصل فطرتهِ مجبولا على الخيانة ولا يخفي ان ذلك مما يضر بالدولة والمملكة بخلاف ما اذا كان آمنًا

على نفسهِ وعرضهِ فانهُ لا يحيد عن طريق الصدق والاستقامة وصرف الهمة الى حسن الخدمة لدولتهِ وملتهِ. واما المال فان من نقد الامن عليهِ لا يتأتى لهُ القيام بحقوق دولتهِ اذ لا يخلو دائمًا من شغل بال واضطراب حال بخلاف ما اذا كان آمنًا على مالهِ فانهُ يشغل نفسهُ بما يعنيهِ في دينهِ ودنياهِ وينظر في توسيع دائرة معارفهِ وعيشهِ وبذلك يتمكن من قلبهِ حب الوطن وتشتد غيرتهُ عليهِ وعلى دولتهِ ويكون سعيهُ على حسب ذلك واما تعيين الاداء فالمرجع فيهِ ان كل دولة تحتاج في حفظ ممالكها الى القوة العسكريَّة كما تحتاج في ضبط تصرفاتها الى مصاريف لازمة فلا بد لها من مبلغ وافر من المال بحسب احتياجها وانما يتحصل ذلك بما يضرب على اتباع تلك الدولة فلزم ان يوضع للاداء المشار اليهِ طريقة مستحسنة وذلك ان الاستبداد وان بقيت معهُ ممالكنا سالمة والحمد لله على ذلك لكن ظهرت آثارهُ من الاختلال والخراب وذلك لان جعل زمام مصالح المملكة السياسيَّة وامورها الماليَّة بيد شخص واحد موكولة الى اختياره بل لا مانع ان يقال موكولة الى قهرهِ وجبرهِ يتسبب عنهُ ما ذكر خصوصًا اذا لم يكن ذلك الشخص من اهل الخير فانهُ يؤثر منفعتهُ على منفعة الغير وتكون تصرفاتهُ مبنيَّة على الظلم والضير فوجب لذلك ان نبادر بترتيب معيار مضبوط يعتبر في توزيع الاداء على الاهالي مراعى فيهِ قدر المكاسب واليسار بحيث لا يؤخذ من احد ما فوق مقدورهِ بعد ان يجعل لمصاريف الدولة اللازمة للعساكر وغيرها حد محدود بقوانين لا تتعداها واما جلب العساكر فهو من اهم ما يتوقف عليهِ حفظ الدين والوطن والذب عنهما فيلزم الاهالي ان يقدموا اشخاصًا منهم للخدمة العسكريَّة لكن الطريقة الجارية في ذلك الى الآن مع ما فيها من عدم الانتظام تؤدي الى اختلال اصول الزراعة والتجارة والى قلة التناسل (فيقع النقص في الاموال والانفس والثمرات) ومنشأ ذلك عدم اعتبار عدد النفوس الموجودة ببلدان المملكة فيؤخذ من بعضها اكثر من المقدور ومن بعضها اقل من الميسور واستمرار الجندي في الخدمة العسكريَّة مدة حياتهِ وبذلك يقل النسل ويحصل الضجر المخل بفوائد الخدمة المذكورة فبناءً على ذلك نرى من اللازم اذا مست الحاجة لاخذ العسكر من الممالك ان يوضع لذلك اصول مناسبة جارية على منهج المساواة المطلوبة ثم يسلك في الاستخدام العسكري طريقة المناوبة بحيث لا يبقى الشخص في الخدمة المذكورة اكثر من خمسة اعوام مثلاً فبهذه الاصول التي عليها مدار القوانين والتنظيمات يحصل بمعونة الله نمو العمران والقوة والامن والراحة فلذلك نقول يلزم من الآن فصاعدًا ان لا يعامل احد

من ارباب الجرائم والجنايات بما يفضي الى اتلاف نفسهِ من سم ونحوهِ بدون مبالاة بل لا يحكم عليهم الاَّ بما تقتضيهِ القوانين الشرعيَّة وان لا يسلط احد على الوقوع في عرض آخر وهتك حرمتهِ وان يتصرف كل انسان في امواله واملاكهِ بغاية الحريَّة وعدم المعارضة وان من جنى جناية لا يحرم ورثتهُ من حق وراثتهِ بالاستيلاء على امواله للجناية التي هم براء منها وهذه المساعدة منا جارية في حق المسلمين وغيرهم من اهل الملل التابعين لسلطنتنا بدون استثناء احد منهم ولاتمام الامان وتعميم الاطمئنان يزاد في اعضاء مجلس الاحكام العدليَّة قدرما يلزم للنظر في سائر اللوازم وفصلها بما يتفق عليهِ الاكثر وعلى وكلاء دولتنا العليَّة ان يحضروا المجلس المذكور في بعض الايام ويبدي كل واحد ما يستصوبهُ دون تحاش ولا مداراة واما المفاوضة في شأن التنظيمات العسكريَّة فانها تكون بدار الشورى الكائنة بمحل السر عسكر وكل ما يستقر عليهِ الرأي من القوانين يعرض علينا لنوشحهُ بالخط الميمون ويكون دستور العمل الى ما شاء الله وحيث كان وضع القوانين الشرعيَّة المشار اليها انما هو لاحياء الدين والدولة والملك والملة اكدنا ذلك بالعهد والميثاق من طرفنا الملكي على ان لا يصدر منا شيءٌ يخالفها واقسمنا على ذلك في بيت الخرقة الشريفة بمحضر جميع العلماء والوكلاء وسيحلف كل منهم على ذلك فاذا صدر بعد ذلك من احد الوزراء والعلماء ما يخالف تلك القوانين الشرعيَّة فانهُ يجازى بالتأديب المناسب لجريمتهِ الثابتة بدون التفات لرتبتهِ ولا مراعاة لذاتهِ وحيث ان مأموري الدولة لهم مرتبات كافية ومن ليس لهُ ذلك الآن سيرتب لهُ ما يكفيهِ وجب ان نشدّد في قطع مواد الرشوة المستبشعة طبعاً وشرعاً بوضع قانون يخص عقوبتها ولاستبقاء التنظيمات المشار اليها والاصول المبنيَّة هي عليها المغيرة للعوائد الجورية القديمة وجب ان ننشر هذه الاوراق السلطانيَّة الى سفراء الدول المتحابة المقيمين بالاستانة العليَّة ليكونوا شاهدين على امضائها كما ننشرها الى اهالي الاستانة وسائر ممالكنا المحميَّة فمن سعى في حل عرى هاتهِ القوانين الموضوعة على اساس شرعي متين فعليهِ لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ولا ينال فلاحاً الى يوم الدين ونسأل الله تعالى ان يوفقنا لاجراء هذا الخير العميم آمين ". اه

ثم ان الجهلاء واصحاب الفوائد الشخصيَّة من المنتسبين للعلم او من اهل السياسة كادوا ان يحدثوا تحيرا في الممالك باشاعة ان التنظيمات تضادد الديانة الاسلاميَّة فاضطر المرحوم السلطان عبد المجيد الى ازالة هذا الوهم من الافكار بارسالهِ شيخ الاسلام احمد عارف الى الممالك فقام فيهم خطيباً يشرح ان الشرع المحمدي لا يخالف التنظيمات بل

يقتضيها ولما كان هذا العالم معروفاً بالرسوخ في العلم والورع انقادت العامة لمواعظهِ اما ذوو الغايات الخصوصيَّة من ذوي الرياسات فلم يألوا جهدًا في تعطيل اجراء التنظيمات بالفعل الى ان وجدت الروسيا سبيلاً الى المداخلة سنة ١٢٧٠ فاضطرت الدولة العليَّة الى حربها المعروفة بحرب القريم وظاهرها كل من دولتي فرنسا وانكلترة وسردانيا حيث توجه نامق باشا الى فرنسا والقى على مسامع الامبراطور نابليون الثالث باعانة وزيرهِ دوروان دولويز ان غض النظر عن تطاول الروسيا لا تأمن بوائقهُ الدول الغربيَّة لان الروسيا لا سمح الله لو تسلطت على الاستانة اما حسًّا او معنًى لملكت التسلط على البحر المتوسط وحجرت التجارة عن سائر الممالك الشرقيَّة من الممالك الغربيَّة وايضًا تحصل على النفوذ السياسي الذي تخضرم بهِ الدول الغربيَّة اذا لم نقل انها تستولي عليها وحيث كانت فرنسا ناشرة راية الفخر في المعمور لا يسوغ لها اغضاء النظر عن هذا الحادث وترك الدولة العليَّة منفردة مع خصمها الالد وبسط هذا المعنى بحرارة نفس حركت النخوة الفرنسوية في الامبراطور فاجابهُ الى معاضدة الدولة العليَّة واشار عليهِ بان يستوثق من انكلترا محالفتها ومعاضدتها فلما وصل الى لندرة حتى وجد القوم في قلق من انتظارهِ وكادوا ان يحملوهُ على الاعناق وفتحت دار الندوة لمطلبهِ وتلقاهُ اهلها بالرحب والقبول وحماية الذمار فلم تلبث الحرب بضع اشهر حتى اعلنت فرنسا وانكلترا حربهما للروسيا وانضمت اليهما دولة سردنيا اذ كان ذلك تسببًا منها لاتحاد ايطاليا ودخولها في زمرة الدول العظام وامتدت الحرب واستعرت نيرانها الى ان سلمت الروسيا للصلح على شروط معاهدة باريس ومضمونها هو ابقاء استقلال الدولة العليَّة في جميع اجزاء ممالكها واستقلالها في سائر تصرفاتها الداخليَّة التي يشترط فيها الحرية والامن التام لرعاياها على اختلاف اصنافهم واما الممالك التي لها استقلال في ادارتها وهم من النصارى كالصرب والجبل الاسود والافلاق والبغدان فتبقى ممتازة تؤدي الخراج للدولة تحت حمايتها واما البحر الاسود فيكون حائدًا حتى لا يسوغ لاحدى الدولتين المالكتين لشطوطهِ جعل سفن حربيَّة فيهِ سوى عدد يسير لمجرد حفظ الراحة الداخليَّة وكذلك نهر الطونة يكون نهرًا تجاريًّا فقط تحت مناظرة جمعيَّة اورباويَّة ومن ذاك الوقت تخلصت الدولة العليَّة من اثقال الروسيا السابقة ودخلت في سلك الدول الاورباويَّة العظام وتكفلت الدول باستقلالها ومن سوء البخت لم يزل اغلب المتوظفين في غفلاتهم مصرين على السيرة الاستبداديَّة والعدو منهم بالمرصاد فالف جمعيات سريَّة في قواعد مملكتهِ وارسلت عمالها الى الولايات العثمانيَّة التي اغلب

سكانها نصارى والقوا دسائسهم بتعليم الثوران والقاء العداوة بين الراعي والرعيّة هذا وسفير الروسيا في قاعدة الخلافة يحسن اوجه التودد الى الروسيا والاستماع الى نصائحها الملائمة لطباع من استماله من الرجال من الاستمساك بالسيرة الاستبداديّة التي هي سيرة الروسيا لكن على شرط التسليم في الولايات التي يسكنها الصقالبة وبذلك تعقد دولة الروسيا مع الدولة العليّة معاهدة على الذب والاقدام وتعوضها بمعاضدتها ممالك اسلاميّة عوضاً عمّا يخرج من عندها وتساعدها ايضاً على الحط من ديونها الى المقدار الذي يظهر لها فاثرت هذه الوساوس واعلنت الدولة العليّة بعدم اقتدارها على دفع فائدة ديونها حتى اغتاظت منها سكان اوربا واستعمل الاهمال في شأن تلك الجمعيات السريّة حتى ثارت ولايتا بوسنه وهرسك ثم البلغار ثم الجبل الاسود ثم الصرب وتدارك رجال الدولة الصادقين الخطب بتفطنهم الى الدسائس الباطلة التي ليس القصد منها الاّ اضعاف الدولة بيدها وجعلها في قبضة عدوها وافرادها عن الدول الناصحة لها مع انها استقرضت من رعاياهم منذ سنة ١٢٧٠ نحو خمسة الاف مليون فرنك ولم يحصل منها ومن مداخيل الدولة التي هي نحو عشرين مليوناً ليرة في السنة على ممر تلك السنين التي هي نيف وعشرون سنة ممّا يصح ان يعد الاّ ما تضمنهُ التقرير الذي قراهُ الصدر الاعظم بحضر السلطان عبد العزيز في الباب العالي وهذا مضمونهُ « انهُ قد اتخذ جميع الوسائل اللازمة لاصلاح شأن المجالس الحكميّة واتقان تنظيمها وترتيب خدمتها على اعدل وجه ممكن حتى ينال جميع رعايا الدولة منها غاية مأمولهم من حسن المعاملة والانصاف من غير مراعاة الجنسيّة ولا المذهب وانهُ بذل جهدهُ في اصلاح قوى الدولة وتنظيمها على ما يعادل تنظيمات الدول الاخرى وان جملة العساكر مع الرديف تبلغ الآن ثمانمائة الف نفر مجهزة الجهاز التام ومصحوبة بما يلزمها من المدافع المتقنة حسب الاختراعات الجديدة وان الاساطيل اعتنى باصلاحها غاية الاعتناء حتى اصبحت الدولة العثمانيّة الآن عندها منها ما يجعلها بمنزلة الدول البحريّة الكبار وانهُ متى نجزت السفن المشروع الآن في انشائها في الترسانة العليّة يكون للدولة من الفرقاطات المدرعة والمونيتور (وهي سفن ذات ابراج) سبعة عشر فلكاً وانهُ أبرز الاوامر اللازمة لتحصين سائر حدود السلطنة بالابراج والحصون حسبما تقتضيهِ ضروريات الوقت وانهُ جهز ترسانات الدولة بالادوات والماكينات والمهمات اللازمة حتى صارت الآن تستطيع ان تجاري ترسانات اوربا في انشاء السفن الحربيّة او اصلاحها وانهُ يفرغ عما قريب من انشاء المصنع الجديد الذي شرع في انشائهِ

منذ مدة في الطوبخانة وهومصنع يستطيع ان يصب ثلاثمائة مدفع في كل عام من أحسن مدافع الشيشخان وان اهتمامهُ الآن بمساعدة وزير المعارف واقرانهِ الوزراء الاخر موجه الى تكثير عدد المكاتب والمدارس توفيرًا لاسباب التعليم وترتيبها على وجه يمكن سائر الناس من الانتفاع بها الانتفاع المطلوب وان الاعمال المتعلقة بالسكك الحديديَّة والطرق المعدة لسير العجلات واقع الاهتمام بها من غير انقطاع ولا توانٍ وان في اواخر اغسطس الآتي تكمل سكة الحديد المشروع في انشائها بين اسكودار وازميد وان الحراثة لايزال موجهًا اليها كل ما تستحقهُ من عظيم اعتنائهِ واهتمامهِ وتنال يوميًا من التسهيلات سائر ما تحتاج اليهِ منها دوام اعفاء الادوات والآلات اللازمة لها على اختلاف انواعها من اداء رسوم الكمرك على الاطلاق في سائر اقاليم السلطنة وهذا كلهُ لزيادة ترغيب الناس في الاشتغال بها حالة كونها هي اعظم ينابيع الثروة في الممالك وختم الصدر الاعظم تقريرهُ بقولهِ ان ماليَّة الدولة باقية على ما كانت عليهِ » . هذا وبعض التقرير لم يكن في الخارج طبق ما ذكر ولهذا تفاقم الامر فيما بعد الى ان استندت رجال السياسة والعساكر الى فتوى من شيخ الاسلام في اختلال فكر السلطان واولوا السلطان مرادًا وحيث كان ضعيف المزاج وانزعج بكيفيَّة ولايتهِ وبموت عمهِ وبالثورة على الوزراء من بعض المعينين لم يطق تحمل عبء الخلافة فاستند اهل الحل والعقد الى فتوى ايضًا واولوا سلطاننا عبد الحميد ايدهُ الله فتدارك امر الادارة باصدارهِ الخط الهمايوني عند تقلدهِ البيعة وهذا تعريبهُ

" انهُ لما اعتزل اخي الاكرم حضرة السلطان مراد الخامس عن مشاغل السلطنة والخلافة وفرغ منها جلسنا بموجب القانون العثماني على تخت اجدادنا العظام وقد وجهنا لعهدتكم مسند الصدارة العظمى ورياسة مجلس الوكلاء ابقاء وتجديدًا بناء على ما لذاتكم من الرويَّة المسلم بها والحمية المجربة وما لكم من الوقوف والاطلاع على مهم امور الدولة وكذلك اقررنا جميع الوكلاء على مناصبهم وانني شديد الاتكال في جميع الاحوال على تسهيلات جناب موفق الامور (هو الله سبحانهُ وتعالى) وتوفيقاتهِ الصمدانيَّة وقصارى آمالي ومقاصدي معطوفة بالحصر لتاييد اساس شوكة دولتنا ومكنتها بحيث تنال صنوف تبعتنا بلا استثناء الحريَّة ويتنعمون جميعًا بنعمة العدالة والرفاهيَّة فاؤمل بثقة تامة ان جميع وكلاء دولتنا وعمالها يشاركوننا في هذا الاثر ويعاوننا عليهِ وقد عرف الناس اجمع بان حال البحران والاغتشاش الملم بدولتنا لهُ جهات واسباب متنوعة وصور واشكال متعددة فاذا امعنا النظر في ذلك من اي جهة كانت تجتمع مباديهُ واسبابهُ في نقطة واحدة وهي عدم

جريان القوانين والنظامات المؤسسة على الاحكام الجليلة الشرعيَّة التي هي المسند الاساسي في دولتنا على حقها وتمامها واتباع كل فرد اهواء نفسهِ في ادارة الامور اما اتساع ميدان عدم الانتظام الطارئ على ادارة دولتنا ملكاً ومالاً وما حصلت عليهِ امور ماليتنا من عدم الامنية في الافكار العموميَّة وتعذر وصول المحاكم الى الدرجة المتكفلة بتأمين حقوق الناس وتاخر استفادة مملكتنا حالة كونها قابلة لانواع وسائل العمران كالحرف والصنائع والتجارة والزراعة كما هو مسلم فهو من عدم الثبات الذي وقع على كل ما شرع بهِ من الاجراآت وكل ما حصل من التشبثات الصادرة عن نيَّة خالصة لمقصد اعمار مملكتنا ورفاهيَّة حال رعايانا وتبعتنا وسعادة حالهم ونوالهم بدون استثناء الحريَّة الشخصيَّة وكون ذلك باجمعهِ صار عرضة لتغييرات متنوعة منعت انتاج المقصد الاصلي فلا ريب في انهُ تولد ونشأ عن عدم الثبات باتباع القانون والنظام ولذا كان من اهم ما يلزم ان التدابير الواجب وضعها اولاً فاولاً في مطلب قوانين المملكة المقتضي وضعها وتنظيمها في صورة تتكفل بامنية العموم وثقتهم ينبغي ان يبتدا بها من هذه النقطة المهمة وهي ان يترتب مجلس عمومي تكون افعالهُ وآثارهُ مستوجبة لثقة العموم واعتمادهم ويكون موافقاً لقابليَّة مملكتنا واخلاق اهاليها كافلاً باتمام تامين اجراء القوانين حرفاً بحرف سواء كانت القوانين الموجودة او التي تتأسس من الآن فصاعداً توفيقاً (موافقة) لاحكام الشرع الشريف المقدسة ولما هو بالحقيقة ضروري ومشروع لمملكتنا وملتنا وناظراً في موازنة واردات الدولة ومصاريفها فليبحث الوكلاء في هذا المطلب ويتذاكروا فيهِ بتدقيق وتأمل ويعرضوا قرارهم لدينا ويستأذنوا عنهُ ثم لما كانت مسئلة توديع الماموريات الى غير اهلها من الماموين وتبدلاتهم المتوالية من غير سبب مشروع هي من جملة الامور الباعثة على ايقاع جريان القوانين والنظامات كما ينبغي في حيز الاشكال وهذا مما ياتي بكبر المضرة ملكاً ومصلحة فينبغي ان يتعين من الآن فصاعداً مسلك مخصوص لكل نوع من الخدم والماموريات وتتخذ قاعدة ثابتة يستخدم بمقتضاها في كل عمل من يكون اهلاً لهُ ولا يعزل احد او يبدل من ماموريتهِ بلا موجب على وجه ان تكون كافة الوكلاء ومامورى الدولة كباراً وصغاراً مسئولين عن الوظائف الموكولة لهم كل بحسب درجتهِ وكما هو معلوم لدى الخافقين ان ترقيات ملل اوربا الماديَّة والمعنويَّة انما هي حاصلة بقوة الفنون والمعارف ولما كان استعداد كافة صنوف تبعتنا وما فطروا عليهِ من الذكاء والحمد لله يؤهلهم من كل وجه للترقيات واهم ما لدينا من الامور

الاسراع بتعميم المعارف فاخص ما نتمناهُ والحالة هذه ان يحصل الاجتهاد بابلاغ تخصيصات المعارف الى الدرجة الكافية حسبما يساعد الامكان وان تستحصل الوسائل الموصلة لتعميم نشراصول المعارف على النور ويبادرعاجلاً لاصلاح الاصول الملكيَّة والماليَّة والضبط في الولايات بحيث توضع ضمن دائرة الانتظام في صورة مناسبة للقاعدة التي تتخذ في المركز وحيث ان الحادثة التي ظهرت في العام الماضي في اطراف هرسك وبوسنة باغراء ارباب الاغراض قد انضم لها ايضاً مسئلة عصيان الصرب والدم المهرق من الطرفين انما هو دم اولاد وطن واحد وكان دوام هذه الحال التي يرثى لها موجب لكدرنا وتاثرنا الشديد يلزم التشبث بالتدابير المؤثرة المفضية لاستئصالها وفيما نؤيد مجدداً كافة احكام المعاهدات المنعقدة مع الدول المتحابة نؤثر رعايتها على الوجه الحسن فينبغي المثابرة بالاجتهاد على ازدياد روابط الحب والمسالمة المتبادلين بيننا وبين الدول ونسئل حضرة الرب المتعال ان يقرن مساعينا جميعاً بتوفيقاتهِ السبحانيَّة في كافة الاحوال آمين . يوم الاحد في ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٣ »

ثم اعمل الحزم في الثورة وقهر جميع العصاة في سائر الانحاء وعند ما رأت الروسيا تهلهل الوسائل التي اعدتها لم تطق صبراً حتى جيشت الجيوش ووقفت على قدم الحرب بدعوى ان تعهدات الدولة العلية في حق النصارى لم تجرِ وانهم لا زالوا في الظلم من الولاة والتعدي من المسلمين وان تعهداتها الجديدة الموافقة للائحة الكونت اندراسي وزير النمسا التي قدمها على وجه المودة والنصح والمساعدة للدولة العليَّة للاصلاحات المطلوبة للولايات الثائرة هي غير كافية ولم ترضهم فتريد اذاً الدولة الروسيَّة ان تطلب الاستقلال في الادارة لتلك الولايات على ان تكون تحت حمايتها وانها تنفذ هذا بقوة السلاح لولا ان انكلترا جاشت في حلقها وصرحت لها عند ما كانت تمد الثائرين حساً ومعنى انها ان لم تكف عن هذا الحرب السري فانها تدخل معها في الحرب الجهري وكذلك دولة النمسا اظهرت التحرش من جهتها خوفاً من كل منهما على مصالحها اذ دولة الانكليز تخاف من تملك الروسيا لخليج فارس وخليج السويس وبذلك تسقط من يدها مستعمراتها في الهند ودولة النمسا تخشى علو كعب الصقالبة بجوارها فيظهرون عليها وتتلاشى فيما بينهم مع سابقيَّة التآلف بين العثمانيين والهنكاريين الذين هم قسم مستقل من مملكة النمسا حتى ان رئيس الدولة يلقب بامبراطور النمسا وملك هنكاريا وهذا التآلف جاء من مساعدة العثمانيين لهم عند ما كان قسم النمسا قاهراً لهنكاريا ومستبداً عليها في التصرفات السياسيَّة غير

انهُ منع كل من الدولتين مانع من انفاذ قصدها بالفعل . فاما دولة انكلترا فانها لما كانت دولة حربيَّة بحتة لم يكن في قدرتها التصرف الأعلى طبق ارادة الامة وامتها منقسمة الى حزبين احدها يسمى حزب المحافظين والثاني يسمى حزب الاحرار وتقدم بسط هذه التسمية في الكلام على انكلترا وكان الحزب الثاني مضادًّا لانتصار دولتهِ للدولة العليَّة حتى انهُ لما كان بيدهِ زمام التصرف في سنة ١٢٨٨ وانتهزت الروسيا الفرصة من حرب جرمانيا وفرنسا فطلبت تغيير معاهدة باريس فيما يتعلق بتقوية شأنها في البحر الاسود ساعدت اذ ذاك دولة انكلترا على ذلك المطلب وغير شرطهُ وفي هاتهِ النازله المتكلم عليها كان التصرف بيد حزب المحافظين لكن الحزب الآخر مضاد لهم وكاد ان يجذب اليه الحزب الآخر فلم يكن في وسع زعماء هذا الحزب الذين بيدهم زمام تصرف الدولة ان يخالفوهم بالمرة سيما والباعث على انفاذ سياستهم مع المخالفة لم يحصل في هاتهِ المسألة كما يفقههُ البصير واضف الى ذلك عدم تحقق محالف ذي قوة بريَّة معتبرة يمكن لانكلترا ان تتعاضد معهُ للانتصار للدولة العليَّة لان فرنسا الوحيدة لمثل ذلك لم يكن في وسعها الارتباك في الحرب لما تقدم في الفصل الثالث من المقصد في الكلام على فرنسا وهذا السبب المتعلق بفرنسا ذاتهُ هو الذي نكص دولة النمسا عن انفاذ قصد الهنكاريين في معاضدة الدولة العليَّة حيث ان الموازنة الاورباوية تغيرت وتحالف الامبراطرة الثلاثة اي امبراطور المانيا والروسيا والنمسا امَّا حقيقةً واما حكمًا على مساعدة بعضهم ونفعهم كما بينتهُ الحوادث فلاجل الجواذب المتباينة المشار اليها غاية ما استطاعتهُ كل من انكلترا والنمسا لكبح الروسيا ان عقدوا مؤتمرًا في الاستانة للاتفاق ما بين الدول الموقعين على معاهدة باريس على ما ينصلح بهِ الحال ويرجع السلم بين الدولتين المتنافرتين فأرسى امرهم فيهِ على ان طلبوا من الدولة العليَّة ما يأتي

اولاً . تغيير حدود الجبل الاسود باعطائهِ بعض اراضي من المملكة العثمانيَّة . ثانيًا تشكيل لجنة من مرخصي الدول الاورباويَّة لتعيين تلك الحدود الجديدة . ثالثًا ابقاء حكومة الصرب على الحالة السالفة بان تكون لا لها ولا عليها وتتقرر حدودها من جهة بوسنة عملاً بمقتضي الخط السلطاني الصادر سنة ١٢٣٢ . رابعًا الولاة الذين يتعينون الى بوسنة وهرسك والبلغار ينتخبون من جانب الباب العالي مع موافقة دول اوربا في ذلك وابقائهم في مأمورياتهم مدة خمس سنين . خامسًا نظرًا الى الموقع الجغرافي تقسم تلك الولايات الى الوية ويتعين لها متصرفون من جانب الباب العالي بعد انتخاب اولئك الولاة لهم . سادسًا

انشاء مجلس مركب من ثلاثة اعضاء بكل من الولايات تنتخبهم مجالس الولايات لتحرير دخل الولاية وخرجها وانتخاب اعضاء مجالس الادارة وتوزيع الضرائب السلطانية على الاهالي ما عدا رسوم الكمرك والدخان الراجعة للدولة العليَّة . سابعًا ابطال طريقة التزام مداخيل الدولة واسقاط البقايا السابقة بكل من الولايات الثلاث . ثامنًا دخل الولايات المذكورة عدا ما هو راجع للدولة كالدخان والكمرك يعطى منهُ قسط لخزينة الدولة العليَّة والقسط الباقي يصرف في مصالح الولايات المذكورة وينظم لكل منها دستور للعمل بذلك . تاسعًا ترتيب المحاكم النظامية . عاشرًا اعطاء حريَّة الاديان · حادي عشر تنظيم الحرس الاهلي . ثاني عشر العفو العمومي عما سبق من الجنايات السياسية · ثالث عشر اعطاء رخصة للاهالي في شراء الاراضي السلطانية . رابع عشر الشروع في تنفيذ تلك الشروط قبل مضي ثلاثة اشهر . خامس عشر تعيين لجنتان من طرف دول اوربا للاحتساب على اجراء تلك الشروط . غير ان الدولة العلية امتنعت من قبول الاقتراحات المذكورة محتجة بانها صارت دولة قانونية حريَّة لجميع اصناف رعاياها على السواء بالقانون الاساسي الذي أحاط بهِ المملكة السلطان الغازي عبد الحميد ايد الله ملكهُ وقد سبقت الاشارة اليهِ في الفرمان الذي اصدرهُ عند البيعة العامة وابرزهُ للعمل بالفعل عند ما كان المؤتمر في مفاوضاتهِ واصحبهُ بالخط الشريف الآتي نص تعريبهِ في موكب مشهود وكانت تلاوتهُ في يوم كأنهُ يوم عيد وهو

" وزيري سمير المعالي مدحت باشا

" ان سطوة سلطنتنا كانت في حالة القهقرة في الايام السالفة واسباب ذلك التقهقر لم تكن ناشئة عن المشاق الخارجية فقط بل انما وقعت لاجل الانحراف عن الطريقة المستقيمة في الادارة الداخلية حتى ضعفت اماني وثوق الرعايا بالدولة ولذلك كان المرحوم والدنا الماجد السلطان عبد المجيد منح بعض اصول في تحسين الادارة معروفة بالتنظيمات الخيريَّة اشتملت على تأمين جميع الرعايا في انفسهم ومالهم وعرضهم وشرفهم طبقًا لقواعد الشريعة المطهرة والتنظيمات المذكورة هي التي كانت سببًا لابقاء السلطنة محافظة على لوازم الامنيَّة الى الآن ومن آثارها المشكورة انها سهلت لنا نجاح مساعينا في تأسيس هذا القانون الجديد الذي اقتضتهُ اراء رجال دولتنا التي نجحت عنهم بحريتهم حيث استندوا الى تلك الامنيَّة وقد تيسر لنا في هذا اليوم الاعلان بهِ . ولما كان هذا اليوم من الايام السعيدة فانهُ يلزمني ان نذكر الان المقدس المرحوم والدنا ونصفهُ بعنوان محيي الدولة وان نذكر

مقاصدهُ الحسنة ولا شك انهُ كان سعى بنفسهِ في ادخال السلطنة في العهد القانوني الذي سنستظل بهِ الان ولو توفرت مدة تأسيس التنظيمات الخيريَّة الاسباب المتوفرة الان لكان والدنا المرحوم اسس اذ ذاك احكام هذا القانون الاساسي ولكن العزة الالهيَّة قدرت ان يكون هذا التبديل السعيد الذي هو الكفالة العظمى لخير رعايانا في مدة ولايتنا ولله المنة على ذلك.ومن المعلوم المقرر ان اصول ادارة الدولة صارت مغايرة للتبديلات المتتابعة التي وقعت شيئًا فشيئًا في تصرفاتنا الداخليَّة وفي زيادة خلطتنا مع الدول الاحباب وغاية مرغوبنا ازالة جميع الاسباب المانعة للامة وللبلاد من الانتفاع بالنتائج الطبيعيَّة التي لهم حق فيها كما يلزم وان نرى جميع رعايانا قد جاوزوا الحقوق التي من علائق الامم المهذبة بحيث يكون كلهم متعاضدين بنيَّة سالمة في التقدم والالفة والاتحاد فكان من الواجب اتخاذ طريقة نافعة مستقيمة للحصول على المقصد المذكور ووقاية حقوق الدولة ومحو الخطيئات والغلطات الناتجة من الاعمال الغير المباحة الناشئة من وجود التصرف الاستبدادي بيد نفر واحد او بعض انفار وان نمنح حقوقًا متساوية لجميع الطوائف المركبة منهم الامة وان نجعلهم في حالة يمكنهم معها الانتفاع بخير الحرية والعدل والتسوية ولا فرق بينهم في ذلك وهذا هو الوجه الوحيد الصالح لحماية جميع المصالح وضماناتها وهذه القواعد الكليَّة انتجت وجوب عمل آخر مفيد للغاية وهو وجوب تقييد اساس ادارتنا بصورة شوريَّة قانونيَّة ولذلك لما اصدرنا خطنا عند صعودنا على كرسي السلطنة قررنا لزوم احداث مجلس للامة (وفي الاصل برلمنتو) وقد اشتغلت جمعيَّة خاصة مشكلة من رجال دولتنا واهل العلم والمتوظفين الاعيان في تاسيس اصول هذا القانون بغاية التدقيق ثم وقع التامل منها بمجلس وزرائنا والموافقة عليها وهذا القانون اشتمل على اثبات الحقوق الراجعة للذات السلطانيَّة وحريَّة جميع الرعايا العثمانيين السياسيَّة والعرفيَّة وتسويتهم لدى الاحكام السياسيَّة والعرفيَّة ايضًا وبيان مسئوليَّة الوزراء والمتوظفين ومتعلقات وظيفتهم وحق مجلس الامة في الاحتساب على اعمالهم واستقلال المجالس الحكميَّة في خدمتها والمعادلة بين دخل الدولة وخرجها معادلة حقيقيَّة وقسمة التصرفات الحكميَّة بالاوطان مع بقاء النظر الاعلى فيها للدولة وجميع هذه الاصول المطابقة لاحكام الشريعة المطهرة ولضروريات الوقت ولمرغوبنا قابلت النيَّة الحسنة التي شأنها تحقيق خير الجميع حيث ان ذلك غاية المراد وقد جعلت اتكالي على الله وعلى امداد رسولهِ في ذلك وانطت لعهدتهم هذا القانون بعد ان وافقت عليهِ بامضائي السلطاني ويقع العمل بهِ حالاً بحول الله في جميع جهات السلطنة

فالآن ارادتنا انكم تعلنوا بهذا القانون وتجروا العمل بمقتضاه من هذا اليوم كما يجب عليكم ايضاً اتخاذ جميع الوسائل اللازمة المتأكدة للاشتغال في تهيئة التراتيب التي تضمن ذكرها القانون المذكور والله تعالى المسئول ان يقارن بالنجاح سعي كل من اشتغل فيما يؤول الى نجاة السلطنة والامة وكتب في ٧ ذي الحجة الحرام سنة ١٢٩٣ ".

غيران اعضاء المؤتمر لم يقنعهم ذلك وسافروا جميعاً من الاستانة دفعة واحدة مظهرين الضديَّة للدولة العليَّة والدولة لم تكترث بذلك حيث ان ما فعلتهُ من الرفض لمطلبهم كان عن رأي الامة لانها عقدت مجلساً عاماً من جميع وجوه اصناف رعيتها حتى انهُ حضرهُ المعروف بالدراية والديانة امير الامراء (الفريق) رستم باشا وزير الحربيَّة اذ ذاك في المملكة التونسيَّة حيث كان رسولاً عن اميرنا في تهنئة حضرة السلطان بالولاية واجمع جميع اولئك الاعيان على اختلاف ديانتهم على رفض تلك المطالب بل ان النصارى واليهود منهم قالوا نؤثر اراقة آخر نقطة من دمنا وصرف آخر درهم من مالنا على حفظ شرف مملكتنا من الاهانة بالتجزئة وان كان هذا لم يبدِ فيما بعد حقيقة الأمن البعض دون البعض هذا بعد ان كان عرف جميعهم الرجل الوحيد مدحت باشا صاحب الصدارة اذ ذاك بعواقب الانفراد عن الدول واحتمال تعصبهم جميعاً لكي يتبصروا وليعلم حقيقة ضميرهم فلم يتزحزحوا شيئاً فانفذ السلطان ووزيرهُ هذا الرفض ولله درهم من رجال اذ لم يسع سائر الامم الاَّ انصافهم والاذعان بان لهم الحق في رفض ذلك الاقتراح بل ان اللورد صالسبوري اشد المخاصمين في المؤتمر قال عند ما استقرَّ بمجلس الوزراء في انكلترا لقد انصف القوم في رفضهم للمطالب نعم ان الخصم زاد تألباً وأعلن بان الدولة العليَّة اهانت اوربا لكي يموه احقاقهُ في اشهار الحرب بيد ان انكلترا مع ذلك لم تسمح لهُ بما اراد وألحت على التعلل للدولة العليَّة واجتمع سفراء الدول في انكلترا واستقرَّ امرهم على لائحة هذا نص تعريبها

« ان الدول التي تعاطت عموماً اسباب سلم المشرق واشتركت لهذا المقصود في مؤتمر الاستانة قد رأت ان الطريقة الوحيدة في بلوغ المقصد الذي اعتمدت عليهِ هي المحافظة على التوافق الذي وقع من حسن البخت بينهم ومع ذلك يجددون تقرير امر يهمهم وهو من مصالح العموم اعني تحسين حالة امم النصارى بالممالك العثمانيَّة واجراء الاصلاحات في بوسنه وهرسك والبلغار حسبما قبلهُ الباب العالي على ان يجريها من عند نفسهِ ولذلك اعتبر عقد الصلح مع الصرب حجة اما ما يتعلق بالجبل الاسود فان الدول تعتبر عقد الصلح معهُ امراً مرغوباً فيهِ ولا بد لهُ من توطيد بهِ يقع تعديل الحدود وتعطى حريَّة الجولان في

نهر البويانة لان الدول تعتبر التأويلات التي تقع او ستقع بين الباب العالي وهاتين الولايتين كأنها تقدمت خطوة الى السكون الذي هو الداعي لرغبتهم العمومية ولهذا يستدعون الباب العالي لتوكيده بترجيع العساكر على قدم السلم ولا يبقى منها هنالك غير عدد العساكر اللازمة لتقرير الراحة ويبادر الى اجراء الاصلاحات اللازمة للراحة وخير الولايات في اقرب وقت حتى يقع ما اشتغل بهِ المؤتمر وقرروا بمقتضاهُ ان الباب العالي حاضر الى اجراء القسم المهم من تلك المطالب واتخذوا منشورهُ المؤرخ في ١٣ فبراير سنة ١٨٧٦ وما قررتهُ الدولة العثمانية في المؤتمر حجة سيما وذلك كان على يد وكلائها وقد كان ظهر للدول بالنظر الى استعدادات الباب العالي الحسنة ومصالحهِ الحقيقية في اجرائها انها متيقنة بما أملتهُ من ان الباب العالي حيث انتهز هذه الفرصة الحاضرة فانهُ يقوم بحزم لاجراء الوسائل المعدة لتحسين حال النصارى حقيقة وهذا المطلوب من الامور الضرورية لراحة اوربا وحيث سلك هذه الطريقة علم يقيناً ان من شرفهِ ومصلحتهِ ان يجتهد في ذلك بعزم على وجه مستقيم فتطلبت الدول اذ ذاك ان تلاحظ كيفية اجراء الدولة العثمانية مواعيدها بواسطة وكلائهم في الاستانة ونوابهم واذا بات مأمولهم عديم النجاح مرة اخرى بان لم تحسن حال النصارى رعايا حضرة السلطان بكيفية تمنع رجوع التشعبات التي تضطرب بها دائماً راحة المشرق فلعلهُ سيظهر لهم من الواجب ان يقرروا ان مثل هذا الحادث لا يوافق مصالحهم ومصالح اوربا عموماً وفي هذا الحال تحتفظ الدول باعلان ما يرونهُ عموماً من الطرق التي ستظهر لهم التزاماً لتقرير خير الامم النصارى ومصالح السلم العمومي. وكتب في لندرة في ٣١ مارس سنة ١٨٧٧ »

وارسلوها للدولة العلية كالبلاغ الاخير فرفضتها ويا ليتها قبلتها اذ هي مطابقة لما كان اصدرتهُ من الفرمان المطابق للائحة الكونت اندراسي والمراقبة من الدول اذا كان اجراء الاصلاح حقيقة مقصوداً لا ضير فيها سيما ونفس معاهدة باريس المصرحة بكمال استقلال الدوله العلية في ادارة ممالكها هي ايضاً مصرحة باشتراط اصلاح الادارة المتضمن لمراقبة الدول لها اذ لا معنى لجعلها شرطاً في معاهدتهم الّا ان يكون لهم حق في طلب اجرائها كما يطلبون اجراء سائر شروط المعاهدة نعم في ذلك ما ينافي النخوة لكن باب ارتكاب اخف الضررين لا ينسى ولا يخفى ان دولة الروسيا تشمل ما ينيف عن الثمانين مليوناً واذا اضيف لها مظاهروها من اتباع الدولة العلية كانت نحو تسعين مليوناً من النفوس وهي مرتاحة من الحرب وتهيأت لها منذ عشرين سنة واوصلت سكك الحديد الى اطراف

ممالكها التي يعتنى بها ولا ينسى انهُ منذ ثلاثة وعشرين سنة فقط قد حاربتها اربع دول معاً وكانت الحرب بينهم سجالاً والدولة العليَّة لا تشمل اكثر من اربعين مليونًا منهم خمسة عشر مليونًا اكثرهم معاضد لعدوها بالمال والرجال واقلهم لا يعينون بالمال الاَّ عن مضض فضلاً عن الانفس وقد كانت اذ ذاك في حرب اهليَّة دامت نحو السنتين ولم تتهيأ بكمال الاستعداد لتوهم انتصار الدول لها فاذا هم قد انفردوا عنها وتركوها وخصمها فقامت الحرب على ساق وظهر من صناديد العثمانيين ما هو معروف حتى اقر سائر الاجناس لهم بانهم امة لم تزل حيَّة سيما ما بدا من عسكر البطل الغازي عثمان باشا المشير فانهُ قاتل في پليفنا التي صيرها حصنًا عظيمًا في مدة حربهِ بجيش لا يبلغ الاربعين الفًا جيشًا عرمرمًا من الروس والرومانيا يتجاوز المائة والعشرين الفًا وقتل منهم ما ينيف على عدد جيشهِ ولولا سبقيَّة القدر بعدم انجادهِ لما تيسر للروس مجرد حصار جيشهِ حتى اضطر الى الهجوم لخرق الحصار بمن بقي سليمًا من جيشهِ الذي قدرهُ سبعة وعشرون الفًا فتراكمت عليهِ مائة الف او يزيدون الى ان خرج واضطر للتسليم فاقبل عليهِ القيصر نفسهُ ولما سلم لهُ سيفهُ قال لهُ " ان مثلك ايها البطل يحق لهُ الفخر الدائم "ورد اليهِ السيف وكفى بذلك شهادة لهُ فصحى الجو للروسيا وتقدمت الى ان بلغت جوار القسطنطينيَّة وامتنعت من توسط الدول في الصلح حتى طلبتهُ الدولة العليَّة منها رأسًا وعقد على شروط تضمنتها معاهدة صان استيفانوس وهذا نص تعريبها

« الشرط الاول — انهُ بموجب الخريطة المربوطة بهذه المعاهدة وبمقتضى الشروط والوجوه الآتي ذكرها تقرر تصحيح حدود ممالك الدولة العليَّة والجبل الاسود وذلك لاجل انهاء المنازعات والمصادمات المتتابعة الوقوع فيما بينهما فالحدود تمتد من جبل دوبروزيجه على الوجه الذي عينهُ المؤتمر الذي كان حصل في الاستانة الى غوربتو وبيلكه والحد الجديد يستطيل الى غاجقة وعلى هذا متوتركيا غاجقو تبقى في تصرف الجبل الاسود وتمتد الحدود ايضًا من مجمع انهر بيوه وتارة وتمر من نهر درين الى جهة الشمال وتنتهي الى مجمع هذا النهر مع النهر المعبر عنهُ فيم واما حدود الجبل المذكور الشرقيَّة فتبتدئ من نهر فيم الى بريرة بولرة ومن روستراق الى سوق بلاتينا وبيهور وروستراق تبقيان داخل الجبل فعلى ذلك يكون تحديد الخطوط هكذا اعني من الجبال المسلسلة الجامعة لروغوة وبلاو وكوزنره الى شلب باقليني ومن رؤوس جبال قوبريونيق وباباور وبورور حذاء حدود بلاد الارناوط الى اعلى ذروة جبل بروقليتي ومن هذه النقطة الى

كثيب يسقاشيق وينتهي الحد على الخط المستقيم الى عين الماء في جيسني هوتي ويفصل فيما بين جيسيني هوتي وجيسيني فاستراني ويتجاوز ماء اشقودرة الى ان ينتهي لنهر بويانة وهكذا مع النهر الى مصبهِ في البحر وبموجب ذلك تبقى نكسيك وغاشقه واشبوزي وبودغوريجة وزابلياق وبارضمن الجبل المذكور وقد يصير تعيين حدود امارة الجبل قطعيًا بمعرفة لجنة مركبة من بعض مأموري دول اوربا بشرط ان تكون وكلاء الباب العالي والجبل معهم ايضًا فهذه اللجنة تلاحظ منافع الطرفين وامنية البلاد الكائنة في الجهتين ثم تشير في الخريطة الى التعديلات التي ترى لها لزومًا وتعلم انها هي الحق وتوضح في ذلك ما راتهُ من صالح الجهتين ثم لا يخفى ان امر سير السفن في نهر بويانة لم يزل يجلب النزاع فيما بين الباب العالي والجبل الاسود فلاجل قطع هذا النزاع يصير تحرير نظام ذلك بمعرفة اللجنة المذكورة

الشرط الثاني. ان الباب العالي يثبت استقلال امارة الجبل الاسود على الوجه القطعي ثم فيما ياتي تتقرر فيما بين دولة الروسيا والدولة العليَّة والامارة المذكورة كيفية المناسبات التي ستكون بين الباب العالي والجبل وقضية تعيين وكلاء من طرف الامارة في الاستانة وفيما يقتضيه الحال من ممالكها ويتقرر ايضًا امر اعادة ارباب الجنايات الذين يفرون من بلاد الدولة العلية الى الجبل ومن الجبل الى بلاد الدولة وامر اطاعة اهل الجبل المقيمين او المارين في بلاد الدولة العلية وانقيادهم الى نظامات ومأموري الدولة طبق الحقوق الجارية بين الدول والعادات والمعاملات القديمة التي كانت تجري بحقهم في بلاد الدولة وستنعقد ايضًا مقاولة فيما بين الباب العالي والجبل الاسود لاجل توضيح وتنظيم المسائل المتعلقة بالانشآت العسكرية في قرب الحدود واحوال ومناسبات الاهالي المتجاورة هناك واذا اختلف الباب العالي مع الجبل في بعض مسائل ولم يكن فصلها باتفاقهما فتحكم بينهما دولتا الروسيا واوستريا ومن بعد هذه المعاهدة اذا وقعت مباحثة او مصادمة فيما بين الباب العالي والجبل ما عدا المطاليب الملكية الجديدة ينبغي ان يفوضا امرها الى دولتي الروسيا واوستريا وهما باتفاقهما يفصلانها بينهما وقد تقرر انهُ من بعد امضاء مقدمات الصلح الى عشرة ايام يجب على عساكر الجبل الاسود ان تخرج من البلاد الغير الداخلة ضمن الحدود المذكورة اعلاه

الشرط الثالث . ان امارة الصرب تكون مستقلة ويكون حدها بموجب الخريطة المربوطة لهذه المعاهدة مجرى نهر « درين » وتبقى « كوجك ازورنيق » و « سقار » في

ادارة الصرب ويمتد هذا الحد الى منبع نهر « ره زه وه » الكائن جوار « استايلاق » على حسب الحدود القديمة وتبتدىء الحدود الجديدة من هنا اعني مع مجرى نهر رزوه الى نهر راسقة ومنهُ الى « بكي بازار » ومن بكي بازار يصعد الخط الفاصل ويمر من جوار قريتي « مهنتره » و « ارغويج » الى اعلى النهر المذكور حتى ينتهي الى منبعهِ ويمتد الى بوسور بلاتينا الكائنة في وادي ايبار وينزل مع الماء الجاري الذي يصب في النهر المذكور ومنهُ يسير مع انهر ايبار وسيديج ولاب الى منبع نهر ياتنسه الكائن في جبل غرابا شينجة بلاتينا وبعدها يمر من التلال الفاصلة بين نهري قربوه وتربنجة ومن اقصر الطرق الموجودة على مصب نهر ميو واجقة حتى ينتهي ايضاً الى نهر وبرنجة ويسير مع هذا النهر ويقطع ميو واجقة وبلاتينا ويصل الى جهة موروواة في قرب قرية قاليانس ومن هنا يسير الى قرب قرية استابقوجي ويجتمع هناك مع نهر بلوسينة وهكذا مع النهر الى موراوة ويمتد مع النهر الى اعلى حتى يصل الى « قونقاويجة » ويقطع سوق بلاتينا ويجتمع بنهر نيساوة ويتصل بقرية فرونجاج ومنها يمر من اقصر الطرق ويمتد على حدود الصرب القديمة الى جنوب شرق « قرة ول بور » وعلى هذا الخط يتصل بنهر الطونة وتقرر اخلاء « اطه قلعة » وهدمها وترتيب لجنة مركبة من مأموري الدولة العليَّة والصرب لاجل تعيين خط الحدود على الوجه القطعي في برهة ثلاثة اشهر ويكون ذلك بمعاونة مأمورين من طرف دولة الروسيا وهذه اللجنة تفصل ايضاً المسائل المتعلقة بجزائر نهر « درين » وتقطعها وحينما تبتدىء هذه اللجنة بتعيين الحدود الفاصلة بين بلاد الصرب والبلغار ينبغي ان يكون وكيل واحد من طرف البلغاريين يشترك معهم في هذا الامر

الشرط الرابع. ان المسلمين الذين لهم املاك في البلاد التي صار الحاقها بالصرب اذا لم يريدوا الاقامة هناك فلهم الخيار ان احبوا اجروا املاكهم وان احبوا اقاموا وكلاء من طرفهم لاجل حفظها واستغلالها والمسائل المتعلقة باموالهم الغير المنقولة تفصلها لجنة مركبة من مأموري الدولة العلية والصرب باعانة مأمورين من طرف دولة الروسيا في ظرف سنتين وهذه اللجنة تفصل ايضاً في برهة ثلاث سنين امر فراغ املاك الدولة والاوقاف والمسائل المتعلقة ببعض الاشخاص الذين لهم علاقة ونفع في الاملاك المذكورة وذلك يكون غب انعقاد المعاهدة فيما بين الدولة العليَّة والصرب والاناس المقيمون او الذين يجولون في بلاد الدولة العليَّة من تبعة الصرب تكون المعاملة معهم على القواعد الكليَّة بمقتضى الحقوق الكائنة بين الدول وقد تقرر انهُ من بعد امضاء مقدمات الصلح الى خمسة عشر يوماً

يجب على عساكر الصرب ان تخرج من البلاد التي ليست داخلة في ضمن الحدود المذكورة اعلاه

الشرط الخامس . ان الباب العالي قد اثبت استقلال رومانيا اعني المملكتين ولها ان تطلب من الدولة العليَّة غرامة الحرب وتجري المذاكرة بهذا الشأن فيما بينهما وعند ما تنعقد المعاهدة بين الدولة العليَّة ورومانيا تنال تبعة رومانيا الامن والامتياز طبق تبعة دول اوربا

الشرط السادس . تقرر ان تكون البلغار امارة مختارة في ادارتها تدفع مبلغاً معلوماً الى الدولة العليَّة ويكون مأمورو الحكومة والعساكر الاهليَّة من المسيحيين ويصير تعيين حدودها على الوجه القطعي بمعرفة لجنة مركبة من مأموري الدولة العليَّة والروسيا وذلك قبل خروج عساكر الروسيا من الروم ايلي وهذه اللجنة تبين هناك في الخريطة التعديلات التي ينبغي اجراؤها وتلاحظ مليَّة اكثر الاهالي وتوضح المنافع المحلية تطبيقاً لفن تخطيط الاراضي وتقرر تعيين وتبيين مقدار اتساع ملك الصقالبة في خريطة وجعلها اساساً في قطع الحدود وخط الحدود يبتدئ من حدود الصرب الجديدة ومن غرب « ورانجه » الى سلسلة الجبل الاسود ومن جهة الغرب يمر من غرب « قومانوه » و « قوجاني » و « قلقان دلن » الى جبل « قوارب » ومن هناك يمر من نهر « وبوجيجه » الى درينه ويلتفت الى جهة الجنوب الى حدود غرب قضاء اخرى حتى ينتهي الى جبل ليناس ومنهُ يمر من غربي كوريجه واستاوره ويتصل بجبل غراموس وكذلك يمر من ماء « قاستريا » ويلتصق بنهر موغلينجه ويسير مع النهر الى « يكيجه » ويمر من نهر وارديكيجه ومن مصب نهر « واردار » وقرية « غاليقو » الى قراء « بارغه » و « صاري كوي » ومن هناك يمر من وسط عين الماء المعبر عنهُ « بشيك كل » الى مصب نهري « استروما » و « قره صو » ومن السواحل الى « بوروكل » ويمتد الى الشمال الغربي ويمر من سلسلة جبل « رودوب » الى جبلي « جالتبه » و « اشوه » ويمر من جبال « اشك قولاج » و « جيبليون » و « قره قولاس » و « جيقلر » الى « نهر ارده » ويلتفت لجهة الجنوب ويمر من قراء سوكوتلين وقره حمزة وارناأود كوي واقارجي واينجه الى « تكه دره سي » في قرب « ادرنه » ومن تكه دره سي و « جورلي دره سي » الى « لوله برغوسي » ومن هنا وعن نهر « صوجق دره » الى قرية « سور كن » ومنها من التلال ويقطع « حكيم طابيه سي » حتى يتصل في ساحل البحر الاسود ويبتدئ ايضاً من « منقاليه » ويترك السواحل ويمر من شمال حدود لوا طولجي ومن فرق راسوه الى نهر الطونه

الشرط السابع . ان امير البلغار يصير انتخابهُ من طرف الاهالي بالحرية التامة والباب العالي يثبتهُ بانضمام اراء الدول ولا يجوز انتخاب احد من اقارب ملوك دول اوربا الجالسين على سرير الملك للامارة المذكورة وحينما تنحل الامارة كذلك يكون انتخاب الامير الجديد على هذا المنوال وهاته الشروط وقد تقرر انهُ ينبغي من قبل انتخاب الأمير ان يجتمع مجلس معتبري البلغار اما في « فابه » واما في « طرنوفا » تحت نظارة مامورين من طرف الروسيا وفي حضور مامورين من طرف الدولة العليَّة وتؤسس نظامات هذه الادارة المستقلة توفيقاً لامثالها اعني لنظامات المملكتين التي تنظمت في سنة ١٨٣٠ غب انعقاد مصالحة « ادرنه » وعند تاسيس تلك النظامات ستصير وقاية حقوق ومنافع الاهالي من المسلمين والروم والاولاخ وغيرهم الموجودين والمختلطين مع البلغاريين وتقرر ايضاً احالة تاسيس هذه الادارة الجديدة في البلغار مع ما يلزم من النظر في صور اجرائها لعهدة مأمورين موظفين من طرف دولة الروسيا من هنا الى سنتين وفي انقضاء السنة الاولى من تاسيس الادارة الجديدة اذا لم يحصل اتفاق بهذا الشأن فيما بين الروسيا والباب العالي ودول اوربا يكون للدول المشار اليهم حق ان يوظفوا مأمورين يرافقون المأمورين الروسيين

الشرط الثامن . ليس لعساكر الدولة العثمانيَّة حق بعد هذا للاقامة في البلغار وسيصير هدم القلاع القديمة الكائنة هناك بمعرفة الحكومة المحليَّة وان الباب العالي لهُ حق ان يتصرف بالادوات الحربيَّة الموجودة في قلاع الطونة التي صار اخلاؤها من العساكر بموجب سند المتاركة الذي تحرر في ٣١ يناير و لآلات الحربية الكائنة في مدينتي شمنى ووارنه وجميع الاملاك المتعلقة بالحكومة العثمانيَّة كيفما شاء وتبقى عساكر الروسيا في البلغار مقيمة الى ان ينتهي ترتيب العساكر الاهليَّة الكافلة لحفظ الراحة وتوطيد الامنية واذا اقتضت الحال يقومون فعلاً باعانة المأمورين وسيصير تعيين عدد العساكر الاهليَّة بالاتفاق فيما بين الدولة العليَّة ودولة الروسيا وان مدة اقامة عساكر الروسيا في البلغار تكون سنتين والعساكر التي تبقى هناك بعد خروج جميع العساكر الروسية من بلاد الدولة العليَّة تكون عبارة عن ست فرق مشاة وفرقتين خيالة وجميعها خمسون الفاً ومصروف هولاء العساكر يكون على البلغار ويكون لها طرق مراسلات في المملكتين في شطوط البحر الاسود من جهة وارنة وبرغوس وفي مدة اقامتها هناك يكون لها المخازن المقتضية على الشطوط المذكورة

الشرط التاسع . ان المرتب السنوي الذي يلزم على البلغار ايفاؤهُ للدولة العليَّة يتسلم الى البنك الذي يعينهُ الباب العالي وهذا البنك يصير تعيينهُ بمعرفة دولة الروسيا والدولة العليَّة وسائر الدول وذلك في انتهاء السنة الآولى من ابتداء اجراء اصول الادارة الجديدة ومقدار ذلك المرتب يتأسس بالنظر لايراد البلاد والاراضي التي تكون في ادارة الامارة على الحساب المتوسط والبلغار تتعهد بالقيام في التعهد الذي على الدولة العليَّة الى شركة سكة الحديد في طريق وارنة وروسجق غب المذاكرة مع الباب العالي وادارة الشركة المذكورة ومسألة سكة الحديد الاخرى الموجودة ضمن الامارة يصير فصلها بمعرفة الدولة العليَّة وحكومة البلغار وادارة الشركة

الشرط العاشر . ان الباب العالي لهُ حق في مرور العساكر ونقل المهمات والذخائر من الطريق المعينة في داخل البلغار الى الايالات العثمانيَّة التي وراء البلغار ولاجل عدم وقوع مشاكل في هذا الخصوص وتأمين الايجابات العسكريَّة العثمانيَّة سيوضع نظام بالاتفاق مع الباب العالي والامارة من ابتداء تعاطي هذه المعاهدة الى ثلاثة اشهر في ذلك وهذا الحق المتعلق بالمرور والعبور يختص بالعساكر النظاميَّة فقط دون الباشبوزق والجراكس والعساكر المعاونة والباب العالي كذلك لهُ ان يتعاطى البوسطة عن طريق الامارة ويستعمل مسالك التلغراف في مخابراتهِ فهذان الامران كذلك يصير تعيينهما وتنظيمهما في المدة والشروط المحررة اعلاه

الشرط الحادي عشر . ان المسلمين وغيرهم من اصحاب الاملاك اذا ارادوا الاقامة في خارج الامارة لهم ان يحفظوا املاكهم ويؤجروها او يفوضوا امر ادارتها الى من يريدونهُ ثم ان مأمور الدولة العليَّة ومأمور البلغاريين يجتمعان تحت نظارة مأمور الروسيا ويفصلون المسائل المتعلقة بتصرف الاملاك وفي منافع مسلمي البلغار وذلك يكون في ظرف سنتين واملاك الدولة والاوقاف يصير تعيين امرها اما بالبيع واما باستعمالها على الوجه الذي يكون فيهِ النفع الزائد لجهة الباب العالي ويصير تعيين ذلك بمعرفة لجان مخصوصة محدودة في السنتين المذكورتين والاراضي التي تبقى بدون صاحب عند انقضاء السنتين تباع بالمناداة والمزايدة ويؤخذ ثمنها ويدفع الى ايتام وارامل المصابين في الاحوال الاخيرة من المسلمين والمسيحيين

الشرط الثاني عشر . ان القلاع الكائنة على نهر الطونة يصير هدمها جميعاً ولا يبقى من بعد هذا على سواحل نهر الطونة قلعة ما مطلقاً ولا يجوز وجود سفن حربيَّة في مياه

رومانيا والصرب والبلغار سوى السفن الصغيرة والزوارق المختصة والمستعملة في الامور الانضباطية فقط وحقوق ووظائف وامتيازات لجنة الطونة المختلطة تبقى بتمامها على اصلها

الشرط الثالث عشر . ان الباب العالي يتعهد بتنظيف البحر في مضيق «سنه» وارجاعهِ الى حالهِ السابق ليصلح لمرور السفن منهُ ويتعهد ان يضمن العطل والضرر الذي حصل للتجار بسبب منع مرور السفائن من نهر الطونة مدة الحرب وسيصير فصل ٥٠٠٠٠٠ فرنك من اصل دين لجنة الطونة الى الباب العالي لاجل هذا الامر

الشرط الرابع عشر . ان الاصلاحات التي قدمت الى مرخصي الباب العالي في اول جلسة مؤتمر الاستانة ينبغي حالاً اجراؤُها بالفعل في بوسنة وهرسك مع التعديلات التي ستقرر فيما بين دولتي الروسيا واوستريا ويجب ان لا يطلب من هاتين الايالتين بقايا الخراج وان لا يؤخذ شيءٌ من الواردات الى ابتداء شهر مارس سنة ١٨٨٠ بل تصرف كلها في الاحتياجات المحليَّة ويسد بها عوز الاهالي والعيال الذين اصيبوا في الاحوال الاخيرة ومن بعد انقضاء المدة المذكورة يتعين المبلغ الذي يلزم على الاهالي دفعهُ في كل سنة الى الحكومة المركزيَّة بالاتفاق فيما بين الدولة العليَّة ودولتي الروسيا واوستريا

الشرط الخامس عشر . يتعهد الباب العالي باجراء احكام النظام الاساسي الذي وضع في سنة ١٨٦٨ المختص بجزيرة كريد طبق مطلوب الاهالي الذي بينوه مقدماً ويلزم اجراء الاصلاحات المماثلة لنظامات كريد في «ترحاله» و«يانيه» وفي سائر جهات الروم ايلي التي ليس لها نظامات مخصوصة ويصير تشكيل لجنة مركبة من الاهالي المحلية في كل ايالة لاجل ترتيب وتأليف النظامات الجديدة ثم يصير تقديمها الى الباب العالي ليتذاكر مع دولة الروسيا في ذلك

الشرط السادس عشر . ان خروج عساكر الروسيا من ارمينيَّة وارجاع تلك البلاد الى الدولة العليَّة يمكن ان يفضي الى المناقشة والاختلاف فيما بينهما فلهذا يتعهد الباب العالي حالاً باجراء الاصلاحات على حسب الاحتياجات المحليَّة في الولايات التي سكانها ارمن وتأمين المسيحيين من تعدي الاكراد والجراكسة

الشرط السابع عشر . ان الباب العالي سيعلن العفو العمومي عن المتهمين في الاحوال الاخيرة ويطلق سبيل المحبوسين والمنفيين بسبب ذلك

الشرط الثامن عشر . ان الباب العالي يتعهد بالتبصر بعين الدقة الى ما ينهُ وكلاء الدول المتوسطة في خصوص قضاء قوتور وتعيين الحدود الايرانية على الوجه القطعي

الشرط التاسع عشر. ان مبالغ الغرامة الحربية التي طالبها حضرة قيصر الروسيا هي في مقابلة الاضرار والخسائر التي تكبدتها دولة الروسيا بسبب هذه الحرب والباب العالي قد تعهد بدفعها فمن هاتهِ المبالغ (اولاً) ٩٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ روبل في مقابلة مصروف العساكر والادوات الحربية والاشياء التي بليت. (ثانياً) ٤٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ روبل لاجل الاضرار الحاصلة في سواحل بلاد الروسيا الجنوبية وفي اخراجات البضائع التجاريَّة وفي طرق الحديد (ثالثاً) ١٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ روبل بمقابلة الضرر الحاصل من الهجوم على قوقاس (رابعاً) ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ روبل لاجل الخسائر التي حصلت لتبعة الروسيا المقيمين في الممالك العثمانية ولتأسيساتها فعلى ذلك تكون هذه المبالغ من حيث المجموع عبارة عن ١٫٤١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ روبل يعني ٢٤٥٫٢١٧٫٣٩١ ليرة عثمانية وريال مجيدي ابيض ونصف هذا وان القيصر المشار اليهِ قد لاحظ ضيق حال الدولة العلية من جهة المال وتامل في مقاصدها التي نوهت عنها في هذا الشان ووافق بالقبول على ان تترك الدولة العلية الاراضي المحررة اسماؤُها ادناه عوضاً عن القسم الاكثر من المبالغ المذكورة. (اولاً). لواء طولجي يعني قضاء كيليا وسنه ومحمودية وايساقجي وطولجي وماجين وباباطاغي وخرسوه وكوستنجة ومجيديه والجزائر الكائنة في نهر الطونة قد تركتها الدولة العلية جميعاً الاَّ ان الدولة الروسية ليس لها فكر بالحاق هاتهِ البلاد الى ملكها بل انها تحفظ حق مبادلة هذه البلاد بقطعة بسارابيا التي اخذت منها بموجب معاهدة سنة ١٨٥٦ لحدود قطعة بسارابيا من جهة الجنوب طرف من اراضي كيليا ومصب نهر الطونة والجهات التي يصطادون بها السمك في النهر يصير تفريقها بمعرفة مامورين من طرف الروسية ومن حكومة المملكتين في برهة سنة واحدة اعتبارًا من تاريخ تعاطي هذه المعاهدة. (ثانياً). اردهان وقارص وباطوم وبايزيد مع الاراضي الحاوية عليها الى جبل صوغانلي سيصير تسليمها الى دولة روسيا وحينئذ الحدود الفاصلة تكون هكذا اعني يبتدىء الخط الفاصل من الجبال التي فيما بين المياه الجارية والمنصبة في نهري «هوبا» و«جورق» ويمر من الجبال المتسلسلة الواقعة في جنوب قضاء «وارتوين» ومن جوار قريتي «والات» و«بشاكت» ومن فوق «درونيك» و«كتي» و«هوجه زار» و«بجقين طاغ» ومن الجبال الفاصلة للمياه التي تختلط بنهري «تورتم» و«جورف» ومن فوق قراء «بالي» و«هين» و«لم كليسا» الى ان ينتهي الى نهر تورتم ومن هنا يمر من سيوري طاغ ومن مضيق سيوري طاغ ويتصل بقرية نريمان ويلتفت الى جهة الجنوب حتى يصل الى «زوين» ومن زوين يمر

من غربي طريق اردوست وخراسان الى جنوب جبل صوغانلي ويتصل بقرية «كيلجان» ومنها يمر من جبل «تريا» ومن قرية خميرومن اون رست مسافة ومن تلال «طاندور» ومن جنوب وادي بايزيد وينتهي في الجهة الجنوبيَّة من «قازلي كول» وهذا المحل هو الحد الفاصل قديمًا في ما بين حدود اراضي الدولة العليَّة واراضي دولة ايران وان الاراضي التي صار الحاقها بمالك الروسيَّة ومذكورة في الخريطة المربوطة بهذه المعاهدة يصير تعيين حدودها قطعيًّا بمعرفة مأمور من طرف الروسيَّة ومأمور من طرف الدولة العليَّة وهما يلاحظان قواعد تخطيط الاراضي وقضيَّة تأمين حسن ادارة القضوات . (ثالثًا) .ان الاراضي التي صار تركها لدولة الروسيا كما هو محرر اعلاه قد اعتبرت بمبلغ ٠٠٠ر٠٠٠ر١٠١ر١ روبل (مليار ومائة وعشرة ملايين روبل) واما الباقي من الغرامة وهو ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٠٠ روبل (يعني ثلاثمائة مليون روبل) ماعدا ٠٠٠ر٠٠٠ر١٠ روبل التي هي في مقابلة خسائر تبعة الروسيَّة وتأسيساتها ستتفق دولة الروسيا مع الدولة العليَّة على قضيَّة دفعها وتأمين ايفائها.(رابعًا) ان العشرة ملايين روبل التي تخصصت لتبعة الروسيَّة ومؤسساتها يصير تسويتها هكذا اعني ان سفارة الروسيَّة في الاستانة تجري التدقيقات اللازمة بهذا الشان على مستدعيات ارباب العلاقة وتعرض الكيفيَّة الى الباب العالي والباب العالي يجري التسوية على مقتضى عرض السفارة

الشرط العشرون . ان الباب العالي يتعهد بان يستعمل التدابير المؤثرة سريعًا في فصل الدعاوي المنازع فيها منذ سنين عديدة المتعلقة بتبعة الروسيَّة وانهُ اذا اقتضى الامر يدفع غرامة وينفذ احكام الاعلامات

الشرط الحادي والعشرون . ان اهالي البلاد التي تسلمت الى الروسيَّة ان ارادوا الهجرة منها لهم ان يبيعوا املاكهم واراضيهم ويهاجروا وقد اعطي لهم مهلة في ذلك ثلاث سنين من تاريخ تعاطي هاتهِ المعاهدة فالذين لا يبيعون املاكهم في هاتهِ المدة ولا يهاجرون يدخلون في حكم الروسية عند انقضاء تلك المدة واملاك الدولة والاوقاف يصير بيعها على حسب الاصول التي يعينها مامور الروسيَّة ومامور الدولة العليَّة في مدة السنتين المذكورة وهما يتممان ايضًا كيفيَّة نقل الادوات الحربيَّة الموجودة في المحلات التي هي الآن في يد الروس سواء كانت من البلاد التي تسلمت الى دولة الروسيا او غيرها

الشرط الثاني والعشرون . ان القسيسين والزوار الذين يسكنون او يسيحون في المالك العثمانية في الروم ايلي والاناطولي من تبعة الروسيا سينالون الحقوق والامتيازات

التي ينالها القسيسون والزوار من تبعة سائر الدول سويّةً وسفارة الروسيا الكائنة في الاستانة وقناصلها يحمون حقوق الاشخاص المذكورة وذواتهم ومؤسساتهم والرهبان وغيرهم الموجودين في الاماكن المقدسة وبالخصوص في « اينوروز » فهم حائزون حقوقهم التي كانوا حائزين عليها في السابق ويحفظون الديورة الثلاثة الكائنة في اينوروز مع مشتملاتها المتعلقة بهم كسائر الديورة والمؤسسات المذهبية الكائنة لغيرهم هناك سويّةً

الشرط الثالث والعشرون . ان المعاهدات والمقاولات التي كانت موجودة فيما بين الدولة العليّة والروسية المتعلقة بالتجارة والمحاكمة وبتبعة الروس المقيمين في بلاد الدولة العلية وتعطلت احكامها بسبب هذه الحرب ينبغي ان تجري احكامها كما في السابق وان دولتي الروسية والعثمانية قد اعادوا المناسبات التي كانت قبل هذه الحرب في الامور التجاريّة وغيرها بمقتضى احكام المعاهدات والمقاولات المذكورة ما عدا المواد التي نسختها هاته المعاهدة

الشرط الرابع والعشرون. ان خليج الاستانة وخليج جناق قلعه سواء كان في زمن الحرب او زمن الصلح يكون مفتوحاً للسفن التجاريّة التي تريد المرور منهُ الى بلاد الروسيا من الدول التي تكون على الحيادة والباب العالي ليس لهُ من بعد هذا ان يضع الحصر الغير المؤثر على الشطوط الموجودة فيما بين البحر الاسود وبحر الازاق والمخالف لمضمون معاهدة باريس التي صار امضاؤها في ٤ ابريل سنة ١٨٥٦

الشرط الخامس والعشرون. ان عساكر الروس يخرجون من بلاد الدولة العليّة الكائنة في اوربا (الروم ايلي) ما عدا البلغار وذلك من تاريخ انعقاد الصلح القطعي الى ثلاثة اشهر هذا وان العساكر المذكورة لهم ان يأتوا الاساكل الموجودة في البحر الاسود وبحر مرمرة عند السفر للركوب في السفائن التي تحضرها او تستأجرها دولة الروسيا حتى لا يكونوا مجبورين على اطالة مدة الاقامة في الممالك العثمانيّة وفي رومانيا واما خروج عساكر الروسيا من الاناطول فيكون بعد انعقاد الصلح القطعي بستة اشهر ولهم ان يأتوا الى طرابزون لاجل الركوب في السفن ومن هناك يسافرون الى القريم او القوقاس

الشرط السادس والعشرون . ان اصول الادارة والاوامر التي وضعتها دولة الروسيا في البلاد التي دخلتها عساكرها والتي ينبغي تسليمها الى الدولة العليّة بموجب هاته المعاهدة تكون باقية وجارية الى حين توجه العساكر منها وليس للباب العالي المشاركة في الاحكام ولا للعساكر العثمانيّة الدخول اليها قبل ذلك بناء على هذا

ان امير العساكر الروسية يخبر الضابط الذي يعينهُ الباب العالي عن سفر عساكر الروسيَّة وليس للباب العالي ان يجري الاحكام من قبل ان تسلم لهُ القلاع والايالات

الشرط السابع والعشرون. ان الباب العالي لا يجازي احدًا بسوء من تبعتهِ الذين دخلوا في المناسبات مع دولة الروسيا في زمن الحرب وليس لمأموري الدولة العليَّة ان تمنع او توقف احدًا من الاهالي الذين يرغبون ان يسافروا مع العساكر

الشرط الثامن والعشرون. ان اسرى الحرب يصير ارجاعهم تحت نظارة مامورين مرتبين من طرف الدولتين وذلك عقيب تعاطي مقدمات الصلح وهولاء المأمورون يسافرون الى اودسا وسباستبول واما مصروف اسراء العساكر العثمانيَّة تدفعها الدولة العليَّة في ظرف ست سنوات تحت ثمانية عشر قسطًا بموجب الدفتر لذي يحررهُ المأمورون المذكورون واما قضيَّة مبادلة الاسرى فيما بين حكومتي رومانيا والصرب وامارة الجبل الاسود فيصير اجراؤُها على هذا الاساس لكن يطرح مقدار الاسرى الذي عند الدولة العليَّة من مقدار اسرى عساكرها ولا تلزمها فيهِ تلك المصاريف

الشرط التاسع والعشرون. ان حضرة امبراطور الروسيا والحضرة الملوكانيَّة سيثبتون هذه المعاهدة وامضاء تثبيتها يكون في بطرسبرغ في ظرف خمسة عشر يومًا او بوجه امرع من ذلك ان امكن وكذلك يجري التصديق رسميًّا على الشروط المذكورة في هذه المعاهدة على حسب الاصول الجارية في المعاهدات الصلحيَّة وان الدولتين المتعاهدتين من تاريخ تعاطي المعاهدة يعدون انفسهم رسميًّا بانهم متعهدون بان مرخصي الطرفين قد امضوا هذه المعاهدة كما يأتي تصديقًا لمضمونها.— حرر في ايا ستفانوس في ١٩ شباط الرومي (فبراير) و٣ ايار (مارس) الافرنجي سنة ١٨٧٨   الامضاء

الكونت اغناتيف   صفوت   نليدوف   سعدالله

لكن انكلترا لم تسمح بالاقرار بذلك حتى ادخلت اسطولها بحر مرمرا وعاضدتها بقيَّة الدول في طلب تعديل تلك المعاهدة وعقدوا لذلك مؤتمرًا في برلين وارسى الامر فيهِ على معاهدة نص تعريبها

بسم الله القادر على كل شيءٍ

لما كان حضرة سلطان العثمانيين وحضرة ملكة مملكة بريطانيا العظمى وارلاندة وامبراطورة الهند وحضرة امبراطور جرمانيا وملك بروسيا وحضرة امبراطور اوستريا وملك بوهيميا وملك هنكاريا وحضرة رئيس جمهوريَّة فرنسا وحضرة ملك ايطاليا وحضرة

امبراطور جميع الروسيا يريدون لاجل اقرار الراحة العامة في اوربا انهاء المسائل التي ظهرت في الشرق بسبب تقلبات الاحوال فيها في هذه السنين الثلاث وبسبب الحرب التي عاقبتها معاهدة ايا سطفانوس استقر رأيهم جميعاً على عقد مؤتمر يكون احسن الوسائل لاجل الاتفاق بحسب ما تقرر في معاهدة اياسطفانوس وبناء على ذلك عينت الذوات الملوكيَّة المشار اليهم وحضرة رئيس جمهوريَّة فرنسا مرخصين وهم

حضرة ملكة مملكة بريطانيا العظمى وارلاندا وامبراطورة الهند عينت الاونورابل بنيامين دزرائيلي الذي هو كبير وزراء انكلترا والاونورابل روبرت ارثر تالبت عاسكون سيسل مركيز صالسبري الذي هو ناظر خارجية انكلترا والاونورابل لورد اود وليم ليوبولد روسل الذي هو سفير من الطبقة الاولى لانكلترا لدى حضرة امبراطور جرمانيا وملك بروسيا

وعين حضرة امبراطور جرمانيا وملك بروسيا البرنس بسمارك كبير الوزراء في بروسيا وبرنارد ارنست دوبولوى مستشار الخارجية والبرنس هوهنلوه شلنغفورست سفير المانيا لدى رئيس جمهوريَّة فرنسا

وعين حضرة امبراطور اوستريا وملك بوهيميا وملك هنكاريا الكونت اندراسي وزيرهُ الخاص ووزيرهُ في الامور الخارجية والكونت لويس كاروليني سفيرهُ لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيا والبارون هنري دوهايمل سفيرهُ لدى ملك ايطاليا

وعين حضرة رئيس جمهوريَّة فرنسا موسيو وليم هنري وادنطون احد اعضاء مجلس الاعيان ووزيرهُ في الامور الخارجية وشارل رايموند كونت دوصان فاليه من اعضاء مجلس الاعيان وسفير فرنسا لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيا وفيلكس ديسبرز المكلف بادارة الامور السياسية في دائرة الخارجيَّة

وعين حضرة ملك ايطاليا الكونت لويس كورتي احد اعضاء مجلس الاعيان ووزيرهُ في الامور الخارجية وادورد كونت دولوني سفيرهُ لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيا

وعين امبراطور جميع الروسيا البرنس الكسندر غورچيقوف وزيرهُ في الامور الخارجيَّة والكونت دوشوفالوف من قرناء الحضرة الامبراطوريَّة ومن اعضاء المجلس الخاص وسفيرهِ لدى دولة بريطانيا وپول دوبريل سفيرهُ لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيه

وعين حضرة سلطان العثمانيين الكسندر قره تيودوري باشا وزيره في الامور النافعة ومحمد علي باشا المشير في عساكرهِ وسعد الله بك سفيره لدى امبراطور جرمانيا وملك

بروسيا فاجتمعوا في برلين بحسب اشارة دولة اوستريا هنكاريا وبموجب استدعاء دولة جرمانيا ومعهم سائر المحررات المؤذنة بالترخيص فبعد ان وجدت مطابقة للاصول وقع بينهم الاتفاق على المواد الآتية

(المادة الاولى) صارت لآن البلغار امارة مستقلة في امورها الداخليَّة (ادارة مختارة) تدفع خراجًا في كل سنة الى الباب العالي وتكون تحت تابعيَّة الحضرة السلطانيَّة ويكون لها حكومة مسيحيَّة وعساكر وطنيَّة

(المادة الثانية) تكون امارة البلغار عبارة عن الاراضي الآتي ذكرها وهي ان حدود تلك الاراضي من جهة الشمال تبتدئ من حدود الصرب القديمة وتمر عن يمين ساحل نهر الطونة وتنتهي الى محل في شرقي سيلستريا وهذا المحل سيصير تعيينهُ من طرف المؤتمر الذي يتشكل من ماموري دول اوربا ومن هنا ايضًا يتصل الحد في البحر الاسود ويمر من جنوب منقاليا التي صار الحاقها برومانيا اما من جهة الجنوب فانهُ يبتدئ من مصب النهر ويمر من جوار القرى المسماة « هوجه كوي » و « سلامكوي » و « ايواجق » و « قولبة » و « صوجيلق » على شاطئ النهر الى جهة فوق المحاذية « اوادي قامجق » ومن جنوب « بليبة » و « كمحالق » على بعد من « جنكة » مقدار متر ٢ ونصف ويتجاوز « دلي قامجي » ويمر من شمال « حاجي محله » ويصعد الى ذروة المحل الكائن فيما بين « تيكنلك » و « ايدوس برهسا » ومنهُ الى بلقان « قرين اباد » وبلقان « ويره زويقه » ومن بلقان « قرغان » الواقع في شمال المحل المسمى « قوتل » الى ان يتصل بمحل « تيمورقبو » وعلى هذا يكون مرورهُ من سلسلة البلقان الكبير الاصليَّة ويمتد على جميع مساحتهِ الى ان ينتهي الى ذروة « قوزيقه » ومن هنا يترك ذروة البلقان ويلتفت الى جهة الجنوب ويسير من بين قريتي « بيرتوب » و « دوزنجي » ويغادر قرية بيرتوب المذكورة الى البلغار وقرية دوزنجي الى شرق الروم ايلي ويتصل بنهر « طوزلي دره » ويسير مع مجرى النهر الى مصبهِ في نهر « طوبولينجه » ثم الى نهر « اسموسكيو » الذي يصب في نهر طوبولينجه المذكور بجوار قرية « بتريجوه » ويترك من الاراضي الكائنة فوق نهر اسموسكيو المذكور مقدار كيلومتر ٢ الى شرقي الروم ايلي ويمر من مقسم المياه فيما بين اسموسكيو ونهر قامنيفه ويلتفت الى الجنوب الغربي من التل المسمى وونجاق وينتهي رأسًا الى النقطة المذكورة في خريطة اركان حرب دولة اوستريا عدد ٨٧٥ ومن هنا يقطع بخط مستقيم الجهة العليا من وادي اهتمان ويمر من بين بوغدينه وقره ولي ويتصل بالخط في مقسم انهر

المريج فيما بين اسقر وقرلي وحاجيلر ويسير مع الخط المذكور من تلال « ولنيا »
و « موغيلا » الى الممر الواقع في نقطة عدد ٥٣١ والى المحلات المسماة « ازمايليقا »
و « ره وسومناتيقه » ويدخل من بين « سيوري طاش » و « قادرتبه » ويتصل بحدود
لواء صوفية ومن هنا يبتدىء من « قادرتبه » الى جهة الجنوب الغربي ويمر من بين نهر
قره صو ونهر « استروما قره صو » ويسير مع خط مقسم المياه ومن تلال الجبال المسماة
«تيمورقبو» و «اسقوفنيه » و « فاضيمسار بلقان » و «حاجي كدك » تجاه بلقان قابتنيق
ويتصل بحدود لواء صوفية القديمة وكذلك يمر من بلقان قابتنيق المذكور ومن بين وادي
« ريلسقارقا » ووادي « بسقرارقا » ويسير مع خط مقسم المياه ويدور تل « ودينجه
بلانينا » وينزل الى وادي استروما في المحل الذي يختلط به نهر استروما مع نهر
ريلسقارقا ويدع قرية « براقلي » للدولة العليّة ويصعد من جنوب قرية « بلشينقة » الى
فوق ويمر من اقصر خط الى سلسلة « غولما بلانيانا » وتل « غيتقة » ويتصل بحدود لواء
صوفية ويترك كامل منشا صوهارقا للدولة العليّة ويلتفت الى جهة الغرب من جبل
« رجينقا » ويدور جبال قارونا يابوقه وحدود لواء صوفية القديمة من جبل « قرني وره »
ويمر من فوق مياه « اكريصو » ولبنيقه ويطلع الى تلال « بابنابولانا » حتى ينتهي ايضاً
الى جبل قرني وره المذكور ومن هذا الجبل يمر من تلال « اسنرزر » و « ويله غوصو »
و « مسيدبلانينا » ومن بين « اسنروما » و« موراوه » مع خط مقسم المياه الى غاسينا
وقرنه طراوه ودار قوسقة ودرانيقة بلان وبعدها من فوق دوشا قلادانق ومن مقسم انهر
صوقوه وموراوه ويذهب رأساً الى المحل المدعو « استول » ومن هنا ينزل الى الطريق
الموصلة الى صوفية وبيروته ويقطع في هذه الطريق الف متر ومنهُ عن طريق ويدليا
بلانينا ويصعد على خط مستقيم الى جبل « رادوجينا » الكائن في سلسلة البلقان الكبير
ويترك قرية دويقنجي الى صربستان وقرية سناقوس الى البلغار ثم يلتفت الى جهة الغرب
ويدور تلال البلقان المسمى سبروق من صوب استاره بلانيا ويتصل بشرقي حدود امارة
الصرب القديمة بجوار « تولا اسميلوه قوفة » ويسير على هاته الحدود حتى ينتهي الى نهر
الطونة عند « رافويجه » ثم ان هذه الحدود جميعها سيصير تعيينها بمعرفة لجنة مركبة من
وكلاء الدول الممضية على المعاهدة وحصل الاتفاق اولاً على ان هاته اللجنة تنظر بالاعتناء
في خصوص محافظة حدود بلقان شرقي الروم ايلي الكائن تحت سلطة الدولة العليّة وثانياً
ان لا يصير انشاء استحكام في اطراف « صماقو » بمسافة ١٠ كيلو متر

(المادة الثالثة) يكون انتخاب امير البلغار من اهلها بحرية تامة واقراره من الباب العالي برضى دول اوربا العظام ولا يصح انتخاب امير عليها من بيوت الدول المذكورة فاذا توفي عن غير ولد يكون انتخاب امير بعده على الشروط والاصول المقررة

(المادة الرابعة) بعد انتخاب الامير تجتمع اعيان البلغاريين في طرنوفا لترتيب احكام ونظامات تخص الامارة وفي الجهات التي تكون سكانها من الترك واهل رومانيا والروم وغيرهم يلزم مراعاة حقوقهم ومصالحهم فيما يتعلق بقضية الانتخاب وترتيب الاحكام الاساسية

(المادة الخامسة) المواد الآتية تكون اساساً للحقوق العمومية في البلغار وهي « ان الاختلاف في المذاهب والاعتقادات لا يخرج احدًا من الاهلية والجدارة من تمتعهِ بالحقوق المدنية والسياسية او بدخوله في الوظائف الميرية او العمومية او نوالهِ الشرف او استعمالهِ الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقره فان الحرية ومباشرة جميع الاعمال الدينية ينبغي تأمينها لجميع الناس القاطنين في البلغار من اهلها ومن الاجانب ايضاً ولا يسوغ اتخاذ مانع ما لترتيب درجات ارباب المذاهب المختلفة او لعلاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين »

(المادة السادسة) تكون ادارة « البلغار الموقتة » تحت ادارة مأمورين من دولة الروسية الامبراطورية الى ان تنتظم فيها القوانين الاساسية ويستدعى مأمور من طرف السلطنة العثمانية والقناصل الذين تنتخبهم الدول الذين وقعوا على هذه المعاهدة بقصد مراقبة اعمال « الادارة الموقتة » المذكورة فاذا حصل خلاف بين القناصل المذكورين فابرام العمل يكون على حسب اكثرية الاراء كما انهُ اذا حصل خلاف بين اكثرية اراء المذكورين والمامورين من طرف امبراطورية الروسية او المامورين من طرف الحضرة السلطانية تجتمع سفراء الدول بالاستانة الذين وقعوا على هذه المعاهدة في مؤتمر (كنفرانس) ليقر رأيهم على انهاء الخلاف المذكور

(المادة السابعة) تشكيل « الادارة الموقتة » المذكورة لا يبقى اكثر من تسعة اشهر اعتبارًا من يوم التوقيع على هذه المعاهدة وبمجرد انتخاب الامير تصير مباشرة اجراء الاحكام الجديدة فتصير تلك الاحكام دستورًا للعمل وتكون الامارة قد حازت استقلاليتها الادارية (ادارتها المختارة) حوزًا تامًا

(المادة الثامنة) جميع المعاهدات التجارية والسفرية والاتفاقات التي جرت بين الدول الاجنبية وبين الباب العالي والتي لم يزل عملها جاريًا تبقى مرعية الاجراء مع امارة

البلغار فلا يصح تبديل شيء منها مع احدى الدول المذكورة بدون رخصة منها ولا يسوغ وضع شيء من الضرائب على البضائع التي ترسل الى احدى الجهات في مرورها على البلغار وتكون معاملة جميع الاهالي ورعايا الدول وتجارتهم في الامارة على قدم مساواة تامة وتبقى امتيازات وخصائص الاجانب المقررة في المعاهدات (التي امضيت بين الدول والباب العالي) مرعيَّة الاجراء في الامارة ما دام لم يحصل تعديلها برضى الدول

(المادة التاسعة) الويركو السنوي الذي يجب على امارة البلغار ان تدفعهُ في كل سنة الى متبوعها الحضرة السلطانيَّة يكون دفعهُ الى البنك الذي يعينهُ الباب العالي ويكون تعيين المبلغ عند ختام السنة الاولى من جريان نظاماتها الجديدة باتفاق بين الدول الموقعين على هذه المعاهدة وهذا الويركو يحسب بمناسبة ايراد الامارة وحيث انها ستحمل جانباً من ديون السلطنة العموميَّة يلزم للدول ايضاً ان يتذاكروا على مقدار الدين الذي يعين على الامارة وذلك عند مذاكرتهم في امر الويركو

(المادة العاشرة) جميع التعهدات والاتفاقات التي وعدت السلطنة العثمانيَّة باجرائها مع شركة سكة الحديد بين وارنه وروسجق تدخل في عهدة امارة البلغار اعتباراً من مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة اما تسوية الحسابات السابقة التي كانت بين الشركة المذكورة وبين الباب العالي فامرها يكون بين الباب العالي وحكومة البلغار والشركة المذكورة وكذلك دخل في عهدة البلغار سائر تعهدات الباب العالي مع دولة اوستريا وهنكاريا ومع الشركة المنوط بعهدتها تشغيل سكك الحديد في الروم ايلي فيما يتعلق باتمام السكك المذكورة واتصالها في الاراضي التي دخلت الآن في حوزة البلغار ويكون عقد شروط الاتفاقات اللازمة لتسوية هذه المسائل بين دولة اوستريا وهنكاريا والباب العالي والصرب وامارة البلغار عند اقرار الصلح

(المادة الحادية عشرة) بعد هذا لا تبقى العساكر العثمانيَّة في البلغار وهدم سائر القلاع والحصون يكون على مصروف حكومة الامارة في ظرف سنة واحدة او اقل من ذلك ان امكن وينبغي لتلك الحكومة ان تتخذ وسائط معجلة لذلك ولا يسوغ لها ان تبني بدلها حصوناً جديدة ويكون للباب العالي حق في ان يتصرف في المهمات الحربيَّة وغيرها من الاشياء التي هي ملك لهُ الباقية في حصون الطونة التي اخلتها العساكر العثمانيَّة بموجب الهدنة التي حصلت في ٣١ جنيواري (كانون الثاني) وكذلك التي في شمله (شمنى) ووارنه

(المادة الثانية عشرة) المسلمون وغيرهم الذين لهم املاك في البلغار ويريدون السكنى

خارجاً عنها يبقون متمتعين باملاكهم فيمكنهم والحالة هذه ايجارها الى غيرهم وادارتها بمعرفة من ينتخبونهُ وتشكل لجنة مؤلفة من الترك والبلغاريين لتسوية جميع المسائل المتعلقة بكيفيَّة نقل وتشغيل املاك الوقف لحساب الباب العالي والمسائل المتعلقة بالذين لهم مصالح فيها وهذه التسوية تكون في ظرف سنتين ثم ان البلغاريين الذين يسافرون يسكنون في باقي اطراف الممالك العثمانية يكونون تحت الاحكام والقوانين العثمانية

(المادة الثالثة عشرة) تشكل على جنوب البلقان ولاية تحت اسم « ولاية الروم ايلي الشرقيَّة » وتكون تحت تابعيَّة الحضرة السلطانيَّة تابعيَّة سياسيَّة وعسكريَّة بشرط ان تكون مشمولة باستقلاليَّة ادارتها ويكون واليها نصرانيًّا

(المادة الرابعة عشرة) حدود « ولاية الروم ايلي الشرقيَّة » تكون متصلة بحدود البلغار من جهتي الشمال والشمال الغربي والولاية المذكورة تكون عبارة عن الاراضي الكائنة ضمن الدائرة الآتي ذكرها « فحد هذه الولاية يبتدىء من البحر الاسود ويسير على النهر الواقع في جوار القرى المسماة هوجه كوى وسلام كوى وايواجق وقوليه وصوجيلق » الى جهة فوق محاذياً لوادي « دلي قامجق » ويمر من فوق « چكنه » مقدار مسافة كيلومتر ٢ ونصف تقريباً ويتصل بجنوب قراء « بلبيه » و « كمحالق » ثم يصعد الى التل الكائن فيما بين « تيكنلك » و « ايدوس بره سا » ويمر من بلقان « قرين اباد » و « بره زوبجه » و « قزغان» حتى يصل الى « تيمورقبو » بالجهة الشماليَّة من « قوتل » وبعدها يدور جميع سلسلة البلقان الكبير وينتهي الى تل «قوزيقه» وفي هذه النقطة اعني من ذروة البلقان الكائن على غربي حدود الروم ايلي ينزل الى جهة الجنوب مارًّا من بين قرية بيتروب التي تركت للبلغاريين قرية دوزانس الباقية في الروم ايلي ويصل الى نهر « طوزلي دره » ويسير مع النهر الى مجمعهِ مع نهر طوبولينقا وكذلك يمر مع هذا النهر الى مجمعهِ مع نهر « سموسقيور » في جوار قرية « بتريسووا » وعلى هذا يترك لروم ايلي الشرقيَّة في شطوط مجاري هاتهِ الانهر محلاً مقدار كيلو مترو ٢ ثم يتبع الخطوط الفاصلة للمياه المذكورة ويسير الى جهة فوق على طول انهر «سموو سقبور » و «قامنيقا» ويلتفت الى الجنوب الغربي في تل « ووانجاق » ويصل الى المحل المبين في خريطة اركان حرب دولة اوستريا عدد ٨٧٥ ثم يقطع على خط عمودي مجرى نهر « ايجان دره » من الاعلى ويمر من بين « بوغدينا » و « قارولا » حتى يصل الى الخط الفاصل الكائن فيما بين نهري « اسقر » و « ماريقا » ويسير على طول الخط الموضح في الخريطة المذكورة تحت رقم ٥٣٠

من تلال « وولينا موجيلا » و « جمابليقا » و « روه سومناتيقا » ويجتمع بحدود لواء صوفيه فيما بين « سيوري طاش » و « قادر تبه » فعلى هذا تفرق حدود الروم ايلي والبلغار من جبل « قادر تبه » ثم الخط الفاصل المذكور يمر الى قدام من بين انهر ماريقا وتوابعه وبين انهر « مستاقره صو » واتباعه تابعاً استقامة الخطوط الفاصلة لهذه المياه ويتوجه الى جهتي الجنوب الشرقي والجنوب مارًّا من تلال جبل « دسبوط » الى صوب جبل « كروشووا » وهذا الجبل كان مبدأ الحدد ٱلَّتِي عينتها معاهدة اياسطفانوس ثم الخط المذكور يتبع الخط المعين في المعاهدة المذكورة اعني انهُ يبتدئ من هذا الجبل ويمر على سلسلة « قره بلقان » من تلال « قولا قلي طاغ واشك جبلي وقره قولاس » وايشيقلر ويسير جهة الجنوب الشرقي حتى ينتهي الى نهر « واردا » ويسير مع هذا النهر على طولهِ حتى يصل الى قرية « اطه قلعه » وتبقى هذه القرية في سلطة الدولة العليَّة ومن هنا يصعد ذروة جبل « بش تبه » ثم ينزل ويمر من جسر « مصطفى باشا » ويتجاوز نهر المريج من جهة فوق بمسافة خمسة كيلومتر ثم يتوجه الى جهة الشمال مع بين الانهر الصغار ٱلَّتِي تصب في نهري « خانلي دره » و « مريج » ويسير على خط مقسم المياه الى المحل المسمى « كودلربايري » ومن هنا يلتفت الى جهة الشرق ويمتد الى « صقار بايري » ومنهُ الى وادي « طونجه » والى « بيوك دربند » ويترك « بيوك دربند » «و صوجاق» الى جهة الشمال ثم يسير من بين الانهر التي تصب في نهر طونجه من جهة الشمال وفي نهر المريج من جهة الجنوب على خط مقسم المياه ويصعد الى تل « قبيلر » وتبقى قبيلر في الروم ايلي الشرقيَّة ثم يلتفت الى جهة الجنوب ويمر من بين المياه الكائنة فيما بين نهر المريج من جهة الجنوب وبين قريتي « بلورن » و « التلى » ٱلَّتِي تصب في البحر الاسود ويصل الى جنوب قرية « المالي » ويدور تلال « ووسنه » و « زواق » من شمال المحل المسمى « قراكلق » ويسير مع الخط الفاصل فيما بين نهري « دوكه » و « قره اغاج » حتى يتصل بالبحر الاسود

(المادة الخامسة عشرة) يكون للحضرة السلطانيَّة حق في ان تباشر محافظة الحدود البريَّة والبحريَّة وذلك بان تبني في تلك الحدود استحكامات وتقيم فيها عساكر ولتأمين الراحة العموميَّة في ولاية « الروم ايلي » الشرقيَّة يشكل فيها ضبطيَّة وعساكر داخليَّة ومذاهب الاهالي الذين تؤلف منهم هذه العساكر والضبطيَّة تكون مرعيَّة ويكون تعيين ضباطهم من طرف الحضرة السلطانيَّة وقد تعهدت الحضرة السلطانيَّة بان لا توظف في

حصون الحدود عساكر غير نظامية كالباشي بوزق والجراكسة وفي جميع الاحوال لا يسوغ للعساكر النظامية المذكورة ان تتعدى على الاهالي وعند مرورهم في الولاية (لاستقرارهم في الاستحكامات) لا يسوغ لهم الاقامة فيها

(المادة السادسة عشرة) يكون للوالي حق في ان يستدعي العساكر العثمانية اذا حصل ما يخل بالراحة الداخلية والخارجية فاذا وقع ما يوجب ذلك يخبر الباب العالي نواب الدول بالاستانة عن قراره وعن السبب الذي احوجهُ اليهِ

(المادة السابعة عشرة) يكون تعيين والي «ولاية الروم ايلي الشرقية» مدة خمس سنين من طرف الباب العالي باتفاق الدول

(المادة الثامنة عشرة) بمجرد مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة تشكل لجنة اوربياوية للنظر في تراتيب ادارة «ولاية الروم ايلي الشرقية» بالاتفاق مع الباب العالي ومن خصائصها ان تبين في ظرف ثلاثة اشهر وظيفة مأمورية الوالي وما لهُ من الاستطاعة وترتيب الولاية الادارية والنظامية والمالية ويكون ابتداء اشغالها تنظيم اختلاف احكام الولايات وما حصل عليهِ المذاكرة في الجلسة الثامنة من المؤتمر الذي عقد في الاستانة وبعد ان يحصل القرار على جميع المصالح المتعلقة بالولاية المذكورة يصدر فرمان من طرف الحضرة السلطانية فيبلغهُ الباب العالي الى الدول

(المادة التاسعة عشرة) يناط بعهدة اللجنة الاوربياوية المذكورة بالاتفاق مع الباب العالي ادارة المالية في الولاية الى ان تنجز القوانين الجديدة المراد وضعها

(المادة العشرون) جميع المعاهدات والاتفاقات والمعاملات التي جرى تداولها بين الباب العالي والدول الاجنبية او التي ستعقد فيما بعد يكون معمولاً بها في «ولاية الروم ايلي الشرقية» كما هو جارٍ في سائر السلطنة العثمانية وجميع الامتيازات والخصائص التي حازتها الاجانب على اختلاف وظيفتهم ومصلحتهم تبقى محترمة في الولاية المذكورة وقد تعهد الباب العالي بان جميع احكام السلطنة هناك فيما يخص المذاهب المختلفة يكون معمولاً بها ومرعية الاجراء

(المادة الحادية والعشرون) تبقى حقوق الباب العالي وتعهداتهِ فيما يتعلق بسكك الحديد في الروم ايلي الشرقية معمولاً بها ومرعية الاجراء

(المادة الثانية والعشرون) تكون قوة الروسية في البلغار وفي «ولاية الروم ايلي الشرقية» مؤلفة من ست فرق من المشاة وفرقتين من الخيالة وجميع ذلك لا يزيد على

٥٠٠٠٠ نفر وتكون مصاريفهم على الولايات التي يتبوأونها وتبقى علاقتهم ومواصلتهم مع الروسيا بواسطة رومانيا بحسب الاتفاق الذي يحصل بين الحكومتين المذكورتين وفضلاً عن ذلك تكون بواسطة مراسي البحر الاسود مثل وارنه وبورغاس حتى يمكن لهم ان يتخذوا هناك مخازن للوازمهم مدة اقامتهم وتقرر ايضاً ان اقامة العساكر الامبراطوريّة في « ولاية الروم ايلي الشرقيّة » والبلغار تكون مدة تسعة اشهر اعتبارًا من يوم مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة وقد تعهدت دولة الروسيّة الامبراطوريّة انهُ قبل انقضاء هذه المدة تمنع مرور عساكرها من رومانيا فتخلو منهم امارة البلغار

(المادة الثالثة والعشرون) قد تعهد الباب العالي بان يجري في جزيرة كريد النظامات الَّتي تقررت فيها في سنة ١٨٦٨ والتعديلات الَّتي يرى من العدل اجراؤها وكذلك يجري في بقية الولايات نظامات وقوانين على ما تقتضيهِ المصالح الداخليَّة كما في كريد مما لم ينص عليهِ في هذه المعاهدة نصًّا خصوصيًّا الَّا فيما يتعلق بالغاء الضرائب كما هو جارٍ الآن في كريد ويشكل من طرف الباب العالي لجنات مخصوصة يكون اكثر اعضائها من الاهالي للنظر في متعلقات النظامات اللازم اجراؤها في كل ولاية ثم تعرضها على الباب العالي للتروي فيها وقبل ان يعمل بها وتجعل دستورًا للعمل يلزم الباب العالي ان يستشير اللجنة الاورباويَّة المنعقدة للنظر في احوال الروم ايلي الشرقيَّة

(المادة الرابعة والعشرون) اذا فرض انهُ لم يقع اتفاق بين الباب العالي ودولة اليونان فيما يتعلق بتعديل الحدود كما تقرر في المادة ١٣ من مضبطة مؤتمر برلين فدول جرمانيا واوستريا هنكاريا وفرنسا وبريطانيا العظمى وايطاليا والروسيَّة تحفظ لنفسها عرض التوسط بين الفريقين تسهيلاً للمذاكرات

(المادة الخامسة والعشرون) تتبوأ عساكر اوستريا وهنكاريا ولايتي بوسنه وهرسك ويناط بها ايضاً امر ادارتهما وحيث انها لا تريد ان تتولى ادارة سنجيقة يكي بازار الممتدة بين الصرب والجبل الاسود على الخط الجنوبي الشرقي ما وراء ميتروونسه فالادارة العثمانيَّة تبقى معمولاً بها هناك وحيث ان المراد اقرار الاحوال السياسية الجديدة وحرية المواصلات وتأمينها فدولة اوستريا وهنكاريا تحفظ لنفسها الحق بأن يكون لها قشل وطرق تجاريَّة وعسكريَّة في جميع الجهات المذكورة ولهذهِ الغاية تحفظ لنفسها هي والدولة العثمانية ان تتفقا على المواد المتعلقة بهذه المسألة

(المادة السادسة والعشرون) قد اعترف الباب العالي استقلال الجبل الاسود

وكذلك اعترفتهُ بقيَّة الدول الموقعين على هذه المعاهدة الذين لم يعترفوهُ سابقاً

(المادة السابعة والعشرون) اتفق الموقعون على هذه المعاهدة على ان استقلال الجبل الاسود يكون مربوطاً بالمواد الآتية وهي « لا يسوغ التمييز في الاعتقادات الدينيَّة في الجبل فلا يخرج احداً من الاهلية والجدارة لجميع ما يتعلق بتمتعهِ بالحقوق المدنيَّة والسياسيَّة او بدخولهِ في الوظائف الميرية او العموميَّة او نوالهِ الشرف او استعمالهِ الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقرهُ فلجميع الاهالي التابعين للجبل الاسود وللاجانب ايضاً الحريَّة التامة في جميع المتعلقات المذهبيَّة ولا يسوغ اتخاذ مانع ما في ترتيب درجات ارباب المذاهب المختلفة او في علاقتهم مع رؤَسائهم الروحانيين »

(المادة الثامنة والعشرون) قد صار تعيين حدود الجبل الاسود كما سيأتي وهي انها تبتدئُ من « ايلينو برودو » وتسير الى شمال « قلوبوق » وتمر من فوق « تره بنيجه » وتصل بمحل « غرانقارو » وتبقى غرانقارو ضمن لواء هرسك ومنها يصعد الخط الفاصل الى جهة فوق من نهر غرانقارو ويصل الى محل يبعد عن النهر الذي يصب في « سيباقه » مقدار كيلو متر فقط ومن هنا يسير على اقصر طريق ويصعد الى التلال الَّتي في جوار « تره بنيجه » ثم يذهب الى « بيلاتوه » ويترك هذه القرية للجبل يسير من التلال الى جهة الشمال وعلى قدر الامكان يمر بعيداً عن طريق « بيلكه » و « قوريتو » و « غاجقه » مقدار ٦ كيلومتر ويصل الى الطريق الكائنة فيما بين « سوينا بلانينا » وجبل قوريله ومنها عن جهة الشرق يمتد الى جبل اورلين ويترك قرية « وارنقوبجي » لهرسك ثم يمتد من الشمال الشرقي ويدع « روانه » داخل الجبل ويمر من تلال « لبرسليك » و « ولجاق » ويسير من اقصر طريق وينزل الى نهر « بيوه » ويتجاوز هذا النهر ويصل الى « تاره » الكائنة بين « فرقويقه » وبين « وندوينه » ومن تارة يصعد الى « موجقواق » ويتصل بمحل « سقوج زرو » ومن هنا الى قرية « صوقولار » ويجتمع بالحدود القديمة ثم يمر الى تلال مقرا بلانينا وتبقى قرية مقرا داخل الجبل ويمر ايضاً من السلسلة الاصليَّة الى الطريق المذكور في خريطة اركان حرب اوستريا تحت رقم ٢١٦٦ ومن فوق مقسم المياه الواقع بين « ليم » و « درين » وبين « سيونه زم » ثم يتصل بالحدود الجديدة بعد مروره فيما بين قبيلة « قاجي دره قالوبجي وبين قوسقار جنه » و « قلامنتي » و « غرودي » وبعد ذلك ينزل الى صحراء بودغوريجه ويترك قبائل قوسقارجنه وقلامنتي وغرودي وهوتي لبلاد الارناؤوط ويتصل « بيلاونيقه » ومن هنا يمر من جوار جزيرة « غوريقه طوبال »

ويتجاوز ماء اشقودره ويسير رأساً من « غوريقه » طوبول الى التلال ويمر من مقسم المياه الكائن فيما بين « مغورد » و « قاليمد » مع خط المقسم المذكور ويترك « ميرقويق » داخل الجبل وينتهي الى بحر ونديك (فينيسيا) عند قرية « فروجي » ثم يلتفت الى الشمال الغربي ويمر في الساحل من بين قرى « سوسانه » و « زويسى » ويتصل بمنتهى الحدود الجديدة في جهة الجنوب الشرقي فوق « ورسوته بلانينا »

(المادة التاسعة والعشرون) انضمام انتواري (باري) وشطوط البحر التي تخصها الى الجبل الاسود مشروط على الصورة الآتية وهي ان يعاد على الدولة العثمانية الاراضي الكائنة على جنوب تلك الجهة الى بويانا من ضمنها دولسنجو ويضم الى دلماتيا مرسى سبزا والاراضي المتعلقة بها الى غاية حدودها الجنوبية كما هي مبينة بالتفصيل في الخريطة ويكون للجبل الحرية المطلقة التامة للسفر في نهر بويانه ولكن لا يسوغ لهُ ان يبني على النهر حصوناً او استحكامات الّا ما لزم للمحافظة على اشقودرة خاصةً فتكون تلك الحصون والحالة هذه غير خارجة عن دائرة مسافتها حول المدينة المذكورة بستة كيلومتر (٦٠٠٠ متر او نحو عشرة اميال) ولا يكون لهُ بواخر حربية ولا راية ولا يسوغ لاي دولة كانت ان تدخل بواخرها الحربية الى مرسى انتواري اما الحصون الكائنة في ارض الجبل بين النهر وشط البحر فتهدم بالكلية ولا يسوغ اعادة بنائها ويفوض لعهدة اوستريا وهنكاريا ادارة البحرية والصحية في انتواري وفي شطوط الجبل وعلى الجبل ان يستعمل القوانين والاصطلاحات البحرية على موجب القوانين والاصطلاحات الجارية في دلماتيا (باوستريا) وقد تعهدت اوستريا وهنكاريا بان تحمي بواخر الجبل الاسود التجارية ويلزم للجبل ان يتفق مع اوستريا وهنكاريا على مد سكك الحديد وانشاء طرق عادية في الاراضي التي دخلت حديثاً في حوزتهِ وعلى تأمين حرية المواصلة عليها

(المادة الثلاثون) المسلمون وغيرهم الذين يملكون عقارات في الاراضي التي انضمت الى الجبل الاسود ويريدون ان يستوطنوا خارجاً عن الامارة لهم حق بان يبقوا مالكين عقاراتهم بايجارها او تشغيلها بواسطة من يختارونهُ وتشكل لجنة مؤلفة من مأمورين من العثمانيين واهل الجبل الاسود لتسوية المسائل التي تتعلق بكيفية نقل الاملاك او حرثها او ادارتها سواء هي من املاك الوقف او الاملاك الميرية التي للباب العالي فتجري تسوية جميع متعلقات الذين لهم مصلحة فيها وهذه التسوية تكون في ظرف ثلاث سنين

(المادة الحادية والثلاثون) على امارة الجبل الاسود ان تتفق مع الباب العالي على

ما يتعلق بتعيين وكلاء من طرفها في الاستانة او في جهات اخرى من السلطنة العثمانية مما يرى لازماً اما اهل الجبل المقيمون في السلطنة العثمانية او المسافرون فيها فيكونون تحت احكام الدولة العثمانية على حسب الاصول المقررة بين الدول وعلى حسب العوائد المقررة مع الجبل

(المادة الثانية والثلاثون) يلزم ان عساكر الجبل الاسود تخلي الاراضي ألَّتِي هم الآن مستولون عليها مما لم يدخل في حدود امارة الجبل الجديدة وذلك في ظرف عشرين يوماً اعتباراً من يوم التوقيع على هذه المعاهدة او اقل من هذه المدة اذا امكن كذلك يلزم للعساكر السلطانيَّة ان تخلي في المدة المذكورة الاراضي التي دخلت الان في حوزة الجبل

(المادة الثالثة والثلاثون) حيث انهُ يلزم الجبل الاسود ان يتحمل جانباً من الديون العثمانيَّة العمومية في مقابلة الاراضي الجديدة ألَّتِي دخلت في حوزتهِ بموجب شروط الصلح تعين نواب الدول الاجنبيَّة في الاستانة هذا المبلغ بالاتفاق مع الباب العالي على اصول عادلة

(المادة الرابعة والثلاثون) لما كان الموقعون على هذه المعاهدة معترفين استقلالية امارة الصرب ربطتها بالشروط المحررة في المادة الآتية

(المادة الخامسة والثلاثون) لا يسوغ التمييز في الاعتقادات الدينية في الصرب ضد احد حتى يخرجهُ من الاهلية والجدارة لجميع ما يتعلق بتمتعهِ بالحقوق المدنيَّة والسياسيَّة او بدخولهِ في الوظائف الميريَّة او العموميَّة او نوالهِ الشرف او استعمالهِ الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقرهُ فلجميع الاهالي التابعين للصرب والاجانب ايضاً الحرية التامة في جميع المتعلقات المذهبيَّة ولا يسوغ اتخاذ مانع ما في ترتيب درجات ارباب المذاهب المختلفة او في علاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين

المادة السادسة والثلاثون) امارة الصرب تكون مالكة للاراضي الموجودة في ضمن الحدود الآتي ذكرها وهي ان الخط الفاصل يمر على طول الخط الحالي ومن مصب نهر « درينا » في نهر صاوا ويذهب مع المجرى ويترك « ازرونيق وزخار » للامارة ولا يترك الخط المذكور اعني الحدود القديمة الى « قابونيق » ثم يفترق في ذروة جبل قابونيق عن الخط المذكور ويسير من جنوب الجبل على طول حدود نيش الشرقيَّة ويمر من تلال « ماريقا وماردار بلانينا » وهذه التلال هي الخط الفاصل بين انهر « ايلبار وسينيقا

وطوبليقا » وعلى هذا تبقى « بره بولاد » للدولة العليَّة وبعدهُ يسلك خط مقسم المياه الى جهة الجنوب من بين « برونيقا » ومدودجا ويترك وادي مدودجا كلهُ للصرب ويصعد الى تل « قولجاق بلانينا » ويكون هو الخط الفاصل فيما بين الانهر المسماة « بولجنيقا وترنيقا وموروا » ويصل الى تل « بولجنيقا » ثم يذهب من تجاه «قاينابلانينا» الى مجمع انهر « قوانسقا ومورواه » ويتجاوزهُ ويسير على الخط الفاصل فيما بين مياه النهر الذي يختلط بنهرمورواه في جوار « قوانسقا ونرهدوس» ويتصل « بولانينا ايليجه » فوق « ترغويست » ومن هنا اعني من ذروة جبل ايليجه يمتد الى ذروة جبل « قلتروق » ويمر من المحلات المدروجة في الخريطة تحت عدد ١٥١٦ و١٥٤٧ ومن « باينا غورا » وينتهي الى جبل « قرني وره » ثم يبتدئ من هذا الجبل ويجتمع بحدود البلغار يعني يمر من تلال « استره سرو ويلوغلو ومسيد بلانينا » ويسير على خط مقسم المياه الواقع فيما بين استروما و « مورواه » وينتهي الى المحلات المدعوة «غاسينا وقرنه تراوه ودارقوسقوه ودراينيقه بلان » وبعدها يمر من فوق « دشاني قلادنق » ومن اعلى مقسم مياه « صوقوه ومورواه » ويذهب رأساً الى « استول » ومن هنا ينزل الى قرية « سفوزه » من جهة شمالها الغربي ويقطع طريق « بيروت » بمسافة مقدار الف كيلومتر عن صوفية ويصعد على خط مستقيم الى « ويدليق بلانينا » ويمر من جبل « رادوچينا » الواقع في سلسلة البلقان الكبير ويترك قرية « دوقنجي» لامارة الصرب وقرية « سناقوس » الى البلغارستان ثم يسير من ذروة هذا الجبل الى جهة الشمال الغربي ويمر من بلقان «سيروق » ومن « استارا بلانينا » ويصعد الى تلال البلقان وفي جوار « قولا اسميلجوه قوقا » يتصل بحدود الصرب الشرقيَّة القديمة ويسير على هذه الحدود الى نهر الطونة وينتهي عند النهر في « رافويجه »

(المادة السابعة والثلاثون) لا يغير شيء في الصرب من الشروط الحاليَّة فيما يخص العلاقات التجاريَّة الكائنة بين الممالك الاجنبيَّة وبين امارة الصرب الى ان يجري بدلها اتفاقات جديدة ولا يسوغ ان يؤخذ على البضائع ألَّتي تمر في الصرب مرسلة الى جهة أُخرى شيء من العوائد او الرسومات اما المزايا والامتيازات الشاملة الآن رعايا الدول الاجنبيَّة في الصرب وحقوق الاحكام وحماية القناصل لرعاياهم على الاصول المعمول بها الآن فتبقى مرعيَّة الاجراء الى ان يحصل اتفاق بين امارة الصرب والدول الاجنبية على تعديلها

(المادة الثامنة والثلاثون) التعهدات ٱلَّتِي تعهد بها الباب العالي مع دولة اوستريا وهنكاريا او مع شركة سكة الحديد في الروم ايلي او فيما يتعلق باتمام السكك الحديديَّة وتشغيلها في الاراضي ٱلَّتِي دخلت في حوزة الصرب تبقى مرعية الاجراء عند امارة الصرب وعند التوقيع على هذه المعاهدة يجري اتفاق بين دولة اوستريا وهنكاريا والباب العالي والصرب وامارة البلغار على قدر ما يخصها لتسوية هذه المسائل

(المادة التاسعة والثلاثون) المسلمون الذين يملكون عقارات في الاراضي ٱلَّتِي انضمت الى الصرب ويريدون ان يستوطنوا خارجًا عن الامارة لهم الحريَّة بأن يبقوا مالكين عقاراتهم بمؤاجرتها او تشغيلها بواسطة من يختارونهُ وستتشكل لجنة مؤلفة من مأمورين من العثمانيين والصربيين لاجل تسوية جميع المسائل ٱلَّتِي تتعلق بكيفية نقل وادارة الاملاك المتعلقة بالوقف او الاملاك الميريَّة ٱلَّتِي للباب العالي وكذلك تسوية جميع متعلقات الناس الذين لهم مصلحة فيها وهذه التسوية تكون في ظرف ثلاث سنين

(المادة الاربعون) تكون معاملة رعية الصرب القاطنين في السلطنة العثمانية او المسافرين فيها بحسب اصول الاحكام والقوانين المتداولة بين الدول الى ان تحصل معاهدة بين الدولة العثمانية والصرب

(المادة الحادية والاربعون) يلزم لعساكر الصرب اخلاء جميع الاماكن ٱلَّتِي لم تدخل في حوزة امارتهم في ظرف خمسة عشر يومًا اعتبارًا من يوم التوقيع على هذه المعاهدة كذلك يلزم للعساكر السلطانية ان تخلي في المدة المذكورة الاماكن التي دخلت في حوزة الامارة

(المادة الثانية والاربعون) حيث انهُ يتعين على الصرب حمل جانب من الديون العثمانيَّة العمومية في مقابلة الاراضي الجديدة ٱلَّتِي حازتها بموجب هذه المعاهدة فسفراء الدول الاجنبيَّة في الاستانة يعينون مبلغ قيمة الاراضي المذكورة على صورة عادلة بالاتفاق مع الباب العالي

(المادة الثالثة والاربعون) المتكان الموقعون على هذه المعاهدة معترفين استقلالية رومانيا ربطتها بالشرطين الآتيين

(المادة الرابعة والاربعون) لا يسوغ التمييز في الاعتقادات الدينيَّة في رومانيا ضد احد حتى يخرجهُ من الاهلية والجدارة لجميع ما يتعلق بتمتعهِ بالحقوق المدنية والسياسية بدخولهِ في الوظائف الميريَّة او العمومية او نواله الشرف او استعماله الصنائع والحرف

المختلفة كيفما كان مقرهُ فلجميع الاهالي التابعين لرومانيا والاجانب ايضاً الحريَّة التامة في جميع المتعلقات المذهبية ولا يسوغ اتخاذ مانع ما في ترتيب درجات ارباب المذاهب المختلفة او في علاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين فتكون معاملة رعايا جميع الدول سواءٌ كانوا من التجار او غيرهم في رومانيا بدون تمييز في المذهب على قدم مساواة تامة

(المادة الخامسة والاربعون) امارة رومانيا تعيد على حضرة امبراطور الروسية اراضي بيسارابيا ٱلَّتي كانت انفصلت من الروسية بموجب معاهدة باريس ٱلَّتي امضيت في سنة ١٨٥٦ وحدودها في الجهات الغربية من مجرى نهر البروث وفي الجنوب من نهر « كيليا » وفم « ستارى استانبول »

(المادة السادسة والاربعون) يضم الى رومانيا الجزر الثلاثة ٱلَّتي على الطونة وجزر «يلان طاغ » وسنجقية طولجي وهي تشمل قضاآت كيليا وسولينا ومحموديَّة وزانجه وطولجي وماجين وبابا طاغ وهرسوا وكوستنجه ومجيديَّة وما عدا ذلك يعطى لها ايضاً الاراضي الكائنة على جنوب الدبروجه الى ان تصل الى خط يبتدى‌ء من شرق سيليستريا ويمتد الى البحر الاسود على جنوب منغاليه ويكون تعيين تخوم تلك الحدود في تلك المواقع بمعرفة اللجنة الاورباويَّة المنوط بعهدتها تعيين حدود البلغار

(المادة السابعة والاربعون) مسأَلة تقسيم المياه والصيادة تعرض على لجنة الطونة الاورباويَّة فتكون حكماً عليها

(المادة الثامنة والاربعون) لا يجوز وضع رسومات او عوائد في رومانيا على السلع ٱلَّتي ترد اليها بقصد ارسالها الى جهة اخرى

(المادة التاسعة والاربعون) يسوغ لرومانيا ان تعقد مع الدول الاجنبيَّة اتفاقاً لتسوية مسأَلة امتيازات ووظائف قناصلهم فيما يتعلق بحماية رعاياهم في الامارة الَّا ان الحقوق الحاليَّة تبقى مرعيَّة الاجراء ما دام لم يحصل اتفاق عمومي بين الامارة والدول

(المادة الخمسون) تبقى رعيَّة رومانيا القاطنون في الممالك العثمانيَّة او المسافرون فيها او رعايا العثمانيين المسافرون في رومانيا او القاطنون فيها متمتعين بالحقوق ٱلَّتي تشمل رعايا بقية الدول الاورباوية الى ان تعقد معاهدة لتسوية امتيازات القناصل ووظائفهم بين الدولة العثمانية ورومانيا

(المادة الحادية والخمسون) تعهدات الباب العالي ووظائفه فيما يتعلق باتمام الاشغال النافعة وما اشبهها في الاراضي ٱلَّتي دخلت في حوزة رومانيا تعود الى عهدة رومانيا

(المادة الثانية والخمسون) لاجل زيادة تأمين حريّة السفر في نهر الطونه الّتي اعترف انها من المصالح الاوروباويّة قرَّ رأي الموقعين على هذه المعاهدة بان جميع الحصون والاستحكامات الموجودة الآن على النهر من عند المحل لذي يقال لهُ « ابواب الحديد » الى فم النهر تهدم بالكلية فلا يسوغ بعد هذا بناء غيرها ولا يجوز سفر احدى البواخر الحربية على الطونة منحدر « ابواب الحديد » الاَّ البواخر الصغيرة المعينة لخدمة الضبطية في النهر وخدمة الكمارك ولكن يسوغ لبواخر الدول الموجودة في فم نهر الطونة لاجل الحراسة ان تسافر في النهر الى غاية « غلاتس »

(المادة الثالثة والخمسون) تبقى لجنة الطونة الاوروباويَّة مقررة في وظائفها ولرومانيا فيها نائب وتجري اعمال وظائفها الى « غلاتس » بحريّة تامة مستقلة عن مداخلة مأموري تلك الاراضي وتبقى ايضًا سائر معاهداتها واتفاقاتها واشغالها واعمالها وقراراتها فيما يتعلق بامتيازاتها وخصائصها ووظائفها ثابتة الاجراء

(المادة الرابعة والخمسون) قبل نهاية الاجل المقرر لبقاء لجنة الطونة الاوروباويَّة بسنة واحدة يلزم للدول ان يتفقوا على تطويل سلطتهم او على التعديلات الّتي يرون اجراءها من اللازم

(المادة الخامسة والخمسون) جميع النظامات المتعلقة بالسفر في النهر وبوظائف الضبطية فيهِ من « ابواب الحديد » الى « غلاتس » يكون ترتيبها وتنسيقها من طرف اللجنة الاوروباويّة بمساعدة نواب من طرف الممالك الكائنة بسواحل النهر ويصير تأليفها بالنظامات الموجودة او الّتي ستحدث في امور النهر اسفل من غلاتس

(المادة السادسة والخمسون) يلزم للجنة الطونة الاوروباويَّة ان تتفق مع الدول فيما يتعلق بتنوير الفنارات الكائنة على جزر « يلان طاغ »

(المادة السابعة والخمسون) قد فوض لاوستريا وهنكاريا الاشغال اللازم اجراؤها لازالة موانع السفر التي تحدث من « ابواب الحديد » والشلالات ويلزم على الممالك المجاورة النهر من الجهة المذكورة ان تجري جميع التسهيلات اللازمة لمصلحة تلك الاشغال اما المواد المقررة في المادة الرابعة من معاهدة لندرا الّتي امضيت في ١٣ مارس سنة ١٨٧١ فيما يتعلق باخذ ضرائب موقتة لسد مصاريف تلك الاعمال والاشغال فتبقى منوطة بدولة اوستريا وهنكاريا

(المادة الثامنة والخمسون) الباب العالي يسلم الى امبراطوريّة الروسية في اسيا

(الاناطول) اراضي اردهان وقارص وباطوم مع مرسى باطوم وجميع الاراضي الكائنة بين تخوم الروسية والتركية القديمة والتخوم الآتي بيانها وهي « الحدود الجديدة » تبتدئ من البحر الاسود على حسب الخط المقرر في معاهدة اياستفانوس الى نقطة في الجهة الشمالية الغربية من « خورده » وعلى جنوب « ارتوين » وتمتد على خط مستقيم الى نهر « جوروك » وبعد عبوره هذا النهر يسير شرقي « اشمشين » ويستمر على خط مستقيم في الجنوب وهناك يلاقي حدود الروسية المشروحة في المعاهدة المذكورة وذلك في نقطة على جنوب «ناريمان» مع بقاء مدينة « اولتي » في حوزة الروسية ثم يبتدئ الخط بالقرب من « ناريمان » الى الجهة الشرقية ويكون مروره من « تربنيق » وبعد دخول مدينة تربنيق في حوزة الروس يسير الى « بنك شاي » مجارياً نهره الى ان يصل الى « باردوز » وبعد دخول مدينة باردوز ويكي كوى في عهدة الروسية يؤخذ نقطة من غرب قرية « قره اونجان » تجعل الحدود عليها على خط الى ان يصل الى « مجنجرت » ومنها على خط مستقيم الى ان يصل الى تلال « قباداغ » فيستمر على خط مصب نهر « الاركس » في الشمال ومصب نهر « مرادصوى » في الجنوب الى ان يصل الى حدود الروسيا القديمة

(المادة التاسعة والخمسون) امبراطور الروسية يصرح هنا بان غاية مقصده ان يجعل باطوم مرسىً حرًّا (معنى حر ان تكون البضائع معفاة من جميع رسومات الدخول او الخروج)

(المادة الستون) تعيد الروسية على تركية اودية الشغراد ومدينة « بايزيد » اَلَّتِي سلمت للروسية بموجب المادة ١٩ من معاهدة اياسطفانوس وقد سلم الباب العالي الى مملكة ايران مدينة « قطور » واراضيها كما قرَّ عليهِ رأي اللجنة الانكليزيّة والروسيّة اَلَّتِي نيط بعهدتها تعيين تخوم تركية وايران

(المادة الحادية والستون) الباب العالي يتعهد بان يجري بدون تأخير في الولايات اَلَّتِي سكانها من الارمن سائر الاصلاحات والتحسينات اَلَّتِي تحتاج اليها امورها الداخليَّة وان يتعهد بتأمينهم من تعدي الجراكسة والاكراد عليهم ويفيد الدول الاجنبية المرة بعد المرة التشبثات اَلَّتِي اتخذها لهذه الغاية وهي تراقب كيفية اجرائها

(المادة الثانية والستون) حيث ان الباب العالي اظهر رغبتهُ في ابقاء اصول حرية الديانة وتوسيع مداها توسيعاً مطلقاً فان الموقعين على هذه المعاهدة ينزلون هذه الرغبة منزلة الفعل فلا يسوغ التمييز في الاعتقادات الدينية في جميع اطراف السلطنة العثمانية

حتى يخرج احدًا عن الاهليَّة والجدارة بجميع مايتعلق بتمتعهِ بالحقوق المدنيَّة والسياسيَّة او بدخولهِ في الوظائف الميريَّة او العموميَّة او نوالهِ الشرف او استعمالهِ الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقرهُ ويؤذن لجميع الناس بان يؤدوا الشهادة في جميع المحاكم بدون تمييز احد في الدين واستعمال سائر الامور الدينيَّة يكون بحريَّة فلا يكون مانع ما لترتيب درجات ارباب المذاهب المختلفة او لعلاقتهم مع رؤسائهم ويكون الاكليروس (اصحاب الرتب الكنائسيَّة) والزوار والرهبان من جميع الامم الذين يسافرون في الممالك العثمانيَّة في الروم ايلي والاناطول حائزين حقوقًا واحدة وامتيازات وخصائص واحدة وفوض الى القناصل ونواب الدول الاجنبيَّة في تلك الممالك حق في حماية اولئك المذكورين وحماية محلاتهم الدينيَّة والخيريَّة حماية رسميَّة في الاماكن المقدسة او غيرها اما الحقوق المسلمة لفرنسا فلم تزل مرعية الاجراء وصار من المعلوم المقرر هنا انهُ لا يسوغ تبديل حال من الاحوال الحاضرة في الاماكن المقدسة اما زوار جبل اثوس من اي جنس كانوا فيبقون حافظين لاملاكهم وامتيازاتهم ومنحهم السابقة ويبقون متمتعين بمساواة تامة في الحقوق والمزايا

(المادة الثالثة والستون) تبقى معاهدة باريس اَلتي امضيت في ٣٠ مارس ١٨٥٦ ومعاهدة لندرة اَلتي امضيت في ١٣ مارس ١٨٧١ مرعية الاجراء وذلك فيما يتعلق بالمواد اَلتي لم تنسخها ولم تعد لها هذه المعاهدة

(المادة الرابعة والستون) يقع التصديق على هذه المعاهدة بعد ثلاثة اسابيع او اقل ان امكن وللشهادة بذلك اثبت الموقعون اسماءهم على هذه المعاهدة بعد ان وضعوا عليها اختامهم

تحريرًا في برلين في اليوم الثالث عشر من شهر يوليه (تموز) سنة ١٨٧٨

الامضـــــــــــاء

فون بسمارك	صالسبري	هايمول	شوفالوف
فون بولوى	اود روسل	وادنطون	دوبريل
هوهنلوه	كورتي	صان فاليه	قره تيودوري
اندرامي	لاوني	ديبريس	محمد علي
كارولي	غورجيقوف	بكنسفيلد	سعد الله

وعند الاخذ في العمل بمقتضى هذه المعاهدة طلبت الروسيا عقد معاهدة نهائية لتصحيح ما سلم من معاهدة صان استيفانوس لتخرج عساكرها من الاراضي العثمانيّة فاستقر الامر على معاهدة تعريبها

(المادة ١) يقع بعد هذا صلح ووداد بين السلطنتين

(المادة ٢) قد وقع الاتفاق بين الدولتين على ان تصرحا بان المواد ألَّتي تضمنتها معاهدة برلين ألَّتي صار اجراؤها بموجب توسط الدول السبع جرى العمل بها عوضاً عن شروط صلح معاهدة اياسطفانوس ألَّتي صار تعديلها او تبديلها في مؤتمر برلين

(المادة ٣) جميع مواد معاهدة اياسطفانوس ألَّتي لم يحصل تبديلها او تعديلها او الغاؤها في معاهدة برلين جرت تسويتها في المواد الآتية من هذه المعاهدة تسوية قطعيّة

(المادة ٤) بعد اسقاط قيمة الاراضي التي سلمتها تركية الى الروسية بموجب معاهدة برلين يبقى مبلغ الغرامة الحربيّة المتعين على الباب العالي اداؤه ٨٠٢ر٥٠٠ر٠٠٠ فرنك وكيفيّة اعطاء هذا المبلغ والضمان عليهِ تكون بالاتفاق بين دولة الحضرة العليّة السلطانيّة ودولة قيصر الروسية ما عدا ما صرح بهِ في المضبطة الحادية عشرة من معاهدة برلين فيما يتعلق بالغرامة الارضيّة والحقوق الاولوية المختصة بالذين لهم مطالب على الدولة العليّة

(المادة ٥) مطالب رعيّة الروسيّة القاطنين في تركية بصفة تعويض عن الضرر الذي حصل لهم في مدة الحرب الاخيرة تعطى عند رؤيتها وتسويتها بمعرفة سفارة الروسية بالاستانة واطلاع الباب العالي عليها وعلى كل حال لا يمكن ان تزيد على ٢٦ر٧٥٠ر٠٠٠ فرنك ويلزم تقديمها الى الباب العالي في ظرف سنة واحدة اعتبارًا من يوم مبادلة هذه المعاهدة المصدق عليها وبعد مضي سنتين لا يقبل الباب العالي شيئًا منها

(المادة ٦) يعين من طرف الباب العالي ومن طرف دولة الروسية مأموران مخصوصان لتسديد حساب تموين العساكر العثمانيّة الذين كانوا اسرى في الحرب الاخيرة وهذه المصاريف تعين الى يوم التوقيع على معاهدة برلين ويسقط منها المبلغ الذي صرفتهُ الدولة العثمانية على مؤونة الروس الذين كانوا اسرى عندها وبعد تسوية هذا الحساب يدفع الباب العالي المبلغ الى الروسية في احد وعشرين قسطاً متساوية يكون دفع آخر قسط منها في ظرف سبع سنين

(المادة ٧) سكان الاماكن التي الحقت بالروسية الذين يريدون الاقامة في غيرها يسوغ لهم الخروج منها بحرية تامة كما انهُ يسوغ لهم ايضًا بيع املاكهم وعقاراتهم « الغير المنقولة » ولاجل هذه الغاية تعطى لهم مهلة ثلاث سنين اعتبارًا من يوم التصديق على هذه المعاهدة فاذا انقضت هذه المدة ولم يخرجوا من الاماكن ولم يبيعوا عقاراتهم يصيرون رعية للروسية

(المادة ٨) قد تعهد الموقعون على هذه المعاهدة بان لا يعاقبوا او يسببوا معاقبة رعيَّة الدولتين الذين كان لهم علاقة او مشاركة مع عساكرها في الحرب الاخيرة واذا اراد احد من العثمانيين ان يتبع عساكر الروس عند خروجهم من ارض الدولة العلية فلا يسوغ لمأموري هذه الدولة ان يمنعوهم

(المادة ٩) منحت رعيَّة الدولة العثمانية الذين اشتركوا في الانقلاب الاخير الذي وقع في ولاياتها بالروم ايلي الامان والعفو التام بحيث ان كل من حبس منهم لهذا السبب او نفي او ابعد من بلادهِ يعفى عنهُ ويخول الحريَّة التامة

(المادة ١٠) جميع المعاهدات والاتفاقات والتعهدات التي كانت حاصلة بين الموقعين على هذه المعاهدة فيما يتعلق بالاحكام وحال رعيَّة الروسية القاطنين في تركية ثم الغيت بسبب الحرب الاخيرة تصير معمولاً بها كما كانت سابقًا فتبقى علاقة كل من الدولتين من جهة تعهداتها وعلاقتها التجاريَّة وغيرها على الحالة ألَّتي كانت عليها قبل الاعلان بالحرب ماعدا ما صرح بهِ في هذه المعاهدة او في معاهدة برلين

(المادة ١١) يتشبث الباب العالي بالوسائط الفعالة لتسوية جميع الدعاوي والمنازعات المختصة برعية الروسية الموقوفة منذ بعض سنين ويعطى لهم تعويض اذا اقتضتها الحال مع المبادرة الى انهاء جميع الدعاوي التي صدر بها لهم اعلامات وقرار من المجالس

(المادة ١٢) بعد التصديق على هذه المعاهدة يقع تبادلها في صان بطرسبرج في ظرف اسبوعين او اقل اذا امكن

تحريرًا بالاستانة العلية في ٨ شباط (فبراير) ١٨٧٩

فتلخص مما تقدم ان سائر الممالك العثمانيَّة هي آمنة للوارد عليها واحكام الدولة المعلنة بها لكل من حونهُ ممالكها شرعيَّة سياسيَّة منظمة ولها مجلس شورى ومجلس اعيان

ومجلس مبعوثان (نواب) وان اعترض الآن من القلاقل الخارجية ما اوجب تأخير اجتماع المجلسين الاخيرين لاتمام اجراء الاصلاحات حقيقة واما تعيين قواها البرية والبحرية والدخل والخرج فقد تقدم ذكره مع بقية الدول

﴿ الى هنا وقف بالمؤلف رحمه الله القلم * وبذلك اختتم هذا الكتاب وتم ﴾

تقاريظ

كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار

مكتوب

وارد من فخر العلماء والاشراف السيد علوي السقاف شيخ السادة بمكة المكرمة سابقاً حرسه الله

الحمد لله تعالى

حضرة العالم العلامة والحبر الفهامة الملاذ الافخم والماجد الهمام الاكرم مولانا الشيخ محمد بيرم ادام الله النفع به امين

بعد اداء تحيات عاطرة . واشواق متكاثرة . هو اني بعد ان تشرف ناظري بالمرور على جملة صالحة من تحريراتكم البديعة العالية المنار . وجدتها جديرة بما سميت به من صفوة الاعتبار . بمستودع الاقطار والامصار . اضاء بسياحتي فيها ناظري . وتنزه من الغموم بجولاني بها خاطري . كيف وهي خريدة غراء عربية الا انها غريبة في بلاد الروم . وعروس تجلت في منصتها الا انها لا يكافئها كل خاطب لها يروم . اشرقت فيها كواكب التدقيق . واضاءت في آفاقها شموس التحقيق . ابدعتم معانيها واحسنتم . واحكمتم مبانيها واتقنتم . فنشكر الله تعالى لكم حسن هذا الصنيع . واساله تعالى دوام النفع بكم لكل وضيع ورفيع . وها هي بيد الخادم عائدة اليكم . بمعية عريضتنا هذه النائبة عنا في لثم اياديكم . ودمتم . في عز كما رمتم

في ٢٩ ذي الحجة سنة ١٣٠٠

مستمد دعواتكم الصالحة

علوي بن احمد السقاف



ترجمة مكتوب

وارد عن لسان صاحب الحشمة ملك السويد والنورويج اوسكار الثاني من مدينة او بسالا
بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٨٨٩

حضرة السيد

بأمر من جلالة الملك اتشرف بأن اخبركم بورود تأليفكم الموسوم بصفوة الاعتبار الذي تفضلتم بتقديمهِ الى مقامهِ السامي بصفة كونهِ حامياً ورئيس شرفٍ للمؤتمر الثامن الدولي للمستشرقين وقد كلفني جلالتهُ بان ابلغ سيادتكم جزيل شكره على هذه الهديَّة النفيسة وتفضل يا حضرة السيد بقبول فائق اجلالي واحترامي رئيس الكتَّاب

دوسيلسنغ

واسم الكتاب مذكور في الصحيفة ٦٢ من فهرسة الكتب التي قدمت الى جلالة الملك المشار اليه بتلك المناسبة

ترجمة مكتوب وارد باللغة التركيَّة

من اكعب كتاب عصرهِ الوزير المرحوم سعدالله باشا سفير الدولة العلية في ويانه سابقًا
من مدينة ويانه بتاريخ ٤ مايس ١٨٨٨

فضيلتلو افندم حضرتلري

وصلت ليد الاعزاز نميقتكم الكريمة واني لفي غاية الابتهاج ممَّا تفضلتم باظهارهِ في حق هذا العاجز من آثار توجهاتكم الوداديَّة وارجوكم قبول عذري لتأخري عن المبادرة بالاجابة. هذا واني اتباهى بوقوفي بالخبر على ما كنت اسمعهُ بالخبر عن فضائل ذاتكم العالية وكمالاتكم المشهورة وانكم نحرير صاحب قلم اوقفتموهُ لخدمة الملة والمدنيَّة الاسلاميَّة واقبالها وترقيها وقد حفظت ذكرى ملاقاتنا التي تشرفت بها عند ما حضرتم الى اوربا لتبديل الهواء واهنيكم على توفيقكم لتحرير رحلتكم المسماة بصفوة الاعتبار المشحونة بالفوائد العميمة التي اتحفتموني بنسخة منها لطفاً منكم وتكرُّماً « نخير الناس من ينفع الناس » واني ارجو ان لا تنسوني من دوام توجهاتكم والامر لسيدي في كل حال

سعد الله

فهرست

﴿ الجزء الخامس مِنْ صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار ﴾

صحيفة

ترجمة

المرحوم السيد محمد بيرم الخامس

هو السيد مُحمَّد بن مصطفى بن مُحمَّد الثالث بن محمَّد الثاني بن مُحمَّد الاول بن حسين بن احمد بن مُحمَّد بن حسين بن بيرام حضر الى تونس قائدًا على احدى فرق الجيش العثماني عند فتحها مِن يد الاسبانيول على يد الصدر الاعظم سنان باشا سنة ٩٨١ هجريَّة وقد تزوج بيرام بنتاً من آل ابي عبد الله بن الابار القضاعي صاحب كتاب التكملة وإعتاب الكتاب وهو الذي ارسلهُ صاحب بلنسية زيان بن ابي الحملات الى صاحب افريقيَّة (تونس) ابي زكريا يحيى بن ابي حفص يستغيث بهِ لما حاصرهُ ملك برشلونة الاسبانيولي فانشدهُ قصيدتهُ المشهورة الّتي اولها

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا　　ان السبيل الى منجاتها درسا

وقد قدر الله ان الاسطول الذي ارسلهُ صاحب تونس لم يصل في الوقت المناسب لانجاد الاندلسيين فرجع ابن الابار لتونس حيث استوطن بها سنة ٦٣٥ وقد امهرها بيرام اربعة آلاف ريال هذا هو المنشأ الاصلي لهذه العائلة

وقد ولد السيد مُحمَّد بيرم بمدينة تونس في المحرم سنة ١٢٥٦ هجريَّة الموافق لمارس سنة ١٨٤٠ ميلاديَّة وامهُ بنت الفريق محمود خوجه وزير البحريَّة بالايالة التونسيَّة وامها بنت الغماد ذي الشرف المعروف ويتصل نسب آل بيرم

بالسادة الاشراف من جهات اخرى ايضاً اهمها جهة محمد بيرم الاول فان والدتهُ بنت السيدة الشريفة حسينة بنت مُحمَّد بن ابي القاسم بن محمَّد بن علي بن حسن الهندي الشريف وهذا السيد قدم الى تونس واجمعت عامتها وخاصتها على الاعتقاد بنسبهِ الطاهر والتبرك بهِ ونسلهُ فيها بركة اهل تونس الى الآن اما نسبهُ فيتصل الى الحسين السبط عليهِ السلام وقد تولى محمَّد بيرم الثاني نقابة الاشراف في حياة ابيهِ مضافة الى خطة القضاء التي كانت بيدهِ سنة ١٢٠٦ واستمرت النقابة في يد ولدهِ مُحمَّد بيرم الثالث وحفيدهِ محمَّد بيرم الرابع الى حين وفاتهِ سنة ١٢٧٨ كما ان رئاسة المفتيين الحنفيَّة المعبر عنها في تونس بمشيخة الاسلام استمرت في يدهم ويد ابيهم مُحمَّد بيرم الاول من ذي القعدة سنة ١١٨٦ الى ٤ جمادى الاولى سنة ١٢٧٨ اي احدى وتسعون سنة وستة اشهر ولم تنقطع الاَّ مدة قليلة بين وفاة بيرم الاول وولاية بيرم الثاني . وكان جميع آل بيرم منخرطين في سلك العلماء مفتخرين بخدمة العلم الاَّ القليل منهم فقد دخلوا في الخدمة العسكريَّة فاجتمع لهذه العائلة خدمة الدين من الطريقين طريق العلم وطريق الجهاد حتى ان احمد بيرم توفي بجراحة اصابتهُ في محاربة الجزايريين لمراد باي امير تونس اذ ذاك سنة ١١١٢ وكأن هذه الخدمة السياسيَّة اثرت في صاحب الترجمة مع قرابتهِ لوزير البحريَّة حينئذٍ فصار لهُ ميل كلي للتداخل في الامور الملكيَّة ومعرفة احوال الحكومة وقد كان جدهُ محمود خوجه رام ادخالهُ في الخدمة العسكريَّة لولا ممانعةِ عمهِ شيخ الاسلام بيرم الرابع فدخل صاحب الترجمة الى جامع الزيتونة وقرأ على مشايخ الوقت المعدودين ولم يمنعهُ ذلك عن اشتغال فكرهِ بما يهواه من

امور الادارة مع تباعد اهل العلم عادة عن كل ما هو خارج عن دائرة دروسهم وقد جرت عادة الكثير من العلماء والادباء بتونس ان يكون لكل واحد منهم سفر شبيه بالسفينة يسمونهُ "كناشا" يجمعون فيهِ ما يحلو لديهم جمعهُ من انشاآتهم او انشاآت غيرهم علميّة وادبيّة نظمًا ونثرًا متضمنة الفوائد المختلفة في فنون ومعانٍ شتى وقد خطى صاحب الترجمة على خطاهم وعمرهُ سبعة عشر سنة واول ما افتتح بهِ كتابهُ ما تجمع لديهِ من اوامر وقوانين وانظامات في شؤون الحكومة اصدرها اذ ذاك صهرهُ الامير محمَّد باشا وهذا يدل دلالة واضحة لا شبهة فيها على ميل صاحب الترجمة وتعلقهِ باحوال السياسة وقد كان في حال صباهُ يرى العربان يفدون على والدهِ وهو مشغول بالزراعة يتضجرون ويتوجعون مما يصيبهم من ظلم الحكام وتشديدهم في نهب الاموال بسائر الطرق الَّتي اخترعوها في ذلك الوقت مما هو مبسوط في الكلام عن سياسة تونس الداخليَّة في صفوة الاعتبار فاثر فيهِ نحيبهم وبكاؤهم فاوقف حياتهُ من ذلك العهد على الانتصار للرعايا وتخفيف الاستبداد عليهم والسعي وراء نشر القوانين وتأسيس المجالس النيابيَّة والميل بكل جوارحهِ للحريَّة مع ما جرت بهِ العادة من تباعد ذوي البيوتات عن مثل ذلك حتى لقد بلغ بهِ الولع بالحرية وحب المجالس الشورية ان تخالف رأيًا يومًا وهو صغير السن لا يتجاوز من العمر عشرين سنة مع ابيهِ وابن عمهِ عندما افتتح الامير الصادق باشا المجلس الاكبر واسس قوانين عهد الامان (كونستيتسيون) فكان صاحب الترجمة ينتصر لهذه المستحدثات ويتوسم فيها خيرًا للبلاد وذانك يخالفانهِ مع ان احدهما كان من جملة اعضاء المجلس لما غرس في اذهان اصحاب

البيوتات من التنحي عن مثل هذه المستحدثات التي لا تروق في اعين حكامهم وبعد وفاة عمهِ الشيخ بيرم الرابع ولاهُ الامير مشيخة المدرسة العنقيَّة في ٦ جمادى الاولى سنة ١٢٧٨ فباشر التدريس فيها ومن عادة علماء تونس من مشايخ المدارس ان يقرأوا فيها صحيح البخاري خصوصاً في الاشهر الثلاثة المكرمة واعتباراً من ١٥ رمضان يبتدئ كل واحد منهم بحسب الدور بختم ما قرأهُ وذلك بان يتلو الحديث الشريف الذي وقف عليه ويكتب عنهُ ما يعن لهُ من الشروح والتعليقات ويكون لذلك مجلس حافل يستمر من العصر الى قريب الغروب وتتوالى الاحتفالات المذكورة الى الليلة السابعة والعشرين من رمضان حيث يكون ختم جامع الزيتونة ودور المدرسة العنقيَّة في اليوم الخامس والعشرين منهُ وقد حضر الامير بنفسهِ ذلك الختم في تلك السنة تشجيعاً للشيخ الجديد وكان حديث الختم قوله عليهِ الصلاة والسلام " ان امتي يدعون يوم القيامة غرّاً محجلين فمن استطاع منكم ان يطيل غرتهُ فليفعل " وفي ٩ جمادى الثانية سنة ١٢٧٨ صار مدرساً في جامع الزيتونة مِنَ الطبقة الثانية وفي ١٥ رجب سنة ١٢٨٤ رقي مدرساً من الطبقة الاولى فاستمر مباشراً للتدريس مشغولاً بادارة املاكهِ وعقاراتهِ واموره الخصوصية وتوفي والده الى رحمة ربهِ في ١٤ جمادى الاولى سنة ١٢٨٠ وترك لهُ ثروة عظيمة وفي تلك الاثناء ظهرت الفتنة العموميَّة في الايالة التونسية متسببة عما كان يتوقعهُ ويخشاهُ من عاقبة ظلم الرعيَّة واستبداد الحكام وقبيل ذلك اقفلت المجالس الشوروية التي كان صاحب الترجمة يتولع بها ويهواها ولا يتوسم لخير المملكة سواها وكان ذلك اثر عليهِ تأثيراً شديداً حتى انهُ كاتب احد

اصدقائهِ من امراء المسلمين المقيمين باوربا بما نص محل الحاجة منهُ " فيا لها مِنْ حال . يرثي لها من رام النزال . وتخر لشدَّتها شامخات الجبال . الى ان قال فقد فاز من نهض بنفسهِ . واستراح من فتنة باطنهِ وحسهِ . اذ الآيات وردت على ذلك ناصة . فقال تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة . ففاز المخففون . وابتلى المتأهلون . ووالله العظيم . ونبيهِ الكريم . طالما نهضت عزائمي الى الترحال . فاثقلتني قيود العيال . مع ما انا عليهِ من الوحدة عن اخ شقيق . اوقريب يخلفني فيهم عند الضيق . ولم استطع التخلص بكلي . لما لا يخفى مما يثقل كلي . واقسم بالقرآن . وصفات الرحمن . انني عرضت للبيع املاكي . لاتخلص بها من اشراكي . واستعين منها بالاثمان . فلم اجد من يصرف لهذا الوجه اي عنان . ولو من اعيان الاعيان . الخ " (والمكتوب كلهُ منشور في الصحيفة ٣٦ من الجزء الثاني من صفوة الاعتبار) ومن ذلك الحين اشتد اتصالهُ بالوزير خير الدين باشا اذ كان هو رئيس المجلس الاكبر الذي الغي وكانت مناسبة الوصلة بينهما حبهما للحرية وتعميم الشورى في المملكة وهما كما لا يخفى القوَّتان الوحيدتان لحفظ استقلال البلاد من التلاشي ولذلك فانهُ لما تولى خير الدين باشا الوزارة الكبرى في تونس في رمضان سنة ١٢٩٠ كان صاحب الترجمة من اكبر انصارهِ ومحازبيهِ وتظاهر بذلك تظاهرًا كليًا حتى نشر في الرائد التونسي الذي هو جريدة الحكومة الرسميَّة مكتوبين اظهر فيهما انبساط الاهالي من تغيير الوزارة وبين غلط المنتصرين للحاكم السابق وانهم فئة قليلة لا تحب خير البلاد وكان بذلك اول تونسي جاهر بآرائهِ السياسيَّة في الجرائد تحت امضائهِ على ما اظن وزاد

على هذا التظاهر الادبي بان سعى في اعمال تظاهر مادّي وذلك بان اتفق مع علماء جامع الزيتونة على اقامة احتفالات في الجامع شكرًا لله على انقاذ البلاد من عهد الجور وادخالها في عصر الاطمئنان والرجوع لعهد الامان وحصل بالفعل ذلك الاحتفال واعقبهُ كثير مثلهُ في جهات الحاضرة وبقيَّة بلدان المملكة فكانت نهضة حقيقيَّة وطنيَّة صادرة عن اخلاص نيَّة حبًّا في الحريَّة واستقامة الاحكام ولما استقرَّ الوزير المشار اليهِ في المنصب ووجه عزيمتهُ لاصلاح الادارة رأى ان الاوقاف مشتتة قد استولت عليها ايدي الخراب والاطماع فرأى ان جمعها في ادارة واحدة يكفل حفظها ويجمع ريعها فيصرف في اوجههِ المشروعة وذلك على النحو الجاري في دار الخلافة السعيدة وقد رأى الوزير ان يعهد الى صاحب الترجمة امر هذه الادارة الجديدة لما يعهده فيهِ من معرفتهِ بالاحكام الشرعيَّة واطلاعهِ على المقتضيَّات الوقتيَّة فامتنع المرحوم اولاً من قبول اي وظيفة كانت لانهُ لم يكن يميل الى التقيد بشيءٍ مَّا يمنعهُ عن السعي وراء ضالتهِ المنشودة وهي الحريَّة للرعيَّة ودخولهُ في الوظائف يجعلهُ بلا ريب مقيدًا مع الوزير بالآداب الَّتي تقتضيها الوظيفة اما بقاؤه خارجًا عن دائرة الحكومة فيبقيهِ على حريتهِ الَّتي تمكّنهُ من تذكير الوزير بما عساه ينساه من تتميمهِ لما كان تعهد باجرائهِ هذا فضلاً عما كانت عليهِ سجيَّة صاحب الترجمة من الهمة واباءة النفس حتى كأَن جدّهُ حسين بيرم المتوفي سنة ١١٥٥ قد نظر اليهِ بظهر الغيب لمَّا ذيل البيتين الشهيرين

شيآن لو بكت الدماء عليهما عيناي حَتَّى تؤْذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الاحباب

بقوله

واشدّ من هذين ان يلقى الفتى ذل السؤال ووقفة الابواب

ومع ذلك فقد تغلب اصحابهُ عليهِ وقبل ادارة الاوقاف في ١٧ صفر سنة ١٢٩١ ولم ينفرد مع ذلك بامرها بل شارك معهُ مجلساً مؤلفاً من ثلاثة اعضاء احدهم من رجال الادارة والاثنان الآخران من اعيان الاهالي والتجار وجعل نظرهم في الاوقاف على قسمين الاول الاوقاف الاهليَّة اي الَّتي هي موقوفة على ذريَّة الواقف او قرابتهِ والثاني الاوقاف الَّتي على اعمال البر مثل الجوامع وقراءة القرآن وغير ذلك فاما نظرهم في الاول فهو مجرد نظر ارشاد واما القسم الثاني فنظرهم عليهِ نظر تصرف مطلق والمباشر للاعمال هو الرئيس بعد اخذ رأي الاعضاء عنها وقد جمع الاوقاف كل نوع منها لجهة واحدة بان ضم مثلاً جوامع الخطب كلها لجهة والمدارس كلها لجهة واوقاف القرآن لجهة وهكذا الى آخر انواع الموقوف عليهِ وجعل لكل قسم وكيلاً خاصاً يباشر العمل في ذلك تحت النظر الاصلي فيقبض الوكيل ويصرف في اقامة الشعائر وفي اصلاح الموقوف والموقوف عليهِ ولكنهُ لا يعمل شيئاً الاَّ بعد الاستئذان من رئيس المجلس وجميع حساباتهِ ترسم في دفترين مخصوصين بشهادة عدلين احد الدفترين للحسابات اليوميَّة والثاني للحسابات العموميَّة وانما جمع كل نوع من الاوقاف تحت نظر وكيل واحد لان الموقوف عليهِ مختلف الريع بعضهُ غني وبعضهُ فقير فاذا كانت ادارتها جميعاً متحدة فيصرف من دخل الغني على الفقير لانهما من نوع واحد وبذلك تيسرت سهولة الاصلاح ثم انهُ في آخر كل اسبوع يقدّم الوكلاء حساباتهم ويوردون

للخزينة العمومية كل ما زاد عندهم من الايراد على المصروفات الضرورية وهذه الخزينة لها ثلاثة مفاتيح اثنان منها يبقيان بطرف امين المال والثالث يحفظ عند الرئيس ولا تفتح الا بحضور الجميع ثم ان جميع اماكن الاوقاف لا يحصل تأجيرها الا بعد الاعلان والمزايدة علنًا بمحضر القاضي ثم ان اموال الاوقاف اول ما يقام منها الوقف والموقوف عليه حسب نص الواقف ويقدّم الاهم على المهم وجميع مداولات المجلس ودفاتر الايراد والصرف في الخزينة العمومية يمضيها جميع الاعضاء مع الرئيس يوميًا وكان يصرف من فواضل الاوقاف على الاوقاف التي لم يحضرها دخلها وذلك على وجه القرض ولما يحضر مالها تعيد ما استقرضته للخزينة العمومية ثم يدفع منها جميع مرتبات الحكام الشرعيين من قضاة ومفتيين في جميع المملكة والسادة الاشراف ويدفع منها مصروفات نظارة المعارف من موظفيها ومرتبات مدرسي جامع الزيتونة ومصروفات دواوين الشريعة المطهرة ومصروفات المجلس البلدي بحاضرة تونس واصلاح الطرقات وتنظيفها واقامة الجسور والقناطر ومصروفات المستشفى والمكتبة العمومية وغير ذلك من مصاريف بعض المهمات التي تحدث احيانًا وترجع الى مصلحة عمومية ان كان في الفواضل ما يوفي بها وبسبب اجراء قوانين الاوقاف حقيقة بدون محاباة تحسن حالها وزادت ايراداتها حتى بلغت في السنة الخامسة من وجود هذه الادارة مليونين ومائة وخمسين الف ريالاً ونيفًا وكانت في السنة الاولى مليونًا واحدًا ومائتي الف ريال ونيفًا زيادة على ما ظهر من الاوقاف التي كانت تلاشتها ايدي العدوان حتى بلغت الى مئات من قطع الاراضي والدكاكين والبيوت وآلاف من شجر

الزيتون كما هو مبسوط في العدد ١٨ من الرائد التونسي سنة ١٢٩٧ وظهرت اوجه من الموقوف عليهِ لم تكن في الحسبان كالوقف على تنوير الاماكن المظلمة في الليل والوقف على التقاط العقارب الى غير ذلك من اوجه البر. وقد التزم الرئيس ان يفرغ جهده لاصلاح هذه الادارة المستجدَّة وتدريب عمالها على العمل حسب المرغوب حتَّى التزم في اول الامر ان يباشر جميع الاعمال بنفسهِ جزئيَّة وكليَّة ليلاً ونهارًا واستمر على ذلك مدة طرأ عليهِ في اثنائها مرضٌ عصبي لم يفارقهُ الى ان قضى عليهِ وكان ابتداء المرض في صيف سنة ١٢٩٢ وبسبب هذا المرض عزم على السفر للتداوي في اوربا فسافر اليها في شوال سنة ١٢٩٢ وكان ذلك سببًا لكتابتهِ صفوة الاعتبار ولم تكن هذه الرحلة اول تأليف لهُ بل قد سبق لهُ كتابة رسالة سماها "تحفة الخواص في حل صيد بندق الرصاص" ومضمونها احتواه عنوانها وسبب تأليفها الخلاف الحاصل بين بعض العلماء في حل اكل الصيد المذكور من عدمهِ والف ايضًا في اول نشأتهِ مجموعًا مختصرًا مفيدًا في فن العروض وذلك عند بداية تعاطيهِ لنظم القريض وحرَّر مسئلة فقهيَّة في جواز اسدال شعر الرأس وسببها ان الامير امر رجال حكومتهِ باسدال شعرهم وكانوا يحلقونهُ فاستفتى في جواز ذلك من عدمهِ واختلفت فتاوى العلماء خشية القول بالتشبه بالافرنج فكتب المرحوم رسالتهُ بالجواز مستندًا على عمل النبي صلى الله عليهِ وسلم . وفي تلك السنة اي سنة ١٢٩٢ افتتحت في تونس اول مدرسة على حسب النظام الجديد المتبع في اوروبا سميت المدرسة الصادقيَّة نسبة للامير فكان المرحوم من اعضاء اللجنة الَّتي رتبت نظاماتها واهتم كثيرًا باقناع

الناس على ادخال ابنائهم فيها وكان هو من اول العاملين بقوله فجعل ابنهُ كاتب هذه الاسطر مِن جملة تلامذتها وقد حصل في بداية الامر نفور الناس منها اذ ان العادة جرت بنفرة غير المألوف ولم تزل تلك المدرسة ناشرة فوائدها بين التونسيين واكثر المتولين مناصب الحكومة بتونس الآن هم مِن الشبان الذين تغذوا بلبان معارفها

وفي ١٠ جمادي الثانية سنة ١٢٩٢ عهدت اليهِ نظارة مطبعة الحكومة فنظمها واصلح شأنها واصدر الرائد التونسي (الجريدة الرسميَّة) في مواعيده المعينة كل اسبوع مرة وكان لا يصدر الاَّ بحسب التيسير ولما كان الرائد التونسي هو الجريدة الوحيدة الَّتي تصدر في تونس بذل كل ما في وسعهِ لجعله مفيدًا لبني وطنهِ واستعان على تحريره بجهابذة اعلام كالشيخ حمزة فتح الله المصري والشيخ محمَّد السنوسي التونسي ونشرت فيهِ مقالات رنانة حاثة على الجامعة والوحدة والعدل والائتلاف لا سيما زمن الحرب بين الدولة العليَّة والروسيا وقد قسم المرحوم وقتهُ فكان يتوجه لادارة الاوقاف صباح كل يوم ويتوجه للمطبعة بعد الظهر وفي تلك الاثناء نظم المكتبة الصادقيَّة بازاء جامع الزيتونة وهي مكتبة جمعت آلافًا من الكتب النفيسة في كل فن تبرع بجانب عظيم منها الوزير خير الدين باشا واكثرها كتب استولت عليها الحكومة من مملوكات الوزير القديم مصطفى خزندار وجعلها مفتوحة للمطالعة واستفادة العموم في جميع اوقات النهار بشرط ان لا يخرج منها كتاب وجميع مصاريف هذه المكتبة تحملت بها ادارة الاوقاف على ما مرّ بيانهُ

وفي سنة ١٢٩٣ لما ظهرت الحرب بين الدولة العليَّة والصرب بذل

صاحب الترجمة غاية مجهوده لمساعدة الدولة بالمال والخيل والبغال حيث لم تتيسر مساعدتها بالرجال لاسباب سياسيَّة وموانع محليَّة وقد نشر صاحب جريدة الجوائب الصادرة بالاستانة قصيدة لصاحب الترجمة في الحث على التعاون والائتلاف عند تلك المناسبة قال فيها

يا امة الاسلام صونوا عزكم بتعاضد وتمدن وتنافس
يا امة الاسلام احيوا ذكركم بتآلف وتودّد وتآنس
يا امة الاسلام نمُّوا صيتكم بمعارف وصنائع ومجالس
يا امة الاسلام حوطوا امركم بتشاور وتدبر وحوارس
يا امة الاسلام اجلوا فخركم بديانة قد سترت بحنادس
يا امة الاسلام هبوا للفلا ح ولا تضيعوا نجحكم بتقاعس
يا امة الاسلام عوا واستيقظوا ان الهلاك مسارع للناعس
يا امة الاسلام زيدوا ثروة بتعاون ومصانع ومغارس
يا امة الاسلام شيدوا مجدكم بتناصر وتناصح وتجانس
يا امة الاسلام شدّوا عزمكم فثباتكم بين البرايا ما نسي

ولما خلت وظيفة شيخ الاسلام بتونس عند وفاة صاحبها توجهت الانظار لتولية صاحب الترجمة عليها حتى ان المنصب المذكور بقي خاليًا مدة شهرين لذلك فاعتذر بان الوقت غير مناسب لاعادة جاه هذا المنصب ورجوع عزه اليهِ كما كان عليهِ زمن عمهِ

ولما استعفى خير الدين باشا مِن الوزارة التونسيَّة في رجب سنة ١٢٩٤ رام صاحب الترجمة التخلي عن وظائفهِ ايضاً غير ان مداخلة الامير الشخصيَّة

منعتهُ من تنفيذ هذا العزم وقد رأى من الوزير محمَّد خزنه دار جميل العناية كما يستدل عليهِ من المكتوب الآتي

" الهمام الاوحد النحرير الشيخ السيد محمَّد بيرم رئيس جمعيَّة الاوقاف دام مجده اما بعد السلام عليكم وبركاتهُ فالواصل اليكم ترجمة مكتوب ورد من المكلف بامور دولة اسبانيا للاطلاع عليها وتعرفونا بما يجاب الرجل في النازلة وفي امن الله دمتم والسلام من كاتبهِ محمَّد في ٢٩ ذي الحجة سنة ١٢٩٤ " ومن ذلك الحين ايضاً صار الوزير مصطفى بن اسماعيل يظهر له كمال التودّد والتلطف وفي مصيف سنة ١٢٩٥ اثناء وجود المعرض الباريسي سنة ١٨٧٨ توجه المرحوم ثانياً الى باريس للمعالجة مِنْ مرضهِ الذي لم يفارقهُ وفي هذه السنة زار لندره من بلاد الانكليز وعند عودتهِ عرج على الجزائر وفي مدة اقامتهِ بباريس اكرمهُ المارشال مكماهون رئيس الجمهوريَّة الفرنسويَّة اذ ذاك باحضاره في الاوبره وهو التياترو الكبير في نفس لوجتهِ (حجرتهِ) وحضر بعض الاحتفالات الَّتي اقامها الوزراء اثناء المعرض وبالجملة فان القوم اكرموه اكراماً فائقاً وفي تلك السفرة احتفل ولي عهد الامارة بتونس وهو الامير الحالي بختن نجليهِ فكاتبهُ المرحوم بالتهنئة وكانت بينهما علاقة ودّيَّة قديمة فاجابهُ الامير بهذا المكتوب ونصهُ بعد الحمدلة والتصلية

تبدّت في حلا الحسن الجلي　　خريدة ذات ثغر ألعسي
تجرُّ مطارفاً وتميس تيهاً　　ويسطو لحظها في كل حي
فيا لله ما احلى دلالاً　　واعذب لفظها شهد الشهي

فما للبحر لم يصبح فراتًا وقد امست بهِ زمن الملي
فقلت لها انتم يا خود فخر فقالت بنت فكر البيرمي
لقد حاز المعارف والمعالي وحيد الدهر ذو الحسب النقي
انت من نحوكم درر التهاني منظمة بسلك جوهري
وكيف يفوت حظك بابتعاد وفي الاحشاء ذو ودّ خفي
وها ولدي الزكي يروم وصلاً لجانبكم بباريس السمي
واني ارتجي بشرى الشفاء وعودكما مع اللطف الخفي

الماجد الزكي العالم ابو عبد الله الشيخ السيد محمَّد بيرم حرسهُ الله تعالى . اما بعد اتم السلام فقد ورد نظمكم الرائق . وما تضمنهُ من التاريخ الفائق . في التهنئة با لختان واني اهنيك بذلك كما ارتجي هناءك . بتمام شفائك . وانت ان ترحلت عن حمانا جسماً . فلم يزل ودُّك مرتسماً . بدفاتر الاحشاء رسماً . والسلام من الفقير الى ربهِ امير الامراء علي باي امير الأمحال عفى عنهُ في ٢ رجب الاصب من سنة ١٢٩٥

ولما رجع من هذه السفرة واستقرَّ مدة احب ان ينظم المستشفى التونسي على النحو الذي رآه في اوروبا من اتقان المستشفيات والاعتناء بالمرضى وتقسيمهم كل قسم على حدة وكذلك تحسين حال المجانين اذ ان المستشفى التونسي واحد يقبل جميع المرضى واستعان على ذلك بحكماء ماهرين اهمهم الدكتور ماسكرو حكيم الامير الخصوصي وقد حسن للوزير مصطفى بن اسماعيل هذا العمل وتخصيص احدى القشلاقات العسكريَّة القديمة الواسعة لهذا الغرض وكانت معطلة خاوية تنعي بفراغها واقفال ابوابها ما كانت عليه

البلاد التونسيّة في العصر السالف من القوّة والاستعداد والتأهب للمكافحة والجلاد والمدافعة عن استقلال البلاد والقشلة واقعة في حي مرتفع نقي الهواء وفي تلك الاثناء حصلت منازعة بين الحكومة التونسيّة واحد الفرنساويين المدعو الكونت دو صانسي على ارض فسيحة تعرف بهنشير سيدي ثابت كانت تنازلت لهُ عنها الحكومة لتحسين حالة الزرع وانتاج الخيل ولما اخلَّ بالشروط التي اعطيت له بمقتضاها وانتهت مدة التنازل رامت الحكومة استرجاعها وبينما هي تنازعهُ فيها اذا بالوزير وبعض اعوانهِ دخلوها عنوة فوقع لذلك هرج ومرج وانتهزها قنصل الفرنسيس الموسيو روستان فرصة لارهاب الامير والاستيلاء على الوزير وزيادة شوكة دولته في تونس فقطع العلاقات السياسيّة وطلب عدة مطالب للترضية اهمها عزل الوزير والتعويض على الكونت . وكل مطلع على تاريخ تونس الحديث ملم بما كتب عن مصطفى بن اسماعيل في صفوة الاعتبار وغيرها يعلم انهُ لم يكن اهلاً لتقليد الوزارة ولا لمباشرة شؤون المملكة باي وجه من الوجوه وهكذا جرت سنة الخلق كلما اخذت امة في الانحلال والاضمحلال تسلط عليها الوضيع . ونبذ الرفيع . وتقدّم الغافل . وتأخر العاقل . وتملك الغبيّ . واحتقر الذكيّ . وانتصر الجهل . وخذل الفضل . وقامت دولة الاوغاد والسفل . ليقضي الله امراً كان مفعولا ولولا سيطرة الظلم والاستبداد من الحكام والجامهم الاهالي بلجام من الجور والاعتساف . لما رفع مصطفى بن اسماعيل من حضيض الارض الى عنان السماء . ومن دائرة السوقة الى منصب الوزراء ولله الامر من قبل ومن بعد ولما كان الوزير المذكور يحس من نفسهِ بعدم

اللياقة لمركزه كان دائمًا متوقعًا الشر من كل مقتدر على تفهيم الباي بحقيقة حالهِ وسوء اعماله ولذلك فان رستان علم ان لا شيء يقودهُ غير الارهاب فطلب عزله ارهابًا لهُ فسهل عليهِ قيادهُ من ذلك الحين فصار في يده كالميت في يد غاسله وقد اسرع الوزير بترضية القنصل ترضية رسميَّة على الاعتداء الذي حصل منهُ فداءً لمركزه واستقرّ الرأي على تشكيل لجنة للتحكيم تحت رئاسة قاض فرنساوي يكون فيها عضوان تونسيان وعضوان فرنساويان تنظر في جميع مدعيَّات الطرفين وتصدر حكمها فيها فكان صاحب الترجمة احد ذينك العضوين التونسيين وقد ناضل عن حقوق حكومتهِ بجميع قواه وبلغ بهِ تعب الفكر والبدن منتهاه حتى عاد اليهِ المرض بعد ان كاد يشفى منهُ وقد اوصاه الحكماء الذين باشروا معالجتهُ في باريس وفي مقدّمتهم شاركو الشهير بان يقلل ما امكن من الاشتغال بالفكر ويتباعد عن الانفعالات النفسانيَّة اذ ان مرضهُ عصبي واقع في الاعصاب الواصلة بين المعدة والقلب مع ضعف شديد في الدم تطرأ عليهِ ادوار غريبة في الوجع والالم التزم لتسكينها بتعاطي المرفين وهو روح الافيون وقد رجع من باريس آخر مرة وكاد يبطل استعماله بالمرة بل بقي عدَّة اشهر لا يستعملهُ اصلاً غير ان مسألة صانسي وما رآه فيها مِن حيف الاجنبي لاهتضام حقوق البلاد والتلاعب باستقلالها اعاد اليهِ المرض كلهُ باشد مما كان عليهِ وقد صدر الحكم بحقوقيَّة الحكومة التونسيَّة كما هي العادة في جميع المسائل الَّتي تقع من هذا القبيل في البلاد الشرقيَّة في مثل هذه الاوقات

وفي تلك الاثناء انهى تنظيم المستشفى الجديد المسمى بالصادقي وهو على

قسمين احدهما مجاني للفقراء يسع مائة مريض والآخر للموسرين باجرة معينة زهيدة وافتتحهُ الامير بنفسهِ في موكب حافل حضره في يوم ١٠ فبراير سنة ١٨٧٩ (١٨ صفر سنة ١٢٩٦) واعلن الوزير عن لسان الحكومة بحسن مساعي صاحب الترجمة في تنظيم هذا المستشفى بقوله في خطاب القاهُ على مسامع الامير في ذلك الاحتفال وهو " بمقتضى الاذن العلي وعناية سيدنا ادام الله تعالى بقاءه بمصالح بلاده وقع انجاز هذه المأثرة الجميلة التي هي احدى مآثر الحضرة العليَّة وهي هذا المستشفى الصادقي الذي شرفهُ سيدنا ايده الله تعالى بالحضور فيهِ هذا اليوم وقد اعتنى الشيخ السيد محمَّد بيرم ببذل الجهد في انجازه وترتيبه على الكيفيَّة المشاهدة بما نرجو من الله تعالى ان يحل ذلك من سيدنا محل الاستحسان " فاجاب الامير بالشكر والثناء واهدى الى صاحب الترجمة في ذلك اليوم علبة مرصعة ذات قيمة وافرة مكتوب عليها اسمهُ بالاحجار الكريمة . وفي اواسط تلك السنة تطاول احد اعوان الوزير على القاضي المالكي الشرعي بديوان الحكم وهو امر لم يعهد له مثيل في تونس حيث لم تزل الاحكام الشرعيَّة وحكامها مرموقين بعين التبجيل والاحترام اللائقين فهاجت البلاد لذلك وماجت واتفق الحكام الشرعيون على تعطيل الاحكام الى ان يسترضيهم الامير بعزل الوزير وعقاب تابعهِ العقاب الصارم واجراء القوانين والمجالس الشورويَّة في البلاد لتكون ضمانة كافية على عدم العود لمثل هذا الحادث المكدر وعدم تسليم الادارة لمن لا يكون كفوءًا لها وبعد ان اتفقت كلمتهم على هذه المطالب وكادوا ان يحصلوا عليها دخل بين بعضهم داخل الغرور والتفرقة فتشتتت آراؤهم وانحلت جامعتهم ورضوا

بتبعيد التابع المتطاول لاحدى معاقل المملكة في قابس الواقعة على حدود طرابلس وبتشكيل الامير لمجلس سماه مجلس الشورى للنظر في مهات امور الدولة وجعله تحت رئاسة الوزير نفسهِ واعضاؤه بقية وزراء المملكة ومستشاروها وليس فيهم الاَّ اثنان من الاهالي والباقي كلهم من مماليك الچراكسة وزاد عليهم اثنين هما السيد محمَّد بيرم والعربي باشا زروق رئيس المجلس البلدي وكانا من اشد المعضدين لعزائم الحكام الشرعيين في مطالبهم التي طلبوها وكان ذلك في ١١ رجب سنة ١٢٩٦ ولا يخفى ما في رضاء المشايخ بمثل هذا المجلس خصوصاً بعد تعيين صاحبيهم فيهِ من الايقاع بهما والتغاضي عن صالح البلاد الحقيقي ولم تطل الايام حتى اختلق الوزير مأمورية لصاحب الترجمة وارسلهُ بها الى فرنسا وحاصلها السعي لدى كبراء القوم وخصوصاً غامبيتا رئيس مجلس النواب اذ ذاك وصاحب القول الفصل في بلاده لتغيير قنصلهم في تونس لانهُ اشتد على الحكومة اشتداداً لم يبق لها حريَّة للعمل في شؤونها الداخلية قط ولم يقف عند حدّ في القاء الدسائس والفتن وتوغير الصدور بين الراعي والرعيَّة حتى انهُ لما طلب اعيان الاهالي التونسيين ما طلبوه من تأسيس الحريَّة والشورى في بلادهم كان الموسيو رستان نائب الجمهوريَّة الفرنسويَّة ينصح الامير بعدم الاصغاء الى هذا الطلب وان العساكر الفرنسويَّة بالجزائر مستعدة لمعاضدتهِ وكسر شوكة الاهالي واذلالهم عند اللزوم وهي سياسة قديمة اتبعتها فرنسا في تونس نفسها فان قوانين عهد الامان السابق ذكرها المؤسسة في تونس سنة ١٢٧٤ كانت بمساعي فرنسا وانكلترا ظاهراً وتهديدهما للامير باسطوليهما اللذين حضرا لذلك الغرض

وكان ذلك لمجرد قتل يهودي في اقامة حدٍّ اقتضتهُ الشريعة ولما اجريت تلك القوانين بالفعل سنة ١٢٧٧ وتوجه الامير لمقابلة الامبراطور نابليون الثالث في الجزائر واهدى اليهِ نسخة من تلك القوانين اقتبلها منهُ بالشكر ظاهرًا ولما اختلى الامبراطور بقنصلهِ ليون روش وبخهُ توبيخًا شديدًا على ما رواه المرحوم الجنرال حسين وافهمهُ غلطه من المعاضدة على اجراء القوانين الشورويَّةِ في تونس حقيقة وقال له ان العرب اذا تأنسوا بالعدالة والحريَّةِ فلا راحة لنا معهم في الجزائر مطلقًا ومنذ ذلك الحين وجه القنصل همتهُ لاقناع الوزير مصطفى خزنه دار بالغاء تلك القوانين ووجد منهُ اذنًا صاغية فالغاها وبقيت كذلك الى هذا الوقت . وقد قبل السيد محمَّد بيرم مأموريتهُ كما قبل المرحوم حسين باشا وزير المعارف اذ ذاك بتونس مثلها لدي البرنس بسمارك ولما توجه صاحب الترجمة للسلام على الامير سلام الوداع واجههُ بكلام اللوم والعتاب على ما جرى منهُ من تعضيد المطالب الاهليَّة فاجابهُ الشيخ بيرم بكلام اثر في نفسهِ تأثيرًا لم يزل يكرّره بتوجع الى آخر مدتهِ وهو انهُ قال له اننا نطلب الحريَّة الَّتي قال سيدنا انهُ لا يعطيها لنا غيره فاجابهُ الاميرلمن اعطي الحريَّة ألِلنجار والحداد ام لك او لهذا (واشار الى احد كبار الحاضرين) فان النجار والحداد اذا اعطيا الحريَّة اساءا التصرف بها ولم تبقَ لنا معهما راحة فقال له السيد بيرم ان الحريَّة الَّتي يعطيها سيدنا للحداد والنجار تصيرها مثلي انا ومثل هذا واشار الى ذلك الوجيه وسبب انزعاج الاميرمن هذا الجواب هو تكرار لفظة الحريَّةِ فيهِ ولم يعهد انهُ سمعهُ من قبل حتى ان امراء تونس قديمًا كانوا يعتقدون انهم يمتلكون البلاد بمن فيها من

الارزاق والانعام والسكان امتلاكاً شرعيًا لا ينازعهم فيهِ منازع واورد المؤَرخ اللبيب الشيخ احمد بن ابي الضياف في تاريخهِ نادرة جرت له مع امير تونس حسين باشا الثاني في هذا الموضوع كادت ان توردهُ حتفهُ رحمهُ الله . ولما وصل صاحب الترجمة هذه المرّة الى باريس وكان ظاهر امره انهُ توجه للتداوي اجتمع بالموسيو غامبيتا وفاوضهُ في المسأَلة الّتي كلفهُ بها الوزير وسلمهُ تقريرًا فيها هذه صورتهُ

" اني اقدم على وجه خصوصي غير رسمي الى حضرتكم العليَّة تقرير ما هو واقع في المملكة التونسيَّة مما عساه ان يكدر صفاءَ القلوب حيث كنت أنا واهل بلادي على علم من ان الدولة العظيمة الحرّة لا يبلغها ما هو حاصل الآن من نائبها في تونس الذي اتخذ طريقة التشديد والتخويف ديدنًا في كل شيءٍ حتى صير حكومتنا متحذرة من اصدقائها عوضاً عن زيادة الالفة والركون الذي هو الواجب مع الامة الفرنسويَّة الّتي كل اهالينا يعلم انها وحدها هي الّتي تفيدنا ولهذا عند ما امتلأَ وطابنا من الكدر لم نقصد الاَّ ابلاغ الحال الى رجالها المنصفين من غير ان نطرق بابًا غير بابها وذلك ان موسيو رستان النائب المذكور بعد ان اوقع دولتنا في ارتباك وكاد يغير علينا الدولة الفرنساويَّة في نازلة موسيو دو صانسي الّتي لا تستحق تلك الاهميَّة حسبما يوضح ذلك التقرير الذي حررهُ مجلس التحقيق المعين مِنْ فرنسا وبعد ان اضطر حكومتنا الفقيرة الّتي لم تستطع دفع كبونها (فوائد ديونها) ولا مرتبات متوظفيها الى دفع مبالغ مجانًا من المال والاملاك الى اناس لا فائدة بهم لكلا الدولتين لاسباب نتحاشى عن ذكرها امام فخامتكم حتى انهُ خسرنا

في مدة الستة اشهر الاخيرة فقط نحو مائة الف وسبعة واربعين الفاً فبعد هذا كلهِ اذا هو الآن يتعرض رسميًّا لتحسين ادارة البلاد الّتي بها تتمدن الاهالي ويدخلون في الحضارة وكانت الدولة الفرنساويّة انالتنا اياها على يد نائبها سنة ١٢٧٤ (١٨٥٨) انتصارًا للانسانيَّة والحق فعوضاً عن زيادة التقدم مع تقدم العالم اذا هو الآن مضادٌ لذلك وقال الى سيادة سيدنا الباي لا تفعل مجلس الشورى الذي طلبتهُ منك الاهالي وابق على حالتك العتيقة بل اوعز اليهِ مع بعض اعوانهِ المنكشف حالهم بان يقتل نحو ثلاثة اشخاص وينفي نحو سبعة ويلتجي الى حمايتهِ ولا عليهِ في شيء فلولا مكارم سيادة سيدنا الباي لاوقع البلاد بل فرنسا ذاتها في ارتباكات مضادة للانسانيّة والعدالة المجبولة عليها الدولة الجمهوريّة الفرساويّة . فيا ايتها الحضرة الفخيمة هل ترضى الامة والدولة الّتي ترسل ابناءها الى اقصى المشرق والمغرب لحفظ الانسانيّة ان يكون نائبها مضادًا لذلك في بلاد هي جارة لها عندما كانت الدولة العظيمة تخرج اهل الجزائر من الحكم العسكري الى الحكم البلدي متسترًا في دعواهُ بعدم التعرف بالمجلس بانهُ سمع ان المقصد منهُ هو التعرض لمصالح فرنسا مع انهُ على علم بان مصلحة الامة الفرنساويّةِ يعتبرها ويراعيها كل من الآمر والمأمور في بلادنا لعلمنا بمقامها بيد انهُ اذا كانت المصلحة ليست لفرنسا وانما هي مجرد فوائد شخصيّة فان مصلحة البلاد تقدم عليها وهو الذي نؤمل المعاضدة عليهِ من الرجال المشهورين في العالم من الدولة الفرنساويّةِ وتبقى بما آثرهم مزينة صحف التاريخ فهذا انا انهي الى مسامعكم الشريفة اختصار ما هو حاصل ولحضرتكم ان تطلبوا الايضاح ممن يعلم حالة بلادنا من الذين لهم خبرة بها من الصادقين "

وقد بادر صاحب الترجمة بارسال تفصيل المقابلة وما حصل فيها من الكلام الى الوزير بمكتوب مؤرخ في ١٢ شعبان سنة ١٢٩٦ من جملة ما قاله له فيهِ عن لسان غامبيتا " ان كنتم تريدون الارتياح من الرجل (اي رستان) فيجب ان تكتموا هذا الامر بل ولا اجتماعكم بي في شأنهِ والاَّ كان ذلك ينقض قصدكم " وما كاد يصل هذا المكتوب الى تونس حتى انتشر الخبر بسر المسألة ولم يعلم ان كانت الاشاعة حصلت من نفس الوزير او من المترجم الذي كان الواسطة في الكلام بين غامبيتا وصاحب الترجمة الذي لم يكن يتكلم اللسان الفرنساوي والحاصل ان القنصل انتهز هذه الفرصة الجديدة وارعد وابرق على الامير والوزير وزاد في ايغار صدورهما على صاحب الترجمة وساعده البخت اوالصدفة بانهُ في الوقت الذي كان الاهالي في تونس يطلبون تأسيس الشورى في بلادهم كانت الدول مشغولة في مصر بخلع اسماعيل باشا وحصل ذلك على يد خير الدين باشا صاحب الصدارة حينئذٍ وارتباطات الباشا المذكور بتونس وخصوصاً بصاحب الترجمة مشهورة عند الجميع فاستنتجوا من ذلك ان طلب الشورى في تونس لم يكن القصد منهُ الاَّ احداث ارتباكات في المملكة تفتح الباب لمداخلة الباب العالي خصوصاً وكان صاحب الترجمة معارضاً شديد المعارضة في وصل سكة الحديد بين الجزائر وتونس وتعيين الحد الفاصل بينهما الاَّ بعد العرض للدولة العليَّة وزادوا في اقناع الباي بالتلغراف الذي ارسلهُ خير الدين باشا يعلمهُ فيهِ بفصل اسماعيل باشا عن خديويَّة مصر وقد استعمل الصدر الاعظم في تلغرافهِ عبارات اشتم منها رائحة التهديد والوعيد للباي حتى التزم الحال للاستفهام من الباب العالي

بواسطة السفارة الفرنساويّة عن الغرض من عبارات ذلك التلغراف مع انهُ في ذلك الوقت كانت العلاقات الخصوصيّة بين المرحوم وخير الدين باشا معكرة مكدرة من حين خروج الباشا المذكور مِنْ وزارة تونس ولم يصف ماؤها الاَّ بعدذلك التاريخ كما يدل عليهِ المكتوب الآتي

"الفاضل الزكي الثقة المعتمد الشيخ سيدي محمّد بيرم حرس الله تعالي كمالهُ وبعد قد وصلنا مكتوبكم في ٢٢ من الشهر وعلمنا ما احتوى عليهِ من لذيذ الخطاب ونحن لله الحمد على ما يسر الاحباب من العافية التامة في امورنا الحسيّة والمعنويّة واما ما اشرتم اليهِ مِن الاحوال السالفة عن قدومنا لدار الخلافة فجوابهُ عفى الله عما سلف والسلام من خير الدين في ٢٩ شعبان سنة ١٢٩٦"

ومن راجع تاريخ مكتوب صاحب الترجمة المذكور اعلاه وجواب المرحوم خير الدين باشا عنهُ وقارن بينهما وبين تاريخ انفصال الباشا المشار اليهِ عن الصدارة العظمى الواقع في ٩ شعبان سنة ١٢٩٦ يعلم علم اليقين انهُ في مدة صدارة الباشا المشار اليهِ لم تكن بينهُ وبين الشيخ بيرم ادنى علاقة وان كل ما بناه اذ ذاك المرجفون بناءً على علاقاتهما الوداديّة القديمة هو محض اختلاق وكأن الوزير التونسي غفل او تغافل عن حقيقة المأموريّة التي اناطها بعهدة صاحب الترجمة فارسل اليهِ تلغرافاً رسميًّا الى باريس نص ترجمتهِ

مِن باردو في ٧ اغسطس سنة ١٨٧٩ (الموافق ١٨ شعبان سنة ١٢٩٦)

"من الوزير الاكبر الى الشيخ سيدي محمّد بيرم . شاعت الاخبار بانك متداخل في امور سياسيّة خصوصاً وانهُ لم يصدر لكم ادنى امر فيها ولذلك

فان سيدنا المُعَظَّمَ يأمركم صريحاً بان لا تتداخلوا مطلقاً في هذه المسائل حيث انكم سافرتم لمعالجة صحتكم واذا انتهت مدّة التداوي فارجعوا الى تونس "

ثم بعد ذلك ورد له مكتوب من الوزير بتاريخ ٢٥ شعبان جواباً عن مكتوبهِ المؤرخ في ١٢ شعبان وفيهِ يقول " اما بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاتهُ فقد بلغنا مكتوبكم الخصوصي وعلمنا ما ذكرتم وما وقع مع موسيو غامبيتا فمثلك من يعتمد عليهِ وعلى صداقتهِ واما كتمان السر فيكون مهناً لان نفعهُ لنا وانما الله يحقق الامل من اتمام الوعد لان القنصل في غاية القوَّة الخ "

فلم يسع صاحب الترجمة بعد هذا الاضطراب في اقوال الوزير الاَّ ان يستعفي من وظائفهِ فاجابهُ الوزير عن الاستعفاء بهذا المكتوب ونصهُ " الفاضل الزكي المدرس الشيخ السيد محمَّد بيرم رئيس جمعيَّة الاوقاف حرسهُ الله اما بعد السلام عليكم ورحمة الله فان ما عرضتموه علينا من طلب الاعفاء من رئاسة جمعيَّة الاوقاف علمناه ومن معلوماتكم انكم كنتم طلبتم هذا منا قبل سفركم على خير فلم نسعفكم لذلك والذي نعرفكم بهِ انني لم نزل على رأيي في عدم اسعافكم لما ذكر ونرجو الله ان يجمعنا بكم وانتم على حال كمال ودمتم بحفظ الله والسلام من الفقير الى ربهِ امير الامراء مصطفى الوزير الاكبر عفا عنهُ في ٣ رمضان سنة ١٢٩٦ "

وفي اليوم نفسهِ ارسل لهُ مكتوباً آخر نصهُ " اما بعد السلام عليكم ورحمة الله فانهُ بلغنا كتابكم المؤرخ في ٢٥ الشهر الفارط متضمناً ما نحن

على ثقة منهُ من سلوككم الطريق المستقيم في اقوالكم واعمالكم وتحرزكم في الاجتماع من ان ينسب اليكم غير ما قصدتموه ولا يستغرب ذلك من مثلكم ونرجو الله ان يجمعنا بكم وانتم على حال كمال ودمتم بحفظ الله والسلام"

وقد رجع صاحب الترجمة الى تونس بعد الالحاح الشديد عليهِ من اصدقائهِ فوجد الحال متغيرًا وملامح الوزير تظهر الشر ومع ذلك فقد ابلغهُ صاحب الترجمة ما رآهُ وسمعهُ في باريس بخصوص المسئلة التونسيَّة واراء رجال السياسة فيها ومن جملة ما بلَّغهُ ان الاخبار رائجة هناك بان القنصل اقنعهُ بمساعدة فرنسا على مرغوباتها من ضم تونس اليها وفي مقابلة ذلك تضمن للوزير ولاية العهد عَلَى الامارة واستيلائهِ عليها بعد سيده ونصحهُ بان لا يغتر بهذه الترهات فان القنصل اذا حصل على مرغوبهِ لا يوفي وعدهُ للوزير ولا تعود الخسارة الاَّ على البلاد واهلها وقد حقق الزمن حدس السيد بيرم فانهُ لما دخلت فرنسا في تونس سنة ١٢٩٨ لم تطل مدتها فيها حتى عزلت مصطفى ابن اسماعيل عن الوزارة واخرجتهُ من البلاد بالمرة ولم توفِ له بما وعدتهُ بهِ بل نظرت اليهِ نظر الخائن وكثيرًا ما تكلمت جرائدها وارباب الوجاهة فيها لتجريده عن نشان اللجيون دونور الفرنساوي وهو حامل اول درجة منهُ وبقي يتقلب متغرّبًا في البلدان تقذفهُ امواج الذل والسؤَال بعد ان صرف ما ادَّخرهُ ايام عزه من الاموال الطائلة واصبح

يوماً بحزوى ويوماً بالعقيق وبالـ ... عذيب يوماً ويوماً بالخليصاء

الى ان جاءَت بهِ المقادير الى القسطنطينية حيث تغاضت الدولة العثمانيَّة عن ذنوبهِ وابقتهُ يتنعم بلذيذ الحياة ويتحسر على ماضي عزه وغبن

صفقته . اما صاحب الترجمة فانهُ بعد عودتهِ الى تونس من مأموريتهِ توجه الى (المرسي) للسلام على ولي عهد الامارة الامير الحالي السابق ذكره فوجد الامير المشار اليهِ في مركبته امام محطة السكة الحديد فاركبهُ معهُ وسارا الى بستان الامير فكبر هذا الامر على مصطفى بن اسماعيل وامر صاحب الترجمة بالكف عن التردُّد على ولي العهد وكثرت الدلائل على سوء نيَّة الوزير نحو السيد بيرم وتغلب دسائس موسيو رستان ضدَّه حتى نصحهُ بعض الاصدقاء من خواص حاشية الباي بالسفر خارج المملكة لان بقاءه في البلاد فيهِ خطر عليهِ فطلب بعد عيد الفطر التوجه لاداء فريضة الحج خصوصاً وقد تهدَّدهُ الوزير بانهُ اذا شاع الخبر الذي كان اعلمهُ بهِ بخصوص مساعيهِ لولاية الامارة يلقيهِ تحت اعباء المسئوليَّة الثقيلة فامتنع الوزير من اعطاء الرخصة بالسفر وقد توسط حينئذٍ السيد الشريف نقيب الاشراف السابق في تونس للحصول على تلك الرخصة وبين للوزير عدم جواز منع المسلمين من اداء فريضة الحج وزيارة النبي صلى الله عليهِ وسلم وللسادة الاشراف في تونس النفوذ الكبير والكلمة المسموعة فالتزم الوزير بالاجابة وقد سافر صاحب الترجمة من تونس في ٢٦ شوال سنة ١٢٩٦ ولم يعد اليها بعد وقصد مالطه ومنها للاسكندريَّة ومصر القاهرة وفيها تقابل مع الخديو المرحوم توفيق باشا وكان ذلك في ابتداء ولايتهِ فقدَّم له قصيدة في التهنئة بالولاية وتاريخها

وقد دار الحديث بينهما عن كيفيَّة نظام اللجنة الماليَّة الدوليَّة المؤلفة في تونس لادارة اشغال الدين وعن النتايج الَّتي انتجتها وهل البلاد متضررة منها ام لا وكان ذلك بسبب ما اقترحتهُ انكلترا وفرنسا اذ ذاك على الحكومة

المصريَّة من اقامة لجنة للمراقبة الماليَّة ثم ان المرحوم سار الى الحجاز وقد تقابل في مكة المكرمة مع المولى الشريف حسين الامير الاسبق واكرم وفادتهُ ثم بعد اداء فريضة الحج والمناسك توجه للزيارة في المدينة المنورة حيث اقام ثلاثة ايام وكان مرضهُ العصبي مشتدًّا عليهِ في الطريق وهناك توسل للحضرة النبويَّة بقصيدة طويلة طالباً من الله الشفاءَ للبدن واللطف بالوطن ومطلع القصيدة

الى السدّة العظمى شددت عزائمي ... الى سدة الاجلال شمس المكارم
الى باب خير الخلق خصصت وجهتي ... ومن فضل باب الله املت راحمي
اليك رسول الله قد جئت ضارعاً ... وفضلك ممدود على كل قادم
فياخير خلق الله جدلي بالرضا ... وامِّن مخافي من عقاب المآثم
ويا اكرم الامجاد هب لي توبة ... واسس على التقوى قيام دعائمي
وانت ملاذي في اموري كلها ... فعجل شفائي من سقامي الملازم
ألا يا رسول الله طهر بلادنا ... فقد جار في الانحاء ظلماً مخاصمي
يريد خلاف الحق في الخلق جائرًا ... فننصحهُ رشدًا لذا كان ظالمي
فعجل بانقاذ البلاد من الذي ... تأبط شرًّا وارتدى بالمظالم
وفرج همومي والكروب وعلتي ... وليس سواك يرتجى للعظائم
وللعدل ان ينقاد كل ملوكنا ... لكيما يحل الدين اعلى العواصم

ومن المدينة المنورة توجه الى ينبع وسافر منها الى بيروت مارًّا على خليج السويس وقد ذكر هذه الرحلة في اول هذا الجزء الخامس وما لاقاه في سفره من كرم واكرام صاحب السماحة السيد السند السيد سلمان افندي القادري نقيب اشراف بغداد

ولما وصل الى بيروت لاقاه والي سوريَّة اذ ذاك المنعم المقام الجليل الذكر مدحت باشا بمزيد العناية الرعاية واحتفل بهِ اعيان المدينة من مسلمين ومسيحيين بما ابقى لهم في نفسهِ الذكر الحسن والثناء المستطاب وكان المرحوم من جملة المشتركين المساعدين في جمعيَّة المقاصد الخيريَّة الَّتي تأَسست في بيروت لانشاء مدارس خيريَّة وقد زار تلك المدارس ولاقى من احتفال الاساتذة والتلامذة وانشادهم القصائد والمقالات الرائقة بين يديهِ ما زاد ابتهاجهُ وقد هنأَه الشاعر الدراكة البليغ المرحوم الشيخ ابراهيم الاحدب بقصيدة شائقة ذات اربعة واربعين بيتاً مطلعها

بدر العلى تاريخهُ (من غربهِ)　　في الشرق اشرق نوره لمحبهِ

ومنها

من اين هذا الطيب هل ريم النقا　　ليلاً سرى ليدير راحة صبّهِ
او جاءَ بيروتاً محمَّد بيرمٍ　　من طيبة فذكت نوافح قربهِ
حيث الزمان على تلوّن طبعهِ　　ادّى بهِ كفارة عن ذنبهِ

وقد مدحهُ ايضاً الاديب الفاضل واللوذعي الكامل الشيخ ابو حسن قاسم افندي الكستي البيروتي بقصيدة غراءَ منها

بهِ تونس الغرب أستعزت واحرزت　　بصحبتهِ الفضل الذي ليس يجحد
يغار على الدين الحنيف لانهُ　　خبير بهِ لا يعتريهِ التردّد
عليهِ من العلم الشريف جلالة　　يقوم لها الدهر الحسود ويقعد
وسيرتهُ الحسناءُ في كل موطن　　بأَلسنة الايام تتلى وتنشد

وبعد ان اقام هناك اسبوعاً رام فيهِ التوجه لدمشق الشام لرؤية

معالمها العظام وملاقاة السيد الامير عبد القادر الجزائري غير ان الوقت لم يسعف بذلك لتراكم الثلج في الطريق وتعطيلهِ للسكة فتوجه توًا الى القسطنطينيةً وهناك ورد عليهِ مكتوب من الامير المشار اليهِ نصهُ

بسم الله الرحمن الرحيم — الحمد لله حمد المتوسلين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين . وعلى آله وصحبهِ آمين . من خادم اهل الله عبد القادر بن محيي الدين الحسني الى جناب العالم الفاضل . والهمام الكامل . صاحب المقام السني . الشيخ السيد محمّد بيرم افندي المحترم . ادام الله عليهِ سوابغ النعم . اما بعد اهداء تحيّة مقرونة بالاخلاص والتكريم . وادعية متوالية بدوام نفعكم العميم . فالموجب لتحريرهِ اولاً السؤال عن راحة وجودكم السعيد . والابتهاج بسماع حديثكم المجيد . وثانيًا قد بلغنا من ولدنا عبد القادر افندي الدنا سلامكم . ومزيد محبتكم ووِدادكم . وحصل لنا بذلك تمام السرور . زادكم الله نورًا على نور . ورغبة بربط اسباب المودّة بجنابكم . واستجلاب بدائع خطابكم . ومجاب دعائكم على الدوام . تحرّرت لكم هذه الارقام . وعليكم السلام في ١٦ جمادى الاولى سنة ٩٧ المخلص

عبد القادر الحسني

وكان المرحوم قبل توجههِ الى الاستانة ارسل مكتوبًا بواسطة بعض خواصهِ للوزير بتونس نصهُ "الصدر الهمام امير الامراء جناب الوزير الاكبر سيدي مصطفى اطال الله عمره اما بعد السلام التام فاني قضيت المناسك ولله الحمد ولم استطع المبادرة بالرجوع الى الوطن لاني في اضطرار الى اراحة البال والبدن للاسباب التي تعلمونها حقًا فلزمتني مراعاة الحال الى ان ينفس الله

الكرب لقوله تعالى ولاتلقوا بايديكم الى التهلكة والله حفيظ وولي من يتوكل عليهِ والسلام في غرة صفر سنة ١٢٩٧ " الاَّ ان هذا المكتوب لما بلغ تونس منعهُ احباء صاحب الترجمة وخواصهُ من الوصول ليد الوزير وبقي المرحوم في وظائفهِ الى حين وصوله للاستانة ولما ورد خبر وصوله اليها اسرعت الحكومة التونسيَّة بتوجيه جميع وظائفه الى غيره وهو المرحوم الشيخ احمد الورتتاني ومما يجمل بي ذكره هنا ان عائلة صاحب الترجمة رأت من مكارم اخلاق هذا الخلف وحسن تودُّده وتلطفهِ بها ماينذر وجود مثلهِ في الاعصر السالفة فضلاً عن هذا الزمان في وقت اضطهاد الحكومة لسلفهِ ومراقبتها الشديدة لكل ما يتعلق بهِ ثم ان صاحب الترجمة لما استقر بدار الخلافة مدح الحضرة السلطانيَّة بقصيدة مطلعها

النصر والتأييد والعمر المديد		قد توجت في عرشها عبد الحميد

وارَّخ سنة الجلوس الشاهاني بقوله

بشرى الولاية قد اتت تاريخها		لخلافة يسنى بها عبد الحميد

ولم تطل الايَّام حَتَّى ارسل الوزير التونسي يطلب من الباب العالي ارجاع الشيخ بيرم الى تونس مدّعياً انهُ سافر بدون رخصة الحكومة ولم يقدم حساباً عن ادارتهِ في الاوقاف والواقع ونفس الامر انهُ لم يطلبهُ الاَّ بالحاح قنصل فرنسا عليهِ من جهة لان فرنسا لا تحب حصول الارتباط بين تونس والدولة العليَّة باي وجه من الوجوه حَتَّى انها من بين سائر الدول لم تعترف بفرمان سنة ١٢٨٨ المقرَّر لتابعيَّة تونس للخلافة الاسلاميَّة ومن جهة اخرى قد خشي الوزير من التحام صاحب الترجمة بخير الدين باشا وافسادهما مساعيهِ

لتولي الامارة واطلاع الدولة العثمانيّة على دسائسهِ وسوء سياسة الحكومة التونسيّة في مدة الصادق باي لانهُ سلم جميع الامور بيد وزيره العديم الخبرة وقد بذل مصطفى بن اسماعيل جميع مجهوده واغرى بعض كبار الرجال في الاستانة لمساعدتهِ على اخراج الشيخ بيرم منها غير ان حكمة مولانا امير المؤمنين وعدالتهُ حالت بين صاحب الترجمة وبين اعدائهِ واصدر امره العالي بانهُ اذا كانت هناك دعوى على ناظر اوقاف تونس المقيم بالاستانة فلترفع فيها اذ ان تونس لم تخرج عن كونها من الولايات العثمانيّة الّتي تجمعها جامعة تخت السلطنة وبذلك سكت مصطفى بن اسماعيل عن دعواه الفاسدة اما اولاً فلانّ صاحب الترجمة لم يخرج من تونس الاَّ بجواز (باسبورت) رسمي ممضي عليهِ من الوزير نفسهِ بصفة كونهِ وزير الخارجيّة لم يزل محفوظاً للآن وقد حضر لوداعه يوم السفر كثير من كبار رجال الحكومة بما فيهم وزير البحريّة وأعدله بامر الوزير الاكبر زورق خصوصي من زوارق الباي لتوصيله للباخرة وقد اوصاه الوزير بمحضر جمهور عديد من التونسيين لاحضار بعض هدايا من الحرمين المحترمين هذا ما يتعلق بالسفر واما حساب الاوقاف فقد جرت العادة بنشره سنويًّا في الجريدة الرسميّة " الرائد التونسي " ولم يتأَخر نشره قط وهو محفوظ في مجموعة الرائد يمكن مراجعتهُ ثم ان صاحب الترجمة قبل سفره للحجاز اخذ براءة من مجلس ادارة الاوقاف ممضى عليها مِنْ جميع الاعضاء ومن امين الصندوق وهي حجة قوية ناطقة بان لا شبهة في الحساب ولا شيءَ من اموال الاوقاف باق في ذمة الناظر وتلك البراءة هي بنصها بالحرف الواحد

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمّد وسلم

ريالات فضه

٣٥٣٩٣٩ ١/٢١٠

٣٠٤٨٧٩ ٣/٤٠٤٢

٤٩٠٥٩ ٣/٤٠٥ ١/٢

٨٦٢ ٥″٠٠″

٤٠٤٣٤ ٣/٤٠٥ ١/٢

اطلعت الجمعيةً على حساب دخلها وخرجها سنة ١٢٩٦ التاريخ بانضمام حسابات السنين السابقة اليها فكانت جملة الدخل ثلاثمائة الف وثلاثة وخمسين الف ريال وتسعمائة وتسعة وثلاثين ريالاً ونصف ريال وعشرة نواصر فضة وجملة الخرج ثلاثمائة الف واربعة آلاف وثمانمائة ريال وثمانين ريالاً الاَّ ثمانية نواصر ونصف ناصري فضه الذي بتذاكر الجمعيةً وكان الفاضل ما قدره تسعة واربعون الف ريال وستون ريالاً الاَّ سبعة نواصر ونصف ناصري فضة اخرج منهُ الرئيس ثمانية آلاف ريال وستمائة ريال وخمسة وعشرين ريالاً فضة صرف خمسة آلاف فرنك صرفت في مصالح الدولة وخرجت فيها تذكرتين منها لقابضها يدفعها مصروفاً على يد الوزير الاكبر ولم يدفعها القابض الى الآن احداهما تذكرة موَرخة في ٢٧ القعده من عام ١٢٩٣ عدد ٤٦١٩ بها الفا فرنك اثنان وثانيتهما موَرخة في ١٥ الحجة سنة ١٢٩٥ عدد ٣٥٦٩ بها ثلاثة آلاف فرنك ولما كان الفصل الواحد والعشرون من ترتيب الداخلية للجمعيةً قاضٍ بابقاء المفتاح الثالث

للخزنة الثانية عند الرئيس والفصل السابع عشر من الترتيب المذكور قاض بان كاهية الجمعيّة يقوم مقام الرئيس عند غيبته وقد اراد الرئيس السفر الى اروبا فبمقتضى ذلك ابقيت تذكرتا الدولة المذكورتان بالخزنة الثانية المذكورة وسلم الى الكاهية مفتاحها الثالث بمحضر الجمعيّة بعد اطلاعها على الحساب المذكور وسلامة ذمة الرئيس مما في عهدتهِ وكان الباقي تحت يد امين مال الجمعيّة اربعين الف ريال واربعمائة ريال وخمسة وثلاثين ريالاً الاَّ سبعة نواصر ونصف ناصري فضة وكتب في ٢٠ يونيه الموافق لرجب الاصب ١٣ من عام ستة وتسعين ومائتين والف

صح احمد الورتتاني صح محمد بن الامين

صح محمد الشاذلي السنوسي صح من محمود بن سالم

هذا وقد خرج صاحب الترجمة مِن القطر التونسي وترك وظائفهُ فيهِ ولم يكسب منها شيئاً مع انهُ كان يسهل عليهِ كثيرًا في تلك الاوقات الدخول في ابواب الكسب بلا معارض ولا ممانع كما جرت بهِ العادة عند الكثير محافظة منهُ على الاستقامة واحترام الحق لا سيما والاوقاف لم تكن في بادئ امرها مضبوطة ولا معلومة فامرها في الواقع موكول لذمتهِ وطهارة نفسهِ فكان كثيرًا ما يلتزم لبيع املاكهِ وعقاراتهِ لتسديد مصاريفه الواسعة حَتَّى ان مصاريف سفره الاخير لباريس حيث توجه بمأموريَّة من طرف الوزير التونسي تحمل بها من عنده وبلغت اربعة عشر الف فرنك مع ان الوزير المذكور وعدهُ بتسديدها ولم يوفِ بعد . ولما استقرت اقامتهُ في دار الخلافة وجد المرحوم خير الدين باشا مهتمًا

بتقديم تقرير بشأن الاصلاحات المقتضي ادخالها في نظام الدولة العليَّة لزيادة سطوتها وتأييد عظمتها على حسب ما يفتكر وقد انهى التقرير المذكور بالفعل غير انهُ لم يحز محل القبول لانهُ لم يكن مطابقاً في بعض وجوههِ لاحكام الشريعة الغراء فاخذ الشيخ بيرم في تطبيقهِ عليها ولما انتهى منهُ حصل تقديمهُ للحضرة السلطانيَّة ومن ذلك الحين شملتهُ الانظار الشاهانيَّة بعين ملاحظتها لدقة علومهِ واتساع معارفه ثم انهُ تفرغ لتدوين "صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار" وتم الجزئين الاولين منهُ وكان يقصد تقديمه للحضرة المعظمة المشار اليها عند اتمامهِ خصوصاً وهو شارع في جعل خاتمة الكتاب المذكور على نحو مقدمتي ابن خلدون واقوم المسالك اي انها تتضمن ما يقتضيهِ الحال لاصلاح الاحوال في البلاد الاسلاميَّة لعود عصر شبابها اليها كما هو غرضهُ الوحيد الذي يدأب لهُ منذ زمان ويتحمل في سبيله كل مشقة وعناء وقد تحسنت صحتهُ اذ ذاك واستراح من اتعاب المرض وكاد ان يشفى منهُ تماماً حتى ان استعماله المرفين قل بحيث بلغ درجة تقرب العدم وبينما هو على ذلك الحال متنعم البال منتظراً الرحمة من الله بانقاذ بلادهِ من حكومتها الجائرة اذ ذاك وقد اعتذر عن العمل بمقترحات اقترحها عليهِ الموسيو فورنييه سفير فرنسا في ذلك الحين حاصلها الرجوع الى تونس تحت كنف فرنسا او الاقامة بالجزائر او بباريس اذ فاجأتهُ الاخبار بزحف العساكر الفرنسويَّة على الحدود التونسيَّة وابتداء حركة "خمير" المخترعة . نعم ان الشيخ بيرم كان عالماً بما ستأول اليهِ البلاد من السقوط في يد فرنسا ولكنهُ لم يكن ينتظر حصول ذلك في العصر الحاضر وكانت في تلك

الاثناء ترد عليهِ مكاتبات من بعض احبائهِ التونسيين وغيرهم بما يحصل في تونس مِنْ تلاعب الوزير بين قنصلي فرنسا وايطاليا وارضائهِ احدهما يوماً واغضابهِ الآخر يوماً ثانياً وكان الشيخ ينصح مكاتبيهِ ومحبيهِ بتجنب هذه الالعاب المضرة خصوصاً تظاهر الوزير بالميل الفجائي لايطاليا واغضائه مرة واحدة عن فرنسا حتى انهُ اهان كرامتها لان ذلك لا تؤمن عواقبهُ ولم يمض على ذلك شهر حتى ايدت الوقائع ما كان يخشاهُ وليس مِنْ غرضنا تكرار كتابة ما حصل في ذلك العهد لدخول فرنسا الى تونس واعلان حمايتها عليها اذ ان ذلك تكفلت بهِ كتابات غيرنا ولكننا نقول ان الحضرة السلطانيَّة اصدرت امرها لخير الدين باشا ولصاحب الترجمة بتقديم ما يريانهِ في هذه المسئلة لجانبها وقد كتب صاحب الترجمة في ذلك تقريراً مفصلاً لخص فيهِ بيان حقوق الدولة العليَّة على البلاد التونسيَّة وارتباطاتها بها قديماً وحديثاً واستنهض هم الدولة لانقاذ تلك المملكة المسلمة حيث انها مرقد المجاهدين ومدفن الصحابة والتابعين من الوقوع في يد دولة اجنبيَّة وختم التقرير بنتيجة ما يراه وهو انهُ اذا كانت الدولة تشغلها شواغل الحرب الروسيَّة وعواقبها من انقاذ تونس بالقسر من مغتصبها فلا اقل مِن انهُ يلزمها التحالف مع دولة اجنبيَّة اخرى للتساعد بها على نيل ذلك المرام ولو اقتضى الحال التنازل لها عن مدينة واحدة مثل مينا بنزرت في مقابل هذا التحالف وكانت الدولة جرت على مثلهِ مراراً عديدة فان خسارة مدينة واحدة خير من خسارة مملكة برمتها وقد كان الشيخ بيرم يكتب هذا التقرير والدموع تقرح عينيهِ والالم العصبي الذي تحرك وتجدّد يفتك بجسده وكان يكرر القول على جلسائهِ بان

لا حذر مما قدّر لا سيما وان الفرصة المناسبة للدولة قد فاتت وهذا الزمن زمن قتال لا وقت جدال وسيأتي ذكر هذا التقرير في مجموعة منشآتهِ ورسائله ولما رسخت قدم فرنسا في البلاد يئس المرحوم من قرب العودة اليها ورام التقرب من عائلتهِ للمخابرة في شؤون بيع ماتبقى من املاكهِ ونقله العائلة من تونس الى بلاد اخرى فسافر الى ايطاليا لذلك الغرض واقام في مدينة ليفورنو لقربها من تونس وكان مدة اقامتهِ في الاستانة معاشرًا لاهلها وخصوصاً ابناءَ العرب منهم معاشرة الصفاء والاخلاص متباعدًا عن المزاحمة في طلب المناصب او التداخل فيما لا يعنيهِ ولم يرَ منهم الاَّ ما يسره وكان السيد سلمان القادري رجع من القسطنطينيَّة الى بغداد فلما استقرَّ بها كاتب صاحب الترجمة بما نصهُ

"كتابي هذا وانا ممتلي من الاشواق . ومضطرب لما لها من الاحراق . كيف لا وحب ذلك المولى الاجل . والنجيب الافضل . قد اخذ بمجامع القلوب. واحاط بالفكر على اتم اسلوب. لمزيد ما انطوى عليهِ من الاوصاف الحميدة . والمكارم السديدة . مع طبع رائق . وعلو جناب فائق . وشهامة كاملة . ونجابة فاضلة . وعلم وافر . وفضل متكاثر. فكل فضيلة بهِ حريَّة . وكل مفخرة لهُ سجيَّة . وليكن معلوماً لسيدي ادام الله تعالى بقاه . واناله كل ما يتمناه . باني لم اخل ذكر ثنائهِ الجميل من اساني . ولم ينفك تخيل شخصه المنير لحظة عن جناني . بل لا زلت آنساً بما ذكرتهُ من الذكر والخيال. مفتخرًا بما حصلتهُ من محبة ذلك المولى النبيل بين الاحباب في جميع الاحوال. ثم اني وان قدمت من قبل هذا عريضة لم احظَ بجوابها من ذلك الجناب

الرفيع لكني ابدي عذرًا لما وقع من القصور مدة من عدم ترديفهِ بكتاب آخر اذ ترادف العرائض . معدود لدي من جملة الفرائض . فلم يكن التأخير المذكور ناشئاً من قصور في المحبة . ولا عن تقصير في العلم بعلو الدرجة والمرتبة . بل ذلك نوع من التقدير . ووجدانك القوي عالم خبير . يصدّق ما يدعيه هذا الخالص الفقير . فالمرجو من بعد هذا ان تستمر المراسلات في البين . وينقطع بوجودها البين . افندم

الداعي

في ١٩ جمادى الاولى سنة ١٢٩٩ پوست نشين حضرت كيلاني

نقيب بغداد

﴿ السيد سلمان القادري ﴾

وقد كان صاحب الترجمة على عادة اهل تونس وعلى ما امتاز بهِ من التشيع الكلي لآل البيت النبوي الكريم يميل ميلاً خاصاً للسيد المشار اليهِ لنسبهِ العالي وحسبهِ الغالي وفضلهِ المتلالي حتى ان ذلك كان من جملة البواعث على الايقاع بهِ تشفياً من سيادة السيد النقيب حرسهُ الله ومع ذلك فقد كان المرحوم يسعى جهدهُ لجعل علاقاتهِ مع جميع من يعاشرهُ من العرب وغيرهم في الاستانة على احسن ما يكون من المجاملة وحسن المعاملة وكان مع صاحبي السماحة السيد احمد اسعد افندي والسيد ابي الهدى افندي على قدم الوداد وحسن الاعتقاد كما يظهر من آثارهما المحفوظة لديهِ ونذكرها هنا تبركاً بهما وافتخارًا بودهما

"اخذت يابهجة الفضلاء . وقرّة اعين العلماء .

كتابكم الكريم . وامركم المحترم الفخيم . واطلعت على رسالتكم الجميلة [1]

(١) عقد الدر والمرجان في سلاطين آل عثمان

الشاهدة لحضرتكم بايادي العلم الطويلة . واني بحمده تعالى ممن يحب ان يسدي المعروف لاهل الفضائل . سيا لمثل حضرتكم من ارباب المزايا العليّة والفواضل . فاذا وفق المولى نقوم بتقديمها لمحلها . ودمتم ارباب المناقب واهلها "

الداعي

(ابو الهدى)

" قدوة الاماجد الكرام . ذو الفضل والاحترام . محبنا العزيز السيد محمَّد بيرام . حفظهُ الله آمين

وبعد مزيد السلام . مع التحيَّة والاكرام . نعرف سيادتكم هو ان الساعة ثلاثة ونصف في يومنا هذا لازم تشرفونا في البيت مع نجلكم المكرم لاجل ان نتبرك بكم . هذا ما لزم ودمتم . في عز وسرور . وانتم حبور

في ٧ ذي القعدة سنة ١٣٠٠ "

الداعي

(احمد اسعد)

وبعد ان اتفقْ صاحب الترجمة مع عائلتهِ على العود الى الاستانة والسكنى بها حيث لم يرَ محلاً انسب منها من بلاد الاسلام ولا تليق السكنى بعائلة مسلمة في بلاد اجنبيَّة مع انهُ كان يخطر في بال بعض التونسيين اذ ذاك التوجه في عدد كبير الى امريكا للاستيطان بها غير ان هذا الفكر لم يمكن تنفيذه لصعوبات حالت دونهُ فقصد المرحوم التوجه الى القسطنطينيَّة وعرج على جنيفا من بلاد سويسره حيث ابقى كاتب هذه الاحرف في احدى مدارسها المعتبرة ثم قصد ويانه وبلاد المجر والصرب ورومانيا حيث اقام ليلة في بخارست ومنها توجه الى وارنه من اعمال البلغار

ومنها ركب الباخرة قاصداً دار الخلافة حيث لم تتصل السكة الحديد اذ ذاك بينها وبين اوروبا وقد قاسى في هذه السفرة آلام البرد واتعاب السفر الذي حق فيهِ القول بانهُ قطعة من العذاب خصوصاً ولم يكن صاحب الترجمة يتكلم بلغة اجنبيَّة الَّا بعض كلمات فرنساويَّة وليس في النمسا ولا في البلاد الَّتي عرج عليها كثيرًا ممن يتكلم تلك اللغة وكان يسرع المسير للوصول قبل عائلتهِ الى الاستانة تحضير محل لنزولها وقد وصل اليها قبل العائلة بنحو يومين او ثلاثة وبعد ان استراحوا قليلاً فاجأهم ذوو الدسائس والاغراض بوشايات اوغرت الصدور على صاحب الترجمة وكادت ان توقعهُ فيما لا تحمد عقباهُ وكان مبنى تلك الوشايات علَى حصول الحركة العرابيَّة بمصر اثناءَ وجود الشيخ بيرم في اوروبا فبنى عليها اصحاب الاغراض اقوالاً فاسدة ومزاعم بعيدة منشأُها الحقيقي حزازات في صدورهم من الحسد له وبغية الايقاع بارباب المناصب من اصدقائهِ واحبائهِ فارادوا الانتقام منهم بالاساءَة الى صاحبهم وجعلهِ محل تهمة يستخرجون منها ما يروج غرضهم في النكاية باولئك الرجال فالتزم هذا المهاجر بدينه الى دار الخلافة الاسلاميَّة ان ينزوي في بيتهِ ويلازمهُ مدة تقرب من الستة اشهر لا يخرج منهُ الَّا لقضاءِ الضروري او اداءِ فرض عين كصلاة الجمعة وقد رأى في تلك الاثناءِ من تودُّد الهمام الابر الصالح الورع الشيخ محمَّد ظافر افندي المدني وتلطف الفريق الغيور الحاج حسن باشا محافظ مركز بشكطاش محل سكنهِ وكلاهما من اقرب المقرَّبين للذات الشاهانيَّة المخلصين لها في السر والعلانيَّة ما اطاق لسانهُ بالشكر وقلبهُ بالدعاءِ الصالح لهما والحق يقال ان

الحضرة الخاقانيّة لم تفترعن شمول صاحب الترجمة بعين رعايتها وكثيرًا ما
كان امير المؤمنين اعزّ الله بهِ الدين يظهر علائم رضائهِ وصفائهِ عليهِ حتى انهُ
لما اراد يهدي الى امبراطور المانيا فريدريك الثالث وكان اذ ذاك ولي العهد
بعض جياد الخيل امر احد الاعوان ان يتوجه الى الشيخ بيرم ليكتب رسالة
عربيّة يصحبها المأمور السلطاني معهُ عند ذهابهِ الى برلين ليقدمها مع الخيل
الى الامير المشار اليهِ وكان ذلك بعد صلاة يوم الجمعة الثالث والعشرين من
رجب سنة ١٢٩٩ وكان يطلق عليهِ عند ذكره من الفاظ العناية ما يستدل
بهِ على قرب منزلتهِ من خليفة المسلمين وبمجرد وصول جلالتهِ الى قصره
الفاخر بيلدز بعد صدور ذلك الامر جاءهُ الرسول بالكتابة المطلوبة فسرَّ
بها كثيرًا واثنى على كاتبها وتلك الرسالة هي " الحمد لله بديع الخلق كما شاءَ
واراد . جاعل الصافنات الجياد . عدة مستمرة من أهم آلات الاستعداد .
وصلاتهُ وسلامهُ على رسولهِ متمم مكارم الاخلاق . الحاث على الفروسيّة
واقتناءِ الخيل العتاق . وعلى آلهِ واصحابهِ فرسان ميادين الوفاق . اما بعد
فلا يعزب عن نباهة نبيه . ودراية خبير في المعارف وجيه . ما للخيل على
الاطلاق من المزيّة . في المنافع البشريّة . بسائر الآفاق . حتّى ورد في الخبر
الشهير " الخيل معقود بنواصيها الخير " لا سيما نوع العراب منها . الجامعة
لاشتات المحاسن فلا مندوحة لاهل الفضل عنها . ألم ترَ انها قد حوت جمال
الصورة . واستقلت بالحذق وتهذيب الاخلاق المشكورة . فكادت ان تشارك
النوع الانساني في الادراك . وفضلت سائر انواع الحيوان بلطافة الذات
والمزيّةِ في مواطن العراك . ألا وهي العاديات ضبحاً . المغيرات صبحاً .

متوسطة الجموع . مستشرفات الفروع . مبلغات الآمال . مقربات الشواسع لهم الرجال . فلذلك توجهت اليها عناية اهل الفضل . وتسابقت اليها الرغبات في الخصب والمحل . ولم تزل كريماتها محفوظة الانساب . متوارثة الخصال الحميدة من الاجداد الى الاعقاب . لا يأتلي اهل العناية عن اقتنائها . ومعرفة اصلها ونسبتها وانتشائها . ويفوز عليها بالمزيّة ما صلح منها لاقتناء الملوك العظام . سيما ما اختص بان يعتلي صهوتهُ خليفة الاسلام . لا زال تاجاً على هامة الايام . وما تختارهُ اليهِ العرب مِنْ صفوة جيادها الكرام . وعلى الخصوص ما تميز باهدائهِ . لخلاصة اهل ولائهِ . من الملوك الفخام . وكان منها هاتهِ الخمس الجياد . العتيقات الاعراق الامجاد . ثلاثة منها عراب الآباء والامهات . واثنان من خلاصة الاعاجم الوطن وان ناكبت العراب في الصفات . وقد تحرر هذا التحرير في التعريف باصولها . وما جمعت من سمات الكمال وفصولها . فاما الثلاثة العراب . السابقة القرين في العراقة والانتساب . فاولها اشقرها المبارك . الذي لا يدانيه في استجماع المحاسن مشارك . واسمهُ المجلى . وقد طابق اسمهُ مسماه اذ هو لمفاخر الخيل مجلى . وهو من جياد نجد العربيّة . الشهيرة الصفات والمزيّة . سقلاوى القبيلة . شامل لما يحمد في امثالهِ من الفضيلة . كل سلسلة اصولهِ من قبيلته المحمودة . وكلا ابويهِ متفرع من ذلك القبيل الى جدود كثيرة معدودة . مسماة اجداده وجداته . خالصة من اشتباه النسب وكمالاته . واما ثانيها وهو الاشهب . الجاعل ابعد القصبات الهين الاقرب . واسمهُ السابق . فهو مناكب متقدمهِ في جميع صفاتهِ حتى غدى بهِ لاحق . سوى انهُ استعوض عن النجديّة . بان كان من العراق العربيّة .

ولا يخفى ما لعتاقها من شهرة المزيّة . سيما في حفظ النسب من الاختلاط . وانتساق عموده على اقوم صراط . لا جرم ان كان وحيد اقرانه . بنباهة شانه . واما ثالثها المسوّم . وهو الاحمر المستكمل المقوّم . واسمهُ ابو ليلى . فقد جمع لما في جياد الخيل يتلى . اذ هو من صنف كحيل العجوز . الذي هو لصفات العتاق من العراب يحوز . وعلى من جاراهُ في ميادينها يفوز . فهو لا يجارى اذا ما ضمر . لانهُ مِن خلاصة خيل قبيلة شمر . فلعمري ان هاتهِ الثلاثة وان اختلفت انسابها . فقد اتحدت عراقتها واحسابها . وكل منها قد استكمل صفات الجودة والفضيلة . واستتبت فيهِ محامد كل الخصال الجميلة . فلا بدع ان تبعها ما يكمل بهِ عدد الخمس . مما تنبسط لهُ الروح وتنشرح بهِ النفس . وهما الفرسان الاخضران . اللذان استكملا صفة العتاق ولو انهما اعجميان . وهما من جزيرة مدلي الشهيرة . ذات النقطة المهمة مِن البحر الابيض الفائزة بالخيل ذات المناقب الخطيرة . وهما وان افترقا هيكلاً . فقد تفردا منظرًا مجملاً . اذ هما فرسا رهان . متحدا الاخلاق والسمات والالوان . فاستكملت هاتهِ الخيل مزايا التناسب . وكانت لها جهة ملائمة بما للمتهادين من التوادد المتقارب »

وقد كان السلطان ارسل لهُ قبل ذلك ايضاً كتاب الشفاء لابن سينا في نسخة جميلة لتفحصهِ وتقديم كتابة بمضمونهِ وبعد مدة من الزمن صفا فيها الجوّ للشيخ بيرم من رمي الاعادي وحسد الحساد زاد السلطان في اكرامهِ باحتساب مصاريف اقامتهِ في الاستانة على خزينة الدولة باعتبارهِ ضيفاً من ضيوف الحضرة السلطانيّة وذلك بان تدفع نظارة الماليّة اجرة المنزل ولوازم

البيت وقدرت في الشهر بخمس وعشرين ليرة عثمانيَّة وقد استمر صرف هذا المرتب مدة ثمانية عشر شهرًا اي لحين خروج صاحب الترجمة من الاستانة

وقد بادر المرحوم بكتابة المكتوب الآتي لاداء واجب الشكر على هذه العناية السلطانيَّة ونصهُ

المقام الذي اناخت به مطايا البيان واستقرت . واعترفت البلاغة بانهُ وحيد عصرهِ واقرت . وعضد اليراع اشهادها اذ كان بعد ان جست يدها استطاعته ونقرت . فلا بدع ان ابصرت بهِ عين الوزارة وقرت . وكان يمين الخلافة المؤمن منها على ما تشا . ألا وهو صاحب الدولة علي رضا باشا . باشكاتب الحضرة السلطانيَّة . افاض الله عليهِ آلاءهُ القدسيَّة . اما بعد سلام تحملهُ ايدي التعظيم . وتحفهُ آداب الاجلال والتفخيم . فقد بلغ العبد ما حصل لهُ من عناية مولانا صاحب الخلافة العظمى . والسلطنة الباذخة المجد الشمى . فوقع مني هذا الانعام الموقع الذي ليس وراءهُ حد في الاعجاب . وهزني السرور حتى اعجزني عن التلفظ بالخطاب . كيف لا وقد لاحت من ذاك الانعام بفضل الله علائم اخلاصي فيما اقتحمتهُ من مفارقة وطني وكسبي وعشيرتي وخواصي كما كنت بسطتهُ لدى جنابكم قبل ان تحدث على وطني الطامة الكبرى . المرجو من الله ان يبدل بأمير المؤمنين عسرها يسرا . من اني اعد عملي قربة لله جل وعلى . اذ في ذمتي ورقبتي بيعة لامير المؤمنين لا تبلى . ولا يجوز لي شرعًا ان ابتغي بعبد الحميد سلطاني بدلا . فقد ورد في صحيح البخاري " من خرج عن السلطان قيد شبر مات ميتة جاهليَّة " فلم ابالي لذلك بالمضادات الوطنيَّة والخارجيَّة . واستقررت في ظل الخلافة

الاسلاميَّة . إلَى ان غمرتني الانعامات الخاقانيَّة . فكيف لا اطير لهذا الانعام سرورًا . وهو علامة بارادة الله تعالى ان تنال النفس الرضى موفورًا . فقلت يا نفس قرّي عيناً . وردي من مناهل امير المؤمنين عذباً معيناً . فها انت شاهدت قسطاس عدلهِ . واين انت من جودهِ وفضلهِ . وفوق ذلك الطاف العناية . الّتي ليس وراءها للتطلب من غاية . فحسبي حسبي . ولنتوجه ضارعاً الى ربي . بشراشر لبي . واخلاص قلبي . ونقول اللهم يا من تجلى بجلائل نعمائهِ . ويا من احتجب برداء كبريائهِ . يا من توجهت الى جنابهِ الاقدس عزائم الآمال . ويا من تعلقت بعميم جوده اطماع السؤال . نستوهبك من الصلوات والتسليمات . ما يناسب من فضلتهُ على جميع المخلوقات . وانرت بهِ اقطار الارض والسموات . سيدنا ومولانا محمَّد خاتم الرساله . ومنار الدلاله . وتنظم فيها معهُ صحبهُ الكرام وآله . ونتضرَّع اليك اللهم ان تكسو هاتهِ الدولة العليَّة العثمانيَّة حلة النصر . خافقة ألوية عدلها الى آخر الدهر . مؤَيدة اعلامها . مكتوباً على صفحات الايام اجلالها واعظامها . بتأْييد اسد غابها . وامام محرابها . قرة اعين المسلمين . مولانا امير المؤمنين . المحفوف بالتأْييد الرباني . الخليفة الاعظم السلطان عبد الحميد الثاني . اللهمَّ وكما جعلتهُ منخرطاً في سلك المدح من رسولك عليهِ الصلاة والسلام لامراء القسطنطينيَّة من آله الكرام حسبما هو في الصحيح المأْثور . فاجعله اللهمَّ مظهرًا لوعدك حيث قلت " ولينصرَنَّ الله من ينصرهُ ان الله لقويٌّ عزيز الذين ان مكنا هم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور " واطل اللهم في طاعتك عمره . واجعل السداد

والصلاح فيما دبره . منكسة اعداؤهُ على الاعقاب . مستبشرة احباؤهُ بعمله المستطاب . وألسنتهم بالدعاء اليهِ صادحة . خاتمين ضراعتهم باسرار الفاتحة . وبعد ان انتظمت دعواتنا بمشيئة الله في سلك الاجابة . واحرزت من حضها موقع الاصابة . حان لعصابة الشكر والحمد والثناء ان تكون لسدَّة امير المؤمنين ايده الله مصروفة . ومن البديهي ان وقوعها موقع القبول لدى جلالتهِ على حسن تمهيد مثلك أيها الوزير بعد الاعتماد على الله تعالى موقوفة . فلتورِ لها زناد الحميَّة . من تلك الغيرة الرضائيَّة . لا زلتم صاعدين مدارج السعادة في العناية السلطانيَّة "

وفي تلك المدة تفرغ الشيخ لتأليف الجزء الثالث من صفوة الاعتبار وتحرير رسالة سماها "التحقيق في مسألة الرقيق" بحث فيها عن كيفيَّة معاملة الرق عند المسلمين بمقتضى الشريعة وبيان اسباب الرق ودواعيه واحكامه وذهب فيها الى ان العبيد المباعين الآن هم احرار وان منع الحكومات الاسلاميَّة لتجارة العبيد هو شرعي محض لا يحتاج الحال فيهِ لطلب الدول الاجنبيَّة وقد حرر قبل ذلك جواباً علمياً لبعض نبلاء الانكليز عن سؤَال وجههُ اليهِ مضمونهُ هل ان التونسيين مسرورون من دخولهم تحت دولة اجنبيَّة فاوضح السيد بيرم في جوابهِ بان التونسيين ليسوا اقل الامم حباً في الاستقلال والتنعم بلذائذه والغيرة على الوطن وانهم مسلمون يتمنون بكل جوارحهم دوام صلتهم بالجامعة الكبرى الاسلاميَّة واستدل على ذلك بادلة عقليَّة ونقليَّة طويلة مقنعة وقد كانت من عادة صاحب الترجمة منذ كان في تونس ان يحتفل كل سنة بالمولد النبوي الشريف احتفالاً

شائقاً واظب عليهِ لحين وفاتهِ حتى انهُ كان آخر اعماله في هذه الدنيا رحمهُ الله وفي كل سنة يكتب رسالة مخصوصة في موضوع من المواضيع العلميَّة يتخلص فيها لذكر المولد الشريف وقد الف في الاستانة رسالتين لذلك الغرض احداها فيما يجب لآل البيت النبوي الكريم من التبجيل والتعظيم مبيناً حقوقهم على المسلمين بشرط ثبوت النسب العلي حتَّى لا يدخل في هذه السلسلة السامية دخيل تترتب له تلك الحقوق الواجبة وثاني الرسالتين فيما يجب للنبي صلى الله عليهِ وسلم على سائر المسلمين وألف رسالة اخرى في سكنى دار الحرب وذلك عند ما رأى ماطرأ على بلاد الاسلام من التقهقر المستمر نسأل الله اللطف والسلامة وقد ذهب في هذه الرسالة بعد شرح ما عليهِ البلاد الاسلاميَّة الآن الشرح الكافي وايراد الادلة والنصوص الشرعيَّة الى ان الانسان حر فيما يختاره حسب مصلحتهِ واجتهاده . وقد سأله بعض الافاضل عن رأيهِ في مسألة الاجتهاد والتقليد مستنداً عَلَى الرسالتين المطبوعتين في الاستانة المنسوبتين لملك بهوبال صديق حسن خان فشرع في الجواب غير انهُ لم يتمهُ ويظهر من فحوى كلامهِ واعماله الخصوصيَّة انهُ يرى تقليد احد الائمة الاربعة واجباً على حسب المشهور في مذهب اهل السنة . ولما تولى امير تونس الحالي منصب الامارة هنأهُ الشيخ بيرم بمكتوب مصدر بهذين البيتين

ألا بعلي ملك تونس سدّدا فلا زال فخرًا للبلاد مؤيدا
ونجح دعائي بان اذ قلت ارّخن ألا بعلي ملك تونس سدّدا

وقد توجهت في ذلك الوقت آمال احباء قائل هذين البيتين لرجوعهِ

الى تونس اذ ان نفوره الذاتي كان من الوزير مصطفى بن اسماعيل الذي افل نجمهُ بوفاة سيده الصادق باي ولم يبق من مانع له من العود الى بلاده ومسقط رأسهِ ومدفن اجداده خصوصاً ورستان نائب فرنسا استبدل بغيره وصفا الوقت وزال المقت فكاتبهُ بعض المتشيعين للسفارة الفرنسويَّة بتونس بمناسبة الفرصة لا سيما وقد كان وعد الامير عند توديعهِ وهو اذ ذاك ولي العهد بالعود الى الوطن عند ولايتهِ عليهِ فاعتذر صاحب الترجمة عن كل ذلك بان السيرة العموميَّة هناك لم تبقَ على الحالة المألوفة ثم ان صحتهُ لم تزل في تقهقر في الاستانة لتأثره من الانفعالات النفسانيَّة المتسببة عن دسائس ذوي الاغراض السابق شرحها التي لا يكاد يخلو منها من كان له شأن بين الناس او فضل يميزه بين اقرانه والمعالجة والعيال يلزمها الكثير من المال فباع صاحب الترجمة جميع املاكهِ بتونس وصار يصرف من ثمنها في حاجياته وعوائدهِ التي لم يغير منها شيئاً بحيث رأى نفسهُ في تأخر مالي مستمر لا يأمن معهُ من الوقوع في مخالب الفقر وهو لم يحسن من العمل الَّا مباشرة عقاراتهِ والتفرغ للاشغال العلميَّة وكان بعض كبار اصدقائهِ ينفرهُ من سائر الوظائف العادية لاعدادهِ الى وظيفة مخصوصة تليق بعلومهِ وما زال منتظراً حتى ضاق لذلك ذرعاً وزاد عليهِ اشتداد المرض العصبي اذ وجد عاملاً لتحريكهِ قويًّا وهو الانفعال النفساني المستمر فنظر في امرهِ فلم يجد من البلاد الاسلاميَّة التي يمكنهُ الاقامة فيها براحة بال الَّا القطر المصري وهو مع حرارتهِ التي يأباها مزاج صاحب الترجمة الَّا انهُ اوفق من غيرهِ من البلاد الاخرى . اما الولايات العثمانيَّة فقد اشار عليهِ بعض المطلعين على الاحوال على ان طالبهُ

التوجه اليها لا يحوز محل القبول خصوصاً وهو لم يكن لهُ ميل الاَّ للتوجه الى المدينة المنوّرة للمجاورة او الى الشام ويمنعهُ عن الاقامة في الحجاز احتياجهُ المستمر للحكماء والعلاجات وهما شيئان مفقودان تقريباً من تلك الجهات المباركة فاستخار الله في القدوم الى مصر وساعدتهُ المقادير بالحصول على مكاتيب توصية لبعض ذوي النفوذ في هذه البلاد فاراد طلب الرخصة للقدوم اليها ولكنهُ استشعر ان طلب الاذن للتوجه اليها ربما لا يحوز قبولاً خصوصاً وانهُ تعذر عليهِ وجود من يبلغ الحضرة السلطانيَّة تفصيل امرهِ وشكوى حالهِ على الوجه الحقيقي والاَّ فان احترام الخليفة لمثلهِ من علماء المسلمين كان يدفع شكواهُ ويرفع عنهُ ألم معيشتهِ ولكن دون الملوك من عقبات الاشغال ما يمنعهم عن الوقوف احياناً على مثل هذه الاحوال فاذا فقد الناصح الامين الذي يتيقظ لملافاة هذه الامور بحسن تبليغها الى مقام الخلافة حصل الاهمال الذي وقع فيهِ صاحب الترجمة وامثالهُ فالتزم التمحل بطلب العودة الى الوطن وقارن هذا الطلب الاجابة اذ كاتبهُ علي رضا باشا باشكاتب المابين الهمايوني بهذه البطاقة العربيَّة وهذا نصها بالحرف الواحد بخط يدهِ

" العالم الفاضل والاديب الكامل محمَّد افندي بيرم سلمهُ الله

بعد التحيَّة الوافية نبدي لكم انَّنا عرضنا مادة العزيمة الى بلدتكم فصدرت الارادة السنيَّة السلطانيَّة على عزيمتكم الى ذلك الطرف ان شاء الله تكون مصحوباً بالسلامة ونروم منكم ان لا تنسونا من دعائكم الصالح في السفر والاقامة ودمتم في ٢١ ذي الحجة سنة ١٣٠١ (علي رضا) "

ومما يذكر هنا مقروناً بمزيد الاسف ان القسطنطينيّة العظمى تشتمل على نحو المليون نفس من السكان من اجناس مختلفة اقلهم ابناء العرب او المنتسبون اليهم ومع ذلك لا ترى اشد منهم تهافتاً على الايقاع فيما بينهم فبينما ترى الروم والارمن واليهود يعاضدون بعضهم بعضاً ويسعون لبني جنسهم في الخير بحيث يصدق عليهم انهم كالبنيان المرصوص يشد بعضهُ بعضاً ترى اولاد العرب المسلمين ينتحلون ويتلهفون على اختلاق الاسباب وايجادها لابعاد بني جنسهم عن دار الخلافة وتنفير قلوبهم منها ولله في خلقهِ آيات. فقد راجت فيهم سوق التحاسد والتباغض والتنافر والتشاحن حتّى لا يكاد يخلو حديث من احاديثهم او حركة من حركاتهم الاَّ في ايذاء بعضهم وايقاع السوء بأنفسهم والتخاذل فيما بينهم لا فرق في ذلك بين الكبير والصغير والعظيم والحقير بل الداء واحد في الكل الاَّ من وفق الله ولا شك ان هذا من سوء حظ الاسلام الذي كان ينبغي ان يصرفوا لهُ اوقاتهم في خدمتهِ بما في يدهم من القدرة على نفعهِ نسأل الله ان يرفع من بينهم آفة الدسائس الّتي يشوشون بها على انفسهم وعلى بلادهم ويسقطون بها سائر الامة العربيّة في أعين الامة التركيّة

وقد غادر الشيخ مركز الخلافة والعين مغرورقة بالدمع والحشاء ممتلئ بالاسى والصدر مفعم بالاسف ليس ذلك لمنصب فارقهُ او لرفاهة عيش زايلها او لطمع في شيء من نعيم الدنيا الزايل وعيشها الفاني وانما كان يتحرق فؤادهُ لما كان يرى عليهِ الامة الاسلاميّة من الانحلال والاخذ في اسباب الضعف وكيف ان بلادهُ وقعت اولاً في يد الاجنبي وخرج لاجل ذلك

مشتتًا بعائلتهِ في البلاد ليسكن بها بلدة اسلاميَّة فلم يرَ امامهُ مكانا هو اولى ان يقصد لهذا الغرض وأليق بعالم مسلم مثلهِ من اولاد نقباء الاشراف ان يقيم بعائلتهِ فيهِ سوى دار الخلافة وعلل النفس بأَن ما يراهُ هناك من صولة الاسلام وتشييد الدين واستقامة أُمور المسلمين واجتهاد امير المؤمنين ومن حولهُ من خاصتهِ وحاشيتهِ ورجالهِ لانقاذ الاسلام واهلهِ مما سيسلى مصابهُ بفقد بلادهِ ومنَّى النفس بانهُ لا ييأَس على ضعفهِ وعجزهِ من القيام بخدمة تفيد الاسلام او نصيحة تشيد الدين او اشتراك في عمل يجمع بهِ كلمة المسلمين او ما يماثل ذلك مما يجب على كل فرد من المسلمين القيام بهِ وخصوصًا من كان من طائفة العلماء فرأَى اسوء الحظ من تلك الدسائس ودنايا السعايات ومسابقة الوشاة اضرارًا بكل من كان مثلهُ على رأيهِ حتى يخلو الجوّ لاولئك المسابقين ما اضطرهُ الى مبارحة دار الاسلام للتشتت مرة اخرى في البلاد بعائلتهِ بعد ان يئس من العمل في حقهِ بمقتضى الآية الشريفة " قل لا أسأَلكم عليهِ اجرًا الاَّ المودة في القربى " والمرحوم يمت بحبل النسب الى البيت الطاهر النبوي من جهة ويتصل من الجهة الاخرى الى مجاهد في سبيل خدمة الدولة العليَّة اراق دمهُ في افتتاح البلاد التونسيَّة ولم تزل اعقابهُ تتوارث الولاء والاخلاص والصداقة المتينة للدولة العليَّة في كل زمان ومكان حتَّى انهُ لما اهدى السلطان عبد المجيد كركًا من السمور الفاخر من ملبوساتهِ الذاتيَّة الى امير تونس احمد باشا لم يرَ الامير المشار اليهِ أليق بلبسهِ من الشيخ بيرم الرابع فاعطاهُ اياهُ ولم يزل محفوظًا يتبرك بهِ في بيت بيرم بتونس وصار لبس الكرك مزيَّة لهم لم يقلدهم فيها سواهم وقد اكتفى الشيخ

الرابع بذلك عن قبول نشان الافتخار التونسي لما عرضهُ الامير عليهِ واتبعهُ في ذلك صاحب الترجمة ايضاً سنة ١٢٩٥ اذ صارت العادة في تونس ان العلماء لا يتقلدون النياشين وفي حرب الدولة مع الروسية سنة ١٢٤٤ تقاعست الولاية التونسيّة عن نصرة الدولة مادّيًا وادبيًا فلم يجد شيخ الاسلام بالاستانة من يستعين بهِ لحث المسلمين في تونس على مساعدة الدولة الّا جد صاحب الترجمة بيرم الثاني لما هو مشهور عن هذه العائلة منذ القدم انها متعلقة بخدمة الدولة لا تفتر عن ذلك ابدًا فاجابهُ بالمكتوب الآتي نصهُ

" ربنا افرغ علينا صبرًا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . ان احسن ما تشرفت بهِ الامة المحمديّة . وتجملت بهِ العصابة الاحمديّة . اتباع اوامر الله تعالى ونواهيهِ . وبذل الجهد في اعلاء هذا الدين وتشييد مبانيهِ . اقتداء بصدرها الاول . وعملاً بسنة نبيهِ المرسل . ولعمري ان هذا في العبارة وان كان سهلاً بيناً . ففي ابرازه للوجود ليس هيناً . لتوقفهِ على امدادات الهية . وهداية ربانيّة . وداع الى هذا بلسانهِ . ورمحهِ وسنانهِ . وقد تطابقت حملة الانباء في سائر البلاد . مِنْ جميع العباد . ان القائم بهذا الشأن . والحائز قصب السبق في هذا الميدان . ومجدد الدين بعد الاندراس . ومظهر اعلامه اثر الانطماس . الدولة العثمانيّة اعلى الله منارها . وضاعف اقتدارها . وانام الانام في ظلها . واعاد عليهم من فيض فضلها . فلم تخل والحمد لله من امام يهدي الى الحق والى طريق مستقيم . ولم يأل جهدًا في رمي اعدائهِ بالعذاب الاليم . مؤيد من الله بعلماء . عاملين هم ورثة الانبياء ناهجين في نصح العباد مناهج الاصفياء . وقد ورد علينا من حضرة مولانا شيخ

الاسلام . وامام العلماء الاعلام . ومرجع الحكام في الاحكام . ومن بيده مقاليد النقض والابرام . لا زالت اقلامهُ في بحار العلوم سابحة . ومواعظهُ للقلوب جارحة . وتجارتهُ عند الله تعالى رابحة . كتاب كريم . هادٍ باوامره ونواهيهِ الى الصراط المستقيم . لا يقابلهُ كل مؤمن الاَّ بالقبول والتسليم . وكيف لا وقد جاء بالذكرى الَّتي تنفع المؤمنين . المأمور بها في الكتاب المبين . حاثّاً على الجهاد . والتشمير عن ساق الاجتهاد . وتعاطي اسبابه . وطرح الامور الصارفة عن بابهِ . فاجتمع لقراءتهِ الاعيان من العلماء وغيرهم بحضرة الامير جمعاً . وفتحوا لهُ قلباً وسمعاً . وتلقوه بالاذعان والقبول . والمبادرة لامتثالهِ بالفعل والقول . واميرنا مثابر على تنفيذ اوامر الدولة العلية . الَّتي طاعتها من طاعة رب البريَّة . وماهو الاَّ ان يؤمر فيطيع . ويكاف فيأتي بما يستطيع . والله تعالى يؤيد سلطاننا بمدد نصره . ويجعل اعداء الدين تحت قهره . ويعلي رايتهُ الشامخة في البر والبحر . ويكتب على صفحاتها سورة الفتح والنصر . والسلام اللائق بجلالكم . من العبد الفقير محمَّد بيرم "

وفي الحرب الاخيرة تأخرت الحكومة التونسيَّة عن مساعدة الدولة ايضاً لخوفها من معارضة فرنسا فقام الشيخ بمقتضى ما ورثهُ عن ذويهِ من محبة الدولة العليَّة يحرض الوزير وينصح الامير ويحض المسلمين جميعاً على اعانة الدولة ولم يكتف بذلك فقط بل سعي سعيهُ حتَّى توصل لاستخراج فتاوى شرعيَّة بوجوب القيام بواجب المساعدة للدولة حتى لا يبقى هناك عذر لمعتذر في ذلك التقاعس وهذا صورة السؤَال الذي طلب عليهِ الفتوى

" علماء الاسلام . بعد اهداء السلام . والتحيّة والاكرام . ما قولكم .
رضي الله عنكم . في نازلة صورتها ان امام المسلمين قد اخبر اهل قطر من
المسلمين ممن هم تحت طاعتهِ . وداخلون تحت بيعتهِ يخطب ائمتهم باسمهِ على
منابرهم بان العدوّ قد فاجأ بلاد المسلمين معلناً بالحرب ووقعت منهُ المباشرة
بالفعل في حدود المملكة وكان الامام استشعر من العدوّ ما آل امرهُ اليهِ
من مباشرتهِ بالحرب فهيأ من العساكر بحدود المملكة للمدافعة عن بيضة
الاسلام نحو الستمائة الف وحين اطلاعهِ على جيوش العدوّ وعلم ما امكن
من اخبارهم رأى الامام ان الستمائة الف تحتاج الى ضم آخرين اليهم من
العدد الكثير الذي تحصل بهِ مقاومة العدد ويمكن لهُ بهِ مدافعة العدوّ فاستنفر
كل من استطاع من اهالي ذلك القطر الى الانضمام الى حوزة العساكر ثم
الذي وقع في الخارج بعد استنفار الامام هو ان العدوّ قد استولى على
بلدان وقرى من مملكة ذلك الامام واهاليها مسلمون جارية في تلك البلدان
والقرى شعائر الاسلام كما استولى على قسم من مملكة ذلك الامام سكانه
نصارى يؤدون الخراج ويذعنون بالطاعة للامام وهذا القسم له بال من
المملكة يبلغ عدد سكانهِ نحو الخمس ملايين وقد جعله العدوّ مركزًا لذخائره
وعَدَدِهِ وعُدَدِهِ بما فيهِ مِن الحصون ومع ذلك لم يقدر العدد الوافر المهيأ
من عساكر المسلمين على اخراج العدو لما تسلط عليهِ ثم حصلت للعدو مضرات
اخرى من غزو سفنهِ وثورة قسم ممن كان تحت سلطانهِ من المسلمين باعانة
الامام لهم فهل يجب والحالة ما ذكر على احاد ذلك القطر المستنفر اهله ممن
قدر على الزاد والكراع والسلاح ان ينفر للامام ويلبي دعوتهُ سواء كان

ذلك القطر موالياً لموضع الهجوم او بعيداً عنهُ وعلى تقدير ان يكون الموضع الموالي اهله تكاسلوا اوعرض لهم مانع يتعلق الوجوب حينئذٍ بمن يلي من يليهم وهكذا ام لا يجب واذا قلنا بوجوب ذلك على الافراد والاشخاص بذلك الشرط فلو كان هناك من له منفعة عامة كمثل عالم لا اعلم منهُ في البلد بفصل القضاء فهل ذلك مسقط للوجوب عنهُ ام لا جوابكم الشافي "

وما فتئَ رحمهُ الله يخلص الخدمة للبيت العثماني عند كل فرصة وبكل وسيلة حتَّى انهُ رأى رأياً ينتج عنهُ نفع المسلمين وارتقاء شأنهم جميعاً من جهة توثيق عرى الجامعة الاسلاميَّة وائتلاف ممالك المسلمين وتنظيم احوالها على ما يضمن قوة المركز وثبات الوجود ومن جهةٍ اعتلاء شأن البيت العثماني بتشييد امر الخلافة فيهِ على جميع المسلمين وممالكهم وذلك الرأي هو ان تتحد الممالك المستقلة الاسلاميَّة والولايات العثمانيَّة المستقلة استقلالاً داخلياً ثم يصير الجميع عصبة واحدة ومملكة واحدة تحت رئاسة الخليفة السلطان العثماني ومن ضمن الامور الَّتي اوصى بها في روابط هذه الجامعة ان يجتمع امراء الممالك الاسلاميَّة في بعض السنين بالكعبة المطهرة لتكون شاهداً على قوة ارتباطهم وفي ذلك من اعلاء شأن الممالك الاسلاميَّة ما لا يخفى عَلَى كل من امعن النظر في نظام الممالك الالمانيَّة الَّتي كانت ضعيفة ضئيلة بتفرقها ممالك صغيرة يسهل على الطامع ابتلاعها كما حصل مراراً فلما اتحدت جميع المقاطعات الالمانيَّة على النمط الذي نراهُ الآن بمملكة بروسيا اصبحت اعظم الممالك شأناً واشدها قوة وصارت مملكة بروسيا الَّتي كانت تحت رحمة الطامع لضعفها وانفرادها اقوى الممالك باتحادها مع بقيَّة الممالك الالمانيَّة وقد

كتب المرحوم في هذا الباب كلاماً طويلاً مستشهداً فيهِ بالشواهد الدينية والتاريخية كقول احد مشايخ اسلام الاستانة الاقدمين عند تحسينهِ هذا المشروع لمن كان يعارضهُ ان الاليق بمجد السلطان وفخر الدولة ان يكون السلطان سلطان السلاطين لاسلطان الولاة وربما ادخلناهُ في ضمن ما سننشرهُ مِن بعض كتاباتهِ الَّتي تركها عند الفرصة

وقد خرج الشيخ على تلك الحال يُقلب طرفهُ في البلاد لعلهُ يجد بلدة اسلاميَّة يشد اليها رحلهُ فلم يجد من بلاد المسلمين بلدة يطمئن فيها الساكن على نفسهِ وعرضهِ ولا يكون عرضة لمثل تلك الدسائس الاَّ البلاد المصريَّة وان كان دمعهُ يجري اسفاً على تلك البلاد ايضاً الَّتي اصابها ما اصاب غيرها من سيطرة الاجنبي عليها ولكن رب ضار نافع وبعض الشر اهون من بعض وقد انكر عليهِ المتشدقون عملهُ هذا وقدومهُ عَلى مصر في حالة وجود الانكليز وتضارب الاحوال فيها غير انهُ كان يجيب على ذلك " بان لا حق لأَحد في الاعتراض عليَّ اذ ان الدولة رضيت لي الاقامة في تونس تحت حماية فرنسا حسب منطوق الارادة السنيَّة المسطرة اعلاه وتونس انسلخت بالمرة عن الممالك العثمانيَّة ولا اثر لسلطة الدولة او المسلمين فيها. اما مصر فانهُ مع وجود الانكليز فيها فانها لم تزل ولاية من ولايات الدولة وسيطرة الحكومة المحليَّة فيها قائمة وعلى فرض المساواة في المعاملة لا قدَّر الله فلا فرق بين الانكليز والفرنسيس "

وقد انتقل المرحوم بعائلتهِ الى مصر معرجاً فيطريقه على بلاد اليونان وذلك في المحرم سنة ١٣٠٢ (نوفمبر سنة ١٨٨٤) اي بعد الاحتلال الانكليزي

بسنتين وشهرين ولما استوطن بالقاهرة هنأهُ حضرة المصقع البليغ الشيخ حمزة افندي فتح الله بهذين البيتين البديعين

لئن اشرقت في الشرق مصر ببيرم واضحت بهِ تلك الكِنانة تونس
فكم شاد مع آبائهِ مِن مكارم اضاءَت بها في الغرب من قبل تونس

وبعد ان استراح ايّاماً قابل الجناب الخديوي التوفيقي المرحوم فاظهر لهُ مزيد العناية وانزله منزلة الثقة الامين فحكى له سموّهُ جميع ما جرى في الثورة العسكريّة وتفاصيلها و كلما يتعلق بما قاساهُ فيها وختم كلامهُ بقوله "انني ذكرت لكم كل هذا لتتاكدوا من صداقتي لكم " ثم اظهر له من علائم الاكرام ما جعله دائم الشكر له ومِن ذلك انهُ امر بان تكون مصاريف الشيخ على نفقة الحكومة كما كان في ضيافة مولانا السلطان وفي ٢٥ ربيع الاول من تلك السنة اصدر جريدة الاعلام وهي جريدة علميّة سياسيّة يوميّة غير ان صحة صاحب الترجمة وقلة اختباره بالقطر المصري لم تساعداهُ على توالي اصدارها يوميّة فجعلها تظهر ثلاث مرات في الاسبوع ثم صارت اسبوعيّة واستمرَّت كذلك مدة طويلة بحيث ان اول عدد منها صدر في التاريخ المذكور وآخر عدد وهو ٢٦٩ صدر في غرة جمادى الاولى سنة١٣٠٦ ثم احتجبت الجريدة المذكورة عن الظهور بتولي صاحبها خطة القضاء في محكمة مصر الابتدائيّة الاهليّة وكان في نيتهِ عند تأسيسها مع فتح مطبعة مخصوصة بهِ ان يشغل نفسهُ بتحريرها وبطبع الكتب المفيدة طلباً لنفع العموم بما اكتسبهُ من الاختبار بالتجول في البلدان وبما يعلمهُ من العلوم الشرعيّة الاسلاميّة وتطبيقها على الاحوال السياسيّة الّتي ينتج عنها تحرير البلاد وانتظام امورها كما كانت تتولع بهِ نفسهُ منذ القديم

حتى قال خير الدين باشا عن هذه الجريدة انها لا تلبث ان تكون " تيمس العرب " ودفعهُ الى ذلك ايضاً ما كانت عليهِ سجيتهُ من حب الاشتغال بالعلوم وفن التحرير والانشاء وما يتسع هذا الغرض الاَّ في مثل الاشتغال بطبع الكتب وانشاء الصحف ولكن قد خاب جميع امله اذ ان الجريدة لم تطل ايامها حتى رماها بعض الناس بانها تحث على الانتماء للاجنبي وهو امر لم نقله ابدًا وغاية ما هنالك انها كانت تحث علَى الاستفادة من الانكليز ما داموا موجودين في البلاد اذ ان معاكستهم وامر البلاد والامة جميعاً في يدهم لا تحمد عقباها كما بينتهُ التجربة بعد والذي ألجأهُ لانتهاج هذا المسلك ما قاساه مِنْ ظلم الاستبداد وما رآه من وجود عوامل محركة في مصر باغراء بعض الاجانب لتوغير صدور الناس على حكامهم اذ ذاك وخشي من دوام الحال على ذلك المنوال ان يأتي بالضرر المادي والمعنوي على الطائفة الاسلاميَّة والحاصل ان كثيرًا من الناس لم يقدروا عملهُ حق قدرهِ هذا زيادة عن ان حال الجرائد في الشرق ليس هو على ما يشاهد في البلاد المرتقيَّة في التمدن والحضارة بحيث ان الجرائد هنا لا تنجح الاَّ اذا كان لها معضد قويٌّ ولم يتعوَّد الشرق لغاية الآن ان ينمي شيئاً ما لم تكن يد الحكام فيهِ والشيخ بيرم كان قليل المعرفة بالناس واخلاقهم في مصر فلم يجن من جريدتهِ ثمرة تذكر ثم ان الكتب الَّتي طبعها تحمل بخسارة مصاريفها ولم يكسب منها شيئاً وزد على ذلك انهُ تربى في ترف وعزة نفس وهمة عالية ومن تكن هذه اخلاقهُ قلما ينجح في عمل تجاري ثم ان الحرّ اضر بهِ بصحتهِ وزاد في تقهقرها فزاد في استعمال المرفين زيادة مفرطة حتى صار يستعمل نحو الغرام وكسور

في اليوم وهو مقدار كاف لقتل عدة من الانفس الغير المتعودة عليهِ فالتزم بعد سنتين ونصف مِن الاقامة بمصر ان يسافر الى اوربا وكان ذلك قريب احتفال ملكة انكلترا بمضي الخمسين سنة على توليها الملك فتوجه اولاً الى مدينة فلورنسا من اعمال ايطاليا لملاقاة صديقهِ المرحوم الجنرال حسين باشا التونسي حيث طلبهُ لتسوية شؤونهِ لما اعياهُ المرض فأوقف جملة من املاكهِ على بعض اخصائهِ وخصصها بعدهم لجيوش المسلمين ومن هناك قصد المرحوم مدينة باريس لاستشارة حكمائها في امر صحتهِ ثم سافر الى لندرة عاصمة الانكليز وهناك قابل جملة من نبلائها وكبار اعيانها كاللورد سالسبوري واللورد نورثبروك وقد تكلم مع من قدَّر الله والاهمال ان يكون بيدهم زمام الاحوال المصريَّة بما رآهُ نافعاً لبني جلدتهِ وجنسهِ وحامياً لذمارهم ومشيدًا في المستقبل لفخارهم وكان اذ ذاك النفور متمكناً بين نائب الانكليز في مصر وبين رئيس مجلس النظار فيها فكان القوم في حيرة من هذا الامر خصوصاً والمرشحون لمنصب الوزارة في مصر قليلون جدًّا والفكر القائم في اذهان بعضهم حينئذٍ ان رياض باشا مكروهٌ في البلاد مستدلين على ذلك بظهور الثورة فيها مدة وزارتهِ الاولى فبذل المرحوم جهدهُ لصرف هذا الفكر وسعى بقدر استطاعتهِ لما فيهِ اعلاءُ شأن المسلمين وبعد ان حضر الاحتفال رجع الى باريس لاتمام المعالجة ثم عاد الى مصر بعد ان تغيب عنها نحو الخمسة اشهر معرجاً في طريقهِ على برلين وويانه وفي الاثناء المذكورة سعى الساعون كثيرًا لارجاعهِ الى الاستانة وكاتبهُ بعض اصدقائهِ في ذلك حسب ما صدرت بهِ الاوامر السلطانيَّة فأظهر المرحوم كمال

استعداده للرجوع اليها قائلاً ان بيعة امير المؤمنين لم تزل في عنقي واوقف رجوعهُ على تسوية احوالهِ المالية ثم يقدم الى القسطنطينية ومع ذلك فلم تكن الاعداء تكف عنهُ الاذى في غيابهِ ايضاً حتى انهُ لما طبع صاحب الترجمة احدى رسائلهِ المذكورة آنفاً المختصة بحقوق الاشراف دس ارباب الدسائس لهُ في دار الخلافة ما اوجب المخابرة مع الحكومة المصرية بشأن موضوع تلك الرسالة اذ قيل انهُ تعرض فيها لمسالة الخلافة وهو امر لم يخطر لهُ على بال ومن العبث ان يفتكر فيهِ عاقل وحاشا لمثل الشيخ بيرم وقد وصل لما وصل اليهِ من التعب المادي والمعنوي غيرة منهُ على بني جنسهِ وملتهِ ان يتصور حدوث زيادة الشقاق بينهم وزرع بذور الخلاف بمسألة استقرَّ القرار عليها منذ قرون واجمع المسلمون قاطبة في مشارق الارض ومغاربها عند عربها وتركها وزنجها بالاقرار فيها لبني عثمان منذ عهد السلطان سليم الاول ثم تعقبوهُ ايضاً فيما يكتب في جريدة الاعلام الى ان يسر الله بقدوم الغازي مختار باشا الى مصر وظهر لهُ بالعيان فساد تلك الوشايات

وفي اثناء سفره كاتبهُ العلامة المرحوم الشيخ عبد الهادي نجا الابياري من كبار علماء الجامع الازهر ومفتي المعية السنية بهذا المكتوب

بسم الله والسلام عليكم ورحمة الله

ورد الكتاب على المحب المغرمِ فشفاهُ مِنْ وجد الغرام المؤلمِ
قد شمت منهُ مذ شممت اريجهُ بشرًا بصحة ذي السيادة بيرمِ
حيًّا فأحيا مهجة كانت بها قاساهُ تمسي في اشد تألمِ

وابيك ما ذاقت شرابًا سائغًا من بعد فرقته وراحة نائم
الاَّ بان سرَّت سرائرنا بما ابداهُ من سريان برء محكم
لجناب مولانا الهمام فانهُ هو بهجة الدنيا ونور العـالم
جمع الاله لهُ الفضائل مثلما جمع الزهور الروض تحت المِرزم
ما بين اخلاق كازهار الربى ومحاسن تزهو بكل مخيم
بجمالةٍ وجلالةٍ وفخـامة وسماحة موروثة عن حاتم
وسيادة وسعادةٍ ابديَّة وجميل تدبير برأي محكم
فالله يكمل صحة لجنابهِ ما غردت قمريَّة بترنم

استفتح ألوكتي هذه بلطائف تحيَّات تتمسك. بها نسائم الاسحار فتتمسك. واستفتح كمائم رقائق تضرعاتي بقلب سليم الى ربهِ تنسك . مبتهلاً اليهِ تعالى ان ينعم البال ويشرح الصدر بكمال صحة مزاج حضرة نضرة وجه الايام. وغرة طلعة الزمان وقرة اعين الانام . شمامة الدنيا الَّتي بها تتأرج . وشمس قلادة العلياء الَّتي بها تتبرج . علامة العصر. الذي انست محاسنهُ محاسن ابناء سلافة العصر. فما هو الاَّ روح الارواح . ولوح الفضائل الَّتي تتبلج في المساء والصباح . وان شفاء جسمهِ لشفاء لكل عليل . ورواء ظما كل غليل . فمهما صح مزاجهُ الشريف صح مزاج الايام . ومهما لبس حلل العافية فعلى الدنيا السلام. هذا ورجائي ان تنعشوا روحي بتوالي اخبار صحتكم كلما وفد وافد . وتنعموا نفسي بورود اخبار صحتكم كلما ورد لهذا الطرف وارد . ثم سعادة الهمام فكري باشا يتحف حضرتكم بلطائف التحيَّات . احسن الله لنا ولهُ ولحضرتكم النهايات

في ١٣ الحجة سنة ١٣٠٤ عبد الهادي نجا الابياري

وعلى ذكر هذا المكتوب والشيء بالشيء يذكر ننشر هنا بعضاً من محررات وردت على صاحب الترجمة عن لسان المغفور لهُ توفيق باشا دلالة على منزلته لديهِ وانموذجاً على معاملته له فمنها تلغراف جاءهُ جواباً على التهنئة التي قدَّمها يوم تذكار الجلوس الخديوي في ٢٦ يونيه سنة ١٨٨٨

حضرة الاستاذ الفاضل السيد محمَّد بيرم بمصر

تلغراف حضرتكم الوارد بتهنئة الحضرة الخديويَّة على اليوم السعيد بعرضهِ قد صارت الممنونيَّة لجنابهِ العالي من ذلك ولزم تبليغ الامر للمعلوميَّة

سر تشريفاتي خديوي

برأس التين.

ومنها مكتوب ورد لهُ من محمَّد زكي باشا تشريفاتي اول خديوي اذذاك وهو

حضرة والدنا العزيز المحترم دام بالخير والنعم

تشرفنا بورود تذكرة حضرتكم ومتشكرين غاية التشكر وبوقتهِ قدمنا الامانة للاعتاب الكريمة فحصلت الممنونيَّة التامة وامرنا بتبليغ ذلك لسيادتكم افندم

الداعي

في ٦ شعبان سنة ١٣٠٦ محمَّد زكي

ولما كنا بصدد ذكر هذه المحررات فلنجعل خاتمتها مكتوباً ورد على المرحوم من صديقهِ الحميم . الملاذ العظيم . ذي القلب السليم . الاستاذ الابر مولانا الشيخ محمَّد ظافر دامت بركاتهُ اذ الغاية بيان ما كانت عليهِ صلات صاحب الترجمة بمعاصريهِ ومعارفهِ ومخاطباته مع محبيهِ ونص المكتوب

الحمد لله

الى حضرة الهمام الفاضل . والعمدة الكامل . جامع شتات الفضائل . وناظم فرائد محاسن الشمائل . ومنبع المعارف . ومجمع اللطائف . وقطب فلك السياسة ومركز دائرة ارباب الرئاسة . جناب الاعز الاكرم . مولانا الشيخ سيدي محمَّد بيرم . ادام الله عزهُ واقبالهُ . وانالهُ مناهُ وآمالهُ . آمين

بعد اهداء تحيّات اطيب نفحا من روض الازهار . وألطف من نسيم الاسحار . فقد وصل كتابكم الكريم . المشتمل على الدر النظيم . الحري بالتبجيل والتعظيم . وقرت بهِ اعيننا سرورًا . وامتلأت بهِ قلوبنا بهجة وحبورًا . وما اعلنتموهُ من الفرح والجذل . بحصول نشاط محبكم من عارض المرض الذي حصل . فهو من علامات تمام الوداد . وخلوص محبتكم الاصيلة وكمال الاعتقاد . ولكم عندنا من ذلك الحظ الاوفر . والقسط الاكبر . وما عطفتم بهِ على ذلك من الذكر الجميل . والثناء والتبجيل . على المحب فهو من انطباع كمالاتكم الظاهرة . التي تجلت في مرآت ذاتي واصبحت في عالم الشهادة لكم ظاهرة . كما هو مصداق قولهِ صلى الله عليهِ وسلم المؤمن مرآة اخيهِ كما يشهد بذلك ذوق كل صديق وموقن وعلى كل فنحن معترفون بالقصور . ونسأل الله سبحانهُ وتعالى التوفيق في جميع الامور . وان يجعلنا ببركة دعاكم مظهرًا للخيرات . وواسطة لتوالي المبرات . وان يجعل العاقبة للمتقين . وينجز وعدهُ بنزول نص النصر على اعلام جيوش المؤمنين . ونخص بالسلام كامل من بحضرتكم وجناب اخينا الشيخ سيدي حمزه مسلم عليكم . وكذا كامل اولادنا مقبلين يديكم . وهذا ما لزم . ودام مجدكم والسلام

خادم الفقرا

١٣ شعبان سنة ١٢٩٤

محمَّد ظافر المدني

وقد تفرغ صاحب الترجمة في الاوقات الَّتي يتركها لهُ المرض لاتمام تأليف ابتداأهُ في استانبول سماهُ "تجريد السنان للرد على الخطيب رونان" وذلك ان العالم الفرنساوي المذكور وهو من مشاهير اهل بلادهِ تعرض في خطابة القاها بباريس تحت عنوان "الاسلام والعلم" الى ذكر الديانة الاسلاميَّة وانها تمنع العلوم من الانتشار بين ابنائها فأفسد صاحب الترجمة هذا الزعم برد مقنع اتى فيهِ على ذكر جميع العلوم والفنون الَّتي استنبطها المسلمون او نقحوها ولهُ رسالة في صورة سؤال حرَّرها في جواز شراء اوراق الديون الَّتي تصدرها الممالك الاسلاميَّة حَتَّى تبقى اموال المسلمين في بلادهم ولا يحجبهم عنها اشتباه الرباء الذي لا ينطبق في هذه الحالة عليها وكتب تقريرًا مسهبًا في شأن التعليم بمصر ذهب فيهِ الى لزوم انتشاره باللغة العربيَّة لسهولة تناوله وتعميمهِ بين العموم مستندًا في ذلك على عمل العرب في صدر الاسلام وعلى عمل الاروباويين انفسهم فانهم لا يعلّمون الاَّ بلغاتهم وقد نجحوا اما مصر فلما اتبعت طريقة التعليم باللسان الاجنبي لم تنتشر فيها العلوم والفنون مع طول الزمن الذي مضى من حين تأسيس المدارس فيها ولهُ ايضًا عدة كتابات على جملة احاديث نبويَّة شريفة وهي الَّتي كان يحتفل بختمها في تونس على حسب العادة الجارية هناك في المدرسة العنقيَّة الَّتي كان شيخًا عليها وفي سراي المرسى عند جناب الامير الحالي وسننشر جميع هذه الرسائل والمنشآت والقصائد وغيرها من التحارير العلميَّة والسياسيَّة الَّتي كتبها في مجموعة خاصة بحول الله تعالى ولم تتركهُ ايضًا في مصر دسائس بعض الفرنسيس وتهمهم الباطلة فمن ذلك ان جريدة لاانترن

(المصباح) الباريسيةَّ نشرت خبرًا عن مكاتبها في القاهرة في شهر أُغسطس سنة ١٨٨٩ مفادهُ ان الشيخ بيرم سافر متوجهًا الى الشيخ السنوسي للاتفاق معهُ على اهاجة نار الفتنة في السودان بواسطة المهدي والقصد من ذلك كلهِ معاكسة فرنسا وصادف نشر هذا الخبر خروج صاحب الترجمة حقيقة من القاهرة ولكن لاستنشاق الهواء البارد على شاطئ البحر في جهة رأس البر بدمياط وقد تجول المرحوم في كثير من انحاء القطر المصري وكان يكتب اثناء تجولهِ في ذهبيةَّ بقيةَّ صفوة الاعتبار فاتم الجزء الرابع واول الخامس ولم يمهلهُ الاجل لاتمامهِ فانهُ كان يقصد التوسع في الكتابة عن بلاد النمسا وسويسره والمانيا ورومانيا والبلغار والصرب واليونان وهي البلاد الَّتي شاهدها ولكن ما كتبهُ اجمالاً عنها في الجزء الاول يمكن ان يغني القارئ عن التفصيل والاسهاب وكان ينوي كتابة خاتمة صفوة الاعتبار على نمط مقدمتي تاريخ ابن خلدون واقوم المسالك فلم تمكنهُ صحتهُ ولا اجلهُ من اخراجها من حيز الفكر الى قوة العمل ونحن نورد هنا بعض تعليقات كتبها ليوسع البحث فيها في هذا الموضوع عسى ان يقيض الله من يمشي على نمطها اذ المقصود هو نفع ملتنا وايقاظنا من غفلتنا وكفى بماجرى للامة في القرنين الماضيين من التقهقر والتلاشي والانحلال واعظًا في ديوان العبر واهم باب المبتدا والخبر لمن يروم الاستفادة بالماضي ليدفع بهِ غائلة المستقبل اما تعليقاتهُ فهي فيما ينبغي لنا اتخاذهُ وتدبير نفوسنا عليهِ وفيهِ فصول الاول في زيادة نشر العلم الثاني في كيفيةَّ الحكم وانهُ ينبغي اتخاذ قول واحد من المذهبين (اي في تونس حيث الاحكام جارية بمقتضى المذهبين الحنفي والمالكي). الثالث في كيفيةَّ ادارة

السياسة وما هو عمل الملك وما هو عمل كل وزير وما هو عمل مجلس النواب الذي حقهُ ان يتخذ من الاهالي وان لا تعطى الكلفة دفعة واحدة بل على قدر استطاعة الاهالي وقابليتهم وان ذلك يأْتي في المسلمين من الملك وهو المربي لرعيتهِ والسبب في عدم اعطاء الحريَّة التامة في فرنسا كما هو جار في انكلترا ثم تعامل الدول مع دول الاسلام على خلاف التصرف في داخليتهم لضعفنا وعدم انصافهم فعلينا بالوسائل وحكم تذاكر البنوك شرعاً وليس هو من قبيل السفتجة . وعلاقة الدول والاحكام وفوائد الصحف وفوائد سكك الحديد والبريد والتكلم عليهِ وعدم تأْخير المقصد في الكلام عند الزيارة لاثنين معاً . والنهي عن الغيبة بين الاخوان . اجتهاد اليهود في المال بكل بلاد واغلب الصناعات بأَيديهم وعدم تعاطيهم الصنائع المجهدة . الطرق الموجبة للنفرة بالتفاضل . ابلاغ الشريعة الى الكفار واجب ولو بدون حرب . اجتهاد الاجانب في العمل حتى وصلّوا بين شاطىء اميركا والبحرين الاحمر والابيض وخرق المنسني والخرق تحت المنش . اسباب عدم استواء الدول الاجانب في التظلم ببلاد الاسلام على حسب مقاصدهم وقوتهم فامريكا مثلاً وان كانت رعيتها عند الترك قدر رعيَّة الانكليز فلا تجد منهم تظلماً ولا اقامة حجة مستمرة من سفيرهم . الوجوب على الحكومة والعلماء فيمن يتوجه الى الحج بتعليمهِ ما يجب عليهِ قبل السفر والاَّ فيمنع

وفي ١٢ جمادي الاولى سنة ١٣٠٦ (١٤ يناير سنة ١٨٨٩) عين صاحب الترجمة قاضياً في محكمة مصر الابتدائيَّة الاهليَّة في مدة وزارة رياض باشا الثانية وكان في وزارة نوبار باشا كُلف المرحوم بكتابة ما يراهُ

عن القوانين المعمول بها في المحاكم الاهليّة من حيث مطابقتها للشريعة الغراء او القوانين الجارية في الدولة العثمانيّة الشامل لها كتاب المجلة والدستور فرام اولاً التوسع في الموضوع بتقسيم القوانين المصريَّة باباً باباً ومقارنتها بالمجلة او الدستور واذا لم يجد نصاً مطابقاً لها فيهما فيطبقها بقدر الامكان على قول احد المجتهدين بدون تقيد بمذهب مخصوص غير ان عملاً مثل هذا يلزمهُ طول الوقت وكثرة العمال والزمن غير قاض بذلك فالتزم ان يصرف النظر عن هذا العمل وكتب عن القوانين ما نصهُ

"القوانين الاصول الّتي عليها مدار الحقوق في الحكومة المصريّة هي القانون المدني وقانون التجارة البري وقانون التجارة البحري وقانون العقوبات وهاتهِ القوانين الاربعة نظر مطابقتها للقوانين العثمانيّة اوللشريعة المطهرة على التفصيل الآتي

فاما قانون العقوبات وقانون التجارة البريّة والبحريّة فجميع ما يوجد من موادها في القوانين العثمانيّة المماثلة لها هو مطابق مطابقة كاملة وهو ايضاً الاكثر من مواد القوانين المصريّة لكن القليل جدًّا من مواد هاتهِ القوانين لا يوجد اصلاً في مثلها من القوانين العثمانيّة . واما القانون المدني المصري فهو مخالف للمجلة العثمانيّة الّتي هي قائمة مقامهُ مخالفة كثيرة كليّة غير ان القانون المدني المصري مع ذلك اكثرهُ مطابق للشريعة المطهرة على الاطلاق من غير نظر الى خصوص مذهب معين بل بالنظر الى اقوال الائمة المعمول باقوالهم في الديانة والقليل من هذا القانون المدني مخالف ايضاً لجميع تلك الاقوال غير ان تحويره بما يرجع بهِ الى مطابقة احدها مما يقتضيهِ الحال امر سهل يسير بفطنة حذاق اهل الخبرة والعلم "

وكذلك كلفهُ الباشا المشار اليهِ تقديم تقرير بما يراه لاصلاح حال الاوقاف وقد فعل وكان موجهاً همتهُ في مدة توظفه بالمحاكم للسعي وراء تطبيق قوانينها على الشريعة الغراء ولماقدم ولي عهد الانكليز الى مصر كان صاحب الترجمة من الافراد القليلين الذين اجتمعوا بهِ وفي تلك السنة انهى رياض باشا ترميم منزله بالحلمية فهنأهُ المرحوم بهذه الابيات

ان الوزير المصطفى في عصرهِ لا زال عوناً للمليك بازرهِ
ابدى من التدبير في الاصلاح ما قد حقق المعهود منهُ بقطرهِ
فلقد اتى في قصره ما يبتغي حسناً بهِ ومتانةً مع وفرهِ
والقطر قصر واسع الارجاء قد ابدى له انموذجاً من قصرهِ
وكلاهما مستأهل بعياله وادارة باصابة من فكرهِ
فكما نشاهد في الصغير اجادة فكذا الكبير نراهُ صار بامرهِ
اذ اتقن التحسين حتى ارَّخوا قصر رياض فيهِ جنة مصرهِ

(سنة ١٨٨٩)

وقد عُين عضواً في اللجنة الَّتي تشكلت للنظر في تعميم المحاكم الاهليَّة بالوجه القبلي وعضد هذا التعميم وكذلك انتُخب عضواً في لجنة تشكلت في المحكمة بناءً على طلب نظارة الحقانيَّة لتقديم تقرير للنظارة بكل ما يرى لزوم تعديله في القوانين على حسب ما يلائم حالة البلاد وعُين عضواً في لجنة بنظارة الداخليَّة لمراجعة الاحكام الصادرة من قومسيونات الاشقياء وانبنى على عمل هذه اللجنة الافراج عن عدد عظيم من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في طره وكان امضاؤه على تقرير هذه اللجنة آخر اعماله

الرسمية فتوجه الى مدينة حلوان لتغيير الهواء وهناك اشتدّ عليهِ المرض وبلغ بهِ الضعف غاية المنتهى وظهر في جهة جنبهِ الايسر خرّاجان بسبب الحقن بالمرفين اعقبهما بعد فتح الطبيب لهما تكوُّن المادة في الرئة وبعد ان لازم الفراش بالمرض المعروف بذات الجنب نحو الخمسة والعشرين يوماً فارق الحياة وذلك في الساعة الخامسة ونصف بعد ظهر يوم الاربعاء ٢٥ ربيع الثاني سنة ١٣٠٧ (١٨ دسمبر سنة ١٨٨٩) وقد خلف ثلاثة بنين رزق بهم من بنت عمه التّي تزوّج بها في ١٤ ربيع الثاني سنة ١٢٧٧ وكان قبل ملازمته للفراش محتفلاً بالمولد النبوي الشريف هناك بحضر بعض الاصحاب وقد دخل الى الحرم من تلك الحفلة ولم يخرج حيًّا وفي مدة مرضهِ ورد عليهِ مكتوب من صديقهِ رياض باشا ونصهُ

" جناب الاستاذ

من صميم الفؤَاد قد تكدرت من خبر ما طرأ على جنابكم من انحراف المزاج الذي لم اعلم بهِ الاَّ من منذ كم يوم وادعو المولى سبحانهُ وتعالى ان يمنّ عليكم بالشفاء وكمال الصحة والعافية ونراكم معنا عن قريب وعلى اي حال اترجاكم ان لا تؤَاخذوني والعذر عند كرام الناس مقبول

في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٠٧ محبكم المخلص

﴿ رياض ﴾

وقد حضر دولة الباشا المشار اليهِ الى حلوان وقصد عيادتهُ وارسل اليهِ نجله وكذلك كان المرحوم توفيق باشا كثير السؤَال عنهُ يوميًّا بواسطة طبيبهِ عيسى باشا حمدي ولما توفي اظهر لابنائهِ جميل التلطف تغمدهُ الله

برحمته وقد شيع رياض باشا جنازة صاحب الترجمة صبيحة يوم الجمعة وكانت مودَّتهما صافية خالصة ودفنهُ في التربة المخصوصة الَّتي شيدها بقرب ضريح الامام الشافعي رضي الله عنهُ وقد كُتب على قبرهِ هذه الابيات وهي من انشاء الشاعر البليغ حفني بك ناصف

يا قبر اضنانا البكاء وتبسمُ ادريت ان الفضل فيك مخيمُ
أعلمتَ انك قد حويت محمَّدًا وتركت اكباد الورى تتضرَّمُ
هذا الذي كانت بدائع فكرهِ تملي البيان على اليراع فينظمُ
من عترة ثوت العلوم بدارهم فهم لطلاب الهداية انجمُ
اولاهُ مولاهُ مواهب فضلهِ والله يعطي من يشاء ويرحمُ
واقام في دار النعيم فأرخوا في جنة الفردوس أُسكن بيرمُ

سنة ١٣٠٧

وقد رثاهُ جملة من احبابهِ وكتبت الجرائد تنعيهِ ولنقتصر منها على ما قالتهُ "الوقائع المصريَّة" جريدة الحكومة المصريَّة الرسميَّة الصادرة في ٢١ دسمبر سنة ١٨٨٩ نمرة ١٤٥ "انا لله وانا اليهِ راجعون . في آخر ليلة الخميس الماضي انتقل من هذه الدار الفانية الى الدار الآخرة الباقية المرحوم الشيخ محمَّد بيرم احد قضاة المحكمة الابتدائيَّة الاهليَّة بمصر وصاحب جريدة الاعلام العربيَّة وكانت وفاتهُ رحمهُ الله بمدينة حلوان عقب اشتداد الداء العصبي الذي مني بهِ من عدة سنين ولم ينجع فيهِ علاج الاطباء

وفي صباح يوم الجمعة الماضي احتفل بنقل جسدهِ من حلوان احتفالاً يليق بمقامهِ وفضلهِ وانتظرهُ على محطة ميدان محمَّد علي العدد العديد من

رجال الحكومة السنيَّة واكابرها وفي مقدمتهم صاحب الدولة رياض باشا رئيس مجلس النظار وناظر الداخليَّة والماليَّة وكثير من العلماء وقضاة المحاكم الاهليَّة ومشاهير المحامين وذوي الفضل من الوجوه والاعيان . ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام ما كان من صاحب الدولة رياض باشا من العناية بأمر المرحوم والاهتمام بشأنهِ والمساعدة في اكرام تشييع جنازتهِ ودفنهِ وتعزية اولادهِ وتشجيعهم على تحمل المصاب الى غير ذلك من الاحتفال والاكرام ولما وصلت الجنازة الى المحطة شيعت في مشهد حافل مشى فيهِ دولة رئيس النظار ومن تقدم ذكرهم ومن حضروا من حلوان بغاية السكون والوقار وكان في مقدمة المشهد الذاكرون ومرتلو البردة وغيرها من الاحزاب والاوراد ثم المشيعون للجنازة فحملة السرير وكلهم آسفون لفراق هذا الرجل العظيم الشان وقد دفن رحمهُ الله في المدفن الذي بناهُ صاحب الدولة رياض باشا بقرافة الامام الشافعي عليهِ الرضوان وفرّقت الصدقات على الفقراء والمساكين ودعا الناس للمرحوم بالرحمة والغفران

اما الرجل رحمهُ الله فكان عالمًا فاضلاً فقيهًا كاملاً متضلعاً من العلوم الشرعيَّة بأنواعها مطلعاً على احوال الامم ولهُ الباع الطولى في فنون التاريخ القديم والحديث وكان من ذوي الاقلام البليغة فيما يريد كتابتهُ من المواضيع وقد ألف رسائل كثيرة في الاحاديث والاصول والاحكام الشرعيَّة والجغرافيا التاريخيَّة والسياسيَّة وغيرها وكلها تدل على غزارة مادتهِ وسعة تفننهِ في المعارف والعلوم وكان كثير الاستشهاد بأحوال الامم الغابرة والحاضرة في كتاباتهِ واقوالهِ ولهُ قوة حاضرة في اقامة الدليل والبرهان كما يشهد بذلك

المقامات الافتتاحيّة الّتي كان ينشرها في جريدة الاعلام رحمهُ الله رحمة واسعة وافرغ على آلهِ وذويهِ جميل الصبر . وعزاهم على مصابهم فيهِ اكمل العزاء واثابهم على الصبر عظيم الاجر آمين "

وهذا ما قالتهُ جريدة الحاضرة الصادرة بتونس في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٩ عدد ٧٤ " صباح يوم الخميس الفارط نشرت اخبار التلغراف من حلوان مصر القاهرة خبر وفاة العلامة النحرير صاحب الصيت الشهير المؤلف الشيخ السيد محمَّد بيرم وبما انهُ من مفاخر البلاد التونسيَّة تقوم الحاضرة بواجب رثائهِ وهي ادرى من غيرها بفضائل رجالها فقد ولد هذا العالم في بيت العلم البيرمي سنة ست وخمسين ومائتين والف وتربى في مهاد العلم والتعليم وقرأ على ابن عمهِ الشيخ احمد بيرم وعلى عم جدهِ الشيخ مصطفى بيرم وعَلَى شيخ الاسلام الشيخ محمَّد معاوية وقرأ على الشيخ الطاهر بن عاشور والشيخ الشاذلي بن صالح والشيخ محمَّد الشاهد والشيخ علي العفيف وغيرهم من فحول جامع الزيتونة الى ان حصل على مرتبة عالية وتقدم لخطتي التدريس وقرأ كتبًا مهمة بجامع الزيتونة وولي مشيخة المدرسة العنقيَّة بعد وفاة عمهِ شيخ الاسلام الرابع وختم بها الاختام المهمة وكان يعيدها كل سنة في بيت الحضرة العليَّة وكان عالمًا فاضلاً عالي الهمة عزيز النفس رفيع الحسب منشئًا فصيح اللسان جميل المحاضرة صاحب اناة ووقار خبيرًا بالسياسات الشرعيَّة والوقتيَّة حسن التدبير واسع الادارة امتنع من قبول الخطط الشرعيَّة عدة مرار متعللاً بضعف بدنهِ وكان عضوًا في عموم الجمعيَّات الَّتي انعقدت لوضع التراتيب العلميَّة والتنظيميَّة اول الوزارة

الخيريَّة وهو الذي قام برئاسة جمعيَّة الاوقاف عند تأسيسها فأَسس اصولها بعد ان جمع شملها بما يقتضيهِ العلم والانصاف وولي نظارة المطبعة الرسميَّة واعترتهُ امراض عصبيَّة بمعدتهِ سافر بسببها عدة مرار لباريز وايطاليا وحنكتهُ الاسفار بما يزيدهُ في الاعتبار وباشارتهِ كان انشاء المستشفى الصادقي وباشر اقامتهُ على النمط الذي رآهُ بباريز ومن قلمهِ كان انشاء قانونهِ وشكرهُ الامير يوم فتحهِ في الموكب العمومي وولي عضوًا في مجلس الدولة الشوري على عهد وزارة ابن اسمعيل واشتد مرضهُ والحَّ في طلب الاعفاء ولم تسعفهُ الدولة بذلك وخرج لبيت الله الحرام اواخر سنة ست وتسعين ومائتين وأَلف ورجع على طريق الشام ولما رأَت الدولة انحلال وظائفهِ احالتها لغيرهِ في الثامن والعشرين من محرم سنة ١٢٩٧ وتنقل من الشام الى دار الخلافة العثمانيَّة فنزل بمنزل التعظيم والتكريم وعرضت عليهِ نقابة الاشراف والفتوى بالشام فلم يقبل لضعف بدنهِ ثم انضمَّ اليهِ ابناؤهُ وعائلتهُ واجرت عليهِ الدولة جراية سلطانيَّة وهنالك أَلف رحلتهُ صفوة الاعتبار بمستودع الاقطار والامصار واودعها من الاصول السياسيَّة والاصول العلميَّة ما يدل على كمال تضلعهِ وقوة عارضتهِ واقام بالاستانة الى ان شق عليهِ مرضهُ العصبي واشار عليهِ الاطباء بالتنقل الى البلاد الحارة فتنقل بأَهله وابنائهِ اول المحرم سنة اثنتين وثلاثمائة والف وتلقتهُ الديار المصريَّة بالرحب والقبول وانزلهُ الجناب الخديوي منزلة التكريم واجرى عليهِ جراية تليق بأَمثالهِ وفتح بها مطبعتهُ الاعلاميَّة وافادت صحيفة "الاعلام" في سائر الجهات العربيَّة الى ان ولي حاكمًا بالمحكمة الاهليَّة وفي اثناء هاتهِ الاسفار كان مجدًا في الاعتناء بكرام

ابنائهِ في المدارس الى ان وصلوا الى قدم الكفاءة للمهمات وترقى اولهم لخطة كاتب بمجلس النظار بالديار المصريَّة نسأَل الله ان يجعل منهم خلفاً محموداً وان يديم عليهِ في نعيم الجنان ظلاًّ ممدودا "

هذا وقد قيل ان قيمة المرء لا تقوم بمقدار مادحيهِ فقط بل بانضمام المنتقدين عليهِ ايضاً وعلى ذلك نقول انهُ من دون سائر الجرائد العربيَّة والافرنجيَّة قد انفردت احدى جرائد الاستانة العربيَّة بنشر ما يخالف امره عليهِ الصلاة والسلام " اذكروا موتاكم بخير "

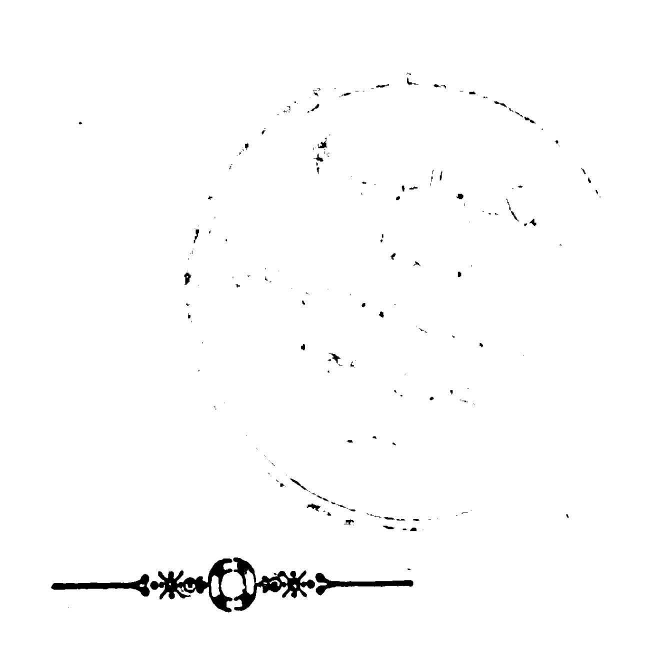
ولم يكن ذلك ليؤَثر على حسن صيته وشهرتهِ فقد قيل — كلام العدى ضرب من الهذيان — ومن تأَمل في تاريخ حياة المغفور لهُ علم انهُ كلما خفض الاعداء والحساد من شأْنهِ ذراعاً ارتفع ميلاً وكلما اشتدت بهِ ملمات الحوادث وكوارث الزمن زاد قدره اعتلاء فقد خرج المرحوم من دياره مغرباً مشرداً فما زالت بهِ همتهُ حتَّى بلغت بهِ الى شرف المقابلة بالحضرة الشاهانيَّة ونوال اقصى الرعاية السلطانيَّة وخسر امواله واملاكه فقام له فضله وعلمه بعدم الحاجة لاحد فعاش ميسوراً ومات ميسوراً واجتهد بعض ذوي التقصير في الحط من سيرتهِ والطعن في شهرتهِ فما زاده ذلك الاَّ اعتلاء في الصيت واحتراماً في النفوس وتوقيراً في الصدور فقضى حياتهُ حميد السيرة وانتقل الى رحمة ربهِ طاهر السريرة وعلى كل حال فنسأَل الله ان يجازي الجميع خيراً ولا يريهم ضيراً هذا وقد كتبت ما كتبتهُ والله يعلم اني لم اقصد بهِ فخراً ولا حبًّا في الظهور وانما هي حقائق مثبوتة بمستنداتها القيتها تحت نظر القارئ ليرى في حياة هذا المؤَلف وما طرأ عليهِ من

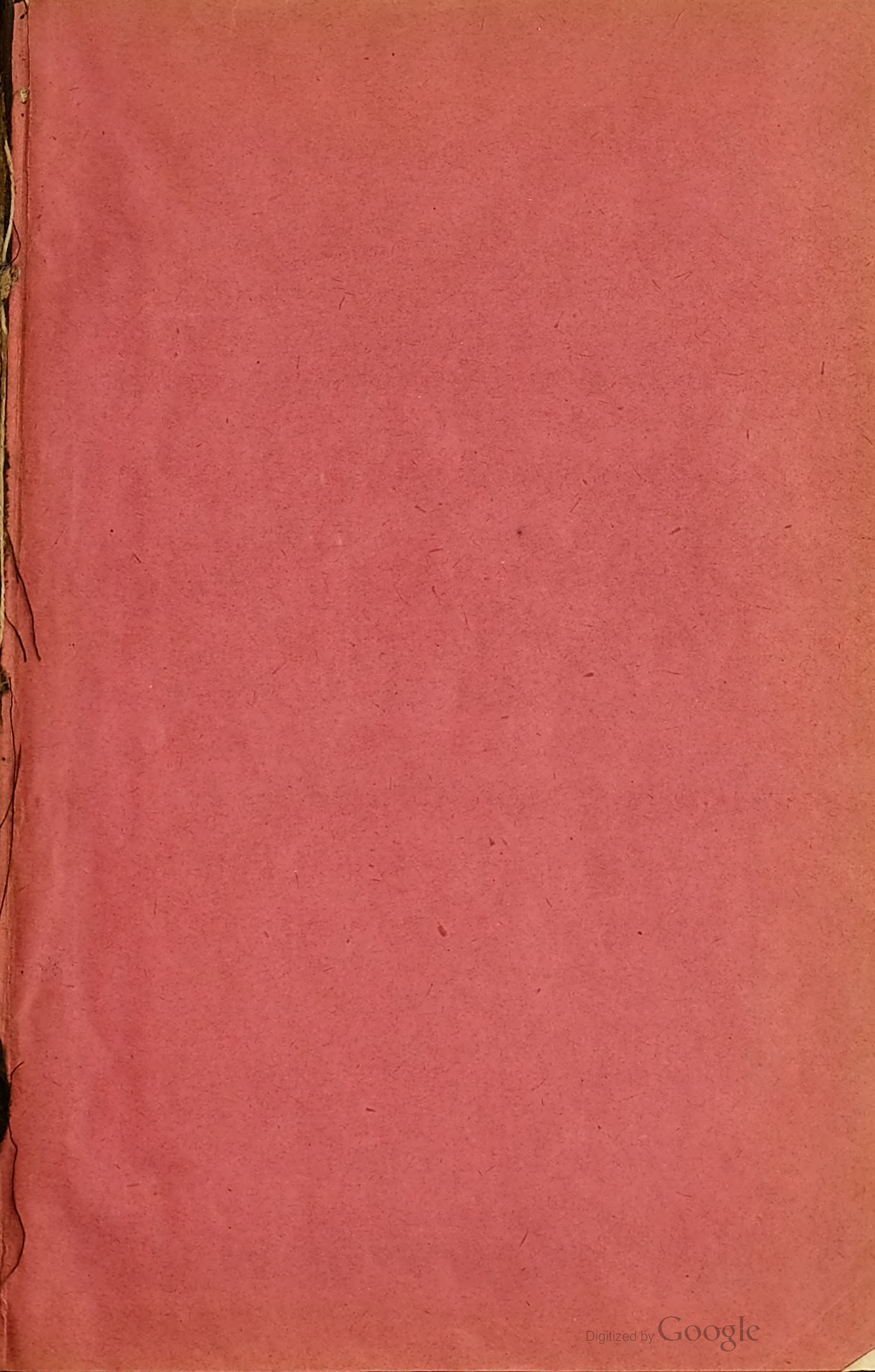
نعيم وبؤس العبرة الَّتي يتوخاها وقياماً بحقوق الابوة والتربية واجابة لما كان كلفني بهِ عند قدومهِ الى مصر ولكوني اعلم الناس بأَحوالهِ رحمهُ الله رحمة الابرار

وكلما تذكرت على قبره محاسن افعاله في حياتهِ العموميَّة وجميل اخلاقه وشهامة نفسهِ في حياتهِ الخصوصيَّة اكاد انشد بيت المعرّي مخاطباً لقبر ابيهِ

لَأُطْبِقَتَ اطباق المحارة فاحتفظ	بلوءُلوءَة المجد الحقيقة بالحزن

٩ ذي الحجة سنة ١٣١١ ☀ محمَّد بيرم ☀






WIDENER
HN CTUD